سلسلة الدراسات التاريخية (45)

لوحة تاريخية

حول أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصرين الحديث والمعاصر

قضايا وإشكالات

إشراف وتنسيق وتقديم

أ. د. عادل بن محمد جاهل

الطبعة الأولى
2025م

سلسلة الدراسات التاريخية (45)

لوحة تاريخية

حول أفريقيا جنوب الصحراء
خلال العصرين الحديث والمعاصر

قضايا وإشكالات

أعمال مهداة للأستاذ الدكتور نور الدين بلحداد

إشراف وتنسيق وتقديم

أ. د. عادل بن محمد جاهل

رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة

الطبعة الأولى

2025م

لوحة تاريخية

حول أفريقيا جنوب الصحراء
خلال العصرين الحديث والمعاصر

قضايا وإشكالات

إشراف وتنسيق وتقديم

أ. د. عادل بن محمد جاهل

الإيداع القانوني

......./2025م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 121566207 - 00249122094856
البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:
الطبعة الأولى – 2025م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء خاص

تأتي هذه اللوحة التاريخية التي نقدمها اليوم بعنوان: "أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصرين الحديث والمعاصر: قضايا وإشكالات" لتُضيء جوانب متعددة من تاريخ هذه الرقعة الواسعة من القارة السمراء، وتفتح أبوابًا للتفكير والنقاش حول قضاياها الكبرى وإشكالاتها المركبة، في سياق زمني يمتد من تشكل الملامح الأولى للوجود الاستعماري إلى لحظات الاستقلال والتحرر، ثم التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ظل الدولة الوطنية الحديثة. ويُمثل هذا العمل الجماعي حصيلة جهود ثلة من الباحثين والمؤرخين الذين التقوا حول رؤية علمية موحدة، وانطلقوا من مناهج متعددة، وموضوعات متكاملة، بغرض الإسهام في تعميق الفهم بتاريخ أفريقيا جنوب الصحراء من زوايا متعددة؛ سواء تعلق الأمر بالعلاقات الدولية، أو أشكال المقاومة، أو التحولات الفكرية والدينية، أو المعضلات الاقتصادية والاجتماعية التي ميزت المسارات التاريخية للشعوب الأفريقية. وقد جاء هذا العمل بمثابة عربون وفاء وتقدير علمي إلى الأستاذ الدكتور نور الدين بلحداد، الذي ظل طوال مسيرته العلمية نموذجًا في الجدية والانضباط الأكاديمي، والعطاء الفكري الرصين، والمرافعة الدائمة عن أهمية التوثيق والتحليل التاريخي كأداة لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. لقد ترك الأستاذ بلحداد بصمة مميزة في حقل الدراسات الصحراوية والأفريقية من خلال أبحاثه ومؤلفاته وإشرافه على أجيال من الباحثين المهتمين بالدراسات الصحراوية والأفريقية. وإذ نهدي هذا العمل إلى أستاذنا الجليل، فإننا نأمل أن يُشكّل إضافة نوعية في حقل الدراسات الصحراوية والأفريقية، ومصدر إلهام للمهتمين والباحثين لمواصلة البحث والتأمل في قضايا القارة وتاريخها الزاخر والمليء بالدروس والعبر.

المؤلف

كلمة شكر وعرفان

نتقدّم بخالص عبارات الامتنان وجميل الثناء إلى الأساتذة الباحثين الذين أضاءوا هذا العمل الجماعي بأنوار علمهم، وسكبوا فيه من خبراتهم ما أغناه مضمونًا وشكلاً. لقد كانوا بحق شركاء في البناء، يحملون همّ المعرفة، ويشدّون أزر المشروع في كل مراحله، رغم ضيق الوقت وثقل الالتزامات. كما نتوجه بوافر التقدير وعظيم الامتنان إلى اللجنة العلمية التي سهرت على مراجعة هذا العمل وتقويمه؛ فكانت العين الساهرة والعقل الراجح، حريصة على الدقة والموضوعية، حتى خرج هذا الجهد إلى الوجود في صورة تليق به. ولا يسعنا إلا أن نخص بالشكر مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر في السودان الشقيق، ودار آريثيريا للنشر والتوزيع الرائدة، على ما بذلاه من دعم واحتضان لهذا المشروع العلمي، حتى غدا واقعًا ملموسًا بين أيدي الباحثين والمهتمين. ونرجو أن يكون هذا العمل لبنة مضيئة في صرح المعرفة، وأن يجد فيه القارئ الكريم ما ينفعه ويثري مداركه، والله وليّ التوفيق.

المؤلف

أعضاء اللجنة العلمية للكتاب

(بالترتيب الأبجدي للاسم الشخصي)

د. أحمد إيشرخان	جامعة سيدي محمد بن عبد الله، الكلية متعددةالتخصصات، تازة، المملكة المغربية.
د. إبراهيم أزوغ	جامعة الحسن الأول، كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية، سطات، المملكة المغربية.
د. بشار أكرم جميل الملاح	جامعة الموصل، كلية الآداب، جمهورية العراق.
د. بوشعيب الساوري	جامعة الحسن الأول، كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية، سطات، المملكة المغربية.
أ.د. حاتم الصديق محمد أحمد	نائب رئيس إتحاد المؤرخين الأفارقة ، جامعة الزعيم الأزهري ومدير مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر بجمهورية السودان.
د. الحنافي روصافي	اتحاد المؤرخين الأفارقة، أݣادير، المملكة المغربية.
د. خاليد أوشن	اتحاد المؤرخين الأفارقة، أݣادير، المملكة المغربية.
د. سلام جبار منشد الأعاجيبي	جامعة المثنى، كلية التربية، قسم التاريخ، جمهورية العراق.

د. عادل بن محمد جاهل	رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة، أڭادير، المملكة المغربية.
د. عبد الله عيسى	جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حلب، الجمهورية العربية السورية.
د. عادل النفاتي	جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجمهورية التونسية.
دة. فاطمة محمد محمود عبد الوهاب	جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجمهورية الإسلامية الموريتانية.
د. محمدو أميّن	جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجمهورية الإسلامية الموريتانية.
د. محمد الناصر صديقي	جامعة جندوبة، المعهد العالي للعلوم الإنسانية، جندوبة، الجمهورية التونسية.
د. محمد أحمد الكامل	جامعة صنعاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجمهورية اليمنية.
د. المهدي محيي الدين	المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء خاص	5
كلمة شكر وعرفان	7
أعضاء اللجنة العلمية للكتاب	9
تقديم بقلم الأستاذ الدكتور عادل بن محمد جاهل: رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة	17
الفصل الأول **أفريقيا: أزمات وتحولات عبر التاريخ**	
الكوارث الطبيعية وانعكاساتها على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين د. عبد الله عيسى (الجمهورية العربية السورية)	23
المجاعات والأوبئة في السودان النيجري من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر: الأسباب المحلية والتأثيرات الخارجية إعداد د. ميشال تيموفسكي (الجمهورية البولندية)، تعريب: د. خاليد أوشن (المملكة المغربية)	33
المجاعات والأوبئة في ولاتة وتيشيت في القرن التاسع عشر إعداد: د. ميشال تيموسكي (الجمهورية البولندية)، ترجمة: د. بوشعيب الساوري (المملكة المغربية)	63

الأمراض الشائعة لدى البيضان وطرق علاجها: شهادات المستكشفين الفرنسيين في القرن التاسع عشر د. محمدو أمّين (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)	85
الصيادلة العسكريون الفرنسيون في المغرب إعداد: د. جاك نوروا (الجمهورية الفرنسية)، تعريب: د. عادل النفاتي (الجمهورية التونسية)	99
المخرجات الاجتماعية والنفسية لواقع الحقوق والحريات في ظل جائحة كورونا د. حمزة البوحياوي (المملكة المغربية)	109
الفصل الثاني **الإرث الثقافي والفكري في أفريقيا: تفاعلات وتأثيرات**	
رمزية الثعبان لدى القبائل الوثنية في أفريقيا جنوب الصحراء د. بشار أكرم جميل الملاح (جمهورية العراق)	139
التراث اللامادي بالجنوب المغربي: الأمثال الحسّانية نموذجاً د. الحسين حديدي (المملكة المغربية)	151
الدراسات الاستشراقية في اللغة العربية واللغات المحلِّية الأفريقية (التيفيناغ التاركْية والزناكْية الموريتانية أنموذجاً) د. المهدي محيي الدين (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)	161
السرد الأدبي الإفريقي المكتوب بالعربية من خلال كتاب الشعر الإفريقي في الغرب الإسلامي د. إبراهيم أزوغ (المملكة المغربية)	185

المخطوط الإسلامي في التراث الأفريقي وإسهامه في خدمة العلوم الإنسانية: مراكز المخطوطات بالنيجر نموذجاً د. علي يعقوب (جمهورية النيجر)	193
الفصل الثالث **الرِّحْلات الحجية الأفريقية: مظاهر التواصل الروحي والثقافي بين بلاد السودان والمشرق**	
العلاقات المصرية الإفريقية في سياق رحلة السلطان منسَى موسى إلى الديار المقدسة عام 1324م د. عبد الله عيسى (الجمهورية العربية السورية)	209
رحلة السلطان أسكيا محمد إلى الحج عام 902هـ/1496م ودورها في تعزيز الروابط الحضارية بين السودان الغربي والعالم الإسلامي د. محمد أحمد الكامل (الجمهورية اليمنية)	217
حجية الصحراء: الرحلة إلى الذات: قراءة في مفردات الخطاب الرحلي بالصحراء دة. فاطمة محمد محمود عبد الوهاب (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)	231
الحج في أدب الرِّحْلات ومكانته في خريطة البحث العلمي د. علاء الدين محمد الهدوي فوتنزي (جمهورية الهند)	253
الفصل الرابع **أفريقيا: ثروات طبيعية وأزمات اقتصادية**	
عقبات طرق القوافل الصحراوية بين مصر وبلاد السودان الغربي منذ القرن 8-2هـ/14-8م دة. أماني قطب (جمهورية مصر العربية)	263

اقتصاد أفريقيا وديناامية التحول خلال القرن التاسع عشر الميلادي دة. بهيجة الشاذلي (المملكة المغربية) / د. فيصل المعروفي (المملكة المغربية)	291
البعدان الاقتصادي والاجتماعي في العلاقات المغربية-السنغالية د. الحنافي روصافي (المملكة المغربية)	313
الفلاحة في الصحراء المغربية زمن الوجود الإسپاني: دراسة في وثائق الأرشيف الإسپاني د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	337
الفصل الخامس **البرتغاليون في أفريقيا: تجارة، واستعمار، وصدام حضاري**	
البرتغاليون في المغرب إعداد: د. روبير ريكار (الجمهورية الفرنسية)، ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	369
الأنشطة التجارية البرتغالية في غرب أفريقيا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر: دراسة أولية د. عبد الله عيسى (الجمهورية العربية السورية)	375
البرتغاليون والصحراء الأطلنتية في القرن الخامس عشر إعداد: د. روبير ريكار (الجمهورية الفرنسية)، ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	383

نقل المدينة البرتغالية مازاڭان إلى البرازيل إعداد: د. روبير ريكار (الجمهورية الفرنسية)، ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	397
الفصل السادس **اليهود في المغرب وأفريقيا: تجارة، وترحال، وتأثيرات**	
ربِّي مغربي رحّالة: مردخاي أبي سرور إعداد: ذ. يومتوب دابيد سيماش (جمهورية بلغاريا)، ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	403
ملاحظات حول هجرة اليهود المغاربة إلى أمريكا الإسپانية والبرازيل إعداد: د. روبير ريكار (الجمهورية الفرنسية)، ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل (المملكة المغربية)	419
أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في الفكر اليهودي د. عبد الله عيسى (الجمهورية العربية السورية)	425

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور عادل بن محمد جاهل

رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة

في قلب الجغرافيا الإنسانية للعالم، تقف أفريقيا جنوب الصحراء كمساحة حضارية خصبة، مُثقلة بالتجارب، غنية بالتحولات، شاهدة على قرون من الصراع والمقاومة، الانبعاث والانكسار، الانفتاح والانغلاق، الثراء الطبيعي والبؤس الاقتصادي، الاستلاب الثقافي والوفاء للأصالة، مما يجعلها، بحق، من أكثر المناطق حاجة إلى استعادة تاريخها من بين ركام القراءات الخارجية التي شوّهت صورتها، وأفرغت عمقها من معانيه الحقيقية.

وإذا كانت شعوب هذه المنطقة قد دفعت أثمانًا باهظة نتيجة الغزو، والتبشير، والاستعمار، والاستعباد، والتهميش المعرفي، فإنها في الوقت عينه لم تتوقف عن إنتاج الذات، وعن مقاومة التنميط، والبحث عن موقعها المستحقّ في خرائط الجغرافيا والتاريخ معًا.

لقد ظلّت أفريقيا جنوب الصحراء في قلب التفاعلات التاريخية الكبرى خلال العصرين الحديث والمعاصر؛ فقد شكّلت مجالاً حيويًا لصراع القوى الاستعمارية الأوروبية، كما كانت حقلًا لتجريب نماذج الاستغلال الاقتصادي، والاختراق الديني، والهيمنة الثقافية. ومع ذلك، بقيت هذه القارة وفيةً لذاكرتها، محافظةً على تنوّعها العرقي، وثرائها اللغوي، وأصالتها الثقافية، ونظامها الروحي المتجذر في التاريخ.

ومن هذا المنطلق، يأتي هذا الكتاب الجماعي الموسوم بـ "لوحة تاريخية حول أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصرين الحديث والمعاصر: قضايا وإشكالات"، ليشكّل مساهمة علمية نوعية في إعادة رسم ملامح هذه المنطقة من الداخل، عبر مقاربات أكاديمية رصينة، وبحوثٍ معمّقة أنجزها نخبة من الباحثين والأساتذة المختصين، من مشارب معرفية وخلفيات علمية متنوعة. لقد انصبّ اهتمام المشاركين على مساءلة قضايا محورية، وإثارة إشكالات جوهرية، ومحاولة تفكيك عدد من البنى المفهومية والتاريخية التي حكمت مسار أفريقيا جنوب الصحراء منذ القرون الوسطى إلى الزمن الراهن.

ويتميّز هذا العمل الجماعي، ليس فقط بتنوّع موضوعاته واتساع أفقه الزمني والجغرافي؛ بل أيضًا بجودة المقاربات المعتمدة، التي راوحت بين التحليل التاريخي، والقراءة الثقافية، والتفكيك الأنثروپولوجي، والتوثيق الأرشيفي، والبحث الميداني، مما منحه قيمة علمية مضاعفة، وجعله مرآة صادقة لحركية المعرفة التاريخية حول القارة.

وجاء **الفصل الأول** بعنوان "أفريقيا: أزمات وتحولات عبر التاريخ"، ليعالج جملة من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية الكبرى التي عصفت بالمجتمعات الأفريقية، كالفيضانات، والمجاعات، والأوبئة، وما تركته من آثار عميقة في البنى السوسيو-اقتصادية والنفسية. وقد أضاءت الدراسات المقدمة في هذا الباب على مناطق مختلفة، من السودان الغربي والنيجري، إلى ولاتة وتيشيت، مرورًا بممارسات الطب التقليدي والحديث، وصولًا إلى مآلات الحريات والحقوق في زمن الأوبئة المعاصرة مثل جائحة كورونا.

أما **الفصل الثاني**؛ فقد تناول "الإرث الثقافي والفكري في أفريقيا: تفاعلات وتأثيرات"؛ فاستعرض تنوّع الرموز والدلالات في الثقافة الأفريقية، ووقف عند الموروث اللامادي، واللغات المحلّية، والمخطوطات، والتعبيرات الأدبية المكتوبة بالعربية، وهو ما يبرهن بجلاء على التعدد الثقافي الغني، وعلى الحضور القوي للثقافة الإسلامية والعربية في غرب القارة.

في حين خصّ **الفصل الثالث** بـ "الرِّحْلات الحجية الأفريقية"، والتي شكلت أحد أبرز قنوات التواصل الروحي والثقافي بين بلاد السودان الغربي والمشرق العربي؛ فتوقفت بحوث هذا المحور عند رِحْلات الحجاج الأفارقة، من السلطان أسكيا محمد إلى تجارب الرحلة في الصحراء، مبينةً أدوارها في بناء الجسور الحضارية وتعزيز الانتماء إلى الفضاء الإسلامي الأوسع.

أما **الفصل الرابع** الموسوم بـ "أفريقيا: ثروات طبيعية وأزمات اقتصادية"؛ فقد قدّم قراءة نقدية للتفاعلات الاقتصادية والتجارية التي عرفتها أفريقيا جنوب الصحراء، في ظلّ تحديات طبيعية وبشرية، منها ما يتعلق بطرق القوافل، ومنها ما يرتبط بتغيرات البنيات الاقتصادية خلال القرن الميلادي التاسع عشر، إضافة إلى دراسة الأرشيف الإسپاني لفهم واقع الفلاحة (زرعًا وضرعًا) في الصحراء المغربية زمن الاحتلال والاستغلال.

وقد ناقش **الفصل الخامس** الحضور البرتغالي في أفريقيا من زاوية مركبة، بعنوان "البرتغاليون في أفريقيا: تجارة، واستعمار، وصدام حضاري". وتتبّعت الدراسات المقدّمة في هذا الصدد تطور العلاقات البرتغالية مع المغرب والصحراء، وأنشطتهم التجارية في غرب أفريقيا، ونقل بعض المدن البرتغالية إلى الفضاء الأمريكي الجنوبي، وهو ما يعكس ترابط التاريخ الأفريقي مع تحولات العالم الأطلسي.

أما **الفصل السادس والأخير**، "اليهود في المغرب وأفريقيا"؛ فيتناول بالدراسة والتحليل حضور الجاليات اليهودية، ومساهماتها الفعالة في التجارة، وارتحالها بين الحواضر، وتأثيراتها في النسيج الاجتماعي والثقافي. ومن شخصية مردخاي أبي سرور الأقاوي المثيرة للجدل إلى موضوع الهجرة إلى أمريكا الجنوبية، ثم صورة أفريقيا في الفكر اليهودي، تتبدى أبعاد جديدة للوجود اليهودي، يتجاوز الطابع الديني نحو الفعل الثقافي والاقتصادي العابر للقارات.

إن القيمة العلمية لهذا الكتاب لا تتجلّى فقط في تنوّع محاوره، وثراء موضوعاته، وجرأة أطروحاته؛ بل أيضًا في قدرته على المساهمة في بناء سردية معرفية بديلة حول أفريقيا، تنبع من الداخل لا من الخارج، وتؤسّس لمسار بحثي جديد يُنصت إلى صوت القارة بلغتها وتاريخها وتجربتها الخاصة.

وختامًا، فإن هذا الكتاب/المرجع ليس مجرد تجميع لمقالات علمية منسّقة؛ بل هو لبنة من لبنات المشروع المعرفي الأفريقي الذي يتبنّاه اتحاد المؤرخين الأفارقة، والذي يهدف إلى إعادة كتابة التاريخ الأفريقي من داخل الذات الأفريقية، وبلغةٍ علمية أصيلة، وأفق إنساني منفتح. وإذ نقدّم هذا العمل إلى جمهور الباحثين والمهتمين والقراء، فإننا نأمل أن يكون خطوة إضافية في درب استعادة الوعي الجماعي الأفريقي، وترسيخ خطاب تاريخي بديل، قادر على مقاومة التهميش والاختزال، وعلى تثمين الإرث الحضاري العريق لقارتنا.

والله ولي التوفيق،

رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة

المملكة المغربية

الفصل الأول

أفريقيا
أزمات وتحولات عبر التاريخ

الكوارث الطبيعية وانعكاساتها
على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية
في بلاد السودان الغربي

«ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين»

د. عبد الله عيسى[1]

مقدمة:

كثـيراً مـا تعرَّضـت القـارة الأفريقيـة ـوخاصـة الأجـزاء الغربيـة منهـاـ إلى موجـات مـن الأوبئـة والأمـراض عـبر التاريـخ، تسـببت في تغيـير الخرائـط السياسـية للممالـك والبلـدان؛ فسـقطت أُمـم وظهـرت أخـرى، كمـا شـكلت في الوقـت نفسـه تهديـداً لحيـاة البـشر في تلـك المنطقـة؛ إذ كان تأثيرهـا أشـد وطـأة وصعوبـة. كمـا أنَ التدهـور الـذي شـهدته ممالـك أفريقيـا الغربيـة خـلال حِقَبهـا التاريخيـة المختلفـة، لا يتمحـور فقـط حـول التدهـور السـياسي فحسـب؛ وإنمـا يرجـع ـأيضـاًـ إلى عوامـل أخـرى، اجتماعيـة واقتصاديـة، كان للكـوارث الطبيعيـة مـن أوبئـة، وجفـاف، وفيضانـات، دور كبـير في تكريـس الأزمـات وتفاقمهـا؛ كتعطيـل الحركـة الاقتصاديـة، وبـث الفـوضى الاجتماعيـة، مـن نهـب وسـلب، وانخفـاض معـدل الإنتـاج، وارتفـاع نسـبة البطالـة... كل ذلـك أسـهم ـبشـكلٍ أو بآخـرـ في سـقوط هـذه الممالـك.

إذاً، يتعلـق موضـوع البحـث الـذي أتناولـه بالـدرس والتحليـل، بالإجابـة عـن الإشـكالية التاليـة: مـا هـي أهـم الكـوارث التـي تعرضـت لهـا منطقـة أفريقيـا الغربيـة خـلال القرنـين 11 و 16م؟ ومـا مـدى تأثيراتهـا عـلى المجتمـع؟

أولاً: أهم الكوارث التي تعرضت لها ممالك بلاد السودان:

وأنـا أبحـث في متـون وأمهـات المصـادر التاريخيـة، وكُلِّي أمـل بـأن أجـد مـا يشـفي غليـلي في هـذه المصـادر مـن معلومـات، تمكننـي مـن تنـاول موضوعنـا ومعالجتـه بالشـكل الـذي يريحنـي نفسـياً، إلا أننـي وقفـت مندهشـاً ورحـت أسـال نفـسي: لمـاذا صمتـت هـذه المصـادر عـن ذكـر مـا تعرضـت لـه منطقـة أفريقيـا الغربيـة

---

(1) باحث من سوريا، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حلب، الجمهورية العربية السورية.

مـن كـوارث مثـل الأوبئـة والجفـاف والفيضانـات، التـي كان لهـا بالـغ الأثـر في بـتر أوصـال التطـور الاقتصـادي، والاجتماعـي، وحتـى السـياسي لهـذه الممالـك؟

فـكل مـا تـم ذكـره حقيقـة مـن معلومـات، هـو عبـارة عـن إشـارات طفيفـة وخجولـة إن صـح التعبـير، لا تسـاعدنا في وضـع جـداول للأوبئـة والمجاعـات خـلال الحقبـة التـي تهمنـا؛ فتكتفـي بالإشـارة إلى وفـاة عالِـم أو صالـح، أو عنـد طلـب الاستسـقاء مـن الـولي أيـام القحـط والجفـاف، وأحيانـاً نجـد أنَ هـذه المصنفـات، قـد أهملـت حتـى ذكـر سـنة المجاعـة التـي وقعـت، في مقابـل اهتمامهـا بكرامـات هـذا الفقيـه أو ذاك، وأدواره الاجتماعيـة، دون ذكـر الانعكاسـات السـلبية لهـذه الجوائـح عـلى الفـرد والمجتمـع معـاً.

وكان أصحـاب تلـك المصـادر، ينظـرون إلى هـذه الكـوارث وتأثيراتهـا مـن ناحيـة دينيـة فقـط، وأنهـا عقـاب مـن اللـه، ونتيجـة حتميـة لفسـاد الأنظمـة الحاكمـة، وطغيانهـا.

فـوق هـذا وذاك، يمكننـا القـول إن المعلومـات الـواردة في بعـض ثنايـا المصـادر حـول سـنوات الجفـاف، ومـا يتبعهـا مـن مجاعـات ارتبطـت أكثـر بمراحـل التقلب المناخـي؛ أي أن المصـادر لـم تذكـر إلا بعـض الوقائـع التـي كان يشـتد فيهـا الجفاف، وأنَّ سـكوتها عـن أحـوال المنـاخ لحقـب طويلـة، لا يعنـي أن الوضـع المناخـي كان مسـتقراً.

واللافـت للانتبـاه، أنـه حتـى بالنسـبة للطاعـون الـذي تخـاف منـه الأمـم، والـذي ذهـب بأهـل الجيـل، وطـوى كثـيراً مـن محاسـن العمـران ومحاهـا، عـلى حـدِّ تعبـير العلاَّمـة ابـن خلـدون[1]، لا يتوفـر بشـأنه معطيـات إحصائيـة، وكل مـا هنالـك بعـض أسـماء العلمـاء والصالحـين، الذيـن هلكـوا مـن جرائـه.

إذاً، يمكننـا القـول إنَّ المعلومـات الـواردة لـدى أصحـاب مصادرنـا، هـي معلومـات جزئيـة، وغـير مضبوطـة، وغامضـة، لا تسـمح للباحـث بمعالجـة هـذه الإشـكالية بالشـكل المطلـوب، بـل تُعقِّـد مهمتـه، وتجعلهـا أكثـر صعوبـة. ومـن هنـا، نسـجل سـبب عـزوف كثـير مـن الباحثـين عـن تنـاول مثـل هـذا الموضـوع.

لـذا، سـنعمل قصـارى جهدنـا لتذليـل هـذه العقبـات، والتغلـب عليهـا، مـن خـلال اتباعنـا للمنهـج التحليـلي، الـذي سـيمكننا مـن تحليـل ومناقشـة الأفـكار والمعلومـات

(1) عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978، ص.42.

الـواردة في هـذه المصـادر، ومـن ثَـمَّ تركيبهـا ضمـن سلسـلة حلقـات متكاملـة ومترابطـة، نسـتطيع مـن خلالهـا رسـم الخطـوط العريضـة للإشـكالية المطروحـة.

1. الجفاف وفيضان نهر النيجر:

شـكَّلت المجـاري النهريـة عـبر العصـور التاريخيـة، جسـوراً متحركـة ربطـت في إطار الوحـدة السياسـية بـين مختلـف جهـات ممالـك أفريقيـا الغربيـة، مـن هـذا الجانـب أو ذاك، وعـبر النهـر جعـل أباطـرة هـذه الممالـك مـن اقتصـاد شـعبهم، اقتصـاداً متحـركاً منفتحـاً عـلى إنتـاج الممالـك المجـاورة، والبعيـدة، وضمنـوا لشـعبهم الوحـدة والأمـن والاسـتقرار[1].

ولكـن، ليـس مـن قبيـل الصدفـة أن تربـط الروايـات الشـفوية خـلاء إقليـم أوكار؛ حيـث ازدهـرت مملكـة غانـة زهـاء عـدة قـرون بمـوت الإلـه الثعبـان، ضامـن الخصـب والرخـاء لشـعوب السـوننكي، الذيـن يُعـدُّون مؤسـسي مملكـة غانـة. إن الهجـرات المكثفـة التـي شـهدها الإقليـم، والتـي اسـتمرت ـحسـب تصريـح البكـري ـ عـدة قـرون انطلاقـاً مـن القـرن الخامـس الهجـري (11م)، وكانـت مرتبطـة بظروف التصحـر التدريجـي الـذي شـهدته مناطـق التاجنـت، وأوكار، وغيرهمـا مـن الأقاليـم الصحراويـة التـي تتعـذر فيهـا الحيـاة حاليـاً.

وتخبرنا بعض المصادر التاريخية بأن هذه الأقاليم شهدت مُدناً مزدهرةً ومزارع ورعياً مكثَّفاً كمملكة غانة، التي عرفت ازدهاراً كبيراً؛ فكانت قبلة للتجار، وعاصمة للإمبراطورية السوننكية. ومن المسلَّم به، أن قيامها لم يكن مرتبطاً فقط بموقعها بالنسبة لطرق القوافل التجارية، ومناطق إنتاج الذهب والملح؛ وإنما أيضاً بوجود عنصر الماء، الذي هو أساس الحياة، انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْـمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[2].

يفيد البكري أن غانة كان يوجد حولها آبار عذبة منها يشربون، وعليها يزرعون الخضروات، وتحيط بها غابات من كل الجوانب[3]، وربما اختلف الشريف الإدريسي ومن أخذوا عنه كابن سعيد المغربي، عن صاحب (المسالك والممالك) في تحديد موقع غانة على ضفاف نهر النيجر، أو أحد فروعه.

---

(1) Djibril Tamsir Niane, **Soundjata ou l'épopée mandingue**, Éditions Présence Africaine, Paris, 1960, p.377.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(3) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، حققه وترجمه للفرنسية: دوسلان، ميزونوف، باريس، 1965، ص.175.

حقيقةً، لا يهمنا كثيراً هذه الاختلافات في تحديد موقع مملكة غانة، بقدر ما يهمنا التأكيد على أن هجرات شعوب مملكة غانة من مواقعهم الأصلية في أوكار نحو الجنوب والغرب، كانت مرتبطة بظاهرة التصحر، والجفاف التي تعرضت لها المنطقة، وما تحميل شعوب الصحراء من ملثمين وطوارق مسؤولية طرد الشعوب السوننكية، والشعوب ذات البشرة السوداء عامة من أقاليم الساحل، ما هي إلا ضرب من المجازفة؛ بدليل أن معظم المدن الأفريقية الساحلية مغمورة حالياً بالكثبان الرملية، وتنعدم بها الحياة لانعدام عنصر الماء، كما يتضمن كلام البكري حقيقة أخرى تقلص من حظوظ غانة، لكي تكون مدينة أزلية وعالمية، يقول صاحبنا الجغرافي في هذا الصدد: لا يكاد يسلم الداخِل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموت في غربائها عند موسم الحصاد[1].

ويتقلص تأثير الجفاف كلما اقتربنا من المناطق المحاذية أو القريبة من أماكن انصباب المجاري المائية، فتأثير الجفاف في مدن مالي، وغاو، وجني، وغيرها من المدن النهرية، لم يكن يؤدي حتماً إلى تهجير هذه المدن من ساكنتها، وإنما ينعكس على ظروفها المعاشية[2].

ويذكر البكري أنَ مملكة مالي ضربها جفاف خلال القرن 11م، ربما لم تعرفه من قبل، يقول البكري في هذا الصدد: «أجدبت عاماً بعد عام، وأفنى العباد، وأتى على الأخضر واليابس، دون أن تجديَ القرابين المقدَّمة إلى الآلهة نفعاً، وإبَّان ذلك تقدم الفقيه المسلم بعرض إلى الملك؛ يتضمن الدعوة إلى الإسلام مقابل تخليصه من الكارثة الطبيعية التي ضربت شعبه، فكان ما كان من إسلام الملك وذويه، وتحطيم الدكاكير (الأصنام)، وإجلاء السحرة من البلاد»[3].

كما أفادت بعض الروايات الشفوية أيضاً، حدوث هجرات لبعض عشائر مملكة مالي بسبب الجفاف الذي خربت بسببه العديد من المدن نحو الجنوب؛ أي صوب الفوتا ونهر السنغال، كونها مناطق آمنة، وأكثر إيفاء للعيش، وذلك في حِقَب تاريخية يصعب تحديدها، ولكن من المرجَّح أنها حدثت زمن حُكم الملك سوندياتا؛ أي النصف الثاني من القرن 12م.

---

(1) المصدر نفسه، ص.177.

(2) زوليخة بنرمضان، **المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 11 و16**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2015، ص.599.

(3) البكري، **المغرب...**، م.س.ذ.، ص.178.

ويمكننا القول: إنَ الآثار السلبية التي خلَّفها الجفاف على اقتصاد أقاليم الساحل الإفريقي، لم تكن تختلف من حيث النتائجُ عما كانت تحدثه فيضانات النيجر والسنغال وغامبيا وغيرها من الأودية المتفرعة مثل: السنكراني، والفالمي، وغيرهما على القرى والمزارع المجاورة.

ومن المرجح أن تكون مدينة كوكيا العاصمة الأولى لمملكة سنغاي مغمورة حالياً بمياه النيجر؛ لعجز الباحثين عن العثور على موقعها في المناطق اليابسة، وأن ذلك حدث بعد القرن العاشر الهجري (16م)؛ بدليل ورودها في المصادر البرتغالية، ولم تكن في الحقيقة المدينة الوحيدة التي غمرتها مياه نهر النيجر، بل ثمة جزر آهلة بالسكان، وقرى كبيرة كذلك[1].

وفي سنة 1001هـ/ 1592م غمرت مياه نهر النيجر مدينة تنبكت مخلفة دماراً كبيراً، تزامنت هذه الكارثة مع الاحتفالات بليلة المولد النبوي الشريف للسنة نفسها.

وفي هذه الحادثة يقول صاحب الفتاش: «ووافق مجيئه (القائد مامي) هنالك بليلة ذكرى المولد ثاني عشر من ربيع الأول من الحادي بعد الألف، هرب في هذه السنة أهل مدينة تنبكت، ودخل البحر، وحسب الناس أن الفناء يكون في غدها، وكم من رجال خرجوا منها في تلك الليلة وتركوا أموالهم وأولادهم وأزواجهم، وما حملوا من ديارهم حتى العصي، ومضوا وما رجعوا إليها بعد ذلك، واكتسب بعض سفهاء المدينة في تلك الليلة أموالاً طائلة، وترى رجلاً يدخل على قوم في ديارهم ويرفع منها ما يشاء ويخرج به، ورب المنزل وذووه ينظرون إليه ولا يقول له أحد منهم شيئاً»[2].

2. وباء الطاعون الأسود والجراد:

تطالعنا التواريخ السودانية أنَ مملكة سنغاي عرفت ما بين عامي (1535-1586م) سلسلة من الأوبئة الفتاكة، مخلِّفة وراءها كثيراً من الضحايا. ولكن في ظل غياب معطيات إحصائية يصعب علينا معرفة عدد الأفراد الذين ماتوا في هذا الوباء؛ غير أن صاحب (تاريخ الفتاش) يشير إلى أنه في حقبة حُكم الأسكيا محمد بنكن (1531-1537م) توفي الحاج أحمد بن عمر بن محمد

(1) بنرمضان، **المجتمع والدين...**، م.س.ذ.، ص.600.

(2) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار**، باريس، ميزونوف، 1981، ص.170.

أقيت، ليلة الجمعة غرة الربيع الآخر عام اثنين وأربعين وتسعمائة (سبتمبر 1535م) في الطاعون المُسمى (كف)، ومات في هذا الطاعون أناس كثر[1].

وتعدُّ حقبة حُكم أسكيا إسماعيل (1537–1539م) من أكثر الحقب تعرضاً للكوارث؛ فبالإضافة إلى الوباء المعروف باسم (كف) الذي استمر تأثيره إلى حدود هذه الحقبة الزمنية، عانت البلاد من القحط والجوع طوال مدة حكمه.

كما عُرفت أواخر حقبة حُكم الأسكيا إسحاق الأول (1539–1549م) الوباء نفسه، الذي أودى بحياة عدد من الفقهاء المشهورين، كالقاضي محمود بن عمر أقين (رمضان 1549م)[2].

وفي أواخر حكم الأسكيا داوود (1582–1588م)، وبداية حُكم ابنه وخليفته أسكيا الحاج (1582–1588م)، تعرضت مدينة تنبكت إلى وباء عظيم مات فيه عدد كبير من الناس[3]. والغالب على الظن أنَّ المقصود بهذا الوباء هو الطاعون.

استناداً إلى المعطيات سالفة الذكر، يبقى السؤال المطروح هنا: هل كان لهذه الأوبئة علاقة بالكوارث الأخرى التي تعرضت لها منطقة شمال أفريقيا وأوروبا، على الأقل بالنسبة للقرن العاشر الهجري (16م)؟

حقيقةً، لا نعرف على وجه الدِّقة علاقة هذه الأوبئة، التي كانت تضرب مناطق أفريقيا الغربية بين فينة وأخرى، بتلك التي تعرضت لها بعض بلدان شمال أفريقيا وأوروبا؛ فمن الصعب علينا _في ظل غياب المادة العلمية_ وضع تطابق زمني كلِّي، إلا أن التقارب التاريخي الموجود بين الأوبئة التي ضربت مناطق شمال أفريقيا، وخاصة منطقة المغرب الأقصى، وتلك التي تضررت منها ساكنة أفريقيا الغربية، التي في كل الأحوال لا تختلف في كونها أوبئة فتاكة ومعدية، يجعلنا نفترض أنَ تنقلات البضائع والمسافرين، من تجَّار وغيرهم عبر الصحراء، قد تكون عاملاً أساسيّاً في نقل وانتشار الأمراض، سواءٌ من هذا الجانب أم ذاك.

---

(1) المصدر نفسه، ص.93.

(2) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ترجمة من الفرنسية: أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، 1981، ص.92.

(3) John Spencer Trimingham, **A History of Islam in West Africa**, Oxford, 1962, p.93.

ثانياً: أثر الكوارث على الاقتصاد والمجتمع:

أسفرت الكوارث عن تفاقم وظهور كثير من المشاكل التي أدت في النهاية إلى زعزعة الأسس المادية للنشاط الفلاحي، وأعاقت تطور الزراعة والغراسة والرعي. ويأتي في مقدمة هذه العوائق، قلَّة اليد العاملة الزراعية، وما يتبع ذلك من نقص في المحاصيل الزراعية، بفعل هلاك العديد منها بهذه الجوائح.

ولم يكن الموت العامل الوحيد الذي أدى إلى نقصان اليد العاملة الزراعية، بل ساهم فيه كذلك تسليم بعض سكان المناطق المتضررة من الكوارث أنفسهم وذويهم للنصارى الموجودين في السواحل الغربية لأفريقيا مقابل الطعام، والبقاء على قيد الحياة.

وكما تضرر المزارعون من جراء القحط والمجاعات والطاعون؛ فإنَّ حظ الرعاة لم يكن بأحسن منهم؛ فإن القحط قد أدى إلى تقليص المجالات الرعوية، وموت كثير من رؤوس الماشية. وكانت موجات الجفاف تُزْكّي أيضاً النزاع بين القبائل الرعوية حول مجالات الرعي، لتوفير المراعي لقطعانها، على حساب القبائل الأخرى.

زبدة القول، إن الكوارث لم تسمح بحدوث طفرة زراعية؛ وإنما أسهمت بقسط لا بأس به في تقليص المساحات المزروعة، وما ترتب على ذلك من نقص الإنتاجية، وانتشار الرعي على حساب الزراعة والغراسة.

وإجمالاً، أسفرت هذه الكوارث في حدوث خلخلة في التوازنات الاقتصادية للمزارعين والرعاة، الذين لم يكن بوسعهم _أمام هذه المشاكل المتعددة والمتشابكة، وضعف أساليب مواجهتها_ سوى الهجرة عن الأرض، أو _على الأقل_ البحث عن وسائط حقيقية أو وهمية للحماية، كاللجوء إلى أولياء العصر لطلب المساعدة[1].

كانت هذه أبرز آثار الكوارث على المجال الزراعي؛ فما هي أهم تجليات القحط والأوبئة على الحِرَف والتجارة؟

إن الضرر الذي لحق بالنشاط الزراعي من جراء هذه الكوارث ترك بصماته السلبية على النشاطين الحِرَفي والتجاري بشكل عام؛ لأن البادية كانت هي

---

(1) عبد الله عيسى، **الإسلام وبدايات التدخل الأوروبي في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 15-17**، منشورات المكتب العربي للمعارف القاهرة، 2017، ص.138.

المـزود الأول للنشـاطين معـاً بالمـواد الأوليـة. كمـا انعكـس النشـاط التجـاري عـلى النشـاط الحـرفي؛ لأنـه كان يشـكل الرئـة التـي تتنفـس منهـا المنتجـات الحرفيـة.

لقـد أسـفر القحـط والمجاعـات والأوبئـة عـن مـوت العديـد مـن اليـد العاملـة، ولا غـرو أن الفقـر الـذي عـاش فيـه قسـم كبـير مـن أصحـاب الأيـدي العاملـة، سـاهم بشـكل كبـير في موتهـا؛ فقـد كانـت قدرتهـا ضعيفـة في مواجهـة هـذه الشـدائد، وإنَّ تأثُّـر الحِـرَف مـن جـراء المجاعـات والأوبئـة، لـم ينتـج عنـه وفـاة اليـد العاملـة الحرفيـة فقـط؛ بـل كذلـك فـرار كثـير مـن سـكان المـدن، وتغيـير وجهـات سـكناهم نحـو مناطـق أكثـر أمنـاً واسـتقراراً.

ومـن الانعكاسـات الاقتصاديـة الأخـرى لهـذه الكـوارث، ضعـف القـدرة الشرائيـة للسـكان خـلال الجوائـح؛ فـلا تـكاد تمـر مجاعـة أو وبـاء إلا وارتفعـت الأسـعار فأثَّـرت مِـن ثَـمَّ عـلى الاسـتقرار الاقتصـادي والاجتماعـي للفـرد. فيمكننـا القـول: إن الكـوارث كانـت تعرقـل جهـود الحِرفيـين والتجـار، وتخـرب الـشروط اللازمـة لتقـدم حِرَفهـم وتجارتهـم، والراجـح أن المشـاكل التـي أفرزتهـا هـذه الجوائـح أدت في نهايـة المطـاف إلى إفـلاس العديـد مـن التجـار، وخاصـة الصغـار منهـم، ويبـدو أن بعضهـم تحـوَّل إلى مجـرد وسـيط تجـاري، في حـين التحـق بعضهـم بصفـوف العاطلـين[1].

عـلى ضـوء التوضيحـات سـالفة الذكـر، يمكننـا القـول بـكل اطمئنـان: إن للكـوارث التـي اجتاحـت المنطقـة تأثـيراً سـلبياً كبـيراً وواضحـاً عـلى المجـال الاقتصـادي لا يمكـن لأي باحـث إنـكاره؛ فمـا تعطُّـل الأنشـطة المختلفـة للسـاكنة، إلا تأكيـدٌ لمـا نذهـب إليـه، وهـذا الانعـكاس سـيترك آثـاراً _بطبيعـة الحـال_ كبـيرة عـلى وجـود الدولـة؛ نتيجـة تـأزم الأوضـاع السياسـية فيهـا، وانعـدام الأمـن، وانتشـار اللصوصيـة، وكثـرة الظلـم، ويجعلهـا عُرضـة للطامعـين والمتربصـين بهـا، للانقضـاض والسـيطرة عليهـا في الوقـت والزمـان المناسـبين.

فوق هذا وذاك، أسهمت الكوارث بشكل أو بآخر في تكوين مجتمعات طبقية جديدة، تقوم على ثوابت أخرى غير الأسرة، خصوصاً في الحواضر؛ فأصبح مجتمع غرب أفريقيا _نتيجة لذلك_ منتظماً على شكل طبقات مغلقة، تشمل فئتي الأحرار والعبيد، وتقوم بالأساس على التقسيم الوظيفي؛ الذي أصبح يشكل مع مرور الوقت حدوداً عرقية تجعل الاختلاط الوظيفي بين العناصر المكوِّنة لهذه الطبقات المغلقة ضرباً من المستحيل.

---

(1) المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

الخاتمة:

في ختـــام هـــذه الدراســـة، يمكـــن القـــول إن للكـــوارث دور محـــوري في خلخلـــة النظامـــين الاقتصـــادي والاجتماعـــي لممالـــك أفريقيـــا الغربيـــة؛ فتدهـــورت أحـــوال النـــاس الاقتصاديـــة، وتفـــشَّى الفقـــر بـــين نســـبة كبـــيرة مـــن الســـاكنة، وتعطلـــت عجلـــة الاقتصـــاد، وانتـــشرت البطالـــة، وانخفـــض الإنتـــاج. وكذلـــك أســـهمت هـــذه الكـــوارث في زعزعـــة الحالـــة السياســـية؛ فانعـــدم الأمـــن، وعـــمَّ الفســـاد، وكثـــر الظلـــم. وكل ذلـــك كان مـــن شـــأنه أن يؤثـــر بشـــكل أو بآخـــر في إضعـــاف الدولـــة وفقـــدان هيبتهـــا أمـــام مواطنيهـــا، وأمـــام الطامعـــين بهـــا خارجيـــاً، وهـــو مـــا يجعلهـــا عرضـــة للســـقوط في أي لحظـــة. ولكـــن حتـــى نكـــون موضوعيـــين في معالجتنـــا لهـــذا الموضـــوع، يمكـــن القـــول: ليســـت الكـــوارث هـــي الســـبب الوحيـــد لســـقوط هـــذه الممالـــك، فثمـــة أســـباب أخـــرى داخليـــة مـــن صراعـــات عـــلى العـــرش، وفســـاد بعـــض الأنظمـــة السياســـية، وعوامـــل خارجيـــة، متمثلـــة بتنامـــي التغلغـــل الأوروبـــي عـــلى الســـواحل الغربيـــة الأفريقيـــة؛ فـــكل هـــذه العوامـــل أســـهمت مجتمِعـــة ومتداخلـــة في أفـــول هـــذه الممالـــك، وســـقوطها.

المجاعات والأوبئة في السودان النيجري من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر

الأسباب المحلية والتأثيرات الخارجية[1]

إعداد: د. ميشال تيمُوڤـْسْكِي[2]

تعريب: د. خاليد أوشن[3]

-[5]- توفر الكتب التاريخية المُؤَلَّفَة في تُمْبُكْتُو[4]، مادة مهمة بشأن الكوارث التي انهالت على مجال السودان النيجري، بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين. وكان س. م. سِسُّكُو[5]، أول من لاحظ تلك المعلومات. وفي مقاله المعروف قدم سِجِلَّ المجاعات والأوبئة، ووصف باختصار الظروف المناخية، والاقتصادية، والسياسية التي ظهرت فيها تلك الكوارث. وواصل م. تِيمُوڤـــْسْكِي تلك الأبحاث، وعزم على تحليل بنية الانتكاسة الاقتصادية في ثنية النيجر بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين[6]. واستغل هذا الأخير مصادر أخرى مثل حوليات وَلَاتَة، ومِيمَة، وتِشِّيتْ، لتسجيل وتقييم الأسباب والتأثيرات الرئيسية للكوارث في القرن التاسع عشر الميلادي[7].

(1)قدم هذا التقرير في الندوة التي نظمت في باريس من طرف مركز الدراسات الإفريقية من 16 إلى 18 دجنبر 1982م.
Ce rapport était présenté au colloque: " Sécheresse, famines et Etat en afrique ", organisé à Paris par Maison des Sciences de l'homme, Centre d'Etudes africaines, du 16 au 18 décembre 1982.

(2) أستاذ سابق في جامعة وارْسُو، تخصص الدراسات الأفريقية، پُـولُـــونِـــيَـــا.

(3) باحث مشارك، متخصص في الدراسات الأفريقية، وحدة الدراسات الـمَـنْـدَانْكِية، أݣادير، المملكة المغربية.

(4) Tarikh el-Fettach ou Chronique de chercheur, par Mahmoud Kati et l'un de ses petits-fils, texte arabe, traduction Française O. Houdas, M. Delafosse, Paris 1964 [cité plus loin T el F]; Tarikh es-Soudan, par Abderrahman ben Imran ben Amir es-Sa'di, texte arabe, édité et traduit par O. Houdas, Paris 1964 [cité plus loin T es S]; Tedzkíret en-Nisian fi Akhbar Molouk es-Soudan, traduction Française, texte arabe édité par O. Houdas, Paris 1966 [cité plus loin T en N].

(5) S. M. Cissoko, Famines et épidémies à Tombouctou et dans la Boucle du Niger, du XVI^e au XVIII^e siècles, « Bulletin IFAN », sér.B, T.XXX, 1968, fasc.3, pp.806-821.

(6) Michal Tymowski, L'économie et la société dans le bassin du moyen Niger. Fin du XVI^e-XVIII^e siècles, Africana Bulletin, N.18, 1973, pp.9-64.

(7) Les Chroniques de Oualata et de Nema (Soudan Française), trad. et publ. par P. Marty,

-[6]- إن هــدف هــذه المداخلــة، هــو تحديــد تأثــير العوامــل الخارجيــة والداخليــة على ظهــور الكــوارث في -[بــلاد]- الســودان النيجــري. ونميــل كذلــك إلى بلــورة الاعتبــارات المســبقة عــلى بنيــات الانتكاســة الاقتصاديــة والديموغرافيــة والسياســية.

وتقتــضي المرحلــة الأولى مــن كل دراســة للكــوارث الرئيســية تســجيلها. وللقيــام بذلــك، ينبغــي التوفــر على مــادة مصدرية لا تتضمــن نقائصــاً، وتمتد على مدى حيــز زمني مهم بمــا فيــه الكفايــة. وهــذا هو الســبب الــذي لا يمكن تخطيــه إلى مــا قبل القــرن الخامس عشر في ســياق دراســة الكــوارث في بلاد الســودان النيجري. وبالنســبة للقرون الســابقة، فــلا تتوفر إلا عــلى معلومــات هزيلة. ففي القــرن الحادي عــشر الميلادي، تحــدث البكري مســبقاً عــن كارثــة الجفاف بمــالي[1]. وفي القرن الرابع عشر أشــار ابن بطوطــة إلى كارثة الجــراد بمــالي كذلــك[2]. وتســمح لنا هــذه المعطيــات الطارئة فقــط بالتأكيد عــلى حدوث نظــير تلــك الكــوارث قبــل القرن الســادس عــشر الميــلادي، ولكــن الطبيعة غــير الكاملة والمقطعيــة لتلك المعلومــات تجعــل تأويلها وتقييمها مســتحيلاً.

وبالإضافــة إلى ذلــك، نعــرف بأنهــا لــم تُوَقِّــفْ التطــور الاقتصــادي والســياسي البطيء، والمتواصــل في بــلاد الســودان النيجري خلال عدة قــرون إلى غاية بداية ســنوات ثمانينيات القرن الســادس عشر، بشــكل مســتقل عــن أهمية وتــردد الكــوارث العرضية.

إن كتــب تاريــخ تُمْبُكْتُــو المذكورة أعــلاه، تســتوفي شَرْطَ تجانس وتوالي المعطيــات الممتدة عــلى مدى فــترة طويلة من نهايــة القــرن الخامس عــشر -(المعطيات كانت غــير كاملة)- إلى منتصف القــرن الثامن عشر[3].

« Revue des Études Islamiques », T.1, 1927, pp.355-426 et 531-575; Les Chroniques de Tichit (Sahara occidental), traduction annotée par V. Monteil, « Bulletin IFAN », T.1, 1939, fasc.1, pp.282-312 ; M. Tymowski, Famines et épidémies à Oualata et à Tichit au XIX^{e} .siècles, « Africana Bulletin », N° 27, 1978, pp.35-53

(1) Al-Bakri, in: J. M. Cuoq, Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII^{e} au XVI^{e} siécle (Bilad al-Sudan), Paris, 1975, pp.102-103; voir aussi: Corpus of Arabic sources for West African History, translated by J. F. P. Hopkins, edited and annotated by N. Levtzion, J. F. P. Hopkins, Cambridge, 1981, p.82; Arabskíe istočniki X-XII vekov po .etnografii i istorii Afriki, V. Matveev, L. Kubbel, Moskva, 1965, p.184

(2) Ibn Battuta, Textes et documents relatifs à l'histoire de l'afrique: Extraits tirés des Voyages d'Ibn Battuta, traduction annotée: R. Mauny, V. MonteiI, A. Djenidi, S. Robert, J. Devisse, Paris, 1966, p.61. Voir aussi J. Cuoq, Recueil..., p.308; Corpus of Arabic sources..., .p.294

(3) Sur le rythme du développement: M. Tymowski, Le développement et la régression chez .les peuples de la boucle du Niger à l'époque précoloniale, Varszawa, 1974

وبشأن حوليات وَلَاتَة والنِّعْمَة وتِشِيتْ، فإنها موثوقة بها فيما يتعلق بتسجيل كوارث الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، مع هذا الوضوح الذي يبدو أن حولية تِشِيتْ أبرزت به معلومات أكثر اكتمالاً للعقود الأربعة الأخيرة من القرن التاسع عشر[1]، فلدينا إذن علاقة بفجوة متعلقة ببضعة عقود في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويطرح إشكال نفسه كذلك عندما يتعلق الأمر بتحديد المجال الجغرافي للكوارث لأن مُؤَلِّفِي -[7]- أغلب نصوصنا المصدرية، باستثناء تاريخ الفتاش وجزئياً تاريخ السودان، سجلوها انطلاقاً من قراهم الخاصة بالواحات.

إن مُؤَلِّفَيْ تاريخ الفتاش وتاريخ السودان، لا يتحدثان عن الكوارث الرئيسية في تلك الأجزاء من مُؤَلَّفَيْهِمَا، التي تخص النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ويمكن الاعتقاد بأنهما لا يَعْلَمَانِ شيْئاً بخصوص تلك الكوارث كما هي، أو أنهما تَغَاضَيَا عن هذا النوع من المعلومات لاعتبارها غير مهمة، بالنسبة لتاريخ غزوات سُنِّي علي، وكذلك لتاريخ صراع الأَسْكِيَا محمد من أجل السلطة، اللذان يَهُمَّانِهِمَا. فلا يجب إذن اعتبار صمت المصدرين قَسْراً غياب الكوارث، غير أننا نجد إشارة تكميلية في رسالة أنطونيو مَالْفَنْتِ (Antonio Malfante) المكتوبة نحو منتصف القرن الخامس عشر من واحة تْوَاتْ. فحسب هذا المستكشف الجنوي، فإن التجار الذين كانوا يسافرون من تْوَاتْ إلى شاطئ النيجر بَيَّنُوا عدم وجود أوبئة في السودان[2]. وهذا ما يفترض إثبات صمت الكتب التاريخية؛ إذ يمكن افتراض أن الأوبئة لم تكن تشكل خطراً مثيراً، بشكل قوي للساكنة المحلية أو للمسافرين في ثنية النيجر -حتى وإن حدثت متفرِّقَة- خلال القرن الخامس عشر.

إن المعلومات الأولية حول الأوبئة تخص القرن السادس عشر. ونعرف بأن الوباء المعروف بـ: كَافِي (كَـافِي) اجتاح شاطئ النيجر في سنة 1536م[3]. وقد تجدد هذا الوباء في -[سنة]- 1548م، فوصل إلى تُمْبُكْتُو ثم انتشر تدريجياً نحو الغرب. وفي سنة 1551م، مات كثير من الناس جراء تداعياته في تِنْدِرْمَا[4]. وقد

(1) La critique plus détaillée des sources, voir M. Tymowski, Famines...

(2) A. Malfante, in: Ch. de la Roncière, Découverte d'une relation de voyage datée du Touat et décrivant en 1447 Ie Bassin du Niger , « Bulletin de la Société de Géographie », Paris, 1918/1919.

(3) T el F, p.174-175; T es S, p.151.

(4) T es S, p.168.

ظهر آخر وباء في القرن السادس عشر في سنة 1582م، مسبباً في موت عدد كبير من سكان تُمْبُكْتُو كما أشار إلى ذلك السعدي[1]. ففي القرن السادس عشر، لدينا قضية كارثة الأوبئة. وقد كانت حادة حتى ذكرت في المصادر -[التاريخية]- ولكن لم يكن لها وَقْعٌ لزعزعة الاقتصاد أو المنظومة السياسية، خاصة وأن المؤرخين لا يشيرون إلى أي معلومات بشأن رداءة المحاصيل الفلاحية، أو أوبئة الحيوانات أو المجاعات؛ بل عكس ذلك، يذكرون بكل وضوح وفرة المنتجات الغذائية في سُنْغَيْ القرن السادس عشر[2].

ومن الممكن أن تكون آراء المؤرخين محدودة اجتماعياً، وألا تَخُصَّ تلك الوفرة غير المجموعات الاجتماعية المستفيدة. وبعيداً عن المعطيات العامة، في تلك الحالة، فإن المؤرخين يشيرون إلى معلومات بالتفصيل تثبت -[حالة]- الإشباع (La satiété) السائدة[3]. ومن جهة أخرى، نعلمُ بأن الأغذية كانت تُوَزَّعُ على ضعفاء المدينة إما من طرف -[8]- الملوك أو عن طريق قاضي تُمْبُكْتُو[4]. ويعبر هذا الأمر عن الاحتياطات الضخمة -[من الأغذية]- المكدّسة بأيدي المجموعة الحاكمة؛ وميل هذه الأخيرة إلى التخفيف من التوترات الاجتماعية؛ والإمكانية المُيَسَّرَةِ لإستباق المجاعات -على الأقل- في التجمعات السكانية الكبرى. وتوجد وفرة الأغذية وجودة منظومة التموين، مؤكدة كذلك من خلال وصول سكان تُمْبُكْتُو، وگَاوْ، وجِنِّي إلى العدد الأكبر في تاريخ تلك المدن[5].

وفي هذه الحالات يمكن أن تكون تداعيات الأوبئة مختفِيَةً نسبياً بسرعة بنمو نسبة المواليد. وهذا هو الحافز الذي لم تُخِلْ به أوبئة القرن السادس عشر بتوازن المنظومة الاقتصادية والسياسية لسُنْغَيْ ولم تسبب في انهيارها.

---

(1) T es S, p.182.

(2) T el F, p.176-178, 191-218; T es S, p.222. L'unique cas de sécheresse et de famine au XVIe s. T el F, p.164.

(3) T el F, p.187.

(4) T el F, p.187, 199, 211.

(5) R. Mauny, Tableau géographique de I'Ouest africain au Moyen Age, Dakar, 1961, p.494-499; M. Malowist, Wielkie pańistwa Sudanu Zachodniego w póżnym średniowieczu [Grands Etats du Soudan Occdiental dans Ie bas Moyen Age], Warszawa, 1964, p.210-218, 227-229; M. Tymowski, Dzieje Timbuktu [L'histoire de Tbmbouctou], Wrocław, 1979, p.80-81; au sujet de Niani - Wł. Filipowiak, Études archéologiques sur la capitale médiévale du Mali, Szczecin, 1979, p.305.

وعلى العكس، إننا نجهل أسباب انتشار الأمراض. فالسبب الأكثر شيوعاً -المجاعات وانخفاض الساكنة السيئة التغذية- غير مطروح في القرن السادس عشر. ويرجح أن تكون الأوبئة قد نقلت من إفريقيا الشمالية بواسطة قوافل التجار. ولكن تزامن تواريخ الكوارث بالمغرب وثنية النيجر في القرن السادس عشر لم يكن إلا جزئياً. فقد توافق طاعون سنة 1536م بالمغرب مع ظهور كَافِي في السودان النيجيري. ولم يكن لطاعوني سنتي 1548م و1551م أي نظير لِأَيٍّ منهما بالمغرب، حيث لن يظهر به بعد سنة 1536م، إلا في سنة 1558م.

وتهم مطابقة أخرى آخرَ طواعين القرن السادس عشر الميلادي بالسودان. فقد أدت المجاعة والطاعون إلى حدوث وفيات كبيرة جدا بين سنتي 1579م و1580م بالمغرب[1]، وعلى ضفة نهر النيجر ظهر الطاعون -المرتبط بنظيره المنتشر بالمغرب على الأرجح، وكان خطيراً جداً كذلك- في سنة 1582م. فليس من السهولة تحديد تلك الأوبئة. وافترض شارل مونتاي (Charles Monteil) أن يكون كَافِي سنتي 1536م و1548م هي الحمى الصفراء، بينما كان وباء 1582م هو الكوليرا[2]. لذلك يمكننا الاعتقاد بوجود علاقة بين طاعوني شمال إفريقيا والسودان، في هذه الحالة الأخيرة بالخصوص -مع الأخذ بالاعتبار تطابق تواريخ وصنف الوباء المُفْتَرَضِ- في شمال إفريقيا والسودان.

-[9]- ولكن انتقال الأوبئة من الأراضي التي كانت بها حِدَّتُها شديدةً جداً مثل المغرب في القرن السادس عشر الميلادي إلى السودان، ليس لوحده التفسير الكافي. وأكثر من ذلك، أن ذات التأثير لا يرتبط بكل الحالات. لذلك تبدو فرضية سِكِن مُودِي سِسُّكُ التي تفيد بأن أحد الأسباب في انتشار الأوبئة بالسودان في القرن السادس عشر يعودُ إلى المستوى غير الكافي للوقاية الصحية، وكذلك كثافة السكان في التجمعات البشرية الكبرى في الحواضر، مُبَرَرَةً على

(1) Toutes les informations sur les épidémies au Maroc jusqu'à la fin du XVII^{e} siecle d'après B. Rosenberger, H. Triki, Famines et épidémies au Maroc aux XVI^{e} et XVII^{e} siècles , « Hespéris Tamuda », Vol.XIV, 1973, p.109-175 et Vol. XV, 1974, p.5-103, tableau III, Vol.XV, p.88-89.

(2) Ch. Monteil, Notes sur le Tarikh es-Soudan, « Bulletin IFAN », sér. B, T.XXVII, 1965, Nos. 3-4, p.479-530. En parlant de l'épidémie de 1582 le traducteur de T es S utilise le mot « peste » mais il aurait fallu traduire « maladie épidémique », Voir:T es S, p.168, n.5.

مـا يبـدو[1]. وفي هــذا الوضــع، كانــت العلاقــات القويــة مــع المغــرب وبلــدان شــمال إفريقيــا الأخــرى التــي اجتاحتهــا الأوبئــة، وســاءت بهــا الحالــة الصحيــة، خــلال القــرن الســادس عــشر، هــي التــي تســهل تــسرب وانتشــار الأوبئــة. ولكــن، يجــب الإشــارة عــلى أي حــال إلى أن الوضــع العــام الجيــد للاقتصــاد في ثنيــة النيجــر هــو الــذي قلَّــل مــن خطــورة الموقــف.

وقــد اتَّسَــمَتْ كــوارث القــرون الســابع عــشر، والثامــن عــشر، والتاســع عــشر بحــدة وبميــزة مُخْتَــلِفَتَيْــن[2]. ففــي القــرن الســابع عــشر، تُبْلغُنَــا المصــادر -[التاريخية]- عــن ســتة عــشر ســنة مــن كــوارث مختلفــة. وفي القــرن الثامــن عــشر اشــتدت خطــورة الوضــع بحيــث لوحظــت 4 كــوارث مجاعــة وأوبئــة مهمــة امتــدت في مجموعهــا عــلى مــدى فــترة -[زمنيــة]- لــــ 23 ســنة، بــين ســنتي 1701م و1751م (وهــي الفــترة التــي نتوفــر فيهــا عــلى معطيــات كاملــة). وفي القــرن التاســع عــشر دامــت كل أنــواع الكــوارث لمــدة 22 ســنة في وَلَاتَــة، و14 ســنة في تِشِــيتْ مــع هــذا التحديــد الــذي يكمــل الأدلــة المرتبطــة بهــذه الواحــة الأخــيرة لفــترة 1860م-1900م، وتضــم هــذه الأربعينيــة 12 ســنة مــن الكــوارث.

تتميــز الظاهــرة الأكثــر أهميــة، بعيــداً عــن الحــدة المتناميــة للكــوارث، بتعدديتهــا -[عــلى الشــكل التــالي]-:

1. كان السكان يعانون دائماً من الأوبئة، إضافة إلى:
2. ظهور فترات من غلاء المعيشة،
3. والمجاعات،
4. وأمراض الأبقار / الأوبئة البقرية وأمراض التمور.

ولا تظهــر الأوبئــة بشــكل منعــزل إلا نــادراً جــداً، غــير أنهــا تصيــب الســكان المُعَرَّضِــين للمجاعــة. فتَرَابُــطُ الكــوارث المختلفــة مُؤَكَّــدَةٌ عــلى نطــاق واســع في الشــهادات المصدريــة.

يطــرح ســؤالٌ نفســه إذن -[وهــو]-: لمــاذا خضــع الوضــع لتغيــير شــديد جــداً بــين

(1) S. M. Cissoko, Famines..., p.810.

(2) Toutes les informations sur les fléaux des XVI^{e}-XVIII^{e} siècles, voir tableau I. Les fléaux du XIX^{e} siècle-tableau II et III.

القرنـــين الســـادس عـــشر والســـابع عـــشر؟ ولمـــاذا اســـتمر في الازديـــاد خطـــورة في القرنـــين التاليـــين؟

تشـير المصـــادر إلى أن مـــن بـــين أســـباب ذلـــك الوضـــع إمـــا فـــترات الجفـــاف، أو العكـس، الفيضانـات المهولـة للنيجـر المسـببة لإتـلاف الحقـول والمحاصيـل. ويكمـن السـبب الثالـث الـذي ذكرتـه المصـادر في الجـراد. وقـد شـكل كل ذلـك مصـدر المجاعـات التـي تَـلَـــتْهَا الأوبئـة أحيانـاً، فـلا تُفْـرِزُ أهميـة تلـك الظواهـر أي شـك. ولكـن، لا نسـتطيع الحديـث هنـا إلا عـن الأسـباب المبـاشرة. ويمكـن اعتبـار التغـيرات المناخيـة كسـبب أكثـر شـدة لسلسـلة مـن الكـوارث. فطريقـة تجفيـف الصحـراء -[10]- والسـاحل اسـتمر منـذ بضعـة آلاف مـن السـنين[1]. فـلا يمكـن اسْـتِبْعَادُ نـوع مـن تسـارع تلـك الطريقـة بـين القرنـين السـادس عـشر والسـابع عـشر، مـع أننـا لا نتوفـر عـلى حجـج مسـتخرجة مـن الدراسـات المناخيـة. وبالإضافـة إلى ذلـك، يبـدو الأمـر مبهمـاً حينمـا يتعلـق بتغيـيرات مهمـة جـداً وشـديدة القسـاوة مرتبطـة بالاقتصـاد. وأكثـر مـن ذلـك، أن فَتَـــرَاتٍ لفَيَضَانَـاتٍ كـبرى للنيجـر ذُكِـرَتْ إلى جانب فـترات الجفـاف، والتـي تـدل عـلى تسـاقطات أكـبر مـن مـا كان مألوفـاً في مجـرى النهـر قبـل كل شيء، ولكـن في كل -[بـلاد]- السـودان بـدون شـك -[بصفـة عامة]-.

إذن، حتـى إن سَـلَّمْنَا بكـون تغـيّرات المنـاخ أحـد العوامـل المسـببة لـرداءة المحاصيـل الزراعيـة والمجاعـات، فينبغـي الاعتقـاد في الوقـت نفسـه بـأن الأمـر هنـا لـم يكـن السـبب الوحيـد أو الأسـاسي.

وكذلـك الشـأن بالنسـبة لأوبئـة القـرن السـادس عـشر؛ إذ حاولنـا البحـث عـن وجـود تطابـق بـين الأوبئـة في شـمال إفريقيـا، وبالخصـوص في المغـرب، وفي السـودان النيجـيري، فلـم نقـف عـلى تقـارب مبـاشر. فبالنسـبة لوبـاء 1616م-1617م في السـودان، -[فقـد]- ظهـر الوبـاء الأكثـر قربـاً بالمغـرب قبـل -[تلـك الفـترة]- في 1609م؛ وبعد-[هـا] - في 1624م[2]. وبالنسـبة لوبـاء 1657م-1659م في السـودان، -[فقـد]- وافقـه في المغـرب وبـاءَا 1647م و1662م، وبالنسـبة -[لوبـاء]- 1669م -[فقـد وافقـه وبـاءَا]- 1662م و1677م؛ وبخصـوص -[وبـاء]- 1688م -[فقـد

(1) The Cambridge History of Africa, vol.2, ed. by J. D. Fage, Cambridge, 1978, chapter 5 by R. Mauny, p.272-341; Histoire générale de l'Afrique, t.I, Méthdologie et préhistoire africaine, directeur de volume J. Ki-Zerbo, Paris, Unesco, 1980, H. Hugot, Préhistoire du Sahara, p.619-642.

(2) B. Rosenberger, H. Triki, Famines..., tableau III.

وافقه أخر في سنة]- 1680م؛ وبعد ذلك، عرف المغرب فترة طويلة خالية من الأوبئة إلى غاية وباء سنتي 1742م-1743م[1]. ثم ظهرت الموجات المتتالية من الأوبئة بالمغرب في 1750م، و1752م، و1798م–1800م، و1818م-1820م[2]. إذن لم تكن هناك علاقة زمنية بين أوبئة 1741م في تُمْبُكْتُو و1792م-1793م في وَلَاتَة وتِشِيتْ. وتطرح استنتاجات مماثلة نفسها إذا قورنت تواريخ الأوبئة في تونس والجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط[3] بنظيرتها في السودان.

فحتى وجود دليل تقارب زمني متسلسل مَلْحُوظٍ بشكل متفرق لا يعتبر حُجَّةً كافيةً على انتقال الأوبئة عبر الصحراء. وقد وقعت الخسائر الكبرى بين السكان في إفريقيا الشمالية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر بسبب الطاعون. وتكررت أوبئتها في الفترات السيئة بالخصوص في القرن السادس عشر كل 10-15 سنة بانتظام، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر -[11]- لِمَاماً تقريباً[4]. ولم تبدأ الأوبئة الكبرى للكوليرا والتيفوس إلا في القرن التاسع عشر[5].

وكما أكد بِرْنَارْ رُوزْنْبِرْكِرْ وحميد التْرِيكِي في المغرب نفسه، فقد كانت الأراضي الجافة والصحراوية أقل تعرضاً لاجتياحات الطاعون من الأقاليم الفلاحية. ويرتبط ذلك بكيفية انتشار ذلك المرض[6]. ولهذا السبب شكلت الصحراء سداً فعالاً ضد تسرب الطاعون إلى السودان النيجيري. وينبغي كذلك مراعاة الفترة القصيرة (بضعة أيام) لاحتضان ذلك المرض -المقارنة بمدة رحلةِ قَافِلَةِ

(1) A. Dziubiński, Między mieczem głodem i dżumą Maroko w latach 1727–1830, [Entre l'épée, la famine et la peste. Le Maloc de 1727 à 1810], Wrocław, 1977, p. 146-161, ta- bleau p.147-148.

(2) Ibid.

(3) L. Valensi, Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale aux XVIII^e et XIX^e siècles, « Annales ESC », Numéro spécial Histoire biologique et société, 24^e Année, No 6 Novembre-Décembre 1969, p.1540-1561.

(4) A. Dziubiński, Maroko w XVI wieku.1510-1578. [Le Maroc au XVI^e siècle. 1510-1578], Wrocław, 1972, p.97.

(5) A. Dziubiński, Między mieczem..., p.152. L. Valensi, Calamités..., p.1558-1560.

(6) B. Rosenberger, H. Triki, Famines..., II partie, p.38-57; voir aussi J. N. Biraben, J. Le Goff, La Peste dans le Haut Moyen Age, « Annales Esc », No 6, Novembre-Décembre 1969, p.1484-1510, spécialement pages I484-1491- aperçu des conceptions médicales et épidé-miologiques actuelles sur la peste.

تجارٍ عبر الصحراء، مُسْتَلْزِمَةً عدة أسابيع أحياناً-. فلا أعتقد إذن بأن الرأي القائل إن «الصحراء صانت بلدان السودان من الأوبئة إلى القرن السابع عشر حيث أوقعت فيها خسائر في أقطار ثنية النيجر. وقد أصبحت الاتصالات مع عالم البحر الأبيض المتوسط أكثر تواتراً منذ الغزو السعدي، وعظمت مخاطر العدوى بدون شك...»[1]، كان مُبَرَّراً.

وفضلا عن ذلك، كانت الصحراء عائقاً لانتشار الطاعون في القرن السادس عشر، كما في القرن السابع عشر والقرنين التاليين، كما كان تنقل قوافل التجار كبيراً بدون شك في القرن السادس عشر كما في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولم يعادل تحرك المجموعات المسلحة بدورها، واتصالات تُمْبُكْتُو السياسية مع المغرب، تراجع العلاقات التجارية، علماً بأن هذه الأخيرة ضعفت منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر[2].

إن الأمراض التي سبّبت الأوبئة في السودان النيجيري لا تنكشف بالتأكيد، ولا نستطيع إثبات كَوْنِ الأمر يتعلق بالطاعون. وبالعكس، في القرن التاسع عشر بوَلَاتَة، والنِّعْمَة، وتِشِيتْ، كان الجُدَرِي هو المرض الأكثر شيوعاً[3]. لذلك، ينبغي البحث عن أسباب الأوبئة في السودان النيجيري والواحات المجاورة له في ظواهر أخرى غير الانتقال المباشر للأمراض من أراضي إفريقيا الشمالية التي أصابتها موجة أوبئة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. ولا نَسْتَبْعِدُ أطروحة التأثير المشترك للأسوإ الذي كان أَحْيَائِياً على أراضي الضفتين التي تفصل الصحراء بينهما. ولكن، يمكن اعتبار هذا العامل -[12]- كسبب إضافي مثل التغيرات المناخية على أبعد تقدير.

وفي سياق الموضوع، يُشَاعُ أحياناً الرأي القائل بأن الأزمة التي أصابت أراضي السودان النيجيري منذ القرن السابع عشر كانت ناتجة عن « **الغزو المغربي**»، و-[أيضاً]- عن خراب دولة سنغي في سنة 1591م[4]. وكان دور الانتكاسة

---

(1) B. Rosenberger, H. Triki, Famines..., II partie, p.44, note 319.

(2) M. Abitbol, Tombouctou et les Arma, Paris, 1979, p.84 et suiv. et 197; M. Tymowski, Dzieje Timbuktu, p.136-138 et 151-156; The Cambridge History of Africa, vol.4 from c. 1600 to c. 1790, ed. by R. Gray, Cambridge, 1975, p.155-156 -The pashalik of Timbuktu by N. Levtzion.

(3) Voir tableau II et III dans cet ouvrage.

(4) Histoire générale de l'Afrique Noire, de Madagascar et des Archipels, publiée sous la direction de H. Deschamps, T.1 Des origines à 1800, Paris, 1970, Chap. VI, Le Soudan nigé-

السياسية والفوضى المتزايدة أثناء انتشار الكوارث قد أثير من طرف سِكِن مُودي سِسُّوكو[1]. فكان ذلك العامل مهماً بلا ريب. وكما نعرف ذلك، كان نشاط ملوك سُنْغَيْ يستبق المجاعات، ولم يكن ممكناً القيام بذلك الدور من طرف بشوات تُمْبُكْتُو. وقد أُعْفِيَ السكان من -[أداء]- ضريبة العشر مرة واحدة، في سنة 1618م، بعد فترة مجاعة ووباء[2]. أما أثناء الكوارث التالية، فقد كَلَّفَ البَشَوَاتُ السكان بضَرائبَ إضافيةٍ مجبرين بسبب نقص المداخيل[3]. وفي القرن السابع عشر الميلادي، حاول ملوك دِنْدِي التخفيف من -[تداعيات]- المجاعات[4]. ولكن في القرن التالي افتقر الزعماء المحليون على الأرجح إلى وسائل من هذا الصنف من التدخلات. كما أن غياب وحدة سياسية في مَاسِنَة أفرز نتائج مماثلة[5]. وأما الوضع عند البَمْبَرَا فقد كان ممتازاً[6]. لذلك كان لحالة الفوضى تأثيراً سلبياً بصفة خاصة على الوضع في الجزء الشمالي من ثنية النيجر.

غير أن سؤالان يطرحان نفسيهما كما يلي: لماذا وصل الأمر إلى فوضى وانقسام سياسي؟ ولماذا لم يفلح المغاربة في غزو كل بلاد سُنْغَيْ رغم تفوق معداتهم الحربية؟ وكذلك في الحفاظ على الوحدة السياسية لبلدان ثنية النيجر؟ أعتقد أن دوراً مهماً جرى القيام به في ذلك عبر اضطراب الأسس الاقتصادية لتلك الوحدة. فخلال عدة قرون، تشكلت تلك الأسس على نَسَقِ تنظيم التجارة الإقليمية والعابرة للصحراء[7]. وكان جُزْءٌ كبير من مداخيل ملوك مَالِي، ثم سُنْغَي فيما بعد، يأتي من مراقبة الطرق و -[13]- تجارة البعيدة المدى. ولكن في النصف الثاني من القرن السادس عشر، بدأت تلك التجارة تنهار إثر التَّغيُّرَاتِ الحاصلة في وقت مبكر في السوق الدولية،

---

rien et la Guinée occidentale, par Y. Person, p. 275; J. Ki-Zerbo, Histoire de l'Afrique Noire, Paris, 1972, p.199-201; N. Levtzion, In The Cambridge History of Africa, vol.4, p.158-164.

(1) S. M. Cissoko, Famines..., p.813.

(2) T es S, p.341.

(3) Le tableau de contributions du XVIIIe siècle d'après T en N : In M. Tymowski, L'Economie..., p.42. Nous connaissons les contributions de 1714, 1726, 1732, 1734, 1735, 1737, 1738, (2 fois), 1740, 1742, 1744, 1748 (2 fois).

(4) T es S, p.471.

(5) History of West Africa, ed. by J. F. A. Ajayi, M. Crowder, vol.1, London, 1976, Ch. 13 by J. R. Willis, The Central Niger Delta; Fulbe communities In Masina, p.532-534; L. Tauxier, Moeurs et l'histoire des Peuls, Paris, 1937, p.155 et suiv.; T es S, p.281-288.

(6) Voir plus loin texte et notes Nos 71-74.

(7) M. Małowist, Wielkie pańistwa..., p.250-344.

وبـروز طـرق جديـدة تتفادى بلـدان ثنيـة النيجر. وقـد ارتبطـت التغيرات غـير الملائمة بتجـارة الذهـب بصفـة خاصـة. فصـار جُـزْءٌ من هـذا المعـدن يُنْقَـلُ إلى سـواحل خليج غينيـا[1]. وأصبحـت أهميـة التغـيرات المرتبطـة بتدفـق الذهـب والفضة مـن أمريكا على أوروبـا أكـبر بكثير أيضـاً. وأدى الحصول على كميـات كبيرة من المعدنـين -[المذكورين]- إلى انخفـاض سِعْــــــرَيْهِمَا[2]، كمـا هـو معـروف. وشـعر السـكان الذين يعيشـون في السـودان النيجري في وقت متأخر بانقلاب الأسـعار -بانخفاض أسـعار الذهب، وبارتفاع أسـعار البضائـع الأوروبية- وقد بـدأت المقدمات الأوليـة لانخفاض المردوديـة، وللتوترات الاجتماعيـة التـي أفرزهـا - [ذلك الانخفـاض] - تظهر حتى في سـنوات ثمانينـات القرن السـادس عـشر، في زمن -[دولـة]- سُـنْغَيْ[3]. فجـرى تعويض نقص مداخيـل المجموعة الحاكمـة عقـب انخفـاض أسـعار الذهب بتنظيـم جيـد للاقتصـاد المحـلي[4]، وبالزيادة في صـادرات بضائـع أخـرى. غـير أن الاقتصـاد المحـلي كان يتطـور بوتيرة أقـل من عدم انخفـاض مداخيل التجـارة الخارجيـة في القرن السـادس عشر.

ولـم يكن مـن الممكـن المحافظة عـلى مسـتوى الـواردات إلا بواسـطة صـادرات متزايدة مـن العبيـد. ومنذ القرن السـادس عـشر، يلاحظ ارتفـاع نصيب ملـوك سُـنْغَيْ، من تلك الصـادرات[5]. ولـم تعـرف -[هـذه الأخيرة]- نمـواً ملحوظـاً إلا بعد الغـزو المغربي.

يبـين تاريـخ البشـوات الرُّمَـاة عـدة براهـين مختلفـة بشـأن غـارات منظمـة بحثـاً عـن البـشر، وتصديـر العبيـد[6]؛ فقـد أُجْـبِرَ الرُّمَـاةُ عـلى خـوض حـروب مسـتمرة. وكان ذلـك أحـد أسـباب الفـوضى المتزايـدة والانقسـام السـياسي. ولـم تـأت المطـاردة المسـتمرة للعبيـد وتصديرهـم إلا بنتائـج قصـيرة المـدى وبـشرط ألا يرتفـع عـدد العبيد

(1) M. Małowist, Europa a Afryka Zachodnia w dobie wczesnej ekspansji kolonialnej [L'Europe et l'Afrique Occidentale dans les premieres siècles d'expansion coloniale], Warszawa, 1969, p.438-442.

(2) F. Braudel, Monnaies et civilisations. De l'or du Soudan à l'argent d'Amérique, « Annales ESC », 1946, fasc.1, p.9-22; du même, La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, 1949, p.361-420.

(3) M. Tymowski, Le développement..., Troisième partie, Ch. I- Les conflits sociaux dans la seconde moitié du XVI^{e} s., p.109-112; du même, L'Economie..., p.10-18; S. M. Cissoko, Tombouctou et l'empire Songhay, Dakar-Abidjan, 1975, p.95-96.

(4) T el F, p.179-180; M. Tymowski, Les domaines des princes du Songhay. Comparaison avec la grande propriété foncière en Europe au début de l'époque féodale, « Annales ESC », No 6, 1970, p.1637-1658.

(5) T es F, p.109-193-195; T es S, p.160-161.

(6) T es S, p.243-400-431.

الذيـن بِيعُـوا بشـكل قـوي جـداً. وبخـلاف ذلـك فـإن أسـعار العبيـد انخفضـت[1]؛ لأن السـلطة المسـتفيدة مـن -[14]- السـوق الشـمال إفريقـي كانـت محـدودة. وفي حالـة محاولـة نقـل البـشر إلى السـواحل الأطلسـية، فـإن ضرورة تنظيـم نَسَـقٍ جَدِيـدٍ والإكثـار مـن الوسـطاء كانـا يؤديـان إلى انخفـاض الأربـاح.

وقـد أدت حـروبٌ متواصلـة وأعمـال نهـب مدمّـرة لمـا وراء البـلاد الفلاحيـة للمـدن الكـبرى إلى إفـراغٍ حـادٍّ للباديـة مـن السـكان، وقـد يكـون دورٌ مـا حصـل في انخفاض السـكان مـن خـلال الهجـرة، غـير أعمـال الإبـادة بالحـروب. ففـي سُـنْغَيْ شـمل الاسـتعمار الفلاحـي حتـى الأراضي الواقعـة في الجـزء الشـمالي مـن النيجـر، وانجـذب الفلاحـون بنشـاط الملـوك المُنَظِّـمِ، وبآفَـاقِ العلاقـات الاقتصاديـة مـع المـدن الكـبرى. وفي القرنـين السـابع عـشر والثامـن عـشر تغـيّر الوضـع وبـدأ السـكان ينتقلـون إلى الجنـوب[2]، هربـاً من منـاخ الخطر المسـتمر. وخَلَّـفَ التَّدْجِـيُن المتَـنَـقِّـلُ الاسِتِغْـمَارَ الفِلاَحِي.

وقـد غَـيَّرَ انتشـار الرحـل -مـن الفُلاَنِـيِّـيـنَ والتَوَارِكْ- اقتصـاد شـمال ثنية النيجـر[3]. وكان التَّدْجِـيُن مـن هـذا النـوع أقـل إنتاجـاً مـن الفلاحـة ممـا أدى إلى انْخِفَـاضٍ في الأغذيـة. ولـم تتمكـن انعكاسـات هـذا الانخفـاض مـن التخفيـف إلا إلى درجـة مـا وذلـك بتخفيـض عـدد المسـتهلكين. وعـلى كل حـال، فـإن هـذا الأخـير كان صحيحـاً أكثـر في البـوادي، بينمـا خضعـت المـدن لنقـص حـاد جـداً في التـزود بالأغذيـة[4].

---

(1) T es S, p.157-243.

(2) Villages détruits- T en N, p.61-77-181-208. Migrations - D. T. Niane, Mise en place des populations de la Guinée, « Recherches Africaines », No 2, 1960, p.40-53; Y. Person, Les ancêtres de Samori, « Cahiers d'Etudes Africaines », 13, vol. IV, 1963, p.125-158.

(3) T es S, p.41-484; T el F, p.317; T en N, p. 181; Cl. Mangeot, P. Marty, Les Touaregs de la Boucle du Niger, « Bulletin du Com. d'Etudes Hist. et Scient. AOF », 1918, No 1, p.87-136, No 2, p.257-288, No 3, p.432-475; L. Tauxier, Moeurs et l'histoire des Peuls, Paris 1937; J. Suret-Canale, Essai sur la signification sociale et historique des hégémonies Peuls, Paris [1964, [renéotypé.

(4) W. Kula, Problemy i metody historii gospodarczej [Les problèmes et les méthodes de l'histoire économique], Warszawa, 1963, p.654, constate que dans l'économie préindustrielle « même une petite baisse de production globale pouvait provoquer une très grande baisse de production d'approvisionnement du marché, c'est-à-dire les perturbations graves dans la situation sur le marché, dans l'approvisionnement des villes, dans l'exportation et les prix ».

وكانت للمدن الكبرى تُمْبُكْتُو، وكَّاوْ، وجِنّي، ونِيَانِي عاصمة مالي، بنيةٌ ملائمة لوظائفها السياسية (إذ كانت عواصم دُوَلٍ أو أقاليم)، وفي خدمة التجارة البعيدة المدى. وكانت امتداداتها من الأغدية ترتكز على منظومتين: الخاصة بقبائل الدولة، وأخرى بالعلاقات التجارية مع البادية[1]. وقد أدخلت الاختلالات في التجارة الخارجية وانخفاض عائدات هذه الأخيرة من جهة، ثم التفكك السياسي من جهة أخرى عنصر الالتباس في نمط حياة المدن. ولم يُؤَدِّ هذا سوى إلى الزيادة من نقص إمدادات الغذاء الذي تسبب فيه انخفاض الإنتاج وضعف العلاقات بين المدينة والبادية. ولم تُعَوَّضْ الاختلالات في -[15]- التجارة المحلية عبر نشاط البشوات بأية طريقة سوى بالزيادة من الضرائب وأعمال النهب[2]. وعلى المدى الطويل أضعفت تلك المضايقة، وكذلك الغارات من أجل جمع العبيد، الاقتصاد الريفي، وأعاقت علاقاته مع المدن.

وعقب تَقَلُّصِ إمدادات الغذاء، بدأت المجاعات التي وصف مؤرخو تُمْبُكْتُو[3] ويلاتها، تظهر في المدن. ثم إنها أنهكت كذلك سكان البادية المعرضين للنهب والاستغلال المتزايديْن.

وقد أدت تلك الكوارث إلى نَقْصٍ كبيرٍ جداً في السكان، والإفقار الجماعي للناجين منهم. غير أن الكوارث لم تكن تصيبُ كل الطبقات الاجتماعية بقوة متساوية؛ فقد مات بسببها البُؤَسَاءُ، ووقعت الطبقات المتوسطة في مستوى حياة البؤساء، وفَقَدَ تُجَّارٌ أَغْنِيَاءٌ والطبقة الحاكمة جزءاً مهماً من مداخيلهم.

ولم يَعُدْ الاغتناءُ ممكناً إلا للأشخاص الذين كانوا يمارسون سلطة مباشرةً، على حساب ما تبقى من المجتمع بطبيعة الحال[4]. ويلاحظ انهيار الحرف، وخاصة الحِرَفْ الرئيسية، كالحياكة والخياطة مَصْدَرَيْ مَنْتُوجَاتٍ مُصَدَّرةٍ في القرن السادس عشر، خلال فترات المجاعات[5]. ففي بداية الأمر، كان يجري التخلي عن شراء القطن، ثم بسبب غياب المادة الخام توقف الإنتاج وضَعُفَتْ

(1) M. Tymowski, La ville et la campagne au Soudan Occidental du XIV^{e} au XVI^{e} siècle. Problème des rapports économiques, « Acta Poloniae Historica », t.29, 1974, p.51-79.

(2) Au sujet des pillages T es S, p.389, 410-413, 418, 427, 430, 434, 445, 482.

(3) Voir le tableau I.

(4) Voir l'inventaire de biens du pacha Mansour ben Mesaoud (envir. 1716), T en N, p.31-32.

(5) T el F, p.315.

تجـارة الأقمشـة، أثنـاء المجاعـة[1]. وقـد أثّـرت ظَوَاهِـــرٌ مُماثلـة عـلى الحـرف التقليديـة بالمدينـة -كصناعـة تحضـير الجُلُـودِ، ونَجَـارَةِ الهيـاكل والبنـاء- وتسـبب انحطـاط الحِـرَف في تقهقـر وضعيـة المـدن في تجارتهـا مـع الباديـة ممـا أدى إلى تـوالي تراجـع إمـدادات الأغذيـة والمـواد الأوليـة.

وكمـا أَشَرْتُ إلى ذلـك أَعْـلاهُ، انبنـى ردُّ فعـل المجموعـة الحاكمـة عـلى ذلـك الوضـع، عـلى تنميـة الاسـتثمار. فزيـادة عـلى اسـتغلال البـوادي، حـاول الرُّمَـاة حَجْـبَ جُـزْءٍ مـن مداخيـل التجـار عـبر فـرض جبايـات[2]، ورسـوم ضريبيـة مسـماة بـذات الصلـة بالضيـــافة، ومرتبطـة بالحميـة الخاصتـين بالتجـر القادمـن مـن الآفـاق؛ ويبـى -[ذلـك الجـزء]- غـير كامـل عـلى كل حـال[3]. فكانـت تلـك الممارسـات أكثـر مـن سـبب لانخفـاض مردوديـة التجـارة واضطـراب نظامهـا.

-[16]- وكان انهيـار سـعر الذهـب ظاهـرة مهمـة جـداً واكبـت المجاعـات. فـإذا كان المثقـال الواحـد مـن الذهـب يسـاوي 3.000 ودعـة في الفـترة العاديـة، فإنـه انحـدر إلى مـا بـين 500 و700 ودعـة خـلال المجاعـات[4]. وكان انهيـار سـعر الذهـب نتيجـة الصعـود السريـع لأسـعار المـوادِّ الغذائيـة وأصـداف الودعـات المسـتخدمة في المعامـلات التجاريـة المحليـة. وقـد تجـاوزت أهميـة هـذا التغيـير في العلاقـات السـوق المحليـة. فنحـن نتذكـر بـأن انخفـاض سـعر الذهـب كان أحـد أسـباب الأزمـة. وأدَّت هـذه الأخـيرة بدورهـا إلى انخفـاض متـوالي لذلـك السـعر، بمعنـى زيـادة الوضـع خطـورة.

ولـم تكـن الأعـراض الخاصـة بالأزمـة تحصـل بشـكل مُنْعَـزلٍ، وإنمـا كانـت مترابطـة فيمـا بينهـا وتَتَوَطَّـدُ بالتبـادُل. ويُمْكِنُنَـا البَـدْءَ بـأي عنصرٍ لوصـف بنيـة التقهقـر. فمثـلاً، تسـبَّب انخفـاض عـدد السـكان في تراجـع الإنتـاج الفلاحـي الـذي أدّى إلى انهيـار المـدن، والحِـرَفْ والتجـارة، وأخـيراً إلى المجاعـة التـي أثمـرت بدورهـا انخفاضـاً جديـداً لعـدد السـكان أكثـر حـدة، فضـلاً عـن تَـيْـسِـيرِهَا لانتشـار الوبـاء أحيانـاً. كمـا سـبب انخفـاض جديـد لسـعر الذهـب تراجعـاً جديـداً لـه بعـد تدخُّـل جميـع الظواهـر التـي تحمِلُهَـا. وكان كل عامـل سـلبي يبقـى قائمـاً وسـاري المفعـول

---

(1) T en N, p.118.

(2) Le tableau de contributions – M. Tymowski, L'économie..., p.42. T en N, p.19, 54, 90, 95, 101, 103, 132, 138, 168, 190, 225, 238, 239.

(3) T en N, p.88, 125, 147, 204.

(4) Voir le tableau I.

في بِنْيَـةٍ مُتَقَهْقِـرَةٍ ومُعَيّنـةٍ ومُؤدّيـةٍ بالاقتصـاد إلى مصيبـة واسـعة جـداً. وكانـت الكـوارث -المجاعـات والأوبئـة- في هـذه الحالـة نتيجـة للأزمـة الاقتصاديـة تـارة، وسـبباً في الزيـادة مـن خطورتهـا تـارة أخـرى؛ لأنهـا كانـت أحـد عنـاصر البنيـة المتقهقـرةِ المَعْنِيَـةِ.

وقـد كانـت أعمـال النهـب، والحـروب والسياسـة المنطويـة عـلى السـلب والتجريـد القسـري بالقـوة التـي مارسـتها المجموعـات المتحكمـة في السـلطة عامـلاً آخـر مـن نفـس النـوع. ويمكـن اعتبـار أعمـــال التخريـب التـي كانــت تســبّبها -[تلـك المجموعـات]- نوعـاً تَكْمِيلِيـاً للكارثـة المنتـشرة في الأراضي التـي تهمُّنـا[1].

لقـد تسـبّبت، مـدة الأزمـة، والبلايـا المتكـررة مـن مجاعـات وأوبئـة، وأخـيراً دمـار الحـروب في نقـص وسـائل إعـادة بنـاء الاقتصـاد في السـنوات التـي تراجعـت فيهـا الكـوارث.

وكان الاقتصـاد متأثـراً بـكل ظاهـرة مناخيـة سـلبية بصفـة خاصـة مثـل الجفـاف أو الفيضـان. وازداد نَـــفَادُ احتياطـات المؤونـة بشـكل خطـير عـلى مَـرِّ عقـود الأزمـة ممـا جعـل الأوبئـة تبطـأُ أكثـر فأكثـر-[17]-.

وكان مـن بـين التداعيـات الأخـرى للأزمـة والكـوارث إضعـاف العلاقـات الاجتماعيـة ودفـع كل مجموعـة اجتماعيـة إلى البحـث عـن المعونـة عنـد زعيمهـا الخـاص. وكان ذلـك واضحـاً بشـكل خـاص في حالـة الرُّمَـاة. ووصل نظـام البشـوات إلى حالـة فوضى في القـرن الثامـن عـشر إلى حـد أن سـكان عـدة أحياء مـن العاصمـة كانـوا يتصارعون فيمـا بينهـم لنهـبِ بعضهـم البعـض؛ وأن التجـار المَحْميِّـــين مـن طـرف فئـة من الرُّمَـاةِ نُهِبُـوا مـن طـرف فئـات أخـرى[2]؛ وأن الباشـا كان يرسـل عبيـده المسـلَّحين لنهـب سـكان العاصمـة[3]، وأن صراعـاً حـول السـلطة كان يتواصـل بشـكل مسـتمر

(1) Les ravages de guerre considérés comme type de fléau sont analysés spécialement dans l'historiographie polonaise en rapport avec les recherches sur le XVII^{e} et commencent du XVIII^{e} s. Voir : J. Rutkowski, Przebudowa wsi w Polsce po wojnach z połowy XVII wieku [Reconstruction de la campagne en Pologne après les guerres de la moitié du XVII^{e}siècle]. « Kwartalnik Historyczn », 1916, p.309-342; Les articles de WL Rusiński et I. Gieysztorowa (dans:) Polska w okresie drugiej wojny północnej 1655-1660 [La Pologne au temps de la deuxième guerre du Nord 1655-1660], t. 2, Warszawa 1957, p.261-306, 307-343; W. Kula, Problemy..., p. 647-649, 662-666.

(2) T en N, p.80-81-125.

(3) T en N, p.43-50-126.

-لأنـه وحـده كان يجلـب أيضـاً المداخيـل المرغوبـة رغـم كونهـا محـدودة مسـبقاً-[1].

إن بُـروزَ مثـل تلـك الأوضـاع واسـتقرارها لمـدة 200 سـنة كانـت لـه نتائـج ليسـت أقـل كارثيـة مـن محاصيـل سـيئة. وكان يُبحَـثُ عـن المداخيـل مـن خـلال النهـب، والـصراع مـن أجـل السـلطة، وليـس بواسـطة العمـل المنتـج، أو عـبر تنظيـم وحمايـة المنظومـة.

كمـا أن مثـل وضـع المجموعـة الحاكمـة وعـدة كـوارث كذلـك عملـت عـلى خلـق شـعور ثابـت بانعـدام الأمـن لـدى السـكان، وتحدثنـا كتـب التاريـخ عـن الذعـور التـي تندلـع بـدون سـبب وجيـه لـدى سـكان تُمْبُكْتُـو وهـم يفـرُّون مـن السـوق بسـبب صاعقـة، أو ريـح قويـة بشـكل اسـتثنائي[2]. كمـا نعـرف شـعور السـكان بالعيـاء والوهـن، وفقـدان الأمـل لمجـرد الخـبر عـن هزائـم الحـروب وانفعـالات سـكان تُمْبُكْتُـو الذيـن يتـوارون عـن الأنظـار في بيوتهـم، تاركـين الشـوارع فارغـة عندمـا تنطلـق الاضطرابـات[3]. وتخبرنـا كتـب التاريـخ كذلـك عـن مـآسي الأشـخاص المنعزلـين، والمنهوبـين والمنقاديـن إلى فقـدان الأمـل[4]. وحتـى وإن كانـت هـذه الحـالات الأخـيرة متفرقـة، فـإن ذكرهـا في تلـك الكتـب يشـهد بتأثـير حـوادث مماثلـة عـلى النفسـانية -[Psychisme]- الجماعيـة والشـعور العـام بانعـدام الأمـن.

إن المعلومـات بشـأن الأحاسـيس بالذعـر وانعـدام الأمـن كانـت تهـم تُمْبُكْتُـو وجِنِّـي. وزيـادة عـلى ذلـك، نسـتطيع الافـتراض بقـدر كبـير مـن اليقـين بأنهـا كانـت سـائدة في مـدن أخـرى أيضـاً -في كَاوْ، وتِـنْـدِرْمَا، وفي عاصمـة مـالي-. وإثر الأزمـة والتغيرات السياسـية، وقـع هـذان المركـزان الأخـيران في مسـتوى القـرى الصغـيرة ممـا لـم يمكـن حدوثـه مـن دون كل أنـواع الكـوارث التـي أوجبـت إيقـاظ الشـعور بالإخفـاق وفقـدان فـرص النجـاح. وعـلى العكـس، لا نعرف شـيئاً عـن الحالة النفسـية للسـاكنة القرويـة؛ فقـد ذُكِـرَتْ إحـدى الإشَـارَاتُ بسـبب التهديـد المتواصـل بالاجتيـاح وأعمـال النهـب، وهجـرات الجماعـات المحترفـة للأعمـال الفلاحيـة المهـددة بالخطـر. فقـد أمـكن الشـعور -[18]- بانعـدام الأمـن إذن أن يكـون مهـولاً، ولكـن لـم يكـن هنـاك منـاخٌ بفقـدان الأمـل مادامـت الهجـرات تعـرض فرصـة تجنـب الخطـر.

---

(1) T en N, passim. Depuis 1591 jusqu'en 1750 il y avait 151 changements sur le trône des pachas. M. Tymowski, *L'Economie...*, p.28-29.

(2) T es S, p.339; T en N, p.211.

(3) T es S, p.398; T en N, p.44,117,163,167,182-184.

(4) T en N, p.83.

لاحظنا أعلاه بأن الأزمة الاقتصادية والسياسية شَكَّلَتْ بِنِيَةً لم تكن فيها المجاعات والأوبئة سوى أحد العوامل للتأثيرات السلبية. ويَصْعُبُ تحديد ما هو السبب وما هي النتيجة بشكل أكيد في تلك البنية؛ لأن الروابط المتبادلة، وتفاعل عناصرها الخاصة تجعل مثل تلك المهمة مستحيلة. فلا يساعد غياب المعطيات الرقمية وطبيعة بعض الظواهر على تقييم إحصائي دقيق لأهمية عامل آخر، أو هذا وذاك لحالة الأزمة الشاملة. إضافة إلى ذلك يمكن بلورة فرضية كون عاملين خارجيين هما المسؤولان عن نشأة السَّيْل العَرِم من الظواهر السلبية -[وهما]-: انخفاض أسعار الذهب المسبب في انخفاض عائدات التجارة العابرة للصحراء، والغزو المغربي لسُنْغَيْ في -[سنة]-1591م. وأما عناصر بنية الانتكاسة الأخرى، فقد كانت ذات طبيعة داخلية. وكانت رداً للمجموعات الاجتماعية المستوطنة بالسودان النيجري، إلى غاية ظهور الظروف السيئة والاضطرابات السياسية. وعلى المدى الطويل، أظهرت تلك التأثيرات عدم الفاعلية، ولم تساهم إلا في تعميق الأزمة، فظهرت الكوارث، والمجاعات والأوبئة.

إن وضع الأزمة والكوارث لم تُصِبْ كل أراضي السودان النيجري بشكل متساوي. وقد اختصت كتب التاريخ الثلاثة بالأراضي الواقعة بين جِنِّي وتُمْبُكْتُو وكَاوْ. فعندما تتحدث عن الأقاليم البعيدة أو تلك التي ترتبط بعلاقات اقتصاديةٍ أقل أهمية، فإن المادة تحتوي على ثغرات على الأرجح. وفي جميع الحالات، نعثر على المعلومات بشأن الكوارث في دِنْدِي وفي كل السودان النيجري[1]. وفي حالات أخرى، لا تُذْكَرُ الطبيعة العامة للكارثة. ومهما يكن من أمر، فإن وضع مساحة جغرافية للكوارث غير واردٍ. ويمكن العثور على إشارة ما ذات صلة بشدة الأزمة (وبالتالي الكوارث أيضاً) على الأراضي الخاصة، من خلال التاريخ السياسي الأكثر شهرة، وعبر المعلومات حول الهجرات والاستعمار المُقَارَنَة مع المعطيات الديموغرافية اللاحقة للقرنين التاسع عشر والعشرين.

فاعتماداً على هذه المعارف العامة لتاريخ المنطقة، يمكن الإفصاح عن فرضية كون الأزمة صارت أقل حدة كلما كان الاتجاه إلى الجنوب. وبلا شك كانت دِنْدِي ضعيفة بفعل الحروب مع البشوات الرماة مما أمكن من التسبب في تراجع عدد -[19]- السكان. وفي كل الحالات، نعرف بأن الهجرات كانت تُعَوِّضُ تلك الخسائر، ويصعب فقط تحديد أي مدى[2]. فلم يكن حرمان دِنْدِي من

(1) T es S, p.398, 400; T en N, p.63, 191-192 (Djenné); T es S, p.471 (Dendi).

(2) Y. Urvoy, Histoire des populations du Soudan central (colonie du Niger), Paris, 1936,

العلاقـات التجاريـة مـع الشـمال عواقـب كارثيـة، ولكنـه تسـبّب في زوال بنيـات التنظيـم في اقتصـاد تلـك الأراضي التـي كانـت سـائدة في سُـنْغَيْ، ولـم تكـن في دِنْـدِي أيـة مدينـة مهمـة، فعاصمـة تلـك الدولـة لوُلاَمِـي نفسـها لـم تعـد إطلاقـاً مركـزاً مهمـاً[1]. وقـد فقـدت المجموعـة الحاكمـة في دِنْـدِي جـزءًا كبـيراً مـن عائداتهـا خـلال القـرن السـادس عـشر، فعَمِلَـتْ عـلى تعويضهـا بالـصراع مـع البشـوات الرمـاة[2]. إلا أن تاريخَـيْ البشـوات ودِنْـدِي أخـذا -[كل واحـد منهمـا]- منحيَـيْن مختلفـين، ابتـداءً مـن منتصـف القـرن السـابع عـشر.

وكان الرُّمَـاة تبثـوا سـلطتهم وتفوقهـم العسـكري اللذيـن اسـتغلوهما مـن أجـل نهب الشـعوب المجـاورة وكذلـك مواطنيهـم. وفقـدت المجموعـة الحاكمـة في دِنْـدِي أهميتهـا في النصـف الثانـي مـن القـرن السـابع عـشر، والقـرن الثامـن عـشر، وانقسـمت دِنْدِي إلى بضعـة دول صغـيرة[3]. وربمـا كان ذلـك الانقسـام علامـة عـلى التدهـور السـياسي، ولكنـه قـضى عـلى ظاهـرة نشـاط النهـب للمجموعـة الحاكمـة. ولا تـُفَـسِّـرُ المصـادر أسـباب ذلـك التغيـير. فقـد كان نتيجـة تدابـير للقـوى الاجتماعيـة عـلى الأرجـح، لا نعـرف عنهـا شـيئاً، وفي جميـع الحـالات توالـت عـلى دِنْـدِي عقـود أكثـر سـوءًا، بعـد نحـو 50 سـنة مـن الحـروب الطويلـة. وتـم تحديـد عُنْصُرَيْـنِ مُهِمَّـيْنِ لبنيـة التقهقـر وهمـا: الحـروب ونشـاط النهـب للمجموعـة الحاكمـة، ممـا سـاهم بـدون شـك في تراجـع شـدة الكـوارث.

وكان الوضـع الاقتصـادي في أقـصى حـدود الجنوب-الغربـي أكثـر امتيـازا مـن منطقـة جِنِّي-تُمْبُكْتُـو-كَاوْ. فهنـا تكمـنُ بدايـة تشـكل دولـة بمبر-سِـكُـو في القرن السـابع عـشر. وفي القـرن التـالي دخلـت تلـك الدولـة في مرحلـة أقـصى أوجهـا[4]. ولا يخلـو هـذا المـؤشر السـياسي مـن غيـاب الكـوارث بطبيعـة الحـال. إلا أنـه، لـم توجـد في ذلـك الإقليـم بنيـةٌ للتقهقـر مماثلـة لتلـك السـائدة في أقـصى حـدود شـمال ثنيـة النيجـر. وكانـت دولـة سِـكُـو قـادرة عـلى حمايـة رعاياهـا مـن الهجمـات

p.55-63. J. Rouch, Contribution l'histoire des Songhay, Dakar, 1953, p.201-209. Voir aussi T el F, p.297-298.

(1) T es S, p.400,469-470.

(2) T es S, p. 267-270, 296, 300-302, 306-307, 472-473; Rouch, Contribution..., p.218 et 221-222- tableaux récapitulatifs de la lutte entre Marocains et Songhay du Dendi.

(3) Y. Urvoy, Histoire..., p.49 suiv; Rouch, Contribution..., p.223-224.

(4) L. Tauxier, Histoire des Bambara, Paris, 1942; Ch. Monteil, Les Bambara de Ségou et du Kaarta, Paris, 1924; J. Bazin, Guerre et servitude à Ségou, (dans:) L'Esclavage en Afrique précoloniale, éd. Cl. Meillassoux, Paris, 1975, p.135-181.

الخارجية. وقد أشارت كتب تاريخ تُمْبُكْتُو إلى الأهمية العددية لشعب البَمْبَرَ[1]. فهي -[الأهمية]- تجد -[20]- تأكيداً في المعطيات الإحصائية للقرنين التاسع عشر والعشرين[2]. ويشهد التطور السريع للمركز الحضري الكبير -سِكُّو-[3]. بدوره على -[وجود]- مَنْظُومَةٍ تَمْوِينِيَّةٍ جَيِّدَةَ التَّجْهِيزِ، وأكثر من ذلك أنها كانت غزيرة الإنتاج الفلاحي.

ونلاحظ إذن انتقالاً لوزن الحياة الاقتصادية نحو الجنوب في القرنين السابع عشر والثامن عشر مما يتوافق مع اتجاه الهجرات المُشارِ إِلَيْهَا آنفاً وضآلة مردودية استقطاب التجارة العابرة للصحراء. وفي هذا الوضع، نرى تزايد تأثير الظواهر المناخية، وجفاف الساحل.

إن بنية التقهقر الخاصة تشكل تمييزاً جغرافياً لحدة الظواهر السلبية وربما تكييفاً للتنمية الاقتصادية والديموغرافية لبعض المجالات الترابية بواسطة الركود أو انهيار الآخرين.

ويؤكد البرهان المضمن بتواريخ وَلاَتَة، والنِّعْمَة، وتِشِيتْ وجود اختلافات إقليمية مُعْتَبَرَةٍ في توزيع الكوارث ودمارات الحروب. وقد أرهقت المجاعات والأوبئة وكذلك فترات الغلاء سكان تلك البلدات طيلة القرن التاسع عشر[4]. ويُثارُ الاندهاش خصوصاً بالعدد المهم من الأوبئة وتداعياتها الديموغرافية الكارثية. وكانت الأمراض تصيب ساكنة سيئة التغذية ووهنة بالمجاعات. وأخيراً، تذكر التواريخ عدة معلومات حول أعمال السرقة والنهب المُرْتَكَبَةِ من طرف الرُّحل ضد سكان الواحات، وقوافل التجار.

إن من بين الأسباب المباشرة للكوارث، تَذْكُرُ المصادر الجفاف، والبَرَد، وأمراض النباتات والبهائم. أما الأسباب الأكثر عمقاً، فنستطيع إبداء رأي منها بناءً على المعرفة الشاملة لتاريخ المنطقة. فمنذ قرون، كانت الواحات الواقعة في

---

(1) T es S, p.172,274,280.

(2) M. Delafosse, Haut-Sénégal-Niger, Paris, 1919, vol. I, p.150-151; V. Paques, Les Bambara, Paris, 1954, p.5-11.

(3) M. Park, Travels in the Interior Districts of Africa Performed in the Years 1795-1796 and 1797 with an Account of a Subsequent Mission to that Country in 1805, London, 1816, t.1, p.166 et suiv.; G. Brasseur, Les établissements humains au Mali, Dakar, 1968, p.411-412.

(4) Voir tableau II et III.

أقصى جنوب الصحراء تُسَخَّرُ كمحطات مرحلية لقوافل التجار[1]. ففي القرون المناسبة، من الناحية الاقتصادية، بمعنى إلى غاية القرن السادس عشر، زاد عدد سكان تلك الواحات بشكل تجاوز الإمكانيات المتوفرة بإنتاج الأغذية المحلية. وكان بإمكان هذا التطور أن يحدث بفضل الفوائد المستخلصة من التجارة، ودَوْرِ الوساطة، والاشتغال في النقل، وكذلك إنعاش الِحرَف اليدوية التي تَسْتَخْدِمُ المَوادَ الأَوَّلِيَّةَ المجلوبة من الجنوب في الصناعات[2]. وتُجْلَبُ الأَغْذِيَةُ من السودان النيجري و -[21]- بصفة خاصة الدُّخْن -[Le millet]-[3]. وقد أصابت الوضعية السيئة للتجارة الصحراوية إذن اقْتِصَادَ الواحات بشكل مؤلم مما سبب لها تراجعاً في إمكانياتها لشراء الأغذية. وكانت معلوماتنا حول القرن السابع عشر وجزء كبير من القرن الثامن عشر محدودة بكل تأكيد، ولكن يمكن افتراض أن المجاعات في السودان النيجري أدت إلى نقص كبير جداً في تسليم الأغذية في وَلاَتَة، والنِّعْمَة وتِشِيتْ، وواحات أخرى واقعة على المسالك التجارية. وأكثر من ذلك، أن تلك الظواهر كانت مرتبطة فيما بينها كما تدل على ذلك مصادر القرن التاسع عشر. ذلك أن أثمان الملح والأقمشة انخفضت أثناء المجاعات فقلصّت بذلك مردودية التجارة.

وكانت أعمال النهب المرتكبة بسبب الفقر الذي كان يعيش فيه الرحل هي التي تحكمت في التجارة، وأدخلت عنصراً للاضطراب، وزادت في المخاطرة وكذلك في المصاريف. ومن جهة أخرى، نعلم من المصادر أن المجاعات والأوبئة تسببت بوفيات كبيرة في الواحات، وبالخصوص بين العبيد[4]. وكان ذلك مفهوماً -لأن الأكثر فقراً كانوا هم الأكثر تعرضاً للإصابة- وأدت وفيات العبيد في المجال الفلاحي إلى نقص إنتاج الأغذية المحلية، وهو النقص الذي كان أكبر من تراجع عدد المستهلكين نسبياً. فصارت المجاعة أكثر ضرراً وأكثر دواماً.

لذلك، لدينا أيضاً مسألة تركيب بنيوي لعوامل مختلفة كانت مصدر الأزمة،

(1) R. Mauny,Tableau..., p.69-70, 484-485; D. Jacques-Meunié, Cités anciennes de Maurita-nie, Paris, 1961, p.57-59, 71-75.

(2) J. Léon l'Africain, Description de l'Afrique, éd. par A. Épaulard, Paris, 1956, t.2, p.420-423; M. Malowist, Wielkie państwa..., p.297 et suiv.; J. Devisse, Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle, « Revue d'Histoire Economique et Sociale », 1972.

(3) Ibn Battuta, Textes..., p. 41-44.

(4) Les Chroniques de Oualata..., p.362, 370, 382.

في واحــات الصحــراء الجنوبيــة. ويمكــن الاعتقــاد بــأن انكمــاش التجــارة والمجاعــات التــي تلتهــا، كانــت بواعثــه -[التركيــب البنيــوي]- الســلبية الأوليــة. ففــي القــرن التاســع عــشر، وبعــد فــترة طويلــة مــن الأزمــة ونقــص في ســكان الواحــات، أصبحــت الأوبئــة هــي الكارثــة الأكثــر شــيوعاً. ويــدل هــذا العامــل عــلى الضعــف الإحيائــي للســكان.

أمــا كتــاب تواريــخ وَلَاتَــة، والنِّعْمَــة، وتِشِــيتْ، الآخــرون، فقــد تحدثــوا قبــل كل شيء عــن قراهــم الخاصــة. وأحيانــاً، كانــوا يضيفــون ملاحظــات إضافيــة حــول مــدى قــوة مجاعــة أو وبــاء. فنعلــم بذلــك بأخبــار الكــوارث في تُمْبُكْتُــو، وأَرَوَانْ، وشَنْــكِـيـــــطِي، و« السَــودَان»، و» في كل بــلاد التَّكْرُور»[1]. وفي هــذه الحالة كذلك، مثلمــا هــو عليــه شــأن تفســير مظــان كتــب تاريــخ تُمْبُكْتُــو الثلاثــة، فمــن الصعوبــة تقديــر مــدى كــون المعلومــات بشــأن الكــوارث الطارئــة خــارج البَلْــدَات التــي عــاش بهــا المؤلــف مُسْــتَـوفِــيَةً. فبــدون شــك، لــم يتعلــق الأمــر ســوى بمعطيــات جزئية. ولا نملــك أي تأكيــد بــأن الأزمــة في الســودان النيجــري كانــت أكثــر قــوة مــن ماهــي عليــه في الواحــات -[22]- الصحراويــة، في القــرن التاســع عــشر. وقــد أمكــن جلــب دفعــات غــير كافيــة مــن الأغذيــة مــن الجنــوب في -[نفــس]- القــرن، بســبب قلــة الســلع، أو تراجــع مردوديــة التجــارة، أو بـــــفعل عــدم توفــر اقتصــاد الواحــات عــلى الــشيء الكثــير لتقديمــه. غــير أننــي مســتعد للإفصــاح عــن نظريــة أن التمايــز الإقليمــي لحالــة الاقتصــاد في إفريقيــا الغربيــة في القــرن التاســع عــشر كان كبــيراً جــداً؛ وواحــات الصحــراء الجنوبيــة وجــدت نفســها في الوضعيــة الأكثــر صعوبــة.

لقــد قادنــا تحليــل أســباب المجاعــات والأوبئــة التــي أنهكــت داخــل إفريقيــا الغربيــة منــذ القــرن الســادس عــشر إلى القــرن التاســع عــشر، إذن إلى الاســتنتاجات التاليــة: لقــد كانــت الكــوارث المذكــورة آنفــاً إحــدى عوامــل الأزمــة الشــاملة لتلــك الأراضي. كمــا أن الاندفــاع الســلبي الأولي لتلــك الحالــة كان منبثقــاً عــن انخفــاض مردوديــة التجــارة العابــرة للصحــراء غــير المُعوَّضَــةِ بالنمــو الاقتصــادي المحــلي مــن جهــة، ثــم عــن الغــزو المغربــي لســنة 1591م الــذي أدى إلى التفــكك الســياسي. فتســبب كل ذلــك في سَــيْلٍ عَــرِمٍ مــن التأثــيرات الســلبية والتفــكك الاجتماعــي. ولــم تعمــلْ محاولات المجموعــات الاجتماعيــة المختلفــة لتثبيــت مواقعهــا ومداخيلهــا ســوى عــلى زيــادة الأزمــة ســوءًا. ثــم جــاءت فــترة مــن المجاعــات والأوبئــة، ونقــص في عــدد الســكان،

(1) Les Chroniques de Oualata... p. 360, 362, 370, 371, 389-390; Les Chroniques de Tichit... p.289, 291.

والفاقـة الجماعيـة التـي رافقتهـا مـع ذلـك زيـادة الفـوارق الاجتماعيـة. كمـا كان نشـاط النهـب للرمـاة بصفـة خاصة مـضراً جـداً. وفي الصحـراء، ومنـذ القـرن الثامن عـشر، كانـت لاعتـداءات الرحـل في إقليمـي تُمْبُكْتُـو وكَّـاوْ كذلـك، نتائـج مشـابهة. وزادت الصراعـات المسـتمرة التَّـفَكُّـكَ السِّـيَاسِي المُبْتَـدِأَ في 1591م خطورة. فتشـكلت بنيـة تَقَهْقُـرٍ قامـت عـلى ترابـط الظواهـر السـلبية. وقـد أخـرّت تلـك البنيـة في ذاتهـا عامـل تنشـيط الأزمـة، لأن ترابـط العوامـل السـلبية أدت إلى زيـادة الأزمـة خطـورة. وكان هنـاك كذلـك مظهـرٌ جغـرافيٌّ للأزمـة مرتبـطٌ بالاختلافـات الإقليميـة الكـبرى. وهنـا، يتعلـق الأمـر أيضـاً بالـتَّـمَايُـزِ التَّـزَامُـنِي (كانـت عـدة أقاليـم متأثرةً بالأزمـة بشـكل غير متسـاويٍّ في نفـس الفترة) أكثـر مـن الـتَّـمَايُـزِ التَّـسَلْسُـلِي (تخلّصـت الأقاليـم المُعَـيَّـنَةِ مـن الأزمـة في فـترات مختلفـة).

وانتهـت الأزمـة باكـراً جـداً في الجنـوب حيـث كانـت فيـه أقـل انتشـاراً، وفي شـمال السـودان النيجـري دامـت طويـلاً أكثـر، وفي الواحـات الواقعـة عـلى مشـارف الصحـراء والسـاحل كانـت أكثـر دوامـاً وشـدة.

إلا أنـه، وبشـكل مسـتقل عـن تلـك الاختلافـات الإقليميـة، أصبـح السـودان النيجـري إضافـة إلى نطـاق الواحـات في الصحـراء الجنوبيـة، وهـي -[في مجموعهـا]- البلـدان الأكثـر تطـوراً مـن الناحيتـين الاقتصاديـة والسياسـية في إفريقيـا الغربيـة، إلى غايـة القـرن السـادس عـشر، و الأكثـر تأخـراً بعـد بضعـة قـرون مـن الأزمـة.

-[23]- الجدول 1--: كوارث طبيعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر في ثنية النيجر.

السنوات	طبيعة الكارثة. المظاهر	الأسباب المباشرة	المصدر
1616-1617	مجاعة في إقليمي تُمْبُكْتُو وجِنِّي، وغلاء معيشة. سعر الصرف: 1 مثقال ذهب = 300 ودعة. وقوع وفيات كثيرة بعد المجاعة والوباء. دامت المجاعة سنتين. إفقار السكان. إعفاء الضرائب من طرف الباشا في سنة 1618. وفي نفس الفترة مجاعة في دِندِي.	إمتطاح ضخم جداً في سنة 1616. فيضانات في الحقول وخسائر في المحاصيل ونقص في المواشي. أدت المجاعة إلى وباء. وفي سنة 1617 جفاف.	تاريخ السودان، صص: 337، 339، 341. تذكرة النسيان، ص: 189. تذكرة النسيان، ص: 471.
1639-1643	ظهور المجاعة في جِنِّي في سنة 1639، ثم امتدت لتشمل ثنية النيجر بكامله. ثورة في جِنّي ضد الباشا. مصادرة ممتلكاته في جِنّي وتُمْبُكْتُو، وكانت خزينته فارغة.	سبب مجهول. ظهر في جِنّي ويفترض إذن أن تكون المحاصيل سيئة في هذا الإقليم.	تاريخ السودان، ص: 398،400،402،404.
1657-1659	وباء. وفاة عدد من الأشخاص. سمي الوباء بـ: «كارثة كبرى».	-	تذكرة النسيان، ص: 6، 5.
1669-1672	وباء في سنة 1672. وقوع مجاعة ما بين سنتي 1669 و1671 على الأرجح.	جفاف سنتي: 1669 و1670	تذكرة النسيان، ص: 7، 256، 257.
1688	وباء، سُمِيَ بـ: تَلِي.	-	تذكرة النسيان، ص: 10، 191.
1695	مجاعة سميت بـ: بَشِي.	-	تذكرة النسيان، ص: 100.
1704	مجاعة ووباء سمي بالبَمْبَرَ بـ: بَنَ - فَسَ أي: «عصب المرض» أو «مرض الأعصاب».	إمتطاحٌ ضخم جداً للنيجر.	تذكرة النسيان، ص: 14.

1711-1716	- مجاعة كبرى سميت بـ: «مِنَ-كِي-كُـيْ» شملت كل ثنية النيجر. هبوط سعر الصرف إلى 1 مثقال ذهب= 700 ودعة. إدخال مِكْيَالٍ جديد للحبوب ذي سعة ضعيفة. تمرد الحامية العسكرية في جِنِّي سنة 1713. الضريبة في سنة 1714.	–	تذكرة النسيان، ص: 63، 191، 192.
1721-1722	مجاعة سميت بـ: أَلْتِقْ أُوكَرْبَيْ-هُرْنُو.	–	تذكرة النسيان، ص: 192.
1738-1751	حلقة من الكوارث شديدة الحدة، على مدى زمني طويل. مجاعة سنة 1738 وسميت بـ: «10.000 بَرِي-بُورِي». وباء في سنة 1741. ومجاعة ما بين سنتي 1741 و1744. انتشار البؤس إلى سنة 1751. نقصٌ في السكان وفقرٌ جماعي. ارتفاع سعر القمح إلى 10.000 ودعة للقمح (المد). انهيار الصناعات اليدوية. لم يتغير سعر صرف المثقال: 1 مثقال ذهب= 3.000 ودعة. تضاعف الضريبة إلى 7 مرات.	–	–

المعطيات تَقِلُّ، والمعلومات التالية غير كاملة[1]*:

1770-1771	مجاعة في تُمْبُكْتُو.	–	پول مارتي: Les Chroniques de Oualata et Nema (Soudan Fr.) Rev. Étu. Isl. 1927, Fasc: 3-4, pp:355, 426; 531, 575.
1792-1793	وباء في وَلَاتَة. ممكن في تُمْبُكْتُو في وقت سابق، أو في نفس التاريخ.	–	
1795-1796	جراد بنواحي تُمْبُكْتُو (في غرب المدينة).	–	

(1)

* لما سبق إنجاز هذا العمل (1982م)، ظهر كتاب: تُمْبُكْتُو في أواسط القرن الثامن عشر من خلال تاريخ مولاي القاسم بن مولاي سُليمان الذي قدم له وترجمهُ مِيشِيلْ أَبِيطْبُولْ، باريس، 1982. ويخصُّ هذا التاريخ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وسدّ ثغرة في المصادر المعروفة إلى الآن، وهي تقدم معلومات عن الكوارث الآتية:

السنة	طبيعة الكارثة	الصفحة
1748- 1749	وباء	ص.2
1755	زلزال	ص.3
1758	وباء	ص.5
1762- 1763	وباء	ص.7
1766	وباء أصاب الرحل	ص.8
1770	مجاعة	ص.11
1792- 1793	طاعون	ص.22، 23

ونضيف بأن كارثة وباء 1792-1793 كانت معروفة في مصدر آخر مذكور في الجدول كما تتوفر على معلومات حول كارثة جراد سنتي 1795 و1796. فبذلك تكون السنوات الممتدة بين سنتي 1751 و1800 قد عرفت 10 سنوات من الكوارث مما يشهد على الحالة السيئة دائماً في تُمْبُكْتُو، ولكن، من جهة أخرى، يفسح المجال لملاحظة بعض التحسُّن بالنسبة للنصف الأول من القرن الثامن عشر.

-[25]- الجدول 2: كوارث أولية حسب تواريخ وَلاَتَة (القرن 19م) .

السنوات الإسلامية والمسيحية	نوع الكارثة/المكان	معلومات إضافية	الصفحة في تواريخ وَلاَتَة -[النسخة الفرنسية]-
1219هـ/1804-1805	وباء في وَلاَتَة	عدد كبير من الوفيات	358
1227 هـ/1812-1813	مرض في وَلاَتَة	عدد كبير من الوفيات. وحسب تاريخ تِيشِيتْ وقعت تلك الأحداث في سنة (2) 1811*.	359
1237هـ/1821-1822	ارتفاع أسعار الأغذية في وَلاَتَة بالخصوص.	سنة سميت بـ: «الكُرْتُومْ» مما يعني «بِلاَ نهاية».	360
1238هـ/1822-1823	وباء الجُدَري في وَلاَتَة وانتشار في إقليم تَكَانْتْ.	_	360
1239هـ/1823-1824	ارتفاع أسعار الأغذية	سنة سميت بـ: "النُوسِرِيَّة" [بلدة التجأ إليها سكان وَلاَتَة].	361
1241هـ/1825-1826	ارتفاع أسعار الأغذية في وَلاَتَة	سنة سميت بـ: «حَفْصَة».	361
1246هـ/1830-1831	وباء في أحواز وَلاتَة	عدد كبير من الوفيات. سنة سميت بـ: «عام المْرْض».	361

(2) * كانت تلك المعلومة إشارة من مؤلف حوليات وَلاَتَة، فإذا تعلق الأمر بتلك الوباء، فإن حوليات تشيت لا تذكره!.

1249ه/1833–1834	جفاف حاد ومجاعة في تَكْرُورْ، ووَلاَتَة وأَرَوَانْ والقُرَى السودانية.	انخفاض سعر لوحة ملح -[العَدِيلَة] إلى مستوى مدِّ زرع (وكان ما بين 20 إلى 25 مدّاً بشكل عام). عدد كبير من الوفيات. شملت «العبيد وغيرهم» بسبب المجاعة. سميت السنة بـ: «عام شِرْوَاقْ» [يعني ما بَدَأَ خَيْراً وانْتَهَى شَراً].	362
1271ه/1854–1855	مجاعة في تِشِيتْ	مجاعة بسبب البَرَدِ. هبوط سعر الملح إلى مستوى مد قمح واحد مقابل لوحة ملح.	365
1278هـ/1861–1862	وباء الجُدَري في وَلَاتَة	عدد كبير من وفيات الأطفال.	369
1281هـ/1864–1865	مجاعة في «وَلَاتَة والسودان»	أَكَلَ النَّاسُ ثَمَرَ شجرٍ عرف بـ: «صِيفَةُ أوزَاقٍ». وفاة عدد كبير من العبيد.	370
1282ه/1865–1866	وباء أصاب البَقَرَ في الحَوْضِ.	_	370
-[26]- 1286ه/1869–1870	«وقع المرض في وَلَاتَة، وتِشِيتْ، والسودان، وتُمْبُكْتُو، وأَرَوَانْ، في أرض التَّكْرُورِ جميعاً».	بدأ المرض في شهر دجنبر من سنة 1869 بوَلاَتَة. ومات بسببه 300 من أهلها. وأحصى المؤلف الأعيان الأكثر وجاهة.	371
1287هـ/1870–1871	وباء في وَلَاتَة	نُقِلَ المَرَضُ من طرف الرَّحلِ في شهر مايو من سنة 1870. ودام شهراً. خلّف عدداً من الوفيات.	371
1297ه/1879–1880	وباء الجُدَري في وَلَاتَة	أحصى الكَاتبُ الشخصيات البَارِزَةَ التي توفيتْ.	375

1298هـ/1880-1881	وباء عُرِفَ بـ: «لْـفُيْـسِـدْ» [طفح البَثَرات] في وَلاَتَة.	في هذه السنة -عدد كبير من المرضى في شنقيط، خصوصاً بين الحجاج العائدين من مكة.	376
1302هـ/1884-1885	وباء الجُدَري في نواحي وَلاَتَــة	وفيات كبيرة بين الرحل	379
1306هـ / 1888-1889	مجاعة عظيمة بوَلاَتَة	بيعت لوحة ملح بمُدٍّ واحد من القمح. وقوع وفيات كبيرة وخاصة بين العبيد.	382
1311هـ/1893-1894	مجاعة عظيمة بوَلاَتَة	بدأت المجاعة في بداية السنة الهجرية، يعني في يوليوز من سنة 1893. بيعت قطعة قماش غينية بمُدٍّ قمح واحد. وأكل الناس حبوب الأعشاب.	387-388
1312هـ/ربيع الأول 1313هـ/1894-1895	وباء في التَّـكْــرُورِ، وكان عظيماً في وَلاَتَــــة	اختفى الوباء في شتنبر 1895/1313هـ. عدد كبير من الوفيات.	389-390
1314هـ/1896-1897	وباء الجدري في وَلاَتَــــة	أسماء شخصيات بارزة جداً ضمن المتوفين.	391
1315هـ/1897-1898	أوبئة في وَلاَتَــــة	دامت الأوبئة فصل الشتاء. ذكر شخصيات بارزة جداً ضمن المتوفين.	391
1316هـ/1898-1899	وباء خفيف من الحمى ووجع البطن	أصاب هذا الوباء النساء والصبيان بالخصوص.	393

-[27]- الجدول 3: كوارث أولية حسب تواريخ تِــشِيــتْ.

الصفحة في تواريخ تيشيت	معلومات إضافية	نوع الكارثة/المكان	السنوات الإسلامية والمسيحية
285	_	نقص في الماء	1225هـ/ 1810-1811
285	_	وباء الجدري في تَكَّانْتْ	1238هـ/1822-1823
287	حروب بين القبائل	نـدرة المـاء عنـد الأَغْـلاَلِ. وبـاء الجُـدَرِي عنـد السُّـحْيَانِ.	1278هـ/1861-1862
289	اجتياح الجراد لـ [كل البلدان]. مجاعة في كل البلدات المعدودة. [باستثناء بلاد التَّكْرُورِ]. اجتياح الرحل لتِشِيتْ ونَهْبٌ.	انتشارُ الجراد، وقحط ووباء الأبقار، ومجاعة في تِشِيتْ، وشَنْقِيطْ، ووَلاَتَة وأَرَوَانْ، وتُمْبكْتُو.	1282هـ/1865-1866
_	إنتقال المرض إلى التَّكْرُور كلها.	مرض النخيل الذي يقضي على إنتاج التمور. ندرة الماء.	1283هـ/1866-1867
291	أكثر من 100 قتيل في تِشِيتْ. عدد كبير من الحروب وأعمال نهب.	وباء في تِشِيتْ، وتِجِيكْجَة، ووَلاَتَة.	1286هـ/1869-1870
294	بلدة غير محدَّدَة، ويحتملُ أن تكون تِشِيتْ.	فَقْرٌ شَدِيدٌ سُمِيَ بـ: لِمْكَبُولْ.	1289هـ/1872-1873
298	وفاة الشيخ -[شيخ القبيلة]- وعددٌ من رجاله.	وباء منتشر عند الحَمُنَاتِ	1306هـ/1888-1889

1307هـ/1889-1890	جفاف في كامل المنطقة باستثناء شَنْــــقِــــيطْ. مجاعة عظيمة في تِشِيتْ.	بِيعَتْ العَدِيلةُ (لوحة ملح) الواحدة بمُدٍّ واحد من القمح، وبيضة واحدة بمدٍّ ونصف من القمح. إحصاءُ أسماء الشخصيات البارزة التي توفيت.	298
1308هـ/1890-1891	انتشار الجراد الذي أتْلَفَ النخيل في بداية ونهاية السنة.	-	298
1310هـ/1892-1893	بَـــــــرْدٌ عظيم	سـنة سـميت بـ: "عـام الظْـلاَمْ" نظـراً لكســوف الشـمس.	298
1311هـ/1893-1894	أمطارٌ عظيمة. دمارُ عددٍ كبيرٍ من المنازل	سـنة سـميت بـ: «عـــام أَرَادَنْــتْ لَــ گِـــــنْـــــدْ » .	299
1314هـ/1896-1897م	وباء الجُدَري	-	300
1318هـ/1900-1901م	حالات الإصابة بالجُدَري، معزولة	إحصاء أسماء الشخصيات البارزة التي توفيت.	300

المجاعات والأوبئة في ولاتة وتيشيت في القرن التاسع عشر

إعداد: د. ميشال تيموسكي[1]
ترجمة: د. بوشعيب الساوري[2]

تقديم:

يعالج ميشال تيموسكي (Michal Tymowski) في هذا المقال ظاهرة المجاعات والأوبئة وغيرها من الآفات التي اجتاحت منطقة الصحراء، باعتبارها واحدة من الأعراض المهمّة للأزمة الاقتصادية والديموغرافية خلال القرن التاسع عشر، مسلطاً الضوء على الوضعية الاقتصادية وعلاقات المنطقة بشمالها وجنوبها، انطلاقاً من مصادر قيّمة وغير مستثمرة بما يكفي، وهي **حوليات ولاتة**، التي نشرها بول مارتي (Paul Marty) في عام 1927م، و**حوليات تيشيت**، التي نشرها فانسان مونتيل (Vincent Monteil) في عام 1939م.

نص الترجمة:

جرياً على العادة، كان تاريخ إفريقيا الغربية يركّز على المشكلات السياسية. غير أنّه، في السنوات الأخيرة، ركّزت الأبحاث أيضاً على المُشكلات الاقتصادية والاجتماعية. وقد ظهرت العديد من المنشورات المكرّسة لهذه المشكلات، ويتعلّق معظمها بالفترة الممتدّة حتى نهاية القرن السادس عشر[3]. توجد

---

(1) Michal Tymowski, «Famines et Epidémies a Oualata et a Tichit au XIXe Siècle», **Africana Bulletin**, n°27 (January 1978): 35-53.

(2) أستاذ التعليم العالي، مختبر اللغات والفنون والعلوم الإنسانية، كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الأول، سطات، المملكة المغربية.

(3)- ملخص هذا البحث الذي تم إجراؤه حتى عام 1960، انظر:
R. Mauny, **Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age** - (cité plus loin: R. Mauny, Tableau), Dakar, 1961.
وانظر أيضاً: الأعمال السوفيتية المنشورة لاحقاً والمجهولة لموني:
D. Olderogge, Zapadnyi Soudan w XV-XIX ww. (Le Soudan Occidental aux XV XIX ss.), Moskva 1960; L. Kubbel. Iz istorii drevniego Mali» (De l'histoire de l'ancien Mali), in : Afrikanski Etnografičeski Sbornik, 1963, V, pp. 3-118 ; id., Songayska dierjawa (L'État du Songhay), Moskva 1974. En Pologne M. Małowist, Wielkie państwa Sudanu Zachodniego w późnym średniowieczu (Les grands États du Soudan Occidental dans le bas Moyen Age), Warszawa 1964.

عـدد مـن المؤلفـات، محـدودة للغايـة في الوقـت الحـالي، تتعلّـق بالقرنـين السـابع عـشر والثامـن عـشر. ومـن بـين هـذه الأعمـال الأخـيرة، المؤلفـات التـي تتنـاول المجاعـات والأوبئـة، والتـي يجـب اعتبـار حدّتهـا كأحـد الأعـراض المهمّـة للأزمـة الاقتصاديـة والديموغرافيـة في ذلـك الوقـت(1). تسـتند هـذه الأعمـال إلى مصـدر قيّـم للغايـة والمتمثـل في السـجلات التـي كتبَهـا علمـاء تمبكتـو، وخاصـة تاريـخ السـودان وتذكـرة النسـيان(2). ومـع ذلـك، فـإن المعلومـات الـواردة في هـذه السـجلات تتوقّـف في منتصـف القـرن الثامـن عـشر تقريبـاً. وهكـذا، لـم يتـم تحليـل أي آفـة مـن آفـات القـرن التاسـع عـشر.

أود التأكيـد عـلى وجـود مصـادر قيّمـة وغـير مسـتثمرة بمـا يكفـي تسْـمح لنـا بمواصلـة سـجل المجاعـات والأوبئـة في القـرن التاسـع عـشر، وتحليـل عواقـب هـذه الآفـات. يتعلّـق الأمـر بحوليـات ولاتـة، التـي نشرهـا بـول مارتـي (Paul Marty) في عـام 1927م، وحوليـات تيشـيت، التـي نشرهـا فانسـان مونتيـل (Vincent Monteil) في عـام 1939م(3). عـلى عكـس العناويـن التـي أعدّهـا ناشراهـا، تتوافـق هـذه الأعمـال مـع فكـرة الكتـاب السـنوي المطبّـق في دراسـات الباحثـين المختصّـين في القـرون الوسـطى. لا يجـد بهـا المـرء سـوى معلومـات موجـزة تتكـوّن مـن بضـع جمـل فقـط، أو جملـة واحـدة فحسْـب، حـول الأحـداث الأكثـر أهميـة. تشـير هـذه المعلومـات عـادةً إلى السّـنة لا غـير وتكتفـي أحيانـاً بالإشـارة فحسـب إلى شـهر الحـدث المعنـي.

إن التّعليقـات والملاحظـات التـي قدّمهـا محـرر حوليـات ولاتـة هزيلـة للغايـة ولا يمكنهـا حـل العديـد مـن القضايـا الجوهريـة. لا يوفّـر نـص الحوليـات نفسـه

---

(1) S. M. Cissoko, Traits fondamentaux des sociétés du Soudan Occidental du XVII^e au début du XIX^e s., BIFAN, Série B, t. XXXI, 1969, pp. 1-30; id., Famines et épidémies à Tombouctou et dans la boucle du Niger du XVI^e au XVIII^e s., BIFAN, série B, t. XXX, 1968, pp.806-821.

(2) Tarikh es-Soudan par Abderrahman ben Abdallah ben Imran es-Sa'adi, texte arabe édité et traduit par O. Houdas, (cité plus loin : Tarikh es-Soudan), Paris 1964 ; Tedzkiret en-Nisian fi Akhbar Mulouk es-Soudan, traduction française, texte arabe édité par 0. Houdas (cité plus loin : Tedzkiret en-Nisian), Paris 1966.

(3) Les Chroniques de Oualata et de Nema (Soudan français), (cité plus loin : Les Chroniques de Oualata), trad. et publ. par Paul Marty, Revue des Éludes Islamiques, T.1., 1927, pp. 355 426 et 531-575; Les Chroniques de Tichit (Sahara Occidental), (cité plus loin: Chroniques de Tichit), traduction annotée par Vincent Monteil, Bulletin de l'IFAN, 1939, t. 1., fasc. 1, pp. 282-312.

معلومــات أكثــر مــن التعليــق غــير الــكافي للمحــرّر. تمّــت كتابــة حوليــات ولاتــة في بدايــة القــرن العشريــن، بعــد دخــول الفرنســيين إلى هــذه البلــدة. وهــي تغطّــي الفــترة مــا بــين 1549 (اعتــلاء أســكيا داود عــرش ســونغاي) و1917م. ويشــير المؤلــف في المقدمــة إلى أنّــه اعتمــد عــلى الحوليــات والكتــب السّــنوية التــي كتبهــا علمــاء آخــرون في المنطقــة، وأنــه اســتخدم أخبــاراً شــفهية[1]. لســوء الحــظ، فــإن النبــذة حــول المصــادر التــي اســتخدمها المؤلــف غــير مكتملــة للغايــة. يذكــر اســمين مــن أســلافه بوصفهــم مؤلّفــي حوليــات، ويذكــر الكتــب الســنوية التــي كان مؤلفوهــا مجهولــين بالفعــل في ذلــك الوقــت. لا يمكــن إنــكار أن البحــث في الأرشــيف يمكــن أن يزيــل الكثــير مــن الشــكوك، ونأمــل أن يتــم اكتشــاف نصــوص أخــرى، ممّــا ســيثري معرفتنــا بمــاضي ولاتــة. لا نســتطيع، في الوقــت الحــالي، تحديــد الفــترات التــي تشــير إليهــا الأعمــال التــي اســتخدمَها مؤلــف حوليــات ولاتــة. بعــض الافتراضــات ناتجــة عــن تكويــن هــذه الحوليــات، حيــث توجــد اختلافــات في حجــم النّــص المكــرس لعــدة قــرون.

الجــزء الأول مــن حوليــات ولاتــة قليــل التفاصيــل؛ لا يوجــد بــه ســوى عــدد قليــل مــن الأحــداث المتعلّقــة بالقرنــين الســادس عــشر والســابع عــشر. يمكــن للمــرء أن يعــترف بــأن هــذه الفجــوات ناتجــة عــن نقــص الأخبــار وخاصــة مــن المســافة التاريخيــة لبضعــة قــرون التــي تفصــل المؤلــف عــن الأحــداث التــي يصفهــا. عــرض القــرن الثامــن عــشر أكثــر تفصيــلاً نســبياً، بينمــا الأخبــار الخاصــة بالقــرن التاســع عــشر وبدايــة القــرن العشريــن وفــيرة. في تواريــخ مختلفــة (ســنوات)، لا يكتفــي المؤلــف بــإدراج خــبر واحــد فحســب؛ بــل يــدرج عــدة أخبــار مختلفــة. ليــس لدينــا يقــين فيمــا يتعلــق بمعيــار المؤلــف عندمــا اختــار الأحــداث التــي اعتبرهــا جديــرة بــأن تنقــل إلى الأجيــال القادمــة. لذلــك، لا نعــرف مقــدار الأخبــار التــي كان مــن الممكــن أن تهمّنــا والتــي لــم يتــمّ تضمينهــا في النــص النهائــي. كان هــذا، مــن ناحيــة، بســبب الاختيــار الــذي قــام بــه المؤلــف، ومــن ناحيــة أخــرى، يرجــع إلى حقيقــة أنــه لــم يكــن عــلى علــم بأحــداث معينــة. تتعلّــق هــذه الملاحظــة الأخــيرة فقــط بالقــرون القديمــة جــداً. كان المؤلــف عــلى إلمــام كبــير بالقــرن التاســع عــشر، ليــس مــن خــلال الأعمــال المكتوبــة فحسْــب، ولكــن أيضــاً جزئيــاً مــن خــلال تجربتــه الخاصــة.

يبــدو أن نطــاق الخــبر الشــفهي والتقاليــد التــي وصفتهــا حوليــات ولاتــة تتعلّــق بفــترة ســابقة عــلى القــرن التاســع عــشر كلــه. تــمّ جعْــل اســتمرارية النقــل الشــفهي

(1) Les Chroniques de Oualata, op.cit., p.356.

للتقاليد داخل الثقافات الإفريقية موضع تقدير. تتعلّق هذه الاستمرارية، قبل كل شيء، بالثقافات التي لا تستخدم الكتابة أو لا تستخدمها إلا في نطاق محدود للغاية. في حالتنا، نحن نتعامل مع مؤلف ممثّل لمجموعة استخدمت الكتابة لعدة قرون. وبالتالي، فإن المعلومات الشفهية التي كان يجمعها من أعضاء مجموعته تتعلّق بحياة جيلين أو ثلاثة أجيال سابقة لا غير. وقد نُقلت هذه المعلومات إليه بشكل عام عن طريق شهود عيَان على الحدث المعني (جيل والد المؤلف أو جدّه). ومع ذلك، لا يستبعد أن يكون المؤلّف قد جمع أخباره من ممثّلي مجموعات أخرى من السكّان الأميين. في هذه الحالة، كان للنّقل الشفهي أهمية ومدة أكبر. انطلاقاً من المواد الواردة في الحوليات نفسها والافتراضات التي توصلنا إليها للتو حول خصوصية من زوّدوه بالأخبار والمصادر التي استخدمها المؤلف، يمكننا أن نفترض أنه كان أكثر دراية بالقرن التاسع عشر، على الرغم من أنه لا يمكن استبعاد وجود ثغرات حتى في الأخبار حول هذه الفترة.

كان المؤلف يسعى إلى تسجيل المعلومات بدقة حول المجاعات والأوبئة والآفات الأخرى. كانت لهذه الأحداث أهمية كبيرة وكان لها تأثير حاسم على حياة ولاتة، فقد كان المؤلف مهتمّا بها بسبب انتمائه الاجتماعي إلى مجموعة الأولياء الأثرياء. من المحتمل جداً أن المؤلف كان، مثل غيره من علماء ولاتة، يعمل في التجارة. كان الأولياء والتجّار مهتمين بشكل مباشر بعواقب الآفات. استحوذت الأوبئة على العديد من الممثلين البارزين لهذه المجموعة، الشخصيات التي كانت معروفة وكانت تحظى باحترام بشكل عام. كانت الخسائر الناجمة عن الكوارث تقع على ممثّلي المجموعة ذات الامتياز والثرية، وخاصة على التغيّرات غير المواتية للأسعار، والصعوبات التجارية، وزيادة معدّل وفيات العبيد. هذه هي الأسباب التي جعلت مؤلف حوليات ولاتة يولي اهتماماً كبيراً بالمجاعات والأوبئة. هذا هو السّبب في أنّنا نعتبِر المواد المتعلّقة بنكبات القرن التاسع عشر جديرة بالثقة إلى حدّ ما وشبْه كاملة، على الرغم من أنّه من الواضح أن بعض الآفات يمكن أن تكون قد حدثت، وأفلتت من معرفة المؤلّف ولم تظهر في حولياته (وينطبق هذا أساساً على النصف الأول من القرن التاسع عشر).

لا يوجد سبَب يدعو المؤلّف إلى تزييف الصّورة وتوسيع عدد السنوات الكارثية، على الرغم من أن هذا ربّما يخدم مصالح السلطات الاستعمارية الفرنسية. في وقت دخولهم إلى الواحة، أصبح الفرنسيون على دراية بالمجاعات والأوبئة التي

ابتـلي بهـا سـكان ولاتـة في الماضي، ثـم أشـاروا إليهـا مـراراً وتكـراراً في وقت لاحـق[1].
مـن المؤكـد إلى حـدّ مـا أن الفرنسـيين أشـاروا إلى الآفـات الحقيقيـة التـي كان السـكان يعرفونهـا جيـداً. يبـدو مـن غـير المحتمـل أن السّـلطات الاسـتعمارية المحليـة مارسـت ضغوطـاً عـلى المؤلـف للمبالغـة في عـدد الأوبئـة والمجاعـات، والأكثـر مـن ذلـك أن العقـد الأول مـن القـرن العشريـن، الفـترة التـي سـبقت مبـاشرة دخـول الفرنسـيين إلى البـلاد، كان مناسـباً جـداً، وفقـاً للسـجلات التاريخيـة. لـم يذكـر بهـا المؤلـف أي آفـة.

يجـب أيضـاً التأكيـد عـلى أن هـذا المصـدر يغطّـي فـترة طويلـة نسـبياً، بمـا في ذلـك القـرن التاسـع عـشر بأكملـه. نحـن لا نتعامـل مـع مـادّة مختـارة مـن هنـا ومـن هنـاك، ولكـن مـع مـادة كاملـة ومتجانسـة نسـبياً. مـن ناحيـة أخـرى، نظـراً لشـكل الكتـاب السـنوي، المكـوّن مـن ملاحظـات موجـزة، لـم ندمـج جميـع الظواهـر المرتبطـة بهـذه الآفـات، ولا جميـع العواقـب الناتجـة عنهـا. توجـد ثغـرات ملموسـة في هـذا المجـال.

تخـصّ هـذه الملاحظـات أيضـاً حوليـات تيشـيت، التـي حرّرهـا فانسـان مونتيـل. نحـن نتعامـل مـع نـصّ كتبـه ممثـل عـن نفـس المجموعـة الاجتماعيـة التـي ينتمـي إليهـا مؤلـف حوليـات ولاتـة. كُتِـب العمـل في ظـل ظـروف مماثلـة وفي نفـس الفـترة. لـكلا المصدريـن طابـع كتـاب سـنوي. يتعلّـق التاريـخ الأول المكتـوب في حوليـات تيشـيت بتشـكيل البلـدة، ويشـير المؤلفـون إلى العـام 1153-1154م (544هـ). تشـير الكتابـات التاليـة إلى السـنوات الخمـس عـشرة الأخـيرة مـن القـرن الثامـن عـشر والقـرن التاسـع عـشر بأكملـه وبدايـة القـرن العشريـن. تنتهـي الكتابـات في 1908-1909م (1326هـ). المـادة المتعلّقـة بالقرنـين الثامـن عـشر والعشريـن جاءت مجـزأة. يتـم تقديـم القـرن التاسـع عـشر بطريقـة أكثـر اكتمـالاً، وهـو ذو أهميـة كبـيرة للبحـث عـن الظواهـر مثـل الآفـات.

المـادّة التـي توفّرهـا حوليـات تيشـيت ليسـت كاملـة مثـل تلـك الموجـودة في حوليـات ولاتـة. وفقًـا لمعلومـات المحـرّر، تحتـوي حوليـات تيشـيت عـلى بعـض النصـوص جمَعهـا القبطـان بـروسي (Brosset) في بدايـة القـرن العشريـن. يتضمّـن العمـل كتابـاً سـنوياً متجانسـاً ولكنّـه موجـز للغايـة ينتهـي في عـام 1908-1909م. تـم اسـتكماله بثلاثـة نصـوص -مـن نفـس الميـزة- قصـيرة جـداً، ولكنّهـا توفّـر

(1) .Ibid., p.415

معلومـات أكثـر تفصيـلاً. تشـير هـذه النصـوص إلى السـنوات: 1278-1288هـ (أي مـن 1861-1862م إلى 1871-1872م)؛ إلى السـنوات: 1289-1300هـ (أي مـن 1872-1873م إلى 1882-1883م) وإلى السـنوات: 1302-1326هـ (أي مـن 1984م إلى 1885م إلى 1908-1909م)[1]. تقـدّم حوليـات تيشـيت، في شـكلها الجديـد، معلومـات أكثـر اكتمـالاً عـن ظواهـر النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عـشر، بـدءاً مـن عـام 1861م. مـن ناحيـة أخـرى، قُدّمـت السـنوات 1801-1860م بشـكل مختـصر وربّمـا بطريقـة غـير مكتملـة. يتـم تأكيـد هـذه الافتراضـات إذا قـارن المـرء حوليـات تيشـيت مـع حوليـات ولاتـة. لا تذكـر الأولى مجاعـة تيشـيت عـام 1271هـ (الموافقـة لـ 1854-1855م). كانـت هـذه الواقعـة معروفـة وملحوظـة في ولاتـة. هذا هـو السـبّب في أن العـدد الفعـلي للآفـات في القـرن التاسـع عـشر هـو بالتأكيـد أعـلى مـن العـدد المسـجل في كنانيـش تيشـيت. تتعلّـق هـذه الاختلافـات بشـكل أسـاسي بالسـنوات 1801-1860م.

مـع الأخـذ بعـين الاعتبـار هـذه القيـود التـي تحـدّ مـن إمكانيـات أبحاثنـا، فإنّنـا نعتـبر أن المصدريـن، أي حوليـات ولاتـة وحوليـات تيشـيت، يحتويـان عـلى مـادة أساسـية، مـادة صحيحـة تسـمح لنـا بتحليـل بعـض المشـاكل المتعلقـة بالمجاعـات، والأوبئـة، وارتفـاع الأسـعار. لذلـك يمكـن أن تغطّـي الأبحـاث المعنيـة فـترة طويلـة نسـبياً، وهـي فـترة القـرن التاسـع عـشر بأكملـه. تقـدّم الحوليـات إمكانيـة مقارنـة بيانـات بلدتـين، ممـا يسـمح بإكمـال مـا هـو مفقـود في إحـدى الحوليـات. يؤكـد توافـق هـذه البيانـات في كلا النصـين أطروحتَنـا حـول صحـة هـذه الإشـارات.

تقع ولاتـة عنـد حـدود السـاحل والجـزء الجنوبـي مـن الصحـراء (17° 30 شـمالاً). تعـود مراحلهـا الأولى إلى القـرن الثانـي عـشر. في وقـت مبكّـر مـن القـرن الثالـث عـشر، كانـت هـذه الواحـة محطـة مهمـة للقوافـل التـي تمـر عـبر الصحـراء باتجـاه مـالي[2]. يمكـن العثـور عـلى وصفهـا التفصيـلي، الـذي يعـود تاريخـه إلى القـرن

(1) .Les Chroniques de Tichit, op.cit., p.282

(2) – Liste des résultats de recherches concernant Onalata–cf. R. Mauny, Tableau, op.cit., pp. 70–71 et 485. Débuts du commerce et développement de l’oasis–H. Pérès. Relation entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XIIIe au XIV° s.», In Mélanges géographiques et orientalistes offerts à E. F. Gautier, Tours 1937, pp. 409–414. Voir aussi D. Jacques–Meunié, **Cités anciennes de Mauritanie** (cité plus loin : D. Jacques–Meunié, Cités anciennes), Paris .1961, pp. 71–75

الرابـع عـشر، في رحلـة ابـن بطوطـة[1]، عندمـا كانـت ولاتـة تابعـة لدولـة مـالي، التـي كانـت في أوج قوّتهـا. في بدايـة القـرن الخامـس عـشر، ضعفـت مـالي واسـتولى الطـوارق عـلى ولاتـة. وقـد حـددت التحـولات السياسـية لـلأراضي الواقعـة عـلى حلقة النيجـر مصـير هـذه البلـدة. سـلب إضعـاف مـالي الـدور القيـادي (عـلى الرغـم مـن أنهـا مـا تـزال تحتفـظ بأهميـة معينـة)، عـلى الطريـق الـذي يـؤدي عـبْر واحتنـا إلى هـذه الدولـة. عندهـا بـدأت الطريـق المؤديـة عـبر أرَوَان إلى تنبكـت تلعـب دوراً كبـيراً. لهـذا السـبب، ربمـا في أواخـر القـرن الرابـع عـشر وبدايـة القـرن الخامـس عـشر، غـادر جـزء كبـير مـن سـكّان ولاتـة هـذه المدينـة وذهبـوا إلى تنبكـت. ترتبـط هـذه الظاهـرة أيضـاً بتطـور التجـارة التـي فرضـت إنشـاء مراكـز حضريـة كبـيرة. نظـراً لموقعهـا الجغـرافي، لـم يكـن لـدى ولاتـة سـوى فـرص محـدودة للتطـور. اعتمـد نمـو سـكانها، مـن ناحيـة، عـلى زيـادة الإنتـاج الزراعـي الخـاص بهـا، والـذي كان محـدوداً للغايـة، ومـن ناحيـة أخـرى، عـلى إمكانـات اسـتيراد الغـذاء مـن السـودان. صحيـح أن تنبكـت كانـت تتطـور أيضـاً بفضـل إمـدادات القمـح مـن الجنـوب، لكـن تنبكـت كانـت تقـع عـلى نهـر النيجـر، ممّـا سـهل النقـل السريـع وغـير المكلّـف لكميـات كبـيرة مـن البضائـع.

ظلـت ولاتـة، الواقعـة عـلى حافـة الصحـراء، عبـارة عـن تكتّـل سـكاني متوسـط الحجـم. في القرنـين الخامـس عـشر والسـادس عـشر، كان يوجـد بهـا حـوالي 3000 نسـمة لكنّهـا لعبـت دوراً كبـيراً في تجـارة القوافـل. بعـد احتـلال سـنّي عـلي لتنبكـت (1468م)، غـادر عـدد كبـير مـن العائـلات التجاريـة والعلمـاء تنبكـت واسـتقروا في ولاتـة حيـث حكـم الطـوارق. فثـراء هـذه الأخـيرة (ولاتـة) أكـده هجـوم قبيلـة مـوشي عـلى الغنيمـة وخطـط سـني عـلي لبنـاء قنـاة مـن النيجـر إلى ولاتـة، مـن أجـل الاسـتيلاء عليهـا[2].

---

(1) نصوص ووثائق تتعلق بتاريخ إفريقيا، انظر:
Extraits tirés de voyages d’Ibn Battuta, trad. annot. R. Mauny, V. Monteil, A. Djenidi, S. Roberts, J. Devisse, Dakar 1966, pp. 41-44, voir aussi P. de Cenival, Th. Monod, Description de la côte de l’Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentim Fernandes (1506-1507), Paris 1938, .(p. 84 (cité : V. Fernandes, Description

(2) Tarikh es-Soudan, op. cit., p. 112 (attaque des Mossi), pp. 114-115 (canal de Sonni Ali). Voir aussi Tarikh el-Fettach ou Chronique du chercheur, par Mahmoud Kati et l’un de ses petits-fils, texte arabe, traduction française par 0. Houdas, M. Dela- fosse, Paris 1964, p. .92

احتل حكام سونغاي المدينة في أوائل القرن السادس عشر. وظلت تحت حكم سلالة أسْكيا حتى نهاية ذلك القرن. بعد انهيار سونغاي، أصبح الطوارق سادة ولاتة مرة أخرى.

نظراً للتطور المزدهر لهذه المدينة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ودورها في التجارة العابرة للصحراء، فإن تاريخ ولاتة معروف بشكل أفضل من تاريخ تيشيت، الذي لم تصل أهميته في تجارة القوافل إلى تاريخ ولاتة. تقع تيشيت على بعد حوالي 300 كيلومتر شمال غرب ولاتة وكانت مجرد محطة على طريق القوافل من مناجم ملح إيجيل إلى تمبكتو. تاريخ إنشاء هذه المنطقة غير مؤكد. تشير التقاليد الشفهية والمصادر المكتوبة إلى تواريخ مختلفة، لا سيما القرن السابع والحادي عشر والثاني عشر[1]. أما بالنسبة لحوليات تيشيت نفسها، فهي تشير إلى تاريخ 544هـ (1153-1154م). اكتسبت العلاقات التجارية والسياسية بين شمال إفريقيا ودولة غانا أهمية كبيرة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. المنطقة التي تقع فيها تيشيت تمّ عبورها ليس من خلال طرق التجارة فحسْب، ولكن أيضاً عبْر الطريق الذي اتبعته جيوش المرابطين التي كانت تُهاجم غانا. من المُحتمل أن تكون هذه المدينة مدينةً بإنشائها لهذه الأحداث، لكن المعلومات الأولى عنها تأتي من الخرائط الكاتالانية من منتصف القرن الخامس عشر. يصف فيرنانديز (Fernandes)[2]، في بداية القرن السادس عشر، الدور الذي لعبته تيشيت في تجارة الملح.

تزامن تطور هذه الواحة مع قرون من نمو التجارة عبر الصحراء. في القرن السادس عشر، الأكثر ملاءمة لتيشيت، كان عدد سكان هذه المدينة حوالي 1500

---

(1) – قائمة نتائج البحث عن تيشيت:
,R. Mauny Tableau, op. cit., pp. 30-70 of 484 485
وانظر:

.D. Jacques-Meunié, Cités anciennes, op. cit., PD. 57-60
وانظر أيضا:
F. de la Chapelle, «Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental» (cité plus loin : F. de la Chapelle,...Esquisse»), Hespéris, .1930, t. XI, fasc. 1-2, p.46

(2) تذكر خارطة نصف الكرة الأرضية الكاتالونية، التي تم وضعها بعد عام 1444م، اسم تيشيت، انظر:
Charles de la Roncière, La Découverte de l'Afrique au Moyen Age, Le Caire 1925, t. 1., pl. .X; V. Fernandes, Description, op. cit., p. 85
معلومة حول تيشيت (تسمى تنسيت) انظر أيضاً:
.Jean Léon l'Africain, Description de l'Afrique, éd. A. Epanlard, Paris 1956, t. 2, pp. 419—420

نسـمة[1]. في القرنـين السـابع عـشر والثامـن عـشر، تراجعـت التجـارة عـبر الصحـراء، لكـن مسـار القوافـل ومكان ولاتـة وتيشـيت عـلى طرقهـا ظـل دون تغيـير[2]. تحتـوي حوليـات ولاتـة وتيشـيت عـلى قـدر كبـير مـن المعلومـات حـول حـركات القوافـل والأنشـطة التجاريـة. ومـع ذلـك، فمنـذ القـرن السـابع عـشر، كانـت هـذه التجـارة تتـم في ظـل ظـروف صعبـة بفعـل أزمـة اقتصاديـة واجتماعيـة وسياسـية كان يمـرّ بهـا غـرب السّـودان[3]. مـن الواضـح أن هـذا الوضـع يمكـن أن يكـون لـه تأثـير فقـط عـلى مصـير هاتـين الواحتـين. تناقـص عـدد سـكانها، وتراجعـت التجـارة، وانخفضـت كتلـة البضائـع المنقولـة وأربـاح التجّـار. تجلّـت الأزمـة، مـن بـين أمـور أخـرى، مـن خـلال اشـتداد الآفـات. ليـس لدينـا معلومـات كافيـة عـن مسـار هـذه المصائـب وعواقبهـا عـلى الواحـات المعنيـة خـلال القرنـين السـابع عـشر والثامـن عـشر. مـن ناحيـة أخـرى، يمكننـا تحليـل القـرن التاسـع عـشر بدقـة أكـبر. تسـمح لنـا حوليـات ولاتـة وتيشـيت بتحديـد مـدّة الأزمـة في البلـدات المعنيـة وفي المنطقـة المجـاورة.

يتم عرض الكوارث المعروفة في القرن التاسع عشر في ولاتة في الجدول رقم 1.

في القـرن التاسـع عـشر، عانـت ولاتـة مـن 22 عامـاً مـن الأوبئـة الأساسـية، بمـا في ذلـك 15 عامـاً مـن الأمـراض المعديـة والأوبئـة، و3 سـنوات مـن المجاعـة، و3 سـنوات مـن ارتفـاع الأسـعار، وعـام واحـد مـن المجاعـة التـي شـملت تيشـيت لوحدهـا. يمكننـا تقسـيم فـترات اشـتداد النكبـات والفـترات الأكثـر ملاءمـة. في ولاتـة، تشـمل أصعـب الفـترات العقـد الثالـث وبدايـة العقـد الرابـع مـن القـرن التاسـع عـشر، والفـترة بأكملهـا مـن عـام 1854 حتـى نهايـة القـرن. بدايـة هـذا القـرن (سـنتان

---

(1) .R. Manny Tableau, op. cit., p. 484

فحسب:

,D. Jacques-Meunié, , op. cit., p. 59

يجب أن يبلغ عدد سكان تيشيت 3000 نسمة بحلول منتصف القرن التاسع عشر و6000 بحلول نهاية هذا القرن، بعد كل الآفات. ومع ذلك، من الصعب قبول هذا الرقم من التقارير الشفهية لسكان تيشيت. حوالي عام 1930، قدر أن تيشيت كان عدد سكانها 60 نسمة فقط. ينظر:

.Cf. F. de la Chapelle, Esquisso», op. cit., p. 46

يبدو أن هذه البيانات منخفضة للغاية أو تشير فقط إلى أرباب الأسر. في عام 1955 كانت بتيشيت 800 نسمة، انظر:

.D. Jacques- Meunió, Cités anciennes, op. cit., p. 57, note 4

(2) .Tedzkiret en-Nisian, op. cit., pp. 24, 102, 248, 278 entre Oualata et Tombouctou -

(3) - عن ظواهر وأبعاد هذه الأزمة انظر:

Des phénomènes et des dimensions de cette crise, voir M. Tymowski, , Warszawa 1974, pp. .109-137

وانظر أيضا: أعمال S. M. Cissoko المذكورة في الهامش 2.

مـن النكبـات في 20 عامـاً) والعقديـن مـن 1834م إلى 1854م (بـدون كـوارث) مـن بـين أكثـر الفـترات ملاءمـة. ومـع ذلـك، لا يمكـن اسـتبعاد أن المؤلـف كان أقـل درايـة بالفـترة مـن 1831م إلى 1854م. ومـن الممكـن أن يكـون المصـدر قـد حـذف معلومـات عـن المصائـب وأن المؤلـف نفسَـه لـم يمـر بهـذه الأوقـات بعـد مـن تجربته الخاصـة. عـلى أي حـال، كان هنـاك مـا لا يقـل عـن 22 آفـة. مـن المحتمـل أن يكـون الرقـم أعـلى مـن ذلـك بكثـير.

ترد الكوارث المعروفة في تيشيت في القرن التاسع عشر في الجدول رقم 2.

في القـرن التاسـع عـشر، تـم تسـجيل أربعـة عـشر عامـاً مـن الآفـات في تيشـيت. خـلال الفـترة الأكثـر شـهرة، مـن 1861م إلى 1900م، لوحظـت 12 عامـاً مـن النكبـات. عانـى سـكان الواحـة مـن سـت سـنوات مـن الأوبئـة، ولا سـيما الجـدري، وخمـس سـنوات مـن الجفـاف ونقـص الميـاه، وثـلاث سـنوات مـن المجاعـة والبـؤس العـام، وسـنتين مـن اجتيـاح أسراب الجـراد، وسـنتين مـن الظـروف المناخيـة غـير الملائمـة. خـلال واحـدة مـن هـذه السـنوات، نفقـت قطعـان الماشـية بسـبب الوبـاء. وفي منطقـة أخـرى، أتلـف مـرض معـدٍ أشـجار النخيـل. في معظـم الحـالات، كانـت الآفـات تحـدث في نفـس الوقـت، وتعقـب ظاهـرة ضـارة أخـرى.

يشـير جـزء مـن حوليـات تيشـيت إلى الأعـوام 1801–1880م وهـو موجـز وغـير مكتمـل. لذلـك سـيكون مـن الصعـب التمييـز بـين الفـترات الفرعيـة الأكثـر ملاءمـة، وهـو مـا كان ممكنـاً بالنسـبة لولاتـة. مـن الواضـح، مـع ذلـك، أن السـنوات الأربعـين الأخـيرة مـن القـرن التاسـع عـشر كانـت صعبـة للغايـة في تيشـيت وأن سـنة واحـدة فقـط كانـت خاليـة مـن الآفـات، في الفـترة الممتـدة مـن 1888 إلى 1894.

في كثـير مـن الحـالات، نلاحـظ تقـارب المعلومـات التـي استشـهدت بهـا المصـادر. تشـير كلا الحوليـات إلى الأوبئـة التـي حدثـت في الأعـوام 1822–1823م، و1861–1862م، و1869–1870م، فضـلاً عـن الكـوارث الأخـرى في الأعـوام 1865–1866م، و1888–1889م، و1893–1894م. نتيجـة لذلـك، كان الوضـع في ولاتـة مماثـلاً للوضـع في تيشـيت.

في كلتـا الواحاتـين، كانـت أكثـر الكـوارث شـيوعاً الأوبئـة والأمـراض. في كثـير مـن الأحيـان، حدثـت الآفـات المختلفـة في نفـس الوقـت وزادت حدّتهـا فيهمـا معـاً. وقـد سـاهم الأسـلوب المختصـر والطابـع السّـنوي للحوليـات في اسـتبعاد بعـض الظـروف.

يلاحظ مؤلف حوليات ولاتة عدة مرات أن أكبر معدل وفيات ساد أثناء الأوبئة كان بين العبيد. يمكن أن تفسر هذه الواقعة بالجوع أو سوء التغذية الدائم الذي أضعف الطبقات الأشد فقراً من السكان.

يفصل مؤلّف كتاب حوليات ولاتة سنوات الغلاء عن سنوات المجاعة. من المحتمل أن يكون وضعه الاجتماعي هو أصل هذا الفصل. كانت السنوات نفسها التي كانت بالنسبة للمجموعات الأكثر ثراءً من السكان مجرد فترة غلاء، كانت بالنسبة للمجموعات الأفقر سنوات من المجاعة. لذلك يمكن أن نفترض أن هذه الفترة تصبح عام مجاعة لجزء كبير من سكان الواحات.

لا تذكر حوليات ولاتة بشكل عام أسباب الآفات. لم يذكر المؤلف سوى مرة واحدة إتلاف المحاصيل، ولم يذكر الجفاف سوى مرة واحدة. تشير هذه الحوليات مرتين إلى أن الرّحل جلبوا وباء. تحتوي حوليات تيشيت على مزيد من المعلومات حول هذا الموضوع. تتحدّث عن الجفاف والظواهر المناخية الأخرى مثل انخفاض درجات الحرارة والأمطار الغزيرة التي كانت تهدم المنازل المبنية بالطين. تحتوي على معلومات حول الأوبئة التي كانت تهاجم الماشية وأمراض الأشجار واجتياح أسراب الجراد. يمكن القول إن أسباب آفات ولاتة كانت هي نفسها. من الواضح أن الأسباب المباشرة فقط مذكورة هنا، لأن الحالة السيئة العامة للاقتصاد في هذه المنطقة من إفريقيا كانت السّبب الحقيقي لشدة الآفات.

الجدول 1: المصائب الأولية حسب حوليات ولاتة (القرن 19)

السنة الهجرية ومقابلها الميلادي	نوع المصيبة ومكانها	معلومات إضافية	صفحات حوليات ولاتة
1219هـ/1804-1805م	وباء بولاتة	عدد كبير من الموتى	358
1227هـ/1812/18013م	مرض بولاتة	عدد كبير من الموتى. حسب حوليات تيشيت وقعت هذه الأحداث سنة 1811م	359
1237هـ/1821-1822م	ارتفاع أسعار المواد الغذائية خاصة في ولاتة	سميت هذه السنة كرتوم (غلاء)(4)	360

(4) يبدو أن صاحب المقال أخطأ في تأويل معنى كلمة كرتوم حين قال يعني سنة بلا نهاية. [المترجم]

1238هـ/1822-1823م	وباء الجدري بولاتة امتدّ بمنطقة تگانت	-	360
1239هـ/1823-1824م	ارتفاع أسعار الأغذية	سمّيت السنة عام النويصرية (الغلاء) (مكان حيث لجأ سكان ولاتة)	361
1241هـ/1825-1826م	ارتفاع أسعار الأغذية بولاتة	سنة حبسة (شدّة وغلاء)	361
1246هـ/1830-1831م	وباء بمنطقة ولاتة	عدد كبير من الموتى. سميت عام المرض	361
1249هـ/1833-1834م	جفاف كبير، مجاعة بتكرور، بولاتة، بأَرَوان وبقرى السودان	انخفض ثمن لوح من الملح بولاتة إلى مستوى مقياس للقمح (عموماً 20-25 مقاييس) عدد كبير من الوفيات بسبب المجاعة في صفوف العبيد وأشخاص آخرين. سميت السنة بعام شرواكة (غلاء)(1)	362
1271هـ/1854-1855م	مجاعة بتيشيت	مجاعة سبّبها البَرَد، انخفض ثمن الملح إلى مستوى مد من القمح للوح من الملح	365
1278هـ/1861-1862م	وباء الجدري بولاتة	وفاة عدد كبير من الأطفال	369
1281هـ/1864-1865م	مجاعة بولاتة وبالسودان	تغذية الناس ببراعم الأشجار. وفاة عدد كبير من العبيد	370
1282هـ/1865-1866م	وباء أصاب الثيران بالحوض	-	370

(1) يبدو أن صاحب المقال أخطأ في تأويل معنى كلمة شرواكة حين قال من يبدأ خيراً وينتهي شراً. [المترجم]

1286هـ/1869-1870م	سيفي وباء بولاتة وتيشيت بين السود وبتنبكت وأراوان وفي تكرور بأكملها	بدأ الوباء بولاتة في دجنبر 1869م. أزيد من 300 وفاة. أشار المؤلف إلى شخصيات بارزة	371
1287هـ/1870-1871م	وباء بولاتة	جلبه الرحل في شهر ماي 1870م. دام شهراً. وفاة العديد من الناس.	371
1297هـ/1879-1880م	وباء الجدري بولاتة	يشير المؤلف إلى وفاة شخصيات بارزة	375
1298هـ/1880-1881م	مرض يسمى الفيسد (حساسية جلدية) بولاتة	شهدت هذه السنة عدداً كبيراً من الأمراض بشنقيط، خصوصاً بين الحجاج العائدين من مكة	376
1302هـ/1884-1885م	الجدري بمنطقة ولاتة	عدد من الوفيات في صفوف الرحل	379
1306هـ/1888-1889م	مجاعة كبرى بولاتة	تم بيع لوح من الملح بمد من القمح. عدد كبير من الوفيات أساساً بين العبيد.	382
1311هـ/1893-1894م	مجاعة كبرى بولاتة	بدأت المجاعة في مطلع السنة الهجرية أي في شهر يوليوز 1893م. تم بيع قطعة ثوب غيني بمد من القمح. كان الناس يأكلون براعم الأعشاب.	387-388
1312هـ/ربيع الأول 1313هـ/1894-1895م	وباء بتكرور، وعنيف جداً بولاتة	توقف الوباء في شتنبر 1313هـ/1895م. عدد كبير من الوفيات	389-390
1314هـ/1896-1897م	وباء الجدري بولاتة	تمت الإشارة إلى وفاة شخصيات مهمة جداً.	391

1315هـ/1897-1898م	أمراض بولاتة	استمر الوباء خلال فصل الشتاء. تمت الإشارة إلى وفاة شخصيات مهمة جداً.	391
1316هـ/1898-1899م	وباء خفيف للحمى والإسهال	مرض النساء والأطفال على وجه الخصوص.	393

ملاحظة مؤلف حوليات ولاتة. إن تعلّق الأمر بهذا الوباء، لا تشير إليه حوليات تيشيت.

الجدول 2: المصائب الأساسية حسب حوليات تيشيت

السنة الهجرية ومقابلها الميلادي	نوع المصيبة ومكانها	معلومات إضافية	صفحات حوليات تيشيت
1225هـ/1810-1811م	نقص المياه	-	285
1238هـ/1822-1823م	وباء الجدري بتكانت	-	285
1278هـ/1861-1862م	نقص المياه لدى لقلال. وباء الجدري لدى الصبيان	قتال بين القبائل	287
1282هـ/1865-1866م	اجتياح الجراد، الجفاف، وباء أصاب الثيران. مجاعة بتيشيت، بشنقيط، بولاتة، بأراوان، بتنبكت	اجتياح الجراد لكل البلاد. مجاعة في كل المدن المدرجة، لكن ليس في بلاد تكرور. هجوم الرحل على تيشيت ونهبها.	289
1283هـ/1866-1867م	مرض النخيل الذي توقف عن إنتاج التمور. نقص المياه.	اجتاح المرض كل تكرور	290
1286هـ/1869-1870م	وباء بتيشيت، بتجكجة، وبولاتة	أكثر من مائة وفاة بتيشيت. عديد كبير من المعارك والنهب	291

1289هـ/1872-1873م	فقر مدقع سمي بـ لمكبول	الموقع غير مشار إليه. يمكن القول بأنه يتعلق بتيشيت	294
1306هـ/1888-1889م	مرض لدى قبيلة حمُنّات[1]	وفاة قائدهم وعدد كبير من الناس.	298
1307هـ/1889-1890م	جفاف بكل المنطقة باستثناء شنقيط. مجاعة كبرى بتيشيت.	بتيشيت تم بيع عديلة (لوح من الملح) بمد من القمح وبيضة مقابل مد ونصف. ذكر أسماء شخصيات معروفة قضت.	298
1308هـ/1890-1891م	اجتياح الجراد الذي أتلف النخيل في بداية ونهاية السنة	-	289
1311هـ/1893-1894م	أمطار كبيرة. تهدم عدد كبير من المنازل.	سميت السنة أرادانة لكند (مطر)	299
1314هـ/1896-1897م	وباء الجدري	-	300
1318هـ/1900-1901م	حالات معزولة للجدري	ذكر أسماء شخصيات معروفة قضت.	300

أهلكت الكوارث سكان هاتين الواحتين. لا يمكن تحديد عدد الوفيات وتقييم الخسائر الديموغرافية. ومع ذلك، لدينا بعض القرائن في هذا المجال. تشير سجلات الأحداث إلى أنه في 1869-1870م، مات أكثر من 300 شخص في ولاتة. في صفحات أخرى، يلاحظ المؤلف ببساطة أنه كان هناك عدد كبير من الوفيات ويذكر أسماء أبرز الشخصيات. نحن نعلم أن الخسائر كانت أعلى بين السكان الفقراء. هذه المعلومات المتعلقة ببلدة لم يتجاوز عدد سكانها ألفي نسمة[2]، تتيح لنا أن نستنتج أن الخسائر الديموغرافية التي سبّبتها الآفات،

(1) من قبائل مشظوف. [المترجم].

(2) R. Mauny, **Tableau**, op.cit., p.485

قدّر عدد سكان ولاتة بألفين أو ثلاثة آلاف. يشير هذا التقدير إلى فترة مواتية قبل القرن السابع عشر. بالنظر إلى الوضع الموصوف في هذه المقالة، ربما انخفض عدد السكان خلال القرن التاسع عشر. في السنوات 1912-1917م،

معـبّراً عنهـا بالنسـب المئويـة، كانـت فادحـة للغايـة. لـم تكـن هـذه الخسـائر أقـلّ في تيشـيت. كانـت هـذه البلـدة أقـل كثافـة سـكانية مـن ولاتـة وفي 1869-1870م مـات فيهـا مائـة شـخص. أدى ارتفـاع معـدل انتشـار الأوبئـة ووفيـات النسـاء والأطفـال إلى تفاقـم الوضـع، ممـا قلـل مـن احتمـالات اسـترجاع الإمكانـات الديموغرافيـة للواحتـين. يكـرّر مؤلـف حوليـات ولاتـة عـدة مـرات أن أعـلى معـدل وفيـات سـجّل في صفـوف العبيـد. ولذلـك فـإن الأوبئـة كانـت تصيـب بقسـوة السـكان الأضعـف بيولوجيـاً أو اجتماعيـاً.

تحدثـت الحوليـات عدة مـرات عن الأسـعار وتغيّراتهـا خلال سـنوات المجاعـة والأوبئة. ركـز المؤلفان على أسـعار الغـذاء والقمح والملـح. في الحالة الأولى، تتحدث عـن الغلاء، لكن الانخفـاض في أسـعار الملح خـلال السـنوات الكارثيـة هو الـذي حظي باهتمـام خاص. انخفضـت هـذه الأسـعار، معـبراً عنهـا بالقمـح، في ولاتـة في 1833-1834م، و1854-1855م، و1888-1889م. في 1893-1894م، انخفضـت أسـعار القماش الغيني أيضاً. تشـير نفـس الإشـارة في حوليـات تيشـيت إلى العـام 1889-1890. انخفضـت أسـعار لـوح الملـح بشـكل كبـير، لدرجة أنه تـم دفع ثمنهـا بمقياس القمـح (في تيشـيت، في عام الجـوع). هـذا هـو المقياس المسـمى المُـدّ، والذي يتوافـق مع حـوالي 0.75 لـتر[1]. يمكن للمـرء عكـس هذا المنطق مـن خلال ملاحظة أن أسـعار القمـح هي التي ارتفعت بشـكل كبـير، وهـو مـا يتوافق مع فـترات النـدرة. هكذا كان السـكان الفقـراء في ولاتة وتيشـيت يشـعرون خلال سـنوات النكبـة. بالنسـبة لهؤلاء السـكان، كانت أسـعار المـواد الغذائية هـي التـي ارتفعت. كان السـكان الميسـورون، الذين ينتمي إليهـم مؤلّفا هـذه الحوليات، مهتمين أيضاً بسـعر السـلع الأخـرى. كان التجـار مهتمين بشـكل خاص بهذا. بالنسـبة لهـؤلاء النـاس، كان انخفـاض سـعر الملـح أمـراً مؤسـفاً أكثر مـن ارتفاع سـعر القمح. أثـرت التغيّرات في الأسـعار والعلاقـات المتبادلة لقيمة السـلع المختلفة على تجـارة القوافل بشـدة، وحـدّت مـن مردوديتها، وفي بعـض الأحيـان، أثناء المجاعـات والأوبئـة، أصبحت هـذه التجـارة تشـهد عجـزاً. كانـت هذه الآفـات تدخل قسـطاً من عـدم اليقين المسـتمر في الحسـابات التجاريـة، مما أضرّ باقتصـاد هذه الواحـات وفاقم الصعوبـات التي كانت تواجههـا في هـذا المجال.

كان عدد سكان ولاتة 1570 نسمة فقط. انظر:

.D. Jacques-Meunié, Cités anciennes, op.cit., p. 71

يشمل هذا الرقم البدو الذين كانوا يمتلكون منازل بولاتة.

(1) قياسات السعة ينظر:

.R. Mauny, Tableau, op.cit., pp. 412-413

لم ينتج عن الوفيات الهائلة للعبيد المذكورة في حوليات ولاتة صعوبات ديموغرافية فحسب، بل أدى أيضاً إلى تفاقم الوضع الاقتصادي. كان العبيد يعملون في زراعة الواحات، وقد كان انخفاض أعدادهم يؤدي إلى نقص الإنتاج الزراعي المحلّي. وكانت نتيجة ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كان لا بدّ من إحضار عبيد جدد من الجنوب لاستعادة الإنتاج، وهو ما لم يكن سهلاً بالنظر إلى الخسائر المالية التي كان يتكبّدها التّجار. كان من الصّعب تدبير الأمر، حتى لو تمّ جمع الوسائل اللازمة لشراء العبيد.

لم تكن الواحات مكتفية بذاتها في مجال الإمداد الغذائي. لم يكن إنتاجها يغطي سوى جزء من احتياجاتها. كان يتم استيراد الباقي (بشكل رئيسي الدخن والأرز) من المناطق الزراعية في الجنوب، من منطقة السافانا. كانت الموارد التي كان يجب تحويلها لشراء العبيد تقلّل من إمكانية شراء الأغذية. ومع ذلك، لم يكن من الممكن القضاء على شراء الدخن والأرز تماماً، لأن ذلك كان طلب المجموعات ذات الامتياز من ولاتة وتيشيت، وكذلك الحاجة إلى إطعام العبيد الذين تم شراؤهم حديثاً حتى يضمن عملهم الحصاد الأول. ليس فقط العوامل الاقتصادية هي التي كانت تفرض شراء العبيد، ولكن أيضاً الشروط الاجتماعية. كانت الحظوة والمكانة الاجتماعية للطبقات الثرية في المجتمع ستُمسّ إذا أُجبروا على التخلي عن امتلاك العبيد واستغلالهم. لذلك يمكننا أن نفترض أن سنوات تطور تجارة الرقيق أعقبت سنوات من الأوبئة والمجاعات. لم تؤثر هذه التجارة على القطاعات التجارية فحسب، بل كانت تسبّب أيضاً في القتال، مما أدى إلى تدهور اقتصاد المنطقة الزراعية في السافانا.

كما كان القتال يندلع في منطقتي ولاتة وتيشيت. الحوليات مليئة بقصص عن المعارك المستمرة، ونهب القوافل قبْل كل شيء. تصف حملات النهب التي كانت تنظمها القبائل الرحل في مناطق الواحتين. كانت حالة توترات الحرب والنهب المستمرة مؤشراً على سوء حالة الاقتصاد ونقص سبل العيش. كان الرّحل يسعون إلى معالجة هذا عن طريق قطع الطرق. وكان نتيجة لذلك، تراجع الاقتصاد وتكبّده خسائر جديدة كانت تسقط على الساكنة العاملة النشطة لمردودية التجارة. وبالتالي، كان يوجد ارتداد بين حالة الأزمة الاقتصادية التي تسبّبت في قطع الطرق، مما أدى إلى تفاقم الوضع الاقتصادي.

نظراً للعدد الكبير من سنوات الأوبئة والانقطاعات القصيرة نسبياً بين فترات المجاعة والأوبئة، كانت إمكانات إعادة بناء الاقتصاد محدودة ليس فقط بسبب

نقص الموارد، ولكن أيضاً بسبب ضيق الوقت. لم تكن المجاعات والأوبئة المؤشر الوحيد الذي يمكن أن يسمح لنا بتقييم حالة الاقتصاد. ولكنه مؤشر قيّم لأنه يتعلق بعوامل ذات أهمية كبيرة وظواهر يمكن عرضُها بالأرقام. من الممكن أن يكون للعرض الإحصائي للقتال وقطْع الطرق والنّهب نفس المعنى. في المادة المعروفة حتى الآن عن ولاتة وتيشيت، لا يوجد مؤشر آخر بنفس القيمة.

تسمح لنا المادة التي قدّمناها للتو بتأكيد أن الوضع الاقتصادي والديموغرافي كان سيئاً في هاتين الواحتين خلال القرن التاسع عشر بأكمله. هل كان هذا القرن استثناء؟ هل كان الوضع في القرون السابقة مشابها؟ هل كان القرن التاسع عشر أزمة عميقة أم أنّه كان حالة دائمة من سوء التغذية، وسوء الحالة الصحية لسكان ولاتة وتيشيت، وانعدام الاستقرار الاقتصادي والديموغرافي الذي من شأنه أن يميز حالة الواحات منذ عدة قرون. لا يمكننا العثور على إجابة مباشرة في حولياتنا. من الضروري البحث عنها من خلال الانطلاق من تاريخ هذه المنطقة بأكملها وكل غرب إفريقيا.

لذلك يجب أن نطرح السؤال التالي: هل كان هذا الوضع الاقتصادي السيئ موجوداً فقط في ولاتة وتيشيت، أم أنه يعكس الوضع السائد في هذه المنطقة؟ هل يمكن تعميم الاستنتاجات التي توصّل إليها تحليل حولياتنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي المناطق التي تنطبق عليها؟

تقع ولاتة وتيشيت في منطقة متجانسة نسبياً من الناحية الجغرافية والاقتصادية. تقع هاتان الواحتان على تضاريس الصحراء الجنوبية وشمال حدود الساحل. نشأ هناك، نوعان من الاقتصاد: تربية المواشي بالنسبة للرّحل والحياة المستقرة لسكان الواحات. لعبت هذه المنطقة أيضاً دور الوسيط في تجارة القوافل.

كان سكان الواحات يعملون في الزراعة والتجارة، وأحياناً في الصناعة التقليدية أيضاً. كانت الواحات ترتبط ببعضها البعض من خلال طرق القوافل، ممّا جعلها في نفس الوقت أقرب إلى المناطق النائية الاقتصادية ومناجم الملح في إيجيل في الشمال والمنطقة الزراعية في الجنوب. لم يكن بإمكان اقتصاد الواحات أن يعمل بشكل فعّال من دون هذه الروابط. لم تكن الواحات المعنية تعيش في عزلة، بل كانت تعتمد على نشاط الواحات والمناطق الأخرى التي كانت

تتاجر معها. من خلال هذه الروابط الوثيقة والترابطات والأسس الوثيقة لاقتصاد هذه الواحات، يمكننا أن نستنتج أن وضع ولاتة وتيشيت، في القرن التاسع عشر، كان نموذجياً لغالبية الواحات الواقعة في نفس المنطقة، أي على المنطقة المتاخمة للصحراء الجنوبية والساحل. شهدت هذه المنطقة الجغرافية والاقتصادية خلال القرن التاسع عشر صعوبات اقتصادية وديمغرافية. تم تأكيد هذه الأطروحة من خلال الكتابين اللذين يتحدثان مرات عديدة عن المجاعات والأمراض في شنقيط وتيجكجة وكذلك في أرَوَان وتنبكت، أو كما يقول المؤلّفان، في تكرور بأكملها. وصف مؤلف حوليات تيشيت الوضع في 1889-1890م بأنه استثنائي، عندما أثّر الجفاف على المنطقة بأكملها، باستثناء شنقيط.

كانت واحات المنطقة المعنية تعتمد على استيراد الأغذية من منطقة السافانا. ثبت أن عمليات الاستيراد هذه لم تكن كافية في القرن التاسع عشر، وحدث هذا في كثير من الأحيان. هل كان هذا النقص نتيجة لسوء الوضع الاقتصادي في الجنوب الزراعي؟ فالأبحاث والنتائج التي تم الحصول عليها تدحض هذا الافتراض. تركز المنشورات على عمليات التجديد الاقتصادي، التي أدّت، خلال القرن التاسع عشر (خلال النصف الثاني على وجه الخصوص) إلى تشكيل العديد من المنظمات الحكومية الحيوية للغاية[1]. ومع ذلك، تشير الحوليات مراراً وتكراراً إلى أن المجاعة أو الوباء ضرَبَا أيضاً المناطق التي سمّاها المؤلف «تكرور» أو «السودان»، والتي تشير بوضوح إلى الأراضي الزراعية في الجنوب[2].

كان مؤلفا الحوليات يعرفان الوضع جيداً، حتى في المناطق النائية، بفضل الأخبار التي نقلها التجار. إن ذكر المجاعات في تكرور لم يتم كتابته بشكل عشوائي، كما يشير مؤلف حوليات تيشيت، في إشارة إلى عام 1865-1866م، إلى أن المجاعة ضربت البلد بأكمله-ولكن ليس بلد تكرور. على أي حال، فإن المعلومات عن النكبات التي أثرت أيضاً على مناطق

---

(1) Histoire générale de l'Afrique Noire publiée sous la direction d'Hubert Deschamps, Paris 1971, t. 2, pp. 85-121; C. Coquery-Vidrovitch, II. Moniot, L'Afrique Noire de 1800 à nos jours, Paris 1974, pp. 90-106; Y. Person, Samori, une révolution Dyula, Dakar 1968-1975, t. 1-3; Y. Saint-Martin, L'Empire toucouleur 18-18-1897, Paris 1970; B. 0. Oloruntimehin, The Segu-Toucouleur Empire, London 1972.

(2) Les Chroniques de Oualata, op.cit., pp. 367, 370, 371, 389-390; Les Chroniques de Tichit, op.cit., p. 290.

الجنوب قد تشير إلى أنه في سنوات معينة، شعرت منطقة السودان بالاضطراب والمصاعب كما في ولاتة وتيشيت. ومع ذلك، يجب التحقق من هذه البيانات باستخدام مصادر أخرى. الآن بالفعل، يمكن للمرء أن يفترض أن الوضْع كان متمايزاً في منطقة السودان، وكان على وجه الخصوص، مواتٍ في الجنوب، حيث كانت توجد وتتطور المنظمات الحكومية في كونغ وساموري وكيندوجو وغيرها. في شمال منطقة السافانا وفي الساحل، كان الوضع أقل مواتاة.

على أي حال، لعدة سنوات في القرن التاسع عشر، لم يكن استيراد المواد الغذائية إلى الواحات مثل ولاتة وتيشيت من منطقة السافانا كافياً. يبدو أن أسباب هذه الظاهرة تعود، من بين أمور أخرى، إلى حقيقة أن الطريق العابر للصحراء كان غير جذاب لسكان السافانا. كان يتم نقل منتوجات الصناعة التقليدية (أو المنتجات الصناعية) إلى المناطق الداخلية من غرب إفريقيا من الساحل الغربي حيث كانت تصل من أوروبا. وبالتالي، فإن الإمدادات الغذائية غير الكافية للواحات الواقعة على حافة جنوب الصحراء كانت نتيجة لضعفها الاقتصادي وندرة السلع الجذابة (باستثناء الملح) التي كان بإمكان التجار عرضَها مقابل زيادة كميات الدخن والأرز والقطن. لعب التدهور الاقتصادي في المنطقة المغاربية دوراً ما في ذلك. لم تتمكّن الواحات الصحراوية من الاضطلاع بوظائف الوسطاء مع الشمال العربي البربري، حيث كان دورها محدوداً للغاية.

كان الوضع الذي وجدت فيه المنطقة المتاخمة للصحراء الجنوبية والساحل نفسها، في القرن التاسع عشر، وكذلك سكان الواحات في هذه المنطقة، نتيجة للتغيرات في أهمية طرق التجارة المختلفة لغرب إفريقيا في مجملها. يتعلق الأمر بشكل أساسي بتراجع دور الطريق العابر للصحراء وزيادة عدد الطرق المؤدية من المصانع والمستعمرات الأوروبية الأولى المنتشرة على طول الساحل والتي انتهى بها المطاف في داخل القارة. وجدت ولاتة وتيشيت والواحات الأخرى، التي كان تطورها تقليدياً على أساس دورها كوسيط في التجارة عبر الصحراء، نفسها في موقف صعب. يتم التعبير عن هذا الوضع من خلال الكوارث والمجاعات وغلاء الأسعار والأوبئة.

لا يمكن تحديد بداية هذه الأزمة بالضبط من المواد الواردة في حوليات

ولاتة وحوليات تيشيت. لكنّنا نعلم من مصادر أخرى أن هذه الأزمة بدأت في وقت سابق. وقد ازدادت تدريجياً ابتداء من القرن السّابع عشر، وذلك بالتزامن مع الأزمة العامة لاقتصاد المنطقة بأكملها، مع تغيّرات في مخطط طرق التجارة ومع هجرات السكان[1]. تسمح لنا الحوليات بأن نؤكد أنه في منطقة جنوب الصحراء الكبرى والساحل، كانت الأزمة طويلة جداً، شملت القرن التاسع عشر بأكمله.

تؤكد المنشورات التي تتناول هذا الموضوع على الأهمية الحاسمة للقرن التاسع عشر لتاريخ إفريقيا. بعد التدهور الاقتصادي الطويل الأمد، تطورت عمليات النمو الاقتصادي والاجتماعي والديموغرافي والسياسي في إفريقيا السوداء. هذه الأطروحة مدعومة مؤخراً **بالتاريخ العام لإفريقيا السوداء** بقلم هـ. ديشامب (H. Deschamps)[2]. نحن نتّفق مع هذه الأطروحة، التي لها قيمة أن تعمّم فيما يتعلق بإفريقيا السوداء بأكملها. ومع ذلك، من الضروري ذكر استثناءات، المناطق التي ما يزال السكان يشعرون فيها بعواقب الأزمة خلال القرن التاسع عشر. تنتمي حدود الصحراء الجنوبية والساحل إلى هذه الفئة. كانت هذه الأخيرة تشكل، في نفس الوقت، حدوداً بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء، وهي منطقة كانت بلا شك هامشية، ليس فقط بالنسبة للعالم العربي الأمازيغي، ولكن أيضاً بالنسبة للعالم الأسود. يبدو أن دراسة ماضيها لا غنى عنه، إذا أراد المرء أن تكون لديه معرفة دقيقة، قدر الإمكان، بتاريخ إفريقيا في القرن التاسع عشر.

في المادة التي حللناها للتو، وجدنا أيضاً مؤشرات معينة تتعلق بالسنوات غير المواتية لإقليم الساحل وأراضي السافانا الشمالية. يمكننا أن نستنتج أن مختلف مناطق غرب إفريقيا خرجت من الأزمة الاقتصادية الطويلة الأمد خلال فترات

---

(1) – في **حوليات ولاتة**، تم ذكر وباء 1792–1793 (ص.357). لا توجد إشارات أخرى، وربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن المؤلف لم يكن لديه أي معلومات حول هذا الموضوع في الماضي البعيد. نفسر أيضًا المعلومات حول وباء 1794–1795 في **حوليات تيشيت**، مرجع مذكور، ص.284. انظر الهامشين 2 و15 بخصوص أزمة القرنين السابع عشر والثامن عشر. هجرة السكان إلى الجنوب والتراجع الديموغرافي للمناطق الشمالية. وحول هجرة السكان إلى الجنوب والانحدار الديموغرافي في المناطق الشمالية ينظر:
D. T. Niane, «Mise en place des populations de la Guinée», Recherches Africaines, 1960, no 2, pp. 40–53; Y. Person, «Les ancêtres de Samori», Cahiers d'Etudes Africaines, vol. IV, 13, 1963, pp. 125–158.

(2) L'histoire générale de l'Afrique Noire, rédigée par H. Deschamps est divisée en deux volumes : t. 1, Des origines à 1800, Paris 1970, et t. 2, De 1800 à nos jours, Paris 1971. Evaluation du rôle décisif du XIXe s., cf. t. 2., pp. 7–12.

مختلفــة وبوثــيرات مختلفــة. يبــدو أن هــذه الصــورة المتمايــزة هــي الأقــرب إلى الواقــع، عــلى الرغــم مــن أن الفهــم الأعمــق لهــا يتطلــب المزيــد مــن البحــث الإقليمــي المســتدام[1].

---

(1) C. Coquery-Vidrovitch et. Moniot, op.cit., p. 90, التأكيد على الحاجة إلى البحث الإقليمي.

الأمراض الشائعة لدى البيضان وطرق علاجها شهادات المستكشفين الفرنسيين

«في القرن التاسع عشر»

د. محمدو أمين[1]

تمهيد:

كثّف الأوروبيون رحلاتهم الجغرافية إلى إفريقيا ابتداء من القرن الخامس عشر بهدف اكتشاف المناطق الداخلية من هذه القارة. وفي هذا النطاق حظي المجال الصحراوي باهتمام كبير من القوى الأوروبية الطامحة إلى الاستئثار بالمتاجرة مع السكان المحليين والاستفادة مما تتوفر عليه المنطقة من موارد اقتصادية معروفة أو محتملة.

وعرفت هذه الرحلات أوجَها أثناء القرن التاسع عشر حينما اشتد التنافس بين الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا بهف تقسيم العالم وإعادة تقسيمه، فزار المجال الموريتاني عشراتُ الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ودخلوا في علاقات متنوعة مع السكان المحليين مسجلين انطباعاتهم عن حالة البلاد الطبيعية وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية بما في ذلك الحديث عن نمط الحياة اليومية وتفاصيل العادات والتقاليد والنظام الغذائي والأمراض الشائعة ومهارات التداوي، إلخ.

وكان بعض هؤلاء المستكشفين أثناء تنقلهم عبر المجال الموريتاني يحمل معه أدوية حديثة مصنوعة في الغرب. كما أن من بينهم من احتاج إلى تناول بعض الأدوية التقليدية المحلية. ولهذا يمكن اعتبار هذا الاتصال نوعا من التواصل والتثاقف أخذًا وعطاءً بين هؤلاء الوافدين الغربيين والسكان المحليين شمل من بين ما شمل مهارات العلاج.

تسعى هذه الورقة إلى تقديم رؤية الآخر لتقاليد ومهارات التداوي والعلاج كما رآها وسجلها الرحالة والمستكشفون الغربيون وخاصة الفرنسيين خلال القرني التاسع عشر.

(1) جامعة نواكشوط العصرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

وسنتناول الموضوع عبر المحاور التالية:

- الأمراض الشائعة حينئذ بالمنطقة؛
- مهارات وطرق العلاج لدى السكان المحليين؛
- وسائل الوقاية المستخدمة في تلك الفترة.

1. الأمراض الشائعة:

لم تكن حالة البيضان، خلال القرن التاسع عشر، رغم بساطة الإمكانيات التي يتوفرون عليها لتأمين ضروريات الحياة، سيئة على العموم من الناحية الصحية. فقد كانت لهم دراية بعلاج الأمراض، فضلا عن درجة من الخبرة في التعامل مع الأمراض المعدية مما شكل بوادر «وعي صحي» ساهم في الحيلولة دون انتشار بعض الأمراض والأوبئة.

ومن خلال قراءتنا لنصوص الفرنسيين الذين اهتموا بالمنطقة يبدو أن البلاد لم تعرف تفشيا كبيرا للأمراض في تلك الفترة. وربما تكون شمس الصحراء الحارقة من أهم العوامل التي ساعدت على ندرة الأمراض والأوبئة.

يقول الرحالة رني كايى (René Caillié) المشهور بـ «ولد كيجَه النصراني»[1] الذي وصل منطقة البراكنة في صيف 1824 وتجول داخلها أزيد من تسعة أشهر: «لقد لاحظت أن البيضان على العموم ليسوا عرضة لأمراض خطيرة»[2]. ويجزم هذا الرحالة بأن ذلك عائد إلى زهدهم في الأكل والشرب.

ويمضي رني كايى في حديثه عن الأمراض عند البيضان مؤكدا قلة شيوع بعض أنواعها: «لقد شاهدت طوال مقامي [تسعة أشهر من التجوال] رجلا واحدا مصابا بداء الفيل (éléphantiasis) ومكفوفا واحدا، ولم أصادف إنسانا مجذوما، إذ يبدو أن الجذام غير موجودة عندهم، كما أنني لم أشاهد في تلك المنطقة شخصا أعرج»[3].

---

(1) Pour plus d'infprmations à ce sujet, voir : Marcel CHAILLEY, **Ould Keje**, Bulletin de correspondance saharien, n°5, Dakar, 1950, pp. 1-6.

(2) René CAILLIE, CAILLIE René, **Voyage à Tombouctou**, Editions La Découverte/Poche, Paris, 1996, t-1, p.113.

(3) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114-115.

ويعـدد هـذا الرحالـة جملـة مـن الأمـراض شـاهدها لـدى البيضـان مثـل الحمـى، والتهـاب الجيـوب الأنفيـة والـزكام وآلام الـرأس والوجـه والمعـدة والجـرب وهـو نـادر. يقـول: «إن الجـرب وهـو مـرض شـائع عنـد الزنـوج قليـل لـدى البيضـان»[1].

ويذكـر جـراح سـلاح البحريـة بيبـي (Pipy) ضمـن ملاحظـات جمعهـا سـنة 1851 حـول الوضعيـة الصحيـة للسـكان البيضـان والزنـوج بمنطقـة حـوض نهـر السـنغال شـيوع الرمـد خاصـة في صفـوف الزنـوج وبالـذات بـين أطفالهـم، معلـلا ذلـك بـبرودة الليـل ورطوبتـه.[2] ويضيـف هـذا الطبيـب العسـكري: «إن بـرد الليـالي يـؤدي أحيانـا إلى إصابـة بعـض السـكان بـآلام الحلـق الـذي يتحـول غالبـا إلى التهـاب اللوزتـين»[3].

ويشـير الضابط البحري دومينيك بـورل (Dominique Bourrel) وقـد تجول في منطقة البراكنـه سـنة 1860 (أي بعد مرور سـت وثلاثين سـنة عـلى مغادرة الرحالـة رني كايى لهـا) إلى وجـود الجـرب والقـرع والزهري في تلـك المنطقة مؤكـدا «أن هذا المـرض الأخير يفتـك بالسـكان الذين لا يتوفـرون على ما يكافحونـه به»[4].

ويتحـدث المستكشـف عـلي صـل (Alioune Sall)، وهـو سـنغالي انخـرط في الجيـش الفرنـسي وانهمـك في خدمـة الفرنسـيين الذيـن أصبحـوا يعتبرونـه فرنسـيا ممـا جعـل الجنـرال فيديـرب (Faidherbe)، الـوالي الفرنـسي عـلى السـنغال، يختـاره ضمن حملة استكشـاف المجـال الموريتاني التـي أشرف عليها ذلك الـوالي بين سـنتي 1859 و1862؛ ويتحـدث عـلي صـل في السـياق نفسـه عـن انتشـار الحمـى[5] أثنـاء فصـل الخريف في مناطـق البراكنـة وتكانـت والحوض التي زارها ضمـن مأموريته في نطاق حملة اكتشـاف المجـال الموريتانـي تحت قيـادة الجنـرال فيـدرب التي أشرنـا إليها سـابقا[6].

---

(1) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.113-114.

(2) PIPY, Chirurgien de la Marine au Sénégal, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures et yolloffs qui habitent entre l'escale des Trarzas et Dagana**, Revue Coloniale (RC), Paris, octobre 1851, p. 374-387, p.375.

(3) PIPY, Chirurgien de la Marine au Sénégal, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures,** op.cit., p. 376.

(4) Dominique BOURREL, **Voyage dans le pays des Maures Brakna, Rive droite du Sénégal (juin-octobre 1860**, Paris, Revue Maritime et Coloniale (RMC), t.second, n°2, septembre 1861, p. 511-545 et n°3, octobre 1861, pp. 11-77, p.27.

(5) Nous n'excluons pas que cette fièvre soit le paludisme, compte tenu de la nature de la zone adjacente au fleuve Sénégal, et la visite coïncide avec l'été lorsque la pluie tombe et que les moustiques se propagent.

(6) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration dans l'intérieur de l'Afrique (1860-1862)**, 46 p, Centre des Archives d'Outr-Mer d'Aix-en-Provence (CAOM), Série: Missions Carton 1: Missions et Voyages, Chemise n°5 (Dossier de Alioune Sall), p.15.

ويشير هذا المستكشف إلى مرض معد يصيب الأطفال خاصة، ويمتاز ببروز حبيبات دقيقة حمراء، وتصاحبه حمى وإسهال، وهو يقتل العديد من الأطفال[1]. ولا نستبعد أن يكون الأمر متعلقا بمرض الحصبة الذي كان إلى وقت قريب ينتشر في المنطقة.

ويتحدث الرحالة بول صوليي (Paul Soleillet) الذي اجتاز المنطقة أثناء شهري فبراير وإبريل سنة 1880 منطلقا من بلدة نجاكو بمصب نهر السنغال حتى مشارف مدينة أطار بالشمال الموريتاني عن انتشار حمى ونزلات بردية في الأجزاء الجنوبية الغربية من منطقة الترارزه حيث طلب منه بعض السكان أدوية لعلاج هذا المرض[2].

ويشير الرحالة بول بلانشي (Paul Blanchet) الذي زار مناطق الترارزة وإينشيري وآدرار سنة 1900 إلى انتشار الرمد بمدينة أطار التي مكث بها سبعة وسبعين يوما أسيرا قبل أن يتم إطلاق سراحه ويعود إلى مدينة سين-لوي[3].

وكان الرمد أيضا قد لفت نظر مستكشف فرنسي آخر هو بول صوليى الذي أشار إلى وجوده بمنطقة آدرار بالشمال الموريتاني دون أن يتحث عن طرق علاجه[4].

2. وسائل العلاج:

استرعت انتباه المستكشفين الفرنسيين طرق ووسائل العلاج عند البيضان، إذ يتحدث الرحالة رني كايى عن طرق معالجتهم للعديد من الأمراض مشيرا إلى أن المرضى يمتنعون أثناء إصابتهم عن الأكل مكتفين بتناول القليل من اللبن. غير أنهم في أثناء فترة النقاهة لا يأكلون إلا اللحم الذي يساعد في تعجيل الشفاء.

وفي سياق النقاهة أيضا يذكر بول صوليى أن بعض سكان المناطق البعيدة عن الشاطئ يأتون في بعض أوقات السنة للبقاء مع صيادي إيمراكن بغية استهلاك السمك المجفف[5].

(1) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.15.

(2) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, décembre 1879-mai 1880, 154 p, Centre des Archives d'Outr-Mer d'Aix-en-Provence (CAOM), Série : Missions, Carton 2: Missions et Voyag (dossier de Paul Soleillet), p. 97.

(3) Paul BLANCHET, **Rapport de mission en Adrar (Mauritanie) 1900**, 36 p., Centre des Archives d'Outr-Mer d'Aix-en-Provence (CAOM), Série: Affaires Politiques, Carton 2711, chemise n°4 (dossier de Paul Blanchet), p. 32.

(4) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.99.

(5) Ibid, op.cit., pp.88-89.

وحسب العديد من أصحاب نصوصنا ينتشر استعمال منتجات واحات النخيل من بلح ورطب وتمر غذاءً ودواءً في العديد من مناطق البلاد الموريتانية[1].

وضمن حديثه عن معالجة البيضان لآلام الرأس، يذكر رني كايي أنهم يستعملون عصابة يشدونها عليه بقوة. ويعتمد علاجهم للزكام على صب زبدة ذائبة في الأنف بواسطة إناء أو أنبوب خاصين، وهم يؤكدون أن هذا العلاج يخفف كثيرا من الآلام وخاصة بالنسبة لالتهاب القنوات الأنفية[2].

ويتناول هذا الرحالة طريقة علاج السكان لأوجاع البطن قائلا: «إنهم يصنعون نقاعة مغلية تتكون من نصف ليتر من بول الإبل مخلوط بلترين من الماء»[3]، غير أنه لم يبين لنا طريقة استعمال هذا الدواء.

ويواصل هذا الرحالة استعراضه لأدوية البيضان مشيرا إلى أنهم يأخذون لحاء (le tanin) [4] شجرة الطلح (Mimosa) ويشوونه ويحولونه إلى دقيق ثم يمزجون معه الزبدة وذلك لصناعة «مرهم» يعالجون به جميع أنواع الجروح والحروق والرضوض والأورام عن طريق دهن الأماكن المصابة مرتين في اليوم[5].

ويضيف أن البيضان يستخلصون أوراق شجرة البوهينيا (Bauhinia) ثم يطحنونها ويمزجونها مع دقيق الصمغ (acacia senegalensis) [6] وقليل من الماء فيضعون هذا «المستحضر»، وهو بمثابة جبيرة، على الأماكن المصابة من الجسم. وعندما ييبس الصمغ يشكل طبقة قشرية على الجسم تترك حتى تسقط تلقائيا، وقد يشوون الصمغ أحيانا لاستخدامه في الدواء[7].

---

(1) Voir :
Eugène-Abdon, MAGE, **Voyage au Tagant**, op.cit., p.13;
Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.25;
Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.102;
Paul BLANCHET, Rapport de mission en Adrar (Mauritanie) 1900, op.cit., p.31.

(2) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.113.

(3) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, pp.113-114.

(4) (écorce des acassia (le tanin)

(5) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.113.

(6) (La gomme arabique (acacia senegalensis)

(7) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, pp.113-114.

ويتحدث رني كايي عن شيوع استخدام البيضان للمغرة[1] الذي يعالجون به الرمد والشقيقة[2].

ورغم أن الرحالة رني كايي يجزم بأن البيضان لا يعرفون أي دواء للحمى. فإنه يذكر أنها حين تصيبهم يشربون اللبن الممزوج بالصمغ العربي. ويضيف أنه شاهد امرأة مصابة بالحمى منذ شهر، وهي تدلك رأسها بزبدة ساخنة ممزوجة بمسحوق القرنفل[3].

ويمضي هذا الرحالة في استعراضه للعلاجات عند البيضان ذاكرا أنهم نادرا ما يستخدمون المسهلات رغم معرفتهم بها مشيرا إلى نبات مسهل يدعى السنا (Senna alexandrina)[4] إذا أرادوا استخدامه يقومون بسحقه مع بعض ثمار السدر (zizyphus) ويضيفون إليه الماء ثم يقدمونه إلى المريض[5].

وبعد مضي أكثر من ربع قرن على جمع رني كايي لتلك المعلومات عن الأمراض وعلاجها عند بيضان البراكنه يؤكد الطبيب الجراح بيبي في تقريره السابق الذكر تفوق البيضان على جيرانهم الزنوج من الناحية الطبية، وهو تفوق كما يقول: «متأتٍّ من كون البيضاني يتوفر على درجة متطورة من الذكاء»[6].

ويضيف هذا الجراح قائلا: «لن أتوسع بخصوص معارف الزنوج في مجال الطب، ذلك أنهم يلجأون باستمرار تقريبا إلى البيضان إذا كانت الحالة المرضية تمثل خطرا»[7].

ويُقرّ هذا الطبيب الجراح بخبرة البيضان النسبية، في مجال الطب التقليدي طبعا، وتَمكُّنِهم من الاستفادة من نباتاتهم الطبيعية في معالجة الأمراض، إذ يقول: «إن البيضان بصفتهم أطباء لديهم معارف متسعة نوعا ما، فقد عرفوا كيف يستخرجون من أعداد كبيرة من النباتات أدوية يستخدمونها حسب

(1) حجر أحمر يسمى محليا الحميرة (l'ocre : pierre sanguine)

(2) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114.

(3) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114.

(4) -Séné (Senna alexandrina).

(5) -René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114.

(6) -PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.377.

(7) -PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.377-378.

الحـالات المرضيـة، وإن كان ذلـك بطريقـة خاطئـة في كثـير مـن الأحيـان»[1].

وينتقـد هـذا الجـراح عـلى أطبـاء البيضـان مثـلا طريقتهـم السـيئة جـدا في معالجـة الالتهابـات عـن طريـق إعطـاء كميـات قليلـة مـن القوابـض ممـا يـؤدي إلى إفشـال العـلاج أو إطالـة أمـد المـرض إذا كانـت الحالـة عـلى درجـة مـن الخطـورة[2].

ويمـضي الطبيـب بيبـي في حديثـه ذاك قائـلا: «وبصفتهـم [البيضـان] جراحـين فإنهم جسـورون وموفقـون في غالـب الأحيـان، فقـد رأيـت في مجموعـة مـن الأشـخاص آثارا عميقـة لشـقوق اسـتهدفت عـلاج انسـدادات أو آلام»[3].

ويعـترف هـذا الجـراح بكفـاءة الأطبـاء البيضـان قائـلا: «كما رأيـت مؤخـرا في الترارزه واحـدا مـن أعظـم زواياهـم يدعـى أحمد، وهـو مشـهور بعلاجاته المدهشـة، فقـد نجح في معالجـة خـراج (abcès) كبـدي معالجـة متقنـة. ومـع أن الخـراج كان بـارزا تحـت الأضـلاع إلا أن عمليـة البضـع وعـلاج المريـض تتطلبان الخـبرة»[4].

ويختتـم هـذا الجـراح العسـكري تقريـره مؤكـدا أنـه مـن المفيـد التعرف عـلى مختلف وسـائل العلاجـات البيضانية.[5]

ويشـير عـلي صـل مـن جانبـه إلى وجـود أطبـاء مهـرة في منطقـة تكانـت يقومـون ببعـض العمليـات الجراحيـة التـي لـم يحـدد نوعهـا[6]. كمـا يتحـدث هـذا المستكشـف عـن شـيوع معالجـة البيضـان لعديـد مـن الأمـراض عـن طريـق الكـي بالنـار، ودأبهـم عـلى القـول: «إن كيـة مـن نـار شـفاء مـن كل داء»[7].

وعـلى مـا يبـدو فـإن العـلاج بالكـي والحجامـة والتشريـط كان سـائدا في مختلـف أنحـاء البـلاد الموريتانيـة، إذ يذكـره العديـد مـن المستكشـفين والرحالـين الفرنسـيين عـلى تبايـن المناطـق التـي جابوهـا والأوسـاط التـي عايشـوها[8].

---

(1) -PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.378.

(2) -PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.377.

(3) -PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.377.

(4) PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., p.378.

(5) PIPY, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures**, op.cit., pp.377-378.

(6) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.7.

(7) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.9.

(8) Voir :

Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., pp. 7, 8 et 18;

وكان بـول صوليـى شـاهد عيـان عـلى تـداوي البيضـان بالتشريـط، ولـو أن ممـارس هـذا العـلاج في تلـك الحالـة لـم يكـن طبيبـا تقليديـا، وبالتـالي فقـد لا يكـون العـلاج صحيـا بمـا فيـه الكفايـة، ومـع ذلـك أعطـى نتائـج إيجابيـة. يقـول هـذا الرحالـة: «عندمـا اشـتكى الطالـب ابراهيـم [أحـد مرافقـي صوليـي] مـن آلام في أضلاعـه عالجـه الطالـب عبـد اللـه [مرافـق آخـر] بسـت شرطـات بمـوسى صدئـة. وعندمـا سـال الـدم مـن تلـك الجـروح أعلـن المريـض أن آلامـه قـد خفـت»[1].

ويـصرح بـول صوليـى «أن البيضـان يسـتخدمون العديـد مـن نباتـات بلادهـم للعـلاج كالصمـغ العربـي وحـب القـرظ[2](Acassia nilotica) والسـنا[3](Senna alexandrina)»[4].

وفي نطـاق عنايتـه بالنباتـات يعـترف هـذا الرحالـة أنـه جمـع خـلال رحلتـه عـبر البـلاد الموريتانيـة أربعـين عينـة نباتيـة لتتـم دراسـتها في المختـبرات الفرنسـية[5].

ويذكـر بـول بلانـشي اسـتخدام السـكان لميـاه المحيـط بهـدف عـلاج بعـض الأمـراض مشـيرا عـلى الخصـوص إلى أنهـم يسـقون المصـاب باليرقـان كميـة مـن ميـاه البحـر المالحـة[6]. غـير أننـا لا نجـد لـدى هـذا الرحالـة معلومـات عـن نتائـج ذلـك العـلاج. ويضيـف بـول بلانـشي إن البيضـان يعالجـون الأمـراض الجلديـة مثـل الجـرب بميـاه البحـر[7]، دون أن يعطـي تفاصيـل أخـرى بهـذا الشـأن.

ويسـتخدم البيضـان ميـاه البحـر أيضـا في عـلاج بعـض أمـراض حيواناتهـم. يقـول بـول صوليـى في هـذا السـياق: «[...] فهـم يغسـلون الإبـل والخيـل المصابـة بلـدغ الحـشرات بميـاه البحـر»[8] مشـيرا إلى أنـه يـوم غـادر مركـز نجاكـو بادئـا رحلتـه

Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., pp. 21 et 37;
Paul BLANCHET, **Rapport de mission en Adrar (Mauritanie)**, op. cit., p. 16.

(1) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.37.
(2) Acassia nilotica
(3) Senna alexandrina) Séné)
(4) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.47.
(5) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., pp.147-154.
(6) Paul BLANCHET, **Rapport de la Mission dans l'Adrar**, op.cit., p.15.
(7) Paul BLANCHET, **Rapport de la Mission dans l'Adrar**, pp.15-16.
(8) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.27.

إلى آدرار بالشمال الموريتاني تعرض «لهجوم جيش عرمرم من الحشرات التي تهاجم الإبل والخيل بشراسة مما أدى إلى سيلان دمائها، فكادت تهلك لو لم نقم بغسلها بمياه المحيط. وقد تكون هذه الحشرات من فصيلة ذبابة تسي تسي الشهيرة»[1].

ويذكر هذا الرحالة أيضا طريقة أخرى من طرق علاج البيضان للحيوانات فيقول: «لقد أصيب أحد جمالنا بدوار فنفخ عبد الله [أحد مرافقي صوليي] في منخر الجمل المصاب كما قام محفوظ [مرافق آخر] بنفث دخان التبغ داخل فمه فاستجاب الجمل على ما يبدو لهذا العلاج وأعلن «البيطريان» شفاءه»[2].

غير أن هذه العلاجات التقليدية التي قد تستخدم «بطريقة خاطئة» ما كانت لتؤتي أكلها على الصحة العامة للبيضان لولا تفطنهم لضرورة الوقاية، فهي خير من العلاج كما يقال.

3. طرق الوقاية:

قد يكون من الجسارة أن نتحدث عن الوقاية، بالمعنى الذي نفهمه الآن من هذه العبارة، عند بيضان القرن التاسع عشر، غير أن المعلومات التي نقلها لنا المستكشفون والرحالون الفرنسيون عن هؤلاء السكان تسمح بتتبع بعض الممارسات الدالة في هذا الصدد.

فعن معاملة البيضان للمريض المصاب بالجرب يقول رني كايي: «عندما يصيب الجرب أحدهم فإنه يتحاشى الجميع ويحظر عليه دخول المسجد، ويخصص له سرير في زاوية من الخيمة. ولا يشرب أيٌّ شخص في الإناء المخصص لذلك المريض حتى يتم شفاؤه بصورة كلية»[3].

ويؤكد علي صل ما ذهبنا إليه بخصوص وجود بوادر وعي صحي لدى البيضان عندما يذكر ضمن حديثه عن مرض الحصبة المعدي الذي أشرنا إليه سابقا أن البيضان يبذلون قصارى جهدهم للحيلولة دون اختلاط الأطفال

---

(1) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., pp.27-28.

(2) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.63.

(3) René CAILLIE, **Voyage à Tombouctou**, op.cit., t-1, p.114.

المـرضى بأولئـك الذيـن لـم يصابـوا بعـد[1].

ويشـير هـذا المستكشـف إلى مـا يشـبه الحجـر الصحـي ذاكـرا تأجيـل سـفر بعـض البيضـان حتـى تنقـضي فـترة كافيـة عـلى شـفاء أبنائهـم موضحـا أنهـم يغتسـلون كـي لا ينقلـوا العـدوى إلى المخيـم الـذي سـيرحلون إليـه[2].

وفي سـياق الوقايـة أيضـا يخبرنـا عـلي صـل أن السـكان يعزلـون حيواناتهـم المريضـة عن تلـك الصحيحـة مخافـة إصابتهـا بالعـدوى[3].

ويؤكـد الرحالـة بـول صوليـى ذلـك قائـلا: «إن البيضـان يعزلـون الجمـال التـي يصيبهـا الجـرب ويحاولـون منعهـا مـن الاختـلاط ببقيـة قطعـان المـواشي، بـل إنهـم يجلبـون إليهـا المـاء في ضاحيـة البـئر وذلـك لمنعهـا مـن الوصـول إلى البـئر حتـى لا تنقـل العـدوى إلى القطعـان السـليمة»[4].

ويسـتنتج مـن حديـث الرحالـة بـول بلانـشي أن البيضـان أدركـوا مخاطـر انتشـار المـرض الوبائـي في صفـوف أبقارهـم فحرصـوا عـلى فصـل الأبقـار المصابـة بالمـرض عـن تلـك السـليمة للحـد مـن انتشـار الوبـاء[5].

وفضـلا عـن المرجعيـة الطبيـة العربيـة، فقـد اسـتفاد القـوم دون شـك مـن محيطهـم الخـاص، وعرفـوا عنـاصر التـداوي حيوانـاتٍ ونباتـا ومعـادنَ ووظفوهـا لخدمـة أوضاعهـم الصحيـة.

ومجمـل القـول ان سـكان هـذه الصحـراء قـد تعاطـوا تقاليـد صحيـة نعتقـد أن لِاسـتفادة بعـض الأسر البيضانيـة مـن الـتراث الطبـي العربـي علاقـةً بهـا. إذ لـولا تلـك الخلفيـة النظريـة مـا كان لبيضـان الصحـراء أن «يبرعـوا» في تدخلاتهـم العلاجيـة والإسـعافية التـي قـد تتطلبهـا الأمـراض الخطـيرة والحـوادث العارضـة في مجـال صحـراوي مترامـي الأطـراف يمتـاز بقسـوة المنـاخ وبنـدرة الميـاه والنبـات.

هكـذا إذن، يتضـح مـن خـلال شـهادات هـؤلاء الفرنسـيين أن مهـارات السـكان المحليـين مكنتهـم مـن التكيـف مـع ظـروف مجالهـم الصحـراوي القـاسي موظفـين

---

(1) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., pp.15-16.

(2) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.16.

(3) Alioune SALL, **Rapport sur un voyage d'exploration**, op.cit., p.18.

(4) Paul SOLEILLET, **Rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, op.cit., p.32.

(5) Paul BLANCHET, **Rapport de la Mission dans Adrar**, op.cit., p.17.

مـا تجـود بـه حيواناتهـم ومـا تنبتـه أرضهـم الضنينـة مـن أشـجار وثمـار غـذاءً ودواءً؛ فــإلى أي حــد يســتطيع وعيُنــا الصحــي الراهــن ووســائلنا العلميــة الحديثــة الاســتفادة مــن تجــارب ومهــارات أســلافنا التــي كانــت موضــع إعجــاب وتقديــر مــن لــدن بعــض المستكشــفين الغربيــين رغــم خلفيتهــم الحداثويــة وتطــور الترســانة الطبيــة لدولهــم مقارنــة بالممارســات التطبيبيــة لبــدو الصحــراء؟

الملحق:

جــدول يــسرد الأمــراض الشــائعة لــدى البيضــان والممارســات المســتخدمة لعلاجهــا حســب نصــوص الرحالــة والمستكشــفين الفرنســيين التــي حاولنــا اســتنطاقها في هــذا البحــث:

الأمراض المذكورة في المدونة	العلاجات المستخدمة
آلام الأضلاع (Douleurs de côtes)	تشريط
آلام الحلق (Douleurs de gorge)	العلاج لم يذكر
آلام المعدة (Maux d'esomac)	بول الإبل
آلام الوجه الشقيقة (Migraine)	مغرة (الحميرة) + زبدة
آلام (Douleurs)	مسحوق أوراق البوهينيا (bauhinia) + مسحوق الصمغ
التهابات (Inflamations)	قوابض
إمساك (Constipation)	نقيع السنا (Senna alexandrina) + عناب السدر (zizyphus)
انسدادات (Occlusions)	بضع، شق، جراحة
التهاب الجيوب الأنفية (Sunisite)	زبدة مذابة تُدخل في الأنف بواسطة أنبوب خاص + المغرة (l'ocre)

التهاب اللوزتين (Amygdalite)	العلاج لم يذكر
التهاب القنوات الأنفية (Inflamation des voies nasales)	زبدة مذابة تُدخل في الأنف بواسطة أنبوب خاص
البرص	العلاج لم يذكر
جذام (Lèpre)	العلاج لم يذكر
جرب (Gale)	مسحوق خاص + مياه المحيط
جروح (Blessures)	مرهم مسحوق لحاء (le tanin) شجر الطلح (mimosa) + زبدة
حروق (Brûlures)	مرهم مسحوق لحاء (le tanin) الطلح (mi-mosa) + زبدة
حصبة (Rougeole)	العلاج لم يذكر
حمى (Fièvre)	مسحوق القرنفل مع زبدة ساخنة، حليب + صمغ عربي
خُرَاج (Abcès)	بضع، قطع
داء الفيل (Elépahantiasis)	العلاج لم يذكر
رضوض/كدمات (Contusions)	مرهم مسحوق لحاء (le tanin) الطلح (mi-mosa) + زبدة
رمد (Conjonctivité)	المغرة (l'ocre)

زكام (Rumes)	زبدة مذابة تُدخل في الأنف بواسطة أنبوب خاص
زهري (Syphilis)	منتشر ولم يذكروا له دواء
صداع: آلام الرأس (Maux de tête)	عصابة تشد على الرأس بقوة
عرج (Claudication)	العلاج لم يذكر
عمى (Cécité)	العلاج لم يذكر
قرع (Teigne)	العلاج لم يذكر
مغص (Coliques)	العلاج لم يذكر
نزلات بردية (Rumes)	زبدة مذابة يتم استنشاقها
يرقان (Jaunisse)	مياه البحر

الصيادلة العسكريون الفرنسيون في المغرب

إعداد: د. جاك نوروا

تعريب: د. عادل النفاتي

في بداية القرن العشرين تحركت الحملة العسكرية الفرنسية باتجاه المغرب استجابة لأمرين أساسيين: أولهما الدفاع عن مصالحها الاقتصادية الفرنسية، وثانيهما لحماية جاليتنا في مملكة تعمها الفوضى.

- دواعي إرساء نظام الحماية الفرنسية بالمغرب وكيفية إنجازه (1907-1913م)؟

يوم 17 مارس 1907م، أغتيل الطبيب موشان (Mauchamp) في مدينة مراكش بطريقة مروّعة، رغم ما عرف عنه من طيبة ونزاهة، واجتهاد في معالجة الناس وحتى المحليين. وقد تسببت حادثة اغتياله في إثارة الرأي العام الفرنسي، الذي طالب بالقصاص. وكانت ردة فعل الحكومة الفرنسية غريبة وغير منطقية؛ إذ سارعت باحتلال مدينة وجدة، والحال أن مراكش (مكان وقوع الاغتيال) ووجدة مدينتان متباعدتان جغرافياً، لذلك عُدّ التفاعل الفرنسي مع الحادثة مجانباً للصواب بلا منطق أو وجاهة.

وسارت الأمور في مدينة الدار البيضاء بطريقة أسوأ؛ فقد قُتل عدد من العملة الأوروبيين يوم 30 يوليوز 1907. ثم توسعت رقعة الاحتجاجات، ممّا دفع بالجالية الفرنسية إلى اللجوء إلى مقر القنصلية، حيث تمت حمايتهم من قبل القوات البحرية التابعة للبارجة «ڨاليلي» (Galilée). وبعد هذه الأحداث الدامية مباشرة، توجه قسم من البحرية الفرنسية نحو المغرب تحت إمرة الجنرال درود (Drude) الذي أرسي يوم 7 غشت في الدار البيضاء. وفي ذلك اليوم، وطئت قدم أول صيدلي عسكري فرنسي أرض المغرب؛ فكان الصيدلي مساعد نقيب برنار (Bernard) من قسم الإسعاف، ثم التحق به وبعد مدة وجيزة الصيدلي النقيب لوميتوارد (Le Mithouard) من الفوج الثاني، والذي كان أحد أعضاء فريق تركيز المستشفى الأول للحملة. وأيضاً الصيدلي النقيب من الفوج الرابع، ڨوتيي (Gautier)، وهو متصرف صيدلي في قسم التموين الذي أحدثه بمعاونة مساعد النقيب الصيدلي مورو (Moreau).

عـلى الصعيـد العسـكري، حقّقـت الحملـة أهدافهـا المتمثلـة في حمايـة جميـع أفـراد جاليتنـا، حيـث كان مـن اليسـير عـلى قواتنـا تطويـق الـدار البيضـاء واحتـلال رقعـة ترابيـة تمسـح بعـض الكلومـترات عـلى السـاحل، ولكـن كان يعـسر علينـا الحفـاظ عليهـا مـدة زمنيـة طويلـة بسـبب مقاومـة قبائـل الشـاوية. لذلـك سـعى الجنـرال دامـاد (D'Amade) _خليفـة الجنـرال درود (Drude)_ في مفتتـح سـنة 1908م إلى مهادنـة تلـك القبائـل التـي كانـت تسـيطر عـلى السـهول الأطلسـية المجـاورة للـدار البيضـاء. وتـم اسـتغلال تلـك الهدنـة التـي امتـدت عـلى سـنوات 1908م و1909م و1910م لمزيـد تدعيـم قطـاع الصيادلـة؛ فوقـع اسـتقدام سـتة صيادلـة آخريـن إلى المغـرب للاشـتغال في ثلاثـة مؤسسـات استشـفائية، وهـي: صيدليـة التمويـن بالـدار البيضـاء، ومستشـفى الـدار البيضـاء، ومستشـفى برشـيد.

كنـا نظـن أننـا قـد أنجزنـا مهمتنـا بنجـاح، وتوقعنـا عـودة وشـيكة وشـبه جماعيـة إلى أرض الوطـن بحلـول سـنة 1911م، والإبقـاء فقـط عـلى جهـاز الشرطـة. ولكـن كانـت للأقـدار مشـيئة أخـرى، ففـي سـنة 1909م خلـف السـلطان مـولاي حفيـظ _والـذي عـرف بتعصبـه لعقيدتـه الإسـلامية_ شـقيقه مـولاي عبـد العزيـز (حكـم بـين 1894م و1908م). وكان لهـذا السـلطان قـرارات غـير حكيمـة، في تعبئـة مـوارد خزينـة المملكـة (بيـت المـال). فقـد اتفـق لـه تعميـم دفـع الجبايـة حتـى عـلى قبائـل الجيـش (القبائـل المخزنيـة) بجهـة مكنـاس، وهـي قبائـل محاربـة كانـت معفـاة سـابقاً مـن دفـع الضرائـب لقـاء مسـاهمتها في خدمـة الجيـش السـلطاني. لذلـك انتفضـت ضـده وحـاصرت مدينـة مكنـاس حيـث يوجـد مقـر إقامتـه، فلـم يجـد السـلطان بـدّا سـوى الاسـتنجاد بالقـوات الفرنسـية المتمركـزة عـلى السـواحل. وبعـد أن طلـب الجنـرال موانيـي (Moinier) _خليفـة الجنـرال أمـاد_ المـدد العسـكري مـن العاصمـة باريـس، تطـوّر عـدد جنـود الحاميـة الفرنسـية المتمركـزة بالمغـرب مـن أربعـة آلاف إلى خمسـة وثلاثـين ألـف جنـدي. وبسرعـة تـم التوجـه نحـو فـاس، رغـم صعوبـة الظـرف الصحـي الـذي تميـز بانتشـار سريـع ومرعـب للأمـراض في ظـلّ ارتفـاع درجـات الحـرارة وتفـشي الأمـراض المألوفـة: كالإسـهال والحمـى التيفيـة (fièvre typhoïde).

وبعـد فـك الحصـار عـن السـلطان، وتقهقـر القـوات الغازيـة، تـمّ في سـنة 1911م إنشـاء ثلاثـة مستشـفيات عـلى مراحـل في المـدن الملكيـة: الربـاط وفـاس، ومكنـاس (عاصمـة الأمازيـغ) التـي وقـع اسـترجاعها يـوم 8 يونيـو 1911م. وحينهـا احتفـى السـلطان مـولاي حفيـظ بتلـك المناسـبة السـعيدة في مقـره بفـاس، معلنـاً امتنانـه

الكبير للجنرال الفرنسي موانيي (Moinier) _أسرد هذه التفاصيل لنستحضر ظروف احتلال فرنسا للمغرب وملابساته كحدث وقع منذ سنوات بعيدة_ وهنأ الجيوش الفرنسية بانتصارهم. وكاعتراف بجميلهم، بارك في السنة الموالية إبرام معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب.

وفي شتنبر 1912م، زعم المدعو الهيبة (1877-1919م) أحقيته بالسلطة، ونصّب نفسه سلطاناً على الجنوب، مستولياً على مراكش. فطلب منا السلطان التدخل من جديد، والقضاء على الغاصب. فتولى الأمر العقيد مانجان (Mangin) بكل نجاح، وتم تشييد مستشفى في مشرع بنعبو، واسندت إدارة الصيدلة للنقيب سافاري (Savary)، وكان الصيدلي مساعد نقيب لولي (Leulier) (الذي نال فيما بعد لقب البروفسور لولي Leulier من كلية الصيدلة بليون) أول صيدلي فرنسي في مستشفى مراكش.

- نشر التمدّن (من 1913م إلى اليوم)

كانت سنة 1913م في المغرب وفق التعبير المجازي لأندري موروا (André Maurois): «**سنة محتشمة عسكرياً ولكنها مفيدة اقتصادياً**»، حيث تركز مشروع ليوطي (Lyautey) على توحيد كامل المجال المغربي، بإعادة الاندماج بين المغرب الغربي والمغرب الشرقي، والذي تحقق سنة 1914م عند استرجاع مدينة تازة. وتم تركيز مستشفيات عسكرية على المحاور الاستراتيجية لأم الربيع: في مدينة واد زم، وخنيفرة وتازة. كما نجح ليوطي (Lyautey) في المحافظة على المغرب كمستعمرة فرنسية زمن اندلاع الحرب الكبرى، رغم محدودية الإمكانيات التي كانت تعيقه عن خوض مواجهات عنيفة. ومن جهة ثانية فإن الأمازيغ وباعتبارهم شعوباً شجاعة ومعتدة بنفسها، ستصمد طويلاً في المرتفعات (لا يجب أن ننسى أن الأمازيغ وخلال حملتنا العسكرية قد أبعدوا العرب الغزاة شيئاً فشيئاً نحو السواحل، حيث كانوا على قناعة بقوتهم وبحقوقهم).

في المقابل، كتب الصيدلي-المتفقد ݣوتيي (Gautier) سنة 1924م: «**لقد انتهينا في اللحظة الراهنة من بسط السلم في المملكة، وتمت إزالة عدد من المشافي، فلم يبق سوى ثمانية صيادلة عسكريين في المغرب موزعين كالآتي: أحدهم في الصيدلية الاحتياطية في الدار البيضاء، ونفر منهم في كل من مشفى الدار البيضاء، ومراكش، والرباط، ومكناس، وفاس،**

وتـــازة ووجــدة». فبفضـل تهدئـة المجـال وفـرض الاسـتقرار سـيظل عـدد الصيادلـة والمستشـفيات وجغرافيـة توزعهـا في المملكـة عـلى حالـه، وسـتتواصل الوضعيـة نفسـها قرابـة عقـد مـن الزمـن إلى حـدود 1934م، عرفنـا خلالهـا مراوحـة بـين الأمـل والذعـر، مثلمـا حـدث مـع اعتـداءات الريفيـين بقيـادة الخطابـي الـذي هُـزم سـنة 1926م. لقـد تميـزت أعمـال مقاومـة الأمازيـغ دومـاً بالشراسـة والعنـف، كمـا تـم وصفهـا مـن قبـل الطبيـب النقيـب جـون فيـال (Jean Vial) في كتابـه «المغـرب البطـولي» Le (Maroc héroïque) والـذي زُيّـن غلافـه بصـورة للنقيـب الملحمـي هنـري بورنـازل (Henry Bournazel).

فعنـد وصـول القـوات العسـكرية الفرنسـية إلى المغـرب، كانـت المملكـة في بدايـة القـرن العشريـن مثلمـا ذكرنـا سـابقاً في حالـة فـوضى، كانـت تعيـش تخلفـاً غريبـاً يحيلنـا عـلى القـرون الوسـطى مـن حيـث انتشـار العنـف الدمـوي والجهـل والهمجيـة. كمـا انكشـف وهـم انسـجام أقاليـم الإمبراطوريـة المغربيـة، فالسـلطة الفعليـة للسـلطان لـم تكـن تتعـدى مسـاحات محـدودة مـن مجـال سـمي بــ «بـلاد المخـزن» أو «البـلاد الخاضعـة»، والتـي لـم تتجـاوز حينهـا السـهول السـاحلية ونواحـي فـاس وشـمال مراكـش في الجنـوب. أمـا دواخـل البـلاد أو «بـلاد السـيبة»، كمناطـق ممانعـة فقـد كانـت تحـت سـلطة قبائـل أمازيغيـة مسـتقلة. وضمـن هـذا المجـال يتغـير مقـر إقامـة السـلطان باسـتمرار بـين فـاس ومراكـش والربـاط، وهـي مـدن آهلـة قُـدر عـدد سـكانها عـلى التـوالي حـوالي: 70.000 و50.000 و25.000 نسـمة (في تلـك الفـترة كانـت الـدار البيضـاء تعـد 10.000 نسـمة ولكـن في نهايـة فـترة الحمايـة سـيقفز العـدد إلى 700.000 نسـمة).

كانـت المواجهـات لا تهـدأ بـين القبائـل المتناحـرة فيمـا بينهـا مـن جهـة، وبـين القبائـل وعسـكر السـلطان مـن جهـة ثانيـة، والـذي كان ينـازع عـلى الـدوام منافسـين لـه عـلى السـلطة. وكانـت مملكتـه تفتقـد للطرقـات وللسـكك الحديديـة ولشـبكات المواصـلات، مـا عـدا انتشـار بعـض المسـارب البدائيـة. كانـت المجاعـات مرعبـة، بسـبب الجفـاف وزحـف الجـراد. ويتعمـق وطء هـذه الجوائـح بسـبب غيـاب التنسـيق الإداري، وفقـدان التواصـل بـين المحافظـات وأيضـاً نتيجـة انتشـار الأوبئـة مثـل: الطاعـون والكولـيرا وداء الحمـى الصفـراء (typhus) وغـيره، مـا يتسـبب في ارتفـاع أعـداد الضحايـا.

لـم يكـن في المغـرب أي نظـام صحـي جماعـي، فقـد كانـت الفضـلات متراكمـة أمـام الـدور، وبجانـب أبـواب المـدن، وكانـت جثـث الحيوانـات الأهليـة الميتـة ملقـاة عـلى قارعـة الطـرق في نفـس المـكان الـذي تلقـى فيـه حتفهـا. هـذه الوضعيـة المزريـة لا تخفـي وجـود شـبكات محـدودة مـن قنـوات الـصرف الصحـي في بعـض المـدن تـمّ بناؤهـا مـن قبـل سـجناء مسـيحيين، ولكـن لـم يتـم تعهدهـا بالعنايـة والصيانـة، فضـلاً عـن وجـود قنـوات لنقـل الميـاه وتوزيعهـا. لقـد كان المخـزن غـير مكـترث مطلقـاً بتوفـير الخدمـات العموميـة؛ إذ لا توجـد مستشـفيات أهليـة، مـا عـدا بعـض المنشـآت التـي تزعـم تقديـم خدمـات صحيـة وتسـمى محليـاً بـ «المارسـتان»، وهي في الواقـع ليسـت سـوى ملاجـئ بائسـة (قـد تكـون ضمـن الحيـز المجـالي للجامـع) يجتمـع فيهـا العجـزة والمـرضى والمجاذيـب الذيـن يعيشـون مـن التسـوّل والإحسـان، ولا تصلهـم بتاتـاً أيّ خدمـات علاجيـة. فمـن الغريـب أن المغـرب الـذي عـاش فيـه كل مـن ابـن زهـر وابـن رشـد ـ اللـذان أسـهما في اشـعاع علـم الطـب العربـي ـ لـم يعـد يـدرّس فيـه علـم الطـب مطلقـاً. فقـد أسـديت التوجيهـات إلى مؤسسـة القرويـين ـ وهـي المؤسسـة الجامعيـة الرسـمية الوحيـدة في فـاس ـ بالاقتصـار عـلى تدريـس مـا يحفـظ الذاكـرة الجماعيـة ومـا يمكـن مـن معرفـة العوائـد وتفسـير القـرآن.

ولـئن كانـت أوضـاع الخدمـات الصحيـة العموميـة مترديـة، فـإن نفـس الوضـع نجـده أيضـاً في القطـاع العسـكري، فرغـم قـوة الجيـش السـلطاني الـذي يـتراوح عـدد أفـراده بـين ثلاثـين وخمسـين ألـف جنديـاً، فإننـا لا نجـد فيـه طبيبـاً أو صيدليـاً واحـداً. فعـادة مـا يتـم نقـل الجرحـى والمـرضى مـن أرض المعـارك عـلى ظهـور البغـال. هـذه لمحـة عامـة عـن الوضـع المـزري للمغـرب سـنة 1907م، والـذي سـمح للقـوات الفرنسـية بالقيـام بـدور فعّـال هنـاك، وخاصـة دور الصيادلـة العسـكريين الذيـن كانـوا في قلـب معركـة مقاومـة الجهـل والمـرض، وأيضـاً في مهمـة استكشـاف مواطـن خـيرات هـذا البلـد التـي بقيـت مغمـورة لمـدة طويلـة.

- كيف تفانى الصيادلة العسكريون في أداء مهامهم الأساسية؟

تجـاوز جهـد الصيادلـة العسـكريين الفرنسـيين في المغـرب مجـرد القيـام بوظائفهـم المعتـادة، فدورهـم الطبيعـي هـو ضمـان التزويـد الـدوري بالأدويـة والتكويـن الصحـي والقيـام بالتحاليـل الضروريـة. فعـلاوة عـلى ذلـك، فقـد وسّـع الصيادلـة الفرنسـيون مهامهـم مـن خـلال القيـام ببعـض المبـادرات في التعامـل مـع الوضعيات الخصوصيـة. سـأذكر في غمـار ذلـك حادثتـين متصلتـين بصناعـة كبسـولات الأدويـة.

فمنذ إحداث صيدلية التموين في الدار البيضاء سنة 1908م، نجح الصيدلي النقيب ڭوتيي (Gautier) في صنع كبسولة دوائية في الوقت الذي كان فيه استخدامها قليل التداول حتى في الوطن الأم. ولضمان حظوظ أوفر لنجاح مهمته، ولملء تلك الكبسولات بطريقة ناجعة، استعمل آلة صناعة مكعبات المثلجات لشفط الهواء. وفي نفس الصيدلية الاحتياطية في الدار البيضاء، ومنذ فترة غير بعيدة، وخلال الحرب العالمية الثانية، تمكن الصيدلي العقيد جلبار (Gélébart) من صنع البلور النقي (وهو البلور الأنجع في صناعة الكبسولات والقوارير والأدوات الطبية). فقد كان تحقيق ذلك الاكتشاف بمثابة الحدث الأسطوري، فالولايات المتحدة الأمريكية نفسها لم تكن تعرف حينها صناعة الكبسولات الدوائية. ولقد استمر صنع الزجاج النقي حتى في أعسر الظروف، مثل زمن عمليات إنزال الحلفاء (خلال الطور الثالث من الحرب العالمية الثانية سنة 1942-1944م)، الذي كان نشيطاً بين فرنسا والمغرب، فقد واصلت الصيدلية الاحتياطية صناعة البلور النقي الضروري لحاجياتها. وبعد محاولات عديدة وتجارب بحثية عميقة، تمكن العقيد جلبار (Gélébart) من بلوغ النجاح والشهرة في صناعة الكبسولات والزجاجات من البلور النقي، وتزويد لا فقط القوات العسكرية الفرنسية في كامل شمال أفريقيا وإنما أيضاً كلّ الوحدات الصحية المدنية المغربية. وتمكن أيضاً من صناعة الخيوط الطبية بمساعدة الصيدلي اللواء جيرارد (Girard) والصيدلي العقيد فيليسيان رينود (Félicien Raynaud).

بصفة عامة، واجه الصيادلة العسكريون صعوبات يومية وجب التعامل معها، وهو ما استوجب طلب مساعدة المصالح العسكرية الأخرى وتوجيهاتها. فمثلاً تقوم مصالح الخدمات الهندسية بتحليل مشترياتهم من المواد والمكونات في قطاع البناء والإنشاء وتفقدها، ويتكفلون أيضاً بإتلاف المواد الغذائية الفاسدة التي وقع تفقدها من قبل المصالح المختصة، حتى يضمنوا ظروفاً غذائية سليمة للوحدات العسكرية. كما يتعاونون مع الوحدات المدنية لمصالح الحماية في المملكة، فيطلبون مساعدة التقنيين والمحللين من مصلحة مقاومة الغش والمصالح الديوانية. وبما أن البنية التحتية المغربية من المخابر المدنية محدودة، فإن الصيادلة العسكريين لم يتوانوا عن إجراء التحاليل البيو-كيميائية لفائدة المحليين بكل اجتهاد واتقان.

- المنجز العلمي للصيادلة العسكريين:

لم يغب الهاجس العلمي مطلقاً عن عناصر الحملة الفرنسية على المغرب؛ بل كان حاضراً على الدوام، وخاصة في وظيفتنا الجليلة ضمن أنشطة الصيادلة العسكريين. فرغم محدودية الإمكانيات المثيرة للسخرية في ذلك الوقت، والتي كانت تتكون من: طاولة ومصباح يشتغل بالكحول وآخر ينير ببخار البترول، وشيء من المواد البلورية، وبعض المحاليل الكيميائية... ومع ذلك فقد نجحنا في القيام بأعمال مذهلة. لقد درسنا عالم النبات والحيوان، وعلم المعادن والجيولوجيا، وعلم المناخ، وعلوم التغذية، والمادة الطبية، وحفظ الصحة والأوبئة، وعلم المياه وعلم السموم. وكانت منشوراتهم العلمية عديدة ومتنوعة، وفي هذا السياق سأقتصر على ذكر كتّاب أهم الأعمال مع تحاشينا الإشارة إلى رتبهم العسكرية على الرغم ممّا قد يسببه ذلك في قصور البيان.

تركزت أولى البحوث على مجال علم النبات ، والتي استهلها مورو (Moreau) عام 1913م بنشر مقالة بعنوان: «مساهمة في علم النبات بالشاوية» ، وفيها وضع جملة من الملاحظات تم تجميعها بين 1908م و1909م، وتناول فيها بالدراسة زهاء خمسة مائة صنف من أصناف النباتات وجمّعها ضمن مؤلف خاص بالأعشاب. وغير بعيد عن اختصاصنا، قام بيرولي (Burollet)، الذي كان شغوفاً طوال حياته بعالم النبات، بزيارة جهة الرباط من سنة 1926م إلى سنة 1928م، ثم نشر خلاصاته في نشرية جمعية العلوم الطبيعية المغربية.

وكان الاهتمام بدراسة الحيوانات البرية أقل قيمة من عالم النبات، ومع ذلك فقد درس شارنو (Charnot) العقارب في المغرب، وحاز كتابه على تتويج أكاديمية البياطرة الفرنسية. وكان الصيدلي رولاند (Roland) شغوفاً بعلم الجيولوجيا، ونشر بحوثه المختصة التي أجراها في مناطق مختلفة من المغرب في عدد من الدوريات. وأسس مصلحة الجيولوجيا في المعهد العلمي الشريف في الرباط وساعد في رسم الخرائط الجيولوجية الأولى للمملكة.

ولقد تمكنت الصيدلية العسكرية من بلوغ التميّز في مجال علم المعادن. فقد تكفل أحدنا، وهو الفقيد الصيدلي العقيد مورو (Moreau) باكتشاف الفوسفاط، الذي كان بمثابة الثروة الأساسية للمغرب. فعند قيامه بتحاليل مادة الفوسفاط _لأجل غايات فلاحية_ صدم بدرجة تركيزه العالية في بعض العينات، وهو من استرعى اهتمام القيادة بأهمية هذا الأمر وبمنفعته. ودُعي مورو فيما بعد للاستفادة من خبرته من قبل المُنقبين، إلا أنه رفض التعاون

معهم وقرر مواصلة مسيرته في المؤسسة العسكرية. وقام لاحقاً عدد من الباحثين بمواصلة بحوثه، وتم تناسي أعماله...!

كانت الصيدلية العسكرية منشغلة منذ القدم بعلم الأرصاد الجوية، حيث أجرى باحثوها دراسات في علم المناخ والظواهر الجوية في مدينة مراكش من قبل بروش (Parroche) وهنري رينود (Henri Raynaud) وفيبر (Weber). ومثل علم التغذية واحداً من العلوم المركزية في الصيدلية العسكرية، فالحيطة تفرض المراقبة اليومية للحليب، الذي كان ضرورياً في فرنسا وأيضاً في المغرب، حيث كان يستخدم كغذاء للعسكر من جهة ولمعالجة الأمراض الخطيرة من جهة ثانية مثل مرض التيفوئيد (الحمى الصفراء) كوباء سريع الانتشار.

وناقش خلال سنة 1919م فيبر (Weber) أطروحة دكتوراه في الصيدلة حول موضوع «حليب الأبقار في مراكش»، وسلّط الضوء على كثافة المادة الدهنية فيه، وميزة محافظته على معدلات مقبولة من المادة الدهنية _وفق مؤشرات الوطن الأم_ حتى لو تم خلطه بالماء. ومن جهتهما درس كلّ من مورو (Mo-reau) ولوليي (Leulier) زيت الاحتراق المشتق من شجرة الأرگان، المنتشرة بجهة موگادور (الصويرة)، وانشغل شارنو (Charnot) بتحليل زيت الزيتون في جهة مكناس، ودرس قيمته الغذائية فيه وفي زيت الصوجا والكتان. ونشر ماسي (Massy) بحثاً حول جني العنب بجهة الرباط سنة 1922م، ومن جهته نال ميسميكى (Meesemaecker) _الذي أدار لمدة عشرين سنة المختبر الجهوي للإعاشة في المغرب_ شهرة عالمية بفضل أبحاثه في مجال حفظ الأسماك.

في المجال الطبي، فإنه يمكننا التنويه ببحوث الصيدلي اللواء ماسي (Massy) الذي قام بعديد البحوث والنشريات حول القطران النباتي في المغرب، والذي كان موضوع أطروحته في دراساته الصيدلية العليا في بوردو التي ناقشها سنة 1926م، تحت عنوان: «مساهمة في دراسة تحليلية في قطران الصنوبر، وتحديداً قطران صنوبر المغرب» . ولقد باءت بحوث ماسي (Massy) باختيار رحيق الأرز (cèdre) ضمن قائمة مواد المستشفيات العسكرية لسنة 1930م، فكان خير معوض لرحيق الصندل مع توفير مكاسب كثيرة. وأنا بدوري كان لي شرف مناقشة أطروحة دكتوراه في الصيدلة في هذه القاعةحول: «دستور الأدوية المغربية التقليدية» ، انشغلت فيها بدراسة الخلطات العجيبة (والتي كانت مغبرة) والمعروضة

في الأسـواق لمعالجـة الأمـراض والآلام. تواصلـت أبحاثـي لمـدة ثلاثـة سـنوات وانهيتهـا في مخـبر الأسـتاذ باريـس (Paris) الـذي أتـشرف اليـوم بتكريمـه، وتكريـم الأسـتاذ السـيد بـدال (Bedel) بوصفـه أحـد أعضـاء لجنـة المناقشـة العلميـة لأطروحتـي. وفي مجـال الصحـة وعلـم الأوبئـة _ورغـم كثـرة البحـوث المنجـزة_ سـأكتفي بذكـر مـا نُـشر سـنة 1939م مـن قبـل إينـاف (Hénaff) وجوليـارد (Julliard) حـول اضطرابـات التحـوّل الكيميائـي الخلـوي الهيدروليكـي عنـد انتشـار وبـاء التيفوئيـد: انتشـار وبـاء التيفوئيـد في مراكـش نموذجـاً .

كان علـم الميـاه مـن العلـوم المميـزة التـي أوليناهـا عنايـة كبـيرة، اعتبـاراً لأهميـة توفـير ميـاه الـشرب للجنـود. وفي هـذا الجانـب، وجـب شـكر كل مـن كُوتيـي (Gau-tier) ومـورو (Moreau) لقـاء دراسـاتهما المعمقـة حـول ميـاه الـشرب في الـدار البيضـاء والشـاوية، ولهمـا يعـود فضـل حفـر قنـوات نقـل الميـاه وربطهـا بالـدار البيضـاء. وفي نفـس المشـغل، أُرسـل ماليجـاك (Malméjac) إلى شرق المغـرب للقيـام بمهمـة إنجـاز تقريـر مفصـل حـول تزويـد المراكـز العسـكرية والمخيمـات بالمـاء هنـاك. وقـام شـارنو (Charnot) بتحليـل ميـاه المراكـز العمرانيـة الكـبرى بالمغـرب، ولكـن مـا شـد انتباهـي هـو وفـرة المصـادر الحراريـة في هـذا البلـد والتـي تميـزت بأفضليتهـا إذا مـا قارناهـا بمـا يوجـد في بلدنـا؛ فالمغـرب يحظـى بسـماء زرقـاء وبالشـمس في كلّ الفصـول!

ونـشر الدكتـور شـارنو (Charnot) كتـاب" علـم السـموم في المغـرب» ؛ فـكان كتابـاً متميـزاً مكنّـه مـن نيـل «الجائـزة العلميـة المغربيـة»، وعـلى أخـرى مـن الأكاديميـة الطبيـة حـول اصفـرار الأسـنان (fluori-sation) والتسـمم المزمـن بسـبب الفلـور، والأمـراض المصيبـة للآدمـة (darmous) والتي كانت واسعة الانتشار خاصة بمناطق استخراج الفوسفاط.

يمثـل هـذا المقـال جـدولاً مختـزلاً، لكنـي أظنـه يعـبّر عـن أنشـطة الصيادلـة العسـكريين في المغـرب ، دون أن ننسى دورهـم في إحـداث هيـاكل بحثيـة. فالجمعيـة المغربيـة للعلـوم الطبيعيـة تـم إحداثهـا مـن قبـل الصيـدلي اللـواء السـيد مـاسي (Massy) وأيضـاً معهـد الصحـة، والمعهـد العلمـي الشريـف، ومخـبر السـموم، ومصالـح الجيولوجيـا، وجميعهـا تـم تركيزهـا مـن قبـل السـيدين شـارنو (Char-not) ورولانـد (Rolland).

- نهاية مشروع عظيم:

منذ سنة 1957م، وبسبب قرارات سياسية، أغلقت كل المصالح المتصلة بالصحة العسكرية في المغرب، واندثرت شيئاً فشيئاً مستشفيات كل من: تازا ووجدة وفاس ومراكش والرباط. واستطاعت صيدلية التموين في الدار البيضاء البقاء بشق الأنفس، بفضل تضحيات الصيدلي النقيب ڨوڨيلو (Goguillot)، الذي توجب عليه نقل كامل المنشأة من الدار البيضاء إلى مكناس، والقيام بعملية إنشاء جديدة... فكان اجتهاده غير مجد باعتبار أنّ الاتفاقيات الجديدة قد ألغت التدابير القديمة. وفي النهاية، تم تسليم مستشفى مكناس كآخر مستشفى عسكري فرنسي سنة 1960م للمصالح الصحية المغربية.

لقد تطلب تأمين المغرب تأميناً تاماً مدة زمنية قدّرت بسبع وعشرين سنة. وبعد مضيّ سبعة وعشرين عاماً أيضاً تم استرجاع رماد جثمان المارشال ليوطي (Lyautey) الذي اختار الموت على أرض المغرب. لقد كانت عودة عظيمة لأعظم شخصية هاجرت إلى شمال أفريقيا. ومثّل نفس التاريخ أيضاً نهاية فترة الحضور الفرنسي وتأثيره في المغرب والذي امتد على مدة خمسين عاماً. خلال هذه المدة القصيرة، أنشئت عديد المدن وتم تزويدها بماء الشرب والكهرباء، ورُكزت الطرقات الحسنة ووضعت السكك الحديدية التي غطت معظم أرجاء المملكة، وبنيت الموانئ على اختلاف أصنافها، وتم فتح عديد المناجم، وشيدت عديد السدود لإنتاج الكهرباء والرّي. لقد ولّى زمن المجاعات، وتراجعت حدة الأوبئة والأمراض بفضل ما أحدثناه من مستوصفات ومشافي، وبفضل مدارسنا حاربنا الجهل. لقد ساهم الصيادلة العسكريون إلى جانب آخرين في إخراج المغرب من العدم نحو الحداثة، إلاّ انّهم أصيبوا بإحباط ومرارة لقاء ما قدّموه من جهد وتضحيات لم تُعدّ شيئاً أو بالأحرى لأجل لا شيء، هذا اللا شيء كان عملاً إنسانياً ضخماً وصفحة عظيمة من التاريخ قمت بتدوينها هنا.

المقدم الصيدلي نوروا.

المخرجات الاجتماعية والنفسية لواقع الحقوق والحريات في ظل جائحة كورونا

د. حمزة البوحياوي

مقدمة:

إن ما تمر به المجتمعات من مشكلات وكوارث مختلفة «طبيعية، وبائية، فيروسية، حروب، أزمات...» يجعل الأفراد والمجتمعات تعاني نفسياً وصحياً كما هو الحال عليه العالم الآن بسبب فيروس كورونا، حيث يواجه الأفراد اليوم، وفي مجتمعات عديدة، أزمة صحية عالمية تتمثل بانتشار فيروس كورونا الذي صنفته منظمة الصحة العالمية كوباء بدرجة جائحة، بالتزامن مع تجاوز عدد المصابين حول العالم حاجز المليونين والنصف مصاب، ووفاة ما يقارب مئة وسبعين ألفاً، جراء وباء لم يميز بين عرق أو دين أو جنس. وقد شهد التاريخ الحديث العديد من الأمراض والأوبئة السابقة والتي أدت إلى خسارة ملايين الأرواح، ومنها ما عرف بالإنفلونزا الإسبانية سنة 1918م التي حصدت أكثر من 50 مليوناً، والإنفلونزا الآسيوية سنة 1957م، والإنفلونزا الروسية سنة 1977م. وقد ترتب على كل هذه الأزمات العديد من الآثار الصحية والاقتصادية والاجتماعية، لكن الرابط المشترك بينها هو مخرجاتها الاجتماعية والنفسية على واقع الحقوق والحريات الإنسانية.

لهذا، وضعت منظومة حقوق الإنسان قواعد عدة للتعامل مع الحالات الاستثنائية كهذه، فليست قواعد حقوق الإنسان رفاهية خاصة بأوقات الرخاء والسلم؛ بل تضمنت ما يحمي الحقوق ضمن الظروف الاستثنائية التي يصبح فيها التغول على حقوق الإنسان مقبولا عادة.

لذلك، يناقش هذا العمل عدة محاور تصب جميعها في محاولة الإجابة على الإشكالية المتعلقة بالمخرجات والآثار الاجتماعية والنفسية التي خلفتها جائحة كورونا كوفيد 19 على واقع الحقوق والحريات الإنسانية، سواء فيما يتعلق بتطبيقِ إجراءات الطوارئ الصحية في العديد من المجتمعات، والذي يتيح للفاعلين الرسميين تقييد بعض الحقوق، أو من حيث الضمانات الواجب

تقديمها من قبل الفاعلين الرسميين في هكذا سياقات، وحقوق الأشخاصِ المصابين بالفيروس، بالإضافة إلى جملة من البدائل التي بإمكانها رسم أفق ما بعد أزمة كورونا كوفيد 19.

في 11 مارس 2020م، أعلنت منظمة الصحة العالمية أن تفشي فيروس كوفيد 19 الناتج عن فيروس «كورونا» المستجد، الذي ظهر للمرة الأولى في دجنبر 2019م في مدينة ووهان الصينية، قد بلغ مستوى الجائحة، أو الوباء العالمي. دعت المنظمة الحكومات إلى اتخاذ خطوات عاجلة وأكثر صرامة لوقف انتشار الفيروس، معللة ذلك بمخاوف بشأن المستويات المقلقة للانتشار وشدته.

دفعت أزمة جائحة فيروس كورونا حكومات عديدة، بما فيها الديمقراطية، إلى تطبيق «حالة طوارئ صحية»، تسمح لها باتخاذ تدابير استثنائية لمواجهة انتشار الفيروس القاتل، فسنت، على عجل، قوانين تحد من تحركات الأفراد، وتمنح للسلطات التنفيذية مساحات واسعة للتحرك لتقييد حريات الأفراد، بما فيها الشخصية، بدعوى حماية صحتهم. وفي أغلب الحالات، سنت هذه القوانين في غياب تام لأي نقاش داخل المجتمع، وفي ظل حالة إجماع وطني قسري، فرضه جو الرعب من الجائحة التي تزهق يومياً أرواح آلاف من الأفراد . وقليلة الدول الغربية الديمقراطية التي رفضت أن تفرض على شعوبها قوانين طارئة تحد من حريات الأفراد، ووضعت ثقتها في وعي وتفهم شعوبها، ويبدو أنها ربحت الرهان، حتى هذه اللحظة. وفي المقابل، ظهرت في مجتمعات عديدة خروق بالجملة منذ اليوم الأول الذي منحت فيه الحكومات سلطات أوسع لنفسها لممارسة وصايتها على الأفراد.

ففي الهند، مثلاً، انتقدت (مفوضية حقوق الإنسان) التدابير التي اتخذتها السلطة في أكبر ديمقراطية في العالم للحد من انتشار فيروس كورونا في البلاد، خصوصاً التي تخرق الحق في الخصوصية، مثل لجوء بعض الولايات الهندية إلى وضع أختام على أيدي من خضع للحجْر، وإلصاق شعارات على أبواب منازل المعزولين، لضمان التزامهم بالحجْر. أو استعمال الشرطة الهندية الهراوات لتأديب الأفراد بطريقة مهينة في الشوارع، بدعوى خرقهم إجراءات الحجْر الصحي.

إن التصدي للوباء ينطوي على إمكانية التأثير على حقوق الإنسان لملايين البشر. أولاً وقبل كل شيء، فحق الفرد في الصحة، مكفول بموجب الإعلان العالمي

لحقوق الإنسان، الذي ينص على الحق في الوصول إلى الرعاية الصحية، والحق في الوصول إلى المعلومات، وحظر التمييز في تقديم الخدمات الطبية، وعدم الإخضاع للعلاج الطبي دون موافقة المريض، وغيرها من الضمانات المهمة.

المحور الأول: مخرجات حالة الطوارئ الصحية

نشرت منظمة (الإسكوا) تقريراً خلص إلى أن أكثر من ست من كل عشر دول في العالم اتخذت في مواجهة الوباء إجراءات تطرح إشكالية على مستوى حقوق الإنسان أو القواعد الديموقراطية. وحسب الدراسة التي تغطي جميع دول العالم تقريبا فإن 61% من دول العالم اتخذت إجراءات تعتبر على الأقل غير قانونية وغير متناسبة وبدون حدود زمنية أو غير ضرورية في مجال واحد على الأقل متصل بالحريات الديموقراطية. وقامت 43% من المجتمعات الديمقراطية بهذا الخرق، بينما ترتفع النسبة إلى 90% لدى الأنظمة التي تعد استبدادية.

وصنفت الهند على رأس الترتيب العالمي مع تدابير تعد مثيرة للقلق في 9 من 22 مجالاً تم تحليلها مثل حرية الحركة والتعبير والصحافة وما إلى ذلك، تلتها الجزائر وبنغلادش (في 8 مجالات). وجاءت بعدها الصين ومصر وماليزيا وكوبا (7 مجالات). وصنفت روسيا على رأس القائمة في أوروبا، مع ستة مجالات مثيرة للقلق، مثلها مثل المملكة العربية السعودية وبورما والأردن وسريلانكا وزيمبابوي.

فالفاعل السياسي الرسمي تعامل مع الوباء باعتباره فرصة لتعزيز قبضته على السلطة، أكثر منه خطرا على حياة المواطنين. ففي فرنسا مثلاً، وبدلاً من العمل على تخفيف التكدس في المؤسسات العقابية في ظروف إنسانية وصحية بائسة تسهل انتشار العدوى، توسعت أجهزة الأمن في أعمال القبض على المنتقدين للفاعل السياسي الرسمي، بما في ذلك الأطباء الذين انتقدوا سياسة وزارة الصحة في مكافحة الوباء.

في منطقتنا المغاربية، انتقدت منظمات حقوقية ما وصفته باستغلال مرحلة الطوارئ في تونس والجزائر والمغرب، لسن تشريعات تحد من حريات الأفراد، وتجهز على المكتسبات في مجال حرية الرأي والتعبير، والانتقام من المدافعين عن حقوق الإنسان، وتقوية السلطوية أو التمهيد لعودتها في المجتمعات التي تراجع فيها التسلط. وبالفعل، اتخذت السلطة في الجزائر

من حالة الطوارئ الصحية فرصة للإجهاز على ما تبقى من الحراك الشعبي الذي ظل مستمراً منذ مدة يطالب بالتغيير. وفي تونس، كانت هناك مخاوف من استغلال السلطة حالة الطوارئ لسن قوانين رجعية، تجهز على ما حققته الثورة من مكتسبات في مجال الحريات. وفي المغرب، أظهرت حالة الطوارئ قدرة أجهزة الدولة على السيطرة على الوضع.

واستغل الفاعل السياسي الرسمي في مجتمعات كثيرة الظروف الاستثنائية التي فرضتها الجائحة، لتبرير تعطيل القانون، وحيازة السلطة المطلقة. وثمة اليوم مؤشرات على إمكانية تحولها إلى حالة دائمة حتى في النظم الدستورية الديمقراطية، ففي إحدى خطبه، ألمح الرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون إلى إمكانية اعتماد تطبيق إلكتروني مثل الذي فرضته الصين على شعبها، لتتبع حالات المشتبه في حملهم الفيروس، ما سيمنح السلطة في فرنسا ضوء أخضر لاقتحام الحياة الخاصة للناس.

المحور الثاني: المخرجات بالولايات المتحدة الأمريكية كنموذج:

في الولايات المتحدة الأمريكية، ورد في تقرير أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية الحالية، متعلق بوضعية حقوق الإنسان، ومدى تأثرها بالوباء، في الكثير من المجتمعات، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية ، العديد من المعطيات لعل أبروها، ما يلي:

- أن تأثير الوباء قد كان على الأفراد ذوي البشرة السمراء والسمر والسكان الأصليين، غير متكافئ بالولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة السابقة، أي فترة حكم الرئيس دونالد ترامب، وذلك نظراً للفوارق الطويلة الأمد في الصحة والتعليم والوضع الاقتصادي، ما كشف عن الآثار الدائمة التي خلفتها القوانين والسياسات الماضية التي اتسمت بعنصرية صارخة، والعوائق التي لا زالت قائمة أمام تحقيق المساواة؛

- واصلت إدارة الرئيس دونالد ترامب تفكيك نظام اللجوء الأمريكي، وتقييد الوصول إلى الرعاية الصحية للمرأة، وتقويض حماية المستهلك بوجه جشع المقرضين الجشعين وتعسف جامعي الديون، وإضعاف القوانين التي تخفف من التلوث وتعالج تغير المناخ؛

- كان لتفشي الفيروس تأثير غير متناسب على الأقليات العرقية بالولايات المتحدة الأمريكية، خاصة فئات ذوي البشرة السمراء، والسكان الأصليين، التي واجهت خطر التعرض للإصابة والمرض الخطير والوفاة بسببه بشكل أكبر، فضلاً عن الآثار الاقتصادية الشديدة. وارتبطت هذه التفاوتات باللامساواة المزمنة في الصحة وإمكانية الحصول على الرعاية، والتعليم، والعمل، والوضع الاقتصادي؛

- أدى الفيروس إلى تفاقم الفقر واللامساواة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأثر بشكل غير متناسب على مجتمعات ذوي البشرة السمراء والسكان الأصليين. وأدت تدابير الصحة العامة الهادفة إلى الحد من انتشاره إلى فقدان الأجور أو الوظائف، وإضعاف التغطية الصحية، وتقييد الوصول إلى السلع والخدمات الأساسية الأخرى؛

- بقي الأفراد ذوي البشرة السمراء، خاصة النساء والمهاجرون، ممثلين نسبياً بشكل أكبر في وظائف الخدمات المنخفضة الأجر، ما عرضهم لمخاطر أكبر. واجه الكثير منهم ظروف عمل غير آمنة، خاصة في الزراعة وإنتاج الغذاء، أدت إلى تفشي المرض؛

- ساهم تعزيز الحماية من البطالة والمدفوعات المباشرة، في شكل حزم إغاثة أقرها الكونغرس، في الحد بشكل كبير من زيادة معدل الفقر. ومع ذلك، بلغت العديد من إجراءات الحماية أجلها في يوليوز 2020م. وافتقرت مشاريع قوانين الإغاثة إلى تدابير لحماية العاجزين عن تسديد فواتيرهم أو تكاليف الرعاية الطبية، واستثنت بعض العمال، بمن فيهم المهاجرون؛

- ما زالت الولايات المتحدة الأمريكية في صدارة مجتمعات العالم في معدلات السجن المبلغ عنها. بحيث كان تقريباً 2.3 مليون شخص في السجن في أي يوم من أيام سنة 2020م. يدخل حوالي 10 ملايين فرد السجون سنوياً. استناداً إلى بيانات 2017–2018م، كان حوالي 4.4% من السكان البالغين في الولايات المتحدة تحت الحراسة النظرية أو الإفراج المشروط؛

- كانت بعض أسوأ حالات تفشي فيروس كورونا في الولايات المتحدة الأمريكية داخل السجون، حيث ثبتت إصابة أكثر من 169.286 شخصاً ووفاة 1.363 على الأقل في السجن بحلول نونبر 2020م. وافتقرت بعض السجون إلى تدابير السلامة والصحة الكافية؛

- في الأشهر التي أعقبت إعلان حالة الطوارئ الصحية العامة بالولايات المتحدة الأمريكية، للتصدي للوباء، شهدت البلاد ارتفاعا في الجرعات المفرطة من المخدرات، والتي كانت مرتفعة بالفعل، بنسبة 17% تقريباً مما كانت عليه في 2019م؛ بحيث ازداد الوصول إلى العقار المضاد للجرعات المفرطة في السنوات الأخيرة، لكن قوانين المخدرات وقفت عقبة أمام الخدمات المنقذة للحياة التي قللت أضرار المخدرات في العديد من الولايات، كما أن العلاج القائم على الأدلة للاضطرابات الناجمة عن تعاطي المخدرات غير متاح لكثير ممن يحتاجون إليه؛

- واصلت إدارة الرئيس دونالد ترامب مهاجمة حقوق المهاجرين وطالبي اللجوء. واستمرت عمليات إعادة طالبي اللجوء غير المكسيكيين إلى المكسيك في انتظار أحكام اللجوء الأمريكية بموجب بروتوكولات حماية المهاجرين، مع انخفاض كبير من أبريل 2020م إلى يوليوز 2020م، ما عرض عشرات الآلاف، منهم العديد من الأطفال، لظروف غير مستقرة وخطيرة، وحرمهم من جلسات استماع عادلة؛

- مع زيادة حالات الإصابة بالفيروس، أصدرت مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها بالولايات المتحدة الأمريكية السنة الماضية أمراً بإغلاق الحدود البرية، وأدى القرار إلى طرد أكثر من 330 ألف شخص على طول الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك، بمن فيهم أطفال، دون فحص أهليتهم للحصول على اللجوء أو غيره من الحمايات؛

- علق المسؤولون الأمريكيون بعض أشكال إنفاذ القانون المتصلة بالهجرة خلال الوباء، لكنهم استمروا في ترحيل المهاجرين المعتقلين في الولايات المتحدة الأمريكية، ما زاد من مخاطر نشر الفيروس عالمياً؛

- قضت محكمة فيدرالية في يونيو 2020م بأن الحكومة الأمريكية لا تحترم اتفاقاً يقلص مدة احتجاز الأطفال في ظروف شبيهة بالسجن إلى 20 يوماً. في شتنبر 2020م، أعلن شخص يبلغ عن المخالفات مزاعم عن الإهمال الطبي وسوء المعاملة من قبل طبيب يعمل مع مركز لاحتجاز المهاجرين في ولاية جورجيا. وكشفت تقارير لاحقة روايات عن عمليات استئصال الرحم وغيرها من الإجراءات في الطبي النسائي التي أجريت دون موافقة مستنيرة؛

- كانت معدلات الأفراد الذين ليس لديهم تأمين صحي في الولايات المتحدة الأمريكية في تزايد قبل الوباء، بما في ذلك قرابة 10 ملايين امرأة من دون تغطية صحية. وربما أدى فقدان الوظائف المرتبط بالوباء إلى زيادة هذا العدد بشكل كبير، مع تأثير غير متناسب على النساء؛

- أعاقت استجابة مسؤولي الانتخابات لفيروس كورون كوفيد 19 بشكل كبير استطاعة بعض الناس التصويت في الانتخابات التمهيدية، لكن إمكانية التصويت في الانتخابات العامة شهدت تحسناً في نونبر 2020م. قضت محكمة استئناف فيدرالية بأنه يتعين على الأفراد الذين صدرت بحقهم إدانات جنائية في فلوريدا دفع غرامات قبل أن يتمكنوا من التصويت. وبينما توقعت المؤسسات الإعلامية فوز جو بايدن في الانتخابات الرئاسية، خرج الرئيس دونالد ترامب بمزاعم بحدوث تزوير في الانتخابات ورفع دعاوى قضائية للطعن في العمليات الانتخابية في ولايات معينة؛

- أغلقت جميع المدارس لفترة في الولايات الـ 50 جميعها استجابة للوباء. تحولت العديد من المدارس أثناء إغلاقها إلى التعلم عبر الإنترنت، لكن واحداً من كل خمسة أطفال في سن الدراسة في الولايات المتحدة ليس لديه جهاز كمبيوتر أو إنترنت عالي السرعة في المنزل؛

- استمر تلوث الهواء الناجم عن الصناعة، والنقل، وحرائق الغابات المتزايدة بسبب تغير المناخ في التأثير على الناس في الولايات المتحدة، ولا سيما مجتمعات غير البيض. في الوقت الذي أشارت فيه دراسة أجرتها جامعة هارفارد إلى أن الأفراد المصابين بفيروس كورونا أكثر عرضة للوفاة إذا تعرضوا لمستويات عالية من تلوث الهواء؛

- واجهت بعض الفئات الاجتماعية، خاصة الأمريكيين الأصليين الذين يعيشون في محميات، الفيروس دون الحصول على المياه الكافية؛

- كانت أكثر من 40% من وفيات الفيروس التي أبلغت عنها الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية، و8% فقط من إجمالي الحالات، لأفراد يعيشون في مؤسسات رعاية طويلة الأجل. ضغط أرباب دور رعاية المسنين على حكومات الولايات والحكومة الفيدرالية لمنحهم حصانة قانونية واسعة. وأدت المشاكل المزمنة في مكافحة العدوى التي واجهتها مرافق التمريض وتقليص

الإشراف العام على دور رعاية المسنين خلال أزمة كورونا إلى زيادة الخطر الذي يتعرض له أصلاً السكان المسنون.

المحور الثالث: سؤال حقوق الإنسان وسياق الأزمات-الصحية:

يحضر سؤال حقوق الإنسان بقوة، في أوقات الأزمات الكبرى التي تعرفها المجتمعات، في حالات الحروب والأوبئة والكوارث، عندما تستدعي الضرورة أو المصلحة العامة تعليق بعض الحقوق فترة معينة. وحتى في مثل هذه الحالات، فإن المجتمعات الديمقراطية لا تخلو من مساحات للنقاش، تسمح بطرح الأسئلة بشأن مشروعية قرارات السلطة، وهو ما يخفف، على الأقل، من حالة الالتباس التي تجعل الخط الفاصل بين الديمقراطيات والأنظمة الاستبدادية يبدو غير واضحاً.

إن الحاجة إلى احترام حقوق الإنسان تصبح أكبر في مثل هذه اللحظات الحرجة التي تمر بها المجتمعات، وضمانها للجميع يصبح أمراً حتمياً في أوقات الأزمات؛ لأنه، بحماية هذه الحقوق، يمكن تعزيز الصفوف وتقويتها في مواجهة الخطر الداهم. وقد كشفت هذه الأزمة عن أخطار تتهدد مصير مجتمعات كثيرة، مثل الإخفاقات المنهجة في أنظمة الرعاية الصحية، حتى في أقوى المجتمعات وأغناها، وفضحت انعدام المساواة بين الأفراد في حقوق أساسية عديدة، مثل التعليم والصحة والسكن، وبينت الفوارق الكبيرة بين طبقات المجتمع نفسه. وستكبر هذه الفجوة أكثر بعد عودة الأفراد إلى حياتهم العادية، بسبب تداعيات الأزمة وآثارها على الطبقات المتوسطة والفقيرة، وهو ما يتطلب تضامناً أكبر داخل المجتمعات، إذا أرادت أن تحافظ على وحدتها واستقرارها، فالحقوق الاقتصادية، وفي مقدمها الحق في الصحة والتعليم والسكن، ستبرز بقوة وكذلك المطالبة بها، وهو ما سيجعل الصراع الطبقي محرك المستقبل، بالمعنى الماركسي الذي كان يعتبره محركاً للتاريخ.

يؤكد الخبراء اليوم أن الأزمة العالمية التي أحدثتها جائحة كورونا ستكون لها آثار وخيمة على الاقتصاد وعلى الأفراد، وسيكون لها ما قبلها وما بعدها، وقد كشفت عن أخطار كثيرة تتهدد المجتمعات والتحديات التي ستواجهها مستقبلاً، إن لم تتبن نماذج اقتصادية ونظماً سياسية تراعي، أولاً وقبل كل شيء، حقوق الأفراد وحرياتهم، وإلا فإن المجتمعات التي عاشت هذه المحنة ستفرز حركات اجتماعية تسعى إلى صياغة بدائل للنموذج الاجتماعي الاقتصادي

الاجتماعـي السـائد حاليـاً، فهـذه الأزمـة بقـدر مـا أرعبـت الأفـراد وأضرتهـم فتحـت عيونهـم عـلى حقوقهـم، وجعلتهـم يحسـون بأهميـة التمتـع بحريتهـم وممارسـتها لحمايتهـا. لقـد تبنـى أكثـر مـن نصـف دول العالـم 61%، تدابـير لمكافحـة كوفيـد 19 تثـير مخـاوف إزاء الديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان. ولا يقتـصر ذلـك عـلى دول غير ديمقراطيـة؛ إذ هنـاك مخـاوف أيضـاً عـلى نطـاق واسـع نسـبياً، في دول ديمقراطيـة.

ويقـدر الفيلسـوف الإيطـالي في كتابـه (الإنسـان المسـتباح) أن الإنشـاء الطوعـي لحالـة طـوارئ دائمـة، وإن لـم يتـم إعلانهـا بتلـك الصفـة تقنيـاً، أصبـح ممارسـة أساسـية في المجتمعـات المعـاصرة، بمـا فيهـا تلـك التـي نسـميها ديموقراطيـة. لذلـك، لـم يلـق عـام 2020م بظلالـه الوخيمـة عـلى جميـع المناطـق وجميـع البلـدان تقريبـاً؛ بـل أيضـاً المجموعـة الكاملـة لحقـوق الإنسـان التـي نتمتع بهـا سـواء كانـت اقتصادية أو اجتماعيـة، أم ثقافيـة ومدنيـة وسياسـية، فاسـتغل كوفيـد 19 انقسـامات مجتمعاتنـا وهشاشـتها، وفضـح فشـلنا في الاسـتثمار ببنـاء مجتمعـات عادلـة ومنصفـة.

فمنـذ بـدء جائحـة كورونـا في الصـين أواخـر السـنة المنصرمـة، والأزمـات تتناسـل وعنوانهـا الرئيـسي حمايـة الصحة والسـلامة العامـة، وتباينـت المعالجـات الدولية لأزمة هـذا الوبـاء الـذي أصـاب أكثـر مـن 72 مليـون إنسـان، وأودى بحيـاة مـا يزيـد عـن المليـون و600 ألـف شـخص حتـى الآن، والأرقـام قابلـة للتزايـد حتـى تنتـصر البشرية ؛ فيخضـع الأفـراد للتحصـين عـبر لقاحـات بـدأت الـدول تتسـابق عـلى حيازتهـا والحصـول عليهـا لتطعيـم سـكانها، ودرء الخطـر الـذي يهددهـا.

كشـفت جائحـة فـيروس كورونـا عـن هشاشـة النظـم الصحيـة في جميـع أنحـاء العالـم. وفي العالـم العربـي، حيـث تعانـي النظـم الصحيـة أصـلاً مـن الإجهـاد بسـبب النزاعـات المسـلحة والسـكان النازحـين، مـن المتوقـع أن يزيـد الوبـاء مـن تفاقـم الهشاشـة ويعمـق نقـاط الضعـف. ومـع أن الجائحـة سـوف تتسـبب بعواقـب صحيـة واقتصاديـة خطـيرة لسـنوات قادمـة، إلا أنهـا تمثـل فرصـةً ثمينـة لإعـادة تصـور دور الجهـات الحكوميـة وغـير الحكوميـة في تعزيـز النظـم الصحيـة.

وبـاء كورونـا لـم يهـدد الصحـة العامـة فحسـب، وإنمـا عصـف وأهـدر الكثـير مـن الحقـوق والحريـات الشـخصية المصانـة حتـى في أعتـى الديمقراطيـات، واسـتخدم واسـتغل في الكثـير مـن المجتمعـات لفـرض قيـود متزايـدة، وانتهـاك حقـوق كانـت محميـة ومصانـة.

المحور الرابع: بعض من المخرجات الأخرى:

أولاً: بعض من المخرجات الاقتصادية:

أدى تفشي هذه الجائحة إلى خلق حالة من الفوضى الاقتصادية على المستوى العالمي، حيث وصل النشاط الاقتصاد الدولي إلى مستويات متدنية، كما شهدت السياحة في العالم انخفاضاً حاداً. وبالمغرب وبسبب الحجز الصحي وحالة الطوارئ الصحية تسبب هذا الفيروس في تدهور قطاعات مهمة ومحورية كالسياحة والصناعة والتجارة والقطاع المالي خاصة القطاعات التي تجلب العملة الصعبة كالصناعة والسياحة، بالإضافة إلى تضرر القطاعات غير المهيكلة.

أدى الحجر المطول إلى زيادة بطالة الشباب، وأدى به إلى مواجهة تحديات في العودة إلى سوق الشغل. ففي مجتمعات عديدة، عوائق هيكلية تحول دون حصولهم على وظائف الثقة، وتتضاعف الصعوبات مع انضمام نحو 7.2 مليون شاب وشابة سنوياً إلى القوى العاملة. وتسجل المنطقة العربية أعلى مستويات لبطالة الشباب في العالم، فقد ارتفع المعدل من 5.19% في الشباب وأسرعها تزايداً سنة 2012م إلى 23% سنة 2020م.

ثانياً: بعض من المخرجات الاجتماعية:

بالمغرب، كثير من البديهيات التي لم تكن تخضع للجدال أصبحت قابلة للبحث، فحرية التنقل قيدت، وإجراءات الإغلاق وحظر التنقل أصبحت سائدة حتى دون تبرير، والحدود أغلقت في وجه المسافرين، والتطبيقات الإلكترونية لتعقب المصابين وكشفهم صارت إلزامية دون التفات لمخاطر خرق خصوصية الأفراد، والحق في التعليم بات موضع سؤال بعد أن ساد التعليم عن بعد في ظل فجوة بين الأغنياء والفقراء.

من الملاحظ أن الحجر الصحي قد أجبر عامة الناس على الدخول إلى منازلهم؛ لأن من أهم قواعده التباعد الجسدي بالشارع العام، أي خارج البيت الأسري، والدخول إلى المحجز المنزلي. هذا الوضع أدى إلى التقارب الجسدي بداخل البيت، في ظل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية وغيرها من المتغيرات التي خلفتها الجائحة، والتحولات القيمية التي عرفتها الأسرة التي انتقلت من الأسرة الممتدة إلى النووية، أنتج مشاكل اجتماعية كنا نراها معاشة سابقاً خارج البيت بمختلف أشكال العنف (شجار، سرقة، سكر، وعربدة، وضجيج ليلي، وتهديد وتخريب...).

ومـع اسـتمرار تزايـد عـدد الحـالات المؤكـدة والوفيـات المرتبطـة بفـيروس كورونـا، قامـت الحكومـة بتمديـد حالـة الإغـلاق لمواصلـة مكافحـة انتشـار الفـيروس. هـذا الأمـر سـبب لـدى البعـض قلقـاً ولـدى الآخـر مشـكلة عويصـة، وجعـل شريحـة مـن الشـباب، لاسـيما الأحـداث المنحدريـن مـن مناطـق هامشـية غـير مهيكلـة، داخـل المدينـة يسـقطون في الانفـلات وخـرق الحجـز الصحـي لتتصـدى لهـم السـلطات الأمنيـة، ويمكـن أن نعـزي هـذه الهفـوات إلى عجـز العدالـة المجاليـة والاجتماعيـة التـي لـم توفـر السـكن اللائـق والصحـة السـليمة والتعليـم الجيـد. وأنتجـت كذلـك هـذه الجائحـة مـا يسـمى بــ (التباعـد الاجتماعـي) بالشـارع الـذي أنتـج بـدوره تقـارب واحتـكاك جسـدي بالمنـزل داخـل الأسرة التـي بـدأ يتفاقـم بهـا بعـض مظاهـر العنـف الأسري (العنـف ضـد الأصـول، العنـف الزوجـي، سـوء الجـوار، ...)، مـع تراجـع أغلـب الظواهـر الإجراميـة بالشـارع.

دعـت جائحـة كورونـا المغـرب، والمجتمعـات الأخـرى، إلى إعـادة التفكـير في مسـألة القيـم (التضامـن، التكافـل، الرعايـة، ...)؛ بحيـث شـكلت لحظـة الوبـاء هـذه منعطفاً أخلاقيـاً يعيـد لسـاحة النقـاش الفكـري والسـياسي القيـم باعتبارهـا حقـاً ومطلبـاً؛ بـل شرطـاً للحيـاة ذاتهـا، وليسـت مجـرد ملحـق في حيـاة البـشر. لقـد تأكـد اليـوم بـأن مـا فرضتـه الجائحـة مـن إجـراءات صارمـة تمثلـت في العـزل الصحـي... سـاهم في بـروز مجموعـة مـن القيـم إلى السـطح أكثـر مـن السـابق، والتـي سـاهمت ولا زالـت تسـاهم في التصـدي لهـذه الآفـة، ومـن بينهـا قيمـة التضامـن والتكافـل الاجتماعـي وتغييـب قيمـة الفردانيـة إلى حـد كبـير بعدمـا بـدأت تطغـى على السـاحة؛ بحيـث أثبتـت قيمـة التضامـن فيمـا بـين الأفـراد والأسر وحتـى بعـض الجماعـات أنهـا وصفـة اجتماعيـة فعالـة لمواجهـة وبـاء كورونـا وتخفيـف مخاطـره إن صـح التعبـير، حتـى عـلى مسـتوى الـدول كالصـين وإيطاليـا؛ لأنـه إذا اعتمدنـا عـلى وسـائل ومؤسسـات الدولـة لمواجهـة هـذه الجائحـة، كان المغـرب سـيعاني وسـتلحق بـه خسـائر بشرية كبـيرة وخصوصـاً الفئـات الهشـة مـن مواطنيـه التـي لا تتوفـر عـلى دخـل قـار بهـا؛ إذ كشـف لنـا بشـكل صـارخ عـلى الأعـداد الهائلـة مـن غـير المسـتفيدين مـن السياسـات العموميـة التـي نهجتهـا الدولـة...

مـن جهـة أخـرى، كشـفت تقاريـر صـادرة عـن منظمـة الأمـم المتحـدة حـول العالـم ارتفـاع ظاهـرة العنـف، خاصـة الأسري، التـي تضاعفـت بشـكل مثـير ضـد المـرأة والفتيـات، حيـث إن 947 مليـون امـرأة وفتـاة تعرضـن لأشـكال مـن العنـف الأسري والتحـرش الجنسي والإسـاءة خـلال فـترة الحجـر الصحـي بسـبب جائحـة كورونـا

سنة 2020م، وذلك بسبب تطبيق إجراءات الإغلاق والحجز الصحي المنزلي منذ منتصف شهر مارس 2020م. وعزت المنظمة المذكورة الأسباب إلى زيادة القلق والتوتر الناجم عن فقدان الأمن الوظيفي والاجتماعي والصحي.

ويشير التقرير سالف الذكر إلى تسجيل زيادة كبيرة في شكايات العنف الأسري خلال الفترة المذكورة، في كندا وألمانيا وبريطانيا، حيث بلغت نسبة الزيادة في العنف الأسري في فرنسا منذ بدء إجراءات الإغلاق في 7 مارس الماضي 71%. أما في الأرجنتين؛ فقد بلغت الزيادة في شكاوى العنف الأسري منذ الإغلاق في 91 مارس حوالي 92%. وفي قبرص وسنغافورة ارتفع العنف الأسري على التوالي إلى 71% و77%. لقد اعتبرت منظمة الأمم المتحدة أن من أهم العواقب التي خلفتها جائحة كورونا كوفيد 19 على المجتمعات هي ارتفاع العنف الأسري بشكل كبير. والمغرب كباقي دول العالم، لم يسلم من تبعات هذه الجائحة في فترة الحجر الصحي، لاسيما المرحلة الأولى، حيث سجل نسب مرتفعة في العنف الأسري تجاوز 27%، وبالمقابل تراجع مؤشرات باقي القضايا الإجرامية بنسبة 91% . وبالتالي يمكن القول إن ارتفاع نسبة العنف الأسري زمن الحجر الصحي باتت ظاهرة عامة على صعيد كافة المجتمعات على اختلاف ثقافتها وقيمها واقتصادها، لكنها بنسب متفاوتة حسب طبيعة المجتمع. فيمكن القول إن ما يحدث من تغيرات ثقافية واجتماعية وغيرها في بقعة ما من العالم سيؤثر لا محالة بصورة مباشرة في بقاع أخرى أينما كانت.

سجل مؤشر الجريمة في المغرب، خلال الفترة المدروسة، انخفاضاً ملحوظاً بنسبة فاقت91% ، مقارنة مع الفترة نفسها من السنة الماضية، وذلك تزامنا مع بروز جرائم ظرفية مرتبطة بجائحة كورونا كالعنف الأسري والنصب والاحتيال، لكن يبقى من أهمها العنف ضد النساء. وبالتالي يمكن أن نستنتج من هذه الإحصائيات من جهة، أن الجائحة أخرجت العنف من الشارع وأدخلته إلى البيت، ومن جهة أخرى استهدفت النساء بالخصوص.

لقد كان فيروس كورونا بمثابة القشة التي قصمت الكثير من الحقوق الإنسانية، وزاد الطين بلة استخدامه من قبل أنظمة ديكتاتورية للانتقام من المعارضين السياسيين، وخنق حرية التعبير والتجمع السلمي، واعتبرته أجهزة الأمن والمخابرات تفويضاً لاستخدام القوة المفرطة والقاتلة ليس لتصفية الناشطين الحقوقيين فقط؛ بل لفرض أوامر العزل وحظر التجول.

تعالت صراخات المنظمات الحقوقية للتذكير أن حقوق الإنسان ليست قابلة للتفريط لمواجهة الوباء، وأن فرض تدابير استثنائية وأحكام الطوارئ في المجتمعات يتطلب معايير لا يمكن القفز عنها أو تجاهلها، أهمها أن تتسم الإجراءات المتخذة بسياق قانوني وشرعي، وأن تستند إلى أدلة علمية تثبت ضرورتها، وأن تكون متناسبة ولا تمييزية، ومحددة في إطار زمني، وقابلة للمراجعة، وأن تحترم الكرامة الإنسانية.

نجد أن المنظومة الحقوقية الدولية تنص، في الكثير من المواثيق، على أن جميع حقوق الإنسان هي حقوق غير قابلة للتصرف، وهي حقوق عالمية، ومترابطة وغير قابلة للتجزئة؛ حيث تفرض تعهدات ملزمة على الحكومات، بما في ذلك وبصورة خاصة، في أوقات الطوارئ. فهي تنطبق على الجميع دون تمييز وهي غير قابلة للتجزئة.

وتذهب للتأكيد على أن استخدام القانون الجنائي لتنظيم السلوك ومنع انتقال الفيروس يعد منهجاً شديداً وفظاً في محاولة إبطاء انتشار الفيروس. كما لوحظ في وباء فيروس نقص المناعة البشري، فإن الإفراط في استخدام القانون الجنائي يمكن أن يؤدي في كثير من الأحيان إلى نتائج سلبية كبيرة سواء بالنسبة للفرد أو للاستجابة ككل وكثيراً ما يفشل في إدراك واقع حياة الأفراد. يمكن أن يزداد تعرض الأفراد المصابين بالفيروس بالوصم، ويثني الأفراد عن الخضوع للفحص ويدمر الثقة بين المجتمعات والحكومة. غالباً ما يكون استخدام القوانين الجنائية في حالات الطوارئ المتعلقة بالصحة العامة أمراً واسع النطاق وغامضا، كما أنها معرضة لخطر الانتشار بطريقة تعسفية أو تمييزية. فقد يمكن أن يكون لكل من الوباء والاستجابة له عواقب وخيمة محتملة على سبل عيش الأفراد وفرص العمل وحصولهم على الغذاء والخدمات الأساسية. فللأفراد الحق في العمل، وأن يعملوا في ظروف عمل عادلة ومنصفة. وقد يخاطر الأفراد بفقدان رواتبهم أو وظائفهم إذا طلب منهم العزل أو إذا طلب من الشركات الإغلاق. هذا خطر محدق بصفة خاصة بالأفراد الذين يعانون من أوضاع عمل غير مستقرة، أو في عمل بدون إجازة مرضية مدفوعة الأجر، وهو أمر يمكن أن يؤثر بشكل غير متناسب على بعض السكان على أساس الجنس أو العرق أو الوضع الاجتماعي الاقتصادي أو الجنسية على سبيل المثال. يمكن للخوف من فقدان الوظيفة، كما هو الحال في وباء فيروس نقص المناعة البشري، أن يمنع الأفراد من اتخاذ الخطوات اللازمة، مثل طلب الفحص والعلاج أو أن يمنعهم، في حالة كوفيد 19، من العزل الذاتي.

في الوقت الحالي، تواجه المجتمعات وضعا متغيراً ديناميا للغاية لا يمكن التنبؤ به كمجتمع عالمي. ومع ذلك، كما رأينا من تضامن ودعم وقوة المجتمعات في وباء فيروس نقص المناعة البشري وبالفعل في المجتمعات التي تستجيب لوباء كوفيد 19، يجب ألا تكون الاستجابة هي الخوف والوصم. نحن بحاجة إلى بناء ثقافة التضامن والثقة والتعاطف. يجب أن ترتكز استجابتنا لفيروس كوفيد 19 على واقع حياة الأفراد وأن ترتكز على إزالة العوائق التي يواجهها الأفراد في قدرتهم على حماية أنفسهم ومجتمعاتهم. إن تهيئة التمكين والتوجيه، بدلا من القيود، يمكن أن يمكن الأفراد من التصرف دون خوف من فقدان معيشتهم، مع توافر الغذاء الكافي على طاولتهم واحترام مجتمعهم. وفي نهاية المطاف، سيعطينا استجابة أكثر فعالية وإنسانية ومستدامة للوباء.

لم تلتفت الكثير من الدول لهذه المعايير الحقوقية واتخذت إجراءات موجعة عصفت بحقوق إنسانية لصيقة؛ فالانتهاكات التي رصدت يصعب توثيقها، وتصيب بمقتل حقوقاً لم يقترب منها من قبل؛ فتقرير الأمم المتحدة للمهاجرين واللاجئين والنازحين أشار إلى أن 131 دولة أغلقت حدودها، وأن 30 دولة لم تسمح بإعفاءات لطالبي اللجوء، وهذا غيض من فيض.

ثالثاً: بعض من المخرجات النفسية:

لا شك أن جائحة كورونا والإجراءات التي اتخذت لمجابهتها تركت وما تزال آثاراً نفسية متنوعة على فئات كثيرة من الناس وإن كان بدرجات متفاوتة. جذور الآثار النفسية تأتي من عاملين أساسيين ومتداخلين مع بعضهما البعض، هما الانتشار السريع والهائل لفيروس كورونا الذي يؤدي إلى ضغوطات نفسية أهمها القلق والاكتئاب، حيث يعيش الناس في حالة من التوتر حيال الأشياء من حولهم، ويؤدي إلى حالة من عدم اليقين حول المستقبل. ثم القلق من إمكانية الإصابة بالمرض أو إصابة أفراد الأسرة والأقارب من حولهم الذي يؤدي إلى حالة من التوتر الدائم والقلق، وقد يؤدي إلى ضغوطات نفسية كبيرة مرتبطة بالسلوك الواجب اتباعه في هذه الحالات؛ فالإجراءات المصاحبة والتي تأخذها الدول مضطرة لمجابهة المرض لا تقل أهمية عن الجانب الصحي المرتبط بالمرض. إجراءات كالحظر طويل الأمد وتوقف الأنشطة الاعتيادية وخاصة الاقتصادية منها فاقم من الآثار النفسية، لا بل أصبح مصدراً جديداً للقلق والتوتر والخوف والاكتئاب.

إن مخرجات للإغلاق والحظر وارتفاع نسبة التعطل والدخول في حالة الإعسار المالي أدت إلى ضغوطات كبيرة جداً على أرباب الأسر لتلبية الاحتياجات الأساسية لهم ولأسرهم والذي من المرجح أن يوسع دائرة الآثار النفسية لأفراد الأسر جميعاً، ويفسح المجال الخصب لمزيد من المشاكل الأسرية كالعنف الأسري على سبيل المثال. بالتأكيد هناك بعض الفئات أصبحت أكثر عرضة من غيرها للآثار النفسية السلبية للجائحة وتبعاتها حسب ظروفها وإمكانياتها المالية والمصرفية. وبالتالي هناك تفاوت في قدرة الأفراد على التكيف مع هذه الضغوطات والتي تؤثر على حدة هذه الآثار عليهم. بالإضافة للجائحة والإجراءات المتبعة لمواجهتها، فإن طريقة التواصل مع المواطنين والخطاب الإعلامي حول الجائحة أو الإجراءات المصاحبة لها سواء كانت اقتصادية أم صحية قد زادت من حالة القلق والتوتر أو تخفف منه. وكان التهويل والمبالغة والتناقض وعدم الدقة في تصريحات بعض المسؤولين والخبراء قد فاقم من الآثار النفسية السلبية كالقلق وعدم اليقين والخوف من المستقبل.

المحور الخامس: مخرجات الوباء وسؤال احترام المنظومة الحقوقية الدولية:

بالعودة للمنظومة الحقوقية، وبموجب القانون الدولي لحقوق الإنسان، الحكومات ملزمة بحماية الحق في حرية التعبير، بما في ذلك الحق في التماس واستلام ونشر جميع أنواع المعلومات، بغض النظر عن أية حدود. القيود المسموح بها على حرية التعبير لأسباب تتعلق بالصحة العامة، المذكورة أعلاه، يجب ألا تعرض هذا الحق للخطر.

إن الحكومات مسؤولة عن تقديم المعلومات اللازمة عن حماية الحقوق وتعزيزها، بما يشمل الحق في الصحة. ترى اللجنة المعنية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أن «توفير التعليم وإتاحة الحصول على المعلومات المتعلقة بالمشاكل الصحية الرئيسية في المجتمع، بما في ذلك طرق الوقاية والمكافحة»، هي «التزامات ذات أولوية». والاستجابة لفيروس كورونا بطريقة تحترم الحقوق يجب أن تضمن وجود معلومات دقيقة وحديثة حول الفيروس، والوصول إلى الخدمات، وانقطاع الخدمات، والجوانب الأخرى المتعلقة بالاستجابة لتفشي الفيروس، وأن تكون هذه المعلومات متاحة بسهولة للجميع.

إن القانون الدولي لحقوق الإنسان يتطلب، لا سيما العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية، أن تكون القيود المفروضة على الحقوق لأسباب تتعلق بالصحة

العامة أو الطوارئ الوطنية قانونية، وضرورية، ومتناسبة. يجب أن تنفذ القيود المتعلقة بمسائل مثل الحجر الصحي الإلزامي وعزل الأفراد الذين يحملون الأعراض بما يتماشى مع القانون. يجب أن تكون ضرورية للغاية لتحقيق هدف مشروع، استنادا إلى أدلة علمية، ومتناسبة مع ذلك الهدف، وليست تعسفية ولا تمييزية عند تطبيقها، ولها مدة زمنية محددة، وتحترم الكرامة الإنسانية، وقابلة للمراجعة.

قرارات الحجر الصحي ومنع الخروج لفترات لامتناهية نادراً ما تستجيب لهذه المعايير، وكثيراً ما تفرض بسرعة، دون ضمان أي حماية للخاضعين للحجر الصحي، وخاصة الفئات المعرضة للخطر. نظراً لأن مثل هذه القرارات يصعب فرضها وتنفيذها بشكل موحد، فهي غالباً ما تكون تعسفية وتمييزية عند التطبيق.

تحمي حرية التنقل المكفولة في القانون الدولي لحقوق الإنسان، من حيث المبدأ، حق كل شخص في مغادرة أي بلد، ودخول بلد جنسيته، وحق كل شخص موجود بشكل قانوني في بلد ما في التنقل بحرية داخل كل أراضي ذلك البلد. لا يمكن فرض قيود على هذه الحقوق إلا إذا كانت مشروعة، ولهدف مشروع، على أن تكون متناسبة، بما يشمل النظر في تأثيرها. قرارات حظر السفر وتقييد حرية التنقل يجب ألا تكون تمييزية، أو تحرم الأفراد من الحق في التماس اللجوء، أو تنتهك الحظر المطلق على إعادة الأفراد إلى أماكن يواجهون فيها الاضطهاد أو التعذيب.

إن للحكومات سلطة واسعة بموجب القانون الدولي بحظر دخول الزائرين والمهاجرين من دول أخرى. غير أن قرارات حظر السفر المحلية والدولية تاريخياً لها فاعلية محدودة في منع انتقال العدوى؛ بل قد تزيد في الواقع من انتشار المرض إذا فر الأفراد من مناطق الحجر الصحي قبل فرض حظر السفر.

وعندما يفرض الحجر الصحي أو الإغلاق، تكون الحكومات ملزمة بضمان الحصول على الغذاء والماء والرعاية الصحية ودعم مقدمي الرعاية. يعتمد الكثير من كبار السن وذوي الإعاقة على استمرار الخدمات المنزلية والمجتمعية. ضمان استمرار هذه الخدمات والعمليات يعني أن الأجهزة العامة، والمنظمات المجتمعية، ومزودي خدمات الرعاية الصحية، ومزودي الخدمات الضرورية الأخرى يستطيعون الاستمرار في أداء مهامهم الضرورية

لتلبية احتياجات كبار السن وذوي الإعاقة. ينبغي أيضاً أن تقلص استراتيجيات الحكومة انقطاع الخدمات وتوفر مصادر طارئة للخدمات المماثلة. انقطاع الخدمات المجتمعية قد يؤدي إلى إيداع ذوي الإعاقة وكبار السن في مؤسسات، ما قد يؤدي إلى نتائج صحية سلبية، تشمل الوفاة.

إن فيروس كورونا كوفيد 19، مثل الأمراض المعدية الأخرى، يشكل خطراً أكبر على الأفراد الذين يعيشون على مسافة قريبة من بعضهم البعض. يؤثر بشكل غير متناسب على كبار السن والأفراد الذين لديهم أمراض كامنة، مثل أمراض القلب والأوعية الدموية، والسكري، والأمراض التنفسية المزمنة، وارتفاع ضغط الدم. 80% من الذين توفوا بسبب فيروس كورونا في الصين كانوا فوق سن 60 سنة.

هذا الخطر يزداد حدة بشكل خاص في مراكز الاعتقال، مثل السجون ومراكز احتجاز المهاجرين، وكذلك المؤسسات التي يعيش فيها ذوو الإعاقة، ودور العناية بكبار السن؛ حيث يستطيع الفيروس الانتشار بسرعة، لا سيما إذا كان الحصول على الرعاية الصحية ضعيفاً بالأصل. الدول ملزمة بضمان الرعاية الصحية للمحتجزين لديها، على أن تكون متساوية على الأقل مع الرعاية المتاحة لعامة الأفراد، وعليها ألا تمنع أو تقيد حصول المعتقلين، بما يشمل طالبي اللجوء والمهاجرين الذين لا يحملون وثائق، على نفس القدر من الرعاية الصحية الوقائية والعلاجية والتلطيفية. قد يكون طالبو اللجوء، واللاجئون الذين يعيشون في مخيمات، والأفراد الذين يعيشون بلا مأوى أكثر عرضة للخطر بسبب عدم حصولهم على المياه والمرافق الصحية الكافية.

في دور الرعاية وغيرها من الأماكن التي تأوي أعداداً كبيرة من كبار السن، ينبغي أن توازن شروط الزيارات بين حماية النزلاء المسنين والأكثر عرضة للخطر من جهة، وحاجتهم إلى العائلة والتواصل من جهة أخرى. أعلنت «وزارة شؤون المحاربين القدامى الأمريكية» اعتماد سياسة منع الزيارات في دور الرعاية الـ 134 التابعة لها في كافة أنحاء البلاد لمواجهة خطر فيروس كورونا. رغم أن الخطر على كبار السن جسيم، لا تراعي السياسات الشاملة إرشادات الصحة العامة أو احتياجات كبار السن.

كثيراً ما لا يحصل الأفراد في مراكز الاعتقال أو السجن أو مراكز احتجاز المهاجرين على الرعاية الصحية الملائمة في الظروف العادية، حتى في

البلـدان المتقدمـة اقتصاديـاً. سـاهم تدنـي الرعايـة الصحيـة في وفـاة مهاجريـن مؤخراً أثنـاء احتجازهـم لـدى وكالـة إنفـاذ قوانـين الهجـرة والجمـارك الأمريكيـة. غالبـاً مـا يكـون بـين المعتقلـين مسـنون وأشـخاص لديهـم حـالات صحيـة مزمنـة، مـا يعنـي أنهـم معرضـون لخطـر أكـبر للإصابـة بفـيروس كورونـا.

كثـيرون في سـجون الولايـات المتحـدة الأمريكيـة هـم غـير مدانـين بجريمـة، وإنمـا محتجزون لعـدم قدرتهـم عـلى دفـع الكفالة المحـددة في قضاياهـم. يشـكل الرجال والنسـاء كبـار السـن الفئـة الأسرع نمـواً في السـجون الأمريكية بسـبب العقوبـات المطولـة، ومسـؤولو السـجون يواجهـون في الأصـل صعوبـات في توفـير الرعايـة الصحيـة اللازمـة لهـم. اسـتجابة لذلك، عجلت المحاكـم في إحـدى مقاطعـات ولايـة أوهايـو بمراجعـة حـالات المعتقلـين، وأطلقـت سراح بعضهـم ونقلـت الآخريـن إلى السـجون. رفـع الاتحـاد الأمريكـي للحريـات المدنيـة دعـوى قضائيـة للطعـن في الاسـتمرار في احتجـاز المهاجريـن في ظـل تفـشي الفـيروس.

وكجـزء مـن الحـق في الصحـة، ينـص العهـد الـدولي الخـاص بالحقـوق الاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة عـلى واجـب الحكومـات تهيئـة ظـروف مـن شـأنها تأمـين الخدمـات الطبيـة والعنايـة الطبيـة للجميـع في حالـة المـرض.

إن الحكومات ملزمة بالتقليـل مـن خطر الحـوادث والأمـراض المهنيـة، بمـا في ذلـك ضمـان حصـول العمـال عـلى المعلومـات الصحيـة ومـا يكفـي مـن الملابـس والمعـدات الواقيـة. هـذا يعنـي تزويـد عمـال قطـاع الصحـة وغيرهـم مـن المشـاركين في التصـدي لفـيروس كورونـا بالتدريـب المناسـب عـلى مكافحـة العـدوى والمعـدات الواقيـة المناسـبة.

تتطلـب مكافحـة انتشـار فـيروس كورونـا أن يكـون لـدى المرافـق الصحيـة مـا يكفـي مـن الميـاه، وخدمـات الـصرف الصحـي، والنظافـة، وإدارة النفايـات الطبيـة، والتنظيـف. وجد تقريـر أسـاسي لعـام 2019م أصدرتـه منظمـة الصحـة العالميـة و«منظمـة الأمـم المتحـدة للطفولـة» (اليونيسـف) أن حـوالي 896 مليـون شـخص يسـتخدمون مرافـق رعايـة صحيـة تفتقـر إلى الميـاه و1.5 مليـار شـخص يسـتخدمون مرافـق تفتقـر للـصرف الصحـي.

في الأوبئة السابقة، أدى الخوف من التعرض للعدوى إلى الاعتداء على العاملين في قطاع الصحة. ينبغي للحكومات مراقبة مثل هذه الاعتداءات لردعها، وضمان قدرتها على الرد بسرعة، وبالقدر الكافي، وبشكل ملائم إذا وقعت اعتداءات.

إن الأرقام تقدم صورة مفجعة، فالمؤشرات تقول إن نحو 24 مليون طفل وشاب قد لا يتمكنون من الالتحاق بالمدارس بسبب التداعيات الاقتصادية، وتزايد معدلات الفقر، وتسربهم لسوق العمل؛ ولهذا تداعت اليونيسكو لحث دول العالم إلى تشكيل التحالف العالمي من أجل التعليم.

إن أكثر ما يشير إلى قتامة الصورة وغياب العدالة أن 86% من الأطفال في البلدان ذات المستويات المتدنية في التنمية البشرية كانوا خارج المدارس، في حين تقل هذه النسبة لتصل إلى 20% في البلدان ذات المستويات العالية جداً في التنمية البشرية.

أغلقت العديد من البلدان المؤسسات التعليمية منذ تفشي فيروس كورونا، ما أدى إلى انقطاع تعليم مئات ملايين الطلاب. في أوقات الأزمات، توفر المدارس للأطفال شعورا بالاستقرار والحياة الطبيعية وتضمن لهم أن يحظوا بممارسات اعتيادية ودعم عاطفي للتعامل مع الوضع المتغير. توفر المدارس أيضاً مساحات مهمة للأطفال وأسرهم للتعلم عن النظافة الصحية، والتقنيات الصحيحة لغسل اليدين، والتعامل مع الحالات غير الاعتيادية. من دون القدرة على ارتياد المدارس، تقع هذه المسؤولية الأساسية على عاتق الأهالي، والأوصياء، ومقدمي الرعاية. عند إغلاق المدارس، ينبغي للوكالات الحكومية التدخل لتوفير معلومات واضحة ودقيقة عن الصحة العامة عبر وسائط الإعلام المناسبة.

لضمان استجابة الأنظمة التعليمية بشكل مناسب، أوصت اليونسكو الدول بأن تعمل على إيجاد حلول قائمة على التكنولوجيا المتطورة أو البسيطة أو من دون استخدام التكنولوجيا لضمان انتظام واستمرارية عملية التعلم . في العديد من البلدان، يستخدم المعلمون أصلاً منصات التعلم عبر الإنترنت لإعطاء الواجبات المنزلية استكمالاً لساعات التواصل المعتادة في الصف، ولإعطاء التمارين في الصف، والبحوث. العديد من الطلاب يمكنهم استخدام الأجهزة التكنولوجية في المنزل. مع ذلك، الاتصال بالإنترنت غير

متاح بما يكفي لجميع البلدان، أو المجتمعات المحلية، أو العائلات، أو الفئات الاجتماعية، ويعيش العديد من الأطفال في أماكن تحجب الحكومات فيها الإنترنت بشكل متكرر.

في المجتمعات التي لديها أعداد كبيرة من الأطفال غير الملتحقين بالمدارس، قد يهدد إغلاق المدارس الجهود الهادفة إلى زيادة معدلات تسجيل الطلاب ومنع تسربهم، خصوصاً في المرحلة الثانوية. ينبغي للحكومات وضع تدابير إضافية لمراقبة الامتثال للتعليم الإلزامي، وضمان قيام مسؤولي التعليم الحكوميين بمراقبة العودة إلى المدارس بمجرد إعادة فتحها. على مسؤولي التعليم تركيز الاهتمام على المناطق التي ترتفع فيها نسبة عمالة أو زواج الأطفال، وضمان عودة جميع الأطفال إلى المدارس. كما ينبغي للمسؤولين ضمان أن المدارس التي تضم طلابا لاجئين تعتمد إجراءات توعية لتضمن عودة الأطفال اللاجئين إلى المدرسة، بما فيه عبر العمل مع مجموعات الأهالي وقادة المجتمع المحلي في صفوف اللاجئين.

ورغم عدم اتضاح المخاطر الخاصة بالنساء الحوامل المعرضات لفيروس كورونا حتى الآن، إلا أن التفشي قد يؤثر سلباً على الصحة والحقوق الجنسية والإنجابية. كل من النظم الصحية المثقلة، وإعادة تخصيص الموارد، ونقص الإمدادات الطبية، وانقطاع سلاسل التوريد العالمية قد يضر بقدرة النساء على الحصول على وسائل منع الحمل والرعاية قبل الولادة، وخلالها، وبعدها. رغم أن خطر العدوى عن طريق الرضاعة الطبيعية غير معروف، أوصى صندوق الأمم المتحدة للسكان بعدم فصل الأمهات المرضعات المصابات بالفيروس عن أطفالهن. أثرت الأوبئة السابقة، مثل تفشي الإيبولا في سيراليون، على توفر الرعاية الروتينية لمرحلة ما قبل الولادة وفي فترة الأمومة، ما يعرض النساء أكثر لخطر الوفاة والأمراض النفسية التي يمكن تجنبها.

إن الفئات الأكثر هشاشة وعرضة للخطر كانوا أكثر الضحايا، فمعدلات العنف الأسري تزايدت بشكل غير مسبوق، وقدرت دراسة أعدتها هيئة الأمم المتحدة للمرأة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي في نونبر 2020، أنه بحلول سنة 2021، ستعيش حوالي 435 مليون امرأة وفتاة بأقل من 1.90 دولاراً أميركياً يومياً، بما في ذلك 47 مليون امرأة وفتاة دفعهن وباء

كوفيد-19 إلى الفقر. وأشار التقرير أيضاً إلى أن التفاوت في الضعف أمام عواقب الوباء الاجتماعية والاقتصادية قد يعني أنه في السنة المقبلة، ستكون 118 امرأة في حالة فقر مقابل كل 100 رجل. كما أن الارتفاع الحاد في العنف الأسري الذي تم الإبلاغ عنه في جميع المناطق مقلق للغاية.

وقع فيروس كورونا على النساء أكثر إيلاماً، فهن اضطررن للانسحاب من سوق العمل إما للبقاء مع أطفالهن في البيوت بعد توقف المدارس، أو للاستغناء عنهن بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها الأعمال.

تضطلع النساء حول العالم بالرعاية والعمل المنزلي غير مدفوعي الأجر أكثر من الرجال بحوالي مرتين ونصف، ويتحملن مسؤوليات رعاية إضافية عند إغلاق المدارس أكثر من الرجال، ما يصعب عليهن الحفاظ على عمل مأجور. استجابت اليابان لاحتمال التأثير غير المتناسب على الأسر التي لديها أطفال صغار بتعويض التكاليف التي تتكبدها المؤسسات بالنسبة للموظفين الذين يأخذون إجازة مدفوعة لرعاية الأطفال أثناء إغلاق المدارس، لكن المبلغ المقدم كان منخفضاً. كانت إيطاليا تنظر في تدابير للتخفيف من آثار الإغلاق على الأسر التي لديها أطفال. قد تشمل التدابير إجازة والدية طارئة مدفوعة الأجر أو قسائم للأسر التي لديها أطفال حتى سن 12 سنة، أو الأطفال ذوي الإعاقة دون تحديد للسن، والتي تحتاج إلى دفع مقابل خدمة رعاية الأطفال وسط الإغلاق المطول للمدارس.

95% من النساء العاملات في بعض المناطق يعملن في القطاع غير الرسمي حيث ينعدم الأمن الوظيفي، ولا يجدن شبكات أمان؛ إذ دمرت أزمة مثل فيروس كورونا مدخولهن. يشمل العمل غير الرسمي العديد من المهن التي من المرجح أن تتضرر بسبب الحجر الصحي، والتباعد الاجتماعي، والتباطؤ الاقتصادي، مثل الباعة المتجولين، وتجار السلع، والعمال الموسميين. للنساء تمثيل كبير أيضاً في قطاع الخدمات الذي كان من بين القطاعات الأكثر تضرراً بسبب الاستجابة لفيروس كورونا.

تشكل النساء 70% من مقدمي الخدمات الصحية والاجتماعية حول العالم، ما يعني أن النساء متواجدات على الخطوط الأمامية لاحتواء انتشار فيروس

كورونا وقد يتعرضن بشدة للفيروس بسبب عملهن في القطاع الصحي . قد يؤدي الخوف في المجتمعات من تعرض العاملين في قطاع الصحة للإصابة إلى نبذ النساء العاملات في هذا القطاع أو تعرضهن للوصم، ما يضيف عبئاً إضافياً على التحدي المتمثل في محاولة حماية صحتهن وصحة أسرهن. قد يتجلى ذلك، مثلاً، لدى محاولة تأمين رعاية الأطفال أثناء عملهن في الخطوط الأمامية.

بعض العاملات في مجال الرعاية هن عاملات منازل مهاجرات. قد يكن عرضة لظروف العمل المسيئة في الأوقات العادية، وهن معرضات لزيادة خطر الانتهاك، وفقدان العمل، وتواجدهن في الخطوط الأمامية لتقديم الرعاية بدون حماية كافية، وعجزهن عن العودة إلى بلادهن أثناء الأزمات. قد يواجهن أيضاً معوقات في طريق حماية صحتهن.

وفي العديد من البلدان، تؤدي منظمات المجتمع المدني عملاً أساسياً في دعم جهود وقف انتشار الفيروس وضمان حصول الأفراد المصابين بفيروس كورونا، أو أولئك الذين يعيشون في العزل أو في الحجر الصحي، أو على الحماية، والرعاية، والخدمات الاجتماعية اللازمة. ينبغي للحكومات حماية ودعم منظمات المجتمع المدني لأداء هذا العمل، وكذلك المنظمات التي ترصد آثار تفشي المرض.

خلال تفشي وباء الإيبولا في 2014م في غرب أفريقيا، لعبت المجموعات غير الحكومية، والصحف المحلية، والإذاعات المحلية دوراً رئيسياً في التثقيف الصحي. وفي هونغ كونغ، نظم الأفراد العاديون أنفسهم لصنع وتوزيع الكمامات والمطهرات على الأفراد الأكثر عرضة للخطر لسد الثغرات الناتجة عن السياسات الحكومية. لكن الحكومة الصينية تواصل منذ فترة طويلة إحكام قبضتها على المنظمات غير الحكومية، وبعض الجماعات تعاني من نقص التمويل أثناء تفشي المرض.

في إيطاليا، أخضعت السلطات منظمات الإنقاذ البحرية غير الحكومية التي تساعد المهاجرين وطالبي اللجوء للحجر الصحي في الموانئ، رغم أن نتائج فحوصات الفيروس لدى أفراد الطاقم والركاب كانت سلبية. في سياق استمرار تعطيل بعثات الإنقاذ المدنية وحظرها وحتى تجريمها، قد يستخدم الحجر الصحي غير الضروري لردع عمليات الإنقاذ البحري.

إن الحـق في الماء والـصرف الصحـي جـزء مـن الحـق في مسـتوى معيـشي كاف. لجنــة الأمــم المتحــدة المعنيــة بالحقــوق الاقتصاديــة والاجتماعيــة والثقافيــة» جــددت التأكيــد عــلى أن الحــق في الميــاه والحــق في الــصرف الصحــي عنــصران أساســيان في الحــق في مســتوى معيــشي كاف، ويرتبطــان ارتباطــاً وثيقــاً، مــن بــين حقــوق العهــد الأخــرى، بالحــق في الصحــة.

يفتقــر مليــارات الأفــراد حــول العالــم لميــاه الــشرب الآمنــة. مــع ذلــك، وكما أشــارت منظمة الصحــة العالميــة، مــن الــضروري توفــير الميــاه الآمنــة، والــصرف الصحــي، وظــروف النظافــة لحمايــة صحــة الإنســان أثنــاء تفــشي فــيروس كورونــا. يمكــن تعزيــز منــع انتقــال فــيروس كورونــا مــن شــخص لآخــر مــن خــلال تعزيــز الحــق في المــاء والــصرف الصحــي، ودعــم البنيــة التحتيــة للميــاه والــصرف الصحــي والفنيــين الذيــن يقدمــون هــذه الخدمــات لضمــان جــودة واســتمرارية توفــير الميــاه، والــصرف الصحــي، والنظافــة؛ وإدارة النفايــات في المجتمعــات المحليــة، والمنــازل، والمــدارس، والأســواق، والمراكــز الصحيــة. ثمة حاجــة إلى المزيــد مــن البحــث لفهــم مخاطــر تلــوث ميــاه الــشرب، والعــدوى عــن طريــق البيئــة، وكيفيــة ضمــان تدريــب ودعــم مشــغلي ميــاه الــصرف الصحــي طــوال الأزمــة. لقــد تعرضــت حقــوق الإنســان بمفهومهــا العــام لانتكاســة وضربــة قاســية ســنة 2020م، ولــم تعــد الأنظــار شــاخصة لإنقــاذ حيــاة أشــخاص يواجهــون عقوبــة الإعــدام هنــا أو هنــاك، أو مناضلــين يدافعــون عــن الديمقراطيــة يقبعــون خلــف جــدران الســجون؛ بــل عمــت الانتهــاكات لتــضرب وتــد حقــوق أساســية كالحــق في الحيــاة، والصحــة، والتعليــم، وأصبــح الأمــل بالنجــاة معلــق عــلى نجــاح اللقاحــات في حمايــة أرواح الأفــراد.

أطلقـت منظمـة الصحـة العالميـة في مسـعى لتحقيـق العدالـة «برنامـج كوفاكـس» لإتاحـة اللقـاح لجميـع البلـدان، وتوزيـع الجرعـات بشـكل عـادل بـدءً مـن الفئـات الأكثـر عرضـة للخطـر، ولكـن المخـاوف حـاضرة، فشركـة فايـزر مثـلاً باعـت 80% مـن اللقاحـات لحكومـات دول تمثـل 14% مـن سـكان العالـم . تقـول منظمـة الأمـم المتحـدة في أدبياتهـا الاحتفاليـة إن الجائحـة قـد ذكرتنـا بحقيقة بسـيطة، وهـي أن العالـم الـذي يحـترم حقـوق الإنسـان بشـكل كامـل، هو عالـم أكثر اسـتعداداً لمواجهـة الأزمـات والتعافي منهـا. والفيروس موضوع دراسـتنا، هـو فيروس لا يـرى بالعـين المجـردة، نـشر الفـوضى والخـراب في العالم، وقـوض حقوق الإنسـان.

المحور السادس: من أجل بدائل حقوقية:

نعتقد أنه ينبغي للفاعلين الرسميين، خصوصاً الحكومات في مختلفة مجتمعات المعمور، اتخاذ خطوات عديدة، من بينها:

1. احترام الحق في حرية التعبير والحق في الوصول إلى المعلومات، وأن تقييدهما فقط في إطار ما تسمح به المعايير الدولية؛

2. التركيز على تأمين الحق في الأمن وفي الصحة وفي التعليم في التأمين عن جميع المخاطر؛

3. إعادة النظر في التشريعات القانونية والمواثيق الحقوقية الوطنية والدولية حتى تضمن حماية أكبر لكل الحقوق الإنسانية؛

4. جعل المؤسسات الإعلامية تواكب طبيعة السياق، عن طريق تأمين برامج ومنتوجات تتلاءم وإكراهات الحجر الصحي والخوف من الإصابة بالفيروس، ثم إتاحة جميع المعلومات المتعلقة بفيروس كورونا وبلغات متعددة، بما في ذلك للأشخاص الذين يجيدون، أو لا يجيدون، القراءة والكتابة. يشمل ذلك إتاحة الإعلانات التلفزيونية بلغة الإشارة عبر مترجمين فوريين مؤهلين، كما فعلت تايوان؛ وإتاحة مواقع إلكترونية يسهل الوصول إليها للأشخاص الذين لديهم إعاقة في البصر والسمع والتعلم وغير ذلك؛ وإتاحة الخدمات عبر الهاتف التي تشمل إمكانية التواصل النصي للأشخاص الصم أو الذين لديهم صعوبة في السمع. ينبغي أيضاً أن تستخدم عمليات التواصل لغة بسيطة لتحقيق أفضل فهم ممكن. ويتعين كذلك تقديم معلومات للأطفال تكون مناسبة لأعمارهم لمساعدتهم على اتخاذ خطوات لحماية أنفسهم؛

5. التأكد من أن المعلومات التي تقدمها للأفراد عن فيروس كورونا دقيقة، وفي وقتها، ومتسقة مع مبادئ حقوق الإنسان؛

6. تجنب القيود الشاملة والفضفاضة للغاية على التنقل والحرية الشخصية، وأن تلجأ إلى القيود الإلزامية فقط عندما تكون مبررة علمياً وضرورية وبعد تأمين آليات لدعم المتضررين؛

7. النظـر في تقليـص عـدد النـزلاء مـن خـلال الإفـراج المـشروط المناسـب أو المبكـر عـن المعتقلـين ضمـن الفئـة الأقـل تعرضـاً لمخاطـر الفـيروس، بمـا يشـمل مثـلاً الذيـن قـد يطلـق سراحهـم قريبـاً، والمحبوسـين احتياطيـاً بسـبب جرائـم غـير عنيفـة أو أقـل خطـورة، وأولئـك الذيـن يكـون احتجازهـم غـير ضروري أو غـير مـبرر. يتعـين أيضـاً النظـر في الإفـراج عـن المعتقلـين الأكثـر عرضـة لخطـر تأثـيرات الفـيروس، مثل كبـار السـن والذيـن لديهـم حـالات صحيـة كامنـة، مـع مراعـاة قـدرة مؤسسـة الاعتقـال عـلى حمايـة صحتهـم، بمـا يشـمل ضمـان حصولهـم عـلى العـلاج، ومراعـاة عوامـل مثـل خطـورة الجريمـة المرتكبـة وفـترة السـجن التـي قضاهـا المحتجـزون؛

8. الكشـف عـن خطـط تقليـص خطـر الإصابـة بفـيروس كورونـا في هـذه المنشـآت لاحتـواء العـدوى وحمايـة المسـاجين، وموظفـي السـجن، والـزوار، في حـال وجـود إصابـات بالفـيروس أو خطـر التعـرض للإصابـة. فالأفـراد الموجوديـن في أي شـكل مـن أشـكال الاعتقـال لهـم الحـق نفسـه في الصحـة كغـير المعتقلـين، ويسـتحقون معايـير الوقايـة والعـلاج نفسـها؛

9. اتخـاذ خطـوات لضمـان التنسـيق المناسـب مـع إدارات الصحـة العامـة، والتواصـل بشـكل مفتـوح مـع الموظفـين والمعتقلـين. ويتعـين أيضـاً إجـراء فحوصـات لكشـف الإصابـة بفـيروس كورونـا وفقـاً لأحـدث توصيـات السـلطات الصحيـة؛

10. اتخـاذ التدابـير لتصبـح الرعايـة الصحيـة متاحـة للجميـع، ويمكـن الحصـول عليهـا دون تمييـز، وبتكلفـة معقولـة، وتحـترم أخلاقيـات مهنـة الطـب، وملائمـة ثقافيـاً، وذات نوعيـة جيـدة؛

11. ضمـان حصـول العاملـين في قطـاع الصحـة عـلى معـدات الحمايـة المناسـبة، وتوفـير برامـج الحمايـة الاجتماعيـة لأسر العمـال الذيـن يموتـون أو يمرضـون نتيجـة عملهـم، وضمـان أن تشـمل هـذه البرامـج العمـال غـير الرسـميين، الذيـن يشكلون نسـبة كبـيرة مـن قطـاع تقديـم الرعايـة؛

12. اسـتخدام التعلـم عبر الإنترنـت للتخفيـف مـن الأثـر المباشر لفقـدان التدريـس المعتـاد. عـلى المـدارس التـي تعتمـد التكنولوجيـا التعليميـة

للتعلم عبر الإنترنت أن تضمن أن الأدوات تحمي حقوق الطفل وخصوصيته؛

13. اتخاذ التدابير للتخفيف من الآثار غير المناسبة على الأطفال الذين يواجهون أصلاً حواجز تعيق حصولهم على التعليم، أو المهمشين لأسباب مختلفة، بمن فيهم الفتيات، وذوو الإعاقة، والمتضررون بسبب أماكن تواجدهم، ووضعهم العائلي، وأوجه اللامساواة الأخرى؛

14. التركيز على تبني استراتيجيات تدعم جميع الطلاب أثناء الإغلاق مثلاً، مراقبة الطلاب الأكثر عرضة للخطر وضمان تلقي الطلاب للمواد المطبوعة أو عبر الإنترنت في الوقت المناسب، مع إيلاء اهتمام خاص بالطلاب ذوي الإعاقة الذين قد يحتاجون إلى مواد معدلة وميسرة؛

15. تبني استراتيجيات لتخفيف الآثار، مثلاً عبر العمل مع الأساتذة، ومسؤولي المدارس، واتحادات ونقابات الأساتذة للتفكير في خطط لتعويض ساعات التدريس أو التواصل المفقودة، وتعديل الروزنامة المدرسية ومواعيد الامتحانات، وضمان التعويض العادل للأساتذة وموظفي المدارس الذين يقدمون ساعات إضافية؛

16. اتخاذ خطوات للتخفيف من الآثار المرتبطة بالنوع الاجتماعي وضمان ألا تؤدي الاستجابات إلى ترسيخ انعدام المساواة الجندرية؛

17. عند نقل التعليم إلى الإنترنت، ينبغي للحكومات ومقدمي التعليم مراقبة مشاركة الطلاب واستمراريتهم في الدروس عبر الإنترنت من أجل رصد الأثر المرتبط بالنوع الاجتماعي والاستجابة بسرعة من خلال استراتيجيات لضمان استمرار النساء والفتيات في متابعة التعلم وإعادتهن إذا انخفضت مشاركتهن. على هذه الجهات أيضاً معالجة تعرض النساء بشكل خاص لخطر فقدان وظائفهن أثناء إغلاق المدارس إذا قمن بنشاطات رعاية إضافية؛

18. ضمان أن تتناول حملات التوعية العامة كيف يمكن لضحايا العنف الأسري الحصول على الخدمات، وعليها التأكد من إتاحة الخدمات لجميع ضحايا العنف الأسري، بمن فيهن من يعشن في مناطق

تخضع لقيود على الحركة أو تحت الحجر الصحي والمصابات بفيروس كورونا؛

19. دعم العاملين في الخطوط الأمامية في مجال الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية، مع الاعتراف بأن أغلب هؤلاء العاملين هم نساء. وينبغي أن يشمل الدعم النظر في احتياجاتهن كمقدمات رعاية ضمن أسرهن وتأثير الوصمة عليهن وعلى أسرهن؛

20. تبنى البلدان الأصلية لعاملات المنازل المهاجرات والبلدان التي يعملن فيها تدابير خاصة لتحديد ومساعدة أولئك العاملات لمنع ظروف العمل المسيئة، وتقديم المساعدة المتعلقة بالتعامل مع فيروس كورونا؛

21. مراقبة تأثير فيروس كورونا على النساء الحوامل والعمل على التخفيف من تأثير الوباء على حق النساء والفتيات في الحصول على خدمات الصحة الجنسية وتلك الإنجابية.

الفصل الثاني

الإرث الثقافي والفكري
في أفريقيا
تفاعلات وتأثيرات

الإرث الثقافي والفكري في أفريقيا
تفاعلات وتأثيرات

رمزية الثعبان لدى القبائل الوثنية في أفريقيا جنوب الصحراء

د. بشار أكرم جميل الملاح

المقدمة:

تُعد أفريقيا جنوب الصحراء واحدة من الأماكن ذات الرقعة الجغرافية الواسعة، والتي سكنتها مجموعات سكانية متعددة ذات اتجاهات ومعتقدات دينية كثيرة، والمنطقة التي سيتناولها البحث أطلق عليها من قبل المؤرخين الغربيين والمستشرقين اسم أفريقيا جنوب الصحراء، تلك البقعة الجغرافية التي يحدها من الشرق البحر الأحمر والمحيط الهندي، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشمال الصحراء الكبرى، أما من الجنوب فيحدها الغابات الاستوائية المطيرة، وتلك المنطقة عُرفت لدى مؤرخينا وجغرافيينا باسم بلاد السودان نسبة لسواد لون بشرة السكان، وهي مرادفة لكلمة البيضان التي أُطلقت على سكان الصحراء الكبرى.

فضلاً عن ذلك؛ فقد سميت بعض اجزاء المنطقة قيد الدراسة اسم بلاد التكرور، وهي التي أطلقها على المنطقة ولاسيما الغربية منها، الكثير من مؤرخي مصر وسكانها، وقد وصفت تلك المنطقة من قبل المؤرخين والجغرافيين المسلمين ولاسيما في القرون الإسلامية الأولى بالجهل والكفر والتعري وابتعادهم عن الحلال والحرام، ويبدو أن ذلك الأمر نابع من بعدهم عن البلدان التي كانت الحضارة الاسلامية قد تغلغلت فيهم كمصر والمغرب الإسلامي.

ونتيجة لذلك البُعد تبنى السكان في أفريقيا جنوب الصحراء قبل وصول الإسلام إليهم معتقدات دينية بدائية وثنية كتقديس الحكام، وتقديس الأرواح، وتقديس الطوطم والأصنام والمجوسية وغيرها، وذلك الأمر دفع الكثير منهم لتقديس الثعابين وتقديم القرابين لها، وقد ظهر ذلك التقديس في رسومهم ومنحوتاتهم منذ عصور مبكرة. ينظر شكل رقم (1).

رمزية الثعبان:

عـدت بعـض القبائـل الأفريقيـة الأفعـى الطوطـم الخـاص بهـا والتـي حلـت فيهـا روح الإلـه أو شـيخ القبيلـة وأرواح أجـداد القـوم؛ فقـد ارتبـط الأفارقـة في عهودهـم القديمـة بروايـة أسـطورية تشـير إلى إرسـال الإلـه (الجلـود) للإنسـان ليسـتبدلها باسـتمرار حتـى لا يمـوت ويبقـى خالـداً، وكانـت تلـك الجلـود موضوعـة في سـلة يحملهـا كلـب في فمـه، وفي طريقـه وهـو ذاهـب ليعطـي الجلـود للإنسـان رآه الثعبـان فسـأله مـاذا تحمـل في السـلة فأخـبره بالأمـر، وهنـا تنبـه الثعبـان لأهميـة الأمـر وتتبـع الكلـب حتـى شـاهده يسـتلقي تحـت ظـلال شـجرة، فتسـلل إليـه وسرق الجلـود واسـتبدل جلـده ليصبـح خالـداً.

وهنا يكمن التشابه بين الفكرة الأفريقية وبين فكرة العراقيين القدماء القائمة على غدر الأفعى بالإنسان، ففي العراق القديم قام الثعبان بسرقة نبتة الحياة من الملك السومري جلجامش بعد صراع مرير خلال بحثه عن الخلود، إلا أن الثعبان كان قد حضي بدور المظلوم لدى الهة البابليين القدماء، فحينما وقع الظلم على الثعبان تحرك الإله شمش وساعده ، فتروي الأساطير البابلية أن هناك ثعبان كبير ونسر يعيشان بسلام، الأفعى على ساق شجرة والنسر على قمتها، وأقسموا أغلظ الإيمان على أن لا يغدر أحدهما بالآخر، وخلال عيشهما أنجب كل منهما ولداً، وفي يوم ما دب الشر في قلب النسر فقال لولده إنه يشتهي ان يفترس ابن الثعبان ثم يهجر الأرض ويسكن في السماء، فذكره ولده بقسمه وبعقاب ربه إذا فعل فعلته لكنه لم يستجب وفعلها، وحينما عاد الثعبان ولم يجد ولده توجه بالدعاء إلى إلهه شمش فاستجاب له؛ لأنه عز عليه أن يحنث النسر بقسمه باسمه، فعلم الإله الثعبان طريقة الانتقام عبر قتله لثور بري ومن ثم بقر بطنه والاختباء بداخلها حتى يحط النسر على جثة الثور ليأكل فيقوم بأكله والانتقام منه.

فضلاً عن ذلك؛ فقد زادت الفكرة اليهودية عن الثعبان عما جاء به الأفارقة عبر شيطنتها؛ فالفكرة اليهودية قائمة على أن الأفعى هي من أوحت لحواء بالأكل من شجرة الحياة ليتم طردها وسيدنا آدم عليه السلام من الجنة، ففي سفر التكوين: «**فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك**».

وبالعـودة إلى رمزيـة الثعبـان لـدى الأفارقـة، نلاحـظ أن فكـرة تقديـس الثعبـان في أفريقيـا جنـوب الصحـراء جـاءت مـن مسـألة الخـوف منـه كونـه خالـد ولا يمـوت، وهـو في نفـس الوقـت قاتـل وقـوي، كمـا أن ذلـك الخـوف ممـزوج بالكراهيـة كونـه

هـو مـن سرق الجلـود المرسـلة مـن قبـل الإلـه للإنسـان، وأمـام كل ذلـك حـاول الأفارقـة القدمـاء أن يتقربـوا لتلـك الأفاعـي بالقرابـين، فقـرر أبنـاء إحـدى قـرى غرب أفريقيـا ولاسـيما الواقعـة في الجنـوب والقريبـة مـن خـط الاسـتواء والتـي لـم تذكـر المصـادر -وحتـى القائمـة منهـا عـلى أسـاس عـرض الروايـات الاسـطورية- اسـم تلـك القبيلـة، قـرر أبناؤهـا أن يقدمـوا في كل عـام فتـاة جميلـة للثعبـان، وتقـول الروايـة أن الإلـه الثعبـان (واجادوبيـدا) كان يقـوم بحمايـة السـونينك في غانـة ويعمل عـلى زيـادة ثرواتهـم في مقابـل ثمـن رهيـب كانـوا يقدمونـه عـن طيـب خاطـر في احتفـال صاخـب يقـام كل عـام ، إذ يتـم اختيـار اجمـل الفتيـات لتقديمهـا قربـان للثعبـان.

وأشـارت تلـك الروايـة إلى أن فتـى شـجاع في تلـك القريـة قتـل ذلـك الثعبـان حينمـا وقـع الاختيـار عـلى حبيبتـه التـي تُدعـى (ضيـا)، ففـي ليلة مـا دبـر الشـاب (عمادو) -وهـو شـاب قـوي ومـن المحاربـين الشـجعان في عاصمـة غانـة- خطـة للتخلـص مـن الإلـه الثعبـان، لاسـيما بعـد أن وقـع الاختيـار عـلى حبيبتـه، فأعلـن ذلـك الشـاب رفضـه لتلـك العـادة الهمجيـة، وحـاول إنقـاذ حبيبتـه لكنـه جوبـه بالرفض مـن قبل الجميـع، فقـرر تدبـير خطـة لقتـل الثعبـان فتسـلل ليـلاً إلى الغابـة المقدسـة، ودخـل إلى الكهـف المقـدس الـذي يتخـذه الإلـه مسـكناً، فاسـتل سـيفه وضربـه ضربـة قاصمـة أطاحـت برأسـه، الـذي طـار في الهـواء لمسـافة بعيـدة حتـى سـقط في مدينـة (بامبـوك) التـي اصبـح ترابهـا في الحـال مـن الذهـب الخالـص، والغريـب في الأمـر أن الثعبـان بعـد قطـع رأسـه لـم يسـقط عـلى الأرض وإنمـا ظهـرت لـه رأس جديـدة سرعـان مـا أطـاح بهـا سـيف عمـادو، وطـارت تلـك الـرأس الثانيـة لتسـقط في مدينة (بـورى) والتـي امتـلأت بالذهـب بعـد أن سـقط الـرأس عـلى أرضهـا، وهكـذا اسـتمر الحـال حتـى قطـع عمـادو الـرأس السـابع للإلـه الثعبـان فسـقط عـلى الأرض ومات، ليلتقـط الفـارس حبيبتـه ويهـرب بهـا إلى مـكان لـم يـره أحـد بعدهـا مـن قبيلتـه ، كمـا أن تلـك الروايـة ظهـرت في مؤلـف آخـر عـلى أن شـخصية عربيـة تُدعـى (أبـا يزيـد البغـدادي) والمعـروف باسـم (بايجيـدا)، وهـو ابـن أحـد ملـوك بغـداد تمكـن مـن القضـاء عـلى الثعبـان الـذي كان يسـيطر عـلى السـكان ويمنعهـم مـن ميـاه البـئر الوحيـدة في القريـة، وقـد اسـتقر ذلـك الرجُـل في تلـك القريـة بعـد قتلـه ذلـك الثعبـان.

وتتبـع الأسـطورة تلـك الروايـة بـشرح مصـير تلـك المنطقـة التـي قُتـل فيهـا الإلـه الثعبـان والدمـار الـذي حـل فيهـا، إذ حـل الحـزن بـين السـوننك وبقـوا يبكـون

لعدة أيام عسى أن يعود الإله مرة أخرى، وسرعان ما جفت الأرض وانتشرت المجاعة، وتحولت الأشجار والنباتات إلى جحيم، حتى إن السكان اضطروا لمغادرة البلاد والهجرة كُل إلى اتجاه مُعين.

ويبدو مما سبق، أن المعتقد الديني القائم على تقديس الطوطم المتمثل بتلك الأفعى والتي حلت فيها روح الإله نمت وتطورت بدعم من رجال الدين الوثنيين والذين سيطروا على عقول الناس عبر إقناعهم بأن الأفعى هي من تمنح الناس الصحة والعافية والرزق، وهي مصدر بركة وخير وزوالها يعني الخراب والدمار، كيف لا وهم –رجال الدين– من سيجنون أرباح فكرتهم تلك من خلال إقناع الناس بتقديم القرابين لتلك الآلهة، والتي في حقيقة الأمر لا تملك نفعاً ولا ضراً.

والربط بين تدهور الأوضاع الاقتصادية وانهيار البلاد وبين قتل الثعبان وارد في الكثير من المدن الأفريقية؛ فقد جاءت الأسطورة لتقول لنا إن خوف الأفارقة من الأفاعي وتقديسهم إياها تم بعد قيام مجموعة منهم بقتل الثعبان الذي كان يعبده أجدادهم، بعد أن ضجروا من بطشه بهم، إلا أنهم ندموا بعد قتله؛ لأن محاصيلهم الزراعية تأثرت وتوقف سقوط المطر، وانتقلت مناطق الذهب إلى الجنوب، وربط أبناء القرية بين قتل الثعبان وكل الكوارث التي حلت فيهم في إشارة إلى تأليه الثعبان في نظرهم.

ويشير المؤرخ والجغرافي البكري في كتابه المسالك والممالك إلى قيام الناس في إحدى قرى غرب أفريقيا بتقديم أرقى الملابس وأجود أنواع الألبان للثعبان الإله، وتوضع تلك القرابين أمام المغارة التي يسكنها الثعبان ضناً منهم أنه سيخرج ويأخذها بعد رحيلهم من أمام المغارة، كما عمد السحرة والكهنة على إقناع الناس بضرورة إشراك الثعبان في اختيار حاكم جديد بعد موت حاكم البلاد؛ إذ كان سكان مدينة زافون يعبدون «**ثعباناً عظيماً له عرف وذنب ورأسه كرأس البختي**»، وكان لهذا الثعبان مكانة كبيرة في حياتهم، من خلال إشراكه في عملية اختيار حكام البلاد، والمتمثلة في جمعهم لأولاد الحاكم المتوفى في مكان تواجد ذلك الثعبان، فيتقرب منهم الواحد تلو الآخر، وحينما يلامس أحدهم يصبح ذلك الشخص هو الحاكم القادم، ويقوم بإتباع الثعبان وهو عائد إلى مغارته ويقطع من ذنبه أو عرفه شعرات، فيحكم بعدد ما قطع منها ، وهي سنَة

متبَعة لديهم، وينتقد مؤلف مجهول ذلك الفعل لسكان المدينة بقوله: «**أن هذه الفتنة فيهم إنما هي لان الثعبان يُعَمر حتى يزيد على ألف سنة ولأن عقولهم في غاية الركاكة**».

ويبدو أن ذلك الثعبان قد سحب السُم من فمه وهو ما ساعد الفائز بالمنصب من مد يده على فم الثعبان، كما أن الشعرات تؤكد أن الثعبان معمر لدرجة ظهور شعرات حول فمه.

وحينما يذهب سكان بلدة زافون إلى المغارة التي يتواجد فيها الثعبان لغرض تقديم القرابين فإنهم يتكلموا بكلام غريب؛ وهي ترانيم دينية لا يفهمها أحد غيرهم، ويصفروا تصفير عالي حتى يخرج إليهم الإله الثعبان، وذلك الفعل تعلموه من آباءهم والتزموا به ولا يجرأ أحد منهم على تركه أو الاعتراض عليه، وعد مؤلف مجهول ذلك الفعل مكيدة تعمد من اقنع السكان باتباعها إلى أن يضمن امتثالهم واحترامهم له عبر زرع الخوف في قلوبهم وابقاءهم في الظلمات.

وفي عاصمة دولة غانة التي أطلق عليها بعد إسلامها اسم (كومبي صالح) كان للإله الثعبان دور كبير في تخويف العامة لصالح الملك ولاسيما قبل إسلامهم، وقد لعب الكهنة دور كبير في ذلك التخويف عبر بث الدعايات من الجزء الذي يعيش فيه الملك وحاشيته والمسمى بالغابة، ودارت حول تلك الغابة العديد من الروايات المخيفة والتي كان القصد منها تخويف العامة من بطش ذلك الملك بأعدائه، كما أنها كانت تشير إلى أن الإله الثعبان كان موجوداً في ذلك المكان، ويعيش في كهف مظلم مقدس في تلك الغابة.

ومسألة الخوف من الثعبان سيطرت على فكر الأفارقة ومشاعرهم، فالسكان في إحدى قرى الزغاوة، كانوا لا يقتربون من كهف يقع في أعلى جبل لونيا في أرض الزغاوة من بلاد السودان بسبب وجود ثعبان في ذلك الكهف، مدعين أن كل من اقترب من الكهف ودخل إلى داخله من دون دراية التقمه ذلك الثعبان، ومن ضمن ما قاله السكان عن الجبل الذي يضم الكهف أن فيه ثعابين قصار، وأُخر ذوات رأسين.

والخوف من الثعبان ليس وليد زمن أو مكان محدد، وإنما هو موجود في تراث كثير من الشعوب، وربما يكون للقرب الجغرافي بين بلاد السودان وجزيرة العرب دور في تبني كلا الجانبين لذلك التقديس، فعرب الجاهلية كان يبتعدون

عن قتل الثعابين ويعدون كل عملية قتل سيتبعها انتقام من قبل الجن الذي سيأخذ بثأر الأفعى من القاتل، ولهذا كانوا يأخذون روثة ويفتتونها على رأس الثعبان المقتول ويقولون: «روثة راث ثائرك» حتى يذهب انتقام الجن. وقد يذر على رأس الثعبان رماد، ويُقال لها: فتلك العين ثائر لك.

لقد بدأ الأفارقة بعبادة الحيوانات كالأفاعي؛ لأنهم وجدوها قريبة الصلة بالإنسان، ولها أرواح كأرواح البشر، إلا أن بعضها شرير لذا كانوا يمتنعون عن اقتناصها أو أكل لحومها، ويتخذون من الشعائر ما يكفل استبعاد أذاها، أو لاعتقادهم أن أجدادهم الأولين منحدرين منها، وكانوا يضعون أمام ذلك الثعبان نفيس الثياب والمتاع، وجفان الطعام وعساس اللبن والشراب، ويُعد هذا الأمر غاية في التخلف. إذ يذكر محمد بيلو عند كلامه عن إقليم برنو بقوله: «**حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم اليوم مواطن يركبون إليها، ويذبحون لها، ويرشون الدماء على أبواب قريتهم، ولهم بيوت معظَمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها**»، وهي عادة عرفها سكان غرب أفريقيا أيضاً، ولهم فيها قدم وقد أشارت إلى ذلك العديد من المصادر والمراجع.

ويبدو أن حقيقة عبادتهم للثعبان تعود إلى كونها خطرة جداً؛ إذ لم يكونوا ليسلموا منها هم وحيواناتهم، لاسيما وأنها كانت كبيرة الحجم بحيث تتمكن من ابتلاع إنسان بأكمله، وبعد أن تعمر تلك الأفاعي تذهب إلى الكهوف وتبدأ أسنانها بالسقوط، كما أن حالة الخوف تلك كانت قد أوصلتهم إلى الحد الذي يعتقدون فيه أنهم إذا ما مشى أحدهم على أثرها فسوف يموت، وإذا قُتلت، وأمسك القاتل بما قتلها به من عود أو حربة في يده ولم يُلقِها بسرعة فسيموت.

وخلاصة القول إن تحريم قتل الثعبان بقي حتى لدى بعض القبائل المسلمة كونه راسب وثني قديم توارثته القبيلة منذ وثنيتها، ويذكر الكاتب الغيني (كامارالاي) أن والده منعه من قتل حية كانت تسعى في فناء الدار؛ لأنها تدر الرزق ولها صلة بالأجداد.

ويحدد العمري أماكن سكن عُباد الافاعي في أفريقيا جنوب الصحراء حينما وصف حدود ممالك المسلمين بقوله: «**ممالك الإسلام واقعة بحمد الله في أحسن المعمور شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، لأنها لاتنتهي إلى غاية الحرارة المفرطة ولا إلى غاية البرد المفرط، إلا فيما قبل، ولا يخرج عن**

حد المستطاب (...) فغاية معمور الجنوب مساكن السودان من عباد النيران والأصنام، بما تغلغل من جزاير الهند وأطرافه، والنصارى بأطراف الحبشة، وعباد الحيات والهمج في سودان المغرب جنوب غانة».

وهناك من الأفارقة من يقوم بأكل الأفاعي؛ ففي مملكة مالي ، يشير ابن فضل الله العمري نقلاً عن الإمام أبو عبد الله محمد بن الصائغ الأموي، والذي بدوره نقل المعلومة عن الوزير أبو عبد الله محمد بن زانغوه إلى أن هناك قوم من السودان لا يقدسون الأفاعي؛ بل يقومون بأكل لحوم الثعابين والأفاعي؛ إذ ليس ببلادهم نبات ولا مرعى.

وظهرت صورة الثعبان في كتابات بروكلمان حينما مثلها في شكل البحر الأحمر، وهو الجهة المحيطة ببلاد السودان من جهة الشرق؛ إذ يشير إلى أن البحر الأحمر شكله يلفت النظر وكأنه ممتد من الشمال نحو الجنوب على هيئة ثعبان منتصب ذي قرنين، أما باقي جسمه فإنه البحر العربي؛ فقد كان أرضاً في الأصل، خسفت على هذه الصورة في الزمن الثالث من الأزمنة الجيولوجية. وفي بلاد النوبة ، ولاسيما في منطقة الواحات يوجد ثعبان يصفه المؤرخ الإدريسي بأنه «**يرى كالتل الكبير يلتقم العجل والكبش والإنسان وهو حيوان على صورة الحية ينساب على بطنه وله أذنان بارزتان وأنياب وأسنان وحركته بطيئة ويأوي إلى الكهوف والدهاس فمن قصده أو اعترضه بمساءة التقمه وأمضى عليه ولا يخرج عن هذه الارض إلا ويموت وهذا مشهور الذكر عندهم».**

وبسبب كون الثعبان إله أو ممثل له أو حتى طوطم حلت فيه روح أجداد القوم، فعليه حماية اتباعه والدفاع عنهم بنفسه أو من خلال استخدام سمه في مقارعة الأعداء؛ فقد استخدم بعض السودان الثعبان في تخويف أعداءهم والحصول على ما يريدون من الآخرين؛ إذ عمد سكان بلدة (قوقو) التابعة لغدامس الذين وصفوا بأنهم أشر السودان، عمدوا على الإفادة من سم أفعى صفراء في غمس نبالهم في ذلك السم حتى يصبح مميت لامحالة؛ إذ يؤدي السم إلى إذابة لحم الشخص الذي أصابه السهم عن عظمه، وفيما عدا ذلك الثعبان الأصفر الذي يتقونه ويخافون من سمه فهم لا يأبهون بسموم باقي الثعابين والحيات.

ومن الأمور التي يفعلها بعض سكان بلدة (قوقو) أنهم يستخدمون عصا مثقبة بثقوب غير نافذة يصفرون فيها بطريقة تخرج على إثرها جميع الحيات؛ فيأخذونها ويأكلونها وبعضهم يلفها على خصره كما يلف الحزام وأخرين يضعون الطويلة منها على رقابهم ويخفونها تحت الملابس فإذا ما دخلوا السوق أخرجوها ورموها أمام الناس ليحصلوا على ما يريدون من أموال وبضائع ومن يرفض اعطاءهم شيء رموها في دكانه.

كما تم استخدام الثعبان في حماية مناجم الذهب من اللصوص والطامعين فيها؛ فقد اقنع تجار الذهب الجميع، ولاسيما في المناطق القريبة من بحيرة كوري بأن الجبل الموجود قرب البحيرة والذي فيه ذهب كثير لا أحد يستطيع الاقتراب منه لكثرة الثعابين والوحوش فيه، كما أشار المؤرخ محمد بن الحسن الوزان إلى وجود عدد كبير من الحيات والوحوش في الصحراء الأفريقية؛ وذلك لأن البيئة الصحراوية كفيلة بوجود تلك الأعداد الكبيرة منها. ومن بين أساطير شعب الدوغون والتي كان للثعبان دور فيها، قصة ابن آوى الذي رفع تنورة أمه الأرض وارتكب معها الخطيئة ووقعت الدماء على التنورة، فما كان من الأرض إلا أن تغسلها وتنشرها على كثيب من الرمل لتنشف، وخلال ذلك مرت امرأة من هناك وشاهدت التنورة وسرقتها لترتديها وتصبح ملكة في بلادها، وحينما علم رجال القرية بذلك هاجموا تلك المرأة وأخذوا منها التنورة وارتدوها، وأصبحوا هم الملوك ومنعوا النساء من ارتداء التنورة، ويبدو أن أحد رجال القرية المسنين لم يكن على علم بسرقة التنورة، وعدم إبلاغه بسرقة التنورة عاد على البشر بالعقوبة.

وعندما مات ذلك المسن تحول إلى روح (Nummo) ولم تصعد تلك الروح إلى السماء وإنما بقت على الأرض على هيئة ثعبان كبير، وفي يوم من الأيام حاول شباب القرية الدخول إليها وهم يرتدون التنورات إلا أن الثعبان منعهم ووبخهم لارتدائهم التنورات، وتكلم معهم ذلك الثعبان بلغة البشر وليس بلغة الروح ليفهموا عليه وهو خرق آخر للنظام والتقاليد؛ إذ كان يتوجب عليه أن يتكلم بلغة الأرواح كونه روح واستخدامه لغة البشر قطع نفسه عن عالم الأرواح ولم يعد له مكاناً لا في السماء ولا في الأرض ومات، ووقع الثعبان ميتاً في الطريق إلى القرية فركض أطفال القرية ليبلغوا الكبار، والذين بدورهم لفوا الثعبان بالألياف وحملوا جثته إلى الكهف، وبقت روح الرجل المسن معلقة بين السماء والأرض حتى عثرت

علـى رحـم امـرأة ودخلـت فيـه، وحينمـا ولـدت تلـك المـرأة جـاء طفـل أحمـر اللـون شـبيه بالتنـورة الحمـراء ومرقطـاً مثـل الثعبـان، وحينمـا ولـد ذلـك الفتـى سـخر نفسـه لخدمـة السـلف الفانـي، وتـم إقامـة طقـوس سـنوية في القريـة لتقديـم القرابـين للثعبـان، وصنعـوا عـصى عـلى شـكل ثعبـان وبنفـس اللـون.

وكمـا أسـلفنا فلـم تنفـرد أفريقيـا بتقديـس الثعبـان؛ فقـد مثـل ذلـك الحيـوان لـدى أغلـب شـعوب العالـم رمـزاً للخـير أو الـشر، وهـو أحـد الرمـوز الأسـطورية الأقـدم والأكثـر انتشـاراً، والثعبـان في بعـض الثقافـات هـو رمـز الخصوبـة؛ ففـي أمريـكا الشـمالية يحتفـل السـكان برقصـة الثعبـان بشـكل سـنوي مدعـين أن احتفالهـم كان بسـبب وحـدة شـباب الأفعـى (روح السـماء) وفتـاة الأفعـى (روح العالـم السـفلي) وذلـك لتجديـد خصوبـة الطبيعـة؛ إذ تـم الاحتفـال باسـتخدام أفاعـي حيـة، وفي نهاية الرقصـة يتـم إطـلاق الأفاعـي في الحقـول لضمـان خصوبـة الأرض، ورقصـة الأفعـى هـي دعـاء لأرواح الغيـوم والـبرق والرعـد لتتسـاقط الأمطـار عـلى الأرض.

وفي ثقافـات أخـرى، ترمـز الأفعـى إلى الحبـل الـسري المرتبـط بـالأرض والتـي تجمـع كل البـشر، ورمزيـة الأفعـى مـن أجمـل الرمزيـات في حيـاة الإنسـان؛ فقـد أخـذت معانيهـا مـن مراقبـة الإنسـان للطبيعـة وهـو يشـاهد قـدرة الأفعـى عـلى تغيـير جلدهـا، فتبـدو للناظـر لهـا وكأنهـا ولادة جديـدة، ولهـذا أصبحـت رمـز للانبعـاث والخلـود، وبسـبب حركتهـا الملتويـة والتـي تمكنهـا مـن أن تلتـف عـلى غريمهـا لتخنقـه أصبحـت رمـز للقـوة، ونتيجـة لسـمها وشرهـا؛ فهـي ترمـز للطبيعـة الشريـرة، وقدرتهـا عـلى القتـل باللـدغ أو بالعـصر، ومـن ثـم الشـفاء جعلهـا عـبر التاريخ رمز للقوى الإيجابية والسلبية معاً.

وهنـاك قصـص أسـطورية في مـصر عـلى عهـد الفراعنـة تشـير إحداهـا إلى حـوار دار بـين رجـلُ ألقتـه الأمـواج إلى جزيـرة بعـد أن تحطـم مركبـه في البحـر الأحمـر فوصـل إلى تلـك الجزيـرة، وبينمـا هـو يبحـث عـن مخـرج ومنقـذ لـه أو طعـام يتناولـه لحـين الخـلاص مـن المـأزق وإذا بثعبـان كبـير جـداً -طولـه ثلاثـون ذراعـاً وهـو مغطـى بالذهـب وحاجبـاه بلـون الزبرجـد- يقـف أمامـه، فأنبطـح البحـار التائـه خوفـاً وإجـلالاً، فتقـدم الثعبـان إلى الرجـل وسـأله عـن حالـه ومـا أتـى بـه إلى جزيرتـه إلا أن الخـوف منـع الرجـل مـن النطـق والحـراك، فحملـه الثعبـان نحـو مغارتـه حتـى اسـتقر حالـه وأطمـئن، فأعـاد عليـه السـؤال فـشرح البحـار قصتـه

للثعبـان، فقـال الثعبـان للرجـل سـوف تعـود إلى بلـدك بعـد أربعـة أشـهر وتعيـش فيهـا حتـى تمـوت هنـاك فـلا تخـف مـن ضياعـك هنـا في جزيرتـي، وفعـلاً وكمـا تـروي الأسـطورة بقـى هنـاك حتـى اكتملـت الأربعـة أشـهر، فأكـبر الرجـل ذلـك الثعبـان، وقبـل الأرض بـين يديـه، ووعـده بـأن يذكـر ذلـك الثعبـان عنـد الفرعـون، ويقـدم البخـور والقرابـين باسـمه.

ويبـدو مـن خـلال الروايـة أنهـا تهـدف إلى تحبيـب الأفاعـي لـدى المصريـين القدمـاء ومنعهـم مـن قتـل الأفاعـي ومـن ثـم بيـان مكانتهـا في المجتمـع. وفي نفـس الوقـت الـذي امتـزج الخـير والـشر في رمزيـة الثعبـان لـدى الأفارقـة، لـم تكـن تلـك الفكـرة حكـراً عليهـم؛ فهـي تشـابه فكـرة المصريـين القدمـاء والقائمـة عـلى وجـود دوريـن للثعبـان الأول دور الخـير والثانـي الـشر؛ فهـو رمـز للبعـث كونـه يغـير جلـده. أمـا الـشر؛ فيظهـر في الثعبـان المتوحـش أبـو فيـس والـذي كان العـدو اللـدود للإلـه رع إلـه الشـمس وللإلـه حوريـس، وهـو يحـاول أن يمنـع الشـمس مـن الـشروق في كل يـوم، كمـا أن للهنـود الآريـون دور مماثـل للأفارقـة وبقيـة الأقـوام في تقديـس الثعبـان الـذي يطلقـون عليـه اسـم ناجـا.

الخاتمة:

في ختـام الـكلام عـن دراسـة رمزيـة الثعبـان في أفريقيـا جنـوب الصحـراء نسـتنتج عـدة قضايـا منهـا:

1. مسـألة تقديـس الثعبـان لـم تكـن حكـراً عـلى أفريقيـا جنـوب الصحـراء؛ بـل كانـت عمليـة التقديـس منتـشرة في أغلـب حضـارات العالـم القديـم.
2. التقديـس لـم يكـن لجسـد الثعبـان بشـكل مبـاشر؛ بـل هـو تقديـس للـروح التـي تسـكن ذلـك الجسـد.
3. الـروح التـي سـكنت جسـد الثعبـان كانـت للإلـه أو للجـد الأعـلى للقبيلـة، وهـي كبقيـة الأرواح المقدسـة مراقبـة للبـشر تكافئهـم عـلى الخـير وتعاقبهـم عـلى الـشر.
4. هنـاك فرضيـات اشـارت إلى أن تقديـس الإنسـان للثعبـان جـاء نتيجـة لخوفـه منهـا أو حقـداً عليهـا كونهـا سرقـت الجلـود التـي أرسـلها الإلـه للإنسـان.
5. تخويـف الرعيـة مـن الثعبـان جـاء مـن خـلال الفائـدة المشـتركة للحاكـم ورجـل الديـن، واللـذان عمـلا عـلى الإفـادة مـن تلـك المسـألة، فـالأول دعمـت حكمـه

وحافظت عليه والثاني من خلال جنيه للأموال والقرابين المقدمة للإله الثعبان.

6. الدليل على الفائدة المتحققة -من عبادة الأفارقة للثعبان- لرجل الدين الوثني، أن أغلب القرابين التي تُقدم لذلك الإله ليست ذات فائدة له؛ بل تعود بالفائدة الكبيرة لرجل الدين وأتباعه، فهو يحصل على اللبن الجيد والملابس الفاخرة والأطعمة والأبقار والأغنام التي يقدمها الناس للإله الثعبان.

شكل رقم (1): يوضح الطريق الذي تسلكه الأفعى في حياة الأفريقي وسيطرتها على كل المسالك

المصدر: ج. كي. زيربو، «الفن الأفريقي فيما قبل التاريخ»، مقال منشور في كتاب تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، 1980، مج.1، ص.679.

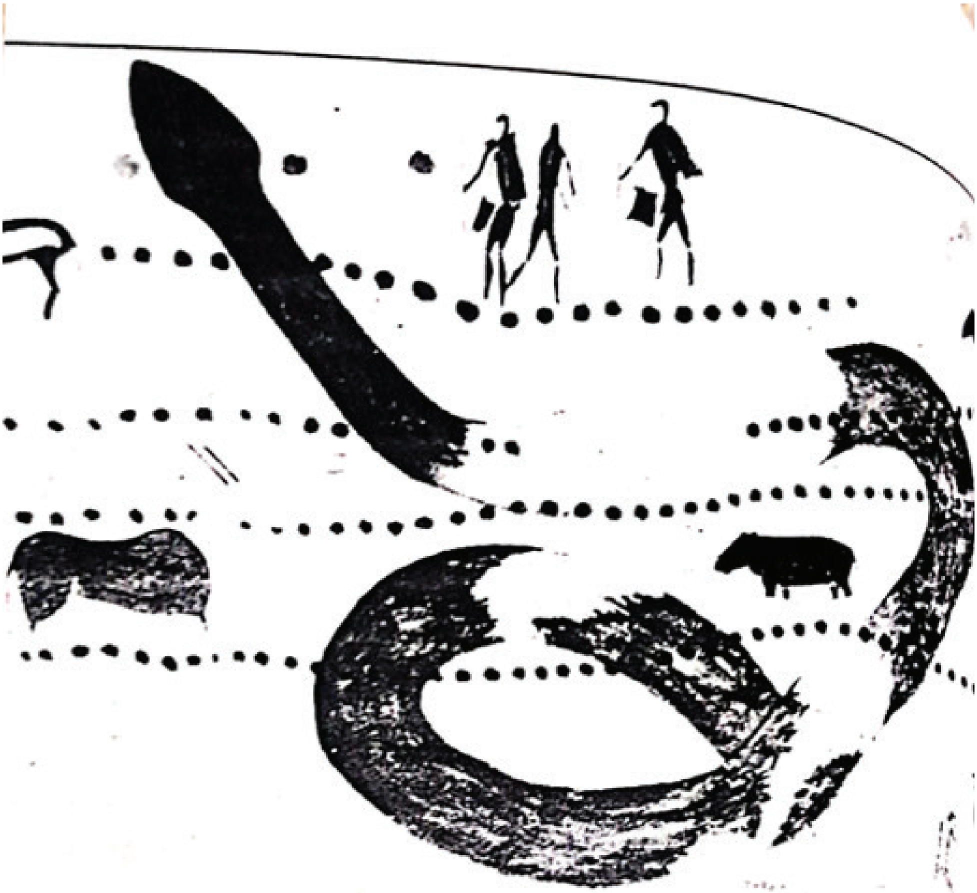

التراث اللامادي بالجنوب المغربي
الأمثال الحسّانية نموذجاً

د. الحسين حديدي

المقدمة:

تميز المجتمع الصحراوي بالمملكة المغربية، كغيره من المجتمعات العربية بصيانة التراث والاهتمام به والرقي بمستواه رغم عدم إيلائهم عناية بتدوينه، على اعتبار أن الثقافة الشفوية كانت السمة الغالبة على هذا التراث المتداول والمأثور بين العامة من أبناء البيضان ، ومن هذا التراث على سبيل المثال لا الحصر، الأمثال الحسانية ، التي تمثل جانبا مهما من التراث الشفوي اللامادي المغربي الأصيل الواجب صيانته من الاهمال والنسيان في زمن العولمة، والانفتاح على الحضارات والثقافات المختلفة، مما يهدد الموروث القيمي للمجتمع بالاندثار.

والجدير بالذكر تنوع التراث اللامادي بالجنوب المغربي الذي يضم عدة أصناف من موسيقى حسانية وصناعة تقليدية وأشكال فرجوية وألعاب جماعية، وكذا الحكايات الشعبية إلى جانب الأمثال الحسانية موضوع هذه الورقة البحثية، مما يوحي بأهمية هذا التراث الغني والمتجذر في تاريخ الصحراء.

فالغاية من حفظ الأمثال الحسانية هو توعية الناس بأهميتها، وأخذ المعاني والدلالات والعبر المراد استيعابها وفهمها من قول المثل الحساني، لما في هذه الأمثال من حكم وقيم معبرة وموجزة للكلام عن قضية ما، يلخصها المثل الحساني ويختزلها في كلمات معدودة، توحي للدارس والباحث النضج الفكري الذي كان عليه البدو في البيداء والحواضر في فترات تاريخية وإلى حدود الأمس القريب، حيث يتخذون من الأمثال الحسانية وسيلة لتوجيه فكرة ما أو تقديم نصيحة، أو التعبير عن حدث أو سلوك معين، إذ يمثل المثل الحساني أسرع وسيلة وأسماها في التعبير عن شيء ما، ويبين سرعة البداهة في الرد على المخاطب وإقناعه بالمثل الذي يشكل حجة بالغة ووسيلة للإقناع يصعب معها الحجاج.

فالذاكـرة الجماعيـة الصحراويـة تحفـظ لنـا العديـد مـن الأمثـال الحسـانية التـي تـم تداولهـا في عـدة قضايـا ومواضيـع ومواقـف، منهـا مـزال متـداولا إلى يومنـا هـذا بـين النـاس يسـتحضرونه في الحـل والترحـال وفي كل سـلوك وفعـل، ومنهـا مـا اندثـر وطالـه النسـيان وصـار في عـداد خـبر كان بفعـل الاهمـال وغيـاب ثقافـة التدويـن.

لقـد رصـدت الأمثـال الحسـانية طبيعـة حيـاة المجتمـع البيضانـي الحسـاني بمختلف صورهـا وتفاعلاتهـا، إذ سـلطت الضـوء عـلى مكانتـه وثقافتـه وتناولـت معتقداتـه الدينيـة وأعرافـه وتقاليـده وطقوسـه الاجتماعيـة، وعلاقتـه بالطبيعـة والحيوانـات والجمـادات والقيـم الانسـانية، التـي تحـدد علاقـة الفـرد بأخيـه الإنسـان وبوالديـه وزوجتـه وأبنائـه وأفـراد مجتمعـه ومحيطـه، وكشـفت لنـا عـن أهميـة الأخـلاق ومكانـة التحـلي بهـا في مجتمـع يسـتنكر السـلوكات المشـينة ويسـتحضر القيـم النبيلـة مـن شـجاعة وكـرم وحـب وإيثـار وحشـمة ووقـار...، ويمجـد العلمـاء ويحتفـي بالفنانـين ويقـدم الشـعراء ويجـزل لهـم العطايـا، ويرفـع مـن شـأنهم عنـد العامـة والخاصـة.

فرغـم بسـاطة الأمثـال الشـعبية الحسـانية، ومـا اتسـمت بـه مـن إيجـاز واختصـار الـذي يميزهـا عـن بقيـة الأمثـال، فهـي تعبـير بـكل بسـاطة عـن ذلـك الحـدث في الزمـان والمـكان الـذي نسـج شـخص مـا حولـه المثـل الحسـاني، فصـار بقـوة الفعـل مثـلا يـضرب بـه في كل حـادث أو سـلوك مشـابه، يختـزل الـكلام عـن الحـدث ويعـبر عـن ثقافـة بيضانيـة أقـرب مـا تكـون إلى الحفـظ والاختصـار، لغيـاب وسـائل التدويـن ربمـا أو لطبيعـة الظـروف الطبيعيـة والمعيشـية التـي كانـت تحتـم عـلى القـوم «أهـل الغيمـة» أن يرحلـوا مـن مـكان لآخـر بحثـا عـن العشـب والـكلأ للماشـية.

إن مـا يميـز المثـل الحسـاني عـن غـيره مـن الأمثـال الشـعبية الأخـرى، هـو تضمنـه لكلمـات معـدودة معـبرة وأقـرب إلى المعنـى المـراد التعبـير عنـه، مـن أقـرب طريـق دون الحاجـة إلى الـكلام الكثـير، فضـلا عـن روعـة التشـبيه ودقـة التعبـير التـي تـترك في نفـس المتلقـي أثـرا، وتطـرب الأذن بسـماعه، وتأثـيره في سـلوكات الأفـراد والجماعـات لمـا ينطـوي عليـه المثـل الحسـاني مـن جميـل العبـارات وعمـق المعانـي والـدلالات، وحسـن البديـع والتـوازن في الكلمـات، فتتداولـه النـاس حفظـا وتوجيهـا واسـتدلالا في كل المواقـف والأحـداث، ويفخـرون بتناولـه واسـتحضاره في مجالسـهم الفكريـة واجتماعاتهـم وغالـب شـؤون حياتهـم اليوميـة.

ويذهب الباحث لغلى بوزيد إلى القول بأن: «للأمثال الشعبية الحسانية أهمية كبرى في حياة المجتمع الصحراوي، فهي تنطوي على الكثير من المبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية والأنماط السلوكية، وتقدم قواعد للتصرف والمعاملة، كما تعين بعض أساليب التدبير والتسيير في مواجهة صعوبات العيش والحياة « .

وللتأكيد على أهمية الأمثال الحسانية نسوق أمثلة حية عن قيم المجتمع البيضاني، قيلت فيها أمثلة لازالت متداولة إلى يومنا هذا، تختزل أهمية هذه القيم الاجتماعية وترسخ لدى الفرد والمجتمع واقع التعامل معها وتوعيتهم بأهميتها في نمو شخصيته ومكانته، وكونها من خبايا التنشئة الاجتماعية التي لا يمكن في يوم من الأيام تغييرها والتنصل منها، مثل قيم القوة والشجاعة والكرم والحلم، والتكافل والصدق والوفاء...، وغيرها من القيم السامية التي تحدد ثقافة الانسان ومرجعيته الاسلامية، ولا بأس بذكر بعضها مع شرحها ومنها:

1. أمثال حسانية عن قيم الذكاء وعمق التجربة:

للاستدلال مثلا على الذكاء والفطنة في شخص ما كيفما كان نوعه يقال المثل الحساني التالي: «**أَفْلانْ أدْرسْ مـن لَكْْنافيـد**»، تشبيه بليغ على ما يتمتع به هذا الرجل من ذكاء ورجاحة عقل مثل القنفد تماما، فبدل أن يقول فلان ذكي، يضرب المثل الحساني بالقنفد للدلالة على المعنى المراد التعبير عنه. وللتأكيد على عمق التجربة والرزانة وأهميتها في الحياة وفي اتخاذ القرارات وعدم التهور والتبصر في الأمور قبل الاقدام عليها يضرب المثل الحساني: «**إشوف الشيباني لْتاكي ما شافْ الشابْ الواكَْفْ**» ومعناه أن الرجل المسن راكم من التجارب في الحياة ما يجعله أدرى بمصالح المجتمع والأفراد، وبإمكانه الحكم في قضايا المجتمع حتى ولو كان طاعنا في السن أكثر من الشاب القوي المتمتع بصحة جيدة الذي لم يمر بعد من تجارب كافية في الحياة تؤهله للنظر في القضايا الاجتماعية بتمعن وتبصر، فيكون موقفه عادة متهورا وحكمه خاطئا متسرعا، ورأيه أحادي النظرة ضيق التفكير، وعليه يستحسن حسب المثل الحساني أخذ مشورة الأشخاص المسنين في عدد من القضايا الاجتماعية التي تتطلب عمق التجربة، لما راكموه من تجارب ومواقف واستوعبوه من دلالات ومعاني في حياتهم، أهلتهم لأن يأخذو القرارات الأنسب والأنجع في غالب الأحيان.

وكما هو الحال مع الرجل المسن في ما راكمه من تجارب مكنته من معرفة الحياة وكيفية التعامل معها، لا يمكن الاستهانة بتجارب المرأة الصحراوية في الحياة خاصة منهن من تقدم بها سن الزواج فأصبحت أكثر نضجا واستيعابا لمسؤولية البيت ومشاغله، وأشد صبرا على مشاكل الحياة الزوجية وتمسكا بالروابط الأسرية من غيرها من الفتيات والنسوة وإن كن أصغر منها سنا وأشد جمالا، قد لا يصبرن على الحياة لكونهن لم يراكمن بعد من التجارب والأفكار عن بيت الزوجية ما يكفي، ولذلك يضرب المثل الحساني: «**الـلّْي بْغَا هَمُو إيجِيبْهَا كـدْ أمُّـو**»، كناية عن ما راكمته الفتاة التي دخلت الثلاثين أو الأربعين من أفكار ومعارف عن الحياة الزوجية.

2. أمثال حسانية عن قيم الكرم والبخل:

يمثل الكرم إحدى القيم النبيلة التي يتحلى بها مجتمع البيضان، ويتفانى الناس في إظهاره في كل المناسبات والعناية بالضيف والإيثار ولو كانت بهم خصاصة، وتنعت الأسرة الكثيرة الكرم في التداول المحلي «**الخيمة الكبيرة**» أو «**لَخيام لَكبرات**» إذا تم الحديث عن عدة أسر اشتهرت بالكرم، ويفتخر رب الأسرة بهذه الخصلة وهذه المكانة التي حث عليها الشرع الاسلامي الحنيف في عدة آيات وأحاديث نبوية، وزكاها الشعر العربي في عدة قصائد شعرية، وتناولها الشعر الحساني ومنه البيت التالي:

حـــدْ امْـعَدَّلْ خبـْرُ تَـشْـتَـدْ ْ * واللـِّي عـــدَّلْ كامــلْ يرْتَــدْ**

وعليه فلوصف شخص ما بهذه الخصلة النبيلة ونعته بها كان يضرب المثل الحساني:» **أفْـلانْ أكْـرم مـن حاتـم**» لما عرف عن حاتم الطائي تاريخيا من كرم وسخاء مع الضيوف، فهذا المثل كان يزكي ويؤكد ما عليه شخص ما من السخاء والكرم.

بالمقابل نفر الإسلام من البخل وحذر منه في عدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية، منها قوله تعالى: «**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**» لما له من أضرار على الفرد والمجتمع، ولأن البخيل لا يساهم في مشروع التكافل والتعاون والتواد والتراحم والتصدق الذي انبنى عليه المجتمع الاسلامي، والذي به تسمو البشرية وتصفو به القلوب

مــن أوحالهــا، «**خــذ مــن أموالهــم صدقــة تطهرهــم وتزكيهــم بهــا**» ؛ فقــد كان البيضــان ينبــذون البخيــل ويســخرون منــه ولا يقيمــون لــه وزنــا بينهــم، وتنعــت بيتــه وأسرتــه بــ «**الخيمــة الكَّصَيْفَــة**»، أي المنــزل الــذي لا يمكــن أن يــأوي الضيــف أو عابــر الســبيل، ومشــهود لصاحبــه بالبخــل الــذي ينفــر منــه القريــب والبعيــد، وفي مثــل هــذا الشــخص يــضرب المثــل الحســاني: «**أسْــمنْ مــن شــحمةْ كلــبْ**» فالكلــب مهمــا كان بدينــا لا تظهــر عليــه البدانــة مثــل الحيوانــات الأخــرى، وشــحمه لاينتفــع بــه لكراهيتــه ولكونــه ليــس مــن الأنعــام الحــلال، فكذلــك الانســان البخيــل لاتظهــر عليــه النعمــة ولا يســتمتع بمــا أنعــم اللــه عليــه بــه مــن عطايــا ونعــم، بــل همــه جمــع المــال واكتنــازه ولا يســتحضر قيــم الحــظ عــلى الانفــاق عــلى النفــس والأهــل والمحــروم والســائل، ولا يتحقــق فيــه قــول الحديــث: «**إن اللــه يحــب أن يــرى أثــر نعمتــه عــلى عبــده**» . وقولــه تعــالى: «**هَاأَنتُــمْ هَــؤُلَاء تُدْعَــوْنَ لِتُنفِقُــوا فِي سَــبِيلِ اللَّــهِ فَمِنكُــم مَّــن يَبْخَــلُ وَمَــن يَبْخَــلْ فَإِنَّمَــا يَبْخَــلُ عَــن نَّفْسِــهِ وَاللَّــهُ الْغَنِــيُّ وَأَنتُــمُ الْفُقَــرَاء وَإِن تَتَوَلَّــوْا يَسْــتَبْدِلْ قَوْمًــا غَيْرَكُــمْ ثُــمَّ لا يَكُونُــوا أَمْثَالَكُــمْ**» ؛ فالبخيل بهذا المعنى لا ينتفع من ماله ولا ينتفع منه غيره.

3. أمثال حسانية في الدفاع عن الكرامة وكراهية الجبن والتحلي بالشجاعة:

حــث الديــن الاســلامي الحنيــف عــلى التعايــش وقبــول الآخــر كيفمــا كانــت معتقداتــه، وحســن التعامــل معــه وعــدم الاعتــداء عليــه أو إذايتــه أكان مســلما أو كافــرا، بيــد أن الإســلام وضــع لهــذه العلاقــة حــدود، فكمــا أنــه دعــا للحــوار والتفاهــم والتعايــش ونبــذ العنــف، فإنــه رغــب وحــث عــلى الدفــاع عــن النفــس حالــة الظلــم والاعتــداء، وعــدم الســكوت عــلى الأذى وكراهيــة الجبــن، وفيــه يقــول الشــارع ســبحانه وتعــالى: «**ولا تعتــدوا إن اللــه لا يحــب المعتديــن**» وفي هــذا الجانــب يــضرب المثــل الحســاني: «**ألْعظّــكْ مــا عَظَّيْتُــو إشــكْ أنْــكْ بْــلاَ ســنَّيْنْ**»، ومعنــاه أن الــذي اعتــدى عليــك ولــم تدافــع عــن نفســك يظــن أنــك بــلا أســنان أي لا تمتلــك الشــجاعة والقــوة الكافيــة لأيقافــه عنــد حــده فيتمــادى في ظلمــه وجبروتــه، أمــا إذا ردعتــه ودافعــت عــن نفســك فســيكف عــن إذايتــك ويقــف عــن غيِّــهِ. ويزكيــه المثــل الحســاني القائــل في نبــذ الجبــن: «**المــوت فــرضْ والرَكّــة لاشْ**» معنــاه أن المــوت واحــد مهمــا تعــددت الأســباب، فالأحــرى أن يعيــش الانســان بكرامتــه ولا يستســلم للجبــن والخــوف مــن الآخريــن خشــية عــلى حياتــه مــا دام المــوت كأس كلنــا شــاربه، فعليــه أن

يطمح لحياة كريمة لايرضى فيها بالذل والجبن، ولله در الشاعر الذي يقول:

إذا كنت في أمر عظيم * فلا تقنع دون النجوم**

فطعم الموت في أمر حقير * كطعم الموت في أمر عظيم**

بل على الانسان أن يحترم ويُحترم ولا يظلم ولا يُظلم، وإن اعتدي عليه فعليه رد الاعتبار لنفسه أو الصبر واحتساب الأجر عند الله وليس الخوف لقوله تعالى:» وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» ، ومنه أيضا قول المثل الحساني: «**ولد النَّعْجَة يوْكْلُ الذِّيبْ**» نظرا لما عرف عن النعجة وهي أنثى الخروف من الخوف والرهبة وعدم القدرةعلى الدفاع عن النفس، فابنها لاشك أنه عرضة للذئب ولقمة سائغة عند مفترسيه، كالجبان الذي لا يقل شأنا عنه لكونه لم يتربى على الشجاعة ولم يألف سوى الجبن والذل.

بالمقابل تحث مجموعة من الأمثال الحسانية على التحلي بقيم الشجاعة والغلبة والفروسية وإظهار القوة والافتخار بالمعارك والبطولات والردع للمتطاول المعتدي، وفيه يضرب المثل الحساني: «**الِّي أخُوتُو فلْغَزِّي ما يبْتَطْ فْلَخْيامْ**»، ومعناه أن الشخص الذي ينتمي لقبيلة قوية ولها تاريخ في الجهاد والحروب (الغَزِّي) ومهابة عند الأخرين لايمكن أن يُعتدى عليه في أي مكان حل به، لأن الناس الذين يعرفون نسبه وأهله يدركون خطورة التعدي عليه لأن وراءه من يدافع عنه ويثأر له.

4. أمثال حسانية عن نبذ الاستغلال والأنانية والاعتراف بالجميل:

وفي مجال الاستغلال والأنانية التي يرفضها الدين والمجتمع والفطرة يضرب المثل الحساني: «**الِّي انْشَرْ لَكْ طَرْفوا لا تَكْعَدْ عْلِيهْ**» بمعنى الذي تفانى في مساعدتك وقدم لك ما في يديه واحتفى بضيافتك فلا تستغله أكثر من اللزوم، ويزكيه المثل الحساني التالي: «**خوك إلى عاد غسلْ لا تلحْسو كَامِلْ**» معنى أن صديقك إذا كان طيب القلب لين الجانب ولا يرد لك طلبا فلا تثقل كاهله بأغراضك، ولا تتبعه بمطالبك ولا تؤذيه وتقلل من شأنه حتى لا ينفذ صبره وتتحول طيبوبته إلى كراهية ومرارة وينفر منك، بل عليك أن تقدر

صداقته وتحترم كينونته ومشاعره وكرامته حتى تدوم العلاقة وتثمر، فكم من شخص فقد أصدقاءه بقلة احترامه وسلوكاته وأخلاقه المشينة ومطالبه التي لا تطاق.

5. أمثال حسانية عن النصح والارشاد:

يمثل النصح والارشاد إحدى ركائز المجتمع المتماسك والأسرة القوية، فبدون النصيحة والتوجيه تختلف حياتنا وتنكسر شوكتنا وتذهب ريحنا، «**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**»؛ فالدين النصيحة كما قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وعليه يحبذ أخذ نصيحة الإنسان الموثوق من دينه وأخلاقه ونبله، ولو كان قاسيا في تقديم النصيحة، لأن اهتمامه بك وحرصه على سلامتك ورقي مجدك يقدم لك النصيحة بنوع من الحرقة والقسوة، وفيه يضرب المثل الحساني: «**أَوْخَضْ كلامْ لَمْبكِيكْ لا تَكْبَضْ بَكْلامْ لَمْضَحْكَكْ**»، وتفسيره أن الذي قسى عليك في النصيحة هو من يخاف عليك ويريد لك الخير، وتجرأ على ارشادك وتوجيهك أكثر ممن كان يمزح معك ولا يهتم بمستقبلك ولا يتعهدك بالنصح والإرشاد، وربما زين لك أعمالك السيئة، وهذا الشخص يحذر المثل الحساني منه لأنه لا خير يرجى من وراء مجالسته.

كما يستفاد من النصيحة معرفة صاحبها جيدا والتأكد من نيته ومدى مطابقة أفعاله أقواله، وفيه يضرب المثل الحساني: «**اللِّي رَيَّ عْليكْ خَرَّصْ رَكْبَتْ مْراحُو**»، ومعناه من قدم لك نصيحة فتمعن في سلوكاته وأفعاله وهل هو أهل للنصيحة أم لا، وهل ما يقدمه لك من مشورة ورأي يوافق سلوكاته وأفعاله، فمثلا لا يمكن أخذ نصيحة المنافق الذي يدعو إلى أمر ويأتي سلوكا ضده، كمن يريد إصلاح بيته وأحوال عائلته وهو ليس أهلا للإصلاح لأخلاقه السيئة، وفيه يقول الشاعر:

إذا كان رب البيت عازفا * فشيمت أهل البيت الرقص**

فماذا تنتظر من شخص لايعمل بالنصائح وهو أحوج الناس لها في أن ينصح غيره بالعدول عن سلوك معين، كالرويبضة العالم التافه الذي حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم يفتي في أمور العامة وهولا يدري خطورة ذلك. فالمثل الحساني هنا لا يمنعك من أخذ نصيحة الأخرين ولكن ينبهك إلى أخذ نصيحة الانسان المستقيم، المشهود له بالورع والصدق والتقوى.

6. أمثال حسانية في الجد والاجتهاد والاعتدال في الأمور:

تدعو الثقافة الحسانية كغيرها من الثقافات العربية والإسلامية إلى الحزم والجد والاجتهاد، ونبذ الكسل والخمول والتهاون في الأمور، وفيه يضرب المثل الحساني: «**المسألة ألا محْبوكة ولاَّ مَتْروكة**»، ومعناه رفض التسويف في قضاء الأمور والحرص على القيام بها في وقتها، أو تركها، ويقابله المثل العربي لاتؤجل عمل اليوم إلى الغد فإن للغد عمله» فالحث على الإسراع في تنفيذ العمل وعدم اهماله من الأمور المحبذة عند البيضان، فخير البر عاجله، وهودليل على الحزم والاجتهاد الذي يجب أن يتحلى به كل فرد. ومنه أيضا المثل الحساني القائل: «**الوَعْيانْ بكري بَذْهَب مَشْري**» يستفاد من هذا المثل حثُّ البيضان أبناءهم على الاستيقاظ باكرا، لقضاء أمورهم الدينية والدنيوية قبل أن يمر عليهم النهار ويمضي عليهم الوقت سريعا.

وفي مجال الإعتدال وعدم الإفراط أو التفريط يضرب المثل الحساني: «**العَين لاَتْخَطَّاتْ حاجبْها اخسرْ واجبها**» بمعنى أن الشيء إذ فات حده إنقلب إلى ضده مثل العين إذا تجاوزت مجالها وتخطت منطقة الحاجب صارت عيبا، فكل أمر تجاوز حده صار عيبا وخللا يؤدي متاعب لصاحبه، وعليه فالتوسط والاعتدال من الأمور المقبولة والمندوبة في كل الأمور.

7. أمثال حسانية في التأني والرزانة والتمسك بالصبر

إذا كان الحزم والجد من الأمور المحبذة في الحياة، فالتأني والرزانة في تحقيق بعض الأمور مطلوبة أيضا، ونبذ العجلة والتهور الذي يؤدي بصاحبه أحيانا للندم، فالحياة تتطلب من الفرد والمجتمع التعامل برزانة وتأن في تحقيق عدة أغراض قبل الإقدام عليها، وعليه يضرب المثل الحساني: «**يمشي بالشَّورْ اللِّي فَخْلاَكُو يَجْرِي**». بمعنى أن الذي يريد تحقيق شيء وهو في عجلة من أمره فعليه أن يتحلى بالرزانة وعدم التسرع في اتخاذ القرارات حتى يستطيع الوصول لطموحه بروية وتعقل، أفضل من العجلة والندم، وفيه أيضا يقال: «**اصَّبَارْ إيجِيهْ الظَّلْ**» بمعنى أن الذي طمح لغاية نبيلة ولا يملك ما يحقق مبتغاه فعليه بالصبر، أو من وجد صعوبات في الحياة أو في معاملة الاخرين له، فيصبر على أذاهم وكلامهم لا شك أنه يوما ما سينتصر وسيحقق طموحاته. وينكشف همه ويحالفه النصر المعبر عنه بالظل في المثل الحساني.

مـؤدى القــول، تعــد الثقافــة الحســانية ثقافــة غنيــة ومتنوعــة ومنفتحــة عــلى محيطهــا، مــن خــلال عــدة أنــواع وفنــون أدبيــة، لعــل أدب الأمثال الحســانية أســماها يختــزل كل القيــم الاجتماعيــة في أســلوب موجــز ولغــة أدبيــة رصينــة، وتصويــر فني، يتضمــن الاســتعارة والكنايــة والتشــبيه والمحســنات البديعيــة، ممــا يســمح بالقــول بنضــج الثقافــة الحســانية بــكل أصنافهــا، رغــم مــا تعانيــه هــذه الثقافــة الشــفاهية مــن نســيان وإهمــال الكتــاب والدارســين، واندثــار هــذا الــتراث في ظــل وفــاة حفاظــه مــن المســنين ممــن اهتمــوا بتــداول هــذه الأمثلــة الحســانية كثــيرا في حياتهــم اليوميــة، واســتحضروها في الحــل والترحــال وفي البيــداء والحــواضر والقفــار. وخشــية مــن اندثــار مــا تبقــى مــن هــذه الأمثلــة الحســانية إذا لــم تتــم عمليــة تدوينهــا وجمعهــا وتلقينهــا للناشــئة، وجــب الاهتمــام بهــذا الــتراث وصيانتــه.

الدراسات الاستشراقية في اللغة العربية واللغات المحلِّية الإفريقية

(التيفيناغ التارڭية والزناڭية الموريتانية أنموذجًا)

د. المهدي محيي الدين

مقدِّمة:

تعود الجذور التاريخية في العلاقة بين العرب والبربر إلى بدايات الفتح الإسلامي في القرن الثاني الهجري، وتشكَّل تجانسًا بينهما على المستوى الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، بحيث أخذت العربية مساحة كبيرة في اللساني التداولي بين الناس، الشيء الذي عجزت عن تحقيقه الأمم الأخرى التي غزت المنطقة، وفي هذا يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون (ت: 1931م): «تعرَّبت البربرية، كما تعرَّب البربر أنفسهم، نتيجة لاتصالها باللغة العربية، ويتألَّف نحو ثلث البربرية التي يتكلَّم بها سكَّان منطقة القبائل الكبرى من كلمات عربية، وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذي لم يكتب مثله لأيَّة أمَّة أخرى، ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم في شمال إفريقية دوام سلطان العرب من غير أن يتَّفق للغتيهم أيَّ أثر في اللغة البربرية».

ومنذ الفتح الإسلامي اعتزَّت القبائل البربرية بالإسلام وأصبح محدِّدًا لهويتها الثقافية والحضارية، وبرز منها قادة ومصلحون (**طارق بن زياد، يوسف بن تاشفين، محمد بن تومرت، حمُّو الزياني**)، شكَّلوا إضافة نوعية لحملات الفتح في الغرب الإسلامي، وأقاموا دولا عديدة، وكانت هذه القبائل قبل الفتح الإسلامي أمَّة مجهولة ولا دور لها في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية؛ بين حضر يتبعون ثقافيًا وسياسيًا للماليك المسيحية، وبدو من الوثنيين يعبدون الشمس والقمر وما يحلو لهم من معبودات يقرِّبون لها أحيانًا أبناءهم وكرائم أموالهم، وفي هذا يقول المستشرق الأمريكي وِل ديورَانت (ت:1981م): «أبرز النتائج التي أسفر عنها فتح العرب لشمالي إفريقية هو اختفاء المسيحية من هذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً. ذلك

أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصُّباً له ودفاعاً عنه».

وقد ظلَّت القبائل البربرية من حيث العموم متجانسة في وحدة ثقافية واحدة تتمثَّل في الإسلام السني (المالكي)، شكَّلت الحياة الجغرافية تأثيرًا على مستوى حياتها الاجتماعية والسياسية، بحيث أخذت اللغة المعجمية (الدارجة) منحنياتها اللسانية بحسب طبيعتها الجغرافية، وفي هذا يقول محمد شفيق: «تجد **السوسية** غنية بالألفاظ الدالَّة على ما يتَّصل بالبحر، كأسماء السمك مثلا؛ وتجد **الأطلسية** غنية بمصطلحات الرعي وأسماء النباتات وأشجار الغابة، و**القبائلية** حافلة بأسماء الأشجار البستانية، و**التركية** زاخرة بالكلمات الخاصَّة بأنماط العيش الصحراوي» . وعلى مستوى **الزناكية** في موريتانيا فقد غلبت على لغة أتباعها الحرف المهنية التي كانوا يمتهنونها، والذين كانوا يرتبطون أكثر بحفر الآبار وتربية المواشي، الأمر الذي دعا امحمد ولد احمد يورة الديماني (ت: 1925م) إلى تدوين أوَّل مؤلَّف في المنطقة وهو «**إخبار الأحبار بأخبار الآبار**»، والذي تناول فيه تفسير المعجم الصنهاجي ودلالاته الجغرافية في الجنوب الغربي الموريتاني.

إنَّ المجتمع الناطق بالتيفيناغ في شمال إفريقيا يتوزَّع بين المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ومالي والنيجر، وينتشر التوارگ على وجه الخصوص شمال غربي مالي، وشمالي النجير والتشاد، وجنوب غربي ليبيا، وجنوب شرقي الجزائر، وينتشر بعضهم في بوركينافاسو، ونيجيريا. ولغة التيفيناغ هل هي لغة قائمة بذاتها أم أنَّها فرع من العربية التي تعود إلى عصور سحيقة، سؤال شغل بال الباحثين؛ ومهما تكن النتيجة فإنَّ هذه اللغة أصبح لديها معجمها ونظامها الصوتي وقواعدها الصرفية والنحوية، ووجدت حظًا وافرًا من البحث لدى مستشرقي القرنين الـ 19 – والـ20م. وانطلاقًا مما سبق؛ فإنَّ هذه الدراسة تهدف إلى الوقوف على الدراسات الاستشراقية في اللغة العربية واللغات المحلِّية الإفريقية خصوصًا: (التيفيناغ التاركية والزناكية الموريتانية)، وتتمحور إشكاليتها حول العلاقات الاجتماعية بين التوارگ والقبائل الصنهاجية الموريتانية، وأبرز الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بالتيفيناغية التاركية والزناكية، ومناهج المستشرقين ودوافعهم في ذلك.

وأمَّا الدراسات السابقة فتشمل مختلف الأعمال التي تتقاطع مع الدراسة من ناحية الاهتمام بالمجتمعات الصحراوية، وبوجه أخص أعمال المستشرقين والضباط الفرنسيين الذين توغَّلوا في المنطقة خلال نهايات القرن الـ 19 والـ 20م، وأبرز تلك الدراسات ما يلي:

1. **النقوش الكتابية الأمازيغية القديمة بموريتانيا «الأهمية والسياق التاريخي»**، لمحمد سالم محمدن مختار السالم، وتتَّفق مع الدراسة في الاهتمام بالأمازيغية، وتختلف معها في تركيز دراستي بجهود المستشرقين في خدمة اللهجات البربرية.

2. **اللهجات العربية في الفكر الاستشراقي**، لعبد العالي حمامو، وتتَّفق مع الدراسة في عناية المستشرقين باللهجات العربية، وتختلف معها في تركيز دراستي على اللهجات البربرية في شمال إفريقيا، وعلى وجه أخص التيفيناغ التارگية والزناگية الموريتانية.

وأمَّا منهج الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي، وتتوزَّع محاورها في الآتي:

المحور الأوَّل: السيسيولوجيا التاريخية بين التوارگ وقبائل صنهاجة في موريتانيا.

المحور الثاني: الدراسات الاستشراقية في تدوين التيفيناغية والزناگية.

المحور الثالث: نماذج من مظاهر التداخل بين العربية والتيفيناغ والزناگية.

المحور الرابع: مناهج المستشرقين في دراسة اللهجات العربية.

المحور الخامس: دوافع المستشرقين في دراسة اللهجات العربية.

المحور الأوَّل: السيسيولوجيا التاريخية بين التوارك وقبائل صنهاجة في موريتانيا:

يشترك التوارگ مع القبائل الصنهاجية الموريتانية في كثير من المشتركات الثقافية والاجتماعية والسياسية شأنهم في ذلك شأن باقي المجموعات البربرية، دفعتهم إليها طبيعة الحياة الصحراوية القاسية، كما جمعت بينهم أواصر الأرومة والدم والمصاهرة وروابط السلالة، والتحالفات السياسية، والدول والكيانات في العصور القديمة التي ينحدرون منها مثل: موريتانيا، ومازيسولة، وماسولة، والكناري، ولواته، وفزاني، وقرماني، والجيتول . وحملوا ألقابًا وتسميات عبر الأزمنة الغابرة مثل: البربر، والأمازيغ، والليبيين، والجيتول، والنيومنديين، والموريين، والأفارقة. وبالعودة

إلى الأصول القديمة للبربر نجد أنهم ينقسمون إلى بتر وبرانس()، والبتر عرب مضريون، والبرانس من عرب اليمن، الذين كانوا يسكنون في بلاد الشام ثمَّ هاجروا إلى بلاد المغرب، وكانوا أوَّل من سكن المنطقة بعد العصر الحجري (كواحد من الافتراضات ويذهب المستشرق الفرنسي إيميل فيليكس جوتييه (ت: 1940م) إلى القول بأنَّ البربر لا يعرف أصلهم ولا من أين قدموا)، وكان أبناء عمومتهم الكنعانيين يسكنون في فينيقيا (لبنان الحالية)، وأسَّسوا حضارة شامخة، واخترعوا الحروف الهجائية، كما اخترع البربر أحرفًا أيام كانت الكتابة لا تزال هيروغلوفية.

وكان الكنعانيون يتحدَّثون لغة عربية لا يُميِّزها عن الفصحى إلا هلهلة في الإعراب، وإذا كان البربر قد ساكنوهم وخالطوهم وربَّما تزاوجوا معهم قبل هجرتهم إلى المغرب فما هي اللغة التي كانوا يتحدَّثون بها؟ إنَّ هذا السؤال طرحه العالم المغربي عبد العزيز بن عبد الله، وأجاب عنه بأنَّ الإجابةَ القطعيةَ عنه متعذِّرة لغياب المعطيات التاريخية، ورجَّح الإجابة الظنِّية بأنَّهم كانوا يتحدَّثون بنفس لغة الكنعانيين، وذلك لسببين؛ أحدهما جنسي، وهم أنَّهم ينتمون إلى أرومة واحدة، وثانيهما جغرافي، وهو أنَّهم يقطنون منطقة واحدة وهي بلاد الشام، ومن الطبيعي أنَّ يشتركوا في لغة واحدة . وانطلاقًا من تقسيم البربر إلى بتر وبرنس، فإنَّ البتر يتوزَّعون بين نفوسة، ولواتة وغيرها، وأمَّا البرانسة فيتوزَّعون إلى الآتي:

1. **زناتة:** وينتمي إليها بربر الجزائر ما عدا القبائلية، كما ينتمي إليها بربر تونس وليبيا، أمَّا في المغرب فينتمي إليها بربر الأطلس المتوسِّط الجنوبي، ومنطقة الريف، وجبل بني يزناس، وزكار، وشرق الأطلس الكبير، وتوكرت، ومزاب، وورارغلة في الصحراء.
2. **مصمودة:** وينتمي إليها غمارة غرب الريف، وشلوح الأطلس الكبير الغربي، وأكثر بلاد السوس، والأطلس الصغير.
3. **صنهاجة:** وينتمي إليها قسم من بربر التخوم الصحراوية، وقبائل الأطلس المتوسِّط، وتافيلالت، وطوارق الصحراء، ووسط الأطلس الكبير، وملوية العليا. وصنهاجة تعريب للَّفظ «ازناكان» أي: البربري. وهناك من المستشرقين من يعتقد أنَّ التوارگ ليسوا من جنس البربر؛ وأنَّهم جنس مستقل من شعوب ما وراء البحر، وهناك رأي بأنَّهم ينتمون

للشعوب القوقازية، ويشكِّك المستشرق الفرنسي إيميل فيليكس جوتييه في انتساب صنهاجة الجنوب الغربي (موريتانيا)، وطوارق الشرق (قبائل الهگار)، إلى أصل واحد، ويقول إنَّ أبناء لمتونة برانس، والتوارگ من البتر . ونحن نعتقد أنَّ صنهاجة الصحراء هم المعنيون بقول ابن خلدون: «هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثّمون الموطَّنون بالقفر وراء الرمال الصحراويّة بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أوّلها. فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذا عن العمران، واستئناسا بالانفراد، وتوحُّشا بالعزِّ عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا، واتخذوا اللثام خطامًا تميَّزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعدّدت قبائلهم من كدالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فناوكا [في بعض النسخ تاركا/التوارگ] فزغاوة، ثم لمطة إخوة صنهاجة كلّهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة».

وتنقسم صنهاجة إلى فريقين رئيسيين؛ أحدهما المستوطنون، وهم كتلة القبائل الجزائرية، الذين توجد مواطنهم على الحدود الغربية لما كان يسمى قديمًا بنوميديا الرومانية. ثمَّ الرُّحل، ولغتهم شبيهة بلغة القبائل، ومجموعاتهم الرئيسة هي: (**جزولة، ولمطة، ولمتونة**). ومواطنهم في الصحراء الغربية وحتى نهر السنغال. وتنتمي صنهاجة بمجموعها إلى البرانس، وهم مؤسِّسو الدولة الزيرية، والمرابطية. وأمَّا لمتونة فإنَّها تتوزَّع اليوم في المجال الموريتاني إلى: (**تجكانت، ومسومة، وإدوريش، وإدوبجه، وإدوعيش، ولمتونة، وتندغه، وإدكوچي، وإيچيچبه**) ، وهناك مجموعات صنهاجية وقبائل عديدة ذكرها الشيخ سيديَّ بابه (ت: 1924م)، هذا مع العلم أنَّ هذه المجموعات تعرَّبت إبَّان التغريبة الهلالية والهجرات العربية نحو جنوب الصحراء في القرن الـ 8هـ/14م، وانتصارات قبائل بني حسَّان على التجمُّعات الصنهاجية الكبرى مثل: (**ابدوكل، وانيرزيك، وإدوعيش، والأنباط**) في حرب شرببه الأولى، منتصف القرن الـ 11هـ/17م، ولم تعد هذه المجموعات ناطقة باللسان الصنهاجي القديم على مستوى القبائل الصنهاجية في الشرق الموريتاني، بينما استطاعت المجموعات الصنهاجية في الجنوب والغرب المحافظة على شيء من تراثها الصنهاجي بعد الهزيمة التي حلَّت بهم في حرب شرببه الثانية، والتحرُّر الثقافي من سيطرة بني حسَّان.

وأمَّـا التـوارگ فإنَّهـم جـزء مـن التركيبـة الاجتماعيـة الصنهاجيـة العامـة، ويذهب عبد الرحمـن السـعدي (ت: 1655م) إلى أنَّهـم ينتسـبون بالأخـص إلى مسُّـوفة (إمسـوفن) ، وينقسـمون إلى طائفـة تنتمـي إلى لمطـة ولمتونـة الذيـن أسَّسـوا الدولـة المرابطيـة، وهـم أبنـاء عمومـة صنهاجـة الجزائـر والأطلـس الكبـير. والطائفـة الثانيـة ملثَّمـو الـشرق؛ ويعرفـون بالهـگار، وهـم مـن قبائـل هـوَّارة، الذيـن جـاءوا مـن برقـة وطرابلـس، ولعبـوا دورًا محوريًـا في تونـس والأوراس الجزائريـة. وتتـوزَّع قبائـل التـوارگ في مواطنهـا اليـوم بـين (كل انصـار، وإفوغـاس، وريقناتـن، وكل اغـلال، وكل السـوق، ومنغسـاتن).

إنَّ مظاهـر التداخـل بـين التـوارگ والمجتمـع الصنهاجـي الموريتانـي تظهـر مـن خلال الترابـط الاجتماعـي، فقـد قال مـوسى كمـرا إنَّ البيضـان في موريتانيـا يقول لـــ تندغه: لمتونـة الاخيـار، ولـ تجكانـت: لمتونة الابـرار، ولـ إدگ بامـبره وأخيهم چاشـفاغه: لمتونة الأحـرار، ولـــ إدوعيـش: لمتونـة الأشرار، وأضـاف مـوسى كمرا: (قلـت ينبغـي أن يزيدوا للتـوراق: لمتونـة الاسـفار، لأنَّهم منهـم – بلا شـك – ولعلَّهم لـم يعدُّوهم لبعدهـم عنهم) . وهكـذا يرتبطـون في مختلـف العـادات والتقاليـد، بـل لا تـكاد توجـد عـادة لـدى التـوارگ غـير مسـتخدمة لـدى القبائـل الصنهاجيـة الموريتانيـة، خصوصًـا اللثـام، الـذي كان يرمـز للنبـل والصـلاح والتقـوى، فهـذا محمـد بـن عبـدون الأندلـسي يقـول في بـاب الحسـبة: (يجـب أن يُلثِّـم إلا صنهاجـي، أو لمتونـي، أو لمطـي، فـإنَّ الحشـم والعبيـد ومـن لا يجـب أن يُلثِّـم يُلثِّمـون عـلى النـاس، ويهيِّبونهـم ويأتـون أبوابًـا مـن الفجـور كثـيرة بسـبب اللثـام وهمًـا، ويكلَّـم في ذلـك مـع السـلطان) . وكانـوا في العـصر الإسـلامي الوسـيط يشـكِّلون مجموعـة متجانسـة سياسـيًا، واجتماعيًـا، وثقافيًـا، وبعـد انهيـار دولـة المرابطـين تفـكَّك نفوذهـم، وضعفـت شـوكتهم، وانتـشروا في الرمـال الصحراويـة طلبًـا للأمـان. وكانـت قبائـل التـوارگ (ترغـة)، تسـتوطن في وادي درعـة، ثـمَّ هاجـرت نحـو أطـراف نهـر النيجـر.

وقـد نجـح الفتـح الإسـلامي في الدمـج بـين العـرب السـاقطين إلى الصحـراء وبـين السـكَّان الأصليـين مـن البربـر – بمختلـف تقسـيماتهم الاجتماعيـة – ولا يوجـد انتصـار حقَّقـه العـرب في المنطقـة دون مشـاركة البربـر، ولا يوجـد أيضًـا انتصـار حقَّقـه البربـر دون مشـاركة العـرب، وإذا كان العـرب نجحـوا في تعريـب اللسـان البربـري فـإنَّ البربـر – كذلـك – نجحـوا في إصبـاغ العـرب بعاداتهـم وتقاليدهـم، وأصبـح مـن الصعـب التفريـق بـين العربـي المنحـدر مـن بنـي هـلال، و التارگـي المنحـدر مـن صنهاجـة (البربـر)، وتخطـئ الصحافـة الوثائقيـة حـين تصـوِّر قوافـل

الملح المتَّجهة نحو تمبكتو (شمالي مالي)، على أنَّها قوافل التارگية وهي في الحقيقة قوافل عربية.

ومن الأهمِّية بمكان الإشارة إلى أنَّ اللهجة البربرية كانت لغة البلاط ولغة الثقافة لدى الأُسر البربرية المالكة من **صنهاجيين وحفصيين وحماديين وزناتيين ومرابطين وموحِّدين**، بل كان غيرهم من ملوك المغرب يعرفها، فالمعز لدين الله الفاطمي (ت: 365هـ/ 972م) كان يتكلَّم بها مع زعماء صنهاجة وكتامة، واستعملها أبو عبد الله الشيعي (ت: 298هـ/ 911م) في دعوته للفاطميين بجبال القبائل وزواوة. كما استعملها المهدي بن تومرت (ت: 524هـ/ 1130م) في دعوته بين العروش والعشائر البربرية. وبنى بعض الملوك الحفصيّين جامعًا، ولم يكتب عليه اسمه، فقيل له في ذلك، فأجاب بالبربرية «**يسنت ربي**»، أي: قد علم الله ذلك.

وليس غرض هذه الدراسة إثبات أو نفي عروبة التوارگ أو صنهاجة ولا غيرهم من المجموعات الناطقة باللسان البربري؛ ذلك أنَّها مسألة شائكة ومعقَّدة يصعب حلُّها بشكل علمي دقيق، نظرًا لاختلاط الذاتي بالموضوعي، وتداخل الديني مع الإيديولوجي، وعلى المستوى المحلِّي الموريتاني لا تكاد توجد قبيلة أو مجموعة ما تفتخر بالانتماء للبربر أو تقبل ذلك على المستوى التداولي، بل إنَّ غاية أمرهم الانتساب للمتونة (صنهاجة)، ولا يقبلون من المؤرِّخين المحلِّيين الإفاضة في هذا الموضوع.

ومن الأهمِّية بمكان الإشارة إلى أنَّ المصادر التاريخية الأصيلة لم تكن تفرِّق بين قبائل الملثِّمين، ولم يرد لديها ذكر للطوارق بشكل مفرد، مثل: ابن خلدون، والأصطخري، والحميري، والبكري، وإنَّما ورد ذكرهم باسم الطوارق لدى محمود كعت (تاريخ الفتاش)، أما التوارق فقد ذكره عبد الرحمن السعدي (تاريخ السودان)، وفي تذكرة النسيان لمؤلِّف مجهول.

وقد حاول المستشرقون توليد اسم التوارگ من (الترك) أي: بمعنى المفارقة، حيث ذهب المستشرق رونال رود (Ronnel Rodd)، إلى أنَّهم سموا بذلك لمفارقتهم للمسيحية نحو الإسلام، وهذا تكلُّف لا يستند على معطيات علمية، ذلك أنَّ التوارگ من جملة بدو البربر، ولا يعرف لهم انتماء للنصرانية قبل الإسلام. ولعلَّ أوَّل ذكر للتوارگ بمعنى (تارگة)، كان لدى حسن الوزان (ليون الإفريقي)، حيث قال: (**الصحراء التي يسكنها شعب تارگه، تبتدئ الصحراء الثالثة عند تخوم الأير غربًا، وتمتدُّ إلى قفر إيگيدي شرقًا...**).

وأمَّـا لفـظ التـوارق فإنـه مـن إطلاقـات المؤرِّخـين المحدَثـين تمييـزًا لهم عن الشـعوب السـودانية في المجـال الصحـراوي. ومـن الأهمِّيـة بمـكان الإشـارة إلى أنَّ التـوارگ أنفسـهم لا يعرفـون مصـدر تسـميتهم بالطـوارق، وإنمـا هـو مـن إطلاقـات غيرهـم عليهـم، وأمَّـا هـم فإنَّهـم يُطلقـون عـلى أنفسـهم إيموهـار (Imohar)، أو إيموشـار (Imochar)، وجمعهـا إيماجـيرن (Imajeurn)، بمعنـى كـن حـرًا، وإيموهـار مشـتقة مـن أماهـر (Amaher)، وهـي مفـردة تامهـارات (Tamahart)، أو تاماهـاك (Tama-haq)، بيـد أنَّ التاماهـاك أو التاماشـاق (Tamachaque)، هـي نفسـها اللغـة التوارگ.

المحور الثاني: الدراسات الاستشراقية في تدوين التيفيناغية والزناكية.

تعـود البدايـات الأولى للحفريـات عـن الكتابـات والنقوش الأثريـة لدى السـكان المحلِّيين بشـمال إفريقيـا إلى ثلاثينيـات القـرن الــ 17م، (1631م)، حيـث عُثـر في مدينـة توگا (Thugga)، وبجـدران أحـد الأضرحـة على نقيشـة بهـا كتابة ليبيـة وأخـرى بونية، وفي نهايـة القـرن الـ 19م، تمَّـت الإشـارة الأولى للكتابـة الأمازيغية على اللوحـات الصخرية، تـمَّ تواصلـت الاكتشـافات بعد ذلك لا سـيَّما في القرن الــ 20م، والذي تزامـن مع الحقبة الكولونياليـة، وهـو ما تـوِّج بصـدور أوَّل مجمـع أو مدونة للنقائـش الليبية.

وعـلى الرغـم من التبايـن الجغرافي بـين مختلف مناطق شـمال إفريقيا إلا أنَّ المسـتشرقين الدارسـين للَّهجـات البربريـة لـم يجـدوا فروقًـا بنيويـة بينها، وغـرض الدراسـة إثبات الصلـة وأوجـه الشـبه بين لهجاتهم وبـين اللغة العربيـة – كهوية ثقافيـة – وعلى افتراض الصلـة بـين الشـعوب الناطقـة بالبربريـة مـن حيـث العمـوم بالعـرب القدامـى والذين جمعـت اللغـة اللوبيـة بينهـم، فـإنَّ هذه اللغـة تعتبر مصـدرًا أصيـلا لمختلـف اللهجات البربريـة في شـمال إفريقيـا، إضافـة إلى عديد ألفـاظ المعجـم في العصر الإسـلامي (قرآنًا، وحديثًـا وفقهًـا) والتي تشـكِّل معجمًـا كبيرًا في اللهجـة القبائليـة (تقبَيْليـتْ) بالجزائر.

ثـمَّ إنَّ اهتمـام المسـتشرقين بتدويـن التفيناغيـة والزناگيـة جـاء في نهايـات القـرن الــ 19م، وبدايـات القـرن الــ 20م، وظهـر هـذا الاهتمام بشـكل أخـص من قبـل الرحَّالة والمستكشـفين؛ الذيـن دفعهـم الحمـاس وحـبُّ المغامـرة إلى التوغُّـل داخـل العمـق الصحـراوي، ويمكـن بيـان جهودهـم العلميـة في الكتابـة عـن هـذا المجتمـع في الآتـي:

1. **أدولـف هانوتـو (Adolphe Hanoteau):** مسـتشرق وجنـرال فرنـسي، عمـل في الجزائـر في وقـت مبكِّـر، وارتكـزت أعمالـه حـول منطقـة القبائـل، وكتـب دراسـات عديـدة في اللهجـة البربريـة، مـن بينهـا كتابـه قواعـد اللغـة القبائليـة (Essai de

(grammaire Kabyle)، وقصائد شـعبية في منطقـة القبائـل وجرجـرة (Poésies populaires de la Kabylie du Jurjura)، وقواعـد في لغـة تماشـيق (Essai de grammaire de la langue tamachek)، وتـوفي سـنة: 1897م.

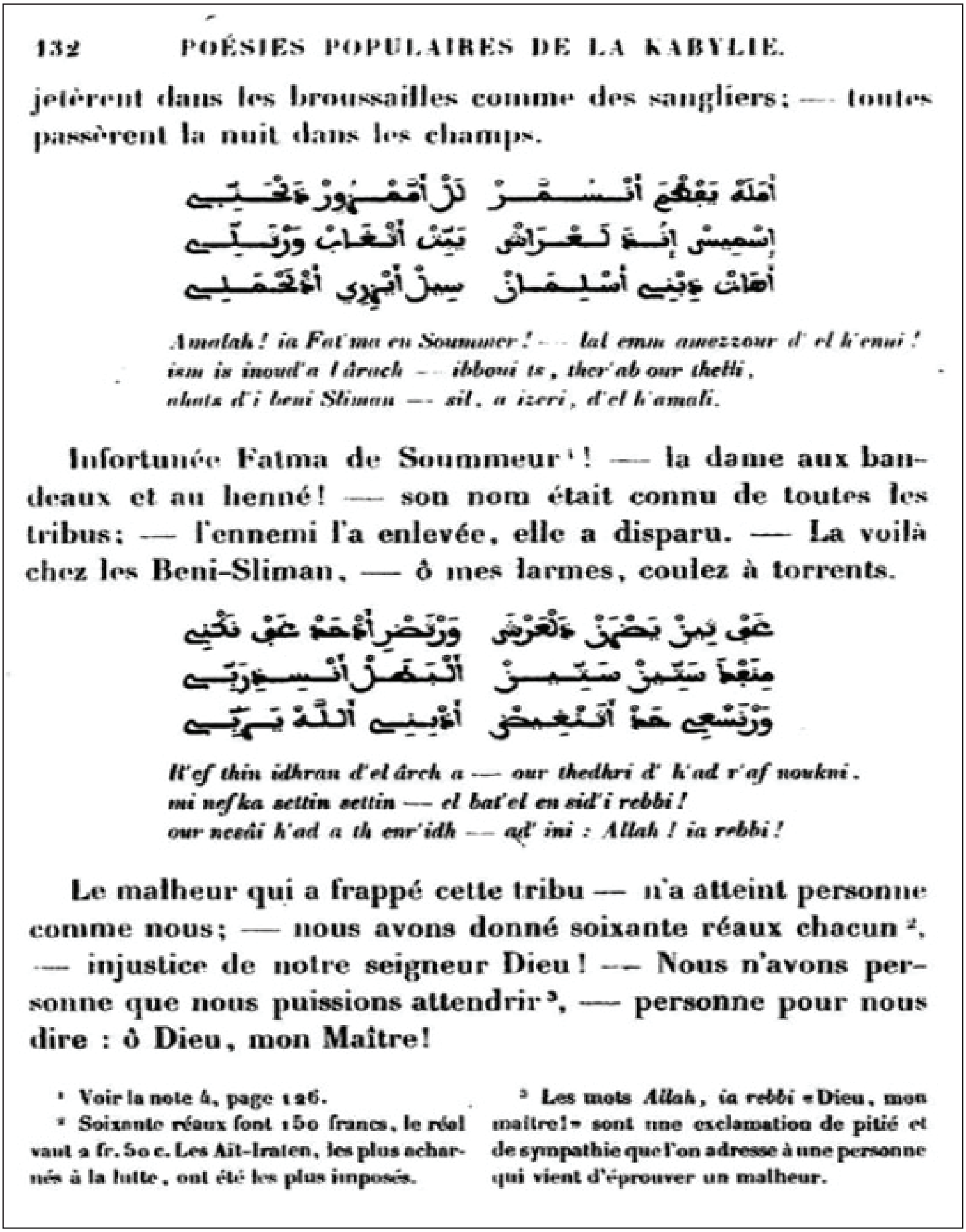

132 POÉSIES POPULAIRES DE LA KABYLIE.

jetèrent dans les broussailles comme des sangliers: — toutes passèrent la nuit dans les champs.

أملة يفطمة أنسمر   تل أمزهور ذحنيي
إسميس إنّدة لعراش   يبّيت انعداب ورتبليي
أهاتس ذيبني أسليمان   سيل أيزري ذلحمليي

Amalah! ia Fat'ma en Soummer! — lal emm amezzour d' el h'enni!
ism is inoud'a l ârach — ibboui ts, ther'ab our thelli,
ahats d'i beni Sliman — sil, a izeri, d'el h'amali.

Infortunée Fatma de Soummeur[1]! — la dame aux bandeaux et au henné! — son nom était connu de toutes les tribus; — l'ennemi l'a enlevée, elle a disparu. — La voilà chez les Beni-Sliman, — ô mes larmes, coulez à torrents.

حف ثين يذهرن دلعرش   ورتضر أذحد حف نكني
منفقا ستّين ستّين   البطل انسيد ربّي
ورنسعي حدّ أتنغيض   أذيني الله يربّي

H'ef thin idhran d'el ârch a — our thedhri d' h'ad r'af noukni.
mi nef ka settin settin — el bat'el en sid'i rebbi!
our nesâi h'ad a th enr'idh — ad' ini: Allah! ia rebbi!

Le malheur qui a frappé cette tribu — n'a atteint personne comme nous; — nous avons donné soixante réaux chacun[2], — injustice de notre seigneur Dieu! — Nous n'avons personne que nous puissions attendrir[3], — personne pour nous dire: ô Dieu, mon Maître!

[1] Voir la note 4, page 126.
[2] Soixante réaux font 150 francs, le réal vaut 2 fr. 50 c. Les Aït-Iraten, les plus acharnés à la lutte, ont été les plus imposés.
[3] Les mots *Allah, ia rebbi* «Dieu, mon maître!» sont une exclamation de pitié et de sympathie que l'on adresse à une personne qui vient d'éprouver un malheur.

نموذج من اللهجة البربرية بالخط العربي

2. **هنـــري دفرييـــه (Henri Duveyrier)**: مســـتشرق ورحَّالـــة فرنـــسي، اســـتلهم رحلتـــه مـــن الرحَّالـــة والمســـتشرق الألمانـــي هنـــري بـــارث؛ الـــذي قـــدَّم لـــه نصائـــح كانـــت دافعًـــا في مغامرتـــه، وقـــد وصـــل إلى الجزائـــر ســـنة: 1859م، وعمـــره 19 ســـنة، ولـــم يتنكَّـــر في ثـــوب إســـلامي، بـــل بقـــي في أثوابـــه وملامحـــه الأوروبيـــة وديانتـــه المســـيحية، وشَّـــق طريقـــه نحـــو التـــوارگ ســـنة: 1860م، وأقـــام لديهـــم قرابـــة الســـنة، تعلَّـــم فيهـــا التاماشـــاق، وكتابتهـــا التيفيناغيـــة، وبعـــد عودتـــه كتـــب عـــن التـــوارگ كتابـــه استكشـــاف الصحـــراء: طـــوارق الشـــمال (Exploration du Sahara: Les Touareg du nord)، وهكـــذا تنـــاول الحديـــث عنهـــم اجتماعيًـــا في كتابـــه: ملاحظـــات عـــلى الطـــوارق وبلادهـــم (Notes sur les Touaregs et leur pays).

3. **شـــارل دي فوكـــو (Charles de Foucauld)**: مســـتشرق وراهـــب فرنـــسي، قـــاد رحلـــة استكشـــاف وإخضـــاع قبائـــل تـــوراك الهـــگار لصالـــح الإدارة الاســـتعمارية الفرنســـية ســـنة: 1904م، وكان مطلعًـــا عـــلى الأعمـــال الاســـتطلاعية التـــي قـــام بهـــا هنـــري دفرييـــه، وكتـــب جملـــة مـــن الكتـــب مـــن بينهـــا أغانـــي التـــوارك (Chants touaregs)، وقامـــوس فرنـــسي تاركـــي مختـــصر في لهجـــة آهـــاكار (Dictionnaire abrégé touareg-français)، ونصـــوص نثريـــة في لغـــة تـــوارك آهـــاكار (Tex-tes touareg en prose - dialecte de l' Ahaggar)، ومقـــال في قواعـــد اللغـــة التاركيـــة (grammaire touarègue (dialecte de l'Ahaggar)، وهكـــذا قـــام بمراجعـــة وتحريـــر وإكمـــال كتـــاب لرينيـــه باســـيه (René Basse)، المســـمى قواعـــد وحـــوارات معجميـــة تاركيـــة (Grammaire, dialogues et dictionnaire touaregs)، وأخـــيرًا بقـــي يمـــدُّ ســـلطات الاحتـــلال في الجزائـــر بمعلومـــات هامـــة عـــن التـــوارك حتـــى اغتيالـــه ســـنة: 1916م.

4. **لويـــس فيدريـــب (Louis Faidherbe)**: مســـتشرق وجنـــرال فرنـــسي، خـــدم في منطقـــة غـــرب إفريقيـــا بصفتـــه حاكمًـــا عامًـــا، وخـــاض عـــدَّة حـــروب مـــع قبائـــل البيظـــان، وكتـــب عـــن اللهجـــة الزناگيـــة كتابـــه الصنهاجيـــة في القبائـــل الســـنغالية، مســـاهمة في دراســـة لغـــة البربـــر (Le Zénaga des tribus sénégalaises: con-tribution à l'étude de la langue berbère)، وذكـــر أنَّـــه ألَّفـــه اســـتجابة لتوصيـــات مؤتمـــر للمســـتشرقين الفرنســـيين بـــضرورة تقديـــم دراســـات عـــن هـــذه القبائـــل، وضمَّنـــه قواعـــد ومفـــردات في هـــذه اللهجـــة المنطوقـــة غربـــي موريتانيـــا لـــدى قبائـــل: إدابلحســـن، وتندغـــه، وأولاد ديمـــان.

5. **رينـه باسـه (René Basset):** مسـتشرق فرنـسي، تخـرَّج مـن مدرسـة اللغـات الشرقيـة ثـم مـن معهـد فرنسـا (كوليـج دي فرانـس)، وتخصَّـص في الحبشـية والتركيـة والبربريـة، وقـد ألَّـف كتبًـا عديـدة في اللهجـات البربريـة، وشـملت: ملاحظـات حـول المعجـم البربـري (Notes de lexicographie berbère)، وديانـة البربـر مـن العصـور القديمـة إلى الإسـلام (La Religion des Berbères de l'antiquité jusqu'à l'islam)، ومباحـث في ديانـة البربـر (Recherches sur la religion des Berbères)، ودراسـات في اللهجـات البربريـة (Études Sur Les Dialectes Berbères)، وحكايـات بربريـة (Contes populaires berbères)، كمـا قـاد رحلـة علميـة إلى السـنغال، ودوَّنهـا في كتابـه مهمـة إلى السـنغال: دراسـة عـن اللهجـة الصنهاجيـة، ورقـات عـن الحسـانية، بحـوث تاريخيـة عـن البيظـان (Mission au Sénégal: Étude sur le Dialecte Zenaga, Notes sur le Hassania, Recherches Historiques sur les Maures)، سـنة: 1910م . وقـد اعتمـد فيـه عـلى الناطقـين باللهجـة الزناگيـة مـن قبيلـة أولاد ديمـان، كمـا نـشر باسـييه كتـاب (إخبـار الأحبـار بأخبـار الآبـار)، للشـيخ امحمـد ولـد احمـد يـوره الديمانـي، وهـو عبـارة عـن معالـم جغرافيـة في الجنـوب الغربـي الموريتانيـة باللهجـة الزناگيـة.

6. **هنري باسيه (Henri Basset):** مستشرق فرنسي، تخصَّص في اللهجات البربرية، والتحق بالمدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية التي تأسَّست في المغرب سنة: 1916م، وكتب مؤلَّفات عديدة عن البربر وتراثهم، وشمل ذلك كتابه مقالة عن أدب البربر (Essai sur la littérature des Berbères)، وهو العمل الذي صدر عنه سنة: 1920م، كتاب البربري ولغته (le bèrbère et sa langue)، وأنشأ سنة: 1921م، مجلة الدروس المغربية والبربرية المعروفة باسم هسبيريس (Hespèris).

7. **لويس مرسيه (Louis Mercier):** مستشرق وضابط مترجم، ووزير مفوِّض فرنسي، ترجم نصوصًا عربية عديدة، وكتب عن البربر في كتابه أثر لغات البربر والإسبانية في اللهجات العربية المغربية (Influence des langues berbère et espagnole sur le dialecte arabe marocain)، سنة: 1906م.

8. **إدموند دستينه (Edmond Destaing):** مستشرق فرنسي متخصِّص في اللهجات وعلم الأصوات البربرية، شغل منصب أستاذ لغة البربر في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وكتب عديد الكتب والدراسات في اللهجات البربرية، من بينها قاموسه الفرنسي

البربري عن لهجة بني سوس (Dictionnaire français-berbère: dialecte des Beni-Snous)، سنة: 1914م.

المحور الثالث: نماذج من مظاهر التداخل بين العربية والتيفيناغ والزناكية

من المعلوم أن اللغة البربرية تنقسم إلى لغةٍ قديمةٍ: وهي اللوبية، ولا توجد بها إلا المنقوشات الصخرية؛ وإلى البربرية الوسطى: وهي من القرن الثالث الهجري إلى السابع، ويوجد بها كتاب (**المدونة في الفقه الأباضي**) لابن غانم، ويوجد بها قاموسٌ بربريٌّ عربيٌّ بجزيرة جربة؛ والبربرية الحديثة: وهو نحو ثلاثين لهجةً بين شماليةٍ وجنوبيةٍ، يوجد منها بمصر لهجة واحةٍ، هي سيوة المعروفة بواحة عمون، وهذه اللهجات منتشرةٌ بليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وجزر الكناري.

أمَّا الكتابة بالحرف الأمازيغي فتنقسم مجاليًا إلى الآتي:

1. **الأبجدية الشرقية (Alphabet Oriental)**: وتتمركز في غرب ليبيا، وتونس وشرق الجزائر حتى قسنطينة، ويبلغ عدد حروفها 23 حرفًا.
2. **الأبجدية الغربية (Alphabet Occidental)**: وتشمل المجال الممتدِّ من قسنطينة شرقًا وحتى المحيط الأطلسي غربًا، ويبلغ عدد حروفها 33 حرفًا.
3. **الأبجدية الصحراوية (Alphabet Saharien)**: وتشمل أغلب المناطق الصحراوية، ومنها انبثقت تيفيناغ القديمة وتيفيناغ الحديثة (لهجة التوارگ)، أما تيفيناغ القديمة فقد وُجد منها في موريتانيا ما يُقارب الأربعين نقشًا.

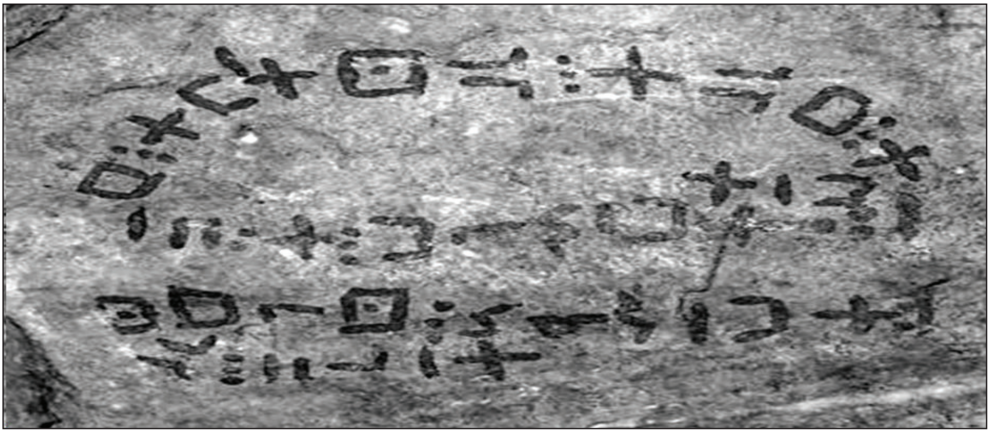

خطوط التيفيناغ القديمة في منطقة تاسلي ناجر جنوب شرقي الجزائر

خطوط التيفيناغ القديمة في منطقة الغلاوية شمال شرقي موريتانيا

وأصبح من شبه المؤكَّد لدى العلماء أنَّ اللهجات البربرية تعود في أصلها إلى لهجة واحدة، كما أثبت علماء أصول اللغة الصلة الوثيقة بين البربرية واللغات السامية والحامية، ومن المعلوم أنَّ هناك تشابهًا كبيرًا بين السامية والحامية، ورغم محاولات بعض المستشرقين وعلماء الإثنولوجيا في ربط اللغة البربرية بالأصل الأوروبي فإنهم لا يستطيعون إنكار

الصلة بين البربرية والسامية والحامية، بل إنَّ لغة التوارگ - والتي عدَّها البعض - من أقلِّ اللهجات البربرية صلة بالعربية - إلا أنَّه وُجد بها بعض الأصول اللغوية ذات الصلة بالعربية تعود إلى 200 سنة ق. م، أي: قبل دخول العرب إلى شمال إفريقيا بثلاثة قرون، والكتابة المنقوشة على يد التوارگ في هذا العهد تمثِّل ما وُجد منقوشًا على الأحجار في حدود الصحراء العربية[1].

وذهب المستشرق الفرنسي شارل أندري جوليان (ت: 1991م) إلى أنَّه من الصعب تحديد اللغة التي ينتمي لها حرف التيفيناغ التارگي، وأنه وُجدت

(1) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، 1/21.

1125 كلمة شبيهة بخط التيفيناغ، ولا توجد كتابات للغة البربرية تعود إلى ما قبل سنة: 139 ق. م[1].

وقد اتصل البربر بأبناء عمومتهم من العرب الكنعانيين - الذين هاجروا من بلاد الشام وأطراف الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب سنة: 1100 ق. م - وامتزجوا فيما بينهم وشكَّلوا لغة عرفت باللغة البونيقية (Langue Punique)، وهي خليط من العبرية والفينيقية (الكنعانية)، وكانت هذه اللغة قريبة من العربية، وأصبحت لغة العلم في ذاك التاريخ، وظلَّت مسيطرة على البادية المغربية وحتى عصر الوندال (إلى ما قبل عصر الفتح الإسلامي)، وقد عجزت اللغة الرومانية عن تحقيق أيِّ انتصار استعماري في بلاد المغرب[2].

ولم تنتشر اللغة العربية الفصحى عبر الفاتحين الأوائل، والذين استشهد أغلبهم، بل لم يكن لديهم الوقت للتدريس ونشر الآداب العربية، وإنَّما نشر معالم الإسلام والدعوة إليه، ولعلَّ أوَّل نشر للعربية حصل في بلاد المغرب على يد دولة بني صالح، والتي اهتمَّت بالآداب العربية، ونشر القيم الإسلامية. وقد تغلغلت العربية إلى الصحراء في العهد الموحِّدي؛ حيث تسرَّب الهلاليون إلى المنطقة، ونمت العربية وانتشرت بين القبائل الصنهاجية، وواصلت القبائل العربية الزحف نحو العمق الصحراوي، مثل: بنو هلال، وبنو سُليم، وإلى أقصى أطراف الصحراء وصل بنو حسَّان؛ فنشروا الثقافة والتقاليد العربية بين القبائل والمجموعات الصنهاجية في موريتانيا[3].

3-1 أوجه الاتفاق والتداخل بين العربية والتيفيناغية:

إنَّ أوجه التشابه والتداخل بين العربية واللهجات البربرية يكفيه أنَّ 90% من الكلمات الأمازيغية ذات أصول عربية أو عاربة - كما يتَّضح من معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية للسفير الجزائري عثمان سعدي - إضافة إلى أنَّ نحو البربرية لا يختلف عن نحو العربية، ويؤكِّد عثمان سعيد أنَّ خط التيفيناغ الذي يستعمل بأسلوب بدائي بين قبائل التوارگ أنَّه مشتق من اللغة الكنعانية الفينيقية، واللغات العروبية، ويضرب لذلك أمثلة على هذا النحو[4]:

(1) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة: محمد مزالي والبشير بن سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، سنة: 2011م، ص، 66.

(2) عبد العزيز بن عبد الله، **معطيات الحضارة المغربية**، 1/56.

(3) المصدر السابق، 1/23.

(4) عثمان سعدي، **معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية**، مجمع اللغة العربية الليبي، دار الأمة، الجزائر،

م	حرف التيفيناغ	وجه الشبه مع الخطوط ذات الأصول العربية
1	الألف	السرياني واليعقوبي والعربي والحميري
2	الجيم	الفينيقي والخط الآرامي
3	الدال	العربية
4	الزاي	الحميري والآرامي
5	الياء	الفينيقي والآرامي والأنباري والكندي والنبطي
6	الكاف	النبطي
7	اللام	الحميري والأنباري
8	النون	النبطي والسرياني والصفوي واللحياني
9	السين	الفينيقي
10	القاف	الآرامي والفينيقي والنبطي والسرياني والثمودي واللحياني
11	الشين	المصري القديم، والفينيقي، والحميري، والآرامي القديم، والصفوي، والثمودي، واللحياني، والحميري، والحبشي
12	التاء	الفينيقي، والحميري، والآرامي، والصفوي، والثمودي، واللحياني
13	الطاء	الصفوي والثمودي

3-2 أوجه الاختلاف بين العربية واللهجة الزناتية:

تُعاني اللهجات البربرية بشكل عام من معضل بنيوي، إذ لا توجد لهجة واحدة تعتبر بمثابة الأم التي ترجع لها مختلف اللهجات، لذا يصعب التفاهم بين بعضها، والسبب هو شفويتها في المقام الأوَّل، وعدم وجود تُراث مادي مكتوب، وما توجد من أعمال في هذا الصدد هي أعمال فردية[1]، ولا يوجد عمل جماعي يشمل مختلف اللهجات الملحونة.

ط1، سنة: 2007م، ص، 6.

(1) عثمان سعدي، **معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية**، ص، 10.

أمّا اللهجة الصنهاجية (**الزناكية**) فيذهب أحمد بن الأمين العلوي إلى أنها نوع من أنواع البربرية المغربية، وأنّها موافقة للسان الشلحي (المغربي)، وتختلف معه اختلافاً قليلاً، مثل ما بين لسان الترك والتتر، وقال: فإنا رأيناهم في سوسة يتفاهمون من أول وهلة، كما يتفاهم التركي والتتري، وليس لهذا اللسان كتابة مخصوصة، ولا أعلم من قواعده، إلا أن المؤنث تكون التاء منه في أوله مثال ذلك[1]:

م	الكلمة الزناكية الموريتانية	المعنى العربي
1	أغْرَبظْ	الطفل
2	التاغْرَبْظتْ	الطفلة
3	أوبَلْ	العبد
4	إجم	الجمل
5	نجم	الناقة
6	أزْكرْ	الثور
7	تَشَّ	البقرة
8	إترْكِ	العجل
9	تيرك	العجلة
10	آجِلْ	الحمار
11	تاجل	الحمارة

ثم إنَّ السمة الأبرز في الاختلاف بين حروف اللهجة التفيناغية والأحرف العربية كون التيفيناغ تكتب بشكل عمودي أو أفقي - حسب رغبة الكاتب - من اليمين أو اليسار، واتجاه الحروف يكون من الأعلى إلى الأسفل أو العكس، بينما تكتب العربية من اليمين إلى اليسار.

المحور الرابع: مناهج المستشرقين في دراسة اللهجات العربية:

تعدَّدت مناهج المستشرقين في دراسة اللهجات العربية، ويتَّجه فريق منهم إلى الفصل بين اللغة العربية واللهجة البربرية، على اعتبار أنَّ الأخيرة لغة مستقلة

(1) أحمد بن الأمين العلوي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، الشركة الدولية للطباعة – مصر، ط5، سنة: 1422هـ/2002م، ص، 513.

وليست بينها وبين العربية ارتباط بمثل ارتباطها ببقية اللغات العالمية، فيقول المستشرق الفرنسي كابرييل كامبس: (نحن نجد اللغة البربرية قد احتوت على لكمات لاتينية وعربية .. وفرنسية وإسبانية)، ويضيف بأنَّ العربية تمثِّل نسبة 35% في لغة منطقة القبائل.

وقد تعدَّدت مناهج المستشرقين في دراسة اللهجات العربية وأهمُّها ما يلي:

1. **المنهج الوصفي**: يقوم المنهج الوصفي في دراسة اللهجات العربية على أساس وصف مستوياتها المختلفة، أي من نواحي أصواتها، ومقاطعها، وأبنيتها، ودلالتها، وتراكيبها، وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي، ولا يتخطى مرحلة الوصف. وغالبا ما تنصب الدراسة الوصفية على اللغات واللهجات المعاصرة، التي تدخل فيها الدراسات الصوتية أو التركيبية أو الدلالية، ومن بين أبرز الأمثلة على تطبيق المنهج الوصفي نجد الأطالس اللغوية التي لا تعرض علينا سوى الواقع اللغوي مصنفا، دون تدخل من الباحث بتفسير ظاهرة، أو تعليل لاتجاه لغوي هنا أو هناك، ومن أكبر الباحثين الذين أثروا في مجال الفصل بين الدراسات الوصفية والتاريخية، فرديناند دي سوسير (1857-1913) الذي وضع حجر الأساس في الدراسات اللغوية البنيوية أو الوصفية، وأثار في كتابه (**محاضرات في علم اللغة العام**) الذي نشر بعد وفاته سنة 1916م.

2. **المنهج التاريخي**: يَعُدُّ هذا المنهج مسؤولا عن الإجابة عن تاريخ الظاهرة اللغوية: ما أصلها؟ وماذا أصبحت؟ ومتى؟ وإلى أين تتجه؟ حيث يقوم بمراقبة تطور الظاهرة، ويرسم خطها البياني من حيث الاستعمال: قلة وكثرة، حياة وموتا، ثم يحاول أن يتبين القوانين التي تحكم مسار الظاهرة، والعوامل اللفظية والحضارية التي قد أثرت فيها، أو تؤثر فيها، أو سوف تؤثر فيها. ويتميز علم اللغة التاريخي بفاعلية مستمرة فهو يدرس اللغة من خلال تغيراتها المختلفة، وتغيرها عبر الزمان والمكان، خاصة وأن هذا التغيير يحدث في كل الاتجاهات (النماذج الصوتية، والتراكيب الصرفية والنحوية والمفردات)، ولكن ليس على مستوى واحد، ولا طبقا لنظام معين ثابت. وتعتمد هذه التغيرات اللغوية على مجموعة من العوامل التاريخية، فبينما تمكن دراسة هذه التغيرات دراسة وصفية

هي محض تعريف بأشكال التغيرات الحادثة، فإنه لا يمكن عزلها عن الأحداث التاريخية التي تصاحب وجودها. ويعتمد هذا المنهج على دراسة حياة اللغة بحقبها المتعددة؛ ولهذا سميت الدراسات اللغوية على وفق هذا المنهج بالدراسات التتابعية أو الطولية. ودراسة تغيرات مستويات اللغة كافة، صوتية وصرفية وما إلى ذلك. واهتمامه بدراسة اللغة من خلال الوثائق، والنقوش، والآثار، والمخطوطات.

3. **المنهج المقارن:** يعدُّ المنهج المقارن جزءا من المنهج التاريخي في دراسة اللغة، وهو يتميز عن المنهج التاريخي في عمومه بأنه يركز على بحث الظاهرة اللغوية في أكثر من لغة، ويركز بشكل خاص على بحث الظاهرة اللغوية التي تنتمي إلى أصل واحد كاللغات السامية أو الحامية أو الهندية الأوروبية. ويكون هدفه من ذلك التأصيل التاريخي؛ كأن يستدل على قِدَم الظاهرة بالتماسها في أخواتها، أو حداثتها بتفرد اللغة المعنية بها من بين أخواتها، بحسب تاريخ تلك اللغة.

4. **علم اللغة الجغرافي:** اقتبس علم اللغة، منذ أكثر من نصف قرن مضى، طرق علم الجغرافيا، ليضع حدودا لغوية اللهجات المختلفة في خرائط تبين معالم كل لهجة، وتفرق بين لهجة وأخرى، ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا، إلا في أن ما يدوّن عليها ظواهر لغوية، تطلع القارئ على أدق الفروق في الأصوات والمفردات بين اللغات المختلفة، واللهجات المتباينة». ومن بين أبحاث علم اللغة الجغرافي دراسة عوامل مثل: اللغات المحلية (area languages)، ومجالات النفوذ اللغوي، ولغات السكان الأصليين (Indigenous)، والاستعمارية ((Colonial أو superimposed))، مع تتبع نفوذ الأخيرة على الأولى حتى بعد زوال الاستعمار. وكذلك دراسة موضوع اللغات الأولية (Primary) والثانوية ((Secondary في منطقة معينة، وما يترتب على ذلك من ثنائية اللغة (Bilingualism)، أو تعددها multilingualism)). ويعطي اهتماما أيضا لموضوع إحلال لغة محل أخرى، وموضوع اللغات الناشئة عن الهجرة أو التجنيس. كما يعطي اهتماما للمركز الاجتماعي أو التربوي (لغة رسمية (official language)، ولغة وطنية (national language)، ولغة أدبية literary language))، ولهجة (Dialect)، ولهجة شائعة بين أفراد الطبقة الدنيا في المجتمع (Patois)، ولغة طبقية (Class language)، ومجموعة من الكلمات أو التعبيرات أو المصطلحات الخاصة بمهنة أو جماعة معينة (Jargon)، ولهجة عامية Slang)). ويهتم إلى جانب هذا كله بمعامل معرفة القراءة والكتابة Literacy Coefficient)) الذي يوضح مجالات اللغة المكتوبة، وبالمعاملين الوطنيcoefficient (Nationalistic)، والديني (Liturgical)

اللذين يؤثران في حياة لغة ما، ومدى فاعليتها. وأخيرا يعطي اهتماما لمشكلة التعايش السلمي بين لغتين (أو أكثر) في مكان واحد، أو احتكاكهما وتبادل التأثير والتأثر بينهما.

المحور الخامس: دوافع المستشرقين في دراسة اللهجات العربية:

إنَّ دوافع المستشرقين في دراسة اللهجات العامية تختلف بحسب توجُّه المستشرقين، فمنهم من يقوم بدراستها لغرض علمي خالص، وهذا لا ضير فيه، بل إنَّه يدخل في حماية التراث الإنساني والثقافي من الاندثار، ومنهم من يقوم بدراستها لأهداف استعمارية تفكيكية. حيث أعدَّ المستشرق الألماني ج. هس (J.Hess)، بحثًا في لهجة نجد، تُلي في مؤتمر المستشرقين الذي عُقد في فيينا سنة: 1912م، كما قدَّم كتابًا سنة: 1938م، عن الملامح الصوتية والصيغ النحوية في لهجة عُتيبة (السفوح الشرقية في الحجاز)، وكتب - كذلك - عن اللهجة الدواسر (جنوبي نجد)، وكتب المستشرق النمساوي رودو كاناكس (Rhodokanakis)، عن اللهجات العربية جنوب الجزيرة سنة: 1904م، وكتب نصوصًا عن لهجة إقليم ظفَّار (سلطنة عمان)، وفي سنة: 1910م، كتب في اللهجة المهرية، وهكذا اهتمَّ المستشرق الإيطالي إتوري روسي (Ettore Rossi)، باليمن، فكتب كتابه (**العربية كما يتكلَّم بها في صنعاء: نحو، نصوص، مفردات**)، بعد أن تعلَّم لهجة عدن وحضرموت. وهكذا تنافس المستشرقون في دراسة اللهجات العربية، وتُعتبر مدرسة باريس للُّغات الشرقية والتي تأسَّست سنة: 1751م، وكان يدرِّس فيها المستشرق الفرنسي دي ساسي (ت: 1838م) من بين أهمِّ المراكز الاستشراقية في تعليم اللهجات.

وقد لقَّن المستشرقون بعض تلاميذهم من العرب الدعوة إلى استعمال اللغة العامية بدل الفصحى؛ بحجَّة أن الفصحى لا تستعمل في الحياة العامة حتى بين المثقفين أنفسهم؛ فهي في واد والحياة في واد آخر. وهي دعوة ظاهرة البطلان؛ لأن اللغة الفصحى هي التي يفهمها من يتكلمون العربية جميعا من مثقفين وغير مثقفين؛ فالعامة حين يستمعون إلى آيات القرآن يفهمون دلالتها وما تحمل من أوامر وزواجر وقصص ومواعظ، أما اللغة العربية العامية فلا تفهم إلا في نطاق ضيق بين المتحدثين بها في إقليم بعينه، وليس عجيبا أن تختلف العامية في بلد عنها في بلد آخر من بلاد اللغة الواحدة، فالإنجليزية تختلف عاميتها في إنجلترا

عنها في أمريكا، وهذه الدعوة لا تهدف في الحقيقة إلا إلى محاربة الإسلام؛ لأن اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن الكريم، كتاب هذا الدين الذي يربط بين أتباعه برباط متين، كما أنها اللغة الوحيدة التي يتلقى عنها أهل العربية في جميع أقطارهم في مجال العلوم والآداب والفنون، وفي أخذهم من تراثهم الرائع في مختلف فروع المعرفة. وقد لقّن المستشرقون أيضا بعض تلاميذهم من العرب الدعوة إلى ترك الإعراب وتسكين أواخر الكلمات العربية تسكينا لازما في جميع الأحوال، شأنها في ذلك شأن اللغات الأوربية، بحجة أن هذا الأمر ييسر تعلّمها، ويجعل متعلمها في مأمن من الخطأ. وهذا دعاء باطل يراد به هدم اللغة من أساسها، ومحاربة الإسلام؛ إذ كيف يقرأ كتاب الله جلّ جلاله وتقرأ أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه؟!.

وكانت الوسائل الاستعمارية التي نادى بها الاستشراق في العالم الإسلامي تهدف كلها إلى إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب، وتعمل على بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد؛ ليسهل بعد ذلك السيطرة عليها كما روَّج المستشرقون - كذلك - لبعض القضايا التي كانت لها أخطر النتائج في ازدياد عوامل الفرقة بين صفوف المسلمين، فمن ذلك مثلا: العمل على إحلال العاميات محل اللغة الفصحى في مصر وغيرها بدعوى أن الفصحى ليست قادرة على مسايرة الكشوف العلمية المتطورة، وكان أول من نادى بها في مصر المستشرق الألماني ولهلم سبيتا (ت: 1913م)، وكان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ووضع كتابه «**قواعد اللغة العامية في مصر**» سنة 1880م مَجَّد فيه للغة القبطية في مصر، ودعا العالم العربي إلى الأخذ بالعاميات بدلا من الفصحى، ولا يخفى ما في هذه الدعوى من الخطر على الإسلام ولغة القرآن.

ثم تابع نفس القضية اللورد دوفرين (ت: 1902م) في تقرير وضعه سنة 1882م أعلن أن العامية هي سبيل النهوض والتقدم في مصر، وجاء بعده المستشرق الألماني كارل فولرس (ت: 1909م)، مدير دار الكتب المصرية بعد «ولهلم»، فوضع كتابه «**القرآن بلهجة مكة الشعبية**»، و«**اللهجة العامية الحديثة**» دعا فيه إلى هجر الفصحى وحثّ العرب على استخدام الحروف اللاتينية بدلا من العربية، ثم تتبع القضية في مصر سلامة موسى (النصراني).

وليست دوافع المستشرقين في دراسة اللهجات بريئة، فقد تقاطعت مع مخطَّطات صهيونية تتمثَّل في تفتيت الوطن العربي، وتقسيمه إلى أشلاء ودويلات على أساس عرقي أو طائفي، مثل الدعوة إلى إقامة كيانات سياسية ونتج عن ذلك المطالبة بدولة للأكراد في العراق، والموارنة في لبنان، والدروز والعلويين في سوريا، والشيعة في العراق، والأقباط في مصر، وكيانات تابعة للبربر في دول شمال إفريقيا، وقد بدأت هذه الدعوات بإقامة دراسات ذات طابع عرقي لهذه المجتمعات.

وقد تناسى هؤلاء أنَّ اللغة العربية لم تقدِّم نفسها كبديل عن اللهجات الوطنية، وحتى الإسلام الذي عزَّز من وجود العربية لم يدع أيَّ مجتمع إلى التخلِّي عن ثقافتهم الشعبية لكنَّ نجاح العربية في توطين نفسها في أيِّ مكان وصله الإسلام جعل اللغات واللهجات الأخرى تندثر شيئًا فشيئًا مع الزمن وإلى هذا أشار المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون بقوله: «ولمَّا صارت اللغة العربية عامَّةً في جميع البلاد التي استولَوا عليها حلَّت محلَّ ما كان فيها من اللغات، كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية».

ثمَّ إنَّ اللهجة البربرية ظلَّت إلى عهد قريب تكتب بحروف عربية، وظلَّ المجتمع البربري يتواصل بلغته الأم متخذًا الحرف العربي مصدرًا موحّدًا للكتابة والقراءة؛ تمامًا مثل قيام القبائل الإفريقية بالتواصل بلغاتها ولهجتها وفق الخط العربي، الشيء الذي لم تجد له الحركات الشعوبية الأمازيغية تفسيرًا.

وأخيرًا إنَّ الدراسات البربرية (الاستمزاغية) في المغرب بصفةٍ خاصةٍ، وإفريقيا الشمالية بصفةٍ عامة لم تشهد بحثًا ومدارسة إلا في أواخر القرن التاسع عشر مع الباحثين الفرنسيين والإسبان المستمزغين بالخصوص مثل المستشرق الفرنسي ريني باسِّي (René Basset) الذي يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدراسات البربرية، إضافة إلى أعمال ليونيل غالان (L.Galand)، وروبير أسبينيون (R.Aspinion)، وفرناند بينتوليلا (Fernand Bentolila)، وبيارناي (S.Biarnay)، ودافيد كوهن (D.Cohen)، وجان ماري كورتاد (Jean-Marie Cortade)، وإميل لاووست (Emile Laoust)، مع مجموعةٍ من المفكرين المغاربة كميلود معمّري، وكاتب ياسين، ومحمد خير الدين، ومحمد شفيق، وأحمد بوكوس، ومحمد الشامي، وسالم شاكر، وعبد

الله بونفور... بيد أنّ الجغرافيا اللسانيّة والدراسات المعمّقة حول اللغات واللهجات في شمال إفريقيا لم تتطور إلا في بداية القرن العشرين مع باسّي (A. Basset) الذي مسح منطقة شمال إفريقيا لسانيّا ولغويّا وجغرافيّا، من الشمال إلى الجنوب، مرورًا بالجنوب المغربي، ما بين 1926م و1949م.

فلقد درس هذا الباحث المستمزغ (Le berbériste) أمازيغية الجزائر والتوارگ، وأمازيغية ليبيا وتونس وموريتانيا، وأمازيغية جنوب المغربي، وخاصةً أمازيغية فجيج. وتتسم أبحاث باسّي بكونها دراساتٍ ميدانيةً إجرائيةً أرشيفيةً، كان الهدف منها تسجيل جميع اللهجات البربرية وتدوينها وتوثيقها، مع دراسة ثوابتها ومتغيراتها.

ويمكن الحديث عن مجموعةٍ من المقاربات التي خضعت لها اللغة الأمازيغية كالمقاربة الكولونيالية، والمقاربة البيداغوجية، والمقاربة العلمية الأكاديمية، والمقاربة الصحفية الانطباعية. وعليه، فالدراسات الاستمزاغية التي أنجزت منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى سنوات السبعين من القرن الماضي هي دراساتٌ استمزاغيةٌ عسكريةٌ توثيقيةٌ واستخباراتيةٌ. كان الهدف منها قراءة الجهة المرصودة لغويًّا، وأنتروبولوجيًّا، وجغرافيًّا، ولغويًّا، واقتصاديًّا، مع رصد نقط القوة والضعف لاستغلالها واستثمارها سياسيًّا وعسكريًّا لصالح الدولة الحامية الغازية. وكانت معظم الدراسات الكولونياليّة تتّخذ، في تعاملها مع اللّغات واللهجات الأمازيغيّة، شكلَ مقاربةٍ بيداغوجيةٍ تعليميةٍ وتعلميةٍ ذاتِ أبعادٍ نحويّةٍ تداوليّةٍ، كما نفهم ذلك من خلال العناوين الموظفة في هذه الدراسات اللسانية والنحوية: (ملاحظات، ومقرّر، وملخّص، وموجز، ودراسة، وبحث، ومعجم)، (Notes, Manuel Esquisse ,Etude, Glossaire...). ومن جهةٍ أخرى، فلقد كانت هناكَ دراساتٌ استمزاغيّةٌ علميّةٌ وموضوعيّةٌ الغرض منها هو التعريف بالحضارة الأمازيغية، واستعراض تاريخها وآدابها وعلومها وفلسفاتها، سواءً أَكَتَبها مستمزغون أجانبُ أم مغاربيون.

الخاتمة:

أظهرت الدراسة مستوى العلاقة السيسيولوجية بين التوارگ وصنهاجة في موريتانيا، ومستوى الأواصر والأرومة بينهما، وكيف وحَّد الدين والجغرافيا بينهما في حقب متباينة. كما بيَّنت الدراسات الاستشراقية ذات العلاقة باللهجات البربرية (تاركية/ والصنهاجية)، وأبرز المستشرقين المهتمين بهذا المجال. إضافة إلى ذكر نماذج من مظاهر التداخل بين اللهجتان والعربية، وبيان أبرز الفروق اللغوية. وهكذا الحديث عن مناهج المستشرقين في دراسة اللهجات ودوافعهم وراء دراساتهم للهجات العربية.

وأخيرًا إن العربي الفاتح لشمال إفريقيا جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنه خضوع الأخوة، لا خضوع القوة، وتسليم الاحترام، لا تسليم الاجترام. والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية، ولكنه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الأَمَة للسيدة. وإذا رضي البربري لنفسه الإسلام طوعًا بلا إكراه، ورضي للسانه العربية عفوًا بلا استكراه، فأضيعُ شيء ما تقول العواذل، واللغة البربرية إذا تنازلت عن موضعها من ألسنة ذويها للعربية لأنها لسان العلم وآلة المصلحة، فإن كل ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول ، وإذا كان الرجل في مجتمع البربر ظلَّ لقرون يجهل حروف التيفيناغ - على مستوى النخبة ولا يعرف صيغها الصرفية الجديدة - وظلَّ يكتب بالحرف العربي فلماذا لا تعود الحركات الشعبوية الأمازيغية إلى الخط العربي.

هذا وتوصَّل الباحث إلى النتائج الآتية:

1. عمق الدراسات الاستشراقية حول اللهجات البربرية، ومدى المعرفة العميقة بالمجتمعات الصحراوية.

2. صعوبة إيجاد مرجع لغوي موحَّد للهجات البربرية، وأنَّها متباينة، ويصعب حصرها في معجم لغوي واحد.

3. العلاقة التاريخية الوثيقة بين قبائل التوارگ والقبائل الصنهاجية الموريتانية.

ويوصي بالآتي:

1. ضرورة القيام بترجمة أعمال المستشرقين وإعداد دراسات أكاديمية تحليلية ترصد أبعاد الظاهرة الاستشراقية في الاهتمام بالمجتمع البربري بعيدًا عن الأطروحات الاستعمارية.

2. العمل على إبعاد النزعة الشعوبية والقومية التي تمجِّد الشعوب على أساس أجناسها من المجال العلمي والأكاديمي.

3. السعي في إبراز التنوُّع الثقافي والشعبي بما يخدم مصالح المجتمعات المحلِّية - وفق الأسس والنظم الإسلامية - بعيدًا عن المشاريع الدولية الكبرى، والتي تسعى في تفكيك المجتمعات على أساس العرق والجنس وذلك رغبة في تحقيق مطامحها الإستراتيجية في المنطقة المغاربية عمومية.

السرد الأدبي الإفريقي المكتوب بالعربية من خلال كتاب الشعر الإفريقي في الغرب الإسلامي

د. إبراهيم أزوغ

تقديم:

ساهمت عوامل ثقافية وحضارية وتاريخية عديدة ومختلفة في جعل الأدب الإفريقي المكتوب بالعربية، مُكابرة ومرافعة إبداعية جمالية ولغوية، وتعبيرا عن النبوغ الإفريقي في الإبداع الأدبي المكتوب بالعربية منذ وقت مبكر؛ حيث كان ولا يزال للارتباط الإفريقي بالثقافة العربية والإسلامية كبير أثر؛ بانخراط الفقهاء والعلماء والمتصوفة في الاهتمام البالغ بالعربية؛ لغة للمعرفة والإبداع، وخاصة الإبداع شعرا، وقد شكلت التجارب الأدبية الحديثة، استئنافا وتطويرا للأدب الإفريقي في أشكاله الشعرية الأولى، بغنى مرجعياتها وتعدد أجناسها وتنوع أشكالها وتقنياتها الفنية، وموضوعاتها وقضاياها.

وإذا كانت إبداعات الروّاد أمثال أحمد بابا التمبكتي، والأديب الكبير أبي إسحاق إبراهيم الكانمي، وعيسى ألبي أبو بكر، ومختار سي، ومحمد أمين الجابي وآخرون ممن استأنفوا الإبداع الشعري في القرون القليلة الماضية والتي عرفت طفرة على المستويين الكمي والنوعي، تؤكد على ذلك الموسوعة التي أصدرها أستاذ الأدب الإفريقي بجامعة سنفونيا كوناكري بغينيا عمران كبا حول «الشعر العربي في الغرب الإفريقي» ، قد شكلت وتشكل دليلا راسخا على الإبداعية الإفريقية ونضج شعرياتها، فإن الإبداع سردا لا يقل مكانة وحضورا وجمالية عن الإبداعات الشعرية؛ فقد استطاعت النصوص السردية الإفريقية عموما والمكتوبة منها بالعربية على وجه التحديد، أن تجد لها موقعا بارزا في السردية الإبداعية الكونية.

1. في علمية الكتاب وخصائصه:

نرمي في هذه الورقة إلى تقديم رؤية عن السرد الافريقي من خلال كتاب موسوعي بعنوان « الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين». هذا الكتاب الذي كاد أن يكون بطاقة هوية وتعريف شاملة للأدب بالعربية في إفريقيا جنوب الصحراء، وعنوانا على المكابرة والنبوغ الإفريقي في الإبداع واللغة

العربيين، وعنوانا للإرث الحضاري والثقافي لمنطقة الغرب الإفريقي وتأكيدا لهويتها الثقافية، وإذا كان الكتاب قد أولى اهتمامه للإحاطة بالإبداع الشعري فليس معنى ذلك خلو المكتبة الإفريقية في الغرب الإفريقي من الإنتاج السردي العربي ولعل ذلك ما يدفعنا إلى أن نجعل من هذه الورقة العلمية التقديمية لمحة موجزة حول السرود الإفريقية بالعربية، والتمثيل لها ببعض العناوين التي لقيت تلقيا واسعا، وشكلت عنوانا عريضا للإبداعية وشعرية السرد في إفريقيا.

ولعل أبرز تجليات علمية هذا الكتاب الذي نجعله المصدر الأساس لمادتنا المعرفية، أنه يحدد موضوعه في الشعر وهو اعتراف بصعوبة التناول الشامل للإبداع الإفريقي، من جهة، ومن جهة أخرى تعبير عن سعة المدونة الشعرية الإفريقية، وهو ما تعكسه كذلك الأجزاء الثلاثة الضخمة للكتاب.

ومن مظاهر علمية الكتاب كذلك، الوعي بأهمية المفهوم وتحديده؛ إذ يعمل الباحث على تعريف الأدب الإفريقي، وتحديد المقصود منه في الكتاب بعد الإحاطة باستعمالاته المكننة، ودلالاته المحتملة دون جزم أو إطلاق في التحديد يقول الكاتب «وأما تركيب الأدب الإفريقي فكأنه يدل على أدب القارة الإفريقية مع ما فيها من شعوب متباينة من سودانية وعربية لا تنتمي لغاتها في الأصل إلى وحدة لغوية، وهذا ما لا يقول به من الباحثين الأفارقة والمستفرقين ، وربما لمن يعطي للمصطلح مفهوما جغرافيا عاما، وكأنه يقابل قولنا: أدب أوروبي، وأدب أسيوي.

وأما إذا أردنا الدقة، والميل إلى ما أجمع عليه المولعون بهذا الميدان فإنه يقتصر على انتاجات أدباء المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى حتى التقاء القارة بالمحيط في أقصى جنوبها، من السنغال إلى جنوب افريقيا...إن الأدب الافريقي هو كل ما أنتجه أديب ينتمي إلى بيئات إفريقيا الغربية والجنوبية والكاريبي من أدب شفاهي أو كتابي» . ولم يركن الكاتب للمرجع الذي يمنح الأولوية للعنصر العرقي؛ الذي قد يجعل اللون أساس تحديد الأدب. وقد اعتمد إلى جانب ذلك في إعداد الكتاب وجمع مادته، على مصادر علمية ثلاثة؛ أولها المتون حيث اعتمد الدواوين المطبوعة والعبور منها إلى المخطوطات، وثالث المصادر البحوث والدراسات التي أنجزها الباحث الافريقي في الجامعات العربية وفي دول المنطقة عموما.

2. تحقيب الأدب الإفريقي المكتوب بالعربية:

ويتألـف كتاب «الشـعر العربي في الغرب الإفريقـي في القرن العشرين»، مـن ثلاثة أجزاء؛ ويحـدد مؤلفـه الدكتـور عمران كبـا تصميمـا ومنهجا للتنـاول للأدب الإفريقـي المكتوب بالعربيـة، عـبر مراحـل مـر منهـا هـذا الأدب، شـكلت تحقيبـا لـه وخريطـة لتحولاتـه وتطوره:

- **مرحلـة الآداب الشـفهية التقليديـة:** ويحـدد هذه المرحلـة؛ في المراحـل الأولى قبل وصـول الإسـلام إلى افريقيـا وقد كانت تعـرف هذه المرحلـة الأدب الشـفهي ولا يزال بحسـب الباحث هـذا النوع مـن الأدب متداولا خاصـة في المناطق القرويـة، وخاصية هـذا الأدب يقـول كبـا أنـه يتـوزع بـين الفنـون الفولكلوريـة، والأغانـي والأناشـيد والأشـعار الشـعبية، وقصـص ومسرحيـات وحكـم وألغـاز نثريـة ممـا يؤكـد عـلى تنوعه وغنـى أشـكاله التعبيريـة وألوانه.
- **مرحلـة مـا بعـد وصـول الإسـلام إلى الآن:** يحـدد كبـا منطلـق هـذه المرحلـة رغـم إشـارته إلى نسـبية التحديـد التاريخـي، في القـرن الثانـي الهجـري الموافـق للثامـن الميـلادي، منتقـلا إلى مـا أطلـق عليـه «أدب إفريقـي إسـلامي» يتـم تدوينـه باللغـات المحليـة أو باللغـة العربيـة، ويعتـبر كبـا أن جـل هـذا الإنتـاج الأدبـي جـاء شـعرا، ويؤكـد هـذا السـبق للتدويـن لـلأدب بالعربيـة أصالـة الأدب العربـي الافريقـي وكونـه مكـون ثقـافي افريقـي عريـق.
- **مرحلـة اسـتعمار دول المنطقـة إلى مـا بعـد اسـتقلالها:** المرحلـة الأخـيرة وهـي التـي يحددهـا الباحـث في المرحلـة التـي تبـدأ ببدايـة القـرن التاسـع عـشر إلى اليـوم، وقـد عـرف أدب هـذه المرحلـة مؤثـرات أدبيـة نتيجـة الاحتـكاك بـالآداب الأجنبيـة، ومـن مسـتجدات هـذه المرحلـة أن الكُتـاب باتـوا يبدعـون كذلـك بلغـات الأجنبـي الفرنسـية، والانجليزيـة، والبرتغاليـة، وغيرهـا.

ومثلما استحدثت أشكال وأجناس جديدة في الأدب الإفريقي؛ مثل القصة القصيرة والمسرحية والأقصوصة والقصيدة الشعرية الحديثة، يمكن كذلك الحديث عن آداب افريقية تتعدد ليس بأجناسها أو أجيال مبدعيها فقط، بل كذلك بلغاتها، فهناك يقول كبا، أدب إفريقي انجليزي وآخر فرنسي وثالث برتغالي إلى جانب العربي والآداب المكتوبة باللغات المحلية.

3. السرد الإفريقي المكتوب بالعربية: أجناسه وأعلامه وأهم موضوعاته:

استنادا إلى التقسيم التحقيبي الأول، الذي قدمه كبا للأدب الإفريقي في بداية الكتاب (الإفريقي التقليدي، والإفريقي المكتوب باللغات المحلية، ثم بالعربية، فاللغات الأوربية والأنجلوسكسونية) تتبع الباحث الأدب الإفريقي في تطوره وتعدد موضوعاته المتباينة وأشكاله الفنية وأهم أعلامه.

وإذا كانت الآداب التقليدية تولي اهتماما لتصوير حياة المجتمع الإفريقي، وتكتب ذاته وثقافته، وترسم معالم لهوية ثقافية تحدد مجاله الشاسع، فإن الآداب الحديثة إلى جانب كونها لم تهمل الموضوعات التي استأثرت بوجدان الإنسان الإفريقي، وقيمه وأرضه وارتباطه بها وبمجتمعه، فإنها كذلك عبرت إلى الكثير من الموضوعات الجديدة، ووجهت بجرأة واضحة نقدا للذات والمجتمع والتاريخ الإفريقي العام والخاص، وشكلت موضوعات لها صلة بالأساس بالتاريخ ومشاكل المجتمع وتخلفه، أهم القضايا والموضوعات التي شغلت الأشكال الأدبية الحديثة.

يؤكد عمران كبا، وتسايره الدراسات التوثيقية للأدب الإفريقي المكتوب بالعربية -على قلتها- على أن القصة والرواية والمسرحية لم يتناولها الأدب الإفريقي باللغة العربية إلا في الراهن، ويعود السبب بحسب الباحث إلى كون الثقافة العربية لم تحمل إلى إفريقيا أدبا أكثر تأثيرا من الشعر الجاهلي، أما باقي الأجناس الأخرى فلم تنل حظوة أكثر منه؛ مثل المقامة والرسالة والخطبة وغيرها، ولم تحملها إلا نيجيريا التي يؤكد كبا أنها حازت قصب السبق في إبداع الرواية والقصة في الأدب الإفريقي، وهي إشارة يمكن العودة إليها في نهاية هذه الورقة لتأكيدها والإحاطة ببعض معالم الأدب الحديث المكتوب بالعربية في نيجيريا.

وإلى جانب الأبحاث العلمية الكثيرة التي أنجزت في الجامعات الإفريقية حول الآداب الحديثة، فقد بادر بعض أساتذة الجامعات الإفريقية إلى التأليف في هذه الفنون النثرية، وخاصة في نيجيريا والتي سنقف عليها إضافة إلى ما يقدمه كتاب كبا الاستثنائي.

ويشير كبا في سياق آخر إلى أن ترجمة بعض الأعمال الأدبية التقليدية إلى العربية له دور كبير وتأثير على متلقي الأدب الإفريقي، إذ نهض عدد لا بأس به يسجل المؤلف، من المثقفين بهذا العامل المهم في الدفع بالآداب الإفريقية

المكتوبة بالعربية إلى التبيئة، وكذلك الترجمة من الآداب النيجيرية وخاصة في السرد الحديث، مثلما ترجمت من لغات أخرى وخاصة الفرنسية والانجليزية.

ولقد كانت الجامعة والباحث النيجيري مثل المؤلف المبدع في مقدمة من كتبوا كذلك في المقالة العلمية التي تتناول الأدب الحديث بالتفكير والتحليل والمتابعة؛ في الصحف والمجلات العلمية المتخصصة في دراسة الأدب الإفريقي، غير أن عدد المجلات، وهي قليلة، مقارنة بسيل قلم المبدع الإفريقي بكل اللغات، الذي لم يسمح إلا للقلة على النشر، وكذلك على المساهمة في تطور السرد الإفريقي، وقد أشار كبا إلى عدد لا بأس به من المجلات في أقطار إفريقيا؛ وخاصة في النيجر والسنيغال ومالي؛ ومنها مجلة الصداقة والصحوة والواحة والتواصل والوفاق والمستقبل والوظيفة (...) وغيرها من المجلات التي أصدرت أعدادا ثم توقفت لأسباب مختلفة.

وإذا لم يكن كبا قد توسع في دراسته وتقديمه للسرد الإفريقي المكتوب بالعربية نظرا أو لكون هذا الأخير، لا يزال يعرف احتشاما، فإنه استفاض ومنح لدراسة الشعر الإفريقي المكتوب بالعربية دراسة موسوعية محيطة شملت مختلف جوانب دراسة الشعر؛ إن من حيث أنواعه وأغراضه وأساليبه وموسيقاه وموضوعاته، كما ضمن الجزء الثالث ملاحق تتصل بموضوع دراسته وشملت خرائط لدول الغرب الإفريقي مجال الدراسة، وصور أعلام الشعر الإفريقي المكتوب بالعربية، وعناوين الدراسات ونصوص مختارة، إلى جانب فهرسة للقوافي والأعلام والبلدان والمدن، مما يؤكد من جهة الجهد العظيم الذي بذله الرجل في هذا المصنف العلمي الاستثنائي، وكذلك الدرجة العلمية العالية والدقيقة للموسوعة المحيطة، التي قدمها كبا.

4. على سبيل التركيب والمثال: النثر العربي في نيجيريا:

لقد عرف أبو بكر أمين النثر باعتباره هو « كل ما ليس بالشعر من حيث الصياغة، بحيث لا يكون موزونًا ولا مقفّى. ولكنه عاطفيٌّ ومثير للعاطفة كالشعر. فالنثر هو ما وافق الشعر في الذوق والإثارة وخالفه في الوزن والقافية» . ويرجع بعض الباحثين تأخّر ظهور النثر العربي في نيجيريا مقارنة بالشعر إلى كون هذا الأخير أقرب إلى طبيعة البشر.

بدأ النثر المكتوب باللغة العربية بالظهور في نجييريا مع بدأ الخطب المنبرية التي يلقيها الأئمة في الجُمع والأعياد، وذلك بعد تزايد أعداد المسلمين في نيجيريا، وتزايد عدد الأئمة الذين يلقون الخطب باللغة العربية في المجامع والمواسم الدينية.

وقد عرفت نيجيريا فن المقامة باعتباره فنا عربيا معقدا، لما يحتاج إليه من معرفة بالبيان والبديع، أوائل أربعينيات القرن العشرين، وتطور بعد ذلك في أشكاله وموضوعاته، بازدهار النثر الفني العربي النيجيري على يد عدد من المثقفين والكتاب بإبداع أشكال أدبية أخرى جديدة إلى جانب الخطابة المنبرية التي شكلت الفن السائد والمهيمن. ومع تطور الأشكال الفنية النثرية وظهور أجناس ابداعية جدية بدأ النثر الفني النيجيري تخلص من طبعه التقليدي ويتحرر من القيود التي عاقت حركة تطوره لعقود من الزمن فظهرت الحكاية والقصة والرواية النيجيريتين.

وويميز كبير أبو بكر أمين بين الأشكال الإبداعية الثلاثة الأولى بقوله «تتنوع القصة إلى الرواية وهي أكبر أنواعها حجما، ثم الحكاية التي هي عبارة عن وقائع حقيقية أو خيالية يدونها الحاكي في قالب فني مثير ودقيق. وأما القصة القصيرة، فهي تمثل حدثا واحدا في وقت واحد، وزمن واحد، يكون أقل من ساعة. وأما الأقصوصة: فهي أقصر من القصة القصيرة وتقوم على رسم منظر».

إلى جانب هذه الأشكال الإبداعية يؤكد أبو بكر أمين أن المسرحية كذلك قد عرفت طريقها إلى الظهور ويعرفها بكونها «ذلك الجنس الأدبي الذي يقوم على رواية قصة من خلال حديث شخصياتها ووصف حركاتهم وأفعال يمثلها الممثلون على المنصة أو خشبة المسرح أمام الجمهور». ويمثل أمين نقلا عن زاويا غرب طن ظوهو للنصوص المسرحية المنشورة بنماذج ومن المسرحيات العربية في الأدب النيجيري مثل:

1. مسرحية (العميد المبجل) التي كتبها زكريا إدريس حسين (1994م)
2. مسرحية (أستاذ رغم أنفه) لمسعود عبد الغني ألبى (2001م)
3. مسرحية (العجيب والنجيب) لأحمد سعيد الرفاعي (2005م)
4. مسرحية (العبقرية النادرة) لموسى محمد الجامع الفلاتي (2012م)

ومثل أبو بكر أمين كذلك لنصوص السيرة الذاتية التي ظهرت باعتبارها شكلا ابداعيا جديدا على الإبداعية الإفريقية التقليدية وفنونها الأدبية؛ بنص الأستاذ الدكتور محمد الأول أبوبكر؛ كبير أساتذة النقد الأدبي بقسم اللغة العربية بجامعة بايرو، (يوميات إمام وخطيب في مناخ جامعي) ونشره عام 1998م. ثم نص للأستاذ آدم عبد الرحمن الفلاتي الجزء الأول من سيرته الذاتية بعنوان: (على الطريق) وذلك عام 2008م كتبها على غرار سيرة طه حسين الذاتية (أنا).

وأما الرواية وهو الذي اعتبره الباحث أبو بكر أمين وكثير من الباحثين الأفارقة أبرز فن أدبي حديث في الأدب الافريقي، وميز أمين بشير الرواية بكونها تهتم «بتصوير الذات البشرية تصويرا شاملا يتم من خلاله تشخيص الحالات والأفراد والتطورات والنتائج المتولدة من الأحداث. وتهتم الرواية في الغالب باستيعاب الخطاب اللغوي وغير اللغوي ووصف الشخصيات والبيئة المحيطة بهم» . ويشير الكثير من الدارسين إلى تأخر ظهور الرواية في الأدب النيجيري مقارنة بأقطار دولية أخرى غربية وعربية، ولكنها الأسبق مقارنة بأقطار افريقية ويعرض أبو بكر أمين لنماذج من الروايات النيجيرية بالعربية ونأتي على أمثلة منها:

أولا: أعشاب ملتهبة (1997م) لمسعود راجي

وقد كتبت هذه الرواية باللغة الإنجليزية بعنوان (Burning Grass) على يد سيبيرين إكونسي (Cyprian Ekwensi) ثم ترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ الدكتور مسعود راجي؛

ثانيا: لماذا يكرهوننا (2003م) للسيد ثالث مَيْ أَنْغُوَا دُرِمِنْ إِيَا

ألف هذه الرواية السيد ثالث مَيْ أَنْغُوَا دُرِمِنْ إِيَا عام 2003م، وهو من مواليد مدينة كَنُو في شمال نيجيريا في نهاية الستينات،

وهذه الرواية تعتبر أول رواية عربية بطابع محلي في نيجيريا،

ثالثا: السيد الرئيس (2010م) للسيد حامد محمود إبراهيم الهجري

هذه الرواية من تأليف السيد حامد محمود إبراهيم الهجري، وهو باحث وفنان نيجيري،

رابعا: ادفع بالتي هي أحسن (2014م) لجميل عبد الله الكنوي

وهذه الرواية يمكن أن تعتبر بمثابة نسخة عربية لما هو المعروف بـ «أدب سوق كنو»؛ وهو مصطلح أدبي يشير إلى حالة مدينة كنو وأدبها.

خامسا: الرئيس الذي لم يحكم (2015م) لجامع أبيولا

ولد الروائي جامع أبيولا في ديسمبر عام 1975م، وتخرج من جامعة نيويورك حيث درس العلوم السياسية. ثم درس أيضا الترجمة في الجامعة نفسها.

والرواية عبارة عن قصة واقعية عن والد الروائي (مشهود أبيولا) الملياردير الأفريقي الذي كوّن نفسه بنفسه واستطاع بجهوده الكبيرة أن يحصل على كل شيء يريده. فهي سيرة حقيقية لحياة مشهود أبيولا.

الخاتمة:

إن الغاية التي كنا نقصدها من خلال هذه الورقة، لا تتمثل في الإحاطة بالأدب الإفريقي المكتوب بالعربية، وذلك لاستحالة الأمر مرحليا لعدم توفر المادة العلمية التي قد تمكننا من جرد بيبليوغرافيا للأدب الإفريقي المكتوب العربية، وإنما تقديم لمحة موجزة عن هذا الأدب وبيان غناه وتطور أشكاله من الشعر الذي كاد أن يكون ديوان الإفريقي بالعربية، إلى أشكال نثرية حديثة عرفتها افريقيا جنوب الصحراء عن طريق عبور العرب والمسلمين إلى أقطار إفريقيا أو عن طريق المستعمر أو المثاقفة وخاصة بعد ما عرفه العالم اليوم من محو للحدود والمسافات بين أقطار وقاراته بفضل الثورة التكنولوجية الكونية. وهكذا يمكن القول ختاما إن الإفريقي قد أبدع بالعربية مثلما أبدع بغيرها من اللغات الكونية أو المحلية التي تعرفها، وعبر من خلالها عن ذاته وثقافته وهويته ومجتمعه.

المخطوط الإسلامي في التراث الأفريقي وإسهامه في خدمة العلوم الإنسانية:
مراكز المخطوطات بالنيجر نموذجاً

د. علي يعقوب

المقدمة:

إن غرب أفريقيا من المناطق التي تزخر بالمخطوطات العربية الإسلامية، وفيها مراكز للمخطوطات التي أسستها الحكومات بعد الاستقلال من الاستعمار الغربي لحفظ تراثها الحضاري والثقافي، والمكتبات الخاصة في الأسر العلمية. ومن الدول التي اعتنت بجمع مخطوطاتها جمهورية النيجر التي أسست معهدا خاصا لجمع تراثها الحضاري والثقافي في العاصمة نيامي، وأسست مراكز أخرى في بعض الأقاليم. وتعد مراكز المخطوطات العربية في النيجر من المراكز المهمة في المنطقة عامة والنيجر خاصة؛ لما تحتويه من المخطوطات العربية والعجمية الأصلية الخاصة بتاريخ البلاد وشعوبها، ومنطقة غرب أفريقيا. ومن أهم مراكز المخطوطات في النيجر: قسم المخطوطات العربية والعجمية في معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي، ومركز إحياء التراث العربي الأفريقي بالجامعة الإسلامية، ومركز مخطوطات مدينة أبلغ في إقليم تاوا (Ta-houa) ومخطوطات في مكتبات خاصة بإقليم تيلابيري (Tillaberi)، وكذلك باقي الأقاليم، وتضم المراكز مخطوطات مهمة في العلوم الإسلامية واللغة العربية والتاريخ، ومخطوطات باللغات المحلية مثل: الهوسا وسنغي/زرما، وفلانية.

ونريد من خلال هذا المقال الذي يحمل عنوان: المخطوط الإسلامي في التراث الأفريقي وإسهامه في خدمة العلوم الإنسانية: مراكز المخطوطات بالنيجر نموذجاً"، تسليط الضوء على بعض مراكز المخطوطات في النيجر من حيث المحتوى، ومن حيث إسهامها في خدمة العلوم الإنسانية. وجعلنا المقال في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة. تحدثنا في التمهيد عن أهمية المخطوطات العربية في غرب أفريقيا. وجعلنا المبحث الأول حول قسم المخطوطات العربية ومخطوطاته. وأفردنا المبحث الثاني للحديث عن مركز إحياء التراث العربي

الأفريقـي بالجامعـة الإسـلامية بالنيجـر ومخطوطاتـه. وجعلنـا المبحـث الثالـث متمحـوراً حـول مركـز أبلـغ ومنطقـة تيلابـيري ومخطوطاتهمـا، مـع التطرق لإسـهام المراكـز في خدمـة العلـوم الإنسـانية. وضمّنـا الخاتمـة أهـم النتائـج والتوصيـات.

تمهيد: أهمية المخطوطات العربية في غرب أفريقيا:

تعتـبر المخطوطـات العربيـة أهم مـوروث ثقـافي في غـرب أفريقيـا، وهي في الوقـت ذاته تمثـل الذاكـرة العلميـة والثقافيـة للمنطقة برمتهـا قبل الاسـتعمار الغربي لهـا، ذلك أن الحركـة الفكريـة والنهضة العلميـة والثقافية التي عرفتهـا المنطقة في القرون الوسـطى، كان مـن أسـبابها ما وفـره الحكام والملـوك من جو مفعـم بالأمن والاسـتقرار، إضافة إلى التقديـر والاحـترام الفائقـين اللذين حظي بهمـا الفقهاء والعلمـاء والدعـاة، كل هذا دفع بالكثـير مـن النخبـة المثقفـة مـن المشرق والمغـرب وبـلاد الأندلـس إلى أن يتوجهـوا نحو هـذه البـلاد التي نعمـت برخـاء اقتصـادي زاهر، ومسـتوى معيشـة طيبة، فـكان لهذه الظـروف مجتمعـة الفضل الأكـبر في خَلْق جـو علمي جـذاب في مدن منحنى نهـر النيجر فانتـشرت المـدارس والجامعـات في المدن والقـرى، مثل: جامعـة سـنكُرى، وجِنْغري بيير (المسـجد الكبـير) في مدينـة تنبكـت، ومسـجد جنـي وغـاو، ومسـجد أغاديـس وتغيـدا (Tigedda) وفي مسـاجد مدينـة كتشـينا وكانو.

وبلغـت المـدارس القرآنيـة المئات حيـث أحصت بعـض المصـادر التاريخيـة المحلية أكثر مـن مائـة وثمانـين مدرسـة (180) في مدينـة تمبكتـو وحدها، وذكـر المؤرخـون وجود حـوالي أربعـة آلاف ومائتـي (4200) فقيه وعالـم في مدينة جني وحدها أثناء إسـلام ملك مـن ملوكهـا في القرن السـادس الهجري.

لقـد كان العلمـاء والفقهـاء والصلحـاء يؤسسـون مكتبـات خاصـة في بيوتهـم، وفي دور التعليـم، وفي الجوامـع وفي أحيائهـم المتنقلـة، ويحملـون كتبهـم عـلى ظهـور الجمـال أثنـاء ظعنهـم، وكذلك فعـل بعض الملـوك والسـلاطين في المنطقـة حيث أسسـوا مكتبات بقصورهـم الملكيـة التي زخـرت بالكتـب القيمة، والمخطوطات النفيسـة في شـتى الفنون والمعارف.

وتذكـر المصـادر قصـة الملك الأسـكيا داود الـذي كان مولعـاً بالكتـب شـغوفا باقتنائها؛ فكانـت لـه مكتبـة ضخمة تعـج بالكتب النـادرة والثمينة، وكان له نُسـاخ ينسـخون له الكتـب، وقـد بلغ شـغفه بالكتب أنه اشـترى القامـوس المحيـط بمبلغ بلغ ثمانـين مثقالا من الذهـب الخالص.

ويذكر العلامة أحمد بابا التنبكتي في هذا السياق في جمع الكتب وتأسيس المكتبات: «أنا أقل عشيرتي كتبا، نهب لي ألف وستمائة مجلد».

كان الشيخ العلامة سيد المختار الكبير الكنتي يرسل مع كل قافلة تمر بمحلته إلى بلاد المغرب من يشتري له الكتب التي يحتاج إليها من هنالك، وراسل الملوك والأمراء والعلماء، ومريديه في بلاد المغرب الأقصى بما يطرأ عندهم من كتب ومؤلفات، بل راسل الشيخ مرتضى الزبيدي وغيره من العلماء لهذا الغرض، وكذلك فعل أبناؤه وأحفاده من بعده، حيث نجد مراسلاتهم للملوك والسلاطين والأمراء في البلاد الإسلامية وفي أغلبها نجد طلبات للكتب وغيرها مما يتبادل بين العلماء والأعيان.

وتسفر ما تزخر به المنطقة في الوقت الحالي من مخطوطات، عن ضخامة الموروث الثقافي والفكري الذي تركه أعلام تلك الحقبة من العلماء، وأنهم أثروا الحياة العلمية والثقافية، ولاشك أن ما تحفل به مكتباتنا، وما تراكم في جنبات مراكزنا العامة والخاصة من وثائق نادرة، ومخطوطات قيمة ونفيسة أصدق دليل على ما أسلفنا ذكره، ولا شك أن المخطوطات تمثل الجانب المهم من التراث، والجانب المعرض في نفس الوقت للضياع والتلف إن لم نكرس طاقاتنا وإمكانياتنا لنجدتها، ونبذل الوقت والجهد في البحث عنها وجمعها وصيانتها والحفاظ عليها، قبل أن تعصف بها عوامل الطبيعة من أمطار وتصحر وأرضة وسوء تخزين.

مراكز المخطوط العربي الإسلامي في النيجر:

تعد النيجر من المناطق التي دخلها الإسلام في وقت مبكر من تاريخه، وبخاصة في شمالها الشرقي محافظة بلما (Bilma) بإقليم أغاديس) وذلك في القرن الأول الهجري الموافق للقرن السابع الميلادي، بعد انتشار الإسلام واللغة العربية فيها، وبخاصة في عهد الدول الإسلامية التي قامت في المنطقة، ازدهرت حركة التعليم والكتابة فيها. لقد اهتم النيجريون باللغة العربية والثقافة الإسلامية ودرسوها ودرّسوها، وجمعوا الكتب وكَوَّنوا مكتبات عامة وخاصة، وبفضل الله تعالى تمّ جمع محتويات بعض هذه المكتبات في مراكز خاصة في البلاد، وكان الهدف من تأسيس مراكز المخطوطات:

- العناية بالتراث الإسلامي بأنواعه المختلفة، والتنقيب عنه لمعرفة أماكن وجوده والتعريف به وجمعه وإحصائه وفهرسته، وتمكين الباحثين من الوصول إليه.

- توعية الشعب بأهمية المخطوطات والحفاظ عليها، وبيان مكانتها عند الشعوب والأمم.
- توفير الخدمات المتعلقة بالمخطوطات للباحثين الذين يريدون الإسهام في هذا التراث بتحقيقه، والعمل على نشره.

المبحث الأول: قسم المخطوطات العربية والعجمية بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية في جامعة عبدو مومني بنيامي:

يقع قسم المخطوطات العربية والعجمية في جنوب المعهد في مبنى متوسط ومستطيل يحتوى على مكاتب، وقاعة المخطوطات، وقاعة للقراءة مزودة بطاولات وكراسي لرواده، ويستفيد القسم من الميزانية السنوية التي تقدمها الحكومة النيجرية للجامعة الوطنية لتسيير الشؤون الأكاديمية والإدارية والبحثية، ولمزيد من السعي من أجل اقتناء أكبر عدد ممكن من هذا التراث المخطوط، وصيانته وحفظه مع العمل على جعل القسم يسير نحو مواكبة تطور العصر في حفظ وصيانة وفهرسة هذا التراث الضخم، الذي يعتبر اليوم المصدر الأساسي الأول لكثير من العلوم الإنسانية والاجتماعية والتاريخية للشعب المطل على حوض نهر النيجر [4].

يعتبر السيد "بُوبُوُ هَما" (Boubou hama) رئيس مجلس النواب (البرلمان) بالنيجر من عام 1958م إلى عام 1974م، أول من أسس مركزا للمخطوطات في النيجر، وهو مهتم بتاريخ النيجر وقبائلها وعاداتها، وأثناء كتاباته حول تاريخ النيجر وقبائلها "ظهرت له أهمية التراث المخطوط العربي الإسلامي في إعادة كتابة تاريخ بعض القبائل النيجرية، وبدأ سعيه في جمع واقتناء هذا النوع من التراث العربي الإسلامي من المكتبات الأسرية الخاصة والفردية، وقد جمعها لأول مرّة في مكتبه الخاص في مجلس النواب النيجري، ومن هنا يمكن اعتبار مكتبه بهذه الصفة النواة الأولى لمراكز المخطوطات التراثية في النيجر.

استطاع السيد «بوبوهما» أن يجمع قدرا كبيرا من المخطوطات من مكتبات خاصة وأفراد عن طريق الشراء، أو الإهداء أو الاستنساخ، أو التصوير من داخل النيجر والدول المجاورة، مثل: مالي ونيجيريا وبوركينا فاسو وموريتانيا، واستطاع كذلك إقناع شركات محلية والبنك الوطني النيجري لتقديم دعم مادي له في حملته الهادفة إلى جمع قدر كبير من المخطوطات.

بعد الانقلاب العسكري الذي شهدته النيجر عام 1974م تم في العام نفسه فتح قسم المخطوطات العربية والعجمية بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية التابع لجامعة نيامي، فتم نقل كنوز مكتبة السيد "بوبو هما" الخاصة إلى المعهد "الذي تحمّل مهمة الاهتمام بالمخطوطات واقتنائها والحفاظ على سلامتها والحرص على اجتلابها من مختلف مناطق الدولة وخارجها، والعمل على دراسة وتحقيق نفائسها.

وقد اتخذ المعهد سبلا ووسائل في الكشف والتنقيب عن المخطوطات، والتعريف بها وبيان أهميتها في التراث الوطني، فأقام معرضه الأول للمخطوطات في مدينة أغاديس التاريخية، شمال النيجر عام 2012م.

1. أنواع مخطوطات القسم: في القسم نوعان من التراث المخطوط:

أولهما: مخطوطات مكتوبة باللغة العربية وهي الكثيرة الغالبة، وتتمثل في مؤلفات العلماء المحليين القدماء، وبعض العلماء المعاصرين وغيرهم من علماء المشرق والمغرب في شتى العلوم والفنون، وبعضها منسوخة من الكتب المقررة في المدارس القرآنية والحلقات العلمية التقليدية، ومن الزوايا العلمية.

ثانيهما: مخطوطات باللغات المحلية مكتوبة بالحرف العربي مثل: لغة الهوسا، وسنغي/زرما، واللغة الفلانية، وقد كانت الشعوب في أفريقيا الغربية قبل الاستعمار تستخدم الحرف العربي في كتابة لغاتها المختلفة، وفي إدارة شؤون الدول في المراسلات والمعاهدات والوصايا وغيرها.

عمل القائمون على القسم فهرسا للمخطوطات التي يحويها القسم، ويقدر عددها بحوالي أربعة آلاف وخمسمائة (4500) مخطوطة مختلفة الأحجام والصفحات والمواضيع، وتم فهرستها ما بين عام 2005 و2008م من قبل مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن في ثماني مجلدات، إثر توقيع مذكرة تعاون ثقافي مع المؤسسة المذكورة على هامش الدورة التدريبية في مهارات فهرسة المخطوطات الخاصة بالعاملين في مجال صيانة المخطوطات في منطقة غرب أفريقيا بمدينة الرباط المغربية في فترة 18يونيو إلى 16 يوليو 2001م.

وقد تم فهرستها ببيانات شاملة عن كل مخطوطة في ستة أجزاء، يشتمل كل جزء منها على معلومات عامة عن كل مخطوطة، مثل: رقم السجل والتسلسل، واسم المؤلف، والموضوع، ومتن المنظوم، ونسخة المؤلف، وتاريخ كتابة

المخطوطة، وقيود التملك، وألوان الحبر، واسم الناسخ، وتاريخ النسخ، ووصف الخط والتجزئة، ومادة الصحائف والمقاس، وعدد الأوراق، والأسطر، والتجليد، وجهة الإصدار، ثم فاتحة المخطوطة وخاتمتها، وتلخيص موجز عن المخطوطة وملاحظات عامة عنها.

وتتناول مخطوطات القسم علوما كثيرة في اللغة العربية وآدابها والعلوم الشرعية والتاريخ المحلي، والسيرة النبوية، والمدائح النبوية، والتصوف، والطب المحلي، وعلم الرمل والآفاق، والرسائل المتبادلة بين حكام المنطقة وأعيانها وبعض الأفراد.

وأما من حيث الخط؛ فهو الخط المغربي والسوداني.

2. إسهام القسم في خدمة العلوم الإنسانية

يسهم قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة عبدو موموني، في خدمة العلوم الإنسانية بحفاظه على المخطوطات العربية الإسلامية في النيجر وغرب أفريقيا، وذلك بجمعها بكل الوسائل المتاحة لديها، ثم فهرستها، والاتصال بالمؤسسات التي تهتم بالتراث المخطوط في المنطقة والتعاون معها في سبل العناية بهذا التراث الحضاري الإسلامي والحفاظ عليه.

ويتوافد على القسم الباحثون من المنطقة وخارجها لإنجاز بحوثهم العلمية.

ومن تجليات إسهامه في خدمة العلوم الإنسانية تحقيق بعض مخطوطات القسم ونشرها، منها على سبيل المثال:

- فتح البصائر، تأليف الشيخ عثمان بن فودي، تحقيق: د. سالو الحسن، طبع في باريس، في فبراير عام 2012م؛
- ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام؛ للشيخ عبد الله فودي، تحقيق: د. سالو الحسن، وطبع ونشر في مكتبة دار الإحسان، جمهورية نيجيريا الاتحادية، عام 2019م؛
- فتح الجنان بجمع تاريخ بلاد السودان؛ للإمام محمد مرحبا، تحقيق: الأستاذ سفيان سوادغو، ود. سالو الحسن عام 2020م، بدار المعارف للطباعة والنشر كنو، نيجيريا؛

- أجوبة محررة على أسئلة مقررة؛ للشيخ عثمان بن فودي، تحقيق: د. أيوب لولي، عام 2021م بدار المعارف للطباعة والنشر كنو، نيجيريا؛
- مصباح الظلام، للشيخ بخاري تانودي، تحقيق: د. أيوب لولي، عام 2022م، بدار المعارف للطباعة والنشر كنو، نيجيريا.

المبحث الثاني: المركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالنيجر

1. نشأة المركز وأنواع مخطوطاته:

أنشئ المركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي في الجامعة الإسلامية بالنيجر عام 1415هـ/1995م بمبادرة من رئيس الجامعة في ذلك الوقت الأستاذ الدكتور عبد العلي الودغيري، والهدف من إنشائه هو جمع التراث الأفريقي العربي الإسلامي المخطوط في غرب أفريقيا، وحفظه وصيانته وإنقاذه من التلف والضياع، وتحقيقه ونشره ، بعدما تنبه إلى أهمية التراث الإسلامي في المنطقة بصفة عامة، والنيجر بصفة خاصة، فعزت الجامعة انطلاقاً من رغبتها في خدمة العلوم الإنسانية من خلال مخطوطاتها.

ولما كان العمل في ميدان المخطوطات محفوفا بالعقبات والصعوبات الناجمة من طبيعة مجالها، فإن الجامعة الإسلامية بالنيجر وهي في بدايات خطواتها الأولى، قامت بالتنسيق مع مراكز البحوث والمخطوطات بالمنطقة للاستفادة من خبراتها، فنسقت مع كل من:

1. مركز معهد الأبحاث في العلوم الإنسانية في نيامي (IRCH) التابع لجامعة عبدو موموني في نيامي، النيجر.
2. مركز أحمد بابا للبحوث الإسلامية والدراسات العليا في تنبكت بمالي.
3. مركز الدراسات الإسلامية ودار الوثائق ومكتبة الوزير جنيد الخاصة في صكتو بنيجيريا.

وهكذا انطلقت الأعمال التأسيسية الأولى للمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي في الجامعة الإسلامية بالنيجر، واستطاعت الجامعة بجهودها اقتناء عدد لا بأس به من المخطوطات العربية والعجمية.

2. أنواع مخطوطات المركز:

خصصت الجامعة قاعة متوسطة الحجم ضمن قاعات مبنى إدارتها في ساي في الطابق الأول منه، مقراً للمركز تحتوي مخطوطاتها التراثية، ومكتب مدير المركز، وخصصت قاعة أخرى للقراءة.

يحتوي المركز على صنفين من المخطوطات مع مجلات وبعض الكتب.

- الصنف الأول: كتب مخطوطة باللغة العربية واللغات المحلية.

- الصنف الثاني: الرسائل العلمية (رسائل الماجستير والدكتوراه) لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالنيجر وغيرها.

3. عدد المخطوطات ومصادرها:

يبلغ عدد المخطوطات المفهرسة في المركز ألفا وأربع وخمسين مخطوطة (1054) وتنقسم إلى قسمين:

1. المخطوطات الأصلية.

2. المخطوطات المصورة.

وتوجد مخطوطات مطبوعة طباعة محلية (أي بخط اليد مع غلاف محلي).

وتنقسم من حيث اللغة إلى مخطوطات عربية ومخطوطات عجمية مكتوبة بالحرف العربي.

أولاً: المخطوطات العربية من حيث المحتوى العلمي: تنقسم مخطوطات المركز من حيث المحتوى العلمي إلى:

- مصاحف مخطوطة: وتبلغ سبعة وثلاثين (37) مصحفاً، بعضها كاملة وبعضها ناقصة، ونوع الخط مغربي صحراوي؛

- العلوم الشرعية: وتشمل: التفسير، وعلوم القرآن، وأصول الدين، وأصول الفقه، والأذكار والأدعية، والسياسة الشرعية، والتربية والتعليم؛

- اللغة العربية وآدابها: وتشمل النحو والصرف والبلاغة والشعر والعروض؛

- العلوم الاجتماعية: وتشمل السيرة النبوية والتاريخ والتراجم والأنساب؛
- مخطوطات في الطب وعلم الفلك.

ثانياً: المخطوطات العجمية: توجد في المركز مائة وإحدى عشرة مخطوطة باللغات العجمية المحلية المكتوبة بالحرف العربي، مفهرسة، وهي موزعة على اللغات الآتية:

- مخطوطات باللغة الفلانية وعددها (72) مخطوطة؛
- مخطوطات بلغة الهوسا وعددها (35) مخطوطة؛
- مخطوطات بلغة سنغي/جرما (3) مخطوطات؛
- مخطوطة واحدة بلغة الطوارق.

وهناك مخطوطان بلغة ولوف غير مفهرستين.

3. موضوعات هذه المخطوطات مختلفة:

فمنها مخطوطات تعليم اللغات المحلية، ومخطوطات لتعليم مبادئ الدين الإسلامي، ومخطوطات الشعر الديني.

4. مصادر مخطوطات المركز:

مصدر أغلب مخطوطات المركز من شمال نيجيريا وبخاصة من ولاية صكتو(sokoto) ، وجلها من مؤلفات الشيخ عثمان بن فوديو، وعبد الله بن فوديو، ومحمد بلو، وغيرهم من علماء المنطقة، وهناك مخطوطات من جمهورية النيجر، ومالي وغينيا والسنغال وغانا.

أما الرسائل العلمية لأساتذة الجامعة؛ فتبلغ أربعا وثمانين (84) رسالة علمية ما بين الماجستير والدكتوراه، موزعة بين العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية.

وقد قام مدير المركز عام تأسيسه الدكتور علي ليمان بفهرسة مخطوطات المركز والرسائل العلمية، ثم أكمله المدير الذي جاء بعده الدكتور مصطفى فضيل.

5. إسهام المركز في خدمة العلوم الإنسانية:

إن مركـز المخطوطـات بالجامعـة الإسـلامية بالنيجـر، يسـهم في خدمـة العلـوم الإنسـانية بحفاظـه عـلى المخطوطـات العربيـة الإسـلامية في النيجـر وغـرب أفريقيـا، وذلـك بجمعهـا ثـم فهرسـتها، والاتصـال بالمؤسسـات التـي تهتـم بالـتراث المخطـوط في المنطقـة، وكذلـك بواسـطة طـلاب الجامعـة الذيـن يمدونـه بمخطوطـات.

ومـن إسـهاماته في خدمـة العلـوم الإنسـانية تحقيـق المخطوطـات ونشرهـا، وقـد تـم تحقيـق ونـشر جملـة مـن مخطوطـات المركـز وعـلى الخصـوص منهـا:

- رسـالة في التعريـف بالمصطفـى التـوردي، تأليـف الشـيخ عبـد اللـه بـن القـاضي محمـد الحـاج، تحقيـق ودراسـة الأسـتاذ الدكتـور عبـد العـلي الودغـيري، الرئيس الأسـبق للجامعـة الإسـلامية بالنيجـر، ونشرهـا معهـد الدراسـات الأفريقيـة بالمغـرب، عـام 2001م.
- أجوبـة أمـير المؤمنـين أبـي بكـر عتيـق بـن عثمـان فوديـو عـن كتـاب الفقيـه أحمـد بـن أبـي بكـر لبـو إمـام أهـل ماسـينا، تحقيـق ودراسـة الدكتـور عـلي يعقـوب، أسـتاذ بالجامعـة الإسـلامية بالنيجـر، عـام 2010م.
- كفايـة العـوام في البيـوع، تأليـف الشـيخ محمـد بلـو بـن عثمـان، حقـق جـزءا منـه الطالـب عـلي أدو شريـف كبحـث للتخـرج مـن كليـة الشريعـة والقانـون بالجامعـة الإسـلامية بالنيجـر.

وأسهم بعض الطلاب في مرحلة الماجستير في تحقيق مشترك لبعض المخطوطات.

ومـا زال المركـز يسـتعمل الطريقـة التقليديـة في حفـظ المخطوطـات، وذلـك لعـدم توفـر أجهـزة ووسـائل حديثـة لحفـظ وصيانـة المخطوطـات، فالمخطوطـات في المركـز محفوظـة في مظاريـف مصفوفـة في خزانـات مخصوصـة بهـا، ممـا يعرضهـا للخطـر في المسـتقبل، وللمركـز بعـض النشـاطات المحـدودة في الجامعـة. ويأمـل المركـز في المسـتقبل أن يجمـع مخطوطـات المنطقـة ويعمـل عـلى فهرسـتها وصيانتهـا، ويأمـل أن يتـم تطويـره مـن الجوانـب الآتيـة:

- أن يتوسـع مقـر المركـز بحيـث يكـون لـه مبنـى خـاص مـزود بالأجهـزة والوسـائل الحديثـة لحفـظ وصيانـة المخطـوط، ربـط قنـوات اتصـال مـع مؤسسـات عالميـة تهتـم بشـأن المخطوطات؛

- إقامة ندوات دولية تهتم بالمخطوطات العربية في غرب أفريقيا لإيجاد وسائل لجمعها، حتى لا تتعرض لما تعرضت له مخطوطات تنبكت؛
- توفير ميزانية لجمع المخطوطات، وذلك بتوفير سيارات جيدة تجوب المناطق الصحراوية والغابات لزيارة الأسر التي تمتلك المخطوطات.

المبحث الثالث: مركز مخطوطات مدينة "أبلغ" ومنطقة «تيلابيري»

تعد النيجر من الدول التي تزخر بالمخطوطات العربية والعجمية، فلا تكاد محافظة أو مدينة تخلو من مكتبة للمخطوطات العربية والعجمية، وبخاصة في بيوتات العلماء والأمراء، لكنها لم تحظ بعناية أو دراسة تشيد بها إلا نادراً.

ولقسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي جهود فردية في العناية بالمكتبات الخاصة، ومن ذلك ما قام به بعض الباحثين في القسم من التعريف بمركز المخطوطات بمدينة «أبلغ» الواقعة بشمال مدينة «تاوا»، وما قام به الرئيس السابق للقسم الدكتور حسين مؤمن مع بعض موظفي القسم؛ حيث قاموا بجولة في إقليم تيلابيري للوقوف على مكتبات خاصة زاخرة بالمخطوطات.

ونريد في هذا المبحث تسليط الضوء بصورة موجزة على مركز مدينة «أبلغ»، ومنطقة «تيلابيري».

1. مركز مخطوطات مدينة أبلغ (Ablag)

يعود الفضل في التعريف بهذا المركز إلى فضيلة الشيخ محمد أغ محمد شفيع الذي أشار إلى المركز ومؤسسه في بعض بحوثه، وهذا ما لفت أنظار الباحث بقسم المخطوطات العربية والعجمية بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية بجامعة نيامي الدكتور سالو الحسن حيث زار المركز واطلع على مخطوطاته، وكتب عنها في رسالته للماجستير عام 2009م بعنوان:

«فهرس المخطوطات العربية بمدينة أبلغ بالنيجر عرضاً وتوصيفاً»، بكلية الآداب والدراسات الإسلامية، قسم اللغة العربية، جامعة عثمان بن فودي بصكتو، نيجيريا.

ينسب تأسيس المركز إلى مجهودات فردية قام بها الشيخ محمد إبراهيم بن عبد المؤمن الذي بذل جهودا كبيرا في سبيل جمع هذا التراث المخطوط من مختلف المناطق وبخاصة في منطقة أزواغ والصحراء.

مخطوطات المركز: يقع المركز في مبنى بجوار المسجد العتيق بمدينة أبلغ في حي «أمنوكل»، ويقدر عدد مخطوطاته بحوالي ثلاثمائة واثنتي (302) مخطوطة، وهي موزعة ما بين علوم الدين، واللغة، والأدب، والتصوف، والمنطق، وعلم الفلك، وكلها باللغة العربية، وأغلبها مخطوطات في فقه المالكية.

وعلق الباحث سالو الحسن على وضع المركز بقوله: «وما زال وضع هذه المكتبة تقليديا، حيث إن مخطوطاته غير مفهرسة بشكل من الأشكال، ليست مسجلة في سجل، وليس لها بطاقات، فضلا عن أن تكون مفهرسة بالترقيم الآلي. ومخطوطاتها محفوظة في صناديق كبيرة من حديد، في قاعة متوسطة لا شرقية ولا غربية؛ أي إنها غير معَرَّضة لرطوبة زائدة ولا لحرارة شديدة، أسهمت جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية بطرابلس (ليبيا)، بتوسيع هذه المكتبة وتزويدها بمعدات تساعد في الحفاظ على سلامة مخطوطاتها، ومع هذا الجهد المبذول فإن كثيرا من مخطوطاتها بحاجة إلى اهتمام زائد بالصيانة والترميم».

2. مراكز مخطوطات تيلابيري:

إن منطقة تيلابيري من المناطق النيجرية التي دخلها نور الإسلام في وقت مبكر من تاريخه، وكانت جزءا من إمبراطورية سنغي، ونبغ فيها علماء كبار في العلوم الشرعية واللغوية وغيرهما مثل: الشيخ يوسف بن خليل الذي عده المستشرق الفرنسي بول مارتي في كتابه (الإسلام والقبائل في مستعمرة النيجر) من الشخصيات المهمة، والعلماء المعتبرين في إقليم تيلابيري في زمانه أي عام 1920م. وكان الشيخ يوسف خليل من محبي اقتناء الكتب وجمعها، وكانت له مكتبة عامرة بأمهات الكتب، وهو الذي أهدى مخطوط تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن السعدي، ومخطوط تاريخ الفتاش للشيخ محمود كعت _وهما من أهم المراجع التاريخية لدولة سنغي الإسلامية_ أهداهما إلى دي غِرُونكور (Degironcor) الذي بدوره أوصلهما إلى فرنسا وطبعا بتحقيق المستشرق كفتارو هوداس، في فرنسا.

والفقيه حسين محمد ويعرف بحسين ببو، وشهرته ألفا لاربو أو ألفا نَيْن، مؤسس مكتبة نَيْنِي غُنْغُو، وللشيخ مؤلفات من أشهرها: سنن الهدي، وإحياء السنة من الهدي. طبعهما في مصر (ولم نقف عليهما).

وفي المنطقة مكتبات أسرية تحتوي على مخطوطات كثيرة، وعلى سبيل المثال:

- مكتبة قرية سِنْدَرْ التي يقدر عدد المخطوطات فيها بثلاثمائة (300) مخطوطة، وتضم المكتبة مخطوطات نادرة ووثائق تاريخية وعلمية مهمة؛
- مكتبة قرية فِرْغُن، ويقدر عدد المخطوطات فيها بمائتين وخمسين (250) مخطوطة؛
- مكتبة الشيخ كَاوُسَنْ بمحافظة وَلامْ، ويقدر عدد المخطوطات فيها بثمان وتسعين (98) مخطوطة؛
- مكتبة نَيْنِي غُنْغُو تضم أكثر من مائتي (200) مخطوطة؛
- مكتبة مدينة أَيَورُو وتضم مائتين وثمان وأربعين (248) مخطوطة؛
- ومكتبة مدينة كِيُوتَا مَياكِي، تحتوي على آلاف من المخطوطات النادرة، وهي ملك للشيخ المرحوم أبي بكر هاشم، الزعيم الروحي للطريقة التجانية في النيجر؛
- مكتبة تَبَلاَ والتي تحتوي على ثلاثمائة (300) مخطوطة؛
- مكتبة قرية حمد الله وتحتوي مخطوطات كثيرة.

وهناك مكتبات في منطقة آيير، وفي محافظة كوار القريبة من حدود النيجر وليبيا، ومكتبة مسجد أُسُودي بمدينة أَغادِيس وفي غيرها من المدن النيجرية، مثل مرادي وزندر وديفا.

وكل هذه المكتبات لا تملك قائمة أو فهرسا للمخطوطات، وهي معرضة للضياع إذا لم تجد من يهتم بها ويقوم بإعداد فهرس لها للاستفادة منها.

وننوه هنا بأن جلّ المخطوطات في تلك المكتبات عبارة عن كتب مقررة في الحلقات العلمية في المنطقة قبل الاستعمار وأثناءه منها مؤلفات، ومنها دواوين شعرية، وغيرها.

ومن مخطوطاتها المنشورة: كتاب: خطوات أهل سندر في التاريخ، للشيخ يوسف بن عمر/ تحقيق ونشر د. سيني موموني، ود. سالو الحسن، 2017م.

الخاتمة:

نورد في الختام النتائج المتوصل إليها، وهي:

- أن منطقة غرب أفريقيا من المناطق الأفريقية الزاخرة بالمخطوطات العربية؛
- أن قسم المخطوطات العربية والعجمية بجامعة نيامي يحتوي على مخطوطات عربية كثيرة، وكذلك على مخطوطات مكتوبة بالحرف العربي؛
- أن للقسم إسهاماً في خدمة العلوم الإنسانية في المنطقة؛
- أن مركز إحياء التراث العربي الأفريقي في الجامعة الإسلامية بالنيجر، له إسهامات في خدمة العلوم الإنسانية في النيجر وغيرها؛
- أن النيجر من الدول التي تكثر فيها المخطوطات العربية والعجمية؛

ونوصي بالآتي:

- على مراكز البحث العلمي في الجامعات الأفريقية أن تتولى العناية بمراكز المخطوطات ومكاتبها المنتشرة في أفريقيا؛ وذلك بنشرها أو المساعدة على نشرها، وبخاصة دول الشمال الأفريقي التي تربطها العلاقة التاريخية الوثيقة مع دول جنوب الصحراء حتى لا تتعرض للتلف والضياع؛
- حث الطلاب الذين يدرسون في جامعاتها بتحقيق مخطوطات المنطقة الجيدة.

الفصل الثالث

الرِّحْلات الحجية الأفريقية: مظاهر التواصل الروحي والثقافي بين بلاد السودان والمشرق

العلاقات المصرية-الأفريقية
في سياق رحلة السلطان منسَى موسى
إلى الديار المقدسة عام 1324م

د. عبد الله عيسى

تقديم:

تعدُّ علاقـة إفريقيـا جنوب الصحـراء بالمـشرق العربـي قديمـة جـداً عـبَّر عنهـا رواة التاريـخ الشـفوي مـن خـلال ادعـاء روابـط عرقيـة تشـد الأسر الإفريقيـة المالكـة إلى رمـوز عربيـة في شـبه الجزيـرة العربيـة، وعـبَّرت التقاليـد والطقـوس الدينيـة المشـتركة مـن جهتهـا عـن الامتـداد الثقـافي والتجـاري بـين المـشرق وخصوصـاً مـصر وإفريقيـا جنـوب الصحـراء، ثـم جـاء الإسـلام بمنظـوره الجديـد، لمفهـوم الدولـة وللمؤسسـات ليسـاهم في إعطـاء شـكل جديـد، وخصوصيـة معيَّنـة للعلاقـات بـين الطرفـين.

أهداف الدراسة وأهميتها:

قلـة الدراسـات والأبحـاث التـي تناولـت هـذا الموضـوع؛ فأكثـر الأبحـاث والأعمـال تناولـت الجانـب السـياسي، والاجتماعـي، وأهملـت الجانـب الدينـي ودوره في ربـط ونسـج علاقـات الأخـوة بـين إفريقيـا والمـشرق.

التأكيـد عـلى أنَ منطقـة إفريقيـا جنـوب الصحـراء كانـت جـزءاً مـن الدولة الإسـلامية الوسـيطية القويـة، وأنهـا لـم تنعـزل عـن تطـورات العالـم الإسـلامي في العـصر الوسـيط، ومطلـع الحديـث؛ بـل سـاهمت فيـه وتأثـرت بأحداثـه، فعاشـت مرحلـة قوَّتـه وتأثـرت بضعفـه.

إبـراز مكانـة وأهميـة العقيـدة الإسـلامية لـدى المجتمـع الإفريقـي، سـواء عـلى المسـتوى الرسـمي (السـلاطين)، أم عـلى المسـتوى الشـعبي (عامـة النـاس)؛ لمـا وجدوا في الديـن الإسـلامي مـن فضـل وعـدلٍ ومُسـاواةٍ وتكريـمٍ لإنسـانيتهم، ومؤاخـاةٍ لهـم مـع غيرهـم مـن أبنـاء الشـعوب الإسـلامية الأخـرى عـلى اختـلاف أجناسـهم لا فضـل لبعضهـم عـلى بعـض، ولا للَـونٍ عـلى لـونٍ.

الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في العصر الوسيط، ولملمة حلقاته المفقودة.

إشكالية ومنهجية الدراسة:

تتلخص إشكالية الدراسة في السؤال التالي: كيف ساهمت حجة السلطان منسى موسى في نسج وتمتين العلاقات الاقتصادية والروحية بين إفريقيا جنوب الصحراء ومصر خلال القرن (14م)؟

وقصد معالجة الإشكالية، فقد اتبعنا المنهج السردي التاريخي، مع مقارنة المعلومات من خلال المصادر والمراجع بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

أولاً: حجة السلطان المنسى موسى ودورها في توطيد العلاقات الإفريقية-المصرية:

الحجُ هو الركن الخامس من أركان الإسلام، يقول المولى عزَّ وجل في كتابه: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾** [آل عمران: 97].

ولكن أنْ يحج سلطان من منطقة إفريقيا جنوب الصحراء في القرن (13 أو 14م)، فهذه مسألة يُمكن أنْ تطرح بعض التساؤلات وعلامات الاستفهام:

- هل يعني ذلك رغبة السلطان في تطبيق أركان الإسلام؛ علماً بأنَّ تركه للعاصمة وقيامه برحلة نحو الديار المقدسة تستلزم وقتاً طويلاً يتراوح ما بين 18 و24 شهراً، وهو ما قد يشكل خطراً على مملكته؟

- هل يمكننا أنْ نُعلل ذلك برغبة السلطان في الاطلاع على أحوال بلدان المشرق العربي ونظمها، ليقلد بعضها؟

- هل يوحي ذلك أيضاً برغبة السلطان في توطيد علاقات بلاده الثقافية مع تلك البلدان، ومن ثَمَّ جلب مجموعة من كبار العلماء للسهر على تكوين نُخبة محلية مثقفة، ومن ثَمَّ الانتقال من مرحلة ممارسة السلوك الديني كما دعا إليه الإسلام إلى مرحلة أخرى، وهي تكوين نخبة مطلعة على التراث الإسلامي والنُّظُم الحضارية الإسلامية، لتنقلها إلى إفريقيا جنوب الصحراء؟

- وختاماً هل يمكننا القول بأنَّ كل هذه العوامل هي التي جعلت السلاطين الماليين الذين أدوا فريضة الحج ينفقون بسخاء أموالاً طائلة في رحلاتهم إلى القاهرة ومكة والمدينة وهي مراكز ذات ثقل ثقافي في العالم الإسلامي؟

تخبرنا بعض المصادر التاريخية، أنَ السلطان منسَى ولي (1255-1270م) كان من أوائل سلاطين مملكة مالي الذين أدوا فريضة الحج سنة 658هـ/1259م؛ أي زمن ملك مصر الظاهر بيبرس، ثم تلاه بعد ذلك السلطان ساكوره (1285م-1300م)، الذي قُتِل بطرابلس أثناء عودته في أواخر القرن (13م) . ويُعد السلطان منسَى موسى أشهر من عُرِفَ بحجه من سلاطين مملكة مالي؛ وذلك لكثرة ما أنفقه في رحلته، فقد كان «يسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة عبيد، وبيد كل واحد منهم عصا من ذهب، في كل منها خمسمائة مثقال» . وكانت تلك الرحلة استهلالاً لتوافد أعداد كبيرة من التجار والعلماء إلى مالي؛ بحيث ساهموا في ازدهار النشاطين الاقتصادي والثقافي اللذَين شجعهما منسَى موسى، وقد أحضر معه في طريق العودة جُملة من الكتب الدينية، التي تركت نشاطاً علمياً ملحوظاً.

يمكن القول: إنَّ حجَّ السلطان منسى موسى أصبح معلماً في تاريخ مالي وبلاد السودان، وورد ذكره في المصادر الإسلامية، بل حتى الأوروبية، وهو ما يعني أنَّ صدى رحلته الحجية تجاوز حدود دار الإسلام. يقول فرناند بروديل عن شهرة منسى موسى بعد حجه: «إنَّ ذهب السودان كان أكثر من أساسٍ لرخاء شمال إفريقيا والأندلس، فهذا الذهب لعب دوره في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط كله، حيث بدأ تداول هذا الذهب من القرن (14م) عَقِبَ الحج الشهير لملك مالي منسى موسى» .

وإذا عُدنا إلى كلام السعدي صاحب تاريخ السودان، نلاحظ أنَّه بالغ في تقدير حمولة السلطان، إذ حددها في خمسمائة مثقال من الذهب ، وإذا كان مثل هذا التقدير يملك جانباً من الصحة، فإنَّه يدعونا للتساؤل حول مسالك تصريفه أثناء الرحلة الحجية؟

نميل إلى الاعتقاد بأنَّ المنسى أراد أنْ يتقرب إلى حكام وعلماء مصر والمدينة المنورة ومكة، ومن ثَمَّ توطيد العلاقات الثقافية بين مملكته وبلدان المشرق العربي. كما كان لهذا التوجه بواعث داخلية؛ بمعنى أنَّ حج منسى موسى جاء

استجابة لحركة دينية إسلامية ببلاد السودان أخذت في التنامي بين مختلف الفئات الاجتماعية، لذلك لم يرغب المنسى أنْ يعزل نفسه عن هذا التطور، وأحبَّ أنْ يظهر بمظهر الحاكم الشرعي المدافع عن الدين الجديد، فنجده يفتخر في القاهرة كونه مالكي المذهب.

وفي السياق ذاته، ألا يمكننا القول بأنَّ الهدف من هذا الحج فضلاً عن أداء هذه الفريضة هو التعرف على النظم الحضارية الإسلامية السائدة في المشرق العربي وخاصة الديار المصرية، وخاصة الاطلاع على ملامح الحركة التعليمية ومحاولة الأخذ بها في البلاد السودانية، علماً بأنَّ الانفتاح على التقاليد الإسلامية يلزمه أنْ يمر عبر الاطلاع أولاً على المعرفة الدينية؛ أي إدراك معظم العلوم المرتبطة بالشرع الإسلامي. ونعتقد أنَّ التفسير نفسه يعلل إرسال منسى موسى لمجموعة من الطلبة إلى مدينة فاس للتفقه على يد علمائها.

وبالموازاة مع ما تقدم، نلاحظ أنَّ منسى موسى شرع بعد عودته من الحج في بناء مجموعة من المساجد، التي كانت في الوقت نفسه أماكن العبادة ومراكز للتعليم. يقول السعدي: «ورجع موسى من الحج فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدينة كاغ، كما قام ببناء مساجد أخرى في أماكن متفرقة من البلاد».

وتخبرنا بعض المصادر أنَّه كان للمساجد حُرمة مقدسة عند الماليين سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، لذلك كانوا يلجؤون إليها عندما يجيرُ عليهم حاكم ظالم.

ويمكننا القول: إنَ حُكام مصر حققوا من حجة السلطان منسى موسى مكاسب اقتصادية مهمة؛ فالعمري الذي كتب مؤلفه بعد اثنتي عشرة سنة من الحجة، وجد المجتمع المصري ما زال يغنم من تأثيراتها الإيجابية على الاقتصاد المصري، فقد لخص على لسان المنهدار الخير الذي عمَّ مصر نتيجة لهذه الزيارة، بقوله: «ولقد أفاض هذا الرجل على مصر فيض الإحسان، لم يدع أميراً مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله حقه من الذهب، ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء، والأخذ والعطاء ما لا يُعد ويحصى، وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره، وأرخصوا سعره. قلت وقد صدق المنهدار فإنه حكى مثل هذا غير واحد، ولما مات المنهدار وجد الديوان فيما خلفه آلافاً من الذهب المعدني مما أعطاه له باقياً على حاله في ترابه لم يصنع».

مـن ذلـك أيضـاً مـا حصـده التجـار المصريـون مـن أربـاح ضخمـة مـن تعاملهـم مـع الحجـاج الإفريقيـين المرافقـين لموكـب المنـسى. يذكـر العمـري نقـلاً عـن تجـار القاهـرة أنفسـهم أنهـم كانـوا يبيعونهـم الثـوب أو الإزار أو غـير ذلـك بخمسـة دنانير، وهـو لا يسـاوي دينـاراً واحـداً.

فبـذْلُ المنـسى مـوسى والموكـب المرافـق لـه للذهـب بسـخاء لاقتنـاء مشـتريات زهيـدة القيمـة، مقابـل أثمـان باهظـة كان لـه نتائـج مهمـة عـلى السـوق الماليـة في مـصر؛ تجـلى مـن خـلال انخفـاض سـعر المثقـال مـن خمسـة وعشريـن درهمـاً إلى مـا دون اثنـين وعشريـن درهمـاً إلى مـا دون ذلـك. وقـد ظلـت مـصر تنعـم بهـذا الرخـاء مـدة اثنتـي عـشرة سـنة أخـرى، لكثـرة مـا جلبـوه مـن الذهـب إلى مـصر وأنفقـوه بهـا.

وهكـذا فتحـت حجـة السـلطان منـسى مـوسى عهـداً جديـداً مـن العلاقـات التجاريـة بـين مـصر وإفريقيـا جنـوب الصحـراء؛ لقـد أخـبر العلّامـة ابـن خلـدون عنـد لقائـه في بسـكرة لـدى أميرهـا يوسـف بـن مزنـي بسـفير ملـك تكـدا في اللايـير سـنة 1353م، أنَ مدينتهـم عبرتهـا خـلال السـنة الجاريـة قافلـة مـن التجـار مكونـة مـن اثنـي عـشر ألـف جمـل قادمـة مـن المـشرق في طريقهـا إلى مـالي، وذكـر لي غـيره أن ذلـك هـو الشـأن في كل سـنة [. وعايـن ابـن بطوطـة في منطقـة اللايـير، أنَ لا شـغل لتكـدا غـير المتاجـرة مـع مـصر؛ إذ يسـافرون في كل عـام ويجلبـون كل مـا بهـا مـن حسـان الثيـاب وسـواها. كمـا أشـار رحالتنـا إلى ازدهـار تجـارة الأثـواب المصريـة في عاصمـة مملكـة مـالي ذاتهـا في مدينـة ولاتـة.

وفي القـرن (14م) تسـجل لنـا المصـادر العربيـة وصـول أعـداد مهمـة مـن التجـار المصريـين إلى إفريقيـا جنـوب الصحـراء، مـن بينهـم يـرد اسـم شـمس الديـن بـن النقويـش المـصري. وممـا يـدل عـلى ثـراء التجـار المصريـين وأهميـة رؤوس أموالهـم المسـخَّرة للتجـارة مـع إفريقيـا جنـوب الصحـراء، إقدامهـم عـلى شراء إحـدى الذخائر النفيسـة الكـبرى لمملكـة مـالي مـن ملكهـا مـاري جاطـة الثانـي، وهـو عبـارة عـن حجـر الذهـب الـذي كان في جملـة الذخـيرة عـن أبيهـم، وهـو حجـر يـزن عشريـن قنطـاراً منقـولاً مـن المعـدن مـن غـير عـلاج بالصناعـة ولا تصفيـة بالنـار، كانـوا يرونـه مـن أنفـس الذخائـر والغرائـب لنـدرة مثلـه مـن المعـدن.

وفي منتصـف القـرن التاسـع الهجـري (15م) أكـدت كتابـات المستكشـفين الأوروبيـين الأوائـل عـلى أهميـة دور مـصر في التجـارة الخارجيـة لإفريقيـا

جنوب الصحراء. لقد عاين ڭودينيو (Godinho) الذي كان مقيماً في توات سنة 1447م وصول تجار مصريين إلى المدينة للمتاجرة مع الإفريقيين . وفي سنة 1455م سمع كادا موستو (Da Mosto Ca) أن جزءاً من الذهب القادم من مملكة مالي كان ينقل إلى مدينة غاو عن طريق كوكيا تجاه مصر وسوريا . وفي السنة الموالية أبحر ديوڭو ڭوميش (Gomes Diogo) عبر نهر غامبيا تجاه ڭنتار (Gantar)؛ بحيث أخبر البرتغاليون بأنَ قافلتين محملتين بالذهب تتجهان على رأس كل ستة أشهر إلى مصر عن طريق مدينة فزان.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنَ العبيد شكلوا موضوع تجارة مهمة بين إفريقيا جنوب الصحراء ومصر؛ إذ استُخْدم عبيد إفريقيا بشكل مكثف في الجندية، ويعدُّ الفاطميون أول من استقدم العبيد السود إلى مصر من نوبيا وإثيوبيا، كما وجدت في الجيش الفاطمي منذ هذا العهد فرقة عرفت باسم (زويلة) نسبة إلى مدينة زويلة؛ حيث كان يعقد أكبر سوق للنخاسة في تاريخ إفريقيا الغربية والوسطى.

وفي القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 و15م)، ونتيجة لحجة المنسى موسى، انضاف إلى عبيد إثيوبيا ونوبيا عبيد إفريقيا جنوب الصحراء؛ فقد أشار المقريزي إلى الأعداد الكبيرة من العبيد التكروريين التي كانت تصل إلى مصر سنوياً. وفي السياق نفسه أشار صاحب السلوك إلى أنه في شهر شوال سنة 842هـ/1438م، وصل إلى مصر ركب التكرور برقيق كثير وتبر، فسار أكثرهم إلى الحج، بعدما باعوا الرقيق ؛ فالفقيه صبيح بن عبد الله التكروري الذي توفي سنة 731هـ/1330م، والذي تلقى تكوينه العلمي عن كبار علماء عصره، وحدث في دمشق والقاهرة، كان عبداً قبل أن يشتري حريته بخمسمائة درهم، وهو مبلغ حصل عليه من صناعة الطرابيش التي كان يمتهنها . وفي سنة 731هـ/1394م توفي الشيخ الصالح رشيد التكروري الأسود المرابط بجامع راشدة، خارج أسوار مدينة مصر القديمة. وخلال القرن التاسع الهجري (15م) تمكن تكروريان خالص وعنبر من الوصول إلى أعلى مرتبة (قيادة الخصي) في دولة المماليك، أيام حُكم السلطانين الأشرف أبي النصر قايتباي، المعروف بالمحمودي الظاهري حقمق، والظاهر أبي سعيد قانصوه .

ومن جانب آخر، ورد في مؤلف العمري في سياق وصفه لمجلس ملك مالي ما يفيد وصول عبيد بيض مشارقة إلى إفريقيا جنوب الصحراء؛ إذ يقول في ذلك: «ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وعندهم ممن تبتاع له في مصر، بيد كل واحد منهم حرير عليه قبة، وطائر من ذهب، وأمراؤه جلوس» . فوجود عبيد أتراك في بلاط السلطان منسى موسى، شيء مستحدث اقتبسه ملوك إفريقيا جنوب الصحراء من التقاليد المصرية، وأنَ اقتناءهم قد تم بواسطة الشراء؛ ففي ذلك يُشير المقريزي إلى مشتريات المنسى موسى ورفاقه من الجواري الأتراك.

وخلال القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجري (14-15-16م)، يسجّل حضور طباخات وخصي بيض في قصور ولاة وسلاطين إفريقيا جنوب الصحراء.

خاتمة:

مما سبق ذكره، يمكن القول وبكل اطمئنان: إنَ حجة السلطان منسى موسى كانت أكبر محرك لديناميكية التجارة بين مصر ومملكة مالي خلال القرن الثامن الهجري (14م) وما بعده، ولم تعمل الحجة على تطوير حاسة الذوق لدى ساكني مالي وسلاطينها تجاه المنتجات المصرية فحسب؛ بل عملت أيضاً على تطوير الجانب الروحي العقائدي لدى أهالي مالي، ومن ثَمَّ في ارتفاع نسبة وعدد قوافل الحجيج، الأمر الذي ساهم بشكل أو بآخر في تطوير العلاقات الثقافية بين البلدين.

كما أنَ تعدد رحلات حج سلاطين مملكة مالي تعني نمو الحركة الدينية الإسلامية بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء؛ فحج السلطان بما يتطلبه من نفقات، وما قد يُشكله من خطر على العرش بعد غياب الحاكم عن العاصمة مدة قد تناهز السنتين، يعكس قبول الطبقة الحاكمة للإسلام.

وليس في هذا التوجه ما يبرر قول بعض الدارسين، بأن حج السلاطين في إفريقيا جنوب الصحراء إنما هو رغبة منهم في كسب الشرعية السياسية. وإذا كان بإمكاننا أنْ نأخذ حُكمهم بنوع من الاعتبار؛ فكيف نفسر تعلق

أهــالي مــالي بــأداء فريضــة الحــج، فهــل كانــوا يبحثــون أيضــاً عــن مســوغ شرعــي للانقــلاب عــلى الســلطة الحاكمــة؟

وبنــاء عليــه يمكــن القــول بــأنَّ الحــج بهــذا الشــكل قــد عكــس تطــوراً إيجابيــاً في طريــق أســلمة إفريقيــا جنــوب الصحــراء التــي ســوف تتعــزز بمكتســبات جديــدة، مــن خــلال ربطهــا بعلاقــات أخــوة وصداقــة متينــة مــع بعــض أقطــار العالــم الإســلامي حينئــذٍ، ومــن بينهــا مــصر.

رحلة السلطان أسكيا محمد إلى الحج عام 902هـ/1496م

ودورها في تعزيز الروابط الحضارية بين بلاد السودان الغربي والعالم الإسلامي

د. محمد أحمد الكامل[1]

المقدمة:

مثّل موسم الحج والرحلة إليه أحد أبرز وسائل الاتصال الحضاري بين شعوب الأمة الإسلامية الواحدة على مختلف مشاربها وأجناسها. وإذا كان الحج والرحلة إليه فريضة شرعية وركناً إسلامياً واجباً للقادر عليه، يؤدي الحاج مناسكه الشرعية من فروض وسنن وطاعات متقرباً بها إلى الله عز وجل في أطهر وأبرك بقاع الأرض؛ فإن منافع دنيوية لا تحصى جوانبها تعود على حياة المسلمين ـوغير المسلمينـ من هذا الموسم المبارك. وموسم الحج والرحلة إليه مثل أيضاً أحد أبرز العوامل التي أسهمت في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في أصقاع مختلفة من العالم، لاسيما تلك الأصقاع التي لم يصلها الإسلام عبر الفتوح الإسلامية الأولى، وإنما وصلها عبر الدعوة السلمية من خلال التجار والتجارة والدعاة والهجرات المختلفة، وعبر مراحل تاريخية متتالية، منذ القرون الهجرية الأولى حتى اليوم. وقامت على إثر ذلك إمارات ودول وممالك وإمبراطوريات إسلامية واسعة الأرجاء دخل جل شعوبها في رحاب دين الله الواحد (الإسلام)؛ كما هو الحال في جنوب شرق آسيا ـإندونيسيا وماليزيا وبروناي ـ والدول الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء؛ بحيث يجد الباحث في تاريخ دخول الإسلام وحضارته إلى تلك المناطق، وكذا التأثيرات الحضارية الوافدة من تلك المناطق وتفاعلها مع المكونات الحضارية للشعوب الإسلامية الأخرى، أن الحج والرحلة إليه من أبرز الوسائط والعوامل التي أسهمت في ذلك. كما أن لرحلات الحج من تلك المناطق البعيدة من الديار المقدسة في بلاد الحرمين الشريفين في جزيرة العرب، خصائص ومظاهر وآثار حضارية مميزة، سواء أكان ذلك على مستوى رحلات الحج العامة أم الرسمية. غير أن رحلات الحج الرسمية التي قام بها سلاطين وملوك وأمراء تلك المناطق كانت أبلغ أثراً في

إسهاماتها وآثارها الحضارية، في جوانب متعددة وفي مناطق جغرافية متعددة أيضا لاسيما بعض الرحلات التي أخذت صداً كبيراً في المصادر التاريخية، في وصف موكبها وآثارها التي تركتها على طول خط الرحلة ومحطاتها ذهاباً وإياباً، وما كان لها من آثار واسعة بعد العودة في مناحي متنوعة وامتدادها لحقب تاريخية طويلة. وورقتنا هذه ستلقي ضوءً على جوانب من المظاهر والآثار الحضارية لإحدى رحلات الحج الرسمية الشهيرة القادمة من دول أفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء في مطلع القرن العاشر الهجري تلك هي رحلة الحج الشهيرة لأسكيا الحاج محمد بن أبي بكر، سلطان دولة صنغاي الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء، وذلك في موسم سنة (902هـ/1496م).

ومن البداهة أن نسبق العرض لجوانب من الآثار الحضارية لهذه الرحلة بتعريف موجز بدولة صنغاي وبشخصية سلطانها (أسكيا محمد) شخصية هذه الورقة وأعظم سلاطين هذه الدولة الأفريقية المسلمة في العصور الإسلامية الوسطى، وذلك على النحو التالي:

أولاً: التعريف بدولة صنغاي والسلطان أسكيا محمد:

قبل الولوج في الحديث عن رحلة الحج ـموضوع هذه الدراسةـ يجدر التمهيد لذلك بالتعريف أولاً بصاحب الرحلة ودولته وذلك على النحو التالي:

1. دولة صنغاي:

تتنوع الصفة الرسمية لهذه الدولة في ذكر المصادر التاريخية والمراجع الحديثة لها فتذكر بـ (سلطنة، وإمارة، ودولة، ومملكة، وإمبراطورية) وكذلك الاختلاف في صيغة ورسم ومخارج الاسم، فتعرف بـ (صنغي، صنغاي، صغي، صونغاي، سنغي، سنغاي، سونغاي، سغي...، إلخ) . وهي إحدى أشهر الدول أو الممالك أو الإمبراطوريات الإسلامية التي قامت في السودان الغربي «أفريقيا جنوب الصحراء» بين ضفتي نهري تشاد والنيجر وإلى ناحية بنين وبوركينا فاسو شمال نيجيريا ومالي. وفي واقع الأمر فإن تاريخ تكوين هذه الدولة ومراحلها التاريخية، وكذا الممالك والأسر الحاكمة التي توالت على حكمها، وحتى تاريخ دخول ملوكها وشعبها في الإسلام وخضوعها لنفوذ مملكتي غانا ومالي قبل أن تصبح هي القوة الغالبة على ملكهما فيما بعد، يغلب عليه الغموض والاضطراب التاريخي-الزمني والموضوعي؛ إذ لم تتضح المعالم والمراحل

التاريخية لهذه الدولة بجلاء إلا منذ استقلالها عن مملكة مالي. ويمكن تلخيص ما توافر من معلومات تاريخية حول هذه الدولة فيما يلي: يقول ميغا: «**كان لسنغاي أربع ممالك تزدهر تارة، وتسقط أخرى فيسيطر غيرها على مناطقها. وبرغم ذلك كانت أقدمها وأطولها عمراً**». ويقول: «**عرف لهذا الشعب أربع ممالك؛ بل الأولى والثانية ممالك، والأخريان إمبراطوريتان**» ، وتتبع _ميغا_ الآراء المطروحة حول البدايات والمراحل التاريخية لتلك الدولة والممالك التي تعاقبت على حكمها، والتي يرجعها البعض إلى عدة قرون قبل الميلاد، كالقرن السابع، والرابع؛ بل مد البعض تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وتروي المصادر بأن أصول ملوكها يرجع إلى اليمن جاؤوا إلى السودان الغربي-ربما عبر هضبة الحبشة بعد عبورهم البحر الأحمر زمن فرعون موسى عليه السلام، وتوالى على الملك منهم أربعة عشر ملكا في الجاهلية وهم الذين تبدأ أسماؤهم بـ (زا) . كما تشير بعض المصادر إلى أن هذه الدولة تأسست في القرن السابع الميلادي من قبل قبائل سنغاي التي كانت تقيم على الضفة اليسرى لنهر النيجر، حيث بدأت دويلة صغيرة حين قيامها _شأنها شأن الدول والممالك التي سبقتها في المنطقة «غانا» و«مالي»_ وصار شائعا في المصادر التاريخية أن الإسلام قد دخلها في القرن (الرابع الهجري/الحادي عشر الميلادي)، عندما دخل ملكها حينذاك في الإسلام طواعيةعلى يد المرابطين على المرجح وعبر النشاط التجاري. غير أن هنالك من يرجع دخول الإسلام إلى المنطقة في وقت مبكر يرجع إلى النصف الأول من القرن الأول الهجري.

اشتهر من الأسر الحاكمة لصنغاي في الجاهلية والإسلام أسرة «زا» ويقال«ضياء»، والمعروف من ملوكها واحد وثلاثون ملكاً؛ بحيث أسلم منهم أكثر من سبعة عشر ملكاً، منذ القرن الأول الهجري، كلهم ملقبون بـ (زا) واختلف في أصول هذه الأسرة؛ فمن قائل إنها من منطقة طرابلس، وفريق يرى أنها استمراراً للأسرة الحاكمة ذات الأصول اليمنية، وفريق آخر يرجعها تحديداً إلى منطقة صنغاي السودانية. لقد استمر حكم هذه الأسرة _التي اتخذت من «كوكيا» على نهر النيجر الأدنى عاصمة لها، ثم انتقلت إلى «جاو»، أو (كاغ) في شمال شرق مالي_ حتى مطلع القرن الثامن الهجري حين قام «ساكورة» الذي ملك مالي بين عامي (684-700هـ/1285-1300م) بغزو صنغاي وضمها إلى مملكة مالي، لكنها استقلت . وكانت صنغاي قد خضعت من قبل لسيطرة دولة مالي في عهد منسا

علي (653-669هـ/1255-1270م)، ثم سقطت على يدي منسا موسى الذي سيطر عليها لعشر سنوات بين عامي (724-735هـ/1325-1335م). ثم نشأت أسرة ملكية جديدة في صنغاي عرف ملوكها بلقب «سُنِّي» أو «السُنِّي» أو «سن» أو «شي» والتي استمر حكمها من (735هـ إلى سنة 898هـ/1335-1493م)، حيث استعادت هذه الأسرة السيطرة على مناطق صنغاي وامتد نفوذها إلى مناطق مالي بعد أن حل الضعف بملوك الأخيرة من خلفاء منسا موسى؛ ذلك أن ملوك مالي كان من عادتهم كلما فتحوا منطقة ما أن يتركوا إدارتها لملوكها القدامى ويأخذوا أبناءهم رهائن يقيمون في قصورهم لتجنب ثوراتهم وضمان ولائهم.

وقد أخذ ملك مالي منسا موسى عند سيطرته على صنغاي، رهائن من بينهم ولدي ملك صنغاي «زا يابسي»: علي بير أوعلي كولن وأخيه «سلمن نار»، فهرب علي كولن وأخوه من عاصمة مالي إلى «كاغ» أو «جاو» وأعلن علي كولن نفسه ملكاً على صنغاي واتخذ لقب «سُنِّي» سنة (735هـ/1335م). وامتنع عن دفع الجزية لمملكة مالي. وتمكنت هذه الأسرة من صد غارات قبائل الموسى الوثنية من الجنوب والطوارق من الشمال. ومع صعود سني علي الكبير (868-898هـ/1464-1492م) _الذي عرف بحنكته وصرامته وحسن تدبيره_ إلى سدة الحكم اتسع نفوذ هذه الدولة؛ فقد أسس هذا السلطان جيشاً قوياً استطاع أن يمد نفوذه إلى سهول غرب أفريقيا؛ فدخلت في دولته مناطق شاسعة ومدن عدة في غرب أفريقيا من أشهرها تنبكت وجني وغيرها. وتميز عهده بالتنظيمات العسكرية الإدارية والاقتصادية التي أعطت لصنغاي تميزها الحضاري إلى جانب اتساع رقعتها الجغرافية التي استحقت بأن توصف بأنها إمبراطورية مترامية الأطراف . لذا يعده المؤرخون المؤسس الحقيقي لإمبراطورية الصنغاي الإسلامية، لكن أسرته لم يتحقق لها الاستمرارية في الحكم؛ فبعد وفاته أو اغتياله سنة (898هـ/1492م)، خلفه ابنه أبو بكر داع (سني- أو شي- بار) غير أنه لم يدم في الحكم سوى بضعة أشهر؛ إذ كان شخصية ضعيفة؛ فدخل في مواجهة حربية مع محمد بن أبي بكر التوري -أحد أبرز قواد أبيه- والذي يعتقد أن له يد في موت أو اغتيال سن علي الكبير.

هذا وكان بحسب السعدي مضمراً في نفسه الخلافة في الحكم وقام بحيل وأعمال كثيرة من أجل ذلك، ثم بدأ بالعمل العسكري؛ بحيث هاجم بجيشه أبو بكر

داع «سني- أو شي- بار» ابن سني علي، ابتداء من ثاني ليلة من شهر جمادى الأولى من سنة (898هـ/1492م). ودارت عدة معارك بين الجانبين كان آخرها يوم الاثنين رابع وعشرين من جمادى الآخرة انهزم فيها «سني بار» وولى هارباً خارج المملكة، ليفسح المجال لمحمد بن أبي بكر التوري لاعتلاء عرش السلطة في دولة أو إمبراطورية صنغاي الإسلامية، لتدخل صنغاي في عهده وعهد من خلفه من أسرته طوراً جديداً من تاريخها في ظل حكم هذه الأسرة التي عرفت باسم أسرة الأسكيين، أو الأساكي. وامتدت رقعة المملكة في عهد المؤسس حتى سيكو في الغرب والصحراء في الشمال الغربي محققاً ما لم يحققه عاهل مالي «منسا موسا». واستمر حكم هذه الأسرة إلى سنة (1001هـ/1592م)، لتدخل دولة صنغاي بعدها _بعد أن حل الضعف والتراجع بها في ظل صراع ونزاع أمراء البيت الحاكم_ في إطار التبعية لسلاطين مراكش في بلاد المغرب ، ثم خضعت المنطقة للاستعمار الغربي الذي مزق أوصالها فتشتت شعبها في العصر الحديث بين عدة دول أكبر قبائلها في مالي، والنيجر، وبنين، وبوركينافاسو، وغانا، وغيرها من دول غرب أفريقيا.

2. السلطان أسكيا محمد (898-935هـ/1493-1528م):

هو كما ورد ذكره في المصادر: أسكيا- أسكي- أبو عبد الله الحاج محمد بن أبي بكر التوري، أو الطوري، الفوتي، السنكلي. ويعرف بمحمد توري، وبممدو توري. ودعي الكوكوي داراً ومسكناً. وقيل إن أصله يعود إلى أسرة من قبائل صنهاجة الصحراء، نزلت عائلته إلى أرض قبائل الصنغاي إثر اضطرابات في ديارهم وذلك منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. سبقت الإشارة إلى أنه كان أبرز قواد سني علي الكبير، واتهم بأنه أحد مدبري اغتياله أو مقتله إن لم يكن هو القائم على ذلك. ثم قام بمواجهة حربية مع ابن سن علي _أبو بكر داع أو داعو_ فتمكن من التغلب عليه وانتزع منه الحكم ونصب نفسه حاكماً لإمبراطورية صنغاي الإسلامية، واتخذ لنفسه لقب «أسكيا» منذ أن آلت إليه مقاليد السلطة لدولة صنغاي، وصار هذا اللقب تقليداً لمن خلفه من أسرته في السلطة. تعتبر مدة حكمه لدولة صنغاي الذي استمر ست وثلاثون عاماً وستة أشهر. وفي رواية تسع وثلاثين سنة، وقيل ثلاث وأربعين سنة، أزهى العصور التاريخية التي مرت بها صنغاي، سواء أكان ذلك على مستوى النفوذ الجغرافي والسياسي، أم على المستوى الحضاري في مختلف جوانبه: الإداري والتنظيمي والثقافي والاقتصادي، والعمراني، وكذا

نـشر الإسـلام عقيـدة وحضـارة بـين المسـلمين والوثنيـين. فامتـد النفـوذ الإسـلامي إلى منطقـة «بحـيرة تشـاد»، وشـمل منطقـة السـافانا جميعهـا مـن الـشرق إلى الغـرب، فبلغـت صنغـاي أقـصى اتسـاع لهـا حتـى صـارت في القـرن (العـاشر الهجـري/ السـادس عـشر الميـلادي)، أعظـم إمبراطوريـة إسـلامية في غرب السـودان، حيـث فاقت في سـعتها وامتـداد أطرافهـا إمبراطوريتـي غانـة ومـالي الإسـلاميتين السـابقتين لهـا والتـي قامـت واتسـعت عـلى أنقاضهمـا، حتـى قيـل: إن أحـد طرفيهـا لا يعلـم شـيئاً عـن الطـرف الآخـر هـو في حـرب أم في سـلام. وفي عهـده سـاد الأمـن والسـلام في جميـع ربـوع هـذه الإمبراطوريـة الشاسـعة الأرجـاء، وتميـز حكمـه برقـي التنظيمات الإداريـة والعسـكرية.

وقـد أطنبـت المصـادر في ذكـر أعمالـه ومناقبـه ومحامـده؛ لاسـيما ورعـه وعدلـه وصلاحـه وحسـن التدبـير في السياسـة، والعطـف والإحسـان عـلى المسـاكين والرفـق بالرعيـة، وحبـه للعلـم وأهلـه والتذلـل للصالحـين وكثـرة العطايـا لهـم، والتزامـه بالفـروض والنوافـل وجهـاده في نـشر الإسـلام. يقـول صاحـب رحلتـه إلى الحـج محمـود كعـت: «**ولـه مـن المناقـب وحسـن السياسـة والرفـق بالرعيـة والتلطف بالمسـاكين مـا لا يحـصى. ولا يوجـد لـه مثـل لا قبلـه ولا بعـده (...) وحـب العلمـاء والصالحـين والطلبـة وكثـرة الصدقـات وأداء الفـروض والنوافـل. وكان مـن عقـلاء النـاس ودهاتهـم والتواضـع للعلمـاء وبـذل النفـوس والأمـوال لهم مـع القيـام بمصالـح المسـلمين وإعانتهـم عـلى طاعـة اللـه وعبادتـه. وأبطـل جميـع مـا عليـه شي-السـلطان مـن قبلـه- مـن البـدع والمناكـر والظلـم وسـفك الدمـاء، وأقـام الديـن أتـم قيـام، وأطلـق كل مـن ادعـى الحريـة مـن اسـترقاقهم، ورد كل مـال غصبـه شي إلى مواليهـم. وجـدد الديـن وأقـام القضـاة والأئمـة، جـازاه اللـه عـن الإسـلام خـيراً. ونصـب في تنبكـت قاضيـاً وفي بلـدة جنـي قاضيـاً وفي كل بلـد يسـتحق القـاضي مـن بـلاده قاضيـاً**» . وجـاء لـدى السـعدي «**ففـرج اللـه تعـالى بـه عـن المسـلمين الكـروب وأزال بـه عنهـم البـلاء والخطـوب. واجتهـد بإقامـة ملـة الإسـلام وإصـلاح أمـور الأنـام، وصاحـب العلمـاء واسـتفتاهم فيمـا يلزمـه مـن أمـر الحـل والعقـد**»، وكانـت رحلتـه للحـج سـنة (902هــ/1496م) _كمـا سـيأتي_ مليئـة بالمواقـف التي تؤكـد ذلـك، ومـن الألقـاب التـي أطلقـت عليـه: (خليفـة المسـلمين، أمـير المؤمنـين، السـلطان العـادل، القائـم بأمـر اللـه، سـلطان المسـلمين، الأوحـد، الأرشـد، الأسـعد، ....، الـخ). وفي آخـر سـنوات حكمـه أصيـب بالعمـى. ومـع ذلـك فإنـه اسـتمر في

ممارسة الحكم بجدارة لعدد من السنين إلى أن تآمر عليه أحد أولاده _أسكيا موسى_ وعزله من الحكم وذلك قبل صلاة العيد في يوم عيد الأضحى لسنة (935هـ/1529م). ونفي إلى جزيرة تدعى _كنكاك_ خارج المملكة حبس فيها إلى أن أخرجه منها ولده أسكيا إسماعيل، وأسكنه في بعض ديار المملكة، إلى أن توفي في آخر شهر رمضان سنة (944هـ/1538م). وقبره في مدينة غاو (جاو) يعد اليوم من أبرز المعالم التاريخية والأثرية في مالي غرب أفريقيا.

ثانياً: رحلة الحج وآثارها الحضارية:

منذ وصول إلى الإسلام إلى شعوب أفريقيا الغربية في القرون الهجرية الأولى، ودخولها في رحابه، حرص مسلمو تلك الديار على أداء فريضة الحج كونها ركن واجب من أركان الإسلام، ولا يكتمل إسلام الفرد المسلم إلا بتأدية هذه الفريضة لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وذلك رغم مشقة السفر ذات المراحل البعيدة والأخطار والمتاعب الكثيرة التي تواجه الحاج وقوافل الحج على طول طريق الرحلة إليه، وفي المقابل فإن طول رحلة قوافل الحج الأفريقية -التي قد تستغرق سنوات- واجتيازها محطات ومراكز وبلدان عديدة إلى أن تحط رحالها في ديار الحرمين الشريفين، ومن ثم تمكث فيها ما شاء الله لها أن تمكث لتقضي مناسكها وتشهد منافع كثيرة لها، فيمكث البعض مجاوراً فيها بلا رجعة، ومن يرجع يسلك المسالك ذاتها التي جاء منها، وفي ذلك كله منافع وفوائد وآثار لا تحصى وقد حرص قادة الممالك والإمبراطوريات الإسلامية في السودان الغربي على تأدية هذه الفريضة . ولعل من أشهر رحلات الحج التي سلكت طريق الحج من غرب إفريقيا، تلك الرحلات التي قام بها ملوك غانة، ومالي وأشهرهم السلطان منسا موسى سلطان مالي، وأسكيا محمد سلطان صنغاي. وسنعرض لرحلة الأخير وآثارها الحضارية على النحو التالي:

1. وصف موكب الحج وخط سيره:

كانت مواكب حج سلاطين وملوك الممالك الإسلامية في إفريقيا الغربية، مهيبة بأعدادها البشرية من أمراء ووزراء وعلماء وزعماء قبائل وقادة وأجناد وخدم وعامة، وكذا الدواب التي تحمل الزاد والأمتعة والأثقال والهدايا الكثيرة. وكان أداء فريضة الحج من أولويات الواجبات أو المهام

التي يقوم بها قادة تلك الممالك بعد تمكنهم من تثبيت سلطتهم. فتشير المصادر إلى أن السلطان أسكيا محمد بعد أن بسط يده ومد نفوذه على مملكة صنغاي وثبت أوضاعها وتخلص من شي بار بن سني علي ـملك صنغاي السابقـ عزم على أداء فريضة الحج في السنة الثانية بعد التسعمائة للهجرة، فخرج في شهر صفر من تلك السنة، بعد ما حصل له ثلاثمائة ألف مثقال ذهباً. وضم موكبه كبار أعيان قبائل وعشائر صنغاي وكبار العلماء والأمراء والقادة في مملكته بالإضافة إلى الجند والخدم؛ بحيث تألف موكبه من ألف وخمسمائة رجل، وخمسمائة فارس، وألف راجل. يقول محمود كعت في هذا الجانب ـوهو أحد أعضاء موكب حج السلطان من شريحة العلماءـ: «**فلما ملكه الله جميع أرض شي-شي بار- وتحقق تمكنه في السلطنة، عزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام للحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم. وتهيأ وخرج في العام الثاني بعد تسع مائة، ومعه من العلماء الأعيان ومعه أيضاً سبعة من فقهاء بلده، منهم ألفا صالح جور، ومور محمد هوكار وهو يومئذ شيخ كبير، وألفا محمد تل، وكاع زكريا المنسوب بسنفه، ومور محمد المنسوب بتنك، والقاضي محمود يندبع، وأنا معه أي المبتلي بالتأليف أنا محمود كعت (...) ومن أمراء النواحي ابنه أسكي موسى وهد كركي علي فلن وغيرهم، ومن العبيد الخدام ثمانمائة عبد**».

وبحسب الدالي فإن موكب حج أسكيا محمد شق طريقه «**عبر الأراضي الليبية، مروراً بمدينة غدامس، وطرابلس، والمنطقة الشرقية من ليبيا إلى أن دخل الأراضي المصرية مروراً بالإسكندرية، والقاهرة إلى الأراضي المقدسة، وهو الخط المعتاد نفسه الذي سلكه الملك الراحل منسا موسى ملك مالي**». وقد أفرزت تلك الرحلة الكثير من القصص والأخبار والنوادر والأساطير التي روتها المصادر التي تحدثت عنها والتي تخرج عن نطاق المألوف والواقع وقد يمتزجا معاً ، ما تشكل هذه المادة اتجاهاً ومجالاً أدبياً قائماً بذاته جدير بالاهتمام والبحث العلمي يمكن أن يطلق عليه: «أدب رحلات الحج».

2. الآثار الحضارية لرحلة الحج:

بالإضافـــة إلى الهـــدف الرئيـــس والواجـــب الشرعـــي مـــن القيـــام برحلـــة الحـــج المتمثـــل بـــأداء فريضـــة الحـــج، فـــإن ثمـــة أهـــداف ودلالات وآثـــار سياســـية وحضاريـــة متعـــددة الجوانـــب اكتســـبتها هـــذه الرحـــلات كمـــا ســـيتبين في هـــذه الرحلـــة عـــلى النحـــو التـــالي:

أ. آثار ومواقف في ديار الحرمين الشرفين:

كمـا سـبقت الإشـارة فقـد أطنبـت المصـادر في ذكـر موكـب رحلـة حـج سـلطان مـالي منسـا مـوسى، ومـا أنفقـه خلالهـا مـن أمـوال وهدايـا عـلى طـول خـط رحلتـه، لاسـيما في ديـار مـصر والحرمـين الشريفـين، حيـث أنفـق آلاف المثاقيـل مـن الذهـب هدايـا وصدقـات وأحبـاس، ثـم هـا هـي رحلـة أسـكيا محمـد سـلطان صنغـاي بعـد مـا يزيـد عـن القرنـين والنصـف مـن رحلـة منسـا مـوسى، تحظـى بذلـك الصيـت في مجـال الإنفـاق الخـيري وأوجهـه المتعـددة. يقـول مرافـق رحلتـه محمـود كعـت: «**وتصـدق عـلى فقـراء الحرمـين بمائـة ألـف دينـار ذهبـاً، واشـترى بمثلهـا جنانـاً وبيوتـاً وحبسـها عـلى الفقـراء والعلمـاء والمسـاكين**». ويقـول في موضـع آخـر: «**ولـه خصائـص ومناقـب في حجـه مـن ذلـك أقبـل عليـه أهـل الحرمـين الشريفـين، واشـترى في مكـة المشرفـة بقعـة وبناهـا داراً، وحبـس الـدار عـلى الكعبـة الشريفـة. وتلقـاه هنالـك العلمـاء الأجـلاء والصلحـاء المرضيـين. وعممـه شريـف مكـة وقدمـه وولاه وألبسـه العمامـة الزرقـاء وسـماه الإمـام**». وجـاء لـدى السـعدي، «**فتصـدق الأمـير في الحرمـين مـن ذلـك المـال بمائـة ألـف ذهبـاً، واشـترى جنانـاً في المدينـة المشرفـة وحبسـها عـلى أهـل التكـرور، وهـي معروفـة هنالـك. وأنفـق بمائـة ألـف واشـترى السـلع وجميـع مـا يحتـاج إليـه بمائـة ألـف**». ورغـم شـهرة حـج منسـا مـوسى ومـا وبـين تناقلتـه الأخبـار عـبر الأجيـال مـن الإعجـاب بمظاهـر ذلـك الموكـب وأبهتـه... كمـا يذكـر السـعدي، ومـع ذلـك ومـن حيـث المقارنـة بـين مـا أنفقـه أسـكيا محمـد، فـإن كفـة الأخـير هـي الراجحـة يقـول: «**فـورخ -أرَّخ- أهـل المـشرق مجيئـه -أي منسـا مـوسى- ذلـك وتعجبـوا مـن قوتـه في ملكـه، ولكـن مـا وصفـوه بالجـود والكـرم لأنـه مـا تصـدق في الحرمـين مـع كثـرة ملكـه إلا بعشريـن ألفـاً ذهبـاً بنسـبة مـا تصـدق بـه أسـكيا الحـاج محمـد فيهمـا، وهـو مائـة ألفـاً ذهبـاً**». ومـن المواقـف التـي رواهـا محمـود كعـت في ديـار الحرمـين الشريفـين خـلال

هــذه الرحلــة قولــه: «**قيــل إنــه ســمع رجــلاً مــن أهــل مكــة كان عنــده شيء مــن شــعر رأس رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم، يأتيــه التجــار بألــوف مــن الذهــب يطلبــون منــه أن يغمــس تلــك الشــعر الشريفــة المباركــة في المــاء ويشربــون ذلــك المــاء ويغســلون بــه. فلمــا أتــى الرجــل طلبــه منــه وأخرجــه لــه وظفــر بشــعر منهــا وألقــاه في فمــه والتقمــه، يــا لــه مــن فــوز مــا أحرمــه ونعمــة مــا أوفــره**». وموقــف آخــر في المدينــة المنــورة في الحــرم المدنــي الشريــف مــا يــدل عــلى أهميــة موســوم الحــج في اتخــاذ مواقــف وإبــرام عهــود ومواثيــق في هــذه الرحــاب الطاهــرة تأكيــداً لحرمتهــا ومنعتهــا واســتحالة نقضهــا، مــن ذلــك قولــه: «وقيــل لمــا دخــل شــبكة رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم دخــل معــه بركــي منــس كــور _أحــد أعيــان القبائــل التــي انضــوت تحــت ســلطانه في غــرب أفريقيــا_ وأمســك بمعمــدة مــن الشــبكة الشريفــة وقــال: يــا أســكيا محمــد هــذا رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم، وهــذا أبــو بكــر وعمــر رضي اللــه عنهمــا. دخلــت في حرمتهــم، أطلــب منــك أشــياء، الأولى ألا تجعــل بناتــي في الــدار إلا بالنــكاح. فقــال: فعلــت. ثــم قــال: ومــا الثانيــة؟ قــال: أن تقــف حيــث وقفتــك في الأمــر ولا نهــي. فقــال: فعلــت. ومــا الثالثــة؟ قــال: فــلا تقتــل مــن دخــل في داري ولا مــن وصلنــي. فقــال: فعلــت. فقــال: لا بــد أن تعطينــي العهــد عــلى ذلــك في هــذا المــكان الشريــف، ويكــون رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم شــاهداً عــلى ذلــك. فقــال: فعلــت. وعقــدوا عــلى ذلــك».

ب. الآثار السياسية والحضارية على مملكته:

كانــت لرحــلات الحــج الســلطانية لســلاطين الممالــك الأفريقيــة الإســلامية آثــار سياســية وحضاريــة متعــددة الجوانــب عــلى المســتوى الســياسي والحضــاري لدولهــم ونظــام حكمهــم، ومــن شــأن ذلــك تعزيــز ســلطة أولئــك الســلاطين وإضفــاء الصبغــة الشرعيــة عــلى حكمهــم، فقــد ســبقت الإشــارة إلى أن الســلطان أســكيا محمــد قــد اصطحــب معــه في رحلتــه للحــج أعيــان القبائــل والعشــائر في مملكتــه، وذلــك لضمــان عــدم قيامهــم بــأي تمــرد في حــال بقائهــم بــين عشــائرهم أثنــاء غيــاب الســلطان وتألــف قلوبهــم، وكــذا ليشــهدوا مــا ســيحظى بــه الســلطان مــن حفــاوة وترحــاب وإقــرار لســلطنته وشرعيتهــا الإســلامية وذلــك في محطــات رحلــة الحــج لاســيما في ديــار الحرمــين الشريفــين، فمصــادر أخبــار تلــك الرحلــة تشــير إلى حــرص الســلطان أســكيا محمــد عــلى الحصــول عــلى هــذه الصبغــة الشرعيــة مــن شريــف مكــة –أو مــن خليفــة عــصره العبــاسي–، ومــن كبــار وممــا جــاء حــول ذلــك، يقــول محمــود كعــت مــؤرخ الرحلــة: «**وجعــل يســأل العلمــاء العاملــين عــن ســنة رســول اللــه**

صلى الله عليه وسلم ويمشي على أقوالهم، رحمه الله، حتى اتفق علماء عصره على أنه خليفة. وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ شمهروش الجني، والشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة، رحم الله الجميع».
ويقول: «**ولقي في تلك الأرض المباركة الشريف العباسي، فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سغي، فرضي له بذلك وأمره أن يسلم في أمرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع. ففعل، وجعله خليفة، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده، فكان خليفة صحيحاً في الإسلام**».

وفي موضع آخر جاء: «**وأما الشريف الحسني مولاي العباس فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكي الحاج محمد جالسا بحذاء الكعبة يتحادثان، فقال له الشريف مولاي العباس: يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك جئتنا ملكا، والملك والخلافة لا يتفقان. فقال له كيف ذلك، يا سيدي؟ فقال له مولاي العباس: لا سبيل إلى ذلك إلا أن تخرج عما أنت فيه. فأذعن له أسكي طوعا، وطرد جميع الوزراء عنه، وجمع جميع آلات السلطنة وأموالها، وجعل ذلك كله بيد العباس، وقعد عازلاً لنفسه. ودخل مولاي العباس في الخلوة ثلاثة أيام. ثم خرج يوم الجمعة ونادى أسكي الحاج محمد وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفا، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله تعالى ورسوله» . «ثم طلب من أمير مكة مولاي العباس أن يعطيه واحداً من الشرفاء إما أخاه أو ابنه ليتبركوا به، وهذا بعد ما أمره مولاي العباس على أرض التكرور وبين أنه واحد من الخلفاء الاثني عشر. وقال له مولاي العباس: فسأعطيك إن شاء الله من هو كأنا ولكن لا يمكن ذلك الآن».**

ثم تهيأ أسكي الحاج محمد للرجوع، فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبد الرحمن السيوطي)، فسأله أسكي عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيأتون بعده. فقال الشيخ: «**هم اثنا عشر، خمسة منهم بالمدينة، واثنان بمصر، وواحد بالشام، واثنان بالعراق، وقد مضى هؤلاء**

كلهم، وبقي اثنان بأرض التكرور، أنت أحدهما، ويأتي بعدك الثاني» . ويقول السعدي في السياق ذاته: «**ولقي في ذلك الأرض المبارك الشريف العباسي، فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سغي، فرضي له بذلك وأمره أن يسلم في أمرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع. ففعل، وجعله خليفته، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده، فكان خليفة صحيحاً في الإسلام. ثم لقي كثيراً من العلماء والصالحين، منهم الجلال السيوطي رحمه الله تعالى، وسألهم عن أشياء من أموره، فأفتوه فيها، وطلب منهم الدعاء، فنال بركاتهم كثيراً. ورجع في السنة الثالثة ودخل في كاغ في ذي الحجة مكمل السنة، فأصلح الله تعالى ملكه ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً، فملك من أرض كنت إلى البحر المالح في المغرب وأحوازهما، ومن حد أرض بندك إلى تغز وأحوازهما. فطوع الجميع بالسيف والقهر**». وصار منذ ذلك الحين يلقب بالحاج أسكيا، واتخذ الألقاب الدالة على تلك المكانة الشرعية التي تبوأها منها: أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين ... الخ، وكذا الشارات، والشعارات، واللباس والمراسيم السلطانية.

وقد ظل أسكيا محمد متشبثا بتلك المظاهر طوال مدة حكمه وبعده، ففي حديث محمود كعت عن السلطان أسكيا إسماعيل- أحد أبناء أسكيا محمد والسلطان الثالث من بعده (943-946هـ/1537-1539م) وهو الذي- بحسب الرواية أعلاه - بشر به جلال الدين السيوطي والخليفة العباسي بأنه الخليفة الشرعي من بعده «**ولما أخرج أباه من تلك الجزيرة -أي جزيرة كنكاك التي نفاه إليها ابنه الأول أسكيا موسى- وأسكنه في بعض بيوت دار المملكة أتى بشكارة له وحل ربط فمها وأخرج منها قميصا وشاشة خضراء وعمامة بيضاء، وأدخل القميص في عنق أسكي إسماعيل وأدخل القلنسوة الخضراء في رأسه وعممه بتلك العمامة، وأدخل في عنقه سيفا، وقال: هذا قميص قمصني به شريف مكة المشرفة الذي هو أميرها حينئذ وأدخل هذه القلنسوة على رأسي وعممني هكذا بيده المباركة في حضرة جم غفير من قومه من أهالي مكة وغيرهم، وقلدني هذا السيف وقال: أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمك وأنت أمير المؤمنين. وأنا خليفته وأميره ونائبه. وولاني وملكني. وغصب الملك مني ولدي الفاسق موسى. ثم غصبه منه محمد بنكن، وكلاهما خارجان. وقد وليتك أنا**

ووردت الخلافة التي قلدني بها الشريف لك، وأنت خليفة خليفة الشريف الذي هو خليفة السلطان الأعظم العثماني».

لقد أعطته هذه الرحلة ـبحسب اعتقاده وعلمائهـ شرعية في الحكم، وحماساً بعد عودته لنشر الإسلام وتوسيع مملكته وتنظيم شؤونها على أسس حضارية جديدة مستفيداً من تجارب نظم الحكم في مصر والحجاز وبلاد الشام والعراق. وذلك بعد أن التقى بزعماء المسلمين وقادتها وعلمائها في ديار الحرمين الشريفين وفي مصر، وفي المراكز الثقافية في شمال أفريقيا، وقضى مدة في مصر التقى فيها بعلمائها، ومنهم جلال الدين السيوطي، الذي مكث يسأله أسئلة كثيرة شرعية وسياسية... الخ، واصطحب أحد أقربائه إلى دياره ليتبرك به ويكون من مستشاريه، وتلقى تقليداً من الخليفة العباسي في القاهرة ـأو هو ذاته الذي ذكر في مكةـ بخلافته في بلاد السودان. كما اصطحب معه من تجيدا العلامة عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى جاو عاصمة مملكته؛ فكان يسأله عن كل صغيرة وكبيرة ويطلب فتاواه وهذه الأجوبة والفتاوي محفوظة في مجلدات منشورة معنونة بأجوبة المغيلي على أسئلة أسكيا أو العكس وجاءه من بغداد الشريف أحمد الصقلي في السنة الخامسة والعشرين بعد التسعمائة، مرسلاً من شريف مكة أو من الخليفة العباسي بحسب طلبه في موسم الحج؛ فكان مساعداً وشريكاً له في إدارة وحكم دولته وفق أسس تنظيمية جديدة قائمة على ما كان سائداً في العراق والحجاز ومصر. فعاد من تلك الرحلة وهو مفعم بالحماس لنشر الإسلام وتنظيم الدولة على أسس إسلامية حديثة، وتشير المصادر أنه بعد عودته «**نصر السنة، وأحيا طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره، ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال**».

لقد كان موسم الحج مناسبة عظيمة لتعزيز أواصر روح الإخوة الإسلامية، وروح التعاون والتكامل الحضاري الإسلامي؛ فقد تأثر بما رآه في مصر والحجاز من نظم الحكم والثقافة الإسلامية العربية؛ فعمل حين عودته على تطبيق ما تعلمه من تجارب تلك المشاهدات؛ فقلد كثيراً منها في تنظيم مملكته، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كل الاحترام والتقدير؛ فكان إذا دخلوا عليه يجلسهم على سريره، ويأمر ألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج إذا قدموا من مكة ، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء، وأبطل البدع والمنكرات وأقام الدين

والعقائد، واهتم بجامعة تنبكت التي منحها عناية خاصة حتى ضاهت الأزهر، والقيروان، والزيتونة، وفاس، والنظامية في بغداد، وسار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة.

الخاتمة:

من خلال ما سبق عرضه في هذا النموذج الذي قدمته هذه الدراسة، نخلص إلى أن رحلات الحج التي قام بها سلاطين وملوك الممالك الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء كان لها آثار حضارية متعددة الجوانب والمجالات: السياسية والاقتصادية والفكرية والدعوية، والاجتماعية والعمرانية ومجالات حضارية أخرى، منها ما كان واضحاً في مناطق خط سير الرحلة وعلى وجه الخصوص في بلاد الحرمين الشريفين وكذا المراكز والمدن والأمصار الأخرى التي مرت بها تلك الرحلات ذهاباً وإياباً، وذلك في مجال النفقات السخية ولأوقاف ولأعمال الخيرية والإنشائية والالتقاء بالعلماء ومن ثم التعليم والتعلم، واكتساب المعارف والعلوم في شتى صنوف العلوم والمعارف واستلهام التجارب الحضارية في مجال الحكم والسياسة والتدابير الإدارية والحصول على الصبغة الشرعية الإسلامية للحكم في مناطقهم، وكذا اصطحاب العلماء والمبدعين إلى بلدانهم للاستفادة منهم في بناء دولهم وممالكهم التي قامت وسارت على النهج والنمط الحضاري الإسلامي، ليتحقق بذلك الهدف الحضاري من الحج المتمثل في المنافع و التكامل والحوار الحضاري الإسلامي بين شعوب العالم الإسلامي على اختلاف أجناسه وألوانه وبيئاته وثقافاته؛ فكانت مواسم الحج التاريخية مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ**﴾ [سورة الحج: الآيات: 29-27]. صدق الله العظيم.

حجية الصحراء: الرحلة إلى الذات

قراءة في مفردات الخطاب الرحلي بالصحراء

دة. فاطمة محمد محمود عبد الوهاب

المقدمة:

لازم الإنسان الترحال منذ مهبطه على هذا الكوكب يسعى ويعمر ويكتشف الآفاق... فكان الانتقال وسيلته لاكتساب المعارف وتحقيق المكاسب وتوسيع الآفاق...وقد تعددت أشكال الرحلة ووجهاتها ومراميها، تبعا لمتغيرات الزمان والمكان والإنسان.

ورغم بعد الشقة وتنوع المخاطر، مثلت رحلة الحج حلما للصحراوي، الذي يشكل الترحال أصلا بعدا من أبعاد هويته وجزءا من ذاته ، خاصة حين يندغم مع البعد الروحي فيصل الذات بمنبع الإيمان ومهبط الوحي.

ويسعى مقترحنا الراهن إلى الإسهام في تسليط الضوء على أبعاد تلك الارتباطات التي تنشأ خلال رحلة الحج الصحراوية بين الديني والاجتماعي والوجداني، مجسدة في تجربة البشير بن امباريكي، وذلك من خلال العناصر التالية:

- علامات في الرحلة،
- سفارة الشعر،
- في اتجاه المنبع الروحي،
- الخطاب المنسكي،
- خطاب المشقة،
- ختام البدء... بدء الختام.

أولا: علامات في الرحلة:

تميز البدوي باعتماده الحافظة في اكتساب ونقل المعرفة، وابتعاده عن التدوين. وإذا كان الناطقون بالحسانية قد تعاطوا بشكل استثنائي مع الثقافة المكتوبة، مما سمح لهم بإقامة جامعات (محاظر) متنقلة على ظهور العيس يتعاطون فيها جميع المعارف والفنون المكتوبة التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية قديما، فإنهم _نتيجة الطبيعة البدوية وتأقلما مع ظروفهم البيئية_ إنما استوعبوا تلك المعارف عن طريق تطويعها للطابع الشفاهي، فكانوا يعتمدون على حفظ المتون وشروحها...؛ أي أنهم قاموا بتحويل المعرفة المكتوبة (بأصل وضعها) إلى الصيغة التي تسهل تحويلها إلى الذاكرة، لذلك عمدوا إلى النظم باعتباره الأسهل حفظا في الذاكرة. وهم بذلك ينقلون المعرفة من وعائها الأصلي (الكتاب) إلى وعاء يناسب طابع البداوة والترحال (الذاكرة) الذي يشكل حتمية واختيارا في الآن ذاته بالنسبة للبدوي.

ولعل أهم سمات الخطاب في رحلة البشير _وليست بدعا من بين تجارب القوم_ أنه قام على عنصر التسجيل الدقيق للحدث ، ربما في تحد غير واع للمحو الذي يتربص بأي أثر غير مكتوب كما تطمس رياح الصحراء أي أثر للحياة؛ لكن ذلك التسجيل يتم بطريقة تعول على الذاكرة (أي من خلال النظم). وتتجلى هذه السمة في الخطاب من خلال علامات أهمها:

1. الزمان:

بعد المقدمات التقليدية للتأليف (التعريف بالمؤلف- الحمد لله والتصلية على نبيه- سبب التأليف...) يطالعنا زمان الرحلة. ويمكن تقسيم الزمن إلى نقاط حاسمة:

1.1: زمن البدء:

ويتحدد هذا الزمان بالمكان، فضلا عن اليوم والشهر والسنة:

مبدأ ذا السفر من دمان * عاشر أيام ربيع الثاني**
بعض شهور سادس من السنين * بعد ثلاث عشرة من المئين**

2.1: زمن الانتهاء:

ويسجل تاريخ انتهاء الرحلة بالطريقة ذاتها في الضبط والتدقيق:

قد انتهى ما رمته من رحلة	***	وقد بقي يومان من ذي الحجة
سنة سبع وثلاث مائة	***	من بعد ألف قد مضت للهجرة

وتبدو إضافة كون التاريخ هنا هجريا لا إفرنجيا، استدراكا هدفه زيادة توضيح إطار الرحلة الزماني، ورفع أي لبس محتمل بشأنه.

3.1: زمن الانتقال (أو المحطات البينية):

وما بين البداية والنهاية، قد يتخذ الضبط التأريخي أسلوبا مغايرا في تسجيل الإحداثيات الزمنية للمسار عبر الرحلة، خاصة بالنسبة للمحطات الكبرى التي يبدو من خلال نظام العنونة أن كل منعرج منها يشكل انطلاقة جديدة. ففي المحطة الثانية _مثلا_ نقابل التأريخ ذاته للانطلاق، لكن باختلاف بسيط تسقط بمقتضاه السنة تجنبا _على ما يبدو_ للحشو، إذ سبق أن ذكرت السنة عند بدء الرحلة:

ثم أشار لثلاث مضت	***	من رجب لِكُلِّنا بالرحلة

وما بين هذه المحطات نرصد اختلافا آخر في طريقة رصد الزمن:

[...]	***	[...]
سرنا من الأيام خمسة عشر	***	بهمم قد عولت على السفر
[...]	***	[...]
جئناه إذ من شعبان قد عبر	***	يومان، عنده أقمنا اثني عشر

[إن الضبط هنا يتجاوز مجرد تحديد التاريخ إلى أن يشمل تعيين عدد أيام الرحلة اتجاها إلى المحطات، ومدة الإقامة بالمحطة المعينة في شبه ارتهان للزمان بالمكان.

2. المكان:

إضافة إلى المرتكز الزمني، تتخذ حجية ابن امباريكي مرتكزا آخر من المكان، وهو ما يضفي على الرحلة زيادة في الواقعية. ويتخذ المكان في الرحلة صورا نذكر منها:

1.2: المكان الطبيعي:

نقصد بالمكان الطبيعي -وهي صفة من المفروض أن تتصف بها جميع الأمكنة- المكان الذي يرد في السرد بصفة محايدة، أي المكان المجرد من أي ملمح خارج الوصف المحايد.

ويمكن أن نصنف ضمن هذا النمط أغلب المواقع التي شكلت مسارا للرحلةابتداء من المنطلق (دمان) إلى غاية الوصول إلى مبتغى الرحلة وهو مجموع المحطات الواقعة داخل «أرض الحرم»، في مرحلة الذهاب وانتهاء بديار المنشأ (...) في رحلة الرجوع، مرورا بمناطق من اليابسة والبحر على امتداد قارتي إفريقيا وآسيا.

2.2: المكان المقدس:

المكان المقدس هو -في مفهومنا- ذلك الذي يرتبط بالتعظيم (مكان العبادة أو مكان الزيارة...). وهو في سياق الحج ذلك المكان الذي يشكل هدفا للرحلة، أو منطلقا من منطلقات المحطات التي كان لها الدور في إنجاح رحلة الحج بوسائل غيبية. ولا يقتصر المكان المقدس -بهذا المفهوم- على المشاعر المعروفة، بل يشمل الأماكن والمحطات التي شكلت في خطاب الرحلة عاملا واقعيا أو غيبيا لنجاحها، كالحضرات الصوفية ومزارات الأولياء التي تزار بهدف النجاح في الوصول إلى مناسك الحج وإتمامه والسلامة من مخاطر الرحلة...

وبهذه المواصفات، هناك محطات خاصة يمكن اعتبارها نموذجا للمكان المقدس مثل «أرض الساقية»حيث حضرة الشيخ ماء العينين، ومثل مزارات «السبعة الرجال». وابتداء من دخول الأرض السعودية، فمن الطبيعي أن تتكاثف الأماكن المقدسة (داخل وخارج المشاعر)، وهكذا يطالعنا مع دخول جدة مكان «روضة تلك الجدة» أي حواء أم البشر ، لتتكاثف بعد ذلك الأماكن الحجية التي تحتل المرتبة الثانية من مجمل العلامات المكانية في الرحلة، بعد المكان الطبيعي وقبل المكان المدنس.

ويمتاز المكان المقدس في الرحلة بأنه باعث للتفاؤل والأمل بالفوز بما ترغب فيه النفوس عكسا للمكان المدنس أو المنبوذ.

3.2: المكان المدنس:

يتحـدد نسـق المدنـس المكانـي وظيفيـا بالمعطـى العقـدي والوجدانـي؛ إذ هـو _عكـس المـكان المقـدس_ مـكان مرتبـط بالخطيئـة، لذلـك فهـو مـكان منبـوذ منـذر _مـا لـم يشـمئز منـه الإنسـان ويتـبرأ مـن الفعـل الـذي ارتبـط بـه_ بـأن يحـل بـه عقـاب أو تصيبـه مصيبـة مـن نـوع مـا، فهـو باعـث عـلى الخـوف والتطـير...

ويـكاد نسـق المدنـس المكانـي لا يعـد شـيئا مذكـورا بـإزاء النسـقين السـابقين (الطبيعـي والمقـدس). فهـو يقتـصر في الرحلـة عـلى موضـع يتيـم هـو مـكان «مغـرق فرعـون» في البحـر الأحمـر. ويتضـح ذلـك في نـص الرحلـة حيـث يقـول ابـن امباريكـي متحدثـا عـن القـارب الـذي يقـل الحجيـج:

لمـا أتـى مغـرق فرعـون الغبـي * تصايـح الأنـام خـوف العطـب**

ومع أن سياق غرق فرعون ينافي كليا وضعية المؤمن بالله الساعي لأداء ركن من أركان دينه، فإن مجرد عبور المنطقة باعث في حد ذاته على الخوف من مصير فرعون. ويلخص لفظ «العطب» هنا كل الهواجس والتوجسات التي اعترت الحجيج وهم يعبرون من ذلك الموقع.

3. الإنسان:

شكل الإنسان أهم علامة من علامات الرحلة، فهو في الآن ذاته الذات والموضوع، وقد اعتنى البشير _مثل غيره من مؤلفي الحجيات_ بتحديد الشخوص الذين يمكن تقسيمهم إلى المجموعات التالية:

1.3: الرفقة:

تتألف الرفقة بشكل أساس من الذين يتحدون مع المؤلف في هدف الحج، ويتلمسون مثله السبل والمسالك المؤدية إلى ذلك الهدف، لكنها تضم كذلك من يرافقه في مرحلة من مراحل الرحلة، كما هو الشأن مع الدليل الذي رافقه انطلاقا من الساقية الحمراء، والذي يصفه بأنه مشيع.

ويطالعنا الحديث عن الرفقة بشكل تفصيلي ابتداء من انطلاق الرحلة البحرية من طنجة، حيث يتم التفريق بين أعضاء الرفقة، ففي حين لا يمثل بعضهم أكثر من مجرد رقم:

ومعنـا ألفـان وسـط الفلـك * من الحجيـج في الذي عنهم حكي**

نجده يجترح لقومه الآتون من وطنه مفهوم «الصحبة» في إشارة قد تحمل إيحاء _فضلا عن حميمية العلاقة الناشئة بينهم_ باستلهام من علاقة الصحابة بالرسول صلى الله عليه وسلم. ويفصل البشير من أسماهم «صحبتي» بالأسماء والقبائل والمناطق، مضيفا نفسه في آخر القائمة:

وصاحب النظم هو الثاني عشر * تاب عليه معهم رب البشر**

وفضلا عن الرفقة بمستوييها (الرفقة والصحبة)، يحضر كثير من الشخوص الذين أثروا في حركية الحدث بأشكال متباينة مساعَدَة أو إعاقة.

2.3: الشخصيات المساعدة:

يطّرد في عرف سكان الصحراء تحمل نفقات الرحلة الحجية لمن قرر تجشم عناء تلك الرحلة-المغامرة. وتتعدد الشخصيات المساعدة بتعدد مستويات الدعم المعينة على تحقق مسعى الحجيج والأدوار التي اضطلع بها كل طرف. وهكذا تمكّننا قراءة الرحلة من تمييز مستويين من مستويات الدعم التي تلقتها «الصحبة» الحجية:

1.2.3: الدعم الروحي:

من يطلع على نص الرحلة يلاحظ أن أول وأهم من حفز ودعم مشروع الحج بل كان باعثا عليه، هو الشيخ سعد أبيه كما يتضح من النص:

سرت بأمر شيخنا سعد أبيه * زودني من حكم ما أشتهيه**

وقد اتصل ذلك الدعم خلال الرحلة بشكل أوضح في التعبير عن المدد الروحي عند اضطراب البحر واشتداد كربه:

ثم استغاث الصلحا من كُرَبه * وانكشفت عند ندا سعد أبه**

وقد يلتمس الدعم الروحي من الأموات المشهورين _تبعا للمألوف في التصور الشعبي_ بمكانة دينية معينة، بحيث تحل زيارة الموتى محل استشفاع من أجل اكتمال المهمة، كما في مزار قبور السبعة الرجال بمراكش:

زرنا قبور السبعة الرجال * به وكل صالح مفضال**

وكذلك زيارة قبر حواء بجدة:

ثم أقمنا يومنا بجدة * زرنا بها روضة تلك الجدة**

على أن الدعم أو المدد الروحي قد يكون سببا لأشكال الدعم الأخرى.

2.2.3: الدعم الإداري:

كان أول دعم إداري لصاحب الرحلة هو كتاب تلقاه من ابن شيخه الشيخ ماء ا لعينين :

فجئتها وجئت قرة العيون * أخا الصفاء والوفا ما العيون**

فقد أعطى هذا الشيخ المؤلف توصية للسلطة المغربية بتسهيل مهمة الحج له ولصحبه:

أمدنا بصحف للغرب * مضمونها إكرام هذا الركب**

ونجد تخصيصا ضمن عموم الصحف، كالصحيفة الخاصة بقائد السلطان في فاس:

وكان مع سلطان فاس قائد * تلميذ ما العينين قرم ماجد**
عندي له من عنده صحيفه * في السعي بيننا مع الخليفه**

كما أرسل معهم دليلا لعب في الآن ذاته دور المرشد البروتوكولي:

شيعنا من قومه مريد * لكلنا بنفسه يجود [...]**
صحبته ثم جعلت أسأله * مستفهما عن كل ما قد أجهله**
كالأمراء ومن إليهم ينسب * كيف المعاملة؟ كيف الأدب؟**

ويتوج الدعم الإداري برسالة من سلطان فاس تقتضي التكفل بالرحلة البحرية إلى البلاد المقدسة:

فكتب السلطان في وصحبتي * في البحر بالركوب عند طنجة**

فتلك الصحيفة قد أغنت عن دفع أي مال مقابل خدمة النقل البحري.

3.2.3: الدعم المالي:

توقف المؤلف عند أشخاص قدموا له ولصحبه دعما ماليا: منهم شخص من أعيان واد نون يدعى ابن بيروك:

لما أتيناه ببعض ورَق *** ذاك الوفي زودنا بورِق

كما تحدث بصيغة الجمع عن بعض أعيان الرباط وسلا، ناصا على تلقي دعم مالي منهم دون ذكر الأسماء:

فاستقبلونا بوجوه كرماء *** وبعضهم يتحفنا دراهما

ومع وجود هذا النمط من الشخصيات، فإن هناك من يضع العراقيل ويعيق المسار.

3.3 الشخصيات المعيقة:

يعد هذا النوع من الشخصيات نادرا في مساق الرحلة بالمقارنة مع الشخصيات الداعمة بوجوه الدعم المختلفة. ومع أن صاحب الرحلة أسهب في الصعاب التي يتلقاها الحاج، والتي سنفرد لها فقرة في سياق هذه الورقة، فإنه نادرا ما ذكر شخصيات بعينها عملت على إعاقة جهود الحجيج.

ولعل الاستثناء النادر ذلك الذي جاء في سياق وصول الرحلة البحرية إلى مدينة جدة، واستعداد الركاب للنزول من السفينة التي أقلتهم من طنجة وما تلقوه من مشاق الازدحام أثناء النزول من السفينة، ثم ما تعرضوا له من حبس... فقد تحدث عن شخصيات أعاقت النزلاء بأوجه مختلفة:

لما نزلنا من زحام الفلك *** تلقت القوم علوج الترك

وقد نجد تفسيرا لخروج صاحب النص عن حدود الحكي المحايد إلى شحن الخطاب ضد أولئك الشخصيات عبر وسم «**علوج**»، من خلال الإسهاب في أنواع المعاملة السيئة بالنسبة إليه:

ففرقوا بينهم والأمتعه *** وحبسوهم بدار واسعه
وطلبوا المغرم قهرا منهم *** وليس عندنا هناك درهم

وهي المعاملة ذاتها تقريبا التي تلقوها على أيدي أولئك الأتراك في مرحلة العودة:

أنزلنا الترك من البابور * وحبسونا عندهم في سور**
وطلبوا المغرم ثم قهرا * والكف إلا من قليل صفرا**

ومن المفهوم أن ينظر إلى هذه الإجراءات باعتبارها إساءة، فمع أن المعاملة التي أخضع لها الحجيج قد تبدو ترتيبات عادية، فإن الحاج المعتاد على طبيعة أهل الصحراء في معاملة «الضيف»، والقادم من المغرب الذي تلقى فيه أوجه الدعم المختلفة، يعتبر -انطلاقا من سلمه القيمي- إخضاع مجموعة من حجاج بيت الله لتلك الإجراءات تعديا على الشرع والقيم، لا يفلح معه إلا انتظار الفرج:

ولم نجد إلى المتاح مخرجا * فجلسوا ينتظرون الفرجا**

وهو فرج كثيرا ما تعود الصحراوي استجلابه بالشعر؛ فهل ينجح الشعر دائما في حل العقد؟

ثانيا: سفارة الشعر:

عرف الشناقطة بحب الشعر وتعاطيه إنشاء وإنشادا. ولعل لعلاقة الصحراوي بالشعر -كما الإبل- صلة بطبيعة المحيط الطبيعي ونظام العيش الخاص، فلطالما أنشأ البدوي حتى في صحراء العرب علاقة خاصة مع الشعر تجسدها المقولة الشهيرة: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين»

ومن هنا فمن الطبيعي أن يشتد تعلق ساكنة المجال الصراوي بالشعر وتمرسهم به، فقد كان النظم وعاء معارفهم في ظل الخصاص الشديد في الورق، كما اعتمدوا في إغناء مخزونهم اللغوي على الدواوين الشعرية، كما قرأوا فيه قيمهم من كرم وشهامة وشجاعة....

وقد نظروا إلى الشاعر نظرة إجلال ورهبة في الآن نفسه، باعتباره فارس كلمة لها سطوة يستطيع بها أن يعلي من شأن من شاء، ويحط من مقام من أراد.

وهكذا تلعب القصيدة دور المرافعة «المقنِعة» عاطفيا، ويلعب الشاعر دور الدبلوماسي الذي يذلل الصعاب حيثما حل أو ارتحل. ومع أن صاحب الرحلة

وهو فقيه شاعر لا يصرح بإشهار سلاح الشعر، ولم يورد نصا شعريا في هجاء أي كان، فإن القارئ للرحلة يلاحظ بين السطور مستوى اعتزازه بالمديحيات التي كان يتوجه بها إلى أهل السلطان والجاه من جهة، وبالقيمة «التبادلية» لتلك الأشعار مكافأة واحتفاء. فقد كان الممدوح دائما يعامل الحاج وصحبته، بما يليق بمستوى القريض الذي قيل فيه.

ولقد سرى هذا النسق من التبادل الرمزي في نسغ النص بحيث أصبح معه معلما بارزا من معالم الخطاب في الرحلة، وربما في خطاب الحجية الصحراوية عامة. فقد كانت المدحة والتعاطي الناجم عنها وراء مبدإ الرحلة:

سرت بأمر شيخنا سعد أبيه * زودني من حكم ما أشتهيه**

من بعدما أنشدته مختاره * قصيدة ضمنتها استشاره**

وتضطلع المدحة _كما يفهم من خلفيات الخطاب_ بأدوار أهمها:

1. تكريس القيم الجمالية:

يبرز هذا التكريس في تبيان أثر النص على الممدوح حينا، وصريح الإشادة بالبناء الشعري أحيانا. ولعلنا واجدون في آخر البيتين السابقين مصداق ذلك إذ يصرح بأنها قصيدة «**مختارة**»، وهو ما جعل استجابة الشيخ لمضمون الاستشارة فيها يُشفع بحِكَم وتوصيات كما أشرنا في فقرة سالفة. وهي الإشادة ذاتها التي نجدها في وصف المديحيات التي قيلت في الشيخ ماء العينين:

أنشدت ما من القريض يحلو * لديهم وهو لذاك أهل**

أنشدته في المدح والتوسل * به إلى الإله نيل أملي**

أوعلى هذا الغرار أنشد كل من له سلطة روحية أو علمية أو إدارية، كما هو الشأن مثلا مع القائد في فاس:

ناولته صحيفة الشيخ الولي * أنشدته رائعة من مقولي**

فأول ميزة لهذا القريض أنه «يحلو» سماعه لشدة «روعته»، فيستحث أريحية الممدوح الذي كانت استجابته بإكرام الوفادة وأشكال الدعم والمساندة لمسعى الحجيج، وبذلك يكون هذا القريض _بشكله الجميل المؤثر_ أفضل السفراء

لدى الممدوح؛ إذ تسري في هذا النمط من الخطاب روح تجعله يؤثر على المتلقي فتشعره بالألفة والانجذاب إلى الشاعر المؤانس.

2. المؤانسة:

يتضح طيب المؤانسة خاصة في الفترات التي يصر فيها الممدوح على استبقاء الشاعر وصحبته في ضيافته قبل أن يأذن لهم بالرحيل إثر إنشاده من جيد الشعر، كما هو الشأن مع الشيخ ماء العينين الذي احتفظ بالشاعر ووفده خمسة عشر يوما في انتظار إذنه:

ومكثنا لديه خمسة عشر * يوما، وكلنا لأمره انتظر**

كما قد يأتي حرفيا في نص الرحلة حكاية عن القائد في فاس:

باسطنا بخلقه، آنسنا * وأخبر السلطان عن شؤوننا**

وبعده مع حاجب السلطان ومع السلطان ذاته:

فاستقبل القوم بما يؤنس * وبعدما طاب لديه المجلس...**

وبتمعن ما بين السطور نلحظ أن الارتياح لمجلس الشاعر وهو ينثر فيه من درر الشعر وأنواع الفوائد، كان وراء أشكال الإكرام التي يتلقاها عبر محطاته المختلفة، لذلك فمن البدهي أن لدى الشاعر وعيا _ظاهرا حينا ومبطنا أحيانا_ بأن ما يقدمه من مديح يشكل عطاء رمزيا يستحق المقابل.

3. السلعة الرمزية

ويتضح وعي الشاعر بالقيمة التبادلية لمديحياته في عبارات من قبيل «من بعدما أنشدته وأنشدته»...،

كما يبرز إحساسه بقيمة رأس ماله الرمزي ذاك من خلال اعتماده القصيد ملفا «تفاوضيا» يقدمه أمام ما يطلب من ممدوحيه في كل مرة، بعد أن تعلم _من رسول الشيخ ماء العينين_ قواعد البروتوكول المناسب في المواقف المختلفة وخاصة أمام أصحاب الجاه والسلطان:

صَحِبته ثم جعلت أسأله * مستفهما عن كل ما قد أجهله**

كالأمراء ومن إليهم ينسب * كيف المعاملة، كيف الأدب**

ويبدو أن أهم درس استخلصه صاحب الرحلة من تلك القواعد البروتوكولية هو مبدأ المقايضة الرمزية: فبعد كل قريض يدبج في المديح، هناك خدمات تسدى حسب نوعية المديح ومنزلة الممدوح، لذلك فإن لهذه المنزلة علاقة بمستوى القصيد، ومن هنا تتباين مدحتا الحاجب والأمير مثلا:

أنشدته من الثناء شيئا يسير * ناولته مني قصيدة الأمير**

وبالنظر إلى الترابط الذي يلح عليه نص الرحلة بين المديحيات التي يتوجه بها إلى كل ذي سلطة وبين النجاحات التي يسجلها في مختلف المحطات، يبدو النص الشعري وكأنه يلعب لدى ابن امباريكي دور المبعوث من قبل سلطة موازية هي ذات الشاعر الذي يوظف كل طاقاته لمعانقة بعده الروحي مكانا وزمانا عبر الحج.

ثالثا: في اتجاه المنبع الروحي:

عرف سكان الصحراء _وهم الذين اعتنقوا الإسلام بعيدا عن إكراهات الفتوحات الإسلامية_ بأنهم من أكثر المسلمين التزاما بالتعاليم الإسلامية وتعلقا بالمنابع والرموز الدينية وتمسكا بالشعائر. ومع تعذر الحج _الذي جسدته فتاوى الإسقاط وحتى التحريم في عموم الغرب الإسلاميوفي المنطقة خاصة _ أصبح هؤلاء البداة يحسون فراغا في الوجدان وفجوة في الدين الذي تشكل هذه الشعيرة أحد أركانه المؤسسة، مما زاد من تعلقهم بشعيرة الحجوإكبارهم لمن ينجحون في أدائها.

ولعل هذا الإحساس وذلك التعذر كانا وراء الشوق الذي جسدته القصائد والطقوس المديحية وكرسه الحنين الدائب إلى الديار المقدسة، ليس بوصفها مسرحا لشعيرة الحج فقط، وإنما باعتبارها تمثل مخزونا للذاكرة تعايش معه الإنسان من خلال نصوص السيرة وأغاني المداحين وحكايات الجدات... فعبر كل تلك الممارسات الثقافية أصبح المكان المقدس بعدا من أبعاد الإنسان يتماهى معه ويندغم فيه. ففي ذلك المكان يعيش الصحراوي لحظات التأسيس الأولى: مولد النبي وبعثته ومراحل دعوته وغزواته وتدبير بيته... يفرح مع كل لحظة انتصار، ويحزن لكل مشقة أو خصاصة يتلقاها النبي وصحبه وأهل بيته باعتبار كل ذلك واقعا عليه؛ إذ هو _في إحساسه الداخلي_ جزء من المشهد، بل إنه في كينونته يختصر المشهد نفسه...

وبذلك لم تعد رحلة الحج أداء لشعيرة دينية، تجب أو تسقط حسب تقدير المشقة، وإنما حلما بمعانقة الذكريات المتلبسة بالوجدان، واتصالا برسوم هي جزء من الذات يتسامى في لحظة التواصل الروحي على بقية الأجزاء. ولعل هذا كان الدافع إلى جل الحجيات الصحراوية التي شكلت في معظمها مغامرات دافعها الشغف، أكثر مما مثلت امتثالا لأوامر شرعية (هي أصلا محل نظر فقهي).

وقد عكس نص رحلة ابن اmbاريكي _في مستويات الخطاب السطحية والعميقة_ ذلك البعد الوجداني في الاتصال بالمقدس المكاني، من خلال عناصر نتوقف منها عند المكونين التاليين:

1. العودة إلى الجذور:

يلحظ الناظر إلى نص الرحلة مستوى المغالبة بين الدافع العاطفي، وبين خطورة المغامرة فيها منذ البداية:

لا زاد لي وذا أوان البرد * لكنما تزودي بالوجد**

وهو الوجد الذي يجعل كروب الرحلة الحجية التي يتحدث عنها المؤلف بادرامية ظاهرة، تقع بردا وسلاما على من يوشك أن يعانق منبعه ومشتهاه الذي طالما حلم به وتخيله:

لكنما قلوبنا في نزهة * مسرورة لقربنا من مكة**

فمكة مكان المبتدأ والرجوع: عندها يحقق الحاج ذاته ويعانق الحلم:

لما دخلنا مكة المباركة * تنسمت لنا رياح البركة**

وزال عنا كل داء وألم * وهنأت أرواحنا أرض الحرم**

وانشرح الصدر لنيل المطلب * من مكة الغراء مولد النبي**

إن الاندغام في المشهد لا تبرزه فقط مظاهر التعبير الطافح عن السعادة التي تُنسي كل وجع وألم، وإنما كذلك من خلال توسيع المساحة النصية الخاصة بذلك التعبير على غير عادة نص الرحلة في التسجيل السريع. وذلك في تصورنا نوع من التمسك بالإقامة في لحظة الالتقاء بالمكان التي تجسد انتصار الحاج

عـلى البعـد والخـوف في سـبيل معانقـة تلـك اللحظـة، حيـث تتحقـق الـذات مـن خـلال الارتـواء الروحـي.

ثـم إن إحسـاس الحـاج الشـنقيطي يحكـي في فقـرات أخـرى نوعـا مـن الحنـين إلى الرحـم مجسـدا في تقبيـل الحجـر الأسـود مـن موضـع تقبيـل الرسـول الكريـم، أو غـير ذلـك مـن أوجـه الاتصـال _عـلى نحـو مـا_ بالجسـد الرمـزي:

ثـم دنونـا فاسـتلمنا الحجـرا * وكلنـا في قلبـه مسـتبشرا**

لأنـه وضـع فمـه عـلى * موضـع فـم خير مـن قد أرسـلا**

وتتجسـد الحالـة نفسـها في الحـرص عـلى زيـارة أماكـن الذاكـرة مـن مقابـر ومعالـم خاصـة بالبيـت النبـوي أو بالصحابـة، خاصـة تلـك الأماكـن التـي تشـكل تفريعـا خارجـا عـن المعهـود في مسـار الحـج، وذلـك قبـل وأثنـاء وبعـد أداء أركان الحـج.

2. استكمال الأركان:

يشـكل أداء مناسـك الحـج _بغـض النظـر عـن الدوافـع الوجدانيـة والاجتماعيـة والعلميـة..._ الأسـاس الشرعـي لرحلـة الحـج، إذ هـي ركـن الإسـلام الخامـس. ومـن الطبيعـي أن تسـتحوذ عـلى مسـاحة نصيـة تناسـب تعـدد المشـاعر مكانيـا وزمانيـا. وقـد فصلـت في النـص مراحـل الطقـس الحجـي بـدءا بطـواف القـدوم ومـا اعـترى الحجيـج مـن رهبـة عنـد مواجهـة الكعبـة للمـرة الأولى:

ثـم دخلنـا فـإذا بالكعبـة * دون السـماء أمرهـا ذو عـبرة**

مـا حـل بـي مـن هيبـة ورعـب * يحـار في التعبـير عنـه قلبـي**

عـلى أن تلـك الرهبـة والرعـب لـم ينفصـلا عـن إحسـاس الألفـة ولـذة الوصـال، كمـا يـبرزه الاستشـهاد السـابق:

ثـم دنونـا فاسـتلمنا الحجـرا * وكلنـا في قلبـه مسـتبشرا**

ويبـدو أن ازدواجيـة الرغَـب والرهَـب لـم تقتصـر عـلى لحظـة مواجهـة الكعبـة وبـدء الطـواف، فقـد توزعـت عـلى مجمـل الطقـس الحجـي، حيـث طغـت المشـقة والرهـب إلى حـد كبـير عـلى المرحلـة المكيـة، في حـين سـيطر الحـب والإحسـاس بالاحتضـان عـلى مرحلـة مدنيـة المنـورة، كمـا يعكـس ذلـك الخطـاب المنسـكي.

رابعا: الخطاب المنسكي:

من الطبيعي أن يحتل المشهد المنسكي _كما أشرنا سابقا_ مساحة تلائم امتداده وتنوع مظاهره من جهة، وتحقق مقصديات صاحب الرحلة من ذلك الخطاب من جهة ثانية. وسنقتصر هنا على ثلاثة أبعاد تتبدى لنا أهم رهانات الخطاب المنسكي:

1. البعد التعبدي:

يتواشج في اللحظة المنسكية _على ما يبدو من بناء النص_ مبتغيان: وجداني رهانه التمتع بالأداء المنسكي والاتصال بالمكان والشعيرة، وتشريعي يحقق تأدية هذا الركن الذي لا تبرأ ذمة الحاج إلا بأدائه. فإذا كان الحاج _بعيد الشقة خاصة_ يعيش اللحظة بشغف من كان النسك مجرد حلم يراوده، فإن اكتمال الحلم يقتضي اكتمال الركن باقتفاء حج الرسول صلى الله عليه وسلم بتفاصيله.

ولذلك يسرد ابن امباريكي في نصه تفاصل المشهد الحجي _بما في ذلك لحظة المدينة المنورة_ موقفا موقفا، بحيث يتخلل التعبير عن مشاعر الغبطة والإحساس باللذة والرجاء والرهبة والتمتع بأماكن الذاكرة... كامل المشهد بدءا بالطواف والسعي الأول بين الصفا والمروة:

ثم شرعنا بعد في الطواف * جئنا بركعتين في خلف المقام**

[...] * [...]**

لما انتهى الطواف بالبيت الحرام * جئنا بركعتين في خلف المقام**

ثوكما سجلت التفاصيل التعبدية في بداية اللحظة الحجية: مناسك وزيارات لأماكن الذاكرة (كقبر حواء ومزارات بعض أمهات المؤمنين والصحابة...)، فقد اخترقت تلك التفاصيل كامل مرحلة المدينة المنورة معالم وأعلاما، بما في ذلك الأعلام المكانية الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة:

سرنا إلى طيبة وهي جهة * قطب السماء ودونها عشرة**

أولها منزل وادي فاطمه * فبير عسفان، فبير كاظمه...**

ومن الوارد جدا أن تتسع مساحة التفاصيل في مزار الروضة الشريفة:

ثم إذا بالقبة الخضراء * أحسن ما تراه عين الرائي**

ثم نزلنا بعد ذا باب النبي * بحمد ربنا صلاة المغرب**

ثم دخلنا بعد ذا على الكرام * ثم قرأنا المصطفى أنمى السلام**

وصاحبيه حيث يسمع الكلام * قربا، عليه وعليهما السلام**

وتتواصل زيارة معالم المدينة: من قبيل المقابر (البقيع وأحد) والمواقع الأخرى: معركة أحد ومسجد قبا...، وفي كل من هذه المعالم يغرقنا النص بالتفاصيل المتعلقة بالمكان كالأعلام والأحداث والمواقف... إن الإغراق في التفاصيل يعكس _في تصورنا_ حرصا على التشبث _نصيا_ بعد الحرص عمليا على أداء شعيرة الحج بتفاصيلها بشكل يتجاوز الهدف التعبدي إلى تحقيق مبتغى تربوي، ربما أملته على المؤلف خلفية المربي.

2. البعد التربوي:

مهما قدم ابن امباركي _شأن المؤلفين القدماء في كثير من الحالات_ نظمه على أساس أنه استجابة لطلبات متكررة بأن يعقد رحلته بالنظم، فإن المبتغى التربوي يظل قائمايستجيب لحاجة ملحة لدى المهتم بخوض هذه المغامرة، وهم في الغالب من طلبة المحاظر الذين لم تثقل كواهلهم المسؤوليات الاجتماعية بعد.

فهؤلاء الطلبة _وعموم من ينوي الحج من ديار المؤلف_ يحتاجون إلى هاد يبصرهم بشأن القيام بالحج من تلك البلاد من حيث الإعدادات والسبل والمسافات الزمانية والمكانية، فضلا عن الأحكام الشرعية وجوبا وندبا واستحبابا...

والقارئ لنص الرحلة يلحظ تتبع تفاصيل الأحكام وشرح الموقف الشرعي من الحدث المسجل على كامل المساحة النصية، بشكل يبرز معه قصد التعليم قبل وبعد الوصول إلى الميقات المكاني:

[...]

وقـــال هـــذا رَابِـغٌ حذاءكــم *** تهيـؤوا وأحرمــوا بحجكــم

تجـردوا مــن المخيــط اغتســلوا *** وأكثــروا تلبيــة وهللــوا

إن تفصيـل المشـهد التعبـدي أفعـالا وأقـوالا في لحظـة الإحـرام وهـي اللحظـة المؤذنـة بالدخـول الفعـلي في الطقـس الحجـي، يبـدو لنـا غـير منفصـل عـن المشـغل التربـوي شرحـا وتفصيـلا بـدءا بتحديـد الميقـات ومـرورا بتفصيـل مـا يتعـين لبسـه...

ولا يتخلـف عـن ذلـك المشـغل في اعتقادنـا التوقـف عـلى امتـداد الرحلـة عنـد تفاصيـل المحطـات عـلى كامـل الطريـق (بشـخوصها والفاعلـين فيهـا)، وعنـد الوسـائل والآليـات التـي يتعـين عـلى الحـاج اسـتخدامها (ماديـة أو رمزيـة) بـدءا بالتسـلح بـالإرادة الصلبـة، والعـزم الـذي تلينـه مشـاق المغامـرة الحجيـة.

خامسا: خطاب المشقة:

لا شك أن مشقة الحج بالنسبة لسكان الصحراء الكبرى كان وراء المدونة الإفتائية الغزيرة التي تناولت أحكام الحج من تلك الصحراء أصالة أو إسقاطا . ونقصد بخطاب المشقة هنا تلك الرسالة، المبطنة حينا والصريحة أحيانا، التي تشي بمستوى الصعاب الكأداء التي يتعين على من يتصدى لتجربة الحج من هذه الصحراء مواجهتها، والتي تخترق كامل نص الرحلة. وبالنظر إلى انتشار هذه الدلالة في الرحلة، فسنقتصر هنا على نماذج نعتبرها ممثلة لتجليات هذا الخطاب، تبعا للمراحل التالية:

1. صعوبات القرار:

قد لا يكون من البديهي الحديث عن مشقة التفكير في شعيرة دينية، غير أن مشروعية هذا الحديث تستند إلى قناعتنا بمستوى الارتباط القائم بين الشعائري وفضاء العيش ونظام الحياة، وبالتالي إلى بعد الشقة وشظف العيش وتخلف وسائل التنقل... وتتضح صعوبة الإقدام على اتخاذ قرار بالانخراط في مغامرة الحج من الصحراء من خلال تجربة صاحب النص، فبعد اختمار الفكرة التي لا شك أنها راودته زمنا، احتاج إلى مشورة مصدر الثقة لديه شيخه الشيخ سعد أبيه:

سرت بأمـر شـيخنا سـعد أبيــه *** زودنـي مـن حكـم مـا أشـتهيه

مــن بعدمــا أنشــدته مختــارة *** قصيــدة ضمنتهــا استشــاره

ولا بد أن نضع في الحسبان طبيعة اعتقاد المريد بأن أمر الشيخ إنما هو قبس إلهي مؤذن بالتوفيق وسلامة الرحلة.

ورغم ذلك تبقى المشقة في بعد الشقة ووحشة الصراء:

أغشى الفلا من بلد إلى بلد * أجوب لا ألوي به على أحد**

فمع تجاوز مرحلة اتخاذ القرار واستصحاب بركة وحِكَم الشيخ، والانخراط الفعلي في هذه التجربة المغامرة، فإن النص يستحضر صعوبات الرحلة ذاتها.

2. صعوبات الرحلة:

لا تقتصر صعوبات الرحلة على التنقل عبر الفلوات وبين البلدان، وإنما يستحضر النص عراقيل ترافق مراحل تلك الرحلة. وليس تعدد المحطات إلا وجها بسيطا من المشاق التي تواجه الحاج في تلك الرحلة. ولعل مفصلة نص الرحلة انطلاقا من محطات معينة، إنما كانت خلفيته تبيان مستوى من مستويات المعاناة. فقد بني النص على إبراز تلك المحطات وكأنها فصول كتاب: «ذكر مبتدإ سفرنا» ـ«ذكر مسيرنا من الساقية إلى لعيون»ـ «ذكر مسيرنا إلى مراكش»ـ «ذكر مسيرنا منه إلى فاس»ـ «ذكر مجيئنا لفاس»... وتنفرد المحطة البحرية بعنونة خاصة: «ذكر ركوبنا في البحر».

وتتلازم المشقات مع كل مرحلة:

قد غبر الوجوه طول سيرهم * ....**

.... * من سفر، وهمم قد قويت**

على أن محطات البراري التي تتقاذف الحاج، ليست أكبر مشقة من المحطات المائية، بل ربما تكون دونها نظرا لهول الماء بالنسبة للحاج الصحراوي:

تغيرت ألواننا ونفرت * نفوسنا لما من الهول رأت**

ثم تواصينا إذن وودعا * بعضهم بعضا لهول وقعا**

وقد تصل المشقة درجة اليقين بالهلاك والاستعداد لفراق عالم الأحياء وهي حالة تعايش معها الحجاج طيلة الرحلة المائية:

بتنا على شاطئها حيارى *** كأننا من تعب سكارى

من طول ما تلاطمت بنا البحور *** كأنما الأرض بنا أيضا تدور

هكذا تستمر المعاناة حتى بعد الوصول إلى اليابسة في جدة؛ فهل يودع الحاج تلك الصعوبات حين تصل الرحلة بغيتها، ويشرع في طقوس الحج؟

3. صعوبات الطقس الحجي:

بالرغم من المكابدة والمشقة الجسمية التي يعانيها الحاج خلال المناسك بدءا بالحرمان من بعض المتع مرورا بصعوبة المناخ وطول المسافات المقطوعة ودقة توقيت المناسك...، فإن النفس الطاغي على الرحلة في هذه المرحلة هو الإحساس بالسعادة والطمأنينة الروحية، وهو أمر يسهل فهمه، إذ ارتبطت تلك المشاق بتحقيق حلم أداء ركن الإسلام الخامس وزيارة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم والاتصال بأماكن الذاكرة...

لذلك، فإن أول تسجيل متمحض لهول الرحلة في المرحلة الحجية كان متعلقا بما يقع على الطريق بين مكة والمدينة من إغارات قطاع الطرق بغض النظر عن وفرة العدد واتخاذ العدة بما فيها الطبل:

وطَبلهم له لديهم زجل *** ومع ذا اللصوص منهم تقتل

يُسمع فيهم كل حين الصياح *** وقت الزوال والمبيت والرواح

فاللصوص ينهبون ويقتلون...، مشكلين أقصى درجات المشقة، التي تتواصل في مرحلة العودة إلى الأوطان.

4. صعوبات الرجوع:

في رحلة إياب الحجاج إلى ديارهم، يعاود نص الرحلة خطاب تكثيف مشاق الرحلة من جديد بدءا بتحول الحال مع مغادرة المدينة:

من طيبة الغراء إلى الينبوع *** دار الهوان والضنا والجوع

فمع الجوع الروحي الذي تخلفه مغادرة مدينة الرسول، يواجه الحاج مخمصة في ميناء الينبوع، لتتوالى أشكال المعاناة المتجددة مع تجربة ركوب البحر:

ثم أردنا السير نحو الغرب * في لجج البحر وهول الكرب**

أحوالنا عند ركوب البحر * كأنها أهوال يوم الحشر**

وهكذا، فإن خطاب المشقة يخترق النص عبر مراحله المختلفة منطلقا وموئلا. ولعل تشابه البنية الدلالية بين مشاق الانطلاق، حين يتم التعبير عن معنى الضياع والتيه:

أغشى الفلا من بلد إلى بلد * أجوب لا ألوي به على أحد**

والكرب الذي يعتري الحاج وهو عائد تتقاذفه الأمواج بشكل يعيش فيه «أهوال يوم الحشر»؛ لعل هذا التشابه أحد طرق الخطاب السرية في التعبير عن مستوى المعاناة التي يقتضي اقتحامُ تجربة الحج من الصحراء الاستعدادَ لها من البداية إلى ختام تلك الرحلة.

سادسا: ختام البدء... بدء الختام:

تعددت مسارات الحجية الصحراوية، فمن الحجاج من لم تكتمل رحلته، فأقام بأحد البلدان التي تشكل محاطات للرحلة، ومنهم من ختمت حجيته بالإقامة الدائمة بالبلاد المقدسة... وقد مثلت رحلة ابن امباركي بنية دائرية مكتملة تبدأ من الموطن الأصلي لتعود إليه، وهو ما عكسته مستويات الخطاب في الرحلة الذي استحضر عن وعي حيثيات الرجوع والحنين إلى الوطن.

1. خطاب الرجوع:

شكل خطاب الرجوع امتدادا للرحلة بتفاصيلها المتعلقة بالتحديدات الزمانية والمكانية، ومشاق الطريق...، فالمتأمل لنص ابن امباريكي يلاحظ أن الرجوع جزء من الرحلة ذاتها، بحيث لا يُلحظ انقطاع بين المراحل:

ثم أردنا ظهر ثالث عشر * في يوم الاثنين المبارك الأغر**

وذا بشهر ربنا المحرم * بعد وداعنا ضريح الهاشمي [...]**

فالرجوع جزء طبيعي من مسار الرحلة، لذلك لم يحتج -نصيا- إلى أكثر من استعمال حرف العطف (ثم) الذي استخدم -مع بقية حروف العطف- لوصل ما تبقى من المراحل والمحطات. وهكذا تبدو الرحلة مصممة على أساس مسارين أحدهما في اتجاه البلاد المقدسة التي تختزن البعد الروحي، والثاني في اتجاه المنشأ الأصلي الممثل لجذور المؤلف مجسدة في المكان.

2. نداء المكان:

شكل الاتجاه إلى الوطن جزءا أصيلا من رحلة الحج به تكتمل بسلامة الأوبة وتحقق النجاة الجسمية والروحية وإحراز لقب الحاج الذي يتوج بعد الرجوع:

والحمد لله الذي أولانا * بفضله النجاة والإيمانا**

ويستند نداء المكان في الرحلة -على ما يبدو- إلى إحساس عميق بالتماهي مع الوطن باعتباره المكون الثاني لذات الحاج، إذ لا تكتمل الصورة المثلى لرحلة الحج، ما لم يعد الحاج إلى أرضه وجذوره، مهما كلفته رحلة الرجوع من مشاق ومخاطر:

ثم أردنا السير نحو الغرب * في لجج البحر وهول الكرب**

وبتتبع محطات رحلة الإياب -التي هي نفسها تقريبا في رحلة الذهاب- يتضح حجم تلك المخاطر والمتاعب التي لا يعبأ بها الحاج أمام فرح تحقق الحلم واستكمال المراد بالرجوع إلى الوطن:

سرت إلى إيكيدي اثنتي عشر * ثم انتهى ببئر معزوز الأغر [...]**

لا زالت أرضه وأرض المغنى * في نعمة ضافية وأمن**

هنا تنتهي الرحلة الحجية بالرجوع إلى الجذور بالسلامة حين يؤوب الحاج إلى مستقره، فلا يبقى إلا أن ينعم في أرضه ومستودع أحاسيسه «بنعمة ضافية وأمن»

وختاما يمكن أن نقول -انطلاقا من مرافقتنا لمنعرجات مسار ابن امباريكي- إن الناظم لأجزاء الرحلة الحجية، في اتجاهيها هو -في تصورنا- ذلك النزوع

الأصيل إلى الـذات في بعديهـا الروحـي والمـادي، المشـدودين إلى عـرى المـكان (مـكان الوحـي ومـكان العيـش) الـذي هـو بعـد أصيـل مـن أبعـاد الإنسـان. فالدافـع القـوي إلى تجشـم عنـاء الرحلـة واقتحـام مخاطرهـا في الجيئـة والذهـاب _فضـلا عـن الأغـراض البراغماتيـة المحتملـة_ إنمـا هـو ذلـك النـزوع إلى مكونـي الـذات الأصيلـين: المكـون المـادي والمكـون الروحـي. وبذلـك تكـون الحجيـة سـفرا مسـتديما وقلقـا دائبـا دؤوب الشـوق الطبيعـي إلى المنبـع بـكل تجلياتـه.

وهكـذا، فـإن فعـل الحـج ليـس حركـة انتقـال عـبر الأمكنـة بقـدر مـا هـو شـغف وانـسراب في زوايـا الـذات الموزعـة عـلى خريطـة الأمكنـة ونقـاط الزمـن، عـبر الذاكرة، حيـث تعانـق المتعـالي هنـاك، وتشـد إلى جذورهـا هنـا في الأرض وبـين النـاس، فيلعـب الحـاج في الآن ذاتـه دور المستكشـف العاشـق والمربـي المصلـح والقـدوة الـذي يوجـه النـاس ويؤثـر عـلى خياراتهـم في الحيـاة... وبذلـك يكشـف الخطـاب الحجـي تداخـل الوجدانـي والدينـي والاجتماعـي... في نـص وفعـل الحجيـة الصحراويـة، حـين تغـدو الرحلـة انتقـالا إلى الـذات الممتـدة في الزمـان والمـكان امتـداد الوجـود ذاتـه، والمركبـة تركيـب البنـاء النفـسي والهندسـة الاجتماعيـة.

الحج في أدب الرحلات
ومكانته في خريطة البحث العلمي

د. علاء الدين محمد الهدوي فوتنزي

تقديم:

{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: 27].

إن أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعرُه فيها جوارحَه، وترنو إليها روحُه سابقة جسدَه، ويهيم بها فؤاده قبل الشروع فيها، ولا تجتمع هذه الصفاتُ إلا لقاصدي البيت العتيق للحج والعمرة.

رحلات الحج إرث أدبي وثقافي، وقد باتت الرحلات تحتل مكانة متميزة في خريطة البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية؛ فقد حفلت كتب الرحالة بالعرض والمناقشة التاريخية التي تؤرِّخ عن المدينتين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ولعلمائهما إلى جانب ما فيها من معلومات وتحليلات ذات أهمية بالغة لتاريخ الأماكن المقدسة وجغرافيتها ولسكانها ومناحي نشاطاتهم بالإضافة إلى الحج ومناسكه.

أولاً: أدب الرحلات: إرث أدبي وسجلٌّ ثقافي:

أدب الرحلات من الفنون الأدبية التي شاعت لدى العرب منذ القديم، وهو فن له خصائصه المعينة بل إنه كما يقول شوقي ضيف: «خير ردٍّ على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقيا وعرائس البحر وحجاج الهند وأَكَلَة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر الفولجا وعَبَدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصور الحقيقة حيناً ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حيناً آخر».

لم يحظَ أدب الرحلات بوصفه جنساً أدبياً مستقلاً باهتمامات الأدباء العرب من شعراء وروائيين وقاصِّين ومسرحيين إلا فيما ندر، وهذه الندرة أيضاً ظلَّت

محكومة بالمصادفات؛ وأغلبها مصادفات سياحية أو رحلات وإقامات معينة تستدرج الكتابة على أنها مشاهدات وذكريات مكان، في حين كان العربي القديم يقطع مسافات شاسعة بوسائط نقل بسيطة ومعروفة، لمعايشة مكانٍ وتدوين حالاتٍ اجتماعيةٍ وفكريةٍ ودينيةٍ وتاريخيةٍ عنه. هناك أسماء عربيةٌ حققت إنجازات فريدة لا يمكن إغفالها قطعاً كابن بطوطة والإدريسي وابن فضلان وابن جبير والمقدسي والمسعودي والبيروني وأبي دلف والغرناطي وسواهم.

فابن جبير قام بثلاث رحلات شاهد فيها العالم. والإدريسي رسم خرائط للأنهار والبحيرات. وابن بطوطة طاف مصر والشام والحجاز وفارس وتركستان وما وراء النهر والهند والصين وجاوة وبلاد التتار وأواسط إفريقيا. وابن فضلان وصل إلى روسيا وهو أول من كتب عنها. وأحمد بن ماجد لقب بأمير البحار. وابن حوقل أمضى ثلاثين عاماً في التجوال في آسيا وإفريقيا... والمسرد طويل في إنجازات الرحالة العرب الذين كانت لهم أسبقية الكشف والاكتشاف ورؤية العالم من زوايا مختلفة وشواهد نادرة في شتى ألوان الحياة.

ثانياً: رحلات الحج في عيون الرحالة والمؤرخين:

ولا جدل في أن موضوع رحلة الحج في كتابات وعيون الرحالة والمؤرخين شاسع وواسع ومتعدد الجوانب، وكانت تجربة الحج - وما زالت - ترياقاً ناجعاً لمن أتعبهم البحث عن ماء المعنى في صحراء العدم؛ إذ يحكي لنا التاريخ عن أعداد غفيرة من المفكرين والفلاسفة والأدباء الذين وجدوا في هذه الشعيرة معنى لامس شغاف قلوبهم، وحرَّك جمارها التي كادت أن تنطفئ، من محمد إقبال إلى مالكوم إكس، ومن محمد أسد إلى مراد هوفمان، ومن علِي شريعتي إلى جلال آل أحمد، لم يتوقف هذا الأمر عند المسلمين فحسب؛ بل حظيت تلك البقاع باهتمام فائق من المستشرقين، حتى حرص بعضهم على زيارتها متنكرين في أسماء وأزياء عربية، متظاهرين بالإسلام ليقفوا بأنفسهم على الأسرار الكامنة في هذه البقعة المقفرة التي تلفُّها الصحراء من كل مكان.

وظهرت هناك كتب كثيرة عن أدب الرحلة في الحج، ومنها: كتاب (أشهر رحلات الحج) للعلَّامة حمد الجاسر، و (المختار من الرَّحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية) لمحمد بن حسن الشريف، وأصدر أحمد محمد محمود كتاباً بعنوان (رحلات الحج) تحدث فيه عن عدد من رحلات الحج خلال القرون الثلاثة الأخيرة، كما أصدر المؤرخ عبد الله بن حمد الحقيل كتاباً

بعنــوان (رحــلات الحــج في عيــون الرحالــة وكتابــات الأدبــاء والمؤرخــين)، وأصــدر المــؤرخ المغربــي الشــهير عبــد الهــادي التــازي كتــاب (رحلــة الرحــلات: مكــة في مائــة رحلــة مغربيــة ورحلــة)، وأصــدر الشــاعر الإماراتــي محمــد أحمــد الســويدي كتــاب (لبيــك اللهــم لبيــك: 365 صــور ومشــاهد مــن الحــج)، وللكاتــب النمســاوي المســلم محمــد أســد رحلــة بعنــوان (الطريــق إلى مكــة) وقــد ترجمــت إلى أكثــر مــن لغــة؛ وهــو كتــاب يجــذب قارئــه ويمتعــه.

أحمــد حســن الزيــات مــن أبــرز الأدبــاء الذيــن كتبــوا عــن رحلتهــم إلى الحــج، ونــشرت مجلــة الرســالة مقــالاً لــه بعنــوان (في أرض الحجــاز)، كمــا وثَّــق عبــاس محمــود العقــاد رحلتــه إلى الحــج عــام 1946م في عــدة مقــالات، إلا أن كتــاب الدكتــور محمــد حســين هيــكل (في منــزل الوحــي) مــن أشــهر مــا كتــب عــن الحــج، وجــاءت الرحلــة بعــد تحــول فكــري كبــير لهيــكل؛ إذ كان مــن أشــد المناصريــن لليبراليــة الغربيــة والداعــين إليهــا، ويعــدُّ كتــاب (الارتســامات اللطــاف في خاطــر الحــاج إلى أقــدس مطــاف) الــذي ألَّفــه الأمــير شــكيب أرســلان عــام 1931م إرثــاً إبداعيــاً في هــذا المجــال، وكتــب الأديــب إبراهيــم المازنــي عــن رحلتــه عــام 1930م كتــاب (رحلــة الحجــاز)، وهــو خواطــر أدبيــة حــول الحــج والرحالــة مليئــة بالطرائــف، وكذلــك كتــاب (الرحلــة الحجازيــة) لمحمــد لبيــب البتنونــي، وهــو كتــاب يصــف رحلــة الخديــوي عبــاس حلمــي الثانــي إلى الحجــاز عــام 1910م.

وكتــب أديــب الفقهــاء وفقيــه الأدبــاء الشــيخ عــلي الطنطــاوي عــن رحلتــه مــع الوفــد الســوري إلى الحــج في كتابــه (إلى أرض النبــوة)، عــام 1934م، في رحلــة اســتغرقت ثمانيــة وخمســين يومــاً عــلى متــن الحافــلات التــي كانــت في بدايــة اســتخدامها في ذلــك الوقــت، وكذلــك وثَّــق الأديــب أنيــس منصــور رحلتــه للحــج في كتــاب (أيــام في الأراضي المقدســة) الــذي دعــا فيــه إلى إحســاس جديــد بالإســلام، والدكتــور مصطفــى محمــود كتــب (الطريــق إلى الكعبــة) وفيــه تأمــلات فلســفية وإيمانيــة حــول رحلــة الحــج.

ومــن بــين تلــك الرحــلات، رحلــة إيفيلــين كوبلــد إلى الحــج عــام 1933م، وهــي أول مســلمة بريطانيــة تــؤدي الفريضــة، وكانــت ســيدة نبيلــة تتمتــع باحــترام كبــير في المجتمــع البريطانــي، وكذلــك الرســام الفرنــسي نــاصر الديــن دينيــه الــذي حــج عــام 1928م، وأصــدر كتابــه (الحــج إلى بيــت اللــه الحــرام)، ويعــد نــاصر أول مــن رســم لوحــات عــن رحلــة الحــج.

ولقد برز علماء المغرب على غيرهم في تدوين الرحلات، ومن يطالع كتب الأندلسيين كـ (نفخ الطيب) للمقَّري و (فهرست الإشبيلي) وغيرهما يجد أن كثيراً من العلماء الذين رحلوا إلى مكة والمدينة كانوا رُسُلَ علم وحَمَلَة ثقافة ودعاةَ معرفة، حتى أُثر عن بعضهم كُتُب دوَّنت ما كان يطرح فيها من مسائل العلم وقضايا الأدب والنقد واللغة، وعلى الرغم من أن الدور العلمي لرحلات الحج يمكن أن يكون موضوعاً لكثير من البحوث نظراً لغزارته وتنوع مضامينه.

ثالثاً: تجارب استغرابية لدى المستشرقين:

تقاطر الرحالة المستشرقون إلى المنطقة العربية بداية من القرن الخامس عشر الميلادي، وكان لديهم اهتمام وشغف بزيارة مكة المكرمة وبالأخص المشاعر المقدسة، ومعايشة رحلة الحج. وقد اهتمت الدول الاستعمارية الكبرى منذ فترات مبكرة بإرسال بعض المغامرين من الرجال إلى تلك الديار للاطلاع على أحوال الحج باعتباره رمزاً من رموز وحدة المسلمين وتجمُّعهم وطبيعة البلاد والعباد فيها، وقد تمكَّن بعضهم من دخول الأراضي المقدسة بعد أن نجح في التنكر بهيئة تاجر أفغاني أو فارسي أو جندي مملوكي، فدوَّنوا تفاصيل مثيرة عن المدن المقدسة، وكتبوا وصفاً للحجاج الذين تقاطروا من جميع أنحاء العالم، أشكالِهم ولباسِهم وطباعِهم وعاداتهم، وتجمُّع هذه الأعداد الغفيرة من البشر في مكان واحد.

نعم، للمستشرقين والجواسيس رحلات حج مدونة، فمنها رحلة سرية للضَّابط الروسي عبد العزيز دولتشين على أعتاب القرن العشرين الميلادي، ورحلة جوزيف بتس وهو أول إنجليزي في التَّاريخ الحديث يزور مكة، ورحلة الفرنسي ليون روش في منتصف القرن التَّاسع عشر الميلادي؛ وقد اتَّخذ اسماً عربياً يتخفى تحته، فسمى نفسه عمر بن عبد الله، وكان غرضه سياسياً خالصاً؛ إذ حاول الوصول إلى شريف مكة واستصدار فتوى شرعية تحرِّم الجهاد ضد الفرنسيين في الجزائر وتجعله من باب إلقاء النفس إلى التهلكة! ومن عِظَم همَّة القوم ما قام به المستشرق الهولندي سنوك الذي تجشَّم العناء وسافر إلى مكة، وأقام فيها بضعة أشهر، ثم كتب رسالته للدكتوراه عن الحج، وعلى أساس رحلته هذه وضعت هولندا إستراتيجيتها لاحتلال بلاد المسلمين في جنوب شرق آسيا.

وسُجِّلت أول رحلة لمستشرق إلى الحج فكان الإيطالي لود فيغودي فارتيما عام 1503م، الذي انتحل اسم يونس المصري ودخل مكة بوصفه جندياً في حرس المماليك، وانبهر من كثرة الحجيج مؤكداً أنه لم يرَ مثل هذا العدد من قبل مجتمعاً في بقعة واحدة من الأرض. وقد أثَّرت رحلة الحج تأثيراً بالغاً في الكاتب الأمريكي المسلم جفري لانغ وسجل أحداثها في كتابه (الصراع من أجل الإيمان: انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام) إذ انبهر بالتَّنوع البشري في الحج. وكانت رحلة الحج سبباً في تغيير أفكار الزَّعيم الأمريكي المسلم مالكوم إكس عن الإسلام؛ إذ استبان له ضلالة معتقداته السَّابقة وعاد إلى بلاده داعية إلى الدِّين الحقِّ الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطَّاهرة.

وفي عام 1807م وصل الحجازَ الإسباني دومنيكو باديا، منتحلاً اسم علي بك العبَّاسي، وهو أول أوروبي احتك بالناس عن قرب من موقع لم يثِر فيه حساسيتهم لا سيما بعد ادعائه النسب العباسي. والألماني أولريخ سيتزن الذي أمضى 20 سنة يدرس ويتأهب لرحلته إلى الشرق، وأعلن إسلامه ودخل مكة حاجاً عام 1810م.

أما الرحالة السويسري غون لويس بيركهارت، فهو من أشهر رحالة القرن الـ 19، وتخفَّى باسم الشيخ إبراهيم حين شارك في موسم الحج. والرحالة البريطاني السير ريتشارد فرنسيس بيرتون الذي تنكر باسم الحاج عبد الله عام 1853م، والذي انبهر بالحرم النبوي، وأثَّرت فيه مهابة مكة المكرمة أكثر من أي مكان آخر، بحسب وصفه.

ووثق المؤلف والمخرج الأمريكي مايكل وولف كتب الرحالة الغربيين عن الحج في كتاب (ألف طريق إلى مكة) One Thousand Roads to Mecca قدم فيه رحلات مختلفة امتدت على مدار قرون من الزمان، خاصة من ذوي التأثير في التاريخ والفكر الإنساني، مثل محمد أسد ومالكوم إكس.

رابعاً: مراد هوفمان والرحلة إلى مكة:

من هذا المنطلق، تأتي أهميَّة الوقوف عند شخصيَّات فريدة من رجالات الفكر الإسلامي، الذين حملوا بجدارة لقب (الحاج)، وفي طليعتهم المفكر الفذ والداعية الإسلامي وهدية ألمانيا للمسلمين (مراد ويلفريد هوفمان)، الذي لم يكن وصوله إلى الإسلام وليد موقف عاطفي، أو إشباعاً لنقص روحي؛ بل كان

حصيلة تراكم طويل من المواقف، والخبرات، والتأمل، والدراسة المتأنية؛ لقد قاده إلى هذا الدرب ثلاث تجارب أساسية: واحدة ذات طبيعة إنسانية، والثانية جمالية فنية، والثالثة فلسفية فكرية.

أما الطبيعة الإنسانية، فقد وجدها في الجزائر في أثناء عمله بالسفارة الألمانية هناك، وكانت وقتها تحت الاحتلال الفرنسي، وما رآه بعينه من أهوال وقتل ودماء، رأى إلى جانبه مواقف إنسانية للجزائريين أثارت انتباهه، وجعلته يبحث عن الباعث على هذه السلوكيات، رغم كل ما يحدث.

أما التجربة الفنية: فقد كان هوفمان في بدايته مولعاً بالفن والجمال الساكن كالرسم والنحت والعمارة والخط، وسرعان ما لفت انتباهه جمال الفن التشكيلي الذي يرى أنه يزداد الإحساس به كلما زادت قدرته على الإيحاء بالحركة، وتطور هذا الاهتمام إلى انبهاره الشديد بعروض رقص البالية، حتى صار ناقداً مرموقاً في الباليه في أعمدة صحف ألمانيا وبريطانيا وأمريكا، وعمل محاضراً لمادتَي تاريخ وعلم جمال الباليه بمعهد كولونيا للباليه بين عامي 1971–1973م.

وأمَّا ما تعلق بالتجربة الفلسفية: فقد بدأ هوفمان يسأل نفسه أسئلة دينية وفلسفية، ثم أخذ يبحث عن أجوبة لها، قادته تلك الأسئلة والأجوبة إلى اليقين بوجود الله تعالى، وتساءل عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان، فقاده ذلك السؤال إلى ضرورة الوحي والدين، وجاءته الإجابة من خلال قراءته المتكررة للآية الكريمة: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [النجم: 38].

هوفمان يروي تجربته الروحية في رحلة الحج في كتابه (رحلة إلى مكة) التي جاءت على صورة حكايات وصور لذكرياته في الحج، وتأملاته في هذا الركن الذي حاول استنطاقه بصورة جمالية تجلِّي فلسفته وعمقه، ويشير إلى أن الصبر والأناة والانضباط من أهم القيم التي تغرسها مناسك الحج في نفس المؤمن، فيقول: «على الحاج أن يتحلى بالصبر، وأن يتفادى الدخول في خلاف أو حتى الشروع فيه؛ ناهيك عن أنه محرَّم عليه أن يجرح شخصاً أو شيئاً أو أن يقتلع نباتاً أو حتى يقتل بعوضة».

يقول هوفمان مشيراً إلى اختلاف طبيعة النظر الإسلامي والنظر النصراني إلى غيره من الأديان: «إن شعائر الحج تربط المسلم بأبي الأنبياء إبراهيم عليه

السلام؛ فهو الذي أمره الله برفع القواعد من البيت، وفي هذا ما يؤكد وحدة الرسالات السماوية، والترابط بين الأنبياء على اختلاف شرائعهم ومناهجهم».

الخاتمة:

في نهاية المطاف أقول: إن لأدب الرحلات مكانة شديدة الأهمية بين التصانيف المختلفة، وما ذاك إلا لِـمَا تحويه هذه المؤلفات من فوائد يندر اجتماعها في موضع آخر، وتُعد كتب الرحالة من أهم المصادر التاريخية، لكونها تهتم بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وفيها احتفال بالغرائب والعجائب، وحرص على ملاقاة من يستحق اللقاء من العلماء والأدباء، إضافة إلى أن طابعها يتسم بالإمتاع والمؤانسة، وما أجمل رفقة كتب الرحلات إبان السفر أو حين انشغال الذهن! ففيها ترويح آمن، ومعلومات لطيفة لا تجلب الملل للناظر فيها، وكم نحن في حاجة في هذا الزمان إلى إعادة قراءة كنوز تراثنا الفكري والتاريخي والتأمل والنظر فيه والإفادة منه ولتعميق إدراكنا لتاريخنا.

الفصل الرابع

أفريقيا
ثروات طبيعية وأزمات اقتصادية

عقبات طرق القوافل الصحراوية بين مصر وبلاد السودان الغربي منذ القرن (2-8ه/8-14م)

دة. أماني قطب[1]

المقدمة:

يعد توسيع شبكة التواصل الإنسانية والاقتصادية داخل قارة أفريقيا من أهم نتائج دخول الإسلام لبلاد المغرب وللقارة الأفريقية؛ فأتيح بفضل ذلك لبقية العالم شرقاً وغرباً فرصة الاستفادة منها وتنمية ثروتها ومواردها(1)، هذا الأمر وإن ظهر اليوم كشيء عادي سرعان ما يبرز بالبحث التاريخي كإحدى المغامرات البشرية، التي تطلبت كثير من الشجاعة والإقدام، وروح المخاطرة لدى القائمين بها من الفاتحين المسلمين، ومن بعدهم التجار والعلماء(2)؛ فقد ربطت مراكز وأسواق القارة الأفريقية بشبكة من الطرق والمسالك الرئيسية والفرعية، وارتبطت هذه الطرق مع المسالك والطرق الخارجية، وباتجاهات مختلفة ضمت جميع أنحاء العالم الإسلامي والمتوسطي(3)، وقد مكنت هذه الشبكة التجار من ممارسة أنشطتهم التجارية، ويبدو أن استخدام الطرق التجارية في الصحراء الكبرى لم ينقطع حتى في حالات الحروب والفوضى السياسية(4).

وقد فضل التجار الطرق البرية على البحرية لكون الأولى عامرة بالمدن والأسواق، مما زاد من فرص المتاجرة والربح، كما أسهم وجود وكلاء للتجار على طول الطريق لتسهيل المعاملات التجارية(5). وقد مثلت تجارة الذهب الدافع الرئيس لتحرك التجار على اختلاف طبقاتهم نحو بلاد السودان الغربي، ولا يخفي على أحد أن تجارة الذهب أخذت المقام الأول

---

(1) أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230-1430م**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999، ص.237.

(2) محمد زنيبر، «تجارة القوافل في المغرب»، في **مجلة المناهل**، العدد 28، 1989، ص.104.

(3) Donald Holsinger, "Trade routes of the Algerian Sahara in the XIXth Century", In **Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée**, N.30, 1980, pp.57-70.

(4) محمد علي البياتي، **النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (3-5هـ/9-11م)**، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، د.ت.، ص.27

(5) نعيم ذكي فهمي، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى**، د.ن.، القاهرة، 1970، ص.273.

في اقتصاديات العصور الوسطى[1]، واكتسب المعدن الثمين أهمية كبيرة فاقت بقية أنواع الحلي والمعادن والتجارات[2]، ليس فقط من جمال بريقه ومكانته؛ بل لندرته وتحمل المشاق لطلبه[3]. مثّل السودان الغربي منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي المصدر الرئيس لتمويل العالم بالذهب، حتى اكتشاف العالم الجديد[4]، كما عده العرب الموطن الرئيس لأنقى أنواع المعادن[5]، ويرجح أن بداية جلب الذهب من السودان الغربي بشكل ملحوظ كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وهو حدث يتواكب مع التطورات التي ظهرت في دولة الخلافة وتحولها من مظاهر البساطة والتقشف لتضاهي أكثر الدول بذخاً وترفاً[6].

أولاً: طرق القوافل بين مصر وبلاد السودان الغربي

ربطت مراكز وأسواق المغرب الصحراء الكبرى بشبكة من الطرق والمسالك الرئيسية والفرعية، وارتبطت هذه الطرق مع المسالك والطرق الخارجية، باتجاهات مختلفة، وقد مكنت هذه الشبكة من المسالك والطرق التجار من ممارسة أنشطتهم التجارية في داخل أجزاء القارة، ويبدو أن استخدام الطرق التجارية لم ينقطع حتى في حالات الحروب والفوضى السياسية[7].

وقد فضل التجار الطرق البرية على البحرية، لكون الأولي عامرة بالمدن والأسواق؛ مما زاد من فرصة المتاجرة والربح، كما أسهم وجود وكلاء للتجار على طول الطريق في لتسهيل المعاملات التجارية[8].

---

(1) عبد الرحمن زكي، **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا العربية**، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1965، ص.84.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت.255هـ/868م)، **التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة**، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994، ص.11.

(3) نوري عزاوي حمود، «الذهب في التراث العربي والإسلامي»، في **مجلة سر من رأي**، المجلد ،6 العدد 23، السنة السادسة، كانون 2010م، ص.87.

(4) الأمين عوض الله، **تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر**، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص.88.

(5) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، (ت.334هـ/945م)، **الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة**، تحقيق: أحمد فؤاد باشا، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009، ص.98.

(6) محمد زنيبر، «تجارة القوافل في المغرب»، بحث منشور في كتاب **تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر**، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص.169.

(7) نعيم ذكي فهمي، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)**، د.ن.، القاهرة، 1970، ص.273.

(8) أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة

علـى أيـة حـال، كثـرت الطـرق التـي ربطـت شـمال وشرق أفريقيـا بغربهـا وتحديـداً بـلاد السـودان الغربـي، وكان لهـذه الطـرق نتائجهـا البعيدة عـلى الصعيدين السـياسي والحضـاري، ويتتبـع هـذه الطـرق مـن الشـمال إلى الجنـوب كمـا يلي:

1. الطريق الشمالي:

عــرف بالطريــق الأعظــم، أو طريــق الجــادة العظمــى، أو الجــادة؛ ربمــا لأنــه الطريــق الأكثــر اســتخداماً مــن قبــل الحجــاج والتجــار في قوافــل مشــتركة، كمــا اتخذتــه كثــير مــن الحمــلات التــي قامــت بفتــح بــلاد المغــرب، وأقامــت عليــه الموانــئ والمــدن والحصــون، وامتــاز بســهولة مســالكه، وكثــرة مدنــه؛ ممــا بــث في قلــوب القوافــل الطمأنينــة والأمــان، وتنوعــت محطــات هــذا الطريــق بــين المــدن الســاحلية وبعــض المــدن الداخليــة، ويتفــرع هــذا الطريــق إلى فرعــين، عــرف الفــرع المحــاذي للبحــر بالطريــق الســاحلي، والآخــر الــذي يربــط بــين المــدن الداخليــة فقــط بطريــق البريــد، أو الســكة.

وقــد حــدد اليعقوبــي وابــن حوقــل[1] معالــم هــذا الطريــق مــع اختــلاف طفيــف في أســماء بعــض المعالــم التــي مــرت بهــا القوافــل، واتفــق المؤلفــان عــلى أن الفســطاط البدايــة لهــذا الطريــق، وهــذا أمــر طبيعــي بوصفهــا المركــز التجــاري في تلــك الفــترة -وإن لــم تكــن مقــر إقامــة الــولاة والحــكام- ومــن الفســطاط إلى بعــض المــدن الصغــيرة كــذات الحمــام، حتــى الوصــول إلى الإســكندرية ومنهــا إلى برقــة، ثــم مدينــة إجدابيــة، فمدينــة سرت، ثــم طرابلــس، ثــم يواصــل الطريــق محطاتــه بمــدن المغــرب الأدنــى قابــس، ثــم ســفاقس، ومنهــا إلى القــيروان، فسوســة، وتونــس، ثــم يدخــل مــدن المغــرب الأوســط باجــة، وطبرقــة، ثــم بجايــة، و جزائــر بنــي مزغنــي، وتنــس، ووهــران، ثــم يواصــل محطاتــه في المغــرب الأقــصى ســبتة ثــم طنجــة، ومــن بعدهــا نجــد الموانــئ التاليــة، في اتجــاه شــمالي جنوبــي، أزيــلي، وآســفي، وإيجــلي، وأوليــل، ونــول، وقــد حــدد ابــن الصبــاح وقــت الرحلــة بــين الإســكندرية وآســفي بخمســة أشــهر.

الدينية، القاهرة، 1995، ص.223.

(1) أحمد بن إسحاق ابن واضح اليعقوبي، **البلدان**، تحقيق: محمد أمين ضنا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص.185؛ ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، 1938، ج.1، ص.157. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1992، ص.662.

ويوضح الجدول الآتي محطات هذا الطريق والمسافات بينها:

الطريق	المرحلة
الفسطاط- الإسكندرية	5 مراحل (ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ج.1، ص.84).
الإسكندرية - برقة	21 مرحلة (الإدريسي، أنس المهج، ص.215).
برقة - إجدابية	7 مراحل (الإدريسي، أنس المهج، ص.215).
إجدابية - سرت	5 مراحل (اليعقوبي، البلدان، ص.182).
سرت - طرابلس	7 مراحل (ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ج.1، ص.86).
طرابلس - قابس	5 مراحل (ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ج.1، ص.86).
قابس - القيروان	4 مراحل (اليعقوبي، البلدان، ص.185).
الطريق	**المحطات**
القيروان - تونس	3 مراحل (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.46).
تونس - طبرقة	10 مراحل (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.46).
طبرقة - تنس	16 مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.46).
تنس- جزائر بني مزغني	5 مراحل (المقدسي، أحسن التقاسيم، ج.1، ص.246).
جزائر بني مزغني - بجاية	4 مراحل ونصف (الإدريسي، أنس المهج، ص.215).
بجاية - وهران	_
وهرا ن - سبتة	_
سبت ة- طنجة	_

الطريق	المرحلة	
اتجاه شمالي جنوبي	ازيل ي– سلا	_
	سل ا– آسفي	_
	آسفي – ايجلي	_
	ايجلي – نول	_
	نو ل– آوليل	_

وفيما يلي خريطة توضح الطريق ومحطاته:

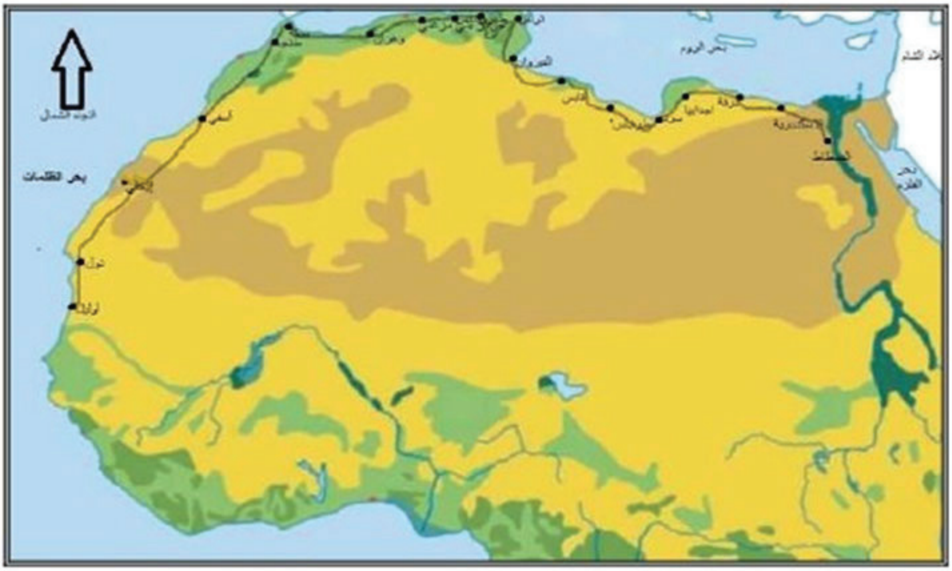

الطريق الشمالي الساحلي (طريق الجادة) – عمل الباحثة

2. طريق الهضبات الوسطى (التلي):

يلي النطاق الساحلي نطاق تلي يتميز بوجود جبال الأطلس، وهي أوضح الظواهر الجغرافية في بلاد المغرب وأكثرها خصوصية، وتبدأ جغرافياً من ناحية الغرب من بلاد السوس في شكل سلسلتين تحصران فيما بينهما إقليم السوس الخصيب، وتلتقي السلسلتان عند قمة «سيروة» التي يقترب ارتفاعها من ميلين فوق سطح البحر شرق مدينة مراكش، ثم تتفرع مرة أخرى إلى سلسلتين شبه متوازيتين ممتدين من الغرب نحو الشرق، تسمي السلسلة الشمالية المطلة على النطاق الساحلي باسم أطلس التل، أو أطلس العالية، وتسمي السلسلة الجنوبية المطلة على الصحراء باسم أطلس الصحراء أو الأطلس الأمامية(1).

وطريق الهضاب المرتفعة أو ما يعرف بمنطقة شط الجريد بإقليم تونس، ويدور حول جبال الأوراس بحيث يمر بحوض الطرف، وبممر الحضنة، ثم ممرة تازة بالشمال الغربي من بلاد المغرب(2). وكانت القيروان وما أضيف إليها من بلدان الساحل التونسي متصلة بهذا الطريق الذي يتفرع منه طريق ثانوي نحو بجاية في الشمال ونحو بسكرة وورجلان في الجنوب(3)، حتى يصيرا طريقاً واحداً ابتداء من طرابلس، وهو أقل نشاطاً وحركة إذا ما قورن بالطريق الشمالي أو الطريق الجنوبي الصحراوي(4).

---

(1) محمد بركات البيلي، **ملامح تاريخ المغرب والأندلس المغرب الإسلامي: من الفتح حتى نهاية عصر بني زيري**، د.ن.، ميت عساس، 2008، ص.2.

(2) ابتسام مرعي خلف، **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي (524-936هـ/1130-1529م)**، دار المعارف، القاهرة، 1985، صص.278-279.

(3) المرجع نفسه والصفحات ذاتها.

(4) رشيد حفيان، **الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12هـ/17-18م**، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانية، قسنطينة، الجزائر، 2014، ص.20.

ويوضح الجدول الآتي محطات هذا الطريق والمسافات بينها:

الطريق	الزمان	المحطات
الفسطاط-برقة	٦ أشهر	٢٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
برقة-طرابلس		٢٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
طرابلس-القيروان		٢٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
القيروان-سطيف		١٦ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
سطيف-تاهرت		٢٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
تاهرت-فاس		٥٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
فاس-السوس الأقصى		٣٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).
تاهرت-سجلماسة		٥٠ مرحلة (الاصطخري، المسالك والممالك، ص.٤٦).

وتوضح الخريطة الآتية خط هذا الطريق ومحطاته:

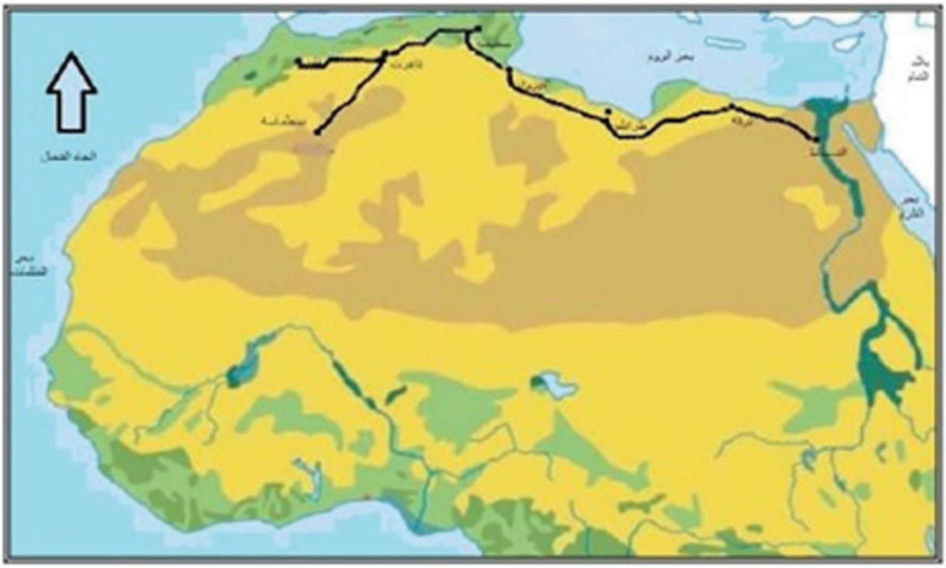

طريق الهضبات الوسطى (عمل الباحثة)

3. طريق الذهب (القصور):

ويبدأ هذا الطريق من مدينة عيذاب في مصر، ثم قوص، ومنها نهرا إلى القاهرة، ثم طريقه المعروف إلى الإسكندرية، ومنها إلى برقة ثم ينقسم إلى فرعين هما: القصور والواحات، ويبتدأ فرع القصور من بلدة حمص بليبيا شرق مدينة طرابلس، ومنها إلى غريان فيفرن، ثم جادو، فنالوت، ثم قصور تطاوين، ثم يتجه غرباً نحو وادي سوف، ووادي ريغ، ثم وارجلان، ثم الجنوب الغربي لإقليم توات، ثم وادي ميزاب، وأخيراً سجلماسة، وهي نقطة التقائه بفرع الواحات، وفرع الواحات يمر بواحات الصحراء الكبرى، وخاصة واحة توات التي كانت مقصداً للتجار والحجاج المغاربة[1]، ويبرر العياشي هذا التوجه إلى توات بأن سعر الذهب فيها أرخص من سجلماسة، وكذلك سعر التمر والزرع، كما أنها ملتقي لقوافل الآتية من السودان[2]، ثم تتوجه القوافل إلى ورجلان، ثم واحات الجنوب الليبي غدامس، وغات ومرزق، وأوجلة، ومنها إلى الواحات المصرية[3].

بالإضافة إلى المحاور العرضية وجدت عدة محاور ربطت بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي وقد مثلت امتداداً طبيعياً للطرق التي ربطت مصر ببلاد المغرب والسودان الغربي ومن هذه المحاور:

- **الطريق المحاذي للساحل (نول-أوليل):** وكان الحصول على الملح وراء ازدهاره، فقد كانت مالحة أوليل أشهر المالحات الواقعة في الصحراء الكبرى، فمنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان[4]، وقد حدد ابن حوقل موقعها بأنها على مسافة شهر واحد من مدينة أودغست، وشهر ونصف من مدينة سجلماسة، وكانت. المسافة من انطلاق هذا الطريق حتى نهايته شهرين[5]؛

---

(1) Michel Abitbol, «le Maroc et le commerce Transsaharien du 17 du début 19siècle», In **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée**, N.30, Paris, 1980, pp.5-19.

(2) عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية 1661-1663م**، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، المجلد الأول، صص.78-79.

(3) حفيان، **الطرق والقوافل التجارية**...، م.س.ذ.، ص.20.

(4) الإدريسي، **نزهة المشتاق**...، م.س.ذ.، ج.1، ص17.

(5) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، ج.1، ص.91.

- **محور سجلماسة-غانا:** وكان من أنشط المحاور التجارية وكانت مدينة تامدولت محطة رئيسية على هذا المحور، واشتهرت بمعدن الفضة، وكانت تتجمع فيها القوافل لتواصل رحلتها لأودغست، ويرجح أحد الباحثين أن هذا الطريق هو الذي سلكته حملة حبيب بن عبيدة سنة 116هـ/734م، وبعدها قام ابنه عبد الرحمن بن حبيب بحفر الآبار على هذا الطريق[1].

ويوضح الجدول التالي فرعي طريق الذهب:

الطريق		المرحلة
غانة-درعة درعة-أغمات أغمات-سجلماسة	تادمكة-غانة	50 مرحلة (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.880).
	60 مرحلة (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.837).	
	8 مراحل (ابن حوقل، صورة الأرض، ج.1، ص.91).	

(1) الطاهر قدوري، «الطرق التجارية الصحراوية وامتداداتها في البحر المتوسط في العصر الوسيط»، في **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، العدد 15، 2011، صص.88-102.

فرعي الطريق	القصور	مزاب-توات	
		ورجلان-وادي سوف	
		وادي سوف-قصور تطاوين	
		تطاوين-جادو وغريان	
		غريان-مدين حمص	
		إجدابية-الإسكندرية	
		الإسكندرية-القاهرة	
		القاهرة-عيذاب	
	الواحات	ورجلان-غدامس	20 مرحلة (الاستبصار، ص.224).
		غدامس-غات	20 مرحلة (رشيد حفيان، ص.42).
		غات-مرزق	
		مرزق-أوجلة	_
		أوجلة-سيوة	_
		سيوة-واحات الداخلة والخارجة	_

وفيما يلي خريطة توضح طريق الذهب وكذلك المحاور الرأسية له:

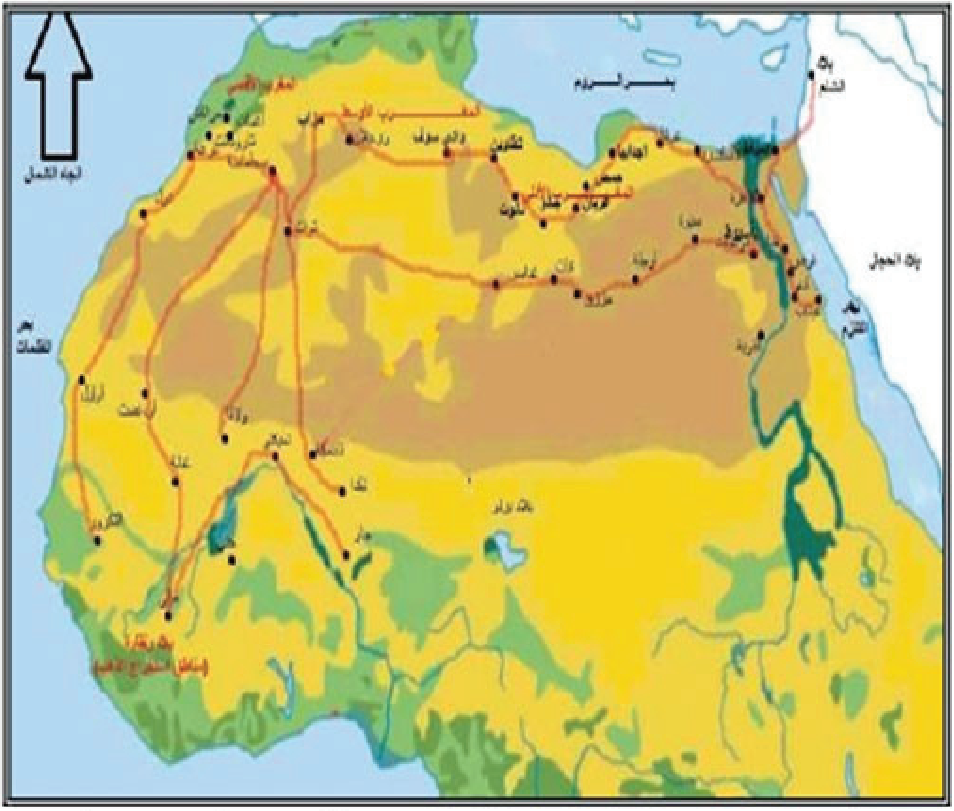

طريق الذهب وفروعه بالصحراء الكبرى الأفريقية (عل الباحثة)

4. الطريق الجنوبي (مصر-غانة):

وهو أقصر وأقرب الطرق بين مصر وبلاد السودان الغربي[1]، ويرجح أنه أول طريق سلكه العرب للوصول إلى السودان؛ فهو أقصر الطرق لعبور الصحراء[2]، وقد قدرت المصادر مدة اجتياز هذه الطريق بثمانين يوماً على الجمال، كما أكدوا أنه لا يوجد سوى موضع واحد فقط للتزود بالطعام[3]، وقد ذكر ابن حوقل أنه الطريق الرئيس

(1) أبي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، **كتاب البلدان**، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط.1، 1416هـ/1996م، ص.123.

(2) أحمد إلياس حسين، **الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1977، ص.43.

(3) مؤلف مجهول، **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، ترجمة وتحقيق: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية

بين مصر وغانة، وكانت لا تزال فيه بعض الآثار الباقية فقال: «**وكان يسلك قديماً من مصر إلى غانة فانقطع ولا يخلو هذا الطريق من جزائر النخيل وآثار الناس وبها إلى يومنا هذا ثمار كثيرة وغنم وجمال قد توحشت**»[1]، كما أفاد ابن حوقل أيضاً أن توقف هذا الطريق جاء بناء على قرار من السلطة الحاكمة في مصر آنذاك خوفاً على أرواح المسافرين؛ فتوقف استخدام هذا الطريق تماماً، بعد أن كان من أنشط الطرق[2].

وكان تجار البصرة والكوفة يفضلون هذا الطريق، حتى تسببت الرياح في تغيير اتجاههم إلى الطرق المارة بوسط المغرب، كما كان التجار المصريون يسلكونه ليبادلوا الملح، والزجاج، والرصاص، ويشترون أحجار الذهب[3]، وقد أوضح ابن حوقل أسباب انحسار ذلك الطريق لشدة الرياح التي أهلكت القوافل، وقطاع الطرق مما دفع المسافرين للتحول عنه[4].

ومما سبق تتضح العوامل التي أدت إلى التحول عن هذا الطريق فخلال مدة الرحلة التي تستمر 80 يوماً من الصعب مواصلتها بالاعتماد على موضع واحد للتزود بالطعام والشراب، فإذا أضيف إلى ذلك العوامل الطبيعية كالرياح والبشرية كقطاع الطرق، تبين حجم المخاطر التي تعرض لها العابرين لهذا الطريق وفي ضوء ذلك يمكن تفسير القرار الذي اتخذته السلطة الحاكمة في مصر بمنع المرور عبر هذا الطريق.

للنشر، القاهرة، 1423هـ، ص.205.

(1) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، ج.1، ص.153.

(2) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، ج.1، ص.153. تاديوز ليفتسكي، «دور الصحراء الكبرى وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب»، **تاريخ أفريقيا العام**، ج.3، ص.314.

(3) مؤلف مجهول، **حدود العالم...**، م.س.ذ.، ص.205. جان دفيس، «التجارة والطرق التجارية في غرب أفريقيا، **تاريخ أفريقيا العام**، ج.3، ص.412.

(4) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، ج.1، ص.61.

ويوضح الجدول الآتي محطات هذا الطريق:

الطريق	الزمن باليوم	المحطات
تادمكة - فزان	80 يوماً	-
فزان - زويلة		15 مرحلة (ابن حوقل، صورة الأرض، ص.92).
زويلة - أوجلة		20 مرحلة (الإدريسي، نزهة المشتاق، ج.1، ص.312).
أوجلة - شنتريه		10 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).
شنتريه - بهنسي واحات		10 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).
بهنس الواحات - أريش الواحات		8 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).
أريش الواحات - الفرفرون		3 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).
الفرفرون - الواحات الداخلة والخارجة (القصر والقلمون)		4 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).
الواحات الداخلة - الواحات الخارجة		3 مراحل (البكري، المسالك والممالك، ج.2، ص.662).

وفيما يلي خريطة توضح هذا الطريق:

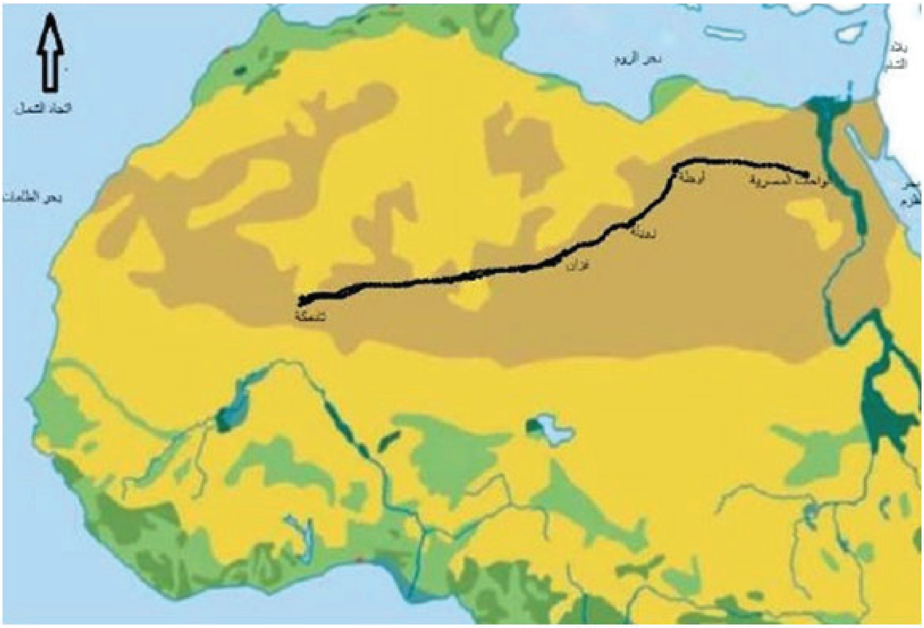

الطريق الجنوبي بين مصر وبلاد السودان الغربي (عمل الباحثة)

ثانياً: عقبات طرق القوافل الصحراوية

كانت رحلة الحصول على الذهب من بلاد السودان الغربي ومبادلته بغيره من السلع محفوفة بالمخاطر، ولم يكن عبور الصحراء بالأمر السهل؛ بل تعرض القائمين بهذه المغامرة لأخطار كثيرة حالت في بعض الأحيان دون إتمام الرحلة[1].

لهذا كانت الأرباح العائدة وراء ممارسة تجارة الذهب كبيرة لما يتكبده القائمين بالرحلة من عناء، وقد وضح ابن الأزرق هذه المعادلة بين ندرة السلع والأرباح التي يحققها التجار بقوله: «**فإنها لبعد مكانها وشدة ضرر نقلها يقل حاملها ويعز وجودها وإذاك فيحصل ناقلها على ربح عظيم بسبب ذلك والبلد القريب المسافة الآمن الطريق يكثر الناقل منه وإليه فيكثر المنقول وترخص أثمانه، ولهذا تجد التجار الداخلين إلى بلد السودان أرفع الناس وأكثرهم أموالاً لبعد**

(1) أبو الحسن على بن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق: حسن مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط.2، 1982، ص.47. ابن الصباح، **نسبة الأخبار**، ص.59.

طريقهم ومشقته باعتراض المفاوز المخطرة بالخوف والعطش ويقل ما نقل إلينا وإليهم فيسرع إلى هؤلاء الغنى والثروة»[1].

وتمثلت تلك الأخطار في الآتي:

1. قطاع الطرق (السراق):

مثل قطاع الطرق العدو الأكثر شراسة للمسافرين عبر الطرق الصحراوية، والذين اتخذوا كافة الاحتياطات لحماية أنفسهم من المخاطر الطبيعية[2]، فمهما كانت الجهود التي بذلتها الدول القائمة آنذاك لتوفير الأمن، والضرب على أيدي قطاع الطرق، إلا أن هذا الأمر صعب التحقيق، لطول المسافات وطبيعة المجتمع القبلي، فلا يخلو الأمر من وجود بعض أفراد القبائل الذين يتعيشون على السلب والنهب وهؤلاء يعترضون العامة والخاصة[3].

ويرجح أن الخلاف المذهبي الذي عاشته بلاد المغرب كان وراء تجرأ بعض اللصوص على المارة، كبعض المناطق التي لم تقتصر على سرقة أمتعة القوافل؛ بل تعدى الأمر لسرقة رجال القافلة أنفسهم وبيعهم كرقيق للنصارى؛ فكانت القوافل تخاف تلك الأماكن حتى إذا ما تجاوزوها تبادلوا التهاني فرحاً بسلامتهم[4].

ومن الطريف أن بعض القبائل التي اشتهرت بالسرقة كانت تتوقف عن ممارسة نشاطها خلال شهر رمضان، فإذا وجد سراقها المتاع بالطريق لا يتعرضوا له[5]، وقد استغلت بعض القوافل ذلك الوازع الديني لدى تلك القبائل؛ فكانت ترسل رجال العلم المصاحبين للقافلة للتفاوض مع اللصوص، لرد بعض الأمتعة التي لا غنى عنها طوال الرحلة[6].

وقد اتخذت القوى الحاكمة في بلاد المغرب وممالك السودان الغربي موقفاً مشدداً

---

(1) أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي بن الأزرق، شمس الدين الغرناطي، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق على سامي النشار، وزارة الإعلام العراقية، د.ت.، ج.2، ص.319.

(2) جاك تيري، **تاريخ الصحراء**، م.س.ذ.، ص.609.

(3) أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق: إبراهيم طلائي، مطبعة البعث، الجزائر، د.ت.، ج.1، ص.191.

(4) أبو محمد عبد الله بن أحمد التجاني، **رحلة التجاني**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص.119.

(5) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: كرم البستاني، دار النفائس، بيروت، 1997، ص.277.

(6) التجاني، **رحلة التجاني**، م.س.ذ.، ص.180.

مـن قطـاع الطرق؛ فقـد كان الأمراء الرسـتميون يخرجـون لحماية القوافل بأنفسـهم[1]، وكان القتـل هـو العقوبة المبـاشرة لجريمة قطـع الطريق عـلى القوافـل التجارية في كثير مـن الأحيان[2].

وقـد اسـتغلت القبائـل حاجـة القوافـل إلى المـاء؛ فكانـوا يختبـؤون في أماكـن وجـوده كموقـع «وانزمـيرن» وهـي عيـون مياه عذبـة، وبهـا تجتمع جميـع طرق بلاد السـودان فيـه كمـا ذكر البكـري أنه: «**موضـع مخوف تغـير فيه لمطـة وجزولة عـلى القوافل ويتخذونـه مرصـداً لهـم**»[3]، ومن الحيـل التي طبقهـا اللصوص أيضاً ادعـاء أن معهم شـخص متـوفي ثـم يطلـب مـن المسـافرين مسـاعدته في حملـه حتـى الذهـاب إلى مكان محـدد وعندهـا يخرج ذلـك الشـخص ويسرق المسـافر[4].

وقد عرفت بعض المناطق بمهارة اللصوص واستخدامهم حيال للحصول على أمتعة القوافل، كزمام مدينة طرابلس؛ فقد كان أعراب طرابلس أعلم الناس بالحيل التي يجلبون بها التجار بغرض سرقتهم[5]، وجبل دادس الذي ذكره الوزان في رحلته ووصف سكانه أنهم غادرون متلصصون يقتلون الرجل من أجل بصلة، كما كان موقع مدينة مراكش مشتهراً باللصوص، حتى إن المارين به يحثون بعضهم على السير فيقولون: «مراكش»، وتعني مر مسرعاً؛ لخوفهم من اللصوص[6]، وكان المسافرون يفتدون أنفسهم بالمال إذا وجدوا سبيلًا للتفاوض مع اللصوص ووصل الأمر أن دفعوا ربع أثمان سلعهم حتي يتمكنوا من المرور بدفع ربع أثمان سلعهم حتي يتمكنوا من المرور[7]، وعلى العكس من ذلك؛ فقد ذكر ابن بطوطة بعض الأماكن التي تخلو تماماً من قطاع الطريق حتى إن المسافر فيها لا يحتاج إلى الرفاق لخلو الطريق من اللصوص[8].

---

(1) ابن الصغير المالكي، **أخبار الأئمة الرستميين**، تحقيق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، الجزائر 1985، ص.91.

(2) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج.3، ص.107.

(3) البكري، **المسالك والممالك**، م.س.ذ.، ج.2، ص.847.

(4) عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2009، ص.164.

(5) أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، **ماء الموائد: (العياشي الرحلة(ليبيا، طرابلس وبرقة**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد وآخرون، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1996، ص.125.

(6) شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط.2، 1995، ج.5، ص.94. الناصري، **الاستقصا**، ج.2، ص.24.

(7) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف أفريقيا**، جزءان، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، 1983، ج.1، ص.189.

(8) ابن بطوطة، **الرحلة**...، م.س.ذ.، ج.4، ص.247.

وثمة ملاحظة فيما يتعلق بظاهرة اللصوصية وقطع الطريق في تاريخ المغرب بشكل عام، وهي ازدياد حده العمليات بشكل منظم عند تعرض البلاد للمجاعات والأوبئة[1]، وفي وقت فترات الصراع السياسي التي تسبق سقوط دولة وقيام دولة أخرى؛ إذ قام هؤلاء اللصوص بإضفاء صفة رسمية على أفعالهم، كأولئك الذين ذكرهم ابن القطان في نظم الجمان عند بداية ظهور الموحدين بقوله: «**وإن من ذلك الرأي الذميم والسعي المنقوم ما ذكر في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها، يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طي ما يهمون به من النصيحة، ويستبطنون المكر في تصرفاتهم القبيحة، فيقولون للرجل منهم: عندك من حقوق الله كيت وكيت، وإن للمخزن جميع ما به أتيت! ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضي له المذكور بالخروج عن جملة ماله ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله**»[2]. ويتبين من النص مدى حرص الدول التي قامت في المغرب على بسط الأمن في الطرق التجارية، واعتقادها أن المساس بأمن هذه الطرق أمر يخل بمظاهر سيادتها.

ومن وسائل تأمين الطرق التي عرفت في المغرب في العصر المريني (668-869هـ/1269-1465م) «الرتب» وهي خيام أمر السلطان بسكناها على كل 12 ميلاً ويختار ساكنيها من المناطق القريبة منها، ومهمة هؤلاء بيع الطعام والشعير وما يحتاج إليه المسافرين لإتمام الرحلة، وقد كانت تلك الأماكن في الغالب غير صالحة للسكن، لذلك كانت الدولة تعطي القائمين بهذه المهمة إقطاعاً مقابل هذه المهمة، وقد حققت هذه المهمة أماناً كبيراً للمسافرين[3].

غير أن المناداة بسلامة الطرق والتشديد عليها لم يمنع السلطة الرسمية نفسها من وقف حركة السفر في حالات الحرب[4]، ونشر من عرفوا بـ «أمناء الطرق» لئلا يسافر أحد[5]، وربما يفسر ذلك التصرف من قبل السلطة، بسبب تخفي كثير من

(1) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (6-8هـ/12-14م)**، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص.78.

(2) أبي محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي ابن القطان، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت، 1990، ص.194.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.429.

(4) ابن عذاري، **البيان المغرب**، م.س.ذ.، ج.4، ص.46.

(5) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص.73.

الخصوم السياسيين في زي التجار مستغلين التسهيلات التي قدمتها دول المغرب للحركة التجارية آنذاك؛ فقد دخل إدريس بن عبد الله ومولاه راشد للمغرب في زي التجار، كما أوقفت زناتة وفداً أرسله أبو عبد الله الشيعي إلى عبيد الله المهدي في سجنه في سجلماسة، ويرجح أن هؤلاء كانوا يسيرون في شكل قافلة تجارية حتى لا ينكشف أمرهم[1]، وقد لجأ عبيد الله المهدي للتخفي بالطريقة نفسها عندما انتقل إلى المغرب[2].

2. قلة الماء:

ارتبط استمرار الحياة على سطح الأرض عموماً وفي الصحراء على وجه الخصوص بوجود المياه الصالحة للشرب، ولا يكاد الجغرافيون يذكرون مدينة إلا وأتبعوها بوصف مائها من حيث القلة والكثرة، وصفات الماء من عذوبة وملوحة، حيث أكد الإدريسي على وصف حالة المياه في كافة المدن التي زارها من خلال تعبيرات، مثل: «ماؤها عذب»، و«ماؤها قليل»، و«ماؤها غائر»، و«ماؤها مالح»[3]، كما تطرق المؤرخون إلى طرق استنباط المياه في كثير من المدن التي زاروها[4].

وكان كثير من المسافرين يفضلون الطرق البرية على ركوب البحر خوفاً من هجمات القراصنة[5]، إلا أن هناك عدوا آخر لم يكن أقل خطراً من التعرض لهجمات القراصنة، وهو «العطش» فالصحراء كما وصفتها المصادر « كلها مفاوز وخلوات وفيها خوف وعطش وفياف منقطعة[6]، لا يبلغ الموغل فيها في تلك البراري إلا القادر على حمل الأزواد»[7]، وقد ينقطع الماء لأيام كثيرة[8]، وقد أكد الإدريسي بقوله: «**وهذه**

---

(1) جودت عبد الكريم، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص.200.

(2) ابن الدواداري أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق: صالح الدين المنجد، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ج.6، ص.26. المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج.1، ص.60.

(3) أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، 1989، ج.1، صص.106-736.

(4) ابن خلدون، **العبر**، م.س.ذ.، ج.7، صص.77-78.

(5) جودت، **الأوضاع الاقتصادية...**، م.س.ذ.، ص.206.

(6) عبد الله بن الصباح، «نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار: رحلة حجازية»، تحقيق: جمعة شيخة، في **مجلة دراسات أندلسية**، عدد خاص، العددان 45-46، محرم 1433هـ/ديسمبر2011م، ص.59.

(7) أبو الحسن على بن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق: حسن مؤنس، دار الشروق، القاهرة، ط.2، 1982، ج.2، ص.47.

(8)البكري، **المسالك...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.847.

الصحاري فيها مجابات مياه وذلك أن الماء لا يوجد فيها إلا بعد يومين وأربعة وخمسة وستة واثنى عشر يوماً مثل مجابة تيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة وهي أربعة عشر يوماً لا يوجد فيها ماء وأن القوافل تتزود بالماء لسلوك هذه المجابات في الأوعية على ظهور الجمال، ومثل هذه المجابة كثير في بلاد السودان»[1]، وكان التزود بالماء هو الضمان الوحيد لمواصلة الرحلة، ووردت إشارات في بعض المصادر تفيد بهلاك بعض المسافرين، وهم على بعد خطوات قليلة من الماء[2]، وكانت قلة الماء دافعاً لاتخاذ بعض الإجراءات من قبل القافلة للتخفيف من حدة تلك المشكلة؛ فكانت القوافل تسير ليلاً وتتوقف نهاراً عن مواصلة السير حتى لا يستهلك المسافرون كميات كبيرة من الماء حال سيرهم نهاراً، كما كانت تشتري الماء من بعض القبائل التي تخرج لملاقاة القوافل كقبيلة مسوفة[3].

وقد ذكر الإدريسي في معرض حديثه عن بلاد السودان عن رجل كان له علم بأماكن وجود المياه من خلال حاسة الشم فقال: **«فأخذ غرفة من ترابها وقربه من أنفه ثم اشتمه وتبسم وقال لأهل القافلة انزلوا فإن الماء معكم فنزل أهل القافلة هناك وعرسوا متاعهم وقيدوا الجمال وتركوها ترعى ثم عمد البربري إلى موضع وقال احفروا هاهنا فحفر الناس في ذاك الموضع أقل من نصف قامة فخرج إليهم الماء الكثير العذب فعجب من ذلك أهل القافلة»**[4]، ويلاحظ من ذلك أن سكان مناطق الواحات الذين كانوا في حاجة ماسة للمياه طوال فصول السنة، كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم لاستنباط المياه؛ نظراً لتوفر الحافز المتمثل في قلة الماء والحاجة إليه[5]، حيث كان أهل مسوفه يذبحون البقر الوحشي لشرب ما بداخلها من ماء[6].

ومن الأشياء الغريبة أيضاً التي أرها المسافرون بعض الأشجار الكبيرة التي تجمع فيها المطر، شرب منها وكانت بمثابة آبار يشرب منها[7]، كما قام المسافرون في بعض الأحيان بدافع الحصول على الماء بذبح بعض الحيوانات ممن تصحب القافلة

---

(1) الإدريسي، **نزهة...**، م.س.ذ.، ج.1، ص.18.

(2) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ص.319.

(3) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.244.

(4) الإدريسي، **نزهة...**، م.س.ذ.، ج.1، ص.28.

(5) حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط.1، 1997، ص.80.

(6) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.243.

(7) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.247.

والتـي كان المسـافرون يصحبونهـا لهذا الغـرض تحديـداً ويقومون بتعطيشـها ثم تورد المـاء لتـشرب أكـبر قدر منـه ثم تسـاق خاليـة دون أحمـال، فإذا نشـف ما في أسـقيتهم واحتاجـوا إلى المـاء نحـروا جمـلاً وشربوا مـا في بطنه[1].

وبالإضافـة إلى عامـل نـدرة الميـاه؛ فقـد كانـت هنـاك كثير مـن العوامـل التـي أدت من جهتهـا إلى التقليـل من الميـاه والتضيق عـلى القوافل في الحصـول عليه، والتي تسـببت في تجفيـف المـاء في أماكن تخزينه؛ فاضطـر المسـافرون لتغطيته بتخيـط «التلاليس» عليها لحمايتها مـن الريح[2].

وهنـاك ظاهـرة أخرى جديـرة بالملاحظة خاصـة بالمياه، وهـي ظاهرة المـاء «الزعاق»[3]، أو شـديد المـرارة وقـد أرجـع التيجانـي خلال رحلتـه تلك الظاهـرة لوجود شـجر الدفلى بتلـك الأماكـن «**فيكتسـب المـاء لـدى جريـه منهـا سـمية ومـرارة تـضر بأبـدان سـاكنيها**»[4]، كمـا كانـت الملوحـة الشـديدة للميـاه وتغير لونهـا وطعمها مـن العقبات التـي واجهـت المسـافرين؛ فاضطـروا إلى تقديـم حاجتهم للشرب عـلى إعـداد الطعام بما معهـم مـن مـاء حفاظاً عليـه[5]، وفي كثـير من الأحيان تسـبب هـذا الماء بمشـاكل صحية لشـاربيه كالميـاه الفاسـدة التـي ليـس لهـا مـن صفـة الميـاه إلا «التميـع» ومـن أول ما يشربهـا المسـافرون «**تتغـير أمزجتهم ويسـقمون**»[6].

كمـا اضطـر المسـافرون أحيانـاً للقيـام بحفر الآبار بأنفسـهم التـي سرعان مـا تلبث أن تنهـار وتدفـن[7]، مما دفعهـم لتغطيتها بعظـام الإبـل وجلودها[8].

ومما سبق يمكن إجمال الخطوات التي اتخذتها القافلة لمواجهة ندرة المياه في الآتي:

1. التزود بكميات كبيرة من المياه بداخل قرب أعدت لذلك خصيصاً؛

---

(1) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط.2، 1995، ج.2، ص.12.

(2) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.242. سياب خيره، **المياه ودورها الحضاري في تاريخ المغرب الإسلامي (10-7هـ/13-16م)**، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ص.60.

(3) البكري، **المسالك...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.847. الإدريسي، **نزهة...**، م.س.ذ.، ج.1، ص.22.

(4) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ص.89.

(5) العياشي، **ماء الموائد...**، م.س.ذ.، ص.73.

(6) البكري، **المسالك...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.847.

(7) الحموي، **معجم...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.12.

(8) الوزان، **وصف...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.80.

2. السير ليلاً حتى لا تزيد حاجة القافلة للمياه؛

3. اصطحاب جمال بلا أحمال مع القافلة لذبحها والتزود بما شربته من ماء عند الحاجة؛

4. اكتراء الأدلاء العارفين بأماكن وجود المياه في الصحراء؛

5. شراء المياه من القبائل التي تقدم تلك الخدمة للمسافرين؛

6. حفر الآبار وتغطيتها بعظام الإبل حتى لا تدفن.

3. الرمال المتحركة:

أدت طبيعة الأرض دوراً كبيراً في تحديد مسارات وطرق القوافل التجارية بشكل عام وأوقات راحة القافلة في بعض الأحيان؛ فقد كانت صلابة الأرض تمنع تثبيت أوتاد الخيام مما يضطر القوافل لاختيار مكان آخر للراحة[1]، إلا أن الخطر الذي لم تستطع القوافل التغلب عليه هو الرمال المتحركة أو الزاحفة أو السواخة كما سماها البكري ووصفها بقوله: «**السواخة لا يهتدى الطريق فيها إلا بخشب منصوبة (...) فإن ضل أحد يميناً أو شمالاً غرق (...) تشبه في الرطوبة بالصابون، وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر أمرها**»[2].

وقد أرجع الإدريسي سبب تغير المسالك التجارية وبخاصة تلك التي بين مصر وبلاد السودان الغربي، وقلة السالكين لهذه الطرق لوجود هذه الرمال السائلة التي تنقلها الريح من مكان إلى مكان[3]. كما عبر التيجاني عن خطورتها فقال: «**سلكها قافلة لنا فيها ألف جمل فنفر منها بعير وتبعه باقي الإبل فلم يكن أسرع من أن ساخت في الأرض وغاص فيه ألف جمل، ثم عادت الأرض كما كانت وكأن لم يكن لتلك الإبل أثر**»[4]، وقد نسب ابن بطوطة هذه الظاهرة للشياطين بوصفها أمر خارق للعادة ال يمكن تصوره فقال: «**لا طريق يظهر بها ولا أثر، إنما هي رمال تنسفها الريح فترى جبالاً من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه**»[5].

---

(1) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ، ص.185. إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، ص.17.

(2) البكري، **المسالك...**، م.س.ذ، ج.2، ص.807.

(3) الإدريسي، **نزهة...**، م.س.ذ، ج.1، ص.121.

(4) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ، ص.155.

(5) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ، ج.4، ص.242.

4. سرعة الريح:

مثلت سرعة الريح مأزق للصحراء؛ فكثيراً ما تسببت في عدم وضوح الرؤية نتيجة للغبار والأتربة، وعدم اتضاح معالم الطريق، كما إنها اقتلعت الخيام التي حاول المسافرون تثبيتها حال التوقف عن السير، كما تتسبب الريح بتغيير معالم الطريق جملة وتفصيلاً فكانت تملأ المنخفضات، وتقتلع جذور النخل، وتدفن قرى بكاملها، وتحرك جبال من الرمل من أماكنها في بعض الأحيان[1]. وقد تعرضت رحلة التيجاني لهذا الخطر ووصف صاحبها ذلك المأزق بقوله: «**ولم يضرب في ذلك اليوم خباء لأحد من الناس (...) وأصبحنا من الغد فاشتد عصف الريح حتى أيسنا من الحياة بابتعاد واستعذنا بالله من قتلة عاد**»[2]، وقد تسببت الريح أحياناً في تغيير خريطة المسالك التجارية بشكل عام؛ فكانت سبباً في اندثار الطريق المباشر بين مصر وغانا وتحول الناس إلى طريق آخر[3]، مما يوضح مدى صعوبة تعرض القافلة لمثل تلك الظروف المناخية. وتحمل الرياح في الصحراء أسماء محلية كثيرة تختلف بحسب اختلاف الأماكن فمنها ما يعرف بـ «الشهلي»، وهي رياح جنوبية، أما الرياح الخطيرة والزوابع المثقلة بالرمال والغبار، فهي الرياح الجنوبية الشرقية، والرياح التي يسميها المصريون الخماسين؛ لأنها تستمر خمسين يوماً وهي رياح عاتية جنوبية غربية[4]. وتكمن خطورة هذه الريح أنها تتسبب في جفاف المياه كما ذكر ابن سعيد هذه المشكلة فقال: «**وربما هبت ريح جنوبية ونشفت المياه التي في القرب، فهم يعيدون المياه إليها التي في بطون الإبل ويجعلون على أفواهها الكمائم لئلا تأكل شيئاً، فإذا نشف الريح مياههم نحروها جملاً جملاً وشربوا ما في بطنها**»[5].

5. الثلوج:

لم تكن شدة الحر والعطش الأمر الوحيد الذي أرق القوافل العابرة للصحراء؛ بل من الغريب أن الثلوج كانت إحدى العقبات التي واجهت المسافرين، وكانت تعطل سير القوافل التجارية منها والعسكرية؛ فقد تسببت الثلوج في تعطيل حركة جيش

(1) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(2) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ، ص.173.

(3) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ، ج.1، ص.61.

(4) العربي، **الصحراء الكبرى...**، م.س.ذ، صص.16-17.

(5) أبو الحسن نور الدين على بن موسى ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970م، ص.113.

المنصـور الفاطمـي (334-341هـ/945-952م) التـي قادهـا للقضـاء عـلى حركـة أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد، بعـد أن توغـل المنصـور أحـد عـشر يومـاً في الطريـق المؤديـة للسـودان؛ فتعـرض جيشـة لأزمـة شـديدة كادت تهلكـه سـجلها صاحـب كتـاب أخبار ملـوك بنـي عبيـد بقولـه: «**وأصابهـم مطـر عظيـم مـن ثلـج كبـير فمنعهـم ذلك من ضرب الأخبيـة ونصـب الأبنيـة واشـتعال النـيران**»، واضطـر المنصور للعـودة تحت ضغـط الجنـود الذيـن صحبـوه في الحملـة[1]. وممـا زاد في خطورة تسـاقط الثلـوج أنها كانـت مصحوبـة بريـاح تقتل كل مـن يستنشـقها، أطلق عليها الـوزان «ريح الشـمال»، وكانـت القوافـل التي تسـير في الشـتاء بالطبع هـي الأكثر عرضـة لتلك الثلـوج، وخاصة قوافـل تجـارة التمـر التي تسـير في آخر أكتوبر؛ فقـد كان الثلـج يفاجئهم أحيانـاً ويهلك القافلـة، وربمـا اسـتمر تسـاقط الثلـوج ليومـين دون انقطـاع، وقد يسـقط الثلـج ليلاً فتصبـح القافلـة تحتـه ويتعرض جميـع من فيهـا للاختنـاق[2]. وقد توقف ابـن بطوطة عنـد تلـك الظاهـرة الغريبـة على منـاخ تلك البـلاد وقـارن بينها وبـين الثلوج التـي رأها في بخـارى وسـمرقند في المشرق، وكيـف أن الثلوج بطريـق بلاد السـودان أصعب من تلك التـي رأهـا هناك رغـم اختلاف المنـاخ[3].

6. الأمراض:

كان التجـار وغيرهـم من أفـراد القافلة يتعرضون لظـروف صحية غير تلك التـي اعتادوا عليهـا[4]، فضـلًا عـن مرورهم ببعـض المناطق التـي انتشر فيهـا الوباء، وقد سـاعد على ذلـك التقلبـات المناخيـة الكثـيرة التي تعـرض لهـا المسـافرون، حتـى إن المنـاخ يتقلب خمس أو سـت مـرات يومياً[5].

7. الحيوانات المفترسة:

يعـد وجـود الحيوانـات المفترسـة مـن أشـد الأخطـار التـي واجهـت القوافـل العابـرة للصحـراء، وممـا زاد مـن خطورة تلـك الحيوانات أن بعضهـا كان يعيـش بمواضع المياه التـي اضطـر المسـافرون لورودها[6]، واحتلـت الثعابـين المكانـة الأولى في خطورتها وذلك لانتشـارها؛ نظـراً لطبيعـة البيئـة الصحراويـة، ورغـم المبالغـات التـي أحاطـت بذكـر

(1) ابن حماد الصنهاجي، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، صص.68-69.

(2) الوزان، **وصف...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.73.

(3) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.279.

(4) تيري، **تاريخ الصحراء**، م.س.ذ.، ص.615.

(5) التجاني، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ص.90.

(6) الوزان، **وصف...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.82.

الثعابين فقيل إنها تحمي أماكن الذهب وتمنع الناس من الاقتراب منها، وربما كان الدافع وراء تلك الروايات أنهم نقلوها عن المسافرين الذين صدقوا في الغالب روايات السكان المحليين وهم بدورهم نشروا كل ما يخيف الأغراب حتى لا يقتربوا من ثروتهم الثمينة[1]، حتى وصل الأمر أنهم أشاعوا وجود حيات تقتل بمجرد النظر[2]، إلا أن ذلك لا يمنع من خطورة تلك الثعابين على عابري الصحراء؛ فقد تحدث الإدريسي عن خطورة تلك الحيات الموجودة بواحات مصر والتي تختبئ في الرمال حتى إذا مرت الجمال بجوارها قفزت في المحامل ونهشت من وجدته فمات في الحال[3]، كما تعرض أحد مرافقي ابن بطوطة للدغة خطيرة كادت تؤدى بحياته وحاول ابن بطوطة معالجته وكان ألمه شديداً حتى اضطر لقطع إصبعه[4].

ومن الغريب أن بعض ساكني الصحراء كانوا يأكلون تلك الحيات المنتشرة بموطنهم، كصحراء نسير التي تسكنها الحيات السوداء الغليظة؛ فكانوا يصيدونها ويقطعون رؤوسها ويطبخونها بالملح والماء، وهي عندهم من أطيب الأطعمة[5].

كما كانت الأرضة[6] من المشاكل التي تواجه المسافرين؛ فهي تفسد ما تجد من متاع أو غيره، ومن الأشياء الطريفة أيضاً وجود السلاحف التي ظنها المسافرون صخوراً فوضعوا أمتعتهم عليها ولما استيقظوا لم يجدوه، ووجدوا السلحفاة تحركت بمتاع جملين فعجبوا من ذلك[7].

واستكمالاً لهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر كانت بلاد السودان المقصد الرئيس لهؤلاء التجار تتميز عن غيرها بكثرة الحيوانات الخطرة شديدة الفتك؛ فكانت لدغات عقاربها مميتة[8]؛ فهي في عمومها كما وصفها أحد المصادر «**بلاد كثيرة الأسد والوحوش والدواب الهائلة العظيمة**»[9]. ولكثرة تلك المصاعب التي واجهها

(1) البكري، **المسالك...**، م.س.ذ.، ج.2، ص.847.

(2) تيري، **تاريخ الصحراء**، م.س.ذ.، ص.619.

(3) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.279.

(4) المصدر نفسه، ص.123.

(5) الإدريسي، **نزهة...**، م.س.ذ.، ج.1، ص.107.

(6) نوع من الحشرات يتغذى على الخشب وغيره من الأشياء. ابن منظور، **لسان العرب**، م.س.ذ.، ج.7، ص.113.

(7) مجهول، **الاستبصار**، م.س.ذ.، ص.223.

(8) ابن بطوطة، **الرحلة...**، م.س.ذ.، ج.4، ص.274.

(9) إسحاق بن الحسن المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، 1987، ص.103.

العابـرون للصحـراء، كـره بعض الفقهاء السـفر بغـرض التجـارة إلى بلاد السـودان[1]، ولا يمكـن تبريـر ذلـك إلا لخطـورة هـذه الرحلـة ومظنـة الهالـك للقائمين بهـا. غير أن ذلـك لـم يمنع هـذه التجارة؛ بـل كان هنـاك ولع بالتجـارة مع بـلاد السـودان؛ إذ كانت سـبباً في ثـراء البعض ممن تحمـل المخاطر مـن أجل توفير الأربـاح اعتمـاداً على اختلاف الأسـعار بـين البلديـن لأسـباب يذكر ابن خلـدون بعضهـا بقولـه: «**نجد التجـار الذين يولعـون بالدخـول إلى بـلاد السـودان أرفه النـاس وأكثرهـم أموالاً لبعـد طريقهم ومشـقته واعـتراض المفـازة الصعبـة المخطـرة بالخوف والعطـش**»[2].

ويرجـع ابـن خلدون تلك المكاسـب أيضـاً إلى ندرة السـلع لكثـرة المخاطر التـي يتعرض لهـا التجـار في طريقهـم للحصـول عليهـا فقـال: «**فـلا يرتكـب خطـر هـذا الطريق وبعـده إلا الأقـل مـن النـاس فتجـد سـلع بـلاد السـودان قليلـة لدينـا فتختـص بالغـلاء وكذلـك سـلعنا لديهم. فتعظـم بضائع التجار مـن تناقلها ويـسرع إليهم الغنـى والثـروة مـن أجـل ذلـك**». كمـا أن «**نقل السـلع مـن البلـد البعيد المسـافة أو في شـدة الخطـر في الطرقـات يكـون أكثـر فائـدة للتجار وأعظـم أرباحـاً (...) لأن السـلعة المنقولـة حينئـذ تكـون قليلة معـوزة لبعد مكانهـا أو شـدة الغرر في طريقهـا فيقـل حاملوها ويعـز وجودها وإذا قلـت وعزت غلت أثمانهـا**»[3]. ولذلك تحمـل المسـافرون هذه المشـاق مقابـل تلك المكاسـب التـي يحصلـون عليها.

8. الضرائب (المغارم):

مـن المفـترض ألا يكلـف النـاس بغير مـا أوجبـه الكتاب والسـنة من فـروض ماليـة[4]، ولكـن هـذه القاعـدة تعرضـت للاخـتراق مـن قبـل كثـير مـن الحـكام سـواء في المشرق الإسـلامي، أو المغرب، حيث سـارت السياسـة الضريبيـة في بلاد المغرب كمـا وضحها ابن خلـدون في مقدمتـه «**أن الدولـة سـواء قامت على سـنن العصبيـة أو الديـن، تكون قليلـة الضرائـب كثـيرة الجبايـة في أول عهدهـا؛ لأن الرعايـا ينشـطون في العمل،**

(1) ابن أبي زيد القيرواني أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزي المالكي، **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ج.3، ص.383.

(2) ابن خلدون، **العبر**، م.س.ذ.، ج.1، ص.497. مزاحم علاوي الشهري، «حضارة الصحراء الكبرى من خلال مصادر العصر الوسيط»، في **مجلة الواحات للبحوث والدراسات**، العدد 15، 2011، جامعة غرداية، الجزائر، صص.118-135.

(3) ابن خلدون، **العبر**، م.س.ذ.، ج.1، ص.497.

(4) أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والمغرب**، تحقيق: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي، الرباط، 1981، ج.5، ص.33.

إلى **النفقــات الناتجــة عــن ضعــف ميزانية الــدول فيكثــر الاعتمــار»**[1]، إلا أنه تحت ضغــط الحاجة وفقرها لــم يتوان الحــكام في الإجحاف في فرض المغــارم وإحداث ضرائب جديــدة[2]. وقــد مثل مــرور القوافل التجارية للدول التي تمــر عليها تلــك القوافل فرصة ســانحة لفــرض ضرائــب عــلى التجــار خاصــة؛ وبخاصة بعــد المكاســب التجاريــة التي حققهــا التجــار العابــرون للصحــراء، وانتــشر توجــه عــام يؤيد التوجــه لبلاد الســودان والتجــارة فيهــا، فقيــل: «**إن جــرب جملــك فعليــك بالقطــران وإن افتقرت فســافر إلى الســودان»**[3]، حتــى إن تلــك الثــروات التــي حققها التجــار أثارت الشــكوك في نفوس بعــض الفقهــاء فرفضوا قبــول أية أموال ممن يكتســبون مــن بلاد الســودان؛ فقد رفض القــاضي ســحنون بناء أحــد التجــار لقنطرة يعــبر عليها النــاس إلى بيته؛ لأن كســبه كان مــن بلاد الســودان[4].

ويمكــن القــول إن اســتمرارية الدول التي قامت في بــلاد المغرب كانت مرهونة بســيطرتها عــلى الطــرق التجاريــة، وكثــرة أســواقها، وبالتــالي اســتمرار حصتها مــن الجبايــة التي اعتمــدت عليهــا في تنفيــذ مشروعاتهــا الحضاريــة، ولــم يفــوت حــكام تلــك الــدول هذه الفرصــة؛ فقــد بلــغ مــا فرض عــلى تجارة سجلماســة في عــصر بني مــدار كمــا ورد عند ابــن حوقــل مــا يقــرب مــن أربعمائــة ألــف دينــار أخذوها كمــا ذكــر ابن حوقــل: «**من قوافــل خارجــة إلى بــلاد الســودان وعــشر وخــراج وقوانــين**[5] **قديمــة، ومــا يباع بهــا ويشــترى مــن إبــل وغنــم وبقــر إلى مــا يخــرج عنهــا ويدخلهــا مــن نواحي إفريقيــة وفــاس والأندلــس والســوس وأغمــات إلى غير ذلــك مما عــلى دار الضرب والســكة»**[6]. وقــد كلفــت القوافــل التجاريــة بضرائــب أخــرى غير مــا تدفعه للســلطة المركزيــة تمثلــت فيما فرضتــه القبائل كانت تســيطر على أطــراف المدن والطــرق المؤدية إلى بــلاد الســودان[7]، وقــد أكــد ابــن حوقــل أن بعــض القبائــل تعتمد بشــكل رئيس على الأمــوال المفروضــة عــلى القوافل في تســيير شــؤون حياتهم حيــث قال في معــرض حديثه

(1) ابن خلدون، **العبر**، م.س.ذ.، ج.1، ص.344.

(2) أماني محمد، **النظم المالية بالمغرب الأقصى في عصر دولة بنى مرين (668-869هـ/1269-1465م)**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة أسيوط، 2015، ص.98.

(3) عبد الرحمن محمد ميغا، **الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط.1، 1432هـ/2011م، ص.28.

(4) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعالم مذهب مالك**، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، مطبعة فضالة، المغرب، 1970، ج.4، صص.54-85.

(5) المصدر نفسه، ص.79.

(6) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، صص.99-100.

(7) ابن خلدون، **العبر**، م.س.ذ.، ج.6، ص.84.

عـن قبيلـة صنهاجة: «**ولهـم لوازم عـلى المجتازيـن عليهـم بالتجارة مـن كل جمل وحمـل ومـن الراجعين بالتبر مـن بلد السـودان وبذلك قـوام بعض شـؤونهم**»[1].

وكانـت هـذه القبائـل تأخـذ الضرائـب مقابل خدمـة الخفـارة أو تمريـر القوافـل دون أذى[2]، وهـو أمـر يؤكد مدى ضعف السـلطة المركزيـة. وكان للقبائل الهلاليـة الريادة في السـيطرة عـلى الطرق التجاريـة في الدولـة الحمادية؛ بحيث لم يكن انتشـارها عشـوائياً؛ بـل تمركـزت في مناطـق بعينهـا للتحكـم في المسـالك التجارية، مـع أن القبائـل الهلالية لـم تكـن تمـارس النشـاط التجاري في ذلـك الوقـت، ولكن لا يمكـن تصور أنهـا لم تترك القوافـل التجاريـة تمر دون اسـتغلال[3].

الخاتمة:

إن التقـدم الاقتصـادي للقارة الأفريقيـة كان ورائه علاقات تجارية مزدهـرة، كان عمادها حركـة التجـارة عـبر الصحـراء، والتي عرفـت بتجـارة القوافـل الصحراويـة، وحرصت كافـة القـوي الحاكمـة خلال فـترة البحث على الاهتمـام بهذه التجـارة وتنميتهـا، وتوفير جـو من الـمن لازدهارهـا، ورغم ذلك لـم يخل الأمـر من صعوبـات واجهـت القوافل التي عـبرت الصحـراء، أهمهـا مشـقة الطريق مع قلـة المـاء، ووجـود اللصـوص والحيوانات المفترسـة، وخطـر الرمـال المتحركة، ورغـم الصعوبـات التي واجهـت العابـرون للطرق الصحراويـة لـم يمنـع ذلـك المسـافرين مـن التجـار والعلمـاء المسـلمين مـن اخـتراق الصحـراء والتجـول داخل أنحـاء العالم الإسـلامي.

---

(1) ابن حوقل، **صورة الأرض**، م.س.ذ.، ص.102.

(2) احسن بولعسل، الضرائب في المغرب الإسلامي منذ عهد الولاة حتى سقوط الموحدين 96-668هـ/715-1269م، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص.59.

(3) فوزية كرراز، **الموارد المالية...**، م.س.ذ.، ص.93.

اقتصاد أفريقيا ودينامية التحول
خلال القرن التاسع عشر الميلادي

دة. بهيجة الشاذلي[1]

د. فيصل المعروفي[2]

المقدمة:

شكل القرن 19م مرحلة ذات أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الأفريقي؛ إذ عكس بداية تسجيل تحولات كبرى على جميع المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويعتبر المجال الاقتصادي من أكثر المجالات الحيوية التي تأثرت بأفريقيا إما خلال الاحتلال الأوروبي للمنطقة أو أثناء ممارستها لضغوط تخدم مصالحها بالمجال، خصوصا بعد أن أقام الفرنسيون على وجه التحديد المراكز في هذا المجال الشاسع واستغلوا إلى الحد الأقصى الممكن الموارد الطبيعية والبشرية التي يزخر بها، وفرضوا إثر ذلك مشروعهم الكولونيالي المرتكز على إعادة تنظيم وتدبير وتأهيل البنية الاقتصادية المتداعية بأفريقيا.

أصدرت الإدارة الفرنسية قوانين تنظيمية جديدة وأسست لانطلاق مشاريع كبيرة بما يمكنها من امتلاك مفاتيح الاقتصاد الأفريقي وبالأخص منها الجانب التجاري النشط؛ بحيث قام بتسيير هذه العملية أساسا رجال السياسة والجيش ومواطنيهم المهاجرين من تجار وأصحاب رؤوس الأموال إلى جانب فئة العاطلين والبؤساء والأكثر هشاشة في المجتمع الأوروبي، ومن ذوي السوابق الباحثين على فرص جديدة وظروف أفضل للعيش(1)، أدى هذا المتغير إلى إحداث تحولات جذرية مست نظم الهيكلة الاقتصادية الأفريقية وخلخلت دواليبها بشكل كلي «**طالما أنها ضعيفة تملك ما لا تملكه دول أوروبا القوية التي تطمح إليه وتريد الاستيلاء عليه**»(2)، بالنظر إلى ما تزخر به من ثروات طبيعية مذهلة.

كان يلعب المغرب في هذه الفترة الزمنية دورا رئيسيا في الوساطة التجارية بين أفريقيا الغربية وأوروبا؛ بحيث شكل سوقا تجاريا مهما في استقطاب وتوزيع بضائع القطبين (الأفريقي الغربي والأوروبي) في الاتجاهين، فأصبح بموجبه مركزا أساسيا

(1) عمر أفا، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر**، دار الأمان، الرباط، ط.1، 2006، ص.24.

(2) رياض زاهر، **استعمار إفريقية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص.5.

للتجارة الأفريقية كلها. وقد ساهم هذا الدور الريادي للمغرب كما ساهمت مجموعة من التحولات العالمية الأخرى في إحداث متغيرات مؤثرة لا تقل أهمية، تأثر المجال على إثرها وكانت لها نتائج مباشرة على القارة الأفريقية ونظمها القائمة منذ أمد بعيد.

كان النظام الاقتصادي بالمغرب يعتمد في هذه المرحلة شأنه شأن نظيره الأفريقي، وبشكل رئيسي على الزراعة والتجارة المتبادلة مع الجوار، وهو النظام الذي شهد مجموعة من الإصلاحات التأهيلية لتطوير قدراته حسب ما فرضته الإملاءات الغربية بما يخدم أهدافها بكل من المغرب ومنطقة الغرب الأفريقي عموما، هذه الأخيرة التي كانت تعيش فعليا خلال القرن 19م تحت وطأة الاحتلال الفرنسي المباشر؛ بحيث ظهر تأثير هذا الاحتلال تدريجيا وأدى إلى بداية تحقيق قطيعة بالعلاقات التجارية المباشرة بينها وبين المغرب.

عرفت الروابط التجارية على سبيل المثال بين المغرب وتنبكت كمركز تجاري عالمي تراجعا كبيرا بعد أن تعرض هذا الأخير للاحتلال الفرنسي[1]؛ وهو الذي شكل عبر الزمن دعامة رئيسية في محور العلاقات المغربية-الأفريقية؛ إذ كان يشكل المغرب الزبون الأول لهذا المركز منذ قرون طويلة.

وبما أن الاقتصاد المغربي و لإفريقي الغربي قد تقاسما خلال هذه المرحلة إلى حد كبير كل من الخصائص والسمات المحيطة نفسها؛ من حيث الشكل والتنظيم والعوامل المؤثرة معتمدان على الزراعة والتجارة أساسا؛ فقد اعتمدت الزراعة على الحبوب بشكل رئيسي كالكاكاو والقطن والفول السوداني...، أما التجارة؛ فقد انقسمت إلى تجارة داخلية وهي الممارسة داخل نطاق جغرافي بري محدود، وخارجية منقسمة إلى صحراوية أو برية ثم بحرية في مراحل لاحقة، ضمت هذه الأخيرة بدورها المنتوجات الزراعية إضافة إلى الذهب والرخام والصوف والنسيج والأسلحة والمواد المصنعة وغيرها، بعد أن تركز الاهتمام على التجارة الخارجية عبر الطريق البحري انطلاقا من الموانئ الأطلسية لنقل مختلف البضائع والثروات الأفريقية إلى أوروبا.

كانت التجارة البرية بأفريقيا قبل التدخل الأجنبي مزدهرة ونشيطة و«**بدخول المغتصب الأوروبي للقارة هبط ذلك النشاط التجاري الداخلي والخارجي ثم توقف تماما وعندما سيطر المغتصب على القارة كلها واقتسم الغنائم وأصبحت أفريقية مقسمة زال كل أثر للتجارة الداخلية**»[2].

---

(1) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894**، الرباط، 1984، ج.1، ص.298.

(2) جمال عبد الهادي ومحمد وفاء، **إفريقيا يراد لها أن تموت جوعا**، الوفاء للطباعة والنشر، د.ت.ط.، ص.91.

مـن جهة أخرى تـضرر الاقتصـاد المغربي بشـكل كبير بعـد أن تدخلت الـدول الأوروبية في شـؤونه الخاصـة، حينمـا سـارعت إلى تحريره بشـكل كلي مـن الرقابة السـلطانية أو مـا أطلـق عليـه في الكتابـات الكولونياليـة بالهيمنـة السـلطانية، وحاولـت رغم سـماته التقليدية والبسـيطة ربطـه بالاقتصاد الأوروبي الأكثـر تطورا وإنتاجيـة وتدبيرا وحداثة.

نـادت خـلال هـذه المرحلـة الـدول الأوروبيـة المخـزن المغربـي إلى تطبيـق مجموعة من الإصلاحـات الاقتصاديـة عن طريـق مبعوثيها بطنجة، في هـذا الإطار ولإنجـاح مشروعها الرامـي إلى دمـج الاقتصاديـن المحـلي المغربـي مـع المسـتورد الأوروبي، أصـدرت قوانين تنظيميـة جديـدة تعمـل عـلى تكييـف المجتمـع المغربـي وترويضه مـن أجل تقبـل هذا النظـام الرأسـمالي الجديـد والانخـراط فيـه[1]، في الوقـت الذي كانـت تقوم فيـه بتطبيق مبـادرات إصلاحيـة جاهـزة بأفريقيـا الغربيـة لإدخـال المجـال الأفريقـي ككل بجميـع مكوناتـه دوامـة النظـام الرأسـمالي. لقـد عانى نتيجـة لذلك وبشـكل أكثر حـدة اقتصاد أفريقيـا الغربية، الذي كان يشـهد ضعـف الأداء والإنتاجيـة والبنية من هـذا الإجراء الذي ربطه مبـاشرة باقتصـاد السـوق العالمي.

لتبسـيط الإطار المفاهيمي لهذه الدراسـة اسـتخدمت مفهـوم أفريقيا الغربيـة للدلالة على المجـال الأفريقـي للسـودان الغربي الذي يضم السـنغال إلى مـالي، أما أفريقيـا؛ فالمقصود منها السـنغال ومـالي والمغرب.

أشـير على أنـه من خـلال تناول مختلـف محاور هـذا الموضوع لـن أتطـرق إلى مصطلح الاقتصـاد بمفهومـه العلمـي وحمولتـه الفكريـة، ولـن أدخل جـدل الكتابـات والكتابات المضـادة حول إشـكال مـا إذا كانت أفريقيـا تتوفر عـلى اقتصاد فعلا خـلال القرن 19م، أم أنهـا كانـت تتوفر على مجرد أنشـطة أو قطاعات فقـط، أما توظيـف مصطلح اقتصاد في هـذه الدراسـة؛ فهـو توظيـف إجرائي للدلالـة على ما هـو فلاحي وتجـاري وصناعي.

فمـا هـي إذن خصائـص النظـام الاقتصـادي بأفريقيا خلال القـرن التاسـع عشر؟ وهل يمكـن اعتبار المغـرب وأفريقيا الغربية مـن المجالات التي حضت ببعـض الفرص لتحقيق نمـو اقتصـادي ملحـوظ مع ما يسـتلزمه مـن تنميـة موازية خـلال نفس القـرن؟ وهل حققـت أفريقيـا طفـرة اقتصادية مكنتها مـن الانتقال مـن نظامها التقليدي البسـيط إلى نظـام أكثـر حداثـة؟ ثم ما هـي رهانـات وآفاق هـذا الانتقال وانعكاسـاته عـلى المجتمع الأفريقي؟

---

(1) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.3، 2012، ص.563.

أولاً: النظام الاقتصادي المغربي وضعف الأداء:

قام الاقتصاد المغربي أساسا على الزراعة وهو اقتصاد نمطي تقليدي استهلاكي بسيط، لا يختلف الوضع الاقتصادي خلال القرن التاسع عشر كثيرا عن غيره من الأوضاع الأخرى؛ فالاقتصاد ظل يتميز بالهشاشة والضعف والآنية، ولم يشهد نموا ولا حركية فعلية إلا مع توقيع معاهدة الحماية عند بداية القرن العشرين.

ارتبطت الساكنة القروية فيما بينها بروابط بسيطة جامدة متوارثة منذ القديم[1]؛ بمعزل عن الحواضر أو المدن، أجمعت الكتابات الاستعمارية وبعض الكتابات الأخرى على أنه لم تنشأ أي روابط مشتركة للانفتاح والتبادل والتطوير بين المدن والبوادي[2].

تأرجح الاقتصاد بين فترات رخاء وفترات شدة ارتبطت في مجملها بالمحصول الزراعي، حيث عمد المخزن إلى تصدير فائض الإنتاج الزراعي عندما يكون محصول السنة جيدا، ويلجأ إلى الاستيراد من الخارج عندما يكون المحصول ضعيفا لتوفير متطلبات الاستهلاك الداخلي.

ساد بالمغرب نمط المنتوج الواحد كنمط للإنتاج الزراعي مما يؤدي حتما إلى إنهاك الأرض وربط الاقتصاد ككل بنمط زراعي واحد بما يتضمنه من مخاطر[3]، كما يعتمد على أساليب وتقنيات تتسم بكونها تقليدية، أما المزروعات فمرتبطة في معظمها بالبورية ومتأثرة بكمية التساقطات وانعدامها.

بعد أن تدخلت الدول الأوروبية في شؤون التسيير المحلي للمغرب بدعوى تطبيق الإصلاحات، تضرر بشكل كبير اقتصاد المغرب الهش أصلا بعد انفتاحه على النظام العالمي وتحرير سوقه المحلي بشكل كامل؛ الذي كان ينشط في ظل التقليدانية والبساطة، انتقد الأوروبيون آنذاك هذا النظام ودعوا إلى تحريره من الهيمنة والاحتكار السلطاني، لذلك رغم الإصلاحات التي قام بها السلطان محمد بن عبد الرحمان مثلا بعد منتصف القرن التاسع عشر؛ التي شملت تحسين البنية التحتية وتطوير الصناعات المحلية وكذا التجارة التي مكنت من تحسين المردودية الاقتصادية، إلا أن احتفاظ الاقتصاد المحلي بسماته التقليدية و البسيطة ثم ربطه بالاقتصاد الأوروبي

(1) Jacques Jouannet, **l’Evolution de la fiscalité marocaine depuis l’instauration du protectorat, librairie générale de droit et de jurisprudence**, paris, 1953, tome III, p.146.

(2) أشار محمد المنصور في كتابه (المغرب قبل الاستعمار) من خلال مجموعة من الكتابات على أن العلاقة بين المدن والبوادي لم تنقطع أبدا رغم فترات السيبة بل ظل الارتباط قائما مبني على المصالح المشتركة فيما بينهما.

(3) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار: ضريبة الترتيب 1880-1915**، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ط.1، 2011، ص. 29.

الأكثـر تطـورا وإنتاجـا وتنظيمـا وتدبـيرا وحداثـة، أدى إلى محدوديـة النتائـج بعـد أن ارتبـط السـوق المحلي مبـاشرة بالسـوق الأوروبي.

في هـذا الإطـار، وبعـد دمـج الاقتصاديـن معـا أي الاقتصـاد المحـلي بنظامـه ومقوماته البسـيطة مع المسـتورد بنظامـه ومقوماتـه الحديثة والمتطـورة، أرغمت الـدول الأوروبية المجتمـع المغربـي على التكيـف مع هـذا النظام الرأسـمالي المسـتحدث والانخـراط ضمن منظومتـه[1]، ليتـم إدخـال المغـرب بجميـع مكوناته دوامـة النظـام الرأسـمالي الجديد، لذلـك «**شـهد مغـرب القـرن التاسـع عشر تعايشـا نسـبيا بـين واقعـين، انفتاح حقيقـي عـلى العالم الخارجـي و عزلة فكريـة لا مراء فيهـا**»[2]، الأمر الذي ترسـخ أكثـر مـع الحماية وبقـوة حيث «**تشـكلت بنية اقتصاديـة جديدة بالمغـرب إلى جانب الأصليـة بعـد القدوم المكثـف للأوروبيين، فتم تكييـف الأولى المسـتقرة والمتقادمة وغـير النشـيطة والتـي لـم تظهـر أيـا من ملامـح الانتقـال الـذي عرفتـه بعض الـدول الغربيـة في العـصر الوسـيط مـع الثانـي المنظـم الـذي يمتـاز بالتجديد و التحديث**[3]».

أضحـى المخـزن نتيجـة لهـذه العوامـل، يعانـي أزمـة ماليـة خانقـة؛ بحيـث «**صارت الحكومـة الشريفـة بعد منتصـف القرن 19 تعاني مـن مصاعب ماليـة مزمنة... أخـل انفتاح السـوق المغربية بمـا كان من توازن هـش بين المداخيـل والمصاريف. أصبـح النظـام المـالي التقليـدي الذي بقـي على مـا كان عليـه يوفر مع مـر الأيام مـوارد غـير كافية لما جد من حاجـات الخزينـة**»[4].

تفاقـم الوضـع مـع انعـكاس التـسرب الاقتصـادي الأوروبـي النقـدي والتجـاري أكثـر فأكثـر، لـم تتوقـف الأزمـة عـلى المخـزن والمصالـح المرتبطة بـه فقـط؛ بـل تجاوزته إلى المجتمـع المغربـي الذي شـهد نتيجـة لذلـك ديناميـة نوعيـة؛ إذ أصيبت بنيتـه بالانحلال وتفككـت أوصالـه تفـككا كبـيرا إن عـلى مسـتوى المدينـة أو القريـة أو القبيلـة على حد سـواء بوثـيرة وإن كانـت بطيئـة إلا أنهـا أخذت طابـع الاسـتمرارية[5].

(1) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، م.س.ذ.، ص. 563.

(2) عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912**، تعريب: محمد حاتمي ومحمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2016، ص.312.

(3) Jouannet, **l'Evolution...**, op.cit., p.161.

(4) بيير كيلين، **الاقتراضات المغربية 1902-1904**، تعريب: المصطفى برنوسي، مراجعة: إبراهيم بوطالب، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط.1، 2007، ص.5.

(5) بوشعراء، **الاستيطان...**، م.س.ذ.، ص.308.

تشكلت بالمقابل نتيجة لهذه الحركية الاجتماعية بالمغرب تبعية قوية لصالح الغرب؛ فارتبطت مصالح شريحة مغربية واسعة بالمصالح الأوروبية وأصبحت تابعة لها على المستوى الفكري والعقدي والسياسي و الاقتصادي والاجتماعي والعسكري والثقافي[1]، أنشأ الفرنسيون من جهة أخرى خصوصا بعد هزيمة إيسلي 1844م علاقات تجارية متينة مع القبائل الثائرة، حيث ربطت مصالحهم الاقتصادية شيئا فشيئا بمصالحها الخاصة بعد أن اقتنع الفرنسيون خلال هذه المرحلة بضرورة نهج أسلوب التسرب الهادئ، بمعنى الانتقال المنظم من التدخل العسكري إلى التسرب النفسي والثقافي والفكري[2].

ساهم تراكم هذه الضغوط الاقتصادية القوية التي تعرض لها المغرب في تفاقم الوضع بشكل خطير والنتيجة: أن المخزن المغربي وجد نفسه مرغما على توقيع مجموعة من الاتفاقيات غير المتكافئة مع الدول الأوروبية؛ التي فتحت أبوابه على مصراعيها أمام أطماع القوى الخارجية مع زحف الفكر التوسعي الأوربي بأفريقيا.

لعل المعاهدة التجارية التي وقعها المغرب مع إنجلترا سنة 1856م لخير دليل على هذه المرحلة التي اضطر خلالها المخزن مرغما على فتح أسواقه بالكامل أمام الأوروبيين؛ فأفقدته سيادته على اقتصاده التجاري بعد أن كان محميا.

أثناء ذلك، وعند العشرية الأخيرة من القرن وبالضبط ما بين: 1893-1897، اشتد اختلال الميزان التجاري المغربي ليسجل عجزا بلغ 60 مليون فرنك كمحصلة لتراكمات عديدة يمكن تلخيصها فيما يلي[3]:

- فقدان المغرب تسعة أعشار قيمة عملته الحقيقية (9/10)؛
- انهيار العملة بسبب الأزمات الاقتصادية المتعاقبة؛
- تعدد العملات بدل اعتماد عملة موحدة واحدة مع انتشار تداول العملات المزورة؛
- انخفاض الصادرات بشكل كبير وارتفاع الواردات بشكل قياسي، كالمنتجات الغذائية مثلا لتفادي المجاعات خلال السنوات الفلاحية الصعبة؛

---

(1) وفاء، **إفريقيا...**، م.س.ذ.، ص.9.

(2) Eugène Simoneau, «Annales Africaines», In **Le Maroc sur la Sallette**, N° 19, Alger, 1933, p.340.

(3) كيلين، **الاقتراضات المغربية...**، م.س.ذ.، ص.13.

- انخفاض قيمة الصادرات المالية وارتفاع قيمة الواردات؛
- تداعيات هزيمتا حرب إيسلي وتطوان وتبعات الغرامات المدفوعة لإسبانيا على الخزينة المخزنية؛
- توقف القبائل عن دفع ما بذمتها من جبايات مخزنية مستحقة لصعوبة ظروفها المعيشية وتمردها ضد سلطة المخزن.

في ظل هذه الظروف الصعبة والضغوط التي عرفها المغرب بين الرغبة في الحفاظ على مقوماته الأساسية وركائز التدبير المحلية وتحديث المنظومة المتقادمة مع القدرة على استيعاب ضغوطات الإصلاح الأوروبية والحفاظ على استقلالية القرارات الداخلية للمخزن من جهة، ونهجه لسياسة أكثر حياد اتجاه الدول الأوروبية؛ إذ لعب على أوتار التوازنات الدولية حسب الظروف ليدفع أو يؤخر مصير جيرانه المحتوم في الاحتلال من جهة أخرى، لم يكن اقتصاد أفريقيا الغربية في القرن 19م أفضل حال من اقتصاد المغرب؛ فقد كان يخضع في هذه المرحلة فعليا لقبضة الاستعمار الأجنبي، حيث تحكمت فرنسا في مفاتيحه المحلية وأخضعته لها بما يرضي طموحها في توفير احتياجاتها الداخلية، لذلك كان أداؤه ضعيفا لم يتجاوز سقف توفير حاجات الفرنسيين ولم ينعكس إيجابا على الوضع الداخلي.

ثانياً: أفريقيا الغربية ومقومات الاقتصاد:

كان النظام الزراعي السائد بأفريقيا الغربية في القرن 19م نظاما زراعيا قديما معاشيا يعتمد على الأمطار الموسمية، ويقوم على الأسرة كوحدة للإنتاج، تنتج هذه الأسر ما تستهلكه من مواد غذائية خلال السنة الواحدة، أما الفائض إذا ما توفر؛ فيخزن منه ما يبقى صالحا للاستهلاك خلال الموسم المقبل أو تحسبا لأي طارئ مستقبلي، فيما يتم نقل ما سيفسد منه ولا يتحمل التخزين إلى الأسواق المحلية القريبة أو ما يطلق عليه بأسواق القرب، قصد الاتجار فيه مع ما تنتجه أياديهم من الحرف اليدوية البسيطة المعتادة لتحافظ على مستوى معيشي معين يضمن لها الاستقرار(1).

شكلت كل من الإمبراطورية الغانية والمالية في مراحل سابقة عن القرن 19م استثناء أفريقيا، نتيجة للغنى الذي حققته من خلال مبادلاتهما التجارية الصحراوية مع الحوض المتوسطي؛ الذي كان يضم مراكزا بحرية أوربية خاصة بالتجارة، شكل كل

(1) كانت المواد التي تعرض في أسواق القرب تختلف حسب ما تنتجه كل قرية أو تختلف من حيث الجودة إذا كانت مماثلة أو من حيث شكلها أو ألوانها.

من الذهب والعبيد مصدر الثروة التي تحققت، لذلك «**نظرت فرنسا إلى السودان على أنه ممون مهم و كبير من حاجياتها اللازمة من المنتجات الزراعية والمواد الأولية الخاصة بالأراضي الاستوائية؛ التي طالما بحثت عنها فرنسا ما وراء المحيطات البعيدة، في المقابل سيستوعب جميع المواد المصنعة من نسيج ومعادن التي سترسلها إليه**»[1].

بعد احتلال القوى الاستعمارية لأفريقيا واستقرارها بأهم المراكز التجارية المعروفة بها، ضعفت التجارة بالمجال خصوصا العابرة للصحراء بعد أن تم تكييفها مع متطلبات الاقتصاديات الغربية في إطار ما سمي بتوجيه نظام المبادلات بين الدول المستعمِرة ومستعمراتها الأفريقية، منح نظام المبادلات للدول المستعمِرة أيضا الحق في: فرض لغتها الرسمية وقوانينها وتعليمها على المستعمرات، واستقبال أفواج الطلبة الأفارقة المتفوقين لاستكمال دراساتهم العليا، وتجنيد الأفارقة وتأهيلهم للقتال في الصفوف الأمامية أثناء الحروب.

عند استقرار الفرنسيين بالسنغال ووديان الجنوب، كانت كل العائلات السنغالية تتوفر على مشتل خاص بها لزراعة القطن مساحته من 50 إلى 300 قدم، خاص للاحتياجات الشخصية السنوية كما يصنع منه المهاجرين المتنقلين سنويا قطعا صغيرة من الأقمشة، بلغت المساحة المزروعة في المجمل حسب إحصاء الثامن من ديسمبر 1825 ما مجموعه 4 573 000 قدم، تناقصت تدريجيا هذه المزارع مع دخول النسيج الأوربي والخيوط الجاهزة المصبوغة للسوق السنغالية[2].

اهتم الفرنسيون بسان لوي كمركز اقتصادي مهم بالمنطقة؛ فأنشئوا ميناءه البحري وحولوا وجهة التجارة الصحراوية إليه كمنفذ بحري رئيسي لمختلف البضائع الواردة عليه باتجاه أوروبا، وبوابة لدخول البضائع الأوروبية منه نحو أفريقيا، لذلك قاموا بتطوير بنياته التحتية من طرق وربط سككي وغيرها فأصبح مركز اهتمام التجار التقليديين والوافدين الجدد.

اكتسبت مدينة سان لوي بسبب هذه المتغيرات شهرته كمركز تجاري كبير بشكل سريع، اشتهرت المراكز التجارية المغربية بسان لوي بكونها الأكثر تنظيما ودقة،

(1) Adolphe Duponchel, **Le chemin de Fer de l'Afrique Central**, Imprimerie Typographique de A. Pougin, Paris, 1877, p.11.

(2) J, Brenier, «La Culture du Coton Dans Les Colonies Françaises», In **Bulletin Association Cotonnière Coloniale**, N° 2, Imprimerie Typographique Jean Gainche, Paris, 1903, pp.11-12.

يتميز أصحابها بخلق عال وحسن المعاملة؛ إذ تم تشبيه هذه المتاجر بنظيرتها الأوروبية الحديثة والمتطورة.

يشير ليوبولد بانيل «Leopold Panel» على أنه تعرف سنة 1850م إلى أحد التجار المغاربة يدعى «الحاج عبد السلام» المنحدر من مدينة فاس[1]، هاجر قبلها إلى سان لوي بسنتين أو ثلاث سنوات[2]، ارتفع العدد تدريجيا ليبلغ 112 يشتغلون بأمور التجارة ككل عند نهاية القرن 19 وبداية 20 وبالضبط سنة 1905، منهم من يحترف التجارة بشكل مباشر ومنهم من يقوم بتسيير أمورها الإدارية والإشراف العام عليها.

اشتهرت مدينة دكار السنغالية كذلك بدورها التجاري؛ بحيث كانت تستقطب الحصة الأكبر من الإنتاج الصناعي المغربي خصوصا من البلاغي والزرابي.

شكلت تنبكت مستودعا كبيرا للمواد الجلدية المدبوغة القادمة من المغرب، على الرغم من أنها مدينة غير منتجة أو صناعية تجلب أجود أنواع الجلود والأحذية من فاس[3]، كما كانت تجلب القبعات المصنوعة من القش ومصنوعات الطوارق الفخارية والأحذية الجلدية ثم البنادق القادمة من المغرب.

نافست صناعة النسيج الإنجليزية مثيلتها القادمة من النيجر إلى مدينة تنبكت؛ بل عوضتها واحتلت مكانتها[4]، يشتغل سكان تنبكت بأنشطة حرفية كالحدادة والنجارة والإسكافية والحياكة والبناء، أما النسيج فلا يشتغلون به؛ لأنه من اختصاص العرب الذين ينسجون الزرابي كالتي تنسج بفاس[5].

كانت القوافل الوافدة عبر الطريق الصحراوي تنقل من المغرب إلى تنبكت الكثير

---

(1) ليوبولد بانيل: من مواليد 1819، أحد الرحالة والمستكشفين الأفارقة من أصل سينغالي، كلف من طرف وزارة البحرية سنة 1849م بمهمة خاصة تهدف الربط بين السنغال والمغرب عبر موريتانيا في ظرف خاص جاء بعد إلغاء العبودية من طرف الفرنسيين، لذلك أحيطت هذه المهمة برمزية خاصة، توفي سنة 1859م.

(2) محمد تلوزت بن علا، «الامتداد التجاري لفاس في إفريقيا الغربية زمن فرض الحماية، من تاريخ العمق الإفريقي للمغرب»، في **مجلة أمل**، العدد 49، 2017، ص.75، نقلا عن:

L. Panel, Relation d’un voyage du Sénégal a Souera en 1950, Ed. Le livre africain, Paris, – 1968, CF, Tamouh Z. **le Maroc et le soudan au XIX s**. Thèses de doctorat. Univ. Paris I, Paris, .P 51. Inédit

(3) جيمس كراي جاكسون، **من فاس إلى تمبكتو**، ترجمة: محمد عبد الغني، إرث للنشر والترجمة، 2020، ص.40.

(4) Henri Bissuei, **Sahara Français Conférence sur les Questions Sahariennes Faite les 21 et 31 Mars 1891**, Imprimeur-Libraire de l’Académie, Alger, 1891, p.102.

(5) جاكسون، **من فاس...**، م.س.ذ.، ص.39.

مـن التمـور والصناعـة التقليديـة، وصناعـة النسـيج والدباغة والشـمع والصابـون، ثم البضائـع الأوروبيـة القادمة من الموانـئ المغربية كالأسـلحة النارية، والسـكاكين المصنعة بأنواعهـا، والصناعة الحديديـة مثـل الأدوات والعقاقير وصناعة الزجـاج والمرجان والتبغ والورق...

أمـا الطريـق المائـي؛ فـكان يحمـل إليهـا عـبر القـوارب مؤونـة المسـتلزمات الغذائيـة، كالقمـح، والأرز، والـذرة، والزبـدة النباتيـة، والفلفـل، والبصـل، والسـمك، والمكـسرات، وتمـور الواحـات الصحراويـة، والتوابـل، إضافـة إلى الحمـام، والدجاج، ولحـوم الأغنام والماعـز، كمـا كانت تسـتقدم بذور الكـولا والشـاي والقهوة من سـواحل السـيراليون(1). أمـا أراضيهـا؛ فلـم تكـن صالحـة للزراعة.

في مقابل ما تسـتورده مـن بضائع كانت تصدر مسـحوق الذهب أو التـبر والعاج، وريش النعـام، وزيـت النخيل، والصمغ أو العلـك، والمطاط، والقطن، والصـوف، والنيلة، والملح.

فيمـا شـكلت تنبكـت محـور التجـارة وأساسـها منـد عهـد بعيـد قصدها تجار شـمال أفريقيـا بأكملـه، شـكل المغـرب اسـتثناء لكونـه المتاجـر الأول لهـذا المركز.

عـلى العموم، ورغـم الظروف الصعبة التـي عانتها التجارة الصحراويـة المغربية الأفريقية مـا بـين القرنـين 19 و20م، ظلـت تعـرف اسـتمرارية نوعية مكنتهـا من تحقيـق أرقام معامـلات وأرباح مهمة حسـب بعض الشـهادات المدونـة في الكتابات وهـي كالتالي(2):

-كتـب «G. Lempriere» في مؤلفـه «Voyage dans l'Empire du Maroc et le Royaume de Fez» مـا يـلي: «**اعتمـادا عـلى ملاحظـات مجموعـة مـن متتبعـي التجـارة منـذ عشرين عاما فـإن القوافـل المغربية المتجهة نحو السـودان سـنويا تحمـل معهـا بضائـع بقيمـة مليـون مثقال**».

- أمـا «Graberg di Hemso» قنصـل السـويد وسردينيـا؛ فقد قدر الصـادرات المغربية إلى السـودان بمليـون Thalers(3)، أمـا الـواردات القادمـة من بـلاد السـودان؛ فتبلغ 12 مليون Thalers.

(1) Bissuei, **Sahara Français...**, op.cit., p.102-.

(2) Michel Abitbol, «Le Maroc et le Commerce Transsaharien du XVII^{e} au début du XIX^{e} siècle», In **Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée**, N°.30, 1980, p.15.

(3) عملة نقدية قديمة من الفضة ظهرت عند بداية القرن 16م، وظل تداولها كعملة مدة 400 سنة، تم تداولها أولا بأوروبا ثم ببقية العالم.

- فيما أشار «L. GODARD» إلى أن قيمة البضائع التي يحملها التجار المغاربة إلى السودان تبلغ ثلاثة أو أربعة ملايين فرنك، وأن أرباح القوافل تبلغ نسبة 400%، خلال أواسط القرن 19م.

ثالثاً: الاقتصاد وعوامل الأزمة:

شكلت التجارة الصحراوية المغربية الأفريقية باعتبارها جزء لا يتجزأ من الروابط التاريخية بين القطرين إلى مراحل متأخرة من القرن 19م وبداية القرن 20م، شريان الحياة الرابط بين المنطقتين؛ بحيث عرفت ازدهارا كبيرا دام قرونا طويلة من الزمن استطاعت تحدي العوائق الطبيعية والبشرية، قبل أن تعصف بها رياح التغيير الغربية ويكون لها الوقع في إضعاف هذه المعاملات تدريجيا؛ بل وإنهائها بشكل شبه تام، في الوقت الذي ظلت تعاني منه شكلا ومضمونا من الطابع التقليدي الذي لازمها رغم المكانة التي كانت تحظى بها.

خلال هذه المرحلة، سجلت التجارة البحرية نموا تصاعديا على العكس من التجارة البرية التي لم يعد بمقدورها تجاوز العقبات التي ساهمت في تراجعها، إما بسبب الإجراءات الفرنسية المفروضة في المجال أو لحفاظها على النمطية التقليدية التي ألفتها منذ قرون طويلة، كتغيير مساراتها إلى مسارات جديدة، والحد من التنقل البشري في المجال، وتشجيع الاستقرار، وتحويل وجهاتها إلى الموانئ البحرية، وعامل الأمن الذي أثر بشكل مباشر عليها، وعدم القدرة على تحميل البضائع ذات الأحجام الضخمة، وطول المدة الزمنية الخاصة بالرحلة، وتلاشي الطلب على ريش النعام خلال الربع الأخير من القرن 19م، ومسألة العرض والطلب، وغيرها من الأسباب الأخرى.

مع تنامي التجارة البحرية الأفريقية، تراجعت تجارة القوافل الصحراوية؛ التي لم تعد تتجاوز سنة 1875م نسبة 5/1 (الخمس) من قيمة تجارة أفريقيا مع أوروبا[1]، على الرغم من أنها حققت نموا ملحوظا ابتداء من 1850م إلى حدود سنة 1875م.

شكل الأفارقة يدا عاملة محلية رخيصة ومنتجة بامتياز في آن واحد، خصوصا العاملة في الأعمال الزراعية والمنجمية والبناء و غيرها من الأعمال الشاقة، و بما أن الشغل يعتبر عاملا أساسيا لتحقيق الاستقرار والإدماج الاجتماعي[2]، استغل الأوروبيون هذا

(1) أ، ج، هوبكنز، **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، الهيئة العامة لشؤون المطابع، 1998، ص.264.

(2) Saadia Agouray, «Déplacement et Transport Dans les Périphéries de Casablanca», In **L'aménagement des marges urbaines de Casablanca**, Université Hassan II Ain Chok, FLSH

المعطى؛ فضمنوا توفر يدا عاملة قوية وغير مكلفة تشغل مراكز الخصاص في جميع الميادين الإنتاجية، سواء المستقرة منها أو المهاجرة إلى مراكز العمل الجديدة، كما شكلت شريحة مستهلكة قوية ساعدت على تحريك عجلة الاستهلاك الداخلي و تدوير الحركية الاقتصادية بامتياز، في الوقت الذي فرضت فيه فرنسا على الساكنة الأصلية كمستعمر ضرائب عالية ورسوم جديدة زادت من تدهور حالتهم المعيشية وإنهاك مواردهم البشرية أدت إلى تفكك بالبنية الاجتماعية، إضافة إلى الاستغلال المفرط للثروات الأفريقية مما ساهم في إضعاف الاقتصاد الأفريقي وانهيار مقوماته.

أدت عملية النهب والتهريب المنظمة التي نهجها الأوروبيون للموارد الطبيعية الأفريقية كالذهب والألماس وباقي المعادن النفيسة الأخرى، ثم بيعها في السوق السوداء وغيرها بطرق مختلفة، إلى إغراق الأسواق العالمية بهذه المواد؛ إذ عرف ثمنها تراجعا كبيرا في السوق العالمي، كما أدت الأزمات الاقتصادية الأوروبية المتعاقبة بدورها إلى تقليص الطلب على المنتجات الأفريقية والنتيجة كانت: تراجع المداخيل وضعف التدبير المالي بالمستعمرات الأفريقية.

بما أن التوجه الكولونيالي العام آنذاك كان ينبني على إجبار المستعمرات على تصدير المواد الخام واستيراد المواد المصنعة، حسب ما تفرضه سياسة السوق العالمي والتجارة الدولية غير العادلة، افتقر التدبير العام إلى رؤية متقدمة لتطوير صناعات محلية متقدمة ترتكز على تصنيع حقيقي للموارد الأفريقية المستخرجة من أراضيها، كما افتقرت إلى التقنية المتطورة، وغالبًا ما كانت تعتمد على يد عاملة رخيصة غير مؤهلة، لذلك كان الأداء الصناعي تقليديا وضعيفا وأقل فاعلية وتنافسية من حيث الثمن والجودة.

شكل القرن الميلادي التاسع عشر من ناحية أخرى استثناء ذو أهمية خاصة يتعلق بتغير نوعية البضائع الأفريقية ونتائجه على الاقتصاد كبنية شاملة؛ إذ تعرضت تجارة التصدير الأفريقية لتعديلات جديدة تهم حمولتها[1]، ظهر خلالها مفهوم التجارة «غير المشروعة»، وهو مفهوم يتعلق أساسا بتجارة الرقيق، فالتجارة غير المشروعة تضم بضائعها المصدرة عنصر العبيد أو الرقيق كسلعة موجهة للتصدير، ونظرا لأهميتها كتجارة مربحة وانتشارها عبر العالم أصبحت تجارة الرقيق مؤسسة اجتماعية قائمة بذاتها، وليست مجرد مقاولة تجارية[2].

.Casablanca, Euro – Impression, Casablanca, 1ere édition, 2003, p.76

(1) المقصود بالتعديلات فيما يخص الحمولة؛ أي تجارة العبيد التي تم تحريمها وفق قرارات حكومية صادرة تباعا، وبالتالي ضاقت آفاق تصدير العبيد خارج إفريقيا.

(2) Daniel Schroeter, “Slave Markets and Slavery in Moroccan Urban Society”, In **Human**

تخلي العالم عن التجارة غير المشروعة وسبب ذلك فراغا تجاريا كبيرا خصوصا بالنظر إلى الأرباح الضخمة التي كان يجنيها التجار الأفارقة مع كل عملية تصدير، أصبح من الضروري على التجار الذين ألفوا قدرا معينا من الأرباح، أن يعوضوا الخسارة التي لحقتهم جراء الوضع الجديد، بعد توقفهم عن ممارسة تجارة العبيد المربحة، وأن يجدوا بدائلا تجارية أخرى موازية لا تخرج عن إطار التعليمات الأوروبية المعززة لهيمنتهم.

فبالإضافة إلى ضعف الأداء الاقتصادي الذي ارتبط مباشرة بالسوق العالمي، ومع عواقب تقلبات أسعار المواد المصنعة المستوردة والمواد الأولية المصدرة في حالتها الخام، تحول الغنى الطبيعي لأفريقيا إلى أزمة كبيرة في مراحل لاحقة؛ لأن الثروات الطبيعية شكلت ما أطلق عليه من طرف الخبراء والمحللين «بلعنة الثروات الطبيعية»، بسبب مخلفات الاستخراج التي تضر بالبيئة و تؤدي إلى فساد النخب السياسية وصراعات المصلحة الشخصية ورشاوى و غيرها[1]، استغل الغرب أهم هذه الثروات واحتكار تسويقها بما يتناسب مع احتياجات السوق العالمي.

دفعت هذه العوامل إلى تعزيز وتقوية اقتصاد الدول الأوروبية المستعمرة ونموها على حساب اقتصاد أفريقيا؛ التي ظل يعاني نظامها الاقتصادي من الضعف والهشاشة والتبعية والتدخل الأجنبي.

تشكلت نتيجة لهذه العوامل قطيعة عميقة ومتجذرة في وجه تحقيق تنمية شاملة ومستدامة لشعوب القارة الأفريقية[2]، وليس لشعوب الغرب الأفريقي وحدها.

رابعاً: الاقتصاد ورهانات الانتقال:

على الرغم من أن أفريقيا الغربية عانت تحت وطأة الاستعمار الأوروبي وكانت تخضع بشكل مباشر لسيطرته الاقتصادية، وأن المغرب كان قاب قوسين أو أدنى لدخوله دائرة الدول الأفريقية المحتلة خلال القرن 19م، عرفت المنطقة بعض المحاولات الطموحة للخروج من دائرة الضغوط الاستعمارية وتحقيق قفزة اقتصادية نوعية مصحوبة بتنمية اجتماعية.

Commodity: Perspectives on the Trans-Saharan Slave Trade, Vol.13, 1992, p.188.

(1) Said Dkhisii et autres, **Les relations Maroc-Afrique: les voies d'une Stratégie globale et rénovée**, Institut Royal des études stratégiques, Le Maroc et l'Afrique Pour une mobilisation nationale d'envergure, Institut Amadeus, Rabat, 2014, p.36.

(2) Larbi Jaidi et Ivan Martin, **Le Partenariat Afrique-Europe en Quête des sens, OCP Policy Center**, Rabat, 2008, pp.23-24.

حصلت المجالات الأفريقية على قروض مالية جد مرتفعة من حيث القيمة، هدفت لتحقق إصلاحات مرتبطة بالقطاع الاقتصادي وما يتعلق به من بنيات تحتية تحت إشراف الخبراء الأوروبيين من حيث التصميم والتخطيط والتنفيذ والمراقبة المالية.

تركزت معظم جهود الانتقال على القطاع الزراعي والتجاري باعتبارهما ركيزتا الاقتصاد الأفريقي، فمثلا انطلقت محاولة زيادة الأراضي المزروعة وتنويع المزروعات لتوسيع الإنتاج الزراعي وتحسين مردوديته، باستخدام الآلة والوسائل والتقنيات الحديثة الخاصة بالإنتاج والري وتوفير الدعم اللازم للمزارعين، دفع هذا التحول إلى زيادة الإنتاجية الزراعية وتوفير فرص شغل للسكان المحليين.

انطلقت أيضا محاولة تحسين سبل التجارة كتحريرها بشكل عام وربطها مباشرة بالسوق العالمي في إطار النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي الجديد، كما تركزت الجهود على تحفيز التجارة الداخلية ذات النطاق الجغرافي المحدود والتي تتسم بالبساطة، اتجهت محاولات تحسين الصناعة على تقوية الصناعات المحلية كصناعة النسيج وبعض الصناعات الأخرى، مع تعزيز مكانة الحرفيين وبعض المنتجات الحرفية، وتهيئ المصانع وأوراش العمل الخاصة بها، مع صناعة تحويلية محدودة لبعض الموارد الطبيعية إلى منتجات أولية يمكن تصديرها إلى أوروبا، مما ساهم في خلق فرص عمل جديدة للسكان المحليين، غير أن هذه البوادر لم ترق إلى تأسيس نواة لصناعة حقيقية بمواصفات الحداثة والعصرنة.

لم يعر الفرنسيون أهمية كبرى لطرق الربط والتواصل التي تجمع بين المغرب وجنوب الصحراء، بقدر ما اهتموا بالنشاط التجاري الذي يجمعهما؛ إذ وصفوا المسالك البرية بكونها الأكثر كلفة ومشقة وغير آمنة كما اعتبروا على أن الصحراء الشاسعة والوعرة حاجزا طبيعيا لعزل الشمال عن الجنوب، في حين أقروا على أن البحر الوسيلة المثالية للتواصل والربط من حيث المدة الزمنية والسلامة الأمنية والتكلفة[1].

تنامت إثر ذلك التجارة البحرية الأفريقية مع أوروبا وحققت أرقاما جد مهمة، انعكست إيجابا على المدن الساحلية من حيث أهمية الدور الذي باتت تلعبه فيما يخص التجارة البحرية على حساب نظام التجارة التقليدية؛ الذي كان سائدا لفترة طويلة من الزمن. أبرز النشاط المتزايد للحركة التجارية البحرية ضرورة بناء المخازن والمستودعات الحديثة بالمراكز الأطلسية والصحراوية التابعة.

---

(1) Marcel Dubois avec la collaboration de H. Schirmer et Camille Guy, **Afrique-Asie-Insulinde**, 4ème édition, 1905, p.31.

تـم تأهيـل البنيـة التحيـة للمجـال الأفريقـي ليسـتوعب الانتقـال المذكـور عـبر إنشـاء مجموعـة مـن الموانـئ الجديدة ومدهـا بخطوط الربـط الطرقـي والسـككي الممتدة نحو الداخـل، لربـط المناطـق النائيـة بمراكز الإنتـاج والتجـارة والموانـئ وتقويتها بمـا يلزم مـن جسـور ومطارات ومسـتودعات لنقـل البضائع والأشـخاص في ظـروف أفضل تتيح مرونـة أكثـر لسـبل التجـارة الدوليـة، بالمـوازاة تم تشـجيع الاسـتثمار الأجنبـي خاصة بالمجـالات التـي تتوفر عـلى إمكانـات للإنتـاج والتصنيع والتسـويق.

عـلى الرغـم مـن أن تجـارة العبيـد بأفريقيـا الغربيـة أضرت لقـرون طويلـة بالوحـدة الاجتماعيـة للشـعوب الأفريقيـة وعـلى نسـيجها الاجتماعـي؛ لأنها سـببت تفـككا داخل الأسرة والمجتمـع بسـبب التهجـير القـسري نحـو أمريـكا وأوروبـا لليـد العاملـة التـي تعتـبر رأس مـال بشري مهـم للتنمية بالنسـبة لـكل مجتمـع؛ إذ فقدت أفريقيـا بموجب هـذا الاسـتغلال مـا يقـرب مـن 80 مليون مـن أبنائها حسـب بعـض التقديـرات، إن لم يتجـاوز العـدد 100 مليـون[1]، لـم تشـهد أفريقيـا الغربية بعـد إيقاف تصديـر العبيد أزمـة اقتصاديـة كبـيرة ولا طويلـة المـدة؛ ذلـك لأن الأفارقة اعتـادوا تصدير مـواد أخرى مهمـة إلى جانـب الرقيـق[2]، لذلـك تأقلموا بشـكل سريـع مع الواقـع المفـروض؛ فتمكنوا من زيـادة المردوديـة الإنتاجيـة واحترفـوا التجـارة المشروعة.

ارتفـع نتيجـة لذلـك حجـم البضائـع المصـدرة وتنوعـت طبيعتهـا مـن زيـوت نباتيـة ومنتجـات النخيـل وفول سـوداني إلـخ، أصبحت هـذه المنتجات مـوادا أساسـية موجهة للتصديـر بكميـات ضخمـة خصوصـا خلال النصـف الثاني مـن القرن الميلادي التاسـع عشر .

خامساً: مخاض الأزمة والانتقال:

بمـا أن أفريقيـا الغربيـة تعتـبر الامتـداد الطبيعـي للمغـرب داخـل القـارة الأفريقيـة[3]، لذلـك لا يختلـف الوضـع بـين المجالـين كثـيرا مـن حيث الظـروف العامـة والتأثـيرات والانتمـاء، لهـذا يرتبـط كل واحـد منهمـا بالآخـر ارتباطـا تاريخيـا وثيقـا يعـود لحقـب تاريخيـة قديمـة قوامهـا التجـارة والعامـل الدينـي الثقـافي المشـترك، تأثـر هـذا المجـال الكبـير كلـه بالسياسـات الفرنسـية القادمـة عـبر البحـر.

---

(1) محمد رزوق، **دراسات في تاريخ المغرب**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 1991، ص.9.

(2) هوبكنز، **التاريخ الاقتصادي...**، م.س.ذ.، ص.258.

(3) Dkhisii, **Les relations Maroc-Afrique...**, op.cit., p.22.

وبمـا أن المحتـل اعتـبر الحركة الاسـتعمارية مقاولـة هدفهـا تحقيق الربح، فقـد تمحور مبـدأ الربح حول شـقين اثنين: أولهما اسـتغلال المـوارد الطبيعية إلى الحـد الأقصى الممكن بأقـل كلفـة ممكنـة وإعـادة بيع مـا صنع منهـا. أمـا ثانيهمـا؛ فتوفـير العمالـة المحلية الرخيصـة التي سـتلبي احتياجـات الدول الاسـتعمارية الأوروبية، لهذا لـم تنعكس جهود الانتقـال المبتـور على المسـتوى الاقتصـادي أو الاجتماعي، باسـتثناء حـالات خاصة كانت تمتهـن التجـارة بشـكل مباشر أو كوسـطاء للأجانـب اغتنت مـن عملها مـع الأوروبيين، فيمـا خـسرت الفئة التـي رفضـت العمل وفـق المحـددات الجديـدة للمعامـلات تجارتها بشكل كلي.

ومـع ذلك، فقد تعرضـت المنطقة نتيجـة لهذه التحـولات للتردي الاجتماعـي والاقتصادي بعـد انتشـار الفقـر والبطالـة بشـكل كبـير، كمـا ظهـرت الهجـرة الكثيفـة إلى مناطق جديـدة وترسـخت التبعيـة للعالـم الغربي عـلى جميع المسـتويات.

دفعـت الهيمنـة الأوروبيـة عـلى مفاتيـح الاقتصـاد إلى توقـف الرأسـمال الأفريقـي عند المجـال التجـاري لا غير، لهـذا تراكمت الثـروة بين أيدي فئـة متاجرة محدودة اسـتفادت مـن هـذه التجربة مـع الأوروبيـين، ما جعـل فتح أبـواب الاسـتثمار والتأهيـل الصناعي غير ممكنـة أو محـدودة جدا.

مـن جهتهم، قـام المسـتثمرون الأجانب بعمليـات منظمة لإخـراج الأرباح المالية السـنوية التي تـم تحصيلها مـن أفريقيـا إلى بلدانهم الأم.

ظـل التطور الاقتصـادي مرتبطا بشـكل وثيق بالإدارة الاسـتعمارية والقـرارات الصادرة عنهـا، لهـذا اكتفت جهود التطويـر الالتزام بحـدود معينة للتحديث لم ترقى إلى مسـتوى تحقيـق الحداثـة، ارتبطـت الجهـود بما يرعـى المصالح الإمبرياليـة، والنتيجـة، لم تحقق هـذه الجهـود نجاحا كبـيرا في تحقيق التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة الحقيقية؛ حيث تـم تحديـث نظام الاقتصـاد الأفريقي بما يتناسـب مـع متطلبات المحتـل ليس إلا.

تمخـض عن هـذا الوضـع المتجدد تحسـن طفيـف للمجـالات الاقتصادية التـي أصبحت تعيـش انتعاشـة نوعيـة انعكسـت جزئيا عـلى الجانب الاجتماعـي؛ حين أصبحـت القدرة الشرائيـة للمواطـن الأفريقـي أكثر تحسـنا وباتت متطلباتـه ترتكز على أنـواع جديدة من السـلع ذات جـودة عالية. أمـا نظامه الغذائـي؛ فقد انتقل بـدوره إلى طلـب منتجات أكثر تنوعـا وجـودة علمـا أن أغلب حاجياتـه الاسـتهلاكية المصنعة بمـا فيها الغذائيـة وغيرها أصبحت مسـتوردة مـن أوروبا.

ارتبطت التجارة الصحراوية ككل بالتجارة البحرية عبر موانئ المحيط الأطلسي، وكما هو معلوم حققت أوروبا أرباحا جد مرتفعة من تجارتها البحرية مع أفريقيا خصوصا إنجلترا وفرنسا؛ التي استثمرت ما حققته من أرباح تجارية بأوروبا في المجال الصناعي والتحويلي مما أدى إلى نمو السوق المحلي الأوروبي، بالمقابل اكتفى السوق الأفريقي بتحقيق دينامية اقتصادية محدودة تهم نشاطي الإنتاج والتصدير.

أدت هذه الدينامية إلى خلق حركية اجتماعية وفرت معها مناصب جديدة للشغل كالعملاء و المندوبين والحمالين و العمال و الكتاب و الحراس و غيرها، على الرغم من أن هذه الجهود حققت تطورا شكليا وأنه إلى حدود نهاية القرن 19م لم يخرج الاقتصاد الأفريقي عن إطار التحديث، غير أن هذه الحركية شكلت نواة للتنمية الاقتصادية و الاجتماعية، فمقارنة وضع أفريقيا بين القرنين التاسع عشر والعشرين تظهر حدوث تنمية ملموسة على جميع المستويات؛ إذ مكنت الرغبة و الطموح المشترك بعد الاستقلال من تحقيق النهوض بالاقتصادات المحلية وتحسين المستوى المعيشي للسكان الأفارقة ظهرت ثماره بالأخص خلال القرن الواحد و العشرين.

على الرغم من أن المنتظم الدولي قرر تجريم تجارة الرقيق ظلت العبودية قائمة ولم يتم منعها إلا سنوات بعد ذلك[1]. لقد حافظت تجارة الرقيق رغم قرارات المنع الصادرة بحقها على نشاطها في إطار غير شرعي؛ حيث استمرت السفن بعملها الخاص بشحن الأفارقة ونقلهم بحرا لكن بوثيرة أقل من السابق، بما أن تجارة الرقيق كانت تحتل حيزا تجاريا مهما؛ نظرا للأرباح التي كانت تحققها.

لم يتأثر الاقتصاد بالمغرب خلال القرن 19م بالقرار الدولي القاضي بمنع تجارة العبيد؛ لأن المغرب استمر في استقبال أفواج العبيد القادمة من أفريقيا إلى ثلاثينيات القرن العشرين ليكون بذلك آخر سوق للعبيد، وهذا لا يعني بالضرورة أن تجارته للرقيق كانت موجهة للتصدير انطلاقا من الموانئ أو أنه سوق لتجارة العبيد مع الأوروبيين، فالوثائق المتعلقة بالحركة التجارية بالموانئ المغربية من خلال لوائح البضائع وقيم المبادلات وغيرها من المعلومات الأخرى، أثبتت أنها لم تكن تتضمن أي معطى إحصائي حول العبيد خلال القرن التاسع عشر؛ فالعبيد الذين كانوا يدخلون المغرب عبر القوافل الصحراوية على عكس مصر وليبيا والجزائر كانوا يوجهون وفقا للاحتياجات الداخلية فقط، وبأسواق المدن الكبرى الداخلية كفاس ومراكش ومكناس

---

(1) Botte Roger, «Traite et esclavage du passé au présent», In **Esprit**, vol. 317, N° Août-septembre, 2005, p.189.

وتطـوان وإيليـغ وغيرهـا من المـدن التي لـم يكـن الأوروبيون يصلـون إليهـا؛ لأن حدود اسـتقرارهم في تلـك الفـترة لـم تكـن تتجـاوز الموانـئ[1]، وكان العبيد يتجهـون للخدمة بالمنـازل وبعـض الأشـغال الفلاحية بالواحـات أو لـدى الأعيان[2].

عـرف الاقتصـاد الأفريقـي خلال القـرن 19م تحولات مهمـة، ارتبطت أساسـا بالقرارات الصـادرة عـن إدارة المحتـل الفرنسي، وأدت إلى تحقيـق نقلة نوعية على الرغـم من نظامها الاسـتغلالي، تحسـن بموجبهـا الأداء الاقتصـادي، غـير أن هـذا التطـور لم يواكبـه تطور مـواز عـلى المسـتوى الاجتماعـي بشـكل كبير باسـتثناء تنميـة محـدودة كان لهـا نتائج سـلبية على العموم.

شـكلت هـذه الطفـرة تحولا مهما نحـو التحديـث في جميع المجـالات الزراعيـة والتجارية والصناعيـة لكـن دون تحقيـق الحداثـة بمقومـات القـرن 19م مقارنة بأوروبـا، في حين ظهـرت بعض البـوادر الحقيقية لتحسـين الأداء الاقتصادي الأفريقي ومقوماته الأساسـية خـلال القـرن العشرين، ارتكـزت مقومات التطـور بعد تحقيق الاسـتقلال عـلى ما خلفه الاسـتعمار مـن بنيـات تحتيـة وتجهيـزات وإدارات متخصصـة وسياسـات تدبيرية جد متقدمـة، باعتبارهـا مكتسـبات موروثـة ونـواة الانطـلاق نحو مراحـل أكثـر تقدما من التنمية.

خـلال العشريـة الأخـيرة مـن القـرن العشريـن اتفـق الزعمـاء الأفارقـة في خطاباتهـم بالملتقيـات المحليـة والدوليـة، عـلى أن الحـل الحقيقـي نحـو التنميـة الاقتصاديـة يكمن في الرفـع مـن جـودة التعليـم والتدريـب وتطويـر قـدرات اليـد العاملـة، خطـت بعض الـدول الأفريقيـة خطـى مهمة في هـذا المنحى عبر إنشـاء المـدارس والجامعـات والمعاهد المتخصصـة ومراكـز لتدريب وتأهيل الشـباب عـلى المهـارات المختلفة، قـادت جهود هذه الـدول مـع دخـول القـرن الواحـد والعشريـن إلى تحقيـق تنميـة اقتصاديـة واجتماعية ملحوظـة مـن خـلال المـؤشرات الإحصائية المسـجلة.

كمـا اسـتفادت دول الغـرب الأفريقـي، بالإضافة إلى ذلك، من تشـكيل تكتـلات اقتصادية قويـة وتراجـع حـدة الفقـر ومسـتويات الأميـة وجميـع أشـكال العنـف والتطـرف والصراعـات، كالانقلابـات العسـكرية والحـروب الأهليـة والتهريب بجميـع أصنافه وكذا

---

(1) رحال بوبريك، «سوق العبيد: تجارة الرق في مغرب القرن التاسع عشر»، في **مجلة أسطور**، العدد 14، يوليوز 2021، ص.27.

(2) Robert Montagne, **Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc**, Librairie Félix Alcan, Paris, 1930, p.360.

النزاعات الإقليمية وغيرها مقارنة بالحقب السابقة، توافقت هذه الجهود مع ارتفاع نسبة الوعي لدى الشعوب الأفريقية التي باتت مقتنعة بضرورة تحقيق الأمن اللازم للوصول إلى التنمية الشاملة والتخلص من تبعات الماضي الأسود الذي لازمها لعقود طويلة، وأدى إلى توقف عجلة التنمية.

تنامى الشعور بالوطنية والهوية الأفريقية فرفعت شعارات قومية «خيرات أفريقيا للأفارقة»، لذلك أصبحت المطالب بوجوب التخلص من التبعية السياسية والاقتصادية للغرب تتصاعد، فأصبح من أولويات المنطقة الأفريقية تحقيق البعد المزدوج لمفهوم الأمن والتنمية[1].

شكل المغرب استثناء في أفريقيا الغربية؛ إذ حاز مكانة متقدمة داخل القارة، وقد عزز هذه المكانة المتميزة حجم الاستثمارات التي وجهها إلى أفريقيا جنوب الصحراء، تحت شعار «التعاون جنوب-جنوب» بما يخدم المصالح الأفريقية في إطار توازن إقليمي أساسه «رابح-رابح»، حيث تم توقيع حوالي 1000 اتفاقية مع 28 دولة إفريقية في مختلف المجالات[2]، بلغت قيمة الاستثمارات المغربية بأفريقيا بين سنتي 2003 و2017 ما مجموعه 37 مليار درهم، ليبرز نفسه كقوة إقليمية فاعلة تمكنت من إعادة إحياء الترابط التاريخي كرائد بالمنطقة و لازال، ليس بغرب أفريقيا فحسب بل بالقارة كلها متجاوزا مرحلة التحديث وواضعا قدمه الأولى على مرحلة الحداثة بمفهوم العصر الحالي، متخلصا نسبيا من إشكالية التبعية للمستعمر التقليدي، بخلاف دول أفريقيا الأخرى التي لازالت تعيش مخاض التحديث المتقدم منذ القرن التاسع عشر.

على الرغم من الاتفاقيات التجارية التي تم توقيعها بين مختلف الشركاء الأفارقة والتي أدت إلى تحقيق نمو اقتصادي ملحوظ خلال الربع الأخير من القرن العشرين، ارتفعت نسبه تواليا من %1.8 بين 1980 و1989 إلى %2.8 بين 1990 و2000 ثم ما بين 2000 و2010 إلى %5.3، مسجلا بذلك قفزة نوعية مهمة[3]، وعلى الرغم من جهود التنمية المتواصلة التي يمكن اعتبارها في بدايتها وعلى الرغم من التطور الذي عرفته أفريقيا من خلال المعطيات الإحصائية الخاصة بها، لازال يسيطر

(1) Dkhisii, **Les relations Maroc-Afrique...**, op.cit., p.22.

(2) تنمية المقاولات المغربية في إفريقيا: الواقع والآفاق، مديرية الدراسات والتوقعات المالية، الوكالة الفرنسية للتنمية ووزارة الاقتصاد والمالية، نونبر 2018، ص.3.

(3) Jaidi, **Le Partenariat Afrique-Europe...**, op.cit., p.20.

و لفـترة طويلـة مـن الزمـن عـلى جميـع التحليـلات و التعليقـات و الاسـتنتاجات الخاصـة بالاقتصـاد والمجتمـع مـا يسـمى «بفكـر التشـاؤم الأفريقـي»؛ الـذي لازم المفكريـن والمحللـين والاقتصاديـين خاصـة الغربيـين منهـم باعتبـار نظرتهـم الشـمولية حـول أفريقيـا بالقـرن 21م التـي لـم تحـين ولـم تواكـب قفـزة القـارة النوعيـة، وبقيـت نفسـها متوارثـة منـذ القـرن 19م والقـرن 20م لعـدة أسـباب كانـت تعانـي منهـا المنطقـة طويـلا[1]، مثـلا:

1. عامل الاستقرار السياسي والانقلابات والصراعات الثنائية؛
2. عدم اهتمام الحكومات بالتخطيط لتحقيق تنمية على المدى الطويل؛
3. انتشـار فكـر المحسـوبية والزبونيـة عـلى نطـاق واسـع داخـل المؤسسـات والمجتمـع عـلى حـد سـواء؛
4. عـدم اسـتغلال المـوارد الطبيعيـة التـي تتوفـر عليهـا القـارة بشـكل كامـل وأكثـر عقلانيـة؛
5. عـدم اسـتغلال فئـة الشـباب التـي تشـكل نسـبة مهمـة مـن مجمـوع السـكان باعتبارهـا الرأسـمال البـشري ذي إمكانيـات كبـيرة، واصطـدام هـذا الرأسـمال البـشري بضعـف البنيـة التحيـة وهزالـة جـودة التعليـم ومحدوديـة الخدمـات الصحيـة؛
6. انعـدام فـرص التدريـب للعمـل والتأهيـل لسـوق الشـغل حسـب مـا يتطلبـه هـذا الأخـير وغيـاب تـام لتكافـؤ الفـرص؛
7. أزمة الاقتصاد غير الرسمي الذي يرهق خزينة الدولة؛
8. سـيادة مـا يسـمى بالزراعـات الأسريـة بشـكل كبـير والتبعيـة للغـرب فيمـا يتعلـق بنوعيـة المنتجـات الأساسـية الموجهـة للتصديـر؛
9. غياب نسيج صناعي متكامل ومتطور؛
10. محدوديـة الربـح فيمـا يخـص الرأسـمال المنتـج المتعلـق بالمخاطـر ومحدوديـة التغطيـة الصحيـة والتعليميـة في ظـل ضرورة الاسـتجابة للنمـو الديمغـرافي المتزايـد والبيئـي؛

---

(1) Ibid., pp.23-24.

11. صعوبة صعود أو انتقال الطبقة الوسطى بالمجتمع؛

12. إعطاء الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال الاهتمام على تنمية المناطق الساحلية والعواصم بشكل كبير، واقتصار نظرتها على بناء استراتيجيات قصيرة المدى في تسيير الشؤون العامة[1].

وعموما ما بين عوامل الأزمة ورهانات الانتقال يبقى الإشكال التالي مطروحا: هل كانت الذهنية الأفريقية مهيأة للتعامل مع رهانات القرن 19 لتطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية والتخلص من الجمود الذي لازمها مدة طويلة من الزمن؟

ثم هل كانت السلطات الأفريقية خلال القرن 20 تمتلك قراراتها باستقلالية تامة، لتقوم باتخاذ مبادرات شخصية باتجاه الحداثة دون موافقة وتأشير الدول الأوروبية ذات الامتياز بأفريقيا؟

(1) La Moyenne Vallée du Fleuve Sénégal Centres et Périphéries Mail-Mauritanie-Sénégal, p.13.

البعدان الاقتصادي والاجتماعي في العلاقات المغربية-السنغالية

د. الحنافي روصافي[1]

مقدمة:

إن للثقافة قيمة فكرية وإبداعية عالمية، حيث تستمد أساسها من التاريخ الإنساني، وتسهم في تحركات الحاضر الاقتصادية والاجتماعية، وتستشرف المستقبل في كل أبعاده الإنسانية والفكرية والدولية. وكل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية تتغذى من البنية الثقافية التي تعيش في كنفها؛ فقد تكون الثقافة عاملا مهما ودافعا لتطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية، أو مؤثرا سلبيا بوصفها عاملا كابحا يجعل النمو في جميع المجالات الإنسانية الأخرى صعبا ومستحيلا. إن ارتباط الثقافة بالاقتصاد والمجتمع -في نظرنا- ارتباط الأفكار بالمواقف والسلوك الجماعي والفردي؛ إذ لا اقتصاد ولا اجتماع إنساني بدون وحدة في الأفكار الجماعية والتوجهات الوطنية، فالثقافة بمثابة الجذر الذي تتغذى منه فروع الشجرة المتمثلة في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية.

المحور الأول: المصالح الاقتصادية المتبادلة بين المغرب والسنغال:

عرفت الحركة الاقتصادية بين المغرب والسنغال طفرة كبيرة من خلال مجموعة من الشواهد التاريخية التي كانت لها امتدادات كبيرة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الآن وقد تجلى ذلك في « الوجود والهجرة المبكرة للتجار المغاربة إلى السنغال وهي محصلة منطقية لقرون من المبادلات للسلع والأشخاص والأموال، والأفكار عن طريق التجارة القوافلية التي ربطت المغرب بعمقه الأفريقي[1]. وفي هذا السياق، أسهمت مجموعة من الأسر المغربية المراكشية، والسوسية، والفاسية في خلق حركة تجارية منقطعة النظير، ويأتي التجار الفاسيون في مقدمة هذه الدينامية الاقتصادية منذ النصف الثاني من القرن 19م. ومن الأسماء البارزة والسباقة في تكييف الحركية التجارية ما بين المجالين المغربي والسنغالي، نجد الحاج عبد السلام

---

(1) Nazarena Lanza, **Liens et Echanges entre le Maroc et l'Afrique subsaharienne : élément pour une perspective historique**, Karthala. 2011, pp.21-22

الفـاسي[1]، مـولاي عـلي الكثيري، حميـد بـرادة[2]، الطاهر كنـون، ومحمد بـن جلون من فـاس، ومحمـد السـباعي[3]، والحـاج إبراهيـم السـوسي[4] من الجنـوب المغربـي، وهناك أسـماء أخـرى متأخرة كمـولاي إدريس العلـوي، محمـد العراقي، محمد الـداودي، محمد التازي، بنسـالم السـقاط، عبـد الكريـم الجابـري، إبراهيم بوغالـب، محمد مكـوار، عبد العزيز بوغربـال وإدريـس ڭـنون[5].

وكشـف هـؤلاء التجـار الأوائل ديناميـة تجارية داخـل المجـال المعني بالدراسـة من خلال خلـق وكالات تجاريـة[6]، ومجـالات تجاريـة مغربية[7] وتطـور عدد التجار مـن 11 تاجر سـنة 1887 إلى 56 تاجـرا سـنة 1907 م[8]، وأسـهمت ممارسـتهم التجاريـة المتسـمة بالصبغـة الاقتصاديـة والدينيـة[9] في توثيـق الصلات بـين المجتمعين المغربي والسـنغالي عـلى المسـتوى الاجتماعـي وعـلى المسـتوى الاقتصادي في شـقه التجـاري، وعلى المسـتوى المعـرفي خصوصـا، والثقـافي عموما[10].

(1) أكد ليوبولد باني أنه أثناء إقامته في «سان لويس» بالسنغال عام 1850م تعرف على تاجر مغربي من مدينة فاس وهو الحاج عبد السلام الفاسي. انظر: Léopold Panet، **Relation d'un voyage du Sénégal à Souéra en 1850**, Ed, le livre africain, paris, 1968, p.45.

(2) استقر مولاي علي الكثيري «بسان لويس» ومارس تجارة الكتب المستوردة من مصر وتونس، والمنتجات الجلدية، والمنتجات المغربية ثم استدعى زميله التاجر حميد برادة الذي تاجر في الزرابي والبلاغي الصفراء من فاس. انظر: محمد تلوزت بن علا، «الامتداد التجاري لفاس في إفريقيا الغربية زمن فرض الحماية »، في **مجلة: أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع**، العدد 49، السنة 2016 م، مطبوعات وزارة الثقافة، مطابع الرباط نث، الرباط، 2017، ص.72.

(3) من المحتمل أن يكون التاجر محمد السباعي أول تاجر وصل إلى العاصمة «سان لويس» قبل المدعو الحاج عبد السلام الفاسي من أجل ممارسة التجارة والاستقرار بالسنغال. انظر: عبد الواحد أكمير، «الجالية الفاسية في إفريقيا الغربية »، ضمن: **فاس وإفريقيا**، م.س.، ص.165.

(4) بلغ رقم معاملات هدا التاجر السوسي خمسون ألف فرنك، ويتوفر على أربعة شركاء تجاريين في كل من دكار و»سان لويس»، انظر: منير روكي «الحضور التجاري الفاسي بالدول الإفريقية خلال ق.19 م: مساهمة في رصد دور تجار فاس في مد جسور التواصل الحضاري بين فاس ودول إفريقيا جنوب الصحراء»، ضمن: **المغرب في محيطه الإفريقي، المجالات والرهانات الاستراتيجية الجديدة**، تنسيق مورد زناسني، م.س.، ص.58.

(5) تعاطت هده الأسر التجارية لتجارة الأقمشة والأحذية المغربية (البلغة)، والطرابيش، والمصنوعات التقليدية، وتصاهر معظمهم مع أسر سنغالية، انظر: قاسم الزهيري، **مذكرات ديبلوماسي عن العلاقات المغربية الموريتانية**، الهلال العربية للطباعة والنشر، تقديم عبد الهادي التازي، م.س.، صص.21-22.

(6) L. D'Anfreville, « Les Marocains en Afrique occidentale» in : **Renseignement Coloniaux III**, 1905, p. 149.

(7) أكمير، **الجالية الفاسية...**، م.س.، صص.173-174.

(8) انظر الجدول رقم: 16.

(9) دحمان، **دينامية القبيلة...**، م.س.، صص.121-128.

(10) كان للتجار المغاربة عموما والفاسيين خصوصا دور فعال في تحقيق تفاعل حضاري وثقافي؛ حيث أصابت الثقافة المغربية والعلوم الإسلامية حظا وافرا من الانتعاش في السنغال، بفضل ما تحويه القوافل التجارية من رحالات العلم والثقافة وما يباع من كتب دينية مستوردة من المغرب، علاوة على لجوء التجار إلى كتابة عقود معاملاتهم التجارية باللغة العربية. انظر: شوقي عطا الله الجمل، «الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا: سماتها ودور المغرب فيها »، في: **مجلة المناهل**، عدد 07، 1976م، ص.134.

جدول رقم 1: تطور عدد التجار المغاربة بالسنغال (1887-1907م)[1]

السنة	1887	1891	1894	1903	1905	1907
العدد	11	13	20	59	67	56

وارتفعت وتيرة الحركية التجارية البينية بين المغرب والسنغال بعد استقلال البلدين؛ حيث اعتبرت السنغال الوجهة المفضلة للاستثمارات المغربية، فقد وقعت اتفاقيات تجارية وتعريفية ما بين المغرب والسنغال، وبدأت بتاريخ 13 فبراير 1963م[2]، ليستمر مسلسل الاتفاقيات والمعاهدات ذات الصبغة الاقتصادية، اتخذت طابعا ثنائيا ضمن أوجه التعاون البيني بين المغرب والسنغال؛ ومن أهمها:

- اتفاقية الدولة الأكثر تفضيلا (N.P.F) - (Nation la plus favorisée) ما بين المغرب والسنغال في المجال التجاري، وقعت بتاريخ 13 -09 -1987م، ودخلت حيز التطبيق بتاريخ 03 - 12- 1987 م[3]؛
- اتفاقيات التعاون الثنائي بين المغرب والسنغال 2003-2005 م، وقد بلغت صادرات المغرب للسنغال 97 ألف طن بقيمة 11 مليارFCFA (عملة السنغال)[4]؛
- اتفاقية إنعاش وحماية الاستثمارات مع السنغال في 15 نونبر [5]2006؛

(1) أكمير، «الجالية الفاسية...»، م، س، ص، 172 .

(2) وقعت هذه الاتفاقية التجارية بين الغرب والسنغال بتاريخ 13 فبراير 1963 م، ودخلت حيز التطبيق في نفس التاريخ، وأضيف لها بروتوكول ملحق سنة 1981 م. انظر:

Direction des études et des prévisions Financières point sur les relations du Maroc avec les pays de l'Afrique Subsaharienne, _ .Etudes D.E.P. F. Mai .2010, p.03

(وقد اشار التقرير الى توقيع اكثر من 300 اتفاقية تجارية ما بين المغرب إفريقيا جنوب الصحراء).

(3) اعتبر السنغال اهم زبون للمغرب حيث بلغ حجم الصادرات التجارية المغربية في هذه الفترة %14.2 وبلغ مبلغ الصادرات 12.3 مليون دولار، ومن اهم الموارد المصدرة نجد: المواد العدائية والحيوانية والمحروقات المعدنية والزيوت المواد الكيميائي الآلات الميكانيكية، انظر:

Afrique Subsaharienne quel bilan pour les 15 dernières année?, O.C.P POLICY CENTER, –Moubarak Lo. **Relation Maroc –** .RABAT: MAROC, NOVEMBER 2016, pp.15-25

(4) Joseph Birame sene, La Coopération Maroc-Sénégal, in **Journal Economie-Finance**, 12 .novembre 2005

(5) دخلت هذه الاتفاقية ضمن أوجه التعاون البيني بين المغرب والسنغال قصد إنعاش وحماية الاستثمارات وتشجيع المقاولات المغربية؛ بحيث مكنت هذه الاتفاقية من تشجيع استثمارات مختلف القطاعات الاقتصادية. فعلى المستوى المالي كثفت الأبناك المغربية تواجدها كالتجاري وفا بنك، والبنك المغربي للتجارة الخارجية بدكار. وعلى مستوى النقل الجوي ساهمت شركة الخطوط الملكية المغربية في رساميل الشركة الدولية السنغالية للطيران، وفي قطاع المناجم سجل حضور المجموعة المغربية «مناجم» التابعة للهولدينغ «أونا» بالسنغال، وفي قطاع صناعة الأدوية نجد (West Africain Pharma)؛ وهي فرع من مختبرات «سوطيما-مغرب-المستثمر بالسنغال. انظر: عبد العزيز الحسن، «واقع وافاق التعاون التجاري بين المغرب وبلدان إفريقيا الأطلنطية»، ضمن: **المغرب في محيطه الإفريقي**، م.س. ص.244.

- تنظيم قافلة مغربية إلى إفريقيا الغربية، ومن البلدان التي استهدفتها هذه المبادرة: السنغال، ومالي وساحل العاج من 17 الى 19 دجنبر 2009 م[1]؛

- رفع شعار «مغرب-تصدير (Maroc _ Export)»سنة 2010 م[2]، بحيث أصبح المغرب المستثمر رقم 02 في إفريقيا، وبلغ رقم المعاملات 735 مليار درهم، وتمكن الاقتصاد المغربي من الاستثمار في السنغال في مجالات متعددة كقطاع المواصلات، والأبناك والصيدلة، والطاقة، والفلاحة، والكهرباء، والبناء، وقطاع الاتصال؛

- بروتوكول التعاون بين المركز المغربي لإنعاش الصادرات والوكالة السنغالية لإنعاش الصادرات سنة 2013؛[3]

ويمكن تمثيل انخراط المغرب والسنغال في الحركة الاقتصادية البينية من خلال الجدولين التاليين:

جدول رقم 2: حجم الصادرات التجارية الى السنغال (بالمليون درهم MDH) [4]

2005	2006	2007	2008	2009
414.5	473.4	602.5	818.2	692.2

جدول رقم 3: تطور صادرات المغرب الى السنغال (بالمليون درهم MDH) [5]

2010	2011	2012	2013	2014	Part 2014 en %
661	939	2106	2035	1241	9.7

(1) ضمت هذه القافلة 70 مقاولة مغربية، وقد بلغت الصادرات المغربية إلى السنغال ما قيمته 692.2 مليار درهم، وضمت المواد المصدرة المنتجات الغذائية والملابس والقطن والأسمدة والأدوية الصيدلية. وفي الاتجاه المعاكس بلغت صادرات السنغال إلى المغرب ما قيمته 65 ,484 مليار درهم، وضمت المواد الغذائية والمواد المصنعة. انظر:

Maurice kakou et Housni Mohammed Abdou Madi, Echange-Commerciaux entre le Maroc-et l'Afrique de l' ouest : état des lieux et perspectives , in : **Diplomatique Economique Maro-caine en Afrique : enjeux pour un Partenariat Stratégique**, op .cit .p.p.63.72.

(2) Ismail Taki, L'apporoche gouvernementale des relations commerciales et de partenariat Maroc Afrique : les réalisations et les perspectives, in : **Diplomatique Economique Marocaine en Afrique : enjeux pour un partenariat stratégique** [Coordination Mustapha Machraphi et kadija Botkhili], N° : 03, 2014, Série : Cahiers de la Recherche n° : 03, Université Mohammed 2, Sous-si, Rabat, Imprimerie El Maârif al Jadida, Rabat, 2014, p, 15.

(3) استحوذ السنغال على حصة 17 % من صادرات المغرب سنة 2013 م، علما أن صادرات المغرب ارتفعت من 2, 2 مليار درهم سنة 2003 إلى 11.7 مليار درهم سنة 2013م بنسبة ارتفاع تبلغ 18 % سنويا. ومن بين المواد المصدرة الأسمدة الطبيعية والكيميائية، الخيوط والكابلات الإلكترونية، المواد الغذائية، الأدوية، ومنتجات النسيج، انظر: خالد بايموت، «العلاقات المغربية الفرنسية، بداية التنافس في إفريقيا»، ضمن: **المغرب في محيطه الأفريقي**...، م.س، ص. ص. 323.324.

(4) Maurice kakou et Housni Mohammed Abdou Madi, **Echange Commerciaux**..., op.cit. p. 68.

(5) - عبد العزيز بن الحسن، **واقع وافاق التعاون التجاري بين المغرب وبلدان إفريقيا**...، م.س.، ص.251.

تعليق:

انخـرط المغرب والسـنغال منذ اسـتقلالهما في مسلسـل تحرير تجارتهـم الخارجية، وقد عقـد المغرب والسـنغال مجموعة مـن الاتفاقيـات والمعاهـدات ذات الصبغـة الاقتصادية، اتخـذت طابعـا ثنائيا ضمـن أوجه التعـاون البيني.

إن الأهميـة الاسـتراتيجية والتجاريـة لسـوق إفريقيا الأطلنتيـة جعلت المغـرب يراهن على تقويـة علاقاتـه التجارية مـع البلـدان الإفريقيـة، خصوصا مع الشـقيقة السـنغال التي تعتـبر أهـم زبـون المغـرب، والدولـة الأكثـر تفضيـلا في العلاقـات الاقتصاديـة المغربية الإفريقية.

ومنـذ اعتـلاء الملك محمد السـادس العرش سـنة 1999 م، راهن المغرب على الدبلوماسـية الموازيـة الثقافيـة والدينية لتوطيـد دعائم العلاقـات الاقتصادية والتجارية مع السـنغال؛ ومـن مـؤشرات هـذه الدينامية الاقتصاديـة تطور رقم المعامـلات للصـادرات المغربية من 414.5 مليـون درهم سـنة 2005 م إلى 1241 مليون درهم سـنة 2014م.

إن تقويـة التعـاون الاقتصـادي والتجـاري مـع الـدول الإفريقيـة « جنـوب الصحـراء» حظيـت بمكانـة أولوية في السياسـة الخارجيـة للمملكة المغربيـة[1]؛ فقد انغـرس المغرب في إفريقيـا في إطـار العلاقـة رابح-رابح، وانخرط في عـدة اتفاقيات؛ كالاتحـاد الاقتصادي والمالي لغـرب إفريقيـا (U.E.M.O.A)، والمجموعة الاقتصادية والمالية لإفريقيا الوسـطى (C.E.M.A.C) [2]والمجموعـة الاقتصاديـة لدول غرب إفريقيـا(C.E.D.E.A.O) [3]، وقاد المغـرب -أيضـا- عـدة قوافل الشراكـة الاقتصاديـة[4]، تمكنت مـن توقيع أكـتر من 500 اتفاقيـة تجاريـة مع أكـتر من أربعـين بلـد إفريقي[5].

---

(1) Ismail Taki, **L'approche** ..., op cit, p.p.11-13.

(2) Maissa Zebakh, La Diplomatique Economique Marocaine en Afrique Subsaharienne : vers des partenariats stratégiques, in **Diplomatique**..., op.cit., p.42.

(3) Aitboud Benchekroun Bouchra et Salaoui Aya, La Coopération Sud_ Sud entre le Maroc et ses partenaires Africains : état des lieux et leviers de développement, in **Public and Nom-profit Management**, Review, vol.3, 1, Spécial Edition 3, Moroccan Association of Marketing Conférence, April, 2018, p.130.

(4) قاد المغرب سبع قوافل لتصدير ما بين 2009 م و2013 م. وقد نجح في تطوير النمو الاقتصادي، جيت تمكن من القفز من استثمار 9 مليار درهم سنو 2007 م الى 11 مليار درهم سنة 2011 م، وتمكن المغرب من خلق 70 مقاولة في قافلة مغربية إلى إفريقيا الغربية (سنغال، مالي، ساحل العاج) من 17 دجنبر الى 19 منه سنة 2009 م. واقتبس مفهوم القافلة كمفهوم تاريخي يعبر عن الاشعاع الاقتصادي، والتلاقح الثقافي، والتعاون السياسي، والانصهار الاجتماعي الدي جمع بين المغرب والعمق الافريقي. انظر.
- Maissa Zebakh, op. cit.p.43 ; Maurice kakou et Housni Mohammed Abdou Madi, op. Cit.p.70; Ismail Taki, op.cit., p.31

(5) Aiboud Benchekroun Bouchra et Slaoui Aya, op.cit., p.131.

جدول رقم 4: توزيع الاستثمارات المباشرة المغربية حسب القارات[1]

Année Continent	2009		2010		2011		Variation 2010/2011	
	m.en M/DH	p.en%	m.en M/DH	%p.en	m.en M/DH	%P.en	/	/
Afrique	7856.9	53%	7831.3	49%	8547.9	49.4%	+716.6	+9.2
Europe	5838.2	39.9%	7405	46.3%	8019.3	46.3%	+614.2	+8.3
Asie	351.4	2.4%	485	3%	498.8	2.9%	+12.9	+2.7
Amérique	584.1	4%	272.6	1.7%	247.7	1.4%	-24.9	-9.1
Totale	14630.6	100%	15994.9	100%	17313.7	100%	+1318.8	+8.2

إن استحضار الروابط الثقافية والتاريخية والروحية المشتركة بين المغرب والسنغال يعتبر قاعدة قوية وصلبة للتعاون الاقتصادي، وقد راهن المغرب على الديبلوماسية الموازية الدينية والثقافة لتوطيد دعائم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية البينية للبلدين الأفريقيين الشقيقين.

وفي هذا السياق، لا يمكن إغفال الحج الصغير بفاس الذي يحج إليه عدد كبير من مريدي الطريقتين التجانية والمريدية، وما خلقته هذه الزيارات من توسيع لشبكة الاتصالات الإنسانية والاقتصادية، والإحساس بالانتماء للمغرب.

وتعتبر فاس في نظر الأفارقة عموما، والسنغاليين على الخصوص العاصمة الروحية، والمقدسة بعد مكة المكرمة، ومركز تعلم الأفارقة، بالإضافة إلى بعض المدن الأخرى التي تشد إليها الرحال من طرف الأفارقة باعتبارها مجالات حاملة للبركة ، كالرباط ومراكش والجنوب المغربي؛ وغيرها من مجالات تثاقف أسهمت في نقل القيم والأفكار الثقافية، وإثرائها في عمق ربوع البلدان الإفريقية، مما خلف التمازج على المستوى الثقافي والحضاري، وازدهار المستوى التجاري والاقتصادي، وعامل وحدة وتكامل سياسي.

ولا غرو، ففاس تعتبر مركز الإشعاع الفكري والديني للطلبة الأفارقة، وتعد العاصمة الروحية للتجانيين التي يرتادونها من مختلف البلدان الإفريقية، ويمكن تمثيل علاقة زاوية فاس التجانية بمختلف الزوايا في السنغال من خلال الخطاطة التالية:

Samira Naamani, Les investissements Marocains en Afrique Subsaharienne, In: **Diplomatique Economique**, op.cit., p.53 (1)

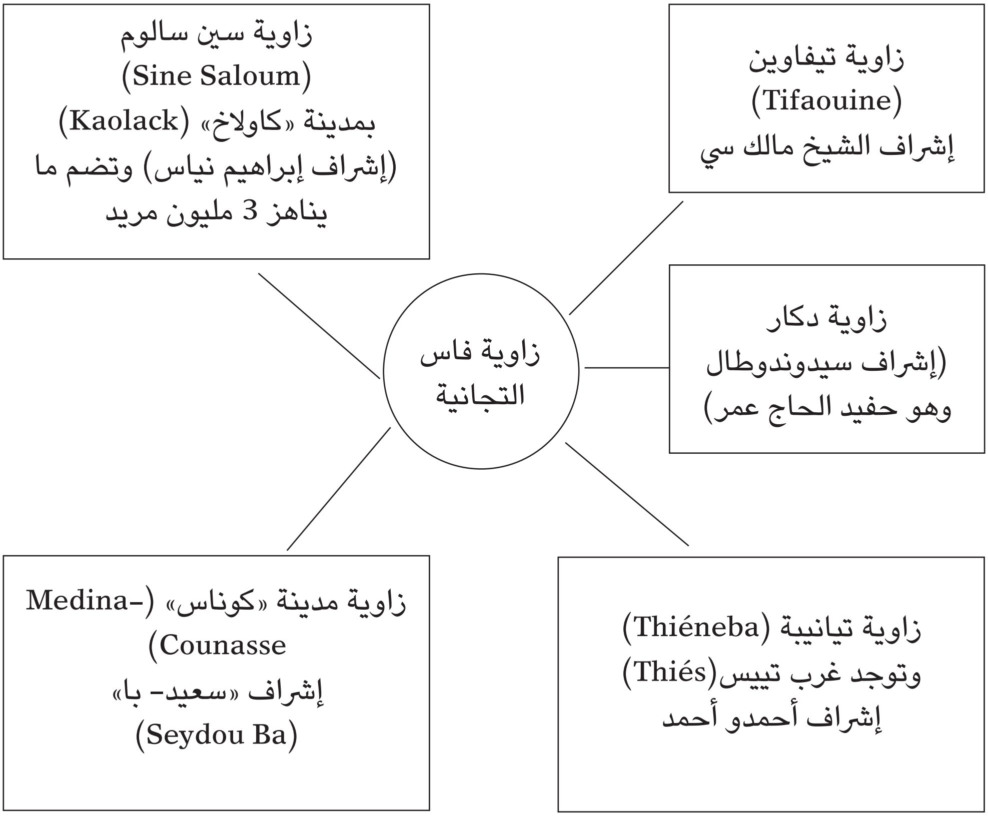

تعليق على الخطاطة:

تضطلع الزاوية التجانية بفاس بدور محوري، فهي ترتبط بمختلف الزوايا الموجودة بالسنغال، وتستقطب العديد من الحجاج التجانيين الذين يحجون إليها، ويقومون بزيارة ضريح الشيخ المؤسس للطريقة التجانية «أحمد التجاني»، وقد تدوم الزيارة ثمانية أيام، وتبلغ تكلفة الزيارة تقريبا ما بين 700.000 و750.000 F.C.F.A (عملة السنغال)[1].

ينتج عن هذه «السياحة الدينية»، حركة اقتصادية مهمة؛ حيث تنتعش المقاهي، والفنادق، والمواصلات، (كفندق تمبوكتو، ومقهى الزاوية، والمقهى المغربي الأفريقي)[2]. وقد تطال الزيارات بعض المدن الأخرى كمراكش، والرباط، والدار البيضاء، من أجل زيادة أضرحة بعض الأولياء الذين كانوا من أتباع الطريقة التجانية (كأحمد

(1) Nazarena Lanza, **Pèleriner...**, op.cit, p.02.

(2) Ibid., p.03

السكيرج، وأكنسوس، وناضيفي)[1]، بالإضافة إلى اقتناء الكتب الدينية والأدبية، وشراء اللباس المغربي (كالقفطان، والجلاليب والحايك والبلغة) المفضل عند السنغاليين.

لقد نتج عن هذه الزيارات الروحية، والدينية إلى فاس من طرف المريدين التيجانيين من مختلف البلدان الإفريقية، ظهور تجارة غير المهيكلة، كبائعي الجوارب، والأحذية، والهواتف، والإلكترونيات...[2]، وقد انتقل هذا الثقل الاقتصادي من فاس إلى الدار البيضاء[3] التي أصبحت تستقطب العديد من التجار السنغاليين، الذين يكون هدفهم في البداية، هو الزيارة الروحية لفاس، ثم ما يلبثوا أن ينتابهم الإحساس بالانتماء للمغرب، فبدأوا بممارسة التجارة غير المهيكلة، والبحث عن بعض المدن الاقتصادية التي يمكن أن يحققوا فيها ربحا ماديا، كالدار البيضاء، مثلا[4].

وخليق بالملاحظة، أن الطرق الصوفية تضطلع بدور هام في الحياة العامة[5]، ففي السياق الاقتصادي، استطاعت الطريقتان التجانية والمريدية أن توفرا وسائل استقلالهما المادي والمعنوي، حتى أصبحت دكار (معقل أغلب التجانيين)، وطوبي المقدسة (معقل المريدية بامتياز) من أكبر المدن الاقتصادية في السنغال[6].

وتؤكد المعطيات الميدانية[7]، أن الزاوية المريدية تسهم في اقتصاد السنغال بشكل

(1) Ibid., p.05

(2) Marfang, **Commerçantes et...**, op, cit, p.143.

(3) Ibid., p.148,

(تصل القيمة مليون F.C.F.A من المواد التجارية المستثمرة في القطاع).

(4) Le soleil, **Entre Dakar et Casa Blanca**, Jeudi 14 mars 2002, In ; A. S. N (dossier : Coopé-ration Maroc – Sénégal)

(أشارات الوثيقة إلى تطور القطاع غير المهيكل بالدار البيضاء من طرف السنغاليين، وتضم الصادرات: المصبرات السمكية، الملابس والأحذية)، وقد أكد الوزير المكلف بالصيد البحري: سعيد أشباعتو هذا الأمر). وكان من حسنات الاستعمار الفرنسي أنه كان يمنع سفر السنغاليين إلى المغرب إذا قدموا ترخيصا للتجارة، ويسمح لهم إذا أدلوا بالترخيص للحج إلى فاس، انظر

- Marfang, op.cit., p.142.

(5) ينتمي أغلب السنغاليين إلى إحدى الطرق الصوفية المنتشرة في البلاد، وتعتبر الطريقتان التجانية والمريدية من الطرق التي تستقطب أعدادا كبيرة من المريديين، حتى أصبح السؤال الشائع الذي يطرح في السنغال هو: هل أنت مريدي أم تيجاني؟ انظر:

- Ibrahima Sakho Thiam, **Les Aspects du Mouridisme au Sénégal**. Thèse de doctorat de 3ème cycle, Séance Politique. Université de Siegen, Tectum Verlag Marburg, 2010, p. 29.

(6) Jean Copans, «Les Travaux collectifs sur les champs Maraboutique : Yassy – Missirah», In : **Revue et Bulletin de travaux et documents de l'O. R. S. T. O. M maintenance sociale et changement économique au Sénégal, doctrine économique et pratique du travail chez les mourides**, (Coordination, Jean Copains et autre), Editions de l'office de la recherche scien-tifique et technique Outre-Mer, Paris, France 1972. P. 210.

(7) زيارة ميدانية إلى المدينة المقدسة «طوبى» معقل الطريقة المريدية رفقة مخبرنا، ودليلنا الأخ «علي ضيوف» (Aliou,Diof)، وهو ابن منطقة طوبي، وأحد مريدي الشيخ المؤسس أحمد بامبا إمباكي في نونبر 2021م.

مؤثـر، وتعقد سـنويا موسـما دينيـا كبيرا، وهوما يسـمى «مَغَـلْ طُوبَـى»[1] وهو من بين الأحـداث العالميـة، والوطنية الهامة على المسـتوى الاقتصادي، حيث يسـاهم بنسـبة 250 مليـار فرنـك سـنويا في الاقتصـاد الوطنـي[2]، ويفـد إليـه التجار والسـياح والـزوار من غامبيـا، وغينيـا وموريتانيـا ومـالي والمغرب ومـن مختلف المناطـق الأوروبيـة والأمريكية والأسـيوية، حيـث يحقق فيها التجـار أرباحا قياسـية بمعدل %200 مـن مجموع أرباح المبيعـات[3].

أضحت مدينة طُوبَى بفضل هذا «المَغَل» الديني الثقافي من أكبر المدن الاقتصادية والتجارية بعد «دكار»؛ بل أصبح «التجار يهجرون هذه الأخيرة، وينقلون أنشطتهم التجارية إلى المدينة المقدسة طوبي[4]، حتى أضحت ثاني أكبر مدينة بعد دكار من حيث النشاط الاقتصادي.

---

(1) ما كال: كلمة ولوفية تعني التعظيم والتبجيل، وماكال طوبي هو موسم ديني بدأ الاحتفال به سنة 1920- 1991/ 1340هـ، في الثامن عشر من شهر صفر من كل سنة، ويؤرخ لفترة رجوع الشيخ المؤسس للطريقة المريدية من المنفى وكان يسمية الأتباع « عيد الأضحى الثاني» فأشار عليهم أحمد بامبا إمباكي باستبداله بـ «ماغال» لأن فيه ابتداع في الدين. ويكتسي الحدث في الفترة الراهنة بعدا دينيا واقتصاديا هاما ينعكس على جميع الأنشطة الاقتصادية الوطنية والعالمية، انظر:

Serigne Shan Bousso, Les Dimensions Sociales et Religieuses du Magal, In : Monographie – sur l’impact socio –économique du Magal de Touba, (Coordination Moubarak L. O et son .groupe»; Consulter aussi : – www.Toubainfo.org

(2) سيطرت المريدية على القطاع الاقتصادي الأولي (الزيتون، المواد الكيمياوية، والطاقة) والقطاع الثانوي (التجارة، النقل والموصلات، الإدارة، الصيد والصناعة)، وتسهم الطريقة المريدية في تحقيق الاكتفاء الذاتي، والأمن الغذائي، والاستثمار المقاولاتي، وتوفير فرص العمل بحيث أن أتباع هذه الطريقة يعتبرون العمل إلى جانب الذكر والعبادة والعلم من أهم المبادئ التي تقوم عليها هذه الطريقة، علاوة على أن مدينة طوبى تحتوى على أسواق نشيطة كسوق عكاظ، ومصنع لبيع الماء المعدني يسمى بـ «عين»، مكتبات لبيع الكتب الدينية، ووسائل نقل تحمل أسماء (tota، إمباكي طوبي) انظر

.Ibrahima Sakho, op, cit, 172 ; Jean Copains, op cit, p 76 ; Serigne Sham Bousso, Ibidem –

(3) يحقق التجار خلال موسم «ما كال طوبي» أرباحا تساوي أرباح السنة كلها، ومن المواد التي يتزايد الطلب عليها؛ من المواد الغذائية: الأرز، الحبوب، الخضروات، السكر، الملح، الشاي، والقهوة، (بخصوص القهوة، فالقهوة في طوبي تعد بإضافة عشبة «ديار» (Diar) وهي –على حسب أقوال محضريها- مفيدة لعلاج العيون)، ومن الكتب الدينية: القران الكريم، القصائد، صور المشايخ، والمشيخة، ومن الملابس نجد: القبعات، والأحزمة والمعاطف والمختوم (وهو نوع من البوبو المزركش أو البوبو بأكمام واسعة). انظر:

www.tobainfa.org

واعتمادا كذلك على: الزيارة الميدانية، والمعلومات التي استقيناها من دليلنا «أليو ضيوف» في نونبر أثناء إقامتنا بدولة السنغال.

(4) استمد اسم طوبى من الآية الكريمة: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب»، صدق الله العظيم، ومن معانيه أنه شجرة في الجنة، إضافة إلى تضمينه دلالات الفوز والنجاح. وهي مقدسة؛ حيث يمنع في المدينة ارتداء الملابس غير المحتشمة بالنسبة للنساء، ويمنع التدخين، وتنظيم المهرجانات الموسيقية، وملاعب كرة القدم، وكل ما لا ترضيه الشريعة الإسلامية، وكل مخالف يتعرض للعقوبة. اعتمادا على المقابلات السابقة، والزيارة الميدانية.

إن مَغَل طوبي مناسبة للتعبير عن الشكر لله تعالى على توفيقه ونعمه للشيخ الخديم «أحمد بامبا إمباكي»، فمن خلاله يتم إقرار الضيوف، واطعام الطعام، وتوفير الأمن الغذائي مما ينعكس إيجابا على الاقتصاد الوطني من جهة، ومن جهة أخرى هو مجال للسياحة الدينية، وعقد التجمعات الثقافية[1].

انخرطت الطريقة التيجانية بالسنغال هي هذه الدينامية الاقتصادية، واعتبرت العمل جزء من الدين، واضطلعت بدور هام في الحفاظ على هوية الطريقة في العاصمة الروحية المغربية فاس؛ من خلال مجموعة من الجمعيات الثقافية ووسائل الاتصال؛ فبالنسبة للمؤسسات الثقافية؛ يمكن أن نذكر جمعية أصدقاء فاس[2]، التي تشرف على عقد زيارات سياحية، ولقاءات صوفية، وأنشطة اقتصادية متنوعة (كصناعة الخزف، وسوق الحلزون، والدباغة..).

أما عن وسائل الاتصال، فقد اضطلعت « Dakar –Fès Express » بدينامية ثقافية هامة، كالانخراط في التعريف بمختلف الأنشطة الدينية والاجتماعية والاقتصادية للزاوية التجانية بفاس[3]، وتسليط الضوء على مجمل الأحداث التي ترافق مراسيم الحج إلى فاس «كطقس ضروري ولحظة روحية مهمة بالنسبة للسنغاليين[4]

---

(1) يقول أحمد بامبا إمباكي في قصيدته «مطلب الفوزين»: واجعل إلهي مسكني طوبى أبدا ❊ مثلها اسمها بجاه خير من عيد. (للإشارة فعدد زوار الماكال العظيم يتجاوز ثلاثة ملايين شخص، وتستثمر أموال هائلة في مجال التغذية، وفي توفير احتياجات المشاركين، وتقام فيه أنشطة حزب الترقية، (التعليم والتربية، دراسات وأبحاث وثائقية، ممارسات ثقافية، أمداح دينية)، وتعقد فيه التجمعات الثقافية، مثل: Dahiras، التي لها دور في الحفاظ على هوية المريدية حتى في المهجر (إيطاليا، إسبانيا، بلجيكا، فرنسا والبرتغال). وقد وصل مدى هذه الظاهرة العاصمة المغربية الثقافية فاس العاصمة الروحية للسنغاليين؛ حيث توفر الطريقة بطائق العضوية للأتباع، وتسند المهمة لأمين الظاهرة. (Dahira) ، انظر:

Cheikhouna Beye, **La Communauté Mouride du Sénégal et de la Diaspora : pour une appoche communicationnelle de la tra- – dition et de l'écriture en contexte de transformation médiatique héritage cultuelle et muséologie** ; thèse de doctorat ; Culture et Patrimoine, Université d'Avignon, Québec à Montréal, 2014, p, 58 ; Serigne Sham Bousso, Ibidem ; Ibrahima Sakho Thiam, .op, cit, p. 103

(2) Oumar kane, Les relations entre la communauté Tijané du Sénégal et la Zawiya du Fès, .In : **Les annales de la faculté des lettres et sciences humaines**, Dakar, 1994, pp.02–05

(3) Abdourrahmane Seck et Nazarena Lanza, **Maroc –Sénégal : une histoire contemporaine entre dynamique mémorielles et logique la patrimonialisation**, les Etudes et Essais du .Centre Jacques Berque, N° 22, Rabat ; Maroc, Juin 2014, p, 09

(4) Bakary Sambe, et Yousra Hamdaoui, Des usages du Soft Power religieux du Maroc sous le .règne de Mohammed 6, In : **Afriques en mouvement**, N° 1, janvier 2019, p, 21

المحور الثاني: البعد الاجتماعي في العلاقات بين المغرب والسنغال

كان للشعبين المغربي والسنغالي قيمهما ومعاييرهما التي يقيسان بها علاقاتهما الاجتماعية، وأفكارهما، وأعمالهما. فقد كانا، وما زالا يتمتعان بالصدق والوفاء والشجاعة والأمن والعدالة، والتعاون على كل ما فيه الخير. وقد حاول المستعمر الفرنسي من خلال مؤسساته الثقافية تشويه صورة هذين البلدين الأفريقيين، بتجريدهما من كل قيمة حضارية[1]؛ إلا أنه فشل في مخططاته الاستلابية بحكم أن البلدين المعتدى عليهما ثقافيا بنيا على أسس ثقافية واجتماعية متينة وعقيدة صالحة وفكرة بناءة.

وقد أسلفنا الذكر، أن كل ظاهرة اقتصادية واجتماعية فهي ظاهرة تاريخية[2] ومن ثم فهي تخضع لتطبيقات الثقافة كبنية فوقية[3]؛ بحيث إن العامل الثقافي يسهم إلى حد كبير في إحداث التغيرات الاجتماعية، لهذا ينبغي أن تتجدد البنية الثقافية باستمرار، وتنفتح على عوالم أخرى، حتى لا تهلك، ويصاب المجتمع بالشلل، وينضب معين طموحه وحركته»[4].

وتميزت العلاقات الاجتماعية المغربية السنغالية بالاستمرارية التاريخية، ولا أدل على ذلك؛ «احتفال البلدين بذكرى ألف سنة من الروابط الأصيلة والكثيفة والثابتة والعميقة»[5]، فلقد عزز البلدان حركة الاندماج: جنوب – جنوب.

فإلى أي حد أثر المشرك الثقافي بين البلدين في المؤسسة الاجتماعية، بغية تحقيق أهدافها التنموية؟

(1) غي مفيل، **التكامل والتعاون في إفريقيا، صعوبة اللقاء الممكن بين النظريات والوقائع**، (ترجمة نصير مروة)، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط، 1، 2015م/ 1436 هـ. ص. 160.
(أشار إلى أن مرد بؤس إفريقيا هو استغلال القوى الإمبريالية للتنوع الثقافي في المجتمعات السوداء، وهو ضرب من التلاعب بالهويات).

(2) عمر أفا، «مشكلة النقود ومجالات الإصلاح في مغرب القرن 19م»، ضمن كتاب: **الإصلاح والمجتمع المغربي**...، م.س.، ص.73.

(3) مصطفى حدية، «محددات مفهوم الدور بين الثقافة والمجتمع من أجل فهم عميق للسلوك الفردي»، ضمن كتاب: **فكر وتاريخ**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998م، ص.147.

(4) عبد الرزاق الداوي، «الهوية الثقافية جدلية الثقافة والمثاقفة»، في: **مجلة المناهل**، عدد 71 –72، م، س، ص. 104.
(شبه الثقافة بجلد الحية الذي ينبغي أن يتجدد باستمرار، حتى لا تهلك الحية أو لكيلا تصاب بالشلل).

(5) عبد الحميد الصنهاجي، «الرباط، دكار: شراكة مرجعية وتعاون نموذجي»، ضمن كتاب: **التعاون المغربي الأفريقي**، (إشراف يحيى أبو الفراح وآخرون) م.س، ص. 34.

لقد شكل المغرب والسنغال «دائرة ثقافية»[1]، حيث اضطلعت القيم الثقافية المشتركة بين المجتمعين بدور كبير في ضبط وتحديد سلوكيات الأفراد في مختلف المواقف المهنية والاجتماعية، حتى أصبح المغرب والسنغال من المرجعيات الجهوية والقارية في مجال التعاون الثنائي[2].

وفي السياق ذاته، أضحى البعد الاجتماعي حاضرا بقوة في العلاقات بين المغرب والسنغال من خلال الأدوار المختلفة التي اضطلع بها البلدين من خلال عدة قنوات ثقافية واجتماعية أرست هوية ثقافية مشتركة، والتي تعتبر مصدر قوة ومرتكزا لتحقيق التنمية والاستقرار والاندماج الاجتماعي.

1. قناة العمالة والهجرة:

أسلفنا الذكر، أن المغرب يتوفر على نفوذ روحي وثقافي في السنغال بفضل الدور الفعال والريادي الذي قام به المهاجرون والتجار المغاربة الذين جمعوا بين ممارسة التجارة ونشر العلم والثقافة الإسلامية المعتدلة على النمط المغربي[3].

وفي هذا الإطار، شكلت السنغال قبلة المهاجرين والعمال المغاربة[4] منذ سبعينات القرن التاسع عشر الميلادي، وقد استعين بالمغاربة لتعليم السنغاليين الزراعة[5]، وأسهم التجار المثقفون المغاربة في ترويج المؤلفات المغربية الإسلامية، ونشر الخط

(1) يقصد بالدائرة الثقافية انتشار سمات ثقافية مشتركة متشابهة في منطقة جغرافية، وهذا حال المجتمعين المغربي والسنغالي موضوع بحثنا، والذي أكدنا من خلاله على المشترك الثقافي المادي واللامادي الذي يجمعهما منذ زمن عريق.

(2) عبد الحميد الصنهاجي، م، س، ص. 48.

(3) الأمين عوض الله، «تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي، وآثارها الحضارية حتى القرن 16م، «ضمن: **تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م**، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1974م/ 1404هـ، ص. 96. (أشار إلى أن هذه الممارسة المزدوجة بين الدعوة وبيع السلعة من طرف التجار المغاربة أسهمت بشكل كبير إلى الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية والقيم الاجتماعية الوافدة من المغرب وبين التقاليد الزنجية المحلية؛ حيث أغنت التقاليد الإسلامية الإفريقية بالطابع المغربي).

(4) أدت المجاعة التي أصبت سوس سنة 1882م –1883م إلى توجيه مغاربة للعمل في السنغال، وقد بلغ عددهم 450 عاملا نقلوا عبر السفينة من طنجة إلى السنغال، وقد حددت لهم الإدارة الاستعمارية مدة الالتزام بالعمل والمقابل المادي، انظر: – **الوثيقة 1583**: جواب وزير فرنسا المفوض في طنجة «لاديسلاس أورديكا» عن رسالة رئيس مجلس الحكومة، وزير الشؤون الخارجية دوكليرك المتعلقة باختيار عمال مغاربة للعمل في السنغال، مؤرخة يوم 18 شتنبر 1882م/ 5 ذوالقعدة 1299هـ، سجل 918. 36، محفظة فرنسا، مديرية الوثائق الملكية، ج، 13، ص. 364 (موقعة من طرف أورديكا). **الوثيقة 1648**: رسالة من القائم بأعمال المفوضية الفرنسية في المغرب مونفري إلى وزير خارجية فرنسا «شالومير لاكور» في موضوع توجيه مغاربة للعمل في السنغال، مؤرخة في 18 شتنبر 1883م / 16 دوالقعدة 1300هـ، مديرية الوثائق الملكية، ج، 14، ص. .151 (موقعة من طرف مونفري).

(5) Yahia Abou El Farah et Autres, op.cit., p 22–

المغربـي، وإضفـاء طابـع القداسـة عـلى المنتوجـات المغربية، حتـى أصبح السـنغاليون ينظـرون للمغاربـة باعتبارهـم شرفـاء وحامـلي البركة[1].

وتؤكـد المعطيـات الميدانيـة[2]، أن السـنغاليين ينظـرون بنـوع مـن القدسـية للجلبـاب المغربـي، ولـكل مـا هو قـادم من المغـرب مـن مصنوعـات تقليديـة، وأقمشـة (جلابيب مغربيـة)[3]، وأحذيـة (بلاغـي)[4]، وطرابيـش، وأصبـح الـزواج مـن المغاربـة بركة[5].

وقـد تـزوج المهاجـرون المغاربـة الذيـن اسـتقروا بالسـنغال بسـنغاليات، وخلقـت هذه العائـلات ديناميـة اجتماعيـة وثقافيـة هامـة مشـتركة بـين المغرب والسـنغال.

---

(1) -Ibid. p 33.

(2) زيارة ميدانية إلى السنغال نونبر 2021م (وقد لاحظنا من خلال تجوالنا بمعظم أسواق مدن السنغال تواجد الكتب الدينية، والألبسة التقليدية المغربية القادمة من فاس، ومراكش، وكلميم وتافيلالت بالجنوب المغربي...). وينتشر المغاربة بزنقة محمد الخامس بدكار، وشارع لامين كي «(Lamine Gyye)،» والمدينة (La Médina)، وشارع «بليز دجي» (Blaise Diage).

(3) حسب ما أدلى لنا به دليلنا ومخبرنا «أليو ضيوف» أن هناك من السنغاليين من يعتبر ارتداء الجلباب المغربي فيه ثواب كبير.

(4) كان السنغاليون يستوردون في بداية القرن 20م ما بين 110 ألف و115 ألف زوج من البلاغي للرجال، وما بين 200 ألف و250 ألف للنساء بسعر يصل إلى 16.5 فرنك للزوج، مما يعطي رقم المعاملات يصل إلى 2 مليون فرنك. انظر:

- René Leclerc, «Le Commerce et l'Industrie à Fès», In : **Bulletin de l'Afrique Française**, Renseignement Coloniaux, N° 07. 1905, p. 244.

(5) بلغ عدد العائلات المختلطة (زواج مغاربة بسنغاليات) ما يقارب 250 عائلة، انظر بهذا الخصوص: قاسم الزهيري، **مذكرات ديبلوماسي عن العلاقات المغربية الموريتانية**، م، س، ص.21.

- Abdourrahmane Seck et Nazarena Lanza, op cit p 08.

جدول رقم 5: مراكز الحضور المغربي في السنغال سنة 1905م[1]

المراكز الحضرية	العدد	النسبة
سان لويس	33	49.25%
روفيسك	03	4.48%
دكار	12	17.91%
تيواوين	07	10.45%
تييس	06	8.96%
لوكا	01	1.49%
بير	01	1.49%
بونت	02	2.99%
المجموع	65	100%

جدول رقم 6: البنية الاجتماعية للمغاربة المقيمين في السنغال (م2007-م2017) [2]

نوع الوظيفة (أو النشاط)	العدد	النسبة
ناشط	1189	36.9%
امرأة (ربة بيت)	269	8.3%
طالب	1204	37.4%
متقاعد	19	0.5%
طفل	344	10.6%
آخر	193	5.9%
المجموع	3218	100%

تعليق حول معطيات الجدولين:

تطورت نسبة المهاجرين إلى السنغال ما بعد استقلال البلدين بفضل انتعاش العلاقات الثقافية والاقتصادية والروحية بين البلدين، وتوافد على السنغال مهاجرين

(1) أكمير، الجالية الفاسية...، م.س.، صص.172-174.

(2) Johara Berriane, **Les Marocaine de l'Afrique de l'Ouest: évolutions récentes d'une communauté en mouvement (Sénégal et Cote d'Ivoire)**، Marocains de l'Extérieure, Hal Archives- Ouvertes, 2017, p. 589.

مـن مختلف المـدن المغربيـة خصوصا من فـاس، ومراكـش وأكادير، وتافيلالـت، وكلميم واشـتغلوا في التجارة، والقطاع الخـاص أو العام، والفندقة، والتعليـم والصحة، والصناعة التقليديـة، والهندسـة، واختـار مجموعـة مـن الطلبـة المغاربـة الجامعـات السـنغالية كجامعـة الشـيخ «أنتا ديـوب»(Anta Diop) بـدكار[1].

وباعتبـار أن المغـرب يعـد معـبرا هامـا للمهاجريـين السـنغاليين[2]، والأفارقـة بصفـة عامـة[3]، فـإن منهم مـن يختار الاسـتقرار والاندمـاج نظـرا للروابط التي تجمـع المغرب بهـذه البلـدان منـذ قـرون طويلـة[4]. فقـد وضـع المغـرب برنامجـا لتطبيـق الاتفاقيـة الثنائيـة بـين المغـرب والسـنغال[5]، والتي تـروم إدمـاج إثني وسـتين طالبا سـنغاليا في المعاهـد والمـدارس المغربيـة لمتابعـة دراسـتهم الجامعيـة. وقد سـعى المغـرب من خلال هـذه الاتفاقيـة الثنائيـة مـع السـنغال إلى تقوية روابط حسـن الجـوار والإيمـان بوحدة الاتجـاه الفكـري المنبثق من الحضارة العربية الإسـلامية المشـتركة؛ حيث اسـتقبلت دولة السـنغال وزيـر الدولة المكلف بالشـؤون الثقافة والتعليم الأصيل بمناسـبة عقد الأسـبوع المغربـي بالسـنغال سـنة 1969م[6]، وكان من ثمـاره تمتيع مجموعة مـن الطلبة الأفارقة

(1) حسب إحصائيات 1988م: استقطبت العاصمة دكار ما نسبته 81.6% من التجار المغاربة، وتوزعت النسبة الأخرى ما بين «سان لويس، وتييس، وتاباكوندا» (Tambacounda)، وحظيت التجارة بنسبة 45% والقطاع الخاص بنسبة 26.6%، والقطاع العام 21.4%، والعمل الحر بـ 16.6% لترتفع هذه الحصيلة من 729 تاجر إلى 6088 تاجر سنة 2013م، ونشط التجار في قطاعات أخرى كالفندقة، والطب، والنقل، والإدارة، والصناعة التقليدية والبناء ... الخ. أما فيما يخص الطلبة المغاربة الذين يتابعون دراساتهم في الجامعات السنغالية، فقد سجل وجود 140 طالبا بجامعة أنتا ديوب بدكار سنة 1991م، ليرتفع العدد إلى 516 طالبا مغربيا سنة 2017م. انظر بهذا الخصوص: مؤسسة الحسن الثاني للمغاربة المقيمين بالخارج، إحصاء المغاربة بالخارج 2017م، الرباط، 2018م.

- Johara Berriane, op cit, p. 592.

- يحي أبو الفراح، م، س، ص، ص. 149. عبد الواحد أكمير، **الجالية الفاسية**...، م، س، ص. 171-172.

(2) Papa Denaba Fall, L'Emigration Sénégalaise vers le Maroc ou les Trajectoires d'un Champ Migratoire par défault, Conférence Internationale **«mer sans eau», le Sahara Espace liant l'Afrique Subsaharienne à la Méditerranée**, le Méridien N'fis, Marrakech, 31 octobre, 1 Novembre, 2014, p.14.

(3) Le Soleil, Mercredi 10 Janvier, 2018 In : A.W.S (Dossier conçerant la Coopération Maroc - Sénégal).

(4) Fatima Ait Ben Madani et Zouhir Chatou, **Les Sénégalais dans la Société Marocaine, parcours, motivation, et insertion sociale**, Rapport- version, Association Marocaine d'Etude et de Recherches sur les Migrations, (A.M.E.R.M), Rabat, Maroc, p.08.

(5) المملكة المغربية، **عشر سنوات من المنجزات الثقافية في عهد الحسن الثاني (1961-1971)**، [إشراف محمد الفاسي]، م.س، ص.38.

(6) نفسه، ص.49. (يروم الأسبوع المغربي بالسنغال تنشيط الحركة الثقافية، ومدها بما يستوجب من رعاية وتشجيع عملا على إغناء الفكر المغربي، وإخصاب إنتاجه، وخلق وعي تقافي يواكب التطور، ويسير في خط التجديد والشمول، طبقا لواقعنا الأفريقي ومعطياتنا الحضارية).

بمنحة الوزارة لمتابعة الدراسة، وقد بلغ عدد السنغاليين ستة وتسعون طالبا توزعوا ما بين كلية الشريعة بفاس ومعهد التعليم الأصيل بتارودانت(1).

وخليق بالملاحظة، أن السنغال شهدت الهجرة بنوعيها الداخلية والخارجية، فبالنسبة للهجرة الداخلية، بدأ المهاجرون القرويون يتوافدون بشكل تدريجي إلى المدن وخاصة إلى العاصمة دكار منذ نهاية القرن 19م(2) بسبب قساوة الظروف المناخية في البوادي، وانهيار البنية السوسيو اقتصادية التقليدية(3). وقد عملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على تشغيل المهاجرين في المجال العسكري (الموانئ العسكرية، التجارة...).

وفي السياق ذاته، عرفت العاصمة «دكار» تدفقا كبيرا لليد العاملة بعد الأزمة العالمية التي وصل تأثيرها السلبي للسنغال بعد 1930م(4)، ما شكل هوة شاسعة بين الطلب المتزايد على العمل، والعرض المحدود فقام المهاجرون الوافدون ببناء مساكن عشوائية بمحيط المدينة(5).

مثلت نسبة النمو الديمغرافي في دكار وحدها ما يزيد عن 3% من نسبة النمو الديمغرافي في السنغال، خصوصا بعدما أصبحت الهجرة أكثر سهولة وأمنا للمهاجرين الذين يملكون أصدقاء وأقارب في المدن؛ حيث أصبح الهدف من الهجرة يتمثل في التمتع بمزيد من الحرية والازدهار والتحضر، مما أدى إلى استعانة السلطات السنغالية بالشيوخ الصوفيين، لما لهم من تأثير على السكان لإقناعهم بالعودة لأنشطتهم الفلاحية، بغية إنقاذ الاقتصاد الوطني(6).

(1) المملكة المغربية، **عشر سنوات من المنجزات الثقافية في عهد الحسن الثاني (1961–1971)**، [إشراف محمد الفاسي]، م. س، ص.451.

(2) khadim Mbacké, la vie sociale, in : **Culture et cavillation islamique ; le Sénégal**, op.cit, p.229.

(3) يعاني القرويون في السنغال من نقص الماء؛ حيث تغطي الموارد المائية المتوفرة 40% فقط من حاجيات السكان من الماء، ولا يستفيد الفرد الواحد إلا من سبعة لترات من الماء فقط في اليوم، بينما الاستهلاك العادي للماء حسب المنظمة العالمية للصحة يصل إلى 35 لترا، وتضطر النساء القرويات لقضاء ساعات طويلة من المشي لكلومترات عديدة من أجل كمية ضئيلة من المياه. انظر:

– Khadim Mbacké, op cit, p.246

(4) Ibid, p.230.

(5) يشكل مشكل السكن قضية اجتماعية تمس خصوصا سكان المدن دون القرى بسبب الهجرة القروية، خصوصا العاصمة دكار التي تؤوي أكثر من 20% من سكان المدن في السنغال، وفي ظل هذا الوضع، تضطر بعض العائلات للعيش في غرفة واحدة كما تنتشر الأحياء العشوائية بضواحي المدن. ويتعلق سوء ظروف العيش كذلك بالوضع الصعب الذي يعيشه القطاع الصحي؛ حيث يعرف نقصا في البنيات التحتية، وضعفا مهولا في عدد الأطباء، المرضين، والصيادلة...، مما اضطر معه المواطن السنغالي للجوء للتداوي بالأعشاب، لاسيما أن أثمنة الأدوية والتطبيب جد مرتفعة. انظر:

– Ibid., p.231.

(6) Ibid., p.232.

أمـا بالنسـبة للهجـرة الخارجيـة، فتعد الهجـرة إلى المـدن أو الـدول الإفريقيـة المجاورة خطـوة أوليـة لبدء مغامـرة الهجرة نحـو أوروبا، فـكان بعضهم يمارس أنشـطة تجارية مـرورا بعـدة دول قبـل الوصـول لأوروبـا، ولقـد وجـد السـنغاليون الراغبـون للعبـور إلى أوروبـا ضالتهـم في بلدهـم الشـقيق المغـرب للاسـتقرار فيـه مؤقتـا أو بشـكل دائم، وممارسـة بعض الأنشـطة التجارية التـي تدر أموالا تكفيهم لاسـتكمال مغامـرة الهجرة نحـو الخارج.

وبالرغـم مما يعانيـه المهاجرون الأفارقـة بصفة عامـة في المجتمعات الأوروبية المسـتقبلة مـن إقصاء اجتماعـي واقتصادي؛ حيـث أن هذه البلدان تختـزل الوافدين عليهـا في البعد الاقتصـادي (مجـرد عامـل فقـط)، فقد سـعى المهاجـرون السـنغاليون الذين اسـتقروا بفرنسـا وإيطاليا (لومباردي وسيسـيل على الخصوص)[1] إلى فـرض وجودهم الاجتماعي عـن طريق تأسـيس أشـكال نظاميـة، كجمعيـة الفولـب في إيطاليـا (Association des foulbés en Italie) ((A.F.I بحيـث اضطلعـت بدورهـا في تسـهيل إدمـاج المهاجريـن السـنغاليين في المجال السوسـيو اقتصـادي للمهجر.[2]

وتؤكـد الدراسـة[3]، أن السـنغاليين لـم يحدثـوا قطيعـة مـع مجتمعهـم الأصـلي؛ إذ أن مـا يتـم جنيه مـن المـال في المهجر، يتـم تحويله لمسـقط الـرأس؛ مهمـا كانـت مدينة أو قريـة، وذلـك للنهوض بوضعهـا الاقتصادي؛ حيـث أن غالبيتهـم يحاولون إبقـاء أبنائهم وزوجاتهـم بالبلـد الأصـلي ضمانـا لعودتـه إليـه، ووفـاء بقيمهـم وتقاليدهـم وعاداتهم وأصولهـم، وهـو مـا سـهل عمليـة التواصـل والمحافظة عـلى الهويـة الأصلية.

ويعتـبر المهاجـرون الأفارقـة -بصفـة عامـة- أن التحويـلات التـي يقومـون بهـا التزام أخلاقـي مـع عائلاتهـم، ولا ينبغي الإخـلال به، ولو كلفهـم ذلك الاقتراض من المؤسسـات المشـغلة أو الأصدقـاء الذيـن يشـاركون معهم تجربـة الهجرة.

ولـم يعـد الهـدف مـن الهجـرة الشـبابية الآتيـة جمـع المـال للـزواج أو تحقيـق بعض

---

(1) اطلعنا على دراسة هامة حول هجرة السنغاليين إلى فرنسا وإيطاليا التي أنجزتها الباحثة أنا إيليا "(Ana Elia)، واعتمدت على مقابلات ولقاءات واتصالات هاتفية مع مسؤولي مجموعات مؤسسات وهينات نقابية بإيطاليا، وركزت الدراسة على المجموعات الآتية من السنغال والمستقرة في المدن الإيطالية. المكونة لشبكات إثنية مبنية على أساس انتماء جغرافي، وأسس إثنو -لغوية (Ethnolinguistique)، المشتركة لتفادي كل الخلافات، وتحقيق التعاون والمساندة المتبادلة، بالإضافة إلى تكوين هوية موحدة تشمل كل المهاجرين القادمين من «وادي السنغال» وخصوصا «البول والتو كلور. (Peul et toucou-leur). انظر:

Anna Elia, **Les Foulbé de la Vallée du Sénégal en Italie, Réseaux Ethno – Communautaires et Stratégies Migratoires**, L'Har– –.mattan, Paris : France, 2006

(2) يقصد بالفولب (Foulbé)المجموعتين الإثنيتين «التكروريين « و»الفلان» حيث تتحدثان «اليولارية). انظر:
Ibid. p.p.09-

(3) Ibid., p.p.10

الرغبـات الحياتيـة الضروريـة؛ بل أصبـح هدف المهاجرين الشـباب سـواء مـن المغاربة أو السـنغاليين التخلـص والتحـرر مـن قيـود المجتمـع التقليـدي. لكنهم في المقابـل أمام الإقصـاء الاجتماعـي والاقتصـادي والسـياسي الـذي يتعرضون لـه في المجتمع المسـتقبل، يضطـرون إلى خلـق شـبكات إثنيـة عـلى أسـاس لغـوي أو بنـاء اسـتراتيجيات هجروية مبنيـة على أسـاس الانتماء (تجمعـات عائليـة، الولادة في الهجـرة، هجرة الإنـاث، وهجرة كبار العائلـة ...)[1].

2. قناة الهيئات والمؤسسات الجمعوية الثقافية:

يعتمـد أفـراد المجتمعين المغربي والسـنغالي عـلى روابطهـم الاجتماعية لتلبيـة احتياجات معينـة أو حـل مشـاكل محـددة. وتشـمل هـذه الروابـط: الأسرة، الأصدقـاء، المجموعات العرقيـة، الأحـزاب السياسـية، الأخويـات الدينيـة، شركاء العمـل، النقابـات والهيئـات، والمؤسسـات الجمعويـة الثقافيـة غـير الحكومية.

وقـد تمكـن المغاربـة والسـنغاليون مـن التأقلـم مع عـدة أزمـات اقتصاديـة واجتماعية (الجفـاف، الجـوع، الكوارث الطبيعية....) وسياسـة (الاسـتعمار والحـروب الأهلية ....). اعتمـادا عـلى القيـم المجتمعيـة الإفريقية التي تشـدد على المسـاعدة والتكافـل والعضوية في شـبكات التضامـن المتنوعة.

وبالجملة، فقد أسهمت الهيئات والمؤسسات الجمعوية الثقافية في عملية انتشار وامتداد العناصر الثقافية المادية والفكرية بين المجتمعين المغربي والسنغالي، بالإضافة إلى إحداث التغير الاجتماعي، وخلق الظروف والشروط المواتية للعلاقات المتكافئة والتأثيرات البينية للسمات الثقافية بين البلدين الأفريقيين الشقيقين. وتعتبر الجمعيات الدينية في السنيغال من أكثر الطوائف انتشارا وتأثيرا منذ 1950م[2]؛ ونذكر من أهمها:

الاتحاد الثقافي الإسلامي (Union Culturelle Islamique): ينظم منذ سنة 1977م أسبوعا ثقافيا، يتم من خلاله التعريف بأبرز الشخصيات الإسلامية في السنغال، وتحظى هذه التظاهرة بتغطية إعلامية مميزة.

---

(1) يعتبر غياب مجال التفاعل بين المهاجرين والمؤسسات الرسمية، وغياب ممثلين لها داخل هذه المؤسسات من أهم العوائق التي تجعل منهم مواطنين من الدرجة الثانية؛ حيث إنهم لا يتمتعون بحقوقهم الاجتماعية في المجال السياسي، مما يجعل هؤلاء المهاجرين ينطوون على أنفسهم، ويبحثون عن حلول انطلاقا من مواردهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية؛ فإما أنهم يخلقون شيكات إثنية على أساس لغوي (Ethnolinguistique) بعقد علاقات على أساس اللغة دون الانتماء بالضرورة إلى مجال جغرافي معين، أو على أساس بناء استراتيجيات هجروية مبنية على أساس الانتماء إلى مجال جغرافي واحد (بلد أو قرية معينة)،وكل هذه الاستراتيجيات تصب في إطار محاولات فرض «رؤية ثنائية « للتفاعل مع المجتمع المستقبل دون إغفال التعلق والتذكير بالقيم الاجتماعية والثقافية التقليدية. انظر:

- Ibid، p.p.11-15.

(2) khadim Mbacké, **la vie sociale**, op.cit. p.243.

جمعيـة بنـاء المسجد الكبيـر: (Association pour la Construction de la grande mosquée):

تأسســت ســنة 1960م، وأصبحــت حاليــا تحمل اســم (جمعية بنــاء المعهد الإســلامي)، وهــو معهــد يســتقبل أكثــر مــن 1700 طالبا يتلقــون تعليمــا عربيــا -إســلاميا، ويقوم بنــشر أبحــاث قيمــة في المجال الإســلامي، كمــا يتم تنظيــم مســابقات قرآنية، ومســاعدة المعتنقــين الجــدد للإســلام من الوثنــين لإدماجهــم في الديانة الإســلامية الســمحة.

- **اتحــاد التقــدم الإســلامي: (Union pour le Progrès Islamique):** هــو مركــز اجتماعــي، وثقــافي يضم عــدة مرافــق ومؤسســات للتكويــن والتلقين.

- **جمعيــة عبــاد الرحمــان: (Association Ibadarahâmane):** تأســت ســنة 1978م، تملــك مــدارس إســلامية وتقــوم بتنظيــم لقــاءات خــلال الفــترة الصيفيــة لنــشر الثقافة الإســلامية.

- **جمعيــة أصدقــاء فاس:**[1] أســهمت بشــكل كبير في تحقيــق اندماج الســنغاليين في المجتمــع المغربــي، والمحافظة عــلى الطرق الصوفيــة الســنغالية (التجانيــة والمريدية والقادريــة) في فــاس المغربيــة، حيــث تحوي ضريــح الأب الروحي المؤســس للطريقة التجانية.

وقد تأسســت جمعيات أخرى على أســاس النشــاط المشــترك، مثل الاتحــاد الوطني للائمة الســنغاليين، وجمعيــة الكتاب والصحافيــين المثقفين بالعربيــة، ومركز عبــد الرحمان بن خلــدون الثقــافي بمدينة تييــس (Thiès)، والاتحاد الوطنــي لمدارس القــرآن الكريم بدكار (1978م)، بالإضافــة إلى نقابــة معلمــي اللغــة العربيــة بالســنغال (1974م)، واتحــاد مدرسي اللغــة العربية بالحزب الاشــتراكي الحاكــم (p.s)[2].

تميــزت العلاقــات بــين أعضاء هــذه الهيئــات والجمعيــات بقوتهــا التي تصــل إلى حدود

---

(1) أسست جمعية أصدقاء فاس سنة 1933م، وتضم 350عضوا، تشرف على عقد لقاءات صوفية، وتنظيم الزيارات إلى فاس من قبل الأفارقة التي يتوافدون عليها من مختلف البلدان الإفريقية خصوصا من السنغال. وتعتبر فاس في نظر السنغاليين العاصمة الدينية والروحية، والبقعة المقدسة التي تضم ضريح الأب الروحي للطريقة التجانية، حتى أصبح السنغاليون يحجون إلى فاس، واعتبروا المناسك التي يؤدونها بفاس كعمرة الفقراء (Dahira de Fez au Maroc) .
انظر للتفصيل في الموضوع:
Chekhouna Beye, op, cit, p. 143 ; Fatima Ait Benhmadani et Zoubir Chattou, op. cit, p,21 ; Daniel Correa, L'Etat et les – Confessions Religieuses de Sénégal, in: **Archive – Dakar, Sénégal**, Po,lll, 4 ,674,p,43;Omar Kane, Les Relation entre la Communauté Tijané de Sénégal et la Zawiya du Féz,op,cit,p,05.
وقد أشارت صحيفة "le soleil" إلى كون فاس المقدسة تعتبر جسرا روحيا بين المغرب والسنغال.
Voir : Le Soleil, Mamadou lamine Dieye, Mercredi 09 Novembre 2016, In : A.N.S. (dossier concernant la coopération entre le Maroc et le Sénégal).

(2) مهدي ساني صالح: **الإسلام وتداخل الثقافات في السنغال**، م.س، ص، ص،230-233.

الصداقــة التي تتخطــى الأعضاء لتصــل لعائلاتهم وأقربائهم، وبفضلها اســتطاع ســكان الســنغال التغلــب على قســاوة الحياة؛ حيث يتم مشــاركة الأفــراح والأحزان مــع الآخرين.

اســتغلت هــذه الهيئــات والمؤسســات الجمعويــة الثقافيــة الحفــلات والمناســبات لتنظيم لقــاءات لجــذب قاعدة شــعبية عريضة، حيث أســهمت بشــكل كبــير في توطيــد العلاقات بــين الأريــاف والمــدن المبنيــة عــلى التعــاون والتكافل بينهمــا. ومن خــلال هــذه اللقاءات يتــم جمــع التبرعــات وتوحيد الرؤى مــن أجل إنتــاج وتنفيذ مشــاريع تهم تأهيــل المجال القــروي ومســاعدة ســكانه على تحمــل أعبــاء الحياة.

تؤكــد المعطيــات الميدانيــة، أن الســنغال يتوفــر عــلى منظمــات للتعامــل مــع الفقــراء والمحتاجــين، وهــي تابعة للطــرق الصوفيــة المهيمنــة داخل المجتمــع الســنغالي كمنظمة (Muqtafina) التابعــة للطريقــة التجانية، والتي أسســها (الشــيخ عبدوالعزيز سي الإبن) بتيفاويــن ســنة 1978م. وتقوم هــذه المنظمــة بتوزيع الخرفان بمناســبة عيــد الأضحى عــلى الفقــراء والمحتاجــين، والمــواد الغذائيــة خــلال شــهر رمضــان واللــوازم المدرســية للأطفــال والتــبرع بالدم.

وتقــوم المســاجد – أيضــا- بنفــس الــدور التكافــلي؛ حيث أكد لنا إمام مســجد مســالك الجنــان (الشــيخ عيســى)[1] أن أئمة المســاجد بالســنغال يقومــون بتوزيــع الصدقات كل جمعــة على المكفوفــين والمعاقين. وســارت رابطات الأبــاء والأمهات في القرى الســنغالية[2] عــلى نفــس النهــج التضامنــي، وأدت دورا متزايــدا في تمويــل المــدارس، وتوفــير اللوازم، والمــواد الدراســية في الأريــاف. وعــلى نحو مماثــل، تتطلع اللجــان الصحيــة القروية بدور طلائعــي في بنــاء المراكز الصحيــة الخاصــة بالأمومــة، وإدارة توزيع الأدوية البســيطة.

في دكار، تــم تنظيــم جمعيــات الأحيــاء للتعامــل مــع مشــاكل الــصرف الصحــي، وجمع القمامــة والنظافــة وغيرها، كمــا نظمت رابطــات الفلاحين، مثــل رابطة مزارعــي منطقة والــوا «واتحــاد ســونينكي» مشــاريع زراعيــة معتمدة عــلى الري.

وفي هذا الســياق، أســهم المغرب بشــكل كبــير في الديناميــة المجتمعية والثقافية المشــتركة بــين المغــرب الســنغال؛ حيث قام المغــرب بكهربة قرى شــمال الســنغال، وتمويــل زراعة حقــل في منطقة تييــس (Thiès)، والذي تبلغ مســاحته 100هكتارا[3]. كما قام بتأســيس

---

(1) مقابلة مع الشيخ عيسى، إمام مسجد مسالك الجنان يوم الجمعة 14 نونبر 2021، م (أشرت إلى هذه المقابلة سابقا).

(2) Sheldon Gillard, op.cit, p,120.

(3) Le Soleil, Omar kandé, le vendredi 04 Août 2017, In A.N.S. (Dossier concernant la Coo-

الـرواق المغربـي في المهرجـان العالمـي للفنـون الزنجيـة المنظـم بـدكار سـنة 1966[1]، والمشـاركة في تنظيـم المعـرض السـنغالي عـن الفنـون الحديثـة، والصناعـة التقليديـة والكتب بمناسـبة الأسـبوع العالمـي الثقافي السـنغالي[2].

إن اندمـاج السـنغاليين في المغـرب مرتبـط بالعلاقـات العريقـة التـي تجمـع البلديـن، والـذي ينبغـي أن تأخذه باقـي الدول كنمـوذج للصداقة بـين البلدين؛ بحيـث تعتبر مدن فـاس ومراكـش والجنـوب المغربي مـن المجـالات الثقافيـة التي يجـد فيها السـنغاليون ضالتهـم في اكتسـاب العلـم، وتغذية الـروح، والتجـارة، والحفـاظ على هويتهـم الثقافية والاجتماعية.

ومـن أهـم التطورات، التي شـهدها المجتمعـان المغربي والسـنغالي -منذ الاسـتقلال- هو التغـير في دور المـرأة والشـباب ومركزهمـا، فقـد تـم تغريـز مشـاركة المرأة في سياسـة البلديـن، مـن خـلال زيـادة فـرص الحصـول عـلى التعليـم، والحـد مـن عـبء العمل التقليـدي في المناطـق القرويـة؛ بـل سـمح للنسـاء بالمشـاركة السياسـية مـن خلال حق الاقـتراع، وتقلـد المناصـب السياسـية في الحكومتـين المغربية والسـنغالية[3]. وقد شـغلت النسـاء في مقاعـد في البرلمـان، والتحقـن بالتدريس في الجامعـات، وشـاركن في المؤتمرات الدوليـة. واسـتطاعت المـرأة في كلا البلديـن تنظيـم رابطـات نسـائية واتحـاد وطنية، واسـتطاعت المـرأة القرويـة في المجتمعـين تنظيـم مشـاريع اقتصاديـة مختلفة[4].

عـلى الرغم مـن التغير الاجتماعي الـذي طرأ في مركز المـرأة المغربية والسـنغالية، فمازالت الفجـوة الاجتماعية والثقافية واسـعة بين النسـاء الأفضـل تعليما والأكثر تطـورا في المدن وإخوتهـن في القـرى، الـشيء الـذي يعكـس الفـوارق الاجتماعيـة والثقافيـة العامـة بين الحـواضر والأرياف.

(pération entre Maroc et le Sénégal).

(1) المملكة المغربية، عشر سنوات المنجزات الثقافية في عهد الحسن الثاني (1961-1971)، (إشراف محمد الفاسي) م. س. ص.386.

(2) نفسه.

(3) قبل سنة 1946م لم يكن يسمح للنساء بالتصويت؛ لكن منذ الاستقلال، منحت المرأة حق الاقتراع، وكانت نشيطة في السياسة السنغالية، وتمكنت المرأة من تقلد المناصب؛ حيث أصبحت «كارولين ديوب» وميمونة كين» أول امرأتين تحصلان على رتبة وزارية في الحكومة السنغالية. وخلال التسعينات من القرن 20 م. ازدادت مشاركة المرأة في السياسة؛ حيث شغلت عشر نساء مقاعد في البرلمان في انتخابات ماي 1993م، وهو رقم قياسي بالنسبة للمشاركة السياسية للمرأة السنغالية. انظر:

- Sheldon Gellar, op.cit, p.122.

(4) نظمت المرأة الريفية في السنغال مشاريع اقتصادية مختلفة (مثل: حدائق الخضروات، وتربية المواشي الصغيرة) لإعانة الافراد، والأسرة ودخل المجتمع المحلي، وسارت المرأة المغربية القروية على هذا المنوال، فاستطاعت الانخراط في مجموعة من المشاريع والتعاونيات التضامنية (كتعاونية الأركان، والماشية).
انظر: مقابلات مع مجموعة من النساء القرويات اللواتي أسهمن بشكل كبير في تنظيم عدة تعاونيات بنواحي الأطلس الكبير الغربي وبالضبط بمنطقة إداوتنان التابعة لإقليم أكادير.

بالنسبة للشباب، أصبح توفير فرص العمل لهم من أصعب المهام التي تواجه الحكومات المتعاقبة في البلدين المغربي والسنغالي. وقد عملت الدولتين الإفريقيتين حل بعض المشاكل من خلال التركيز على فئة الشباب؛ باعتبارها المجموعة المتميزة داخل المجتمعين، بمحاولة توفير فرص العمل، وإرساء مرافق رياضية للشباب الحضري، وفي هذا الشأن أحدثت حكومات البلدين -بعد الاستقلال -وكالات خاصة للتشغيل، كوكالات تنفيذ مشاريع الأشغال العامة لمكافحة البطالة الجزئية بالسنغال[1]، بتمويل من البنك الدولي، والوكالة المغربية للتعاون الدولي (A.M.CI) التي تشرف على تكوين الأطر الأفارقة في المجالات التقنية والمهنية، وإحداث مقاولات لتشغيل الشباب الأفريقي في إطار التعاون جنوب-جنوب[2]، وكل ذلك بهدف توفير فرص العمل وتدريب الشباب، وتسهيل اندماجهم في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية .

هكذا سعت الهيئات والمؤسسات الجمعوية الثقافية المشتركة بين المغرب والسنغال إلى تعميق وترسيخ الروابط الثقافية والاجتماعية بين البلدين عبر احتضان ورعاية الأنشطة الفكرية والنصوص بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية، وقامت أيضا بتنشيط الممارسة الصوفية في معظم الحواضر المغربية–السنغالية التي تشبع بها العامة والخاصة منذ أن دخل «الإسلام المغربي الذي يعتمد على عنصر التصوف إلى هذه المجالات الثقافية المشتركة[3].

كما عملت هذه المؤسسات إلى إيجاد مناخ ملائم لتنمية الروابط وتضامن المجتمعين المغربي والسنغالي، ووضع لبنات الثقافة المشتركة بين البلدين التي جسدتها الهجرات، وعلاقات الدم، والزواج والمصاهرة، والفيض الروحي للتقاليد الصوفية، والرحلات

(1) قامت الحكومة السنغالية برعاية برامج تدريبية خاصة بالحرفين الشباب والمزارعين، والرعاة، إلى جانب توفير الأراضي في المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة، وأنشأت -أيضا- مراكز للشباب الريفي، ومرافق رياضية في الأرياف السنغالية، وقامت بتخفيض سن الاقتراع إلى 18 سنة لتشجيع انخراط الشباب في العمل السياسي. انظر:

- Sheldon Gellar, op, cit. p.p. 124-125

(2) Aitboud Benchekroun Bouchra et Slaoui Aya, op.cit, pp.132-133; Le Soleil, Tata Sane, Mercredi 06 novembre , 2018,A.N.C (Le dossier concernant la Coopération Maroc- Sénégal).

(3) Johara Berriane, Entre Ancrage Local et Connexions Transnationales : pratiques, représentations et enjeux auteur de la Zaouïa d'Ahmed- AL Tijani de Fès, In : **Etudes Africaines Comparées**, pp.04-05.

- انظر كذلك: خالد القضاوي، «البعد الأمني في الاستراتيجية المغربية الجديدة تجاه القارة الإفريقية»، ضمن: **المغرب في محيطه الإفريقي**...، م.س، صص.344-346. (أشار إلى أن السنغال تستقي المرجعية الروحية إلى حد كبير من مراكز مذهبية وصوفية مغربية، وقد عرف عهد الملك محمد السادس انبعاثا قويا للبعد الديني الروحي في حسابات السياسة الخارجية للمملكة المغربية بإرثها التقليدي، وثقل الرمزية الدينية التي تلعب فيها مؤسسة إمارة المؤمنين دورا مركزيا في توجيه السياسة الخارجية والدينية للملكة).

العلميـة؛ حتـى أصبحـت التنوعـات الثقافية المشـتركة بـين البلدين مصدر قـوة، ومرتكز لتحقيق التنميـة الاقتصادية والاجتماعية والاسـتقرار السـياسي.

على سبيل الختم:

لقد اسـتدعت تطبيقات المشـترك الثقافي بين المغرب والسـنغال فكرة التبـادل والتعاون في العديـد من المجـالات الاقتصادية والاجتماعيـة؛ فقد شـكلت الروابط التاريخيـة والثقافية المشـتركة بـين المغـرب والسـنغال قاعـدة قويـة وصلبـة للتعـاون الاجتماعـي والتبـادل الاقتصـادي، وكان مـن أهـم النتائـج الإيجابية لانتشـار الثقافـة المغربيـة بنمطيها المادي والروحـي في بـلاد إفريقيـا عمومـا عـبر المغـرب، ما حدث مـن توسـيع لشـبكة الروابط والاتصـالات الإنسـانية والاقتصاديـة مـع العديـد مـن الـدول الإفريقيـة، وخصوصا مع البلد الشـقيق السـنغال.

الفلاحة في الصحراء المغربية
زمن الوجود الإسپاني
دراسة في وثائق الأرشيف الإسپاني

د. عادل بن محمد جاهل[1]

على سبيل التقديم:

تُعدّ الصحراء المغربية مجالًا جغرافيًا ذا خصوصيات طبيعية واجتماعية واقتصادية متفردة، وقد شكّلت على مرّ العصور فضاءً للتفاعل الحضاري والديناميكية المجالية مع قوى أجنبية، كان من أبرزها التغلغل الإسپاني الاستعماري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد. وفي هذا السياق، لا تقتصر أهمية دراسة الوجود الإسپاني في الصحراء على الجوانب السياسية والعسكرية فحسب؛ بل تمتد لتشمل أبعادًا اقتصادية ومعيشية دقيقة، من ضمنها النشاط الفلاحي -(زرعًا وضرعًا)- الذي ظل، رغم قساوة الظروف المناخية وتحديات البيئة الصحراوية القاهرة، عاملًا من عوامل الاستقرار المجتمعي وتدبير الموارد الطبيعية في المنطقة. ويتناول هذا البحث موضوع "الفلاحة في الصحراء المغربية زمن الوجود الإسپاني" بوصفه مدخلًا لفهم عميق لسياسات الاحتلال في استغلال المجال الطبيعي وتوجيهه لخدمة أهدافه الاستعمارية الضيقة، ورصد تأثير تلك السياسات على البنية الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين. ويعتمد هذا العمل على مادة أرشيفية إسپانية خريدة ومتنوعة، تمثّل مصدرًا ثمينًا لفهم ممارسات سلطات الاحتلال فيما يخص الزراعة، والرعي، والري، وتدبير الأراضي، فضلًا عن استجلاء دور الفاعلين المحليين في هذا المجال، سواء باعتبارهم قوة عاملة أو فاعلين اقتصاديين يتّسمون بروح المقاومة والصمود. ويسعى هذا البحث إلى استكشاف طبيعة الفعل الاستعماري الإسپاني في الصحراء من زاوية مغايرة للتناول التقليدي، عبر تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي المتعلق بالفلاحة، وتوظيف الوثائق الأرشيفية الإسپانية بوصفها أداة بحثية وعلمية دقيقة تسمح بإعادة تركيب معالم هذه المرحلة التاريخية المثيرة، ومساءلة آثارها البنيوية على حاضر ومستقبل الفلاحة في الأقاليم الصحراوية المغربية.

أولاً: الأنشطة الفلاحية:

I. واقع الفلاحة في الصحراء المغربية خلال مرحلة ما قبل الوجود الإسپاني:

يظهر لنا من خلال استقراء مجموعة من الوثائق والمصادر والروايات الشفهية أن النشاط الفلاحي في منطقة الصحراء المغربية كان يعد نشاطًا ثانويًا، نظرًا لعدة اعتبارات نحسبها وجيهة ومقنعة، وخصوصًا في صحراء الساقية الحمراء ووادي الذهب (تيرس)، وتحديدًا قبل ثلاثينات القرن الميلادي العشرين[1]. ويمكن القول، بناءً على ما سقناه من الأمثلة لأجل التوضيح، إن أرض الصحراء أرض بكر قلما خدشها المحراث؛ إذ إن النشاط الزراعي كان عاملاً مساعدًا فقط للتنمية الحيوانية بالمنطقة. ويبدو من قرائن وشهادات مختلفة أن السبب في هذا يرجع بالأساس إلى طبيعة المناخ الصحراوي الجاف، وكذلك إلى ضعف التساقطات المطرية؛ بحيث إن هذه الأخيرة لا تهطل أبدًا في المنطقة بشكل مستمر ومنظم، الأمر الذي جعل ساكني هذا المجال الصعب مناخيًا لا يهتمون كثيرًا بهذه الأنشطة الزراعية. ولكن هذا لا يعني البتة أن سكان منطقة الصحراء المغربية لم يمارسوا النشاط الفلاحي خلال هذه المرحلة التاريخية، حيث يتضح لنا من خلال قراءة متأنية في المصادر التي تركها الكتاب الأجانب، وعلى وجه التخصيص نصوص ومستندات الرحالة الإسپان، أن منطقة حوض وادي نون خلال القرن الميلادي التاسع عشر، وأيضًا خلال الربع الأول من القرن اللاحق، كانت تعرف نشاطًا زراعيًا ملحوظًا، منذورًا أساسًا للمعاش وليس للكسب والتراكم[2]. وأكثر من هذا وذاك، تؤكد لنا أحد التقارير الأمريكية الغميسة، القريبة من هذا التاريخ، أن أرض حوض وادي نون تعد خصبة وصالحة للزراعة، بيد أنها لم تُستغل بالكيفية المثلى في ذلك الحين من طرف فئة المزارعين[3]. ومما يؤكد هذا أكثر، ما أسفرت عنه تحريات عدد من المستكشفين الإسپان ممن اهتموا برصد إمكانات الصحراء الاقتصادية، حيث يخبرنا المستكشف الإسپاني خواكين ڭاتيي إي فولتش أن الفلاحة جد متواضعة في هذه المناطق الصحراوية مقارنة مع ناحية سوس؛ إذ

---

(1) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.496, 81/11548.

(2) Joaquín Gatell, "El Uad Nun y Tekna", In **Revista de Geografía Comercial de Madrid**, Núms.12-15, Año II, 30 de enero de 1886, (pp.197-205), p.203.

(3) Félix Mathews, "El Sus, El Uad Nun y el Sáhara", In **Boletín de la Sociedad de Geográfica de Madrid**, Núm.8, Año VII, Junio de 1882, (pp.513-525), p.513.

إن سكان حوض وادي نون وحدهم، وحتى أزوافيط وبعض القبائل المجاورة لوادي درعة، هم الذين كانوا ينهمكون في فلاحة الحقول[1].

وفي الإطار ذاته، أشار هذا الرحالة إلى أن الحبوب، وعلى وجه التحديد الشعير، تشكل المنتوج الأساسي والوحيد بالبلد، مع وجود بعض البقوليات. كما حاول بعض الفلاحين في المنطقة إدخال البطاطس، بيد أنها لم تحقق أي نجاح يُذكر. أما الفواكه؛ فتتمثل في التين والتمر والعنب والرمان، إضافة إلى أنواع أخرى لا تستحق الذكر حسب بيانات الرحالة نفسه. كما تعرف المنطقة زراعة التبغ، لكنه ذو جودة رديئة. وفي السياق ذاته، يذكر الرحالة أن شجرة الأرگان، وهي نوع من أشجار الزيتون، شائعة في سوس، في حين لا وجود لها في حوض وادي نون، حيث ذكر أنه لم يَرَ في كل أرجاء هذه المنطقة سوى مئات من أشجار الأرگان البئيسة. وأضاف كذلك أن عسل الدغموس يعد مورد ثروة حقيقية بالنسبة للسكان؛ إذ إن الأراضي التي يكثر فيها الدغموس بوفرة يتوفر فيها الماء للنحل. أما على الجانب الآخر من وادي درعة؛ فينمو هذا النبات بكمية كبيرة، بحيث يغطي كل السهول والهضاب تقريبًا، لكنه لا يحقق أي فائدة أو ربح مادي. ويُعرف الدغموس في اللهجة الشلحية باسم "تِيكِيوْتْ"، وهو نوع من أنواع الصبار، سيقانه شبيهة بـ "أنجبار" البساتين، وينمو قصيرًا بشكل متكاثف، مشكلاً مجموعات ذات شكل كروي، فيما يكون عصيره لبنيًا، وتسبب قطرة واحدة منه في الفم حرقة لا تُطاق. أما زهرته؛ فهي حمراء اللون، والعسل الذي ينتجه ليس أكثر عذوبة من العسل العادي، بيد أنه لا يضر بالأسنان، ويستعمله الأهالي بكثرة عبر مزجه بالزبدة. وفي المقابل، يُحدثنا الرحالة عينه عن المجال الممتد من أساكا إلى وادي درعة، وحتى أبعد من ذلك بكثير، حيث تتم زراعة بعض الحبوب، وفي موسم الأمطار تكون الحقول مغطاة بالخضراوات، ابتداءً من وادي درعة، حيث يبدأ المجال الصحراوي[2].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، وبخلاف ما هو شائع، فإن منطقة حوض وادي نون، حسب معطيات قنصل الولايات المتحدة الأمريكية العام في المغرب خلال النصف الثاني من القرن الميلادي التاسع عشر، فيليكس ماثيوس، عرفت انتشار زراعة اللوز بشكل ملفت للانتباه، حيث كانت الكميات المنتجة من هذا المحصول وفيرة[3]. غير أن غالبية المصادر الإسبانية تُلحّ على أن القمح والشعير شكّلا أساس النشاط

(1) Gatell, "El Uad Nun...", op.cit., p.203.

(2) Ibid., pp.198-199.

(3) Mathews, "El Sus...", op.cit., p.514.

الزراعـي في المنطقـة خـلال هـذه الفـترة التاريخيـة[1]، إلى جانب زراعـة النخيـل[2]. لقد أسـهمت المـوارد المائيـة التـي كانت تتوفـر عليهـا منطقة حـوض وادي نـون في انتعاش الفلاحـة فيهـا؛ إذ إن الأودية والمجـاري المائية التي تعـبر مجالها كثـيرة ومتنوعة، ويمكن تفصيلهـا عـلى النحـو التـالي: وادي أسـاكا، يقـع على حـدود إقليم سـوس، يبلـغ عرضه اثنـي عـشر مترًا في المتوسـط، ويصـب مياهه في المحيـط، وادي صيـاد، يبلغ عمقـه أربعة أمتـار، يحتـوي عـلى قليـل مـن الميـاه، ويصـب في نهـر أسـاكا، ووادي مكْيطـع الصفا، يتميـز بمياهـه المالحة جـدًا، ويبلغ عمقه نحو سـتة أمتـار، وهو أحد روافد وادي أسـاكا، وعيـون واركْنـون، تنبع مـن الجبال جنـوب أزوافيط، وتصـب في وادي صيـاد، وعيون أم العشـار، يبلـغ عمقهـا نحو ثمانيـة أمتار، وتتميـز بمياههـا العذبة التي تمر عـبر كْلميم، عاصمـة منطقـة حـوض وادي نون، قبـل أن تصـب في وادي صياد، ووادي أسـيف أُزرو، نهـر صغـير بـلا ماء، يبلـغ عمقـه نحو ثلاثـة أمتـار، ويتجـه نحـو وادي صيـاد، ونهر الخراويـع، يبلـغ عمقه حـوالي ثلاثة أمتـار، يتميز بنـدرة مياهه، ويصب في وادي أسـاكا، وادي البوديـات، يبلـغ عمقه سـتة أمتـار، مياهه عذبة، ويصـب في وادي مكْيطـع الصفا، وعيـون البيـلال، يبلـغ عمقهـا حـوالي ثلاثـة أمتـار، وتصـب في أم العشـار، وعـين أمان أوشـان، تنبـع مـن صخرة يُقـال إنها فُتحـت من قِبـل النصـارى، وفقًا لإحـدى الروايات المتداولـة بين سـكان المنطقة، وتصب في أسـيف أُوزْرو. وتُـبرز هذه الشـبكة المائية أهمية المـوارد الطبيعيـة في المنطقـة، والتـي سـاعدت، ولـو بشـكل محـدود، عـلى قيام نشـاط زراعـي رغم الظـروف المناخية القاسـية.

إن جميـع هـذه المجاري المائيـة تتدفق مـن الجبال الواقعـة في الشرق والجنـوب الشرقي. وهنـاك أيضًـا نهـران صغـيران قليـلَا الأهميـة والفائـدة، يُطلق عـلى الأول اسـم لبيض، بينمـا يُطلـق عـلى الثانـي اسـم سيبيسـة، ويصـلان إلى أسـاكا عـلى بُعد ثلاثـة وعشرين كيلومـترًا تقريبًـا مـن كْلميم. كمـا يجري نهـر مالح آخر يُسـمى بوايسـافن، يَسـيل من جبـل تامسـوك، وينمـو تدريجيًـا ليصـب مياهـه في المحيـط[3]. لا تقـدم منطقـة حوض وادي نـون، بحـصر المعنـى، مجـاري مائيـة أخـرى غـير التـي تـم ذكرهـا قبـل قليل،

(1) Emilio Bonelli, **El Sáhara: Descripción geográfica, Comercial y agrícola desde Cabo Bojador a Cabo Blanco, Viajes al interior, Habitantes del desierto y consideraciones generales**, Madrid: Tipolitografía de L. Péant e Hijos, Ministerio de Fomento, Edición Oficial, 1887.p.96. Pulido, **Algo...**, op.cit., p.62. **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.527, 81/11579. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.663, 81/11715.**

(2) Bonelli, **El Sáhara...**, op.cit., pp.96-97. Dos Oficiales del Ejército, **Posesiones españoles en el África Occidental**, Madrid: Imprenta y litografía del depósito de la guerra, 1900, p.95.

(3) Gatell, "El Uad Nun...", p.202.

باستثناء بعض الينابيع أو العيون القليلة القيمة والأهمية. وباختصار شديد، يبلغ عدد الأودية والمجاري المائية الموجودة في منطقة حوض وادي نون وبلاد تكنة، حسب معطيات الرحالة خواكين ڭاتيي إي فولتش، نحو أربعة وعشرين مجرى، تصب عشرة منها في المحيط. ومن جهة أخرى، تؤكد بعض المستندات الإسپانية أن مجموعة من القبائل الصحراوية كانت تتعاطى للفلاحة أكثر من غيرها، من قبيل قبائل العروسيين وإزرڭيين وأولاد تيدرارين، حيث يُقال إن قبيلة الرڭيبات، مثلاً، لم تهتم إطلاقًا بالفلاحة إلا في بداية القرن الميلادي العشرين[1]. ويُحدثنا المؤرخ والأنثروپولوجي الإسپاني خوليو كارو باروخا، في هذا الصدد، أنه سمع من أحد أفراد قبيلة إزرڭيين، أثناء تحرياته الميدانية في صحراء الساقية والوادي خلال خمسينيات القرن المذكور، أن قبيلته تتباهى كثيرًا بكونها هي التي علّمت قبيلة الرڭيبات طرق وتقنيات الفلاحة والزراعة، في الوقت الذي لم يكونوا يمارسون فيه سوى النشاط الرعوي وما يتصل به[2].

وما نريد التأكيد عليه مما سبق عرضه هو أن القبائل المحاربة في المجال الصحراوي المدروس كانت تعتقد، إلى زمن قريب، أن **"البيت الذي يدخله المحراث يدخله العار"**[3]. وحسب الروايات المكتوبة والمتداولة شفاهيًا بين سكان الصحراء المغربية، فإن هذه القبائل المحاربة كانت تحتقر الأنشطة الفلاحية؛ إذ دعوا إلى عدم الاحتراف بها، معتبرين أنها لا تليق بوضعيتهم الاجتماعية ولا بمكانتهم الاعتبارية، كما كانوا يعتقدون أنها تناسب فقط الضعفاء والعاجزين عن الظعن والانتجاع، لا الرجال الذين خُلقوا لركوب الأهوال وخوض القتال[4]. ولعل مما يزيد في تأكيد هذا الاستنتاج، رواية شفهية محلية أثبتها المؤرخ الإسپاني المتقدم ذكره في مصنفه المعنون بـ "دراسات صحراوية"، حيث أشار إلى أن عناصر عديدة من قبيلة أولاد دليم لم يزرعوا أي أراضٍ في الصحراء المغربية إلا في الربع الأول من القرن الميلادي العشرين[5]. وإن أشارت الرواية الشفهية عينها إلى أن بعض أفراد قبيلة أولاد دليم أكدوا أن أراضي في منطقتهم، وتحديدًا تيرس، كانت مزروعة على بكرة أبيها، إلا أن المؤلف نفسه يذكر أن هذه

(1) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.498, 81/11550**.

(2) Julio Caro Baroja, **Estudios saharianos**, Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, 1955, p.106.

(3) Ibidem.

(4) Ibidem.

(5) Ibidem.

القبيلة كانت تبيع أو تقايض حبوب الشعير التي تزرعها في مجالاتها الاعتيادية مع تجار بلاد تكْنة مقابل السكر والقطران، الذي كانوا يستعملونه كثيرًا في علاج داء الجرب المهلك الذي يصيب ماشيتهم وإبلهم[1]. ولكن، مع بداية العقد الخامس من القرن العشرين للميلاد، وبالضبط سنة 1952م، تغيرت كل هذه المفاهيم والأفكار والتصورات، حيث دخل المحراث الزراعي، أو "لْمَحْرَاثْ"، خيام الدليميين، وهم سكان الصحراء المغربية الأكثر تشبثًا بالأعراف والعوائد المحلية التقليدية؛ بحيث إنه يتراءى لنا أنه بدءً من هذه السنة، بدأ رويدًا رويدًا استعمال المحاريث الزراعية في فلاحة الأراضي بشكل كبير، وبالذات في منطقة جنوب رأس بوجدور. وحسب إحدى الإشارات التاريخية البديعة التي دوّنها أحد الدارسين الإسپان؛ فقد تم استعمال المحراث أيضًا في عملية حرث الأرض حتى في شبه جزيرة الداخلة في اتجاه الداخل[2].

وغني عن البيان والتفصيل، الإشارة إلى أن الأراضي التي كان يتم استغلالها فلاحيًا في منطقة الصحراء المغربية وما إليها، تنقسم إلى قسمين رئيسيين، وهما: الأراضي المنخفضة أو ما يسمى في اللهجة المحلية بـ "الگراير"، وتلك الواقعة على ضفاف الأودية والأنهار، حيث تتجمع مياه الأمطار حتى تشكل بركًا كبيرة؛ وهي ما يطلق عليها في اللسان الحسّاني بـ "المَعْذَرْ"[3]. ويبدو من المفيد أن نذكر، هنا، أن الگراير نفسها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، حسب معطيات المؤرخ والأنثروپولوجي الإسپاني خوليو كارو باروخا، حيث نجد أولاً: الگرارة الملائمة للنباتات والأعشاب، ثم ثانيًا: الگرارة التي تستخدم عادةً في مجال الزراعة، وأخيرًا: الگرارة الأكثر عمقًا بالنسبة لمستوى سطح الأرض، والتي تُستغلّ مساحة منها للفلاحة، بينما تُستخدم المساحة الأخرى للتزود بالماء[4]. ولا يفوتنا التأكيد، أيضًا، على أن الأشغال الفلاحية في المجال الصحراوي تبدأ في الغالب بـ "البسملة"، ثم بعد وصول الفلاح إلى الگرارة، يباشر عملية قطع النباتات والزوائد وحرقها، وهي ما يُعرف محليًا بـ "لْحْرِيگْ". وغالبًا، تتم هذه العملية عندما يكون قد مضى وقت طويل على حرث الگرارة، وبعد ذلك تُستعمل النباتات المحروقة كسماد، كما أن رطوبة الأرض الناجمة عن عدم حرثها لمدة طويلة تمنحها نوعًا من الخصوبة. وبعد الانتهاء من لْحْرِيگْ، يتم تحديد علامات

(1) Ibidem.

(2) Ibid., pp.106-107.

(3) Lafuente, **Algo...**, op.cit., p.257. Ángel Flores Morales, **El Sáhara español: Ensayo de geografía física, Humana y económica**, Madrid: Ediciones de la Alta Comisaría de España en Marruecos, 1946.p.145.

(4) Baroja, **Estudios...**, op.cit., p.113.

معينة بالمحراث الزراعي الخشبي، الذي يجرّه في العادة جمل من فئة "أَزْوَازِيلْ"، وتُربط بجسمه مجموعة من المعدات والآليات. وتبدأ العملية بخط طويل يسمى محليًا بـ "رَاسْ الْمَرْجَعْ"، والذي تنطلق منه، على مسافة كل ثلاث خطوات، خطوط عمودية تُعرف بـ "أَمْطِيرَ". وبعد إتمام هذه العملية، تأتي مباشرةً عملية حرث الأرض بعد أن تُزرع البذور أولاً، ثم تليها عملية الحصاد، التي تعد أصعب وأشق مراحل الفلاحة في الصحراء المغربية. غير أن ما كان يخفف من وطأتها هو التعاون الجماعي بين ساكنة المجال، وهو ما يُعرف محليًا بـ "تويزة الشعير"، التي تتخذ شكلين: "تويزة الحرث" و"تويزة الحصاد"[1]. وتتفق جل المصادر التاريخية المعتمدة هنا على أن هذه العملية الجماعية في المجال الصحراوي تكتسي طابعًا احتفاليًا، لا يمكن تصوره أبدًا في العمل المؤدى عنه، مما يعكس الطابع التضامني العميق الذي ميّز البنية الاجتماعية في هذا المجال[2].

وتتم عملية الحصاد هذه باستعمال أداة خاصة مسننة تسمى بـ "الْمَنْجَلْ". وحينما يبدأ الحصاد، يتجمع الرجال في رأس الحقل، حيث يقوم أحدهم بترأس أطوار هذه العملية المضنية والمثيرة، ويطلق على هذا الشخص في اللسان الحسّاني بـ "الْمْعَلَّمْ"، ويؤخذ هنا بعين الاعتبار اتجاه هبوب الرياح لتسهيل العملية. ويتقدم الْمْعَلَّمْ أثناء الحصاد في خط مستقيم، ويتبعه باقي الرجال موازاة معه، حتى يصلوا إلى الطرف المقابل من الحقل، ثم يعودون إلى نقطة البداية ويتقدمون بالطريقة نفسها[3]. وتجدر الإشارة إلى أنه في العادة، يكون هناك فرد ضمن المجموعة يتأخر في عملية الحصاد، وفي هذه الحالة، يقوم أفراد المجموعة بإلقاء بعض مما حصدوا أمامه استهزاءً وسخرية، كما أنهم أثناء الأكل يلقون له العظام للغاية ذاتها. ومهما يكن، فإن كل مشارك في الحصاد يحصد غالباً ما يصل إليه طول يديه، لذا يتم وضع من لا يتقن التقدم في خط مستقيم بين اثنين لضمان سير العملية بانضباط. وبالعودة إلى المادة المصدرية المتاحة، ولا سيما مخطوط "جوامع المهمات في أصول الرگيبات"، نستشف منه أن **"العادة عند الرگيبات في الحراثة، أن من كان له الدابة التي يحرث عليها والبذر، ومعه رجل آخر، فله الربع في عمل يده، سواء يقود الجمل أو يمسك المحراثة، وإن كان واحد له الجمل والثاني له البذر، فالنصف لكل واحد منهما. وأما الحصاد، فإن العادة فيه، أن يكون للأجير صاع لليوم، أو صاعان، أو ثلاث ربعيات، ويرعى في ذلك كثرة الزرع وقلته، وتنتهي عادتهم في الفلاحة بذلك"**[4].

(1) Ibid., pp.124-125.

(2) Ibid., p.125.

(3) Ibid., p.120.

(4) محمد سالم بن الحبيب بن الحسين بن عبد الحي، **جوامع المهمات في أصول الرگيبات**، مخطوط غير منشور،

وبعـد الانتهـاء من عمليـة الحصاد في المجـال الصحراوي، تبـدأ عملية الـدرس، حيث يتم اختيـار أرضيـة منبسـطة ومدكوكة جيـدًا، كما يتـم في الوقت ذاتـه ربط الجِمـال بعمود خشـبي متـين يُثبَّت في وسـط الأرضية المسـتوية التـي هُيِّئت مسـبقًا. وأثناء الـدرس، يتم دس المحاصيـل مـن الحبوب تحت وطء أقـدام الجِمال، فيمـا تجري عملية عـزل الحبوب عـن التبـن بعنايـة فائقـة، حيـث يُحصـل عـلى كليهما بعـد تعريـض المحصـول للرياح باسـتخدام آلة تسـمى بــ "المَـدْرَة"[1]. وبعـد انتهاء هـذه العمليـة، يتم تجميـع المنتوج المحصـل عليه فيما يسـمى محليًا بــ "المَطْمُورَة" أو "مْـرَسْ الـزْرَعْ" أو "أتْبَابِينْ"[2]. إلا أن مـا ينبغـي ملاحظته والتأكيـد عليه في هذا السـياق هـو أن الأراضي الصالحـة للزراعة في المجـال الصحـراوي كانـت تُـوزَّع بطريقـة مرضية بـين الجميـع، كمـا أن المنتوجات الفلاحيـة المتواضعـة المحصـل عليهـا كانـت تصبـح ملكيـة مشـتركة بـين جميـع أفراد القبيلـة؛ بحيـث يتم تقسـيمها بشـكل يـرضي الجميـع[3]. والظاهر، حسـب مـا تمدنا به المصـادر التاريخيـة الإسـپانية، أن الأراضي المزروعـة في المجـال الصحـراوي كانت تُقاس في العـادة بواسـطة وحـدة تُعرف في اللسـان الحسّـاني بــ "أَحْبَـلْ"، أما الحـدود، التي تُسـمى محليًا بــ "عَاوْتَـاتْ"؛ فكانت تُحدد باسـتخدام الحجـارة كعلامات تشـوير[4].

غـير أنـه مـن المهـم الإشـارة إلى قضيـة تاريخيـة بـارزة تتعلـق بالمسـألة الفلاحيـة في الصحـراء المغربيـة، ودورهـا الكبـير في نشـأة بعـض المـدن الصحراويـة، وعـلى وجـه الخصـوص مدينـة العيـون. فمـن خـلال معطيـات تاريخيـة متعـددة، يتبـين أن أفـرادًا مـن قبيلـة إزركيـين، الذيـن كانـوا يمارسـون الزراعـة الموسـمية، اضطلعـوا بـدور مهـم في هـذا السـياق، لا سـيما الإخـوة أولاد البشـير ولـد أنـدور، وهمـا: عطـاف وميـان. وكان هـؤلاء الإخـوة، عنـد تعـرض مراعيهـم للجفـاف أو اجتيـاح الجـراد أو المجاعـات أو الأوبئـة، فضـلاً عـن الحـروب القبليـة المسـتمرة، يضطـرون منـذ ثلاثينيـات القـرن

ألكالا دي إيناريس: مؤسسة الأرشيف العام للإدارة (.A.G.A)، و.3.

(1) Baroja, **Estudios…**, op.cit., pp.120-120.

(2) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.663, 81/11715.** Ángel Doménech Lafuente, **Algo sobre Rio de Oro**, Madrid: Selecciones Gráficas Diagonal, 1946, p.219. Manuel Mulero Clemente, **Los territorios españoles del Sáhara y sus grupos nómadas**, las Palmas de Gran Canaria: Edición el Siglo, 1945.p.415.

(3) Attilio Gaudillo, "Apuntes para un estudio sobre los aspectos etnológicos del Sáhara occidental: Su constitución básica", In **Cuadernos de estudios africanos**, Num.19, 1952, (pp.57-65), pp.57-58.

(4) Baroja, **Estudios…**, op.cit., p.115.

الميلادي العشرين إلى الانتجاع بمواشيهم وإبلهم نحو منطقة تمتد بين وادي الشبيكة ورأس بوجدور، المعروفة بوفرة مياهها العذبة وغطائها النباتي الوفير. وقد أقاموا في عام 1935م هناك بناءً متواضعًا من الحجر والطين والخشب وسعف النخيل، في موقع يُعرف بـ "سوق الجاج"، على الضفة اليسرى لوادي الساقية الحمراء، ليكون مستودعًا لمحاصيلهم الزراعية ومؤنهم الأساسية. وتشير إحدى الروايات الشفهية المحلية إلى أنه عندما تحسنت إنتاجية أفراد أسرة أهل أندور واستقروا على ضفاف وادي الساقية الحمراء، تمكن ميان من جمع كميات كبيرة من المحاصيل المتنوعة. وكلف أحد عماله، ويدعى محمد عادل ولد أحمد، بنقل جزء من هذه المحاصيل إلى القوات الإسپانية المتمركزة في واحة المسيد، الواقعة على بعد خمسة عشر كيلومترًا جنوب شرق العيون، والمشهورة بأشجار النخيل وإنتاج التمور. وعند وصوله إلى المخيم الإسپاني، قام بتبادل تلك المنتوجات الفلاحية المحلية، مثل: الطماطم، والقرع، والذرة، والنعناع، والبصل، والبطيخ، والتين، بمنتوجات غذائية أجنبية، مثل: الزيت، والسكر، والدقيق، والشاي[1]. وما يلفت الانتباه في هذه الرواية أن الجنود الإسپان أبدوا دهشة كبيرة لجودة المنتجات الزراعية الصحراوية، مما دفع الجنرال أنطونيو دي أورو پوليدو، قائد القوات الإسپانية، إلى الاستفسار عن مصدرها. وعندما علم أنها تُزرع على ضفاف الساقية الحمراء بالقرب من مضارب أهل أندور، قرر لقاء مالكي هذه "الضيعات الفلاحية". وعند عودة العامل إلى لفريڭ، أبلغ سيده بنيّة الإسپان في زيارته، غير أن الأب أبدى معارضة شديدة لاستقبالهم في مضيفته، معللًا ذلك بأنهم نصارى وليسوا على ملة الإسلام. وبعد مشاورات داخل الأسرة، تقرر استقبالهم لكن خارج المسكن، حيث نُصبت لهم خيمة بعيدة عن لفريڭ. وقبل وصول القوات الإسپانية بقيادة الجنرال أنطونيو دي أورو پوليدو والقبطان ڭالو بويُّون دياث (Gallo Bullón Díaz)، امتطى الأب فرسه وغادر المكان، ولم يعد إلى لفريڭ إلا بعد غروب الشمس، رافضًا لقاء الإسپان أو الجلوس معهم[2].

(1) José Manuel Meana Palacios, **Orígenes y desarrollo urbano de Aaiún (1934-1975)**, Tesis doctoral, La laguna: Universidad de la laguna, Departamento o instituto universitario, 2015, p.123.

(2) Ibidem.

A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja –

II. بصمة الاحتلال الإسپاني على الفلاحة الصحراوية (الذروة وعلامات الأفول)

1. المشهد الفلاحي في الصحراء المغربية زمن الوجود الإسپاني:

كانت الفلاحة في منطقة الصحراء المغربية دائمًا مرتبطة بثلاثة عناصر أساسية: المناخ، والأرض، والماء. وعلى الرغم من أن هذه العناصر حاسمة في أي بيئة زراعية، فإنها تكتسب أهمية استثنائية في المجال الصحراوي، حيث تقل الأمطار، وتكون التربة صخرية صلبة، وتهب الرياح بشدة، فضلًا عن التفاوت الكبير في درجات الحرارة بين النهار والليل. ونتيجةً لهذه الظروف القاسية، ظلت الفلاحة التقليدية في الصحراء محدودة للغاية، مقتصرة على زراعة الشعير، الذي لا ينمو إلا عندما تكون الظروف الجوية ملائمة. وكان السكان المحليون يزرعون في المناطق المنخفضة المعروفة باسم "الگرارات"، نظرًا لقدرتها على الاحتفاظ بالرطوبة أكثر من غيرها من الأراضي. وكان الاعتقاد السائد آنذاك أن هذا النوع من الفلاحة يعتمد بالأساس على "رحمة الله"؛ إذ لم يكن هناك ما يمكن فعله لتحسينها. غير أن الأمور تغيرت جذريًا بفضل تنفيذ مشروع زراعي واسع النطاق، بعد اكتشاف مصادر مياه وفيرة في مناطق مثل الداخلة (المعروفة سابقًا باسم بيا سيسنيروس)، والعرگوب، وتوارتا، وغيرها من النقاط. وإضافة إلى ذلك، أُجريت تجارب زراعية لاستغلال أراضي "الگرارات" بشكل أكثر فاعلية، وتحسين جودة البذور، وتدريب السكان المحليين على استخدام الجرارات والآلات الحديثة، وفق أحدث أساليب الفلاحة وقتئذ. وكل هذا شكّل حسب الوثائق الإسپانية المعتمدة **"ثورة زراعية بطيئة، لكنها راسخة، في سبيل تطوير الفلاحة الصحراوية"**[(1)].

والعنصر الحيوي في هذا التحول كان الماء؛ فبفضل اكتشاف المياه الجوفية -التي أشرنا إليها آنفاً- تحقق إنجاز تقني غير مسبوق في بيئة الصحراء المغربية. وقد مكّن ذلك حسب بعض الوثائق الإسپانية الرسمية من توفير مساحات واسعة للرعي، مما أسهم في تطوير تربية المواشي وفق أساليب حديثة، وإدخال سلالات جديدة قادرة على التكيف مع الظروف

Núm. D.527, 81/11579.

(1) Ibidem.

المناخية القاسية. وبذلك، لم تقتصر الفائدة على هذه المواشي المستقدمة؛ بل انعكست إيجابًا على القطاع الفلاحي ككل. ومن بين "الإنجازات" البارزة، تأمين إمدادات وفيرة من المياه الصالحة للشرب لمدينة الداخلة، مما لبّى احتياجات السكان وأتاح استخدام الفائض من المياه العذبة في الأغراض الزراعية[1]. وفي عام 1965م، أُنشئت "مزرعة اختبارية" (Huerta Expérimental) في الداخلة، على مساحة تقارب نصف هكتار. وقد جُهزت هذه المزرعة بأحدث الآلات الزراعية، مثل المحاريث والناقلات، كما تم استخدام الأسمدة الكيماوية، ومبيدات الحشرات، ومواد لمكافحة الأعشاب الضارة. وبعد تجفيف التربة، أُضيف إليها ألف وخمسمائة كيلوغرام من التربة المحسّنة، وألف كيلوغرام من الأسمدة الكيماوية. كما أقيمت جدران وقائية، وبُني صهريج لجمع المياه، إضافة إلى إنشاء شبكة ري حديثة. وقد أسفرت هذه الجهود عن مواسم زراعية جيدة من حيث الإنتاجية، استمرت لعدة سنوات. وفي مزرعة تنغير الإسبانية، أُنتجت أعلاف الحيوانات، وتم فصل المزارع عن بعضها عبر مناطق السبخة. أما في توارتا؛ فقد أدى التنقيب عن المياه الجوفية إلى اكتشاف مصدر مائي هائل، يقدر بحوالي ألفين وثمانمائة متر مكعب يوميًا، مما شجّع على إنشاء مزرعة جديدة بمساحة خمسة عشر هكتارًا، خصصت لزراعة الخضر والأعلاف. وهذا الاكتشاف عزز فكرة توسيع الأراضي الزراعية المروية في منطقة السبخة، حيث كان من الممكن ري نحو أربعة آلاف هكتار حينها. ومع ذلك، فإن المناطق الشمالية من الصحراء لم تكن تتمتع بالموارد المائية عينها، مما دفع الإدارة الإسبانية إلى إطلاق مشاريع ري صغيرة، لتخفيف حدة المشكلات الزراعية وتحسين الإنتاج[2]. ولكن، ورغم هذه المحاولات، لم تتمكن السلطات الإسبانية من تحقيق نجاح يُذكر في تطوير الفلاحة الصحراوية، حيث لم تستغل الإمكانات الاقتصادية الكاملة للمنطقة. فإلى جانب العوامل المناخية الصعبة والجفاف، شكلت أسراب الجراد المهاجر تهديدًا موسميًا، حيث كانت تقضي على كل غطاء نباتي يعترض طريقها[3]. كما زادت الأوبئة والسيول الجارفة من تفاقم

(1) Ibidem.

(2) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539.**

(3) آنخيلا إيرنانديث، **حرب أعلام في الصحراء (محنة إسبانيا في الصحراء)**، ترجمة: ماء العينين مربيه ربه، سلا: مطبعة بني يزناسن، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط.1، 2006، ص.240.

الأوضـــاع، ممـــا أســـهم في تعقيـــد المســـألة الفلاحيـــة الصحراويـــة بشـــكل كبـــير[1].

2. أثـــر التحديـــث الكولونيـــالي عـــلى الزراعـــات الأساســـية في الصحـــراء المغربيـــة:

ســـعت الإدارة الاســـتعمارية الإســـبانية إلى تطويـــر القطـــاع الفلاحـــي في منطقـــة الصحـــراء المغربيـــة، مرتكـــزة عـــلى ثلاثـــة محـــاور أساســـية: تأهيـــل العنـــصر البـــشري عـــبر تدريـــب الســـكان المحليـــين عـــلى التقنيـــات الزراعيـــة الحديثـــة، وإصـــلاح الأراضي الصالحـــة للزراعـــة وتجهيزهـــا للاســـتغلال الفلاحـــي، وإدخـــال زراعـــات عصريـــة ذات مردوديـــة عاليـــة بهـــدف تحســـين الإنتـــاج الزراعـــي. غـــير أن هـــذا الطمـــوح الإســـباني الواســـع لتنميـــة الفلاحـــة الصحراويـــة اصطـــدم بواقـــع المنـــاخ القـــاسي للمنطقـــة، حيـــث الحـــرارة المرتفعـــة والجفـــاف المســـتمر عـــلى مـــدار الســـنة، مـــع غيـــاب شـــبه كلي للأمطـــار، ممـــا حـــدّ بشـــكل كبـــير مـــن نجـــاح هـــذه المبـــادرات الإســـبانية آنـــذاك.

ولكن، مع حلول منتصف ستينيات القرن الميلادي العشرين، بدأت الظروف في التحسن تدريجيًا، خاصة بعد إنشاء مزرعة نموذجية قرب مدينة الداخلة، والتي اضطلعت بدور مهم في تغطية الاحتياجات المحلية من الخضر، إلى جانب إدخال أنواع جديدة من المواشي المتكيفة مع المناخ الصحراوي. وقد تمت الاستعانة بأنظمة ري يومية للحفاظ على خصوبة التربة، كما أسهم تعزيزها بالفوسفاط في رفع مردودية الإنتاج، مما أتاح زراعة أنواع متنوعة من الخضروات، مثل: الفجل، والطماطم، والخس، والقرنبيط، والبطاطس، والكرنب. مشكّلًا بذلك تحولًا مهمًا في المشهد الزراعي للمنطقة[2].

ورغم هذه الجهود، ظل القطاع الفلاحي محدود التأثير على تحقيق الاكتفاء الذاتي، حيث استمرت المنطقة في الاعتماد على الإمدادات القادمة من الشمال. كما أن هذه المشاريع، رغم إسهامها في تشغيل بعض السكان المحليين، لم تُحدث تحولات جذرية في أنماط العيش التقليدية؛ إذ ظل الرعي والتجارة يشكلان العمود الفقري للاقتصاد المحلي. ومع ذلك، مهّدت هذه التجارب الزراعية الأولى الطريق لمبادرات لاحقة أكثر تطورًا، خاصة بعد انخراط الدولة في مشاريع أوسع نطاقًا خلال العقود اللاحقة، مستفيدة من التقنيات الحديثة والموارد المائية غير التقليدية لتعزيز التنمية الفلاحية في المنطقة.

---

(1) **A.G.A., IDD (15) 023.000, Caja Núm. AF, S 12.** Clemente, **Los territorios...**, op.cit., p.54.

(2) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539.**

أ. مردودية الحبوب في الصحراء المغربية ما بين سنتي 1947م و1960م بالقنطار في الهكتار[1]

السنوات	الشعير		تگاليت (الذرة البيضاء)		الذرة	
	المساحة المزروعة بالهكتار	الإنتاج المحصل عليه بالقنطار	المساحة المزروعة بالهكتار	الإنتاج المحصل عليه بالقنطار	المساحة المزروعة بالهكتار	الإنتاج المحصل عليه بالقنطار
1947م	778	4.323	2	23	100	315
1948م	295	899	_	_	15	60
1949م	715	6.376	3	_	_	_
1950م	965	4.680	8	85	_	_
1951م	668	22.064	1	145	_	_
1952م	450	12.652	8	130	_	_
1953م	364	6.902	7	120	_	_
1954م	432	17.573.35	7	152.3	_	_
1955م	279	4.615	_	_	_	_
1956م	280	2.437	6	40	_	_
1957م	320	12.240	5	58	_	_
1958م	_	_	_	_	_	_
1959م	_	_	_	_	_	_
1960م	_	_	_	_	_	_

(1) F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1953**, op.cit., p.962. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1958**, op.cit., p.1034.

ب. الإنتاج الفلاحي بالكيلوڠرام بين سنتي 1948م و1950م(1)

المنتوج	سنة 1948م	سنة 1949م	سنة 1950م
الذرة	800	670	700
الفصة	1.500	1.300	3.537
البطاطا	350	_	_
الطماطم	2.100	1.000	725
البصل	800	400	2.500
الملفوف	400	210	124
الفجل	60	10	55
الجزر	85	32	10
الفول	25	15	50
التين	_	_	590

ج. الأشجار والشجيرات في الصحراء المغربية بين سنتي 1949م 1974م(2)

المنتوج	سنة 1949م	سنة 1950م	سنة 1951م	سنة 1952م	سنة 1953م
أشجار البرتقال	24	6	_	_	_
أشجار التين	44	263	293	277	165

(1) F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1951**, op.cit., p.1044. F. D. I. N. E., **Anu-ario Estadístico de España: Año 1952**, op.cit., p.930.

(2) F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1964**, op.cit., p.397. F. D. I. N. E., **Anu-ario Estadístico de España: Año 1975**, op.cit., p.397.

أشجار الزيتون	1	14	_	_	_
أشجار النخيل	2.242	3.246	3.905	3.588	3.774
أشجار vides	_	_	25	2	15
أشجار الرمان	_	_	16	13	37
أنواع أخرى	_	_	114	92	228
المنتوج	سنة 1954م	سنة 1955م	سنة 1956م	سنة 1957م	سنة 1958م
أشجار البرتقال	_	_	_	_	_
أشجار التين	305	76	178	58	28
أشجار الزيتون	_	_	_	_	_
أشجار النخيل	5.824	2.100	3.894	3.545	2.187
أشجار vides	15	_	15	13	8
أشجار الرمان	43	_	47	52	4
أنواع أخرى	232	59	262	346	300
المنتوج	**سنة 1959م**	**سنة 1960م**	**سنة 1961م**	**سنة 1962م**	**سنة 1963م**
أشجار البرتقال	_	_	_	_	_
أشجار التين	28	28	_	_	_
أشجار الزيتون	_	_	_	_	_
أشجار النخيل	_	2.000	1.000	472	549
أشجار vides	1	1	_	_	_

أشجار الرمان	12	12	_	_	_
أنواع أخرى	_	300	130	115	115

المنتوج	سنة 1964م	سنة 1965م	سنة 1966م	سنة 1967م	سنة 1968م
أشجار البرتقال	_	_	_	_	_
أشجار التين	_	_	_	_	_
أشجار الزيتون	_	_	_	_	_
أشجار النخيل	541	541	650	650	650
أشجار vides	_	_	_	_	_
أشجار الرمان	_	_	_	_	_
أنواع أخرى	_	_	10	_	_

المنتوج	سنة 1969م	سنة 1970م	سنة 1971م	سنة 1972م	سنة 1973م	1974م
أشجار البرتقال	_	_	_	_	_	_
أشجار التين	_	_	_	_	_	_
أشجار الزيتون	_	_	_	_	_	_
أشجار النخيل	650	700	700	700	700	700
أشجار vides	_	_	_	_	_	_
أشجار الرمان	_	_	_	_	_	_
أنواع أخرى	_	_	_	_	_	_

رغم أن النشاط الفلاحي في منطقة الصحراء المغربية خلال فترة الوجود الإسپاني

شـهد بعـض التحولات اليسـيرة، إلا أن هـذا القطـاع الحيوي ظـل متخلفًا نسـبيًا، يواجه أزمـات متعـددة ومشـاكل معقـدة لـم تتمكـن الإدارة الاسـتعمارية الإسـپانية ولا الفلاح المحـلي مـن تجاوزها لأسـباب عدة.

ومـن بـين العوامل الرئيسـة التي أسـهمت في تأخر الزراعـة في صحراء السـاقية والوادي، نذكر مـا يلي:

- محدودية الموارد المائية، وقلة الأراضي الخصبة، وانعدام المجاري المائية الدائمة؛
- الأحـوال المناخيـة الصعبـة والمتقلبة، التـي كان لها الـدور البارز، في وفـرة الإنتاج أو قلته ؛
- اعتمـاد الفـلاح المحلي عـلى الأدوات الفلاحية العتيقـة، وإبقاء القديم عـلى قدمه، في كل مـا يتعلق بعملية الحـرث والزرع والحصاد والتسـميد؛
- إنهـاك التربـة بزرعها كل سـنة؛ بـل في كل موسـم فلاحي، وعـدم تركهـا دون تفليح لمرحلـة زمنية يسـيرة، تسـترد فيها أنفاسـها باتباع الـدورة الزراعيـة المعروفة، وهذا راجـع بالأسـاس إلى فقـر الفـلاح وحاجتـه، بغـير أن يتمكن طبعـاً مـن التعرف على وسـائل تقوية وتغذيـة التربة؛
- قلة الأيدي الزراعية العاملة في أراضي شاسعة ممتدة؛
- صعوبة وسائل النقل والتنقل؛
- انتشـار الآفـات الزراعيـة والحيوانيـة، يرافقـه حينهـا جهـل الفلاح بسـبل مكافحة هـذه الأضرار والتحـرر منها.

إن تحليـل المـؤشرات الرقميـة والمعطيـات الـواردة في الجـداول الإحصائية أعلاه يكشـف بوضـوح عـن أهميـة التطـورات التـي شـهدها القطـاع الفلاحـي في الصحـراء المغربية، سـواء عـلى مسـتوى التجهيـزات، أو توسـيع الرقعـة الزراعية، أو تحسـين الإنتـاج. كما يعكـس ما تـم تحقيقه مـن تقدم في اسـتخدام التقنيـات الملائمـة لاختيار سلاسـل إنتاج تتكيـف مع الظـروف المناخيـة والطبيعيـة القاسـية للمنطقة.

ويسـمح تأمـل مكونـات الجـداول السـابقة، بإبـداء عـدة ملاحظـات أخـرى، وهي على النحـو الآتي:

- نسجل في البداية تقلصًا كبيرًا في المساحة المزروعة بالشعير في الصحراء المغربية خلال الفترة ما بين عام 1947م و1957م، حيث انخفضت من سبعمائة وثمانية وسبعين هكتارًا إلى نحو ثلاثمائة وعشرين هكتارًا، أي بنسبة تقلص بلغت حوالي 8,50%. ومع ذلك، ورغم هذا التراجع الملحوظ في المساحة المزروعة، شهدت كمية الإنتاج ارتفاعًا كبيرًا خلال الفترة نفسها، حيث ارتفع المحصول من أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وعشرين قنطارًا إلى حوالي اثني عشر ألفًا ومائتين وأربعين قنطارًا، مسجلًا زيادة بنسبة 10,97%. ويعكس هذا التحول المفارقة بين تقلص المساحات الزراعية وتحسن المردودية، مما قد يُفسَّر بتحسن تقنيات الزراعة وأساليب الري قليلاً، أو ربما الاعتماد على أصناف أكثر إنتاجية تتكيف مع الظروف المناخية القاسية، إلى جانب تطور أساليب استغلال الموارد الطبيعية وتعزيز المعرفة الزراعية لدى الفلاحين؛

- شهدت زراعة تگاليت (الذرة البيضاء) ارتفاعًا طفيفًا في المساحة المزروعة، حيث انتقلت من هكتارين عام 1947م إلى حوالي خمسة هكتارات عام 1957م، مسجلة زيادة بنسبة 9,60%. كما ارتفعت كمية الإنتاج بشكل ملحوظ، حيث قفزت من ثلاثة وعشرين قنطارًا سنة 1947م إلى حوالي ثمانية وخمسين قنطارًا سنة 1957م، أي بنسبة زيادة بلغت نحو 9,69%. ويعكس هذا التطور تحسن الظروف الزراعية نسبيًا أو اعتماد أساليب أكثر كفاءة في الإنتاج، رغم محدودية المساحات المزروعة، وهو ما قد يكون ناتجًا عن تطور الممارسات الزراعية، أو إدخال تقنيات محسنة، أو حتى ازدياد اهتمام الفلاحين بزراعة هذا المنتوج باعتباره جزءً من الأمن الغذائي المحلي؛

- ويُلاحظ كذلك، من خلال معلومات الجدول الأول أعلاه، أن منتوج الذرة شهد تقلصًا كبيرًا في المساحة المزروعة خلال مدة زمنية قصيرة، حيث تراجعت من مائة هكتار سنة 1947م إلى نحو خمسة عشر هكتارًا فقط سنة 1948م، أي بمعدل انخفاض بلغ حوالي 85%. كما أن الإنتاج المحصل عليه خلال هذه الفترة تقلص بشكل واضح، حيث انخفض من ثلاثمائة وخمسة عشر قنطارًا إلى ستين قنطارًا فقط، بنسبة انخفاض تقدر بنحو 80,95%. ويبدو أن هذا التراجع يعود إلى توالي سنوات الجفاف الحاد، التي استمرت لفترات طويلة، بالإضافة إلى الاجتياح الكثيف لجحافل الجراد القادم من أعماق أفريقيا الغربية، مما أدى إلى تدمير مساحات زراعية واسعة وإلحاق أضرار جسيمة بالإنتاج الفلاحي، وهو ما أثر بشكل مباشر على الأمن الغذائي للسكان المحليين، ودفعهم إلى البحث عن بدائل زراعية أكثر مقاومة للظروف المناخية القاسية؛

- ومـن الملاحظـات المهمـة التـي يثيرهـا إمعـان النظـر في الجـدول الثانـي، المـدرج أعـلاه، طبيعـة وأنـواع المنتوجـات الفلاحيـة التـي كانت تُـزرع في منطقـة الصحراء المغربيـة بـين عامـي 1948م و1968م، حيـث نجـد بعـض التنـوع رغـم الظروف البيئيـة القاهـرة. وهكذا، كان يتـم في مجال السـاقية والوادي زراعة الـذرة، والفصة، والبطاطـا، والطماطـم، والبصـل، والملفوف، والفجـل، والجزر، والفـول، والتين، وهو مـا يعكـس جهود الفلاحين في اسـتغلال المـوارد المحـدودة بأقصى كفـاءة ممكنة، من خـلال زراعـة محاصيـل متنوعـة تلائـم طبيعـة التربـة والمنـاخ، وتسـهم في تحقيق الحـد الأدنى مـن الاكتفـاء الذاتي في ظـل التحديـات المناخيـة والبيئية المسـتمرة؛

- إن الأمـر الأسـاسي الـذي يُمكـن ملاحظتـه بوضـوح، مـن خلال تتبـع دقيـق لأرقام الجـدول المذكـور، هـو أن بعض المنتوجـات الفلاحية شـهدت تطورًا بـارزًا من حيث كميـة المحصـول بالكيلوڠرام بـين عامـي 1948م و1950م. فعلى سـبيل المثال، نجد أن منتـوج الفصـة (البرسـيم) سـجل خـلال هـذه المـدة ارتفاعًـا ملحوظًـا في كمية الإنتـاج، حيـث انتقـل من ألـف وخمسـمائة كيلوڠـرام سـنة 1948م إلى نحـو ثلاثة آلاف وخمسـمائة وسـبعة وثلاثـين كيلوڠرامًا سـنة 1950م، أي بزيـادة عددية تقدر بنحـو 53,56%. ويُعـزى هـذا النمـو إلى عوامل متعددة، من بينها تحسـن أسـاليب الـري واسـتغلال المـوارد المائيـة بشـكل أكثـر كفـاءة، إلى جانـب الاهتمـام المتزايـد بزراعـة الأعـلاف نظـرًا لأهميتهـا في دعـم النشـاط الرعوي الذي يشـكل أحـد ركائز الاقتصـاد المحـلي في المنطقـة الصحراوية؛

- ويظهـر ممـا اطلعنـا عليه من وثائـق محليـة وأجنبية أن سـبب هذا الارتفـاع يرجع إلى أن نبـات الفصـة أو البرسـيم كان الطلـب عليـه قويًّا آنـذاك في منطقـة الصحراء المغربيـة ومـا إليهـا، خصوصًـا مـن طرف كبـار مربـي الماشـية ومعجّنـي اللحوم، نظـرًا لأهميته كعلف أسـاسي في تغذية القطعان وتحسـين إنتاجية الثـروة الحيوانية. كمـا شـهد منتوج البصـل، هو الآخـر، ارتفاعًـا لافتًا في كميـة الإنتاج، حيـث قفز من ثمانمائـة كيلوڠرام سـنة 1948م إلى نحو ألفين وخمسـمائة كيلوڠرام سـنة 1950م، أي بمعـدل ارتفـاع قُـدِّر آنـذاك بحـوالي 76,78%. وينطبـق الأمر ذاته عـلى منتوج الفـول، حيـث انتقـل إنتاجه من خمسـة وعشريـن كيلوڠرامًـا سـنة 1948م إلى نحو خمسـين كيلوڠرامًا سـنة 1950م، أي بنسـبة ارتفاع تعـادل 41,42%. ويعكس هذا التطـور تزايـد الاهتمـام بزراعة المحاصيـل الغذائية، التي شـكلت عنصرًا أساسـيًا في النسـيج الفلاحـي المحـلي، وذلك في ظـل سـعي السـكان لتحقيق مسـتوى معين من الأمـن الغذائي، رغـم التحديـات البيئية والمناخيـة الصعبة؛

- وبالإضافة إلى هذا كله، فإن بعض المنتوجات الفلاحية الأخرى عرفت تراجعًا لافتًا في كمية الإنتاج بالمجال الصحراوي المدروس خلال الحقبة التاريخية ذاتها، مما يعكس التأثيرات السلبية للظروف المناخية والتغيرات الاقتصادية على النشاط الزراعي. ومن بين المنتوجات التي شهدت آنذاك تقلصًا واضحًا نجد الطماطم، حيث انخفضت كمياتها من ألفين ومائة كيلوڠرام سنة 1948م إلى نحو سبعمائة وخمسة وعشرين كيلوڠرامًا سنة 1950م، أي بنسبة تراجع قُدِّرت في تلك الأثناء بنحو 41,24%. وينطبق الأمر ذاته على منتوج الملفوف، الذي سجل تراجعًا بنسبة 44,32%، والفجل بنسبة 4,26%، والجزر الذي شهد انخفاضًا حادًا بلغ 65,70%. بينما نجد منتوجات أخرى قد توقفت زراعتها بالكامل، من قبيل البطاطس، وهو ما يعكس الصعوبات التي واجهها المزارعون في تكييف إنتاجهم مع المتغيرات البيئية والاقتصادية، خاصة في ظل ندرة الموارد المائية وتوالي موجات الجفاف الحاد؛

- إن أول ما تجب المبادرة بإثباته بخصوص هذه البيانات الرقمية المعبرة هو أن الجفاف الحاد وشح المياه قد أسهما إسهامًا كبيرًا في تقلص كمية هذه المغروسات؛ فمن المعروف أن هذه النوعية من المنتوجات الفلاحية تحتاج إلى موارد مائية هائلة جدًا لضمان استمرارية الإنتاج وزيادته، وهو ما يبرز التحديات البيئية التي كانت تعاني منها منطقة الصحراء المغربية. وبالفعل، لم تكن إمكانات الصحراء المائية في تلك الفترة تسمح بتلبية احتياجات هذه المحاصيل المائية، حيث كانت مصادر المياه محدودة، ولا تتناسب مع متطلبات الزراعة المكثفة، مما أدى إلى تراجع ملحوظ في الإنتاج الزراعي؛

- ومن الملاحظات الأساسية التي ينبغي الإشارة إليها في هذه المسألة الفلاحية الصحراوية هو أن الإدارة الإسبانية قد أولت عناية خاصة لزراعة النخيل في صحراء الساقية والوادي؛ إذ كشفت لنا مجمل البيانات الرقمية الرسمية المتاحة لدينا في هذا السياق أن عدد أشجار نخيل التمر المزروعة في المجال المذكور انتقل من ألفين ومائتين واثنين وأربعين نخلة سنة 1949م إلى نحو خمسة آلاف وثمانمائة وأربعة وعشرين نخلة سنة 1954م، أي بمعدل ارتفاع عددي بلغ وقتذاك حوالي 21,04%. ومع ذلك، فإن هذا الرقم الملفت للانتباه آنذاك عرف تقلصًا واضحًا خلال الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1955م إلى غاية العام 1974م، حيث تراجع عدد تلك الأشجار من نحو ألفين ومائة نخلة إلى سبعمائة نخلة فقط، وهو ما يعكس تراجعًا في زراعة النخيل بنسبة تقدر حينئذ بحوالي 5,62%. وقد

يكـون هـذا التراجـع ناتجًا عـن عوامل متعـددة، منها الظـروف البيئية غـير الملائمة، وعـدم القدرة على توفـير الموارد المائيـة اللازمة لاسـتدامة هذه الزراعـة، بالإضافة إلى التغـيرات الاقتصاديـة والإداريـة التـي قد تكون قـد أثرت على اسـتمرارية مشـاريع الزراعـة المكثفـة في المنطقة؛

- ومـا يلفـت الانتبـاه في هـذا الصـدد هـو أن مجموعة مـن الأشـجار المثمـرة التي تم غرسـها في منطقـة الصحـراء المغربيـة، مثـل أشـجار الرمـان والزيتـون والبرتقـال والتـين، لـم تحقـق أيـة مردودية تذكـر وقتـذاك. وهو مـا جعـل الإسـپان يتركونها مـن دون عنايـة، وخصوصًـا بعدمـا تيقنـوا أن مناخ المنطقـة الصحـراوي الجاف لا يتناسـب بتاتًـا مع هـذه المغروسـات التي تحتـاج إلى كميـات كبيرة من الميـاه. وكان هـذا التراجـع في الإنتـاج الزراعـي نتيجـة مباشرة للظـروف البيئيـة القاسـية التي تمنـع نمـو هذه الأشـجار بشـكل طبيعـي؛ بـل إن الإدارة الإسـپانية، عندمـا أدركت أن المنطقـة سـتعود لا محالـة إلى الوطـن الأم (المغـرب)، قامـت بالتركيز عـلى قطاع المعادن في هـذه المرحلة التاريخية (1947م-1974م)[1]؛ فقد شـكل اكتشـاف معدن الفوسـفاط في منطقـة بوكراع نقطة تحـول هامة في توجهات الاسـتغلال الاقتصادي؛ إذ أصبـح الفوسـفاط محـورًا ديناميكيًا في اقتصاد هـذه المقاطعة، حيث كان يشـكل ركيـزة أساسـية لربـط السـكان باقتصـاد جهـوي موحـد، ما أثّـر بشـكل كبير على مجـالات العمل، والأسـواق، والأسـعار، ممـا جعله مرتبطًـا ومندمجًا بشـكل كامل في الاقتصـاد الإسـپاني[2]. هذا التحـول في التركيز الاقتصـادي كان يدل على أن الإسـپان قـد فقـدوا الأمل في نجاح المشـاريع الزراعيـة المحدودة كمًـا ونوعًا في المنطقـة، وبدأوا في تحويـل جهودهـم نحـو اسـتثمار المـوارد المعدنيـة التـي كانـت أكثـر توافقًا مع الظـروف البيئيـة المحلية[3].

ثانيًا: الرعي وتربية الماشية:

لا ضـير مـن التذكـير بـأن النشـاط الرعـوي في الصحـراء المغربيـة يعـد عمـاد اقتصاد المنطقـة[4]، حيـث اتصـف سـكان هـذه الأخـيرة بالتنقـل والترحـال وعـدم الاسـتقرار،

(1) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.500, 81/11552.

(2) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539.

(3) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.527, 81/11579.

(4) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.660, 81/11712. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.663, 81/11715.

وامتهنوا حرفة الرعي التي تتناسب مع البيئة الصحراوية القاسية، الشديدة الاضطراب والتقلب. وقد زاولت نسبة مهمة من سكان المجال خلال المرحلة المؤرخ لها، حرفة رعي الجِمال والأغنام. وأياً كان الأمر، فإن حرفة الرعي تنشط بشكل أساسي وتزداد نسبتها، وكذلك أعداد الثروة الحيوانية، في سنوات الرخاء التي تعقب سقوط الأمطار، بينما تتقلص وتنكمش بشكل لافت في سنوات الجفاف الحاد وأيام المساغب والجائحة[1]. ونستشف من خلال مجموعة من الوثائق الإسپانية التي في حوزتنا، أن الرعاة في الساقية والوادي خلال الخمسة العقود الأولى من القرن الميلادي العشرين قد تركوا حرفة الرعي وتربية الماشية والإبل بشكل مؤقت، مما أدى في تلك الأثناء إلى تقلصها بشكل ملحوظ. ويرجع هذا إلى عوامل طبيعية محضة، منها شح الأمطار وتذبذبها، وقد ترتب عن ذلك قلة النباتات والأعشاب الطبيعية الصحراوية، وعدم توفر المياه والكلأ للماشية. فنفقت آلاف هذه الحيوانات جوعًا وعطشًا، ومني أصحابها بخسائر فادحة، كما حصل خلال الفترة الزمنية الممتدة بين عامي 1973م و1974م، حيث تراجع عدد رؤوس الإبل تقريبًا من ستة وسبعين ألفًا وسبعمائة وخمسة وثمانين إلى نحو ثلاثين ألفًا ومائة وأربعة وسبعين رأسًا فقط، أي بنسبة انخفاض قدرت بحوالي 60,70%. وهو الشيء نفسه بالنسبة للأغنام والماعز، حيث تأثرت هي الأخرى بهذه التقلبات المناخية الصحراوية. وقد استفحلت هذه الأزمات باتساع دائرة الضيق والشدة في الصحراء المغربية[2].

وعلاوة على ما ذكر آنفًا، فقد لوحظ أن عددًا من الرعاة قد تركوا مهنة تربية المواشي، وهاجروا إلى المدن الصحراوية الحديثة النشأة بحثًا عن فرص عمل وظروف أفضل تضمن لهم تحسين مستوى حياتهم. وقد أسهم ذلك بشكل كبير في جذب مجموعة متنوعة من أبناء الصحراء المغربية للعمل في المناجم ومصانع تبريد السمك في كل من العيون والداخلة، مما دفعهم لترك مهنة الرعي وتربية المواشي والإبل[3]. وفي ضوء بعض الوثائق الإسپانية الرسمية التي حصلنا عليها، نلاحظ أن الجمل كان الحيوان التقليدي في الصحراء، ولا حياة هناك من دونه؛ فهو يوفر للصحراوي الحليب واللحم في أيام الاحتفالات، بالإضافة إلى الصوف الذي يُستخدم في

(1) Baroja, **Estudios...**, op.cit., p.124.

(2) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.496, 81/11548. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.527, 81/11579. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.660, 81/11712. A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.663, 81/11715.**

(3) **A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.496, 81/11548.**

صناعة أقمشة الخيام. كما يُصنع من جلده المدبوغ الأغطية والألحفة، ومنه يتم استخراج الألياف لصناعة الحبال. ومن جانب آخر، يُعتبر الجمل الوسيلة الوحيدة للتنقل في الصحراء؛ فهو بمثابة "مركب الصحراء" و"النقد المتداول"، وباختصار، هو "ثروة الصحراوي". وبعد الجمل، يأتي الماعز من حيث الأهمية؛ فهو يستطيع العيش في بيئة الصحراء اليباب ويُقدم فوائد مشابهة لتلك التي يوفرها الجمل. أما الغنم، فإن تربيته تُعد أكثر صعوبة، ولذلك نجدها أقل عددًا في المناطق الصحراوية مقارنة بالجمال والماعز. كذلك هناك الحمير والبغال، بالإضافة إلى بقر الصحراء التي تتمتع بقدرة على التكيف مع المناخ الصحراوي[1].

وقد اعتبرت الإدارة الاستعمارية الإسپانية أن بقر الصحراء هو الحيوان المثالي في ذلك الوقت في المناطق الصحراوية نظرًا لقوة بنيته وكثرة لحمه. كما قامت "مزرعة تنغير" (La Granja de Tinguir)، وهي مزرعة نموذجية، باقتناء عدد من النعاج البلدي لتربيتها وفق أساليب حديثة. وبعد عام من بدء هذه التجربة، لوحظ زيادة في عدد القطيع، كما زاد وزن الإناث المعدة للتناسل. وكانت تُجرى أيضًا في المزرعة المذكورة تجارب على الأبقار الصحراوية والأبقار المستوردة من شبه الجزيرة الإسپانية[2]. وتُعد هذه الأبقار من سلالة "ريتينتا" (La raza retinta) القادمة من مدينة ألميريا (Almeria). وكان يُتوقع منها آنذاك أن تحقق نتائج جيدة بسبب توافقها مع المناخ الصحراوي. وكان اقتناء هذه الأبقار مهمًا في تلك الفترة، حيث كان يُنتظر منها تزويد مدينة الداخلة باللحوم. وإلى جانب تحسين الإنتاج الزراعي، كان من المتوقع أن تسهم هذه التجارب في تطوير القطاع الزراعي في الصحراء، ما يؤدي إلى تحفيز الاقتصاد المحلي، وخلق فرص عمل جديدة للسكان المحليين، خاصة في مجالات الرعي والتجارة[3]. كما كانت هذه التجارب جزءً من استراتيجية استعمارية أوسع تهدف إلى تحسين الإنتاجية الزراعية في مستعمرات أخرى في أفريقيا مثل غينيا الاستوائية، حيث كان يتم تجريب أنواع جديدة من المواشي لزيادة الكفاءة في الإنتاج الحيواني. ولكن بالرغم من التفاؤل الكبير بهذه التجارب؛ فقد كانت هناك مخاوف بشأن تأثيراتها على البيئة المحلية؛ فزيادة أعداد المواشي

(1) A.G.A., IDD (15) 005.000, Caja Núm. D.487, 81/11539.

(2) Ibidem.

(3) Ibidem.

في الصحراء قد يؤدي إلى الضغط على الموارد الطبيعية المحدودة، خاصة في ظل الظروف المناخية القاسية التي تتسم بها المنطقة. ورغم التفاؤل، واجه المزارعون صعوبات في تأقلم بعض السلالات مع الظروف البيئية الصعبة، بما في ذلك درجة الحرارة المرتفعة وقلة الموارد المائية، ما أثر على نجاح بعض التجارب. كما اضطلعت هذه المشاريع بدور يسير في توطيد العلاقة بين الإدارة الاستعمارية والمجتمعات المحلية، حيث تم إشراك بعض السكان المحليين في عمليات التربية والرعي، مما أسهم في تبادل بعض الخبرات بين الأساليب التقليدية والحديثة في تربية المواشي. وكان من المتوقع أن تشهد تربية المواشي في منطقة الصحراء ازدهارًا مفاجئًا، ما يعني زيادة كميات اللحوم وارتفاع عدد أصناف المواشي[1].

i. عدد رؤوس الماشية في الصحراء المغربية بين عامي 1949م و1974م[2]

السنوات	الإبل	الماعز	الحمير	الأغنام	الأحصنة والبغال	الأبقار	الخنزير	زيبو	أنواع أخرى
1949م	65.836	232.203	518	67.704	_	_	_	_	59
1950م	57.257	137.737	593	43.867	_	_	_	_	39
1951م	65.547	81.002	491	38.306	_	_	_	_	75
1952م	72.151	101.437	551	45.509	7	_	_	_	82
1953م	73.808	100.844	577	44.583	15	_	_	_	54
1954م	48.270	81.270	363	36.787	53	_	_	_	43
1955م	51.348	88.948	594	39.057	18	_	_	_	27

(1) Ibidem.

(2) F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1952**, op.cit., p.930. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1963**, op.cit., p.385. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1969**, op.cit., p.383. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1975**, op.cit., p.397.

1956م	51.956	62.336	589	22.801	19	_	_	_	43
1957م	50.832	49.510	485	23.400	15	_	_	_	62
1958م	44.250	39.120	58	29.200	4	_	_	_	30
1959م	43.822	22.301	321	14.493	5	_	_	12	_
1960م	49.848	48.908	877	26.278	10	27	58	42	_
1961م	24.130	35.443	867	6.880	10	_	_	46	_
1962م	23.512	34.760	833	6.640	11	_	_	24	_
1963م	24.300	35.200	790	5.800	13	_	_	126	_
1964م	24.615	24.100	517	5.630	17	_	_	88	_
1965م	36.823	52.368	385	8.214	_	_	80	35	135
1966م	38.234	54.128	438	9.258	_	_	165	26	191
1967م	31.556	47.728	325	9.663	_	_	_	32	180
1968م	56.234	140.995	2.139	18.426	_	_	138	68	_
1969م	58.247	145.408	2.397	18.426	_	_	200	400	3.202
1970م	58.247	145.408	2.397	17.975	_	_	261	100	5.203
1971م	60.200	145.900	2.120	17.500	-	-	315	38	5.472
1972م	50.197	101.390	643	13.919	_	_	_	18	5.472
1973م	76.785	123.000	1.800	15.180	_	_	310	4	_
1974م	30.174	53.500	1.600	10.000	_	_	350	120	2.600

ii. مردودية اللحوم في الصحراء المغربية بالطن فيما بين سنتي 1959م و1974م:[1]

السنوات	البقري	الجمل	زيبو	الماعز	الغنم	الخنزير	الدواجن	اللحوم المجمدة (غير مفرزة)
1959م	_	378	9	62	10	_	_	_
1960م	86	248	12	43	16	9	_	_
1961م	215.9	377	_	35	26	4.4	11.4	_
1962م	216	304	_	46	15	0.7	11	_
1963م	216	441	_	71	22	1.5	12	_
1964م	260	189	_	63	13	0.5	_	_
1965م	208	231.1	5.2	12.3	4.1	5.3	_	_
1966م	_	266	5	20	5	6	_	240
1967م	_	461	17	18	10	_	_	215
1968م	_	489	35	22	4	5	_	224
1969م	_	593	74	39	5	6	_	373
1970م	_	833	77	120	35	11	_	257
1971م	20	720	81	125	3	12	16	292

(1) F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1962**, op.cit., p.357. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1966**, op.cit., p.397. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1970**, op.cit., p.383. F. D. I. N. E., **Anuario Estadístico de España: Año 1975**, op.cit., p.397.

1972م	88	9.297	22	3	5	8	62	236
1973م	237	2.647	7	2	2	_	_	627
1974م	44	1.640	22	7	3	_	_	750

ونستنتج من خلال معلومات الجداول المدرجة أعلاه، مجموعة من الملاحظات الأولية، نسردها على الشكل الآتي:

- ويلاحظ من خلال بيانات الجدول الأول أعلاه التراجع الواضح في أعداد قطعان الماشية والإبل خلال سنوات 1949م و1974م. فمثلاً انخفض عدد الإبل من خمسة وستين ألفًا وثمانمائة وستة وثلاثين رأسًا إلى حوالي ثلاثين ألفًا ومائة وأربعة وسبعين رأسًا، أي بنسبة تراجع بلغت نحو 3,07%. كما تقلص عدد الماعز في الفترة عينها من مائتين واثنين وثلاثين ألفًا ومائتين وثلاثة رأس إلى ثلاثين ألفًا وخمسمائة رأس، ما يعادل انخفاضًا بنسبة 5,70%. وتنطبق النسبة نفسها على الأغنام، حيث انخفض عددها من سبعين ألفًا وسبعمائة وأربع رأس إلى حوالي عشرة آلاف رأس، مما يعني انخفاضاً بنسبة 7,36%؛

- ويبدو أن تربية الأبقار لم تكن تحظى بقبول لدى رعاة أهل الصحراء المغربية، حيث تم إحصاء حوالي سبع وعشرين بقرة فقط في سنة 1969م. وتعود هذه الظاهرة إلى عدة عوامل ثقافية وبيئية؛ فالأبقار تتطلب عناية خاصة وتغذية موسمية قد تكون صعبة في بيئة الصحراء القاحلة. وبالمقابل، تم تسجيل زيادة طفيفة في عدد الحمير المرباة في المجال الصحراوي المدروس؛ إذ ارتفع عددها من خمس مائة وثمانية عشر رأسًا في عام 1949م إلى نحو ألف وستمائة رأس في عام 1974م، ما يعادل زيادة بنسبة 4,61%. ويعود ذلك إلى دور الحمير المهم في النقل، حيث كانت تعد وسيلة نقل رئيسة للرعاة في المناطق الصحراوية بسبب قدرتها على التحمل والملاءمة للظروف الصعبة، وهو ما يعكس التكيف المستمر لهذه المجتمعات مع بيئتها؛

- ويظهر أن مزرعة تنغير الإسبانية كانت أول من أدخل تربية الأبقار إلى الصحراء المغربية، حيث اقتنت حينها عددًا كبيرًا منها بهدف تزويد

الساكنة المحلية باللحوم. إلا أن هذه التجربة لم تحقق النجاح المتوقع في ذلك الوقت بسبب عدة عوامل وأسباب، أبرزها الظروف البيئية القاهرة التي جعلت من تربية الأبقار أمرًا معقدًا؛ فالأبقار تحتاج إلى مراعي وفيرة، وهو ما كان يفتقر إليه هذا المنطقة الصحراوية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثقافة السكان المحليين ورؤيتهم التقليدية تجاه تربية الحيوانات، والتي تركز بشكل أكبر على الإبل والماعز، قد أسهمت في عدم قبولهم هذا النوع من التربية. وهذه العوامل مجتمعة حالت من دون نجاح هذا المشروع الإسپاني، مما جعل تربية الأبقار تظل محدودة في هذه المنطقة؛

- وبالنظر إلى بيانات الجدول أعلاه، نلاحظ أن الإدارة الإسپانية قد أدخلت أصنافًا جديدة من الحيوانات إلى منطقة الصحراء المغربية، مثل الخنزير وبقر زيبو، بالإضافة إلى أنواع أخرى لم نتمكن من تحديدها. وهكذا، ارتفع عدد الخنازير المرباة في الصحراء من ثماني وخمسين رأسًا في عام 1960م إلى حوالي ثلاثمائة وخمسين رأسًا في عام 1974م، ما يعادل زيادة بنسبة 13,70%. كما شهد عدد بقر زيبو ذو السنام ارتفاعًا ملحوظًا، حيث قفز من اثني عشر رأسًا في عام 1959م إلى حوالي مائة وعشرين رأسًا في عام 1974م، أي بزيادة بلغت 16,59%؛

- ومن الملاحظات التي ينبغي تسجيلها في هذا السياق هو تنوع أصناف اللحوم المستهلكة في منطقة الصحراء المغربية خلال الفترة ما بين عامي 1959م و1974م، حيث شملت لحوم الإبل، والبقر، والماعز، والغنم، وزيبو، والدواجن، بالإضافة إلى اللحوم المجمدة. وكان يعكس هذا التنوع في المصادر تعددية الخيارات الغذائية التي اعتمدت عليها الساكنة الصحراوية، لكن تباين الظروف البيئية والاقتصادية كان له دور في تذبذب استهلاك هذه اللحوم. ويبدو أن مردودية اللحوم في المنطقة قد شهدت بعض التحولات الطفيفة بين عامي 1959م و1974م. وعلى سبيل المثال، ارتفعت كميات لحم الإبل المستهلكة في هذه الفترة بشكل ملحوظ، حيث قفزت من ثلاثمائة وثمانية وسبعين طنًا إلى نحو تسعة آلاف ومائتين وسبعة وتسعين طنًا بين عامي 1959م و1973م، ما يعادل زيادة بنسبة 27,93%. وكان لهذه الزيادة دور يسير في تنوع النظام الغذائي للصحراويين، خاصةً في ظل زيادة أعداد الإبل في تلك الفترة. ولكن بعد سنة واحدة فقط، شهدت هذه الكميات تقلصًا كبيرًا نتيجة لتأثيرات الجفاف الحاد وشح المياه، حيث

انخفضت بشكل حاد من تسعة آلاف ومائتين وسبعة وتسعين طنًا في عام 1972م إلى حوالي ألف وستمائة وأربعين طنًا في عام 1973م، أي بنسبة انخفاض بلغت نحو 82,36%. ويعكس هذا التقلص تأثيرات التغيرات المناخية على الحياة اليومية في المنطقة، حيث أصبح الجفاف يهدد بشكل كبير تربية الإبل ويؤثر في توفر اللحوم، مما دفع إلى الاعتماد المتزايد على مصادر أخرى مثل اللحوم المجمدة والدواجن؛

- وشهد استهلاك لحوم الأبقار في الصحراء المغربية ارتفاعًا ملحوظًا، حيث انتقلت الكميات المستهلكة من ستة وثمانين طنًا في عام 1959م إلى مائتين وستين طنًا في عام 1964م، ما يعادل زيادة بنسبة 24,77%. ومع ذلك، بسبب الجفاف الذي اجتاح المنطقة الصحراوية في سنوات 1973م و1974م، شهدت هذه الكميات تقلصًا كبيرًا، حيث انخفضت من مائتين وستين طنًا في عام 1964م إلى نحو أربعة وأربعين طنًا في عام 1974م، أي بنسبة انخفاض بلغت 11,17%. أما بالنسبة للماعز؛ فقد شهدت كميات اللحوم المستهلكة في البداية زيادة طفيفة، خصوصًا بين عامي 1959م و1971م، حيث ارتفعت من اثنين وستين طنًا إلى حوالي مائة وخمسة وعشرين طنًا، أي بزيادة بنسبة 6,02%. ولكن، نتيجة لتداعيات جفاف 1974م، انخفضت الكميات المستهلكة بشكل كبير، حيث تراجعت من مائة وخمسة وعشرين طنًا في عام 1971م إلى نحو سبعة طن في عام 1974م، أي بنسبة انخفاض وصلت إلى 61,74%. أما بالنسبة للأغنام؛ فقد شهدت هي الأخرى تقلصًا في كميات اللحوم المستهلكة، حيث تراجعت من عشرة طن في عام 1959م إلى ثلاثة طن في عام 1974م، أي بنسبة انخفاض قدرها 7,71%. وفي المقابل، كانت هناك زيادة ملحوظة في كميات اللحوم المجمدة المستوردة من إسبانيا، حيث قفزت من مائتين وأربعين طنًا في عام 1966م إلى حوالي سبعمائة وخمسين طنًا في عام 1974م، أي بزيادة بنسبة 15,31%. ويرجع هذا الارتفاع إلى العوامل المناخية والطبيعية الصعبة التي شهدتها منطقة الصحراء المغربية خلال هذه الفترة الزمنية، خصوصًا الجفاف الحاد وشح المياه. وبالمجمل، فإن تذبذب إنتاج الصحراء من المنتوجات الحيوانية بين الارتفاع والانخفاض يعود إلى عدة أسباب مؤثرة، أبرزها التذبذب في العدد الإجمالي للحيوانات بسبب تأثيرات سنوات الجفاف، بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل توفر الغذاء المناسب وصحة الحيوان.

تركيب:

ختامًا، يتّضح من خلال هذا البحث أن الفلاحة في الصحراء المغربية خلال فترة الوجود الإسپاني لم تكن مجرد نشاط اقتصادي هامشي؛ بل شكّلت أداة من أدوات السيطرة الاستعمارية، ووسيلة لإعادة تشكيل المجال الطبيعي والاجتماعي وفقًا لمصالح الاحتلال. كما أظهرت الوثائق الأرشيڤية الإسپانية المتوافرة لدينا أن سلطات الاحتلال سعت إلى استثمار الموارد المحدودة للمنطقة بأساليب متباينة، راوحت بين محاولات الاستغلال المباشر وخلق بنيات اقتصادية متكيفة مع الواقع الصحراوي. وفي المقابل، برز دور السكان المحليين بوصفهم فاعلين مؤثرين، حافظوا على أنماطهم الزراعية التقليدية البسيطة، وواجهوا السياسات الاستعمارية بصور متعددة من الصمود والمقاومة. ويُبرز هذا التفاعل المزدوج بين المستعمِر والمستعمَر عمق التعقيد الذي طبع العلاقة بين السلطة الاستعمارية والمجتمع المحلي، وهو ما يفتح آفاقًا بحثية واعدة لفهم التحولات التي شهدها المجال الفلاحي في الصحراء المغربية، سواء في ماضيه الكولونيالي أو في امتداداته الراهنة. وإن تناول الفلاحة في هذا السياق لا يثري فقط معرفة الباحث بتاريخ المنطقة؛ بل يسهم أيضًا في إضاءة الجوانب المغفلة من الذاكرة الجماعية، ويدعو إلى إعادة النظر في السياسات التنموية المعتمدة اليوم في الأقاليم الصحراوية، انطلاقًا من فهم جذورها التاريخية وآثارها المتراكمة.

الفصل الخامس

البرتغاليون في أفريقيا
تجارة، واستعمار، وصدام حضاري

البرتغاليون في المغرب

إعداد: د. روبير ريكار

ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل

يُشار أحياناً إلى "السيطرة البرتغالية" على المغرب، ولكن القارئ سيكتشف بسهولة، من خلال مراجعة الأحداث، أنّ هذا المصطلح مبالغ فيه. فمن الأصح القول إنّ هناك "مرحلة برتغالية" في تاريخ المغرب. وتبدأ هذه المرحلة من عام 1415م، تاريخ احتلال سبتة، وتستمر حتّى عام 1550م، تاريخ إخلاء أصيلة والقصر الصغير، بعد سقوط أكادير (1541م) وإخلاء مدينتي آسفي وأزمور (1541م-1542م). وتمثّل هذه السّلسلة من الأحداث نهاية مرحلة التوسّع البرتغالي في المغرب، وهي أكثر أهمية لفهم انحدار البرتغاليين في المغرب من كارثة وادي المخازن عام 1578م.

أولاً: المرحلة الشمالية:

بدأ البرتغاليون ترسيخ وجودهم في المغرب باحتلال مدينة سبتة عام 1415م، ما مثّل نقطة انطلاق لمرحلة جديدة من التوسّع البرتغالي. غير أنّ محاولاتهم لم تخلُ من الإخفاقات؛ ففي عام 1437م، واجهوا هزيمة نكراء أمام طنجة، حيث تم أسر الأمير فرديناند (Ferdinand)، شقيق الملك البرتغالي. وقد قضى الأمير بقية حياته في سجون فاس، وتوفي هناك عام 1443م بعد سنوات من الأسر القاسي. ومنحته هذه المعاناة، في أعين الشعب البرتغالي، مكانة خاصّة وهالة من القداسة، حتّى أطلق عليه لقب "الأمير القديس" (Infante Santo).

وبعد نحو عشرين عاماً، في عام 1458م، نجح البرتغاليون في الاستيلاء على القصر الصغير الواقع عند مضيق جبل طارق. واستمر تقدّمهم؛ ففي عام 1471م، تمكّنوا من السيطرة على مدينة أصيلة، وهو إنجاز مهّد الطريق للسيطرة على طنجة. وبذلك، بسط البرتغاليون سيطرتهم على كامل الساحل الجنوبي لمضيق جبل طارق، ما أدّى إلى قطع الاتصال بين المسلمين في مملكة غرناطة وإخوانهم في شمال أفريقيا، ممّا شكّل ضغطاً كبيراً على القوى الإسلامية في المنطقة.

ثانياً: المرحلة الجنوبية:

ابتداءً من منتصف القرن الخامس عشر، بدأ البرتغاليون يهتمّون بالتجارة في منطقة ماسّة بسوس، بالإضافة إلى نشاطهم التجاري في مدينة آسفي. وفي عام 1468م أو 1469م، دمّروا ميناء أنفا، الذي يقع في موقع مدينة الدار البيضاء الحالية.

وفي عام 1486م، قبِل سكان مدينة أزمور بسيادة الملك جواو الثاني (Jean II) ملك البرتغال. ثمّ في عام 1505م، أسّس البرتغاليون مستوطنة في أڭادير، وفي عام 1508م، احتلوا آسفي، وفي عام 1513م، سيطروا على أزمور، وفي عام 1514م، بنوا قلعة مازاڭان (الجديدة).

وكانت هذه الفترة هي ذروة قوة البرتغاليين في المغرب، حيث سيطروا على معظم ساحل المغرب من سبتة إلى أڭادير، مروراً بالقصر الصغير، وطنجة، وأصيلة، وأزمور، ومازاڭان (الجديدة)، وآسفي. وفي معظم هذه المدن، أقاموا حصوناً ستظل صامدة لقرون. ومن أڭادير، كانوا يتحكّمون في تجارة سوس، ومن أزمور وآسفي، كانوا يمتدّون إلى مراكش. وبفضل تعاون الزعماء المحليين، وكان أبرزهم يحيى بن تاعفوفت، خضعت لهم معظم قبائل السهول الأطلسية ودفعت لهم الضرائب. وبذلك، حصلوا على جزء من القمح الذي كان المتروپول البرتغالي بحاجة ماسّة إليه. وأخيراً، حصلوا على إقامة ثلاث أسقفيات في سبتة، وطنجة، وآسفي.

ولكن هذا البناء انهار في نحو خمس وعشرين سنة. وقد حاول الملك دوم مانويل (Manuel) في عام 1515م، بناء حصن عند مصب نهر سبو (المعمورة)، بيد أن هذه المحاولة انتهت بكارثة حقيقية؛ ففي عام 1517م، قُتل نونو فرنانديش دي أتايدي (Nuno Fernandes de Ataide)، أبرز حكام آسفي، في معركة، وفي عام 1518م، تم اغتيال يحيى بن تاعفوفت.

وقام الشرفاء السعديون في سوس بتحريض الناس على الجهاد المقدس، ونمت سلطتهم يوماً بعد يوم؛ ففي عام 1541م، استولوا على أڭادير. وبعد فترة وجيزة، استسلم الملك جون الثالث (Jean III) البرتغالي للتخلي عن آسفي وأزمور. وفي عام 1550م، في الشمال، أمر بإخلاء أصيلة والقصر الصغير.

وكان ذلك تقريباً نهاية المطاف، لم يعد البرتغاليون يحتفظون سوى بسبتة، وطنجة ومازاڭان.

وفي عـام 1578م، شرع الملك الشاب سيباستيان (Sebastian) فيما يشبه الحروب الصليبية ضد الكفار في المغرب. لكن حملته، التي كانت سيئة التحضير وسوء القيادة، انتهت بكارثة: تمّ هزيمته وقتله في منطقة القصر الكبير، حيث قتل أو أُسر معظم جيشه.

وعاد التاج البرتغالي إلى فيليپ الثاني (Philippe II) ملك إسپانيا، ومنذ ذلك الحين وحتّى عام 1640م، شكّلت البرتغال وإسپانيا مملكة ذات رأسين. وقرّر البرتغاليون في هذه السنة إنهاء هذه الاتحاد الذي اعتبروه عبئاً ثقيلاً، لكن مدينة سبتة بقيت تؤيّد ملك إسپانيا.

وبمناسبة زواج تشارلز الثاني (Charles II) من الأميرة كاترين البرتغالية (Cath-erine)، في سنة 1661م-1662م، تسلّم الإنجليز مدينة طنجة، حيث لم يبقوا فيها إلاّ حتّى عام 1684م. ولم يعد البرتغاليون يحتفظون سوى بمازاڭان، التي تخلّوا عنها في عام 1769م تحت ضغط السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وتم نقل سكّانها إلى البرازيل.

هذا، ولم تُكشف بعد جميع أسباب إقامة البرتغاليين في المغرب بشكل كامل. وقد تكون الحملات ضد مدن الشمال قد أُنفِذت لأسباب مختلفة عن تلك التي دفعت للتوسّع في الجنوب. وتمّ تفسير الحملة على سبتة في عام 1415م من خلال تطلّعات أبناء الملك جواو الأول (Jean I) الشباب الذين كانوا يطمحون إلى تحقيق المجد العسكري والحصول على رتبة فرسان. كما كانت هناك حاجة إلى إشغال النبلاء البرتغاليين الذين كانوا يعانون من البطالة بعد السلام مع قشتالة في عام 1411م، بالإضافة إلى الرّغبة في فصل الإسلام الغربي وتقليل القرصنة البربرية.

كما يمكن تصوّر بعض الأسباب الاقتصادية، لكن تلك الأسباب تبقى غير واضحة، في حين أنّ الأسباب المرتبطة بالجنوب تظهر بشكل أكثر وضوحاً.

وكان البرتغاليون في جنوب المغرب يطلبون القمح، الخيول، والأقمشة، وخاصّة الأغطية المعروفة باسم "الحنبل". وقد كان القمح يُستخدم جزئياً لتزويد البرتغال بالإمدادات اللاّزمة لمواجهة المجاعة المزمنة التي كانت تعاني منها، وجزئياً للتجارة في المحطّة التجارية في أرڭين الواقعة على الساحل الصحراوي. أمّا الخيول؛ فكانت تُصدّر إلى السودان، حيث كانت تُعتبر سلعة ذات قيمة كبيرة.

أمّـا بالنسـبة للحنبـل؛ فكانـت تُبـاع في أرگـين، وكذلـك داخـل أراضي أفريقيـا جنـوب الصحـراء، وعـلى سـواحل خليـج غينيـا. وقـد بلـغ هـذا النشـاط التجـاري ذروتـه إلى حـد دفـع البرتغاليـين للتخـلي عـن دور الوسـيط البسـيط، والتوجّه نحـو إنتـاج الحنبل بأنفسـهم في مدينـة آسـفي.

وفي المقابـل، كان البرتغاليـون يحصلـون عـلى العبيد من السـودان، حيث كان من السّـهل مبادلـة حصـان واحـد بحـوالي خمسـة عـشر عبداً أسـود. كمـا كانـوا يحصلون بشـكل رئيـسي على الذّهب، الذي أسـهم في تمويـل رِحْلاتهم البحريـة الكبرى والمكلّفـة، بالإضافة إلى شراء التوابـل مـن الهنـد، التـي كان احتكارهـا لفـترة طويلـة يشـكّل أسـاس قوّتهم الاقتصادية.

ويتّضـح مـن ذلـك أنّ التجـارة البرتغاليـة في المغـرب كانـت مرتبطـة ارتباطـاً وثيقـاً بتجارتهـم في أفريقيـا جنـوب الصحـراء. كمـا يتبـيّن أنّ المغـرب كان يحتل مكانـة أكثر أهميـة في الاقتصـاد الإمبراطـوري البرتغـالي ممّا يُعتقـد عادةً؛ بـل وأكثر ممّا تَـمَّ تصوّره لفـترات طويلة.

وكان انحطـاط المسـتوطنات البرتغاليـة في المغـرب بمثابـة تمهيـد لانهيـار الإمبراطورية البرتغاليـة بشـكل عـام، نتيجـة لأسـباب يمكـن وصفهـا بـــ "العضويـة"؛ فقـد كانت المواقـع البرتغاليـة في المغـرب، كمـا يُقال، "معلّقـة في الهواء". وباسـتثناء أزمور وآسـفي لفـترة قصـيرة، لم تكـن هذه المواقـع مسـتندة إلى مناطق مسـتقرة ومؤمَّنـة. وقد فرضت الصعوبـات الماليـة عـلى البرتغاليـين انتهـاج سياسـة الاحتـلال المحـدود، وهي سياسـة خطـيرة تَـمَّ تخفيـف آثارها جزئيـاً بفضـل براعتهم العسـكرية والسياسـية.

أمّـا الحاميـات البرتغاليـة، التـي كانت ضعيفـة التجهيز وسـوء الإمـداد والتمويـل؛ فقد عانـت مـن تدهور مسـتمر. وبسـبب نقـص الرجـال، اعتمـد البرتغاليون بشـكل متزايد عـلى المرتزقـة الأندلسـيين الذيـن افتقـروا إلى الكفـاءة والانضبـاط. ومـن بـين ممتلكات البرتغاليـين المختلفـة، كانـت المواقـع المغربيـة أولى ضحايـا أزمـة الخزينـة العامّـة التي أرهقتهـا إسراف الملـك مانويـل الأول (1495م-1521م) والعـبء الثقيـل الـذي فرضته الإمبراطوريـة الشاسـعة عـلى بلـد صغـير، لم يكـن عدد سـكانه يتجـاوز المليون نسـمة آنذاك.

ولكـن، إلى جانـب ذلـك، بـرزت ظـروف تاريخيـة غـير مواتيـة؛ فقـد أثـارت تهديـدات البرتغاليـين والإسـپان -الذيـن اسـتقرّوا في مليليـة عـام 1497م، بينمـا واصـل

مستوطنو جزر الكناري شن غارات متكرّرة على السّاحل الصحراوي– رد فعل عنيفاً في جميع أنحاء المغرب، تمثل في ظهور حركة إسلامية وطنية مناهضة للأجانب.

وبرزت هذه الحركة الدينية في الشمال من خلال جمهوريات صغيرة مستقلّة، مثل الجمهورية الأندلسية في تطوان وإمارة شفشاون، في حين تجلّت في الجنوب بظهور الأشراف السعديين واتساع نفوذهم بسرعة. ومع استمرار التدهور الداخلي للنظام البرتغالي، أصبح عاجزاً عن مقاومة هذا الضغط القوي. وجاء سقوط أگادير عام 1541م ليشكّل الضربة القاصمة التي أضعفت النظام البرتغالي بشكل نهائي، ممّا أدّى في النهاية إلى انهياره الكامل.

ولا ينبغي أن تجعلنا قصر مدّة الفتوحات البرتغالية في المغرب وهشاشتها النسبية نغفل عن أهميتها وقيمتها؛ فقد أسهم وجود البرتغاليين بشكل غير مباشر في تعزيز الإسلام المغربي، وفي ظهور وعي وطني جنيني، وفي انتصار الدولة السعدية.

كما أنّ التقنيات العسكرية التي اعتمدها البرتغاليون، والتي كانت بمثابة تكييف بارع للأساليب التي تَمَّ تطويرها في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال سنوات طويلة من "الاسترداد"، إلى جانب أساليبهم السياسية، ومرونتهم وبراعتهم في التعاون مع الزعماء المحليين، وذكائهم في استغلال التجارة البربرية وإدراجها ضمن إمبراطوريتهم، جميعها تحمل دروساً قيّمة ومفيدة.

ومن المهم أيضاً إعادة وضع المستعمرات البرتغالية في المغرب ضمن سياق العالم الإسپاني؛ فقد كانت جزءً من تلك الحركة التقدّمية للحضارة في شبه الجزيرة الإيبيرية، التي تشكّلت إلى جانبها من بيسا-أندلوسيا البحرية (خيريث دي لا فرونتيرا، وبويرتو دي سانتا ماريا، وقادس)، والبرتغال الجنوبية (الجزيرة)، وماديرا، والأزور، وجزر الكناري. ورغم الخلافات العائلية بين الإسپان والبرتغاليين، كانت هذه المناطق تشكّل وحدة معنوية واقتصادية واجتماعية حقيقية.

وداخل هذا الجزء الغربي الأقصى من العالم الإسپاني-البرتغالي، كانت العلاقات وثيقة ودائمة: كان أهل خيريث، وبويرتو، وقادس، وماديرا والأزور يساندون أسفي أو أصيلة. وكان سكّان الكناري يشاركون في الغارات البرتغالية

عـلى الجنـوب. وكانـت مـازاڭان تعلـم تينيريفـي بوجـود القراصنـة البربريـين. وكانت المسـتعمرات البرتغاليـة في المغـرب تشـتري النبيـذ مـن الأندلـس وتصـدر الجلـود إليهـا. وكان پويرتـو دي سـانتا ماريـا أحـد المراكـز الرئيسـية لإمداداتهـم وتجنيدهـم. أمّـا فويرتيبينتـورا، إحـدى جـزر الكنـاري؛ فكانـت تتاجـر مـع أسـفي ومـازاڭان. وفي الميـاه المغربيـة، كان الصيـادون الأندلسـيون، البرتغاليـون، والكناريـون يعملـون جنبـاً إلى جنـب. وكمـا تقـول السـجلاّت، كان العديـد منهـم يذهبـون يـوم الأحـد للاسـتماع إلى القـداس في أصيلـة. وهكـذا، تشـكّلت هنـاك، أمـام إحيـاء الإسـلام المغربـي، وعـلى هـذا السّـطح الأطلـسي مـن العالـم الإسـلامي، "مسـيحية صغـيرة" يشـعر أعضاؤهـا بتضامـن وثيـق. ولا يمكـن فهـم معنـى "المغـرب البرتغـالي" بشـكل كامـل إلاّ إذا تمّـت رؤيتـه ودراسـته ضمـن هـذا السـياق المجتمعـي.

الأنشطة التجارية البرتغالية
في غرب أفريقيا
خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر: دراسة أولية

د. عبد الله عيسى

مقدمة:

عرفت منطقة إفريقيا الغربية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، تحولات محلية ودولية كثيرة، كان لها بالغ الأثر على مستقبل وتاريخ المنطقة؛ فخلال هذه الحقبة، عانت الممالك الإفريقية الكثير من المشكلات السياسية، والاقتصادية، وحتى الاجتماعية، أدَّت في نهاية المطاف إلى أُفُولها وسقوطها، وبالتالي تمَّ طَيّ صفحة من صفحات تاريخ إفريقيا الغربية، كانت حافلةً بالإنجازات الحضارية والفكرية والاقتصادية، وفتح صفحة جديدة يمكن أنْ نَعتبرها صفحة سوداء في تاريخ القارة الإفريقية ككل؛ حيث استفحل وتنامَى التدخل الأوروبي، وخصوصًا البرتغالي، وكان من أهم نتائج لهذا التدخل: انتقال مركز الثقل العالمي من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، والمناطق المحاذية له.

وعلى الرغم من علاقات التكامل وعوامل التواصل بين التجارتين الصحراوية والأطلسية، ومن البطء النسبي لعملية اندماج سكان إفريقيا الغربية في المنظومة التجارية الأطلسية؛ فإنَّ سيطرة هذه الأخيرة أصبحت أمرًا لا مِرَاء فيه منذ أنْ صارت أوروبا سيدة البحار، والمتحكمة في التجارة الدولية، وما تولَّد عن ذلك من تبادل مواقع الهيمنة الحضارية بين أوروبا النصرانية، والعالم العربي الإسلامي.

انطلاقًا من هذه المعطيات، تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مراحل التدخل التجاري البرتغالي في منطقة إفريقيا الغربية خلال القرنين التاسع والعاشر (15-16م)، وتبيان آثار هذا التغلغل على مجتمع إفريقيا الغربية سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وثقافيًّا.

أولاً: أهمية منطقة إفريقيا الغربية بالنسبة للتجارة البرتغالية:

لقد أدّت الكشوف العلمية والجغرافية إلى إبراز أهمية منطقة سواحل إفريقيا الغربية، فأصبحت تُشكِّل محطة مقصودة، وممرًّا أساسيًّا للرحلات الملاحية البرتغالية المتَّجهة إما للشرق الأقصى أو الغرب؛ فتوقف السفن الملاحية كان يُتيح للتجار البرتغاليين إمكانية الاستراحة، والاستعداد لسفر طويل ومتعب إما شرقًا أو غربًا.

ومن مقتضيات هذا الاستعداد متطلبات عدة؛ منها: التزود بالماء والمواد الغذائية، أو الخشب لإجراء بعض الإصلاحات بالسفينة إنْ وقع بها عطب، علاوةً على الحاجة للمرشدين المحليين، الذين يتم الاستعانة بهم في التعرف على أحوال المناطق المرتادة، واستكشاف عادات أهلها.

أما الرافد الاقتصادي، فنعتقد أنَّه أيضًا احتلَّ موقعًا ومكانة معتبرة في توجيه نظر واهتمام الدول الأوروبية، وخاصة البرتغال، صوب سواحل إفريقيا الغربية؛ لأنه كما يُقال: «إنَّ الاقتصاد هو بوصلة السياسة الخارجية». وإنَّ شهرة المنطقة -عبر العصور- بمادة الذهب والرقيق وريش النعام والفول السوداني (والكاكاو)، وغير ذلك من المواد؛ جعل البرتغال تفكِّر بأن يكون لها موطئ قدم في هذا المجال، وليكون ذلك أيضًا مفتاح دخولها فيما بعد إلى القارة الإفريقية ككل، ولتحقيق حلمها المنشود؛ وهو «الوصول إلى تجارة الشرق الأقصى بدون وساطة عربية».

ثانياً: المساعي البرتغالية للتحكم والسيطرة على تجارة إفريقيا الغربية

عمل البرتغاليون انطلاقًا من سنة 1445م على تحويل جزيرة أركين إلى سوق تجاري؛ حيث يلتقي التجارُ العرب- البربر بالبرتغاليّين، لتتمَّ إعادةُ تصدير البضائع البرتغالية نحوَ الداخل، وتتكوّن من الحبوب والخيول والأثواب والتوابل والفضة والأصداف، وغيرها، مقابلَ العبيد والذهب وجلود الظبي والزباد والصمغ.

وفي سنة 1487م حاول البرتغاليُّون نقلَ التعامل التجاري نحو الداخل؛ بتشييد حصن في «ودان» في الأدرار الموريتاني؛ ولم يكنِ اخْتيارهم لودان اعتباطيًّا؛ فقد كانت الواحةُ تُشكِّل إحدى المحطّات التجارية الأساسية بالنسبة لتجارة المِلْح بين إيجيل وتنبكت، إلّا أنّ المحاولةَ

بـاءت بالفشـل بسـبب الظـروف الطبيعيـة الصعبـة، وردود فِعْـل الأهـالي . وهكـذا فشـل البرتغاليـون في محاولتهـم الأولى مـن أجـل خَلْـق اتِّصـال مباشر مـع أحـد المحـاور التّجاريـة الداخليـة المهمّـة.

أمـامَ هـذا الفشـل سـعى البرتغاليّـون إلى تغيـير أسـلوب التعامـل التجـاري مـع السّـواحل الإفريقيـة، بخلـق نظـامٍ تجـاريّ جديـد يعتمـد بالأسـاسِ عـلى المُسـاحَلة، ويقـوم عـلى تنويـع البضائـع المَعْروضـة عـلى زبائنهـم الأفارقـة. لقـد أشـار بعـضُ الرحّالـة الأوروبيّـين إلى أنّ البرتغاليّـين كانـوا يشـترون الخيـول مـن مدينـة «أزمـور» المغربيـة، ويسـتعملونها نقـدًا للحصـول عـلى العبيـد بثمـنِ أربعـة عـشر أو خمسـة عـشر عبـدًا مقابـلَ الفـرس الواحـد. كمـا شـكّلت الفضـةُ بضاعـة مهمّـةً لشـدّة الطلب عليهـا في موريتانيـا، وكانـت تُنقَـل مـن أوروبـا، وتعـادل الأوقيـةُ منهـا أوقيـةً ونصفًا ذهبًـا.

بالإضافـة إلى ذلـك، وضـع البرتغاليّـون تقنيـة تجاريـة جديـدة تقـوم عـلى سياسـة «التّجـارة عنـد الطلـب»؛ الهـدفُ منهـا هـو محاولـة كسـبِ المزيـد مـن التُّجّـار، وجلبهـم نحـو حصونِهـم التجاريـة؛ إذ كانـت ترسـل الوفـود باسـم الملـك البرتغـالي إلى الملـك المحـلي، وتعـرضُ عليـه البضائـعَ التـي يرغـب في اقتنائهـا سـنويًّا.

والغالـب عـلى الظـن، أنّ الأسـلوب الجديـد الـذي وضعـه البرتغاليـون لنشـاطهم التجـاري عـلى السـواحل الإفريقيـة؛ مَكّنهـم مـن الحصـول عـلى كميـاتٍ كبـيرة مـن ذهـبِ وعبيـد إفريقيـا، إلّا أنّـه لـم يسـتطع اقتـلاعَ جـذور التجـارة الصحراويـة القديمـة؛ إذ اسـتمرَّ الذهـب في التدفـق عـلى بلـدان شـمال إفريقيـا، خصوصًـا تونـس الحفصيـة، ومـصر، وعـن طريـق هـذه البلـدان وصـلَ الجـزءُ الأكـبر منـه إلى الضّفـة الأخـرى مـن البحـر الأبيـض المتوسـط، خصوصًـا إلى إيطاليـا.

فوق هذا وذاك، يمكن القول: إنَّ التقنيات التجارية الجديدة التي أدخلها البرتغاليون، والوصول المنتظم للمراكب؛ ساهم بشكل كبير في تطوير المحطات التجارية، وتحويل جزء مهم من التجارة الصحراوية نحو الساحل. وقد رأى زعماء الممالك الساحلية والمتاخمة للأنهار في قدوم البرتغاليين فرصة ذهبية لتكوين الثروة، ووسيلة في الدفاع عن أخطار الدول الداخلية. فكان أيضًا من الممكن أن تتأثر الأقاليم الشرقية لإمبراطورية مالي بهذا التحول الجديد، لولا الانفتاح الكبير الذي شهدته تجارتها على المشرق العربي؛ الأمر الذي قلَّل من حجم الخسائر. ولا نعرف بالضبط، إن كان الطلب البرتغالي المتزايد على الذهب قد دفَع سكان منطقة إفريقيا الغربية، إلى الإسراع في البحث عن مناجم أخرى.

والثابت لدينا، أنَّ التحول الجديد الذي شهده اقتصاد غرب إفريقيا عقب التدخل البرتغالي كعنصر جديد في الحركية التجارية، ساهم في تزايد الإخلال بالأنظمة الاجتماعية الإفريقية؛ ذلك أنه أمام التهافت المتزايد على الربح، أخذ السود أنفسهم ينظمون غارات لقنص بني جلدتهم وبيعهم بالتالي للتجار البرتغاليين. كما أدى -بطبيعة الحال- إلى تغيرات عميقة، وعلى وجه الخصوص، إعادة صياغة الخارطة السياسية للممالك الإفريقية اعتبارًا من منتصف القرن السادس عشر.

ثالثاً: أثر التغلغل التجاري البرتغالي على مجتمع إفريقيا الغربية

من المؤكد أنَّ التجارة بين البرتغال وإفريقيا الغربية، قد حصلت فيها الأولى على غالبية الأرباح والمغانم الاقتصادية، أما في منطقتنا، فقد كانت نتائجها كارثية على المجتمع في جميع المجالات والأصعدة.

1. التأثير السياسي والاجتماعي:

إنَّ المتأمل في الخارطة السياسية والاجتماعية لإفريقيا الغربية في هذه المرحلة، سيقف جليًّا على التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع؛ بسبب ارتباطه بالتجارة الأطلسية، وما حملته هذه التجارة في طيّاتها من مفاهيم جديدة لم يكن المجتمع قد وصل بعد إلى كسب تقنياتها ولا مُؤهَّلًا للتعامل معها. وقد أفرزت تجارة الرقيق ظاهرة تخصُّص بعض القبائل في قنص الرجال، وكانت قبيلة «الماندينغ» أبرزها، مما دفع بعض القبائل إلى الهجرة إلى أماكن آمنة، وخاصة الغابوية منها، حتى لا تَطالها أيدي القناصة. وقد أدَّى ذلك إلى اختلال الفسيفساء السياسي والاجتماعي الذي عرفته منطقة إفريقيا الغربية عبر تاريخها.

بناءً على ذلك، أدَّت هذه الوضعية إلى محاولة الأرستقراطيات التقليدية تقوية مركزها الاجتماعي والسياسي، بزرع الرعب سواء في وسط رعاياها أو خارج نطاق سيطرتها، لتبدأ بذلك مرحلة العنف السياسي، الذي كان من نتائجه تصدُّع النظم السياسية والاجتماعية التي طالما حافظت عليها قديمًا.

خلاصة القول: أدَّى هذا الانحطاط العام إلى عجز المجتمع عن إفراز طبقة حاكمة، أو تخصيص أي فائض مادي أو معنوي لضمان سير الأجهزة والمؤسسات التي تُضْفِي على الحُكم حدًّا أدنى من الشرعية، وبذلك أصبحت الزعامة السياسية

والحظوة الاجتماعية من نصيب فئات عسكرية تتشكل من المحاربين المحترفين، فأصبح في مقدور أيّ مغامر شجاع أنْ ينتزع السيادة والحظوة الاجتماعية، حتى ولو كان طبقًا للقيم السائدة من أصل وضيع.

2. التأثير الاقتصادي:

تأخر التطور والتقدم في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، وذلك بسبب نقص الأيدي العاملة القادرة على استثمار موجودات القارة، واتباع سياسة تجارية مع سكان غرب إفريقيا باعتبارها سوقًا استهلاكية فقط. وقيام اقتصاد ساحلي لصالح البرتغال، اعتمد بشكل رئيس على التجارة الأطلسية، وما تُدرّه من أرباح. كما لم تؤثر هذه المحطات في الرخاء المحلي للمنطقة؛ بل زادت الطين بلَّة؛ حيث أدت تجارة الرقيق إلى تدهور في الاقتصاد المحلي، والذي بدأنا نشعر به من خلال وجود العديد من المجاعات والأوبئة خلال هذه الحقبة، وكما ربطت تجارة الرقيق إفريقيا الغربية مع العالم الجديد؛ حيث يتذكر آلاف العبيد وطنهم الأصلي، وأوجدوا روابط لا تنفصم بين السود في الشتات، والسود في إفريقيا الغربية.

3. التأثير الثقافي:

نعتقد أنَ المحطات التجارية التي أنشأتها البرتغال على طول السواحل الغربية لإفريقيا، كانت بداية لمراكز انطلاق التنصير، وتغيير الهوية الثقافية الغرب إفريقية، وإن لم تكن هي في حدّ ذاتها كان لها التأثير الكبير، لكنها مهَّدت لمرحلة الاستعمار فيما بعد. يقول الباحث «عبد العزيز الكحلوت» في هذا الصدد: «كانت البعثات التبشيرية المسيحية (النصرانية) جزءًا من قوى الاستعمار إلى حدّ كبير، مثلها في ذلك مثل المكتشفين والتجار والجنود، وربما يكون هناك مجال للمجادلة حول ما إذا كانت البعثات التبشيرية في مستعمرة ما هي التي جلبت قوى الاستعمار الأخرى، أم أن العكس هو الصحيح، ولكن ليس هناك شك في حقيقة أن البعثات التبشيرية كانت أدوات الاستعمار من الناحية العملية».

ويعود سبب التأثير المحدود للمحطات التجارية على عقيدة الفرد في غرب إفريقيا، أنه خلال هذه الفترة كان متشبعًا بمظاهر الدين المحمدي، كما كان متعطشًا في الوقت ذاته، للدفاع عنه بأيّ شكل كان. ومن العلامات البارزة

والشاهدة على ما أكَّدناه: عدم شيوع تجارة النبيذ والخمر بالكثير من الجيوب والمناطق في غرب إفريقيا التي انتشر بها الإسلام وترسَّخ؛ بينما نجح الأوروبيون في تسويق هذه المادة بين مختلف القبائل الهندية بالعالم الجديد (أمريكا)، حتى إنهم في تعاملهم التجاري مع هنود أمريكا خلال القرون الثلاثة الأولى من اكتشافها؛ كانوا يسقون الزعماء المحليين النبيذ والخمر أثناء المفاوضات التجارية أو السياسية؛ بغرض الحصول على أكبر المكاسب منهم.

وقبل أنْ نختتم دراستنا هذه، نريد الإجابة عن سؤال يبدو غاية في الأهمية في نظرنا؛ ألا وهو: لماذا لم تُسْهم التجارة البرتغالية في تنمية وتطوير المجال الحضري في إفريقيا الغربية؟ أو على الأقل مساعدة الأنظمة السياسية القائمة على تنظيم نفسها، وتقوية هياكلها ومؤسساتها؟

للإجابة عن هذه الإشكالية نورد ما يلي: إنَّ الحضور البرتغالي التجاري على سواحل إفريقيا الغربية، علاوةً على ما فرضته إكراهات تجارة الرقيق ضمن ما عُرف بالرواج التجاري الثلاثي، سمح ببيع السلاح الناري للقنَّاصين، وبعض الأمراء المغامرين؛ بغرض تحصيل أكبر عدد من العبيد، مما أفرز مأساة إنسانية ما تزال آثارها قائمة إلى اليوم. فضلاً عن ذلك أو بموازاته، تم ردم أيّ مبادرة سياسية هادفة لتنظيم المجال الإفريقي في شكل وحدات أو وحدة سياسية قوية، بل إن الأمر اتَّخذ صبغة إرادية لدى الدول الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، حينما سعت لاستعمار المنطقة.

كما أن الجموع التي تم نقلها بهدف توطينها في الحصون والقلاع، التي أُنشئت على السواحل الغربية من إفريقيا؛ كانت في جُلّها من الفئات الاجتماعية المُهمَّشة في المجتمع البرتغالي، مثل المتسكعين والسجناء والمجرمين، وهناك عناصر قليلة، من المتنورين وكبار التجار أو غيرهم من المنتمين للفئات النافذة سياسيًّا واجتماعيًّا، ممن ساقتهم الظروف لزيارة سواحل غرب إفريقيا. فكيف يمكن لهذه الفئات أن تساهم في تنمية وتطوير المجتمع الإفريقي سياسيًّا؟

كما أنَّ خلفية الإجابة عن السؤال، تستحضر لدينا صورتين متنافرتين ومتمايزتين؛ واحدة منهما تشير إلى تلك الحيوية التجارية التي شهدتها ضفتا الصحراء فيما بين القرنين 8 و15م؛ نتيجة لما عرفته المنطقة من أمن واستقرار، مما استبعد وقتئذ كلّ عناصر التوتر والعنف، الأمر الذي سمح بتطوُّر المجتمع والدولة الإفريقية؛ بشكل أهَّلها لتأسيس معمار نظامها السياسي (مؤسسة الدولة)؛ من

خــلال مــا اكتســبته مــن خــبرات رجــالات الضفــة الشــمالية، خاصــةً بعــد اعتنــاق وتبنّــي الأفارقــة للإســلام.

والصــورة الأخــرى، تُفيــد بــأنَّ أوروبــا بثقلهــا الحضــاري والثقــافي والســياسي لــم تتمكَّــن مــن مســاعدة قبائــل ومجتمعــات إفريقيــا الغربيــة، عــلى تأســيس دُوَل منظمة، أو عــلى الأقــل العــودة بتلــك القبائــل إلى حالــة السِّــلم، ومســاعدتها عــلى التقــاط أنفاســها، حتــى تتمكــن مــن إعــادة بنــاء أركان الدولــة.

البرتغاليون والصحراء الأطلنتية
في القرن الخامس عشر

إعداد: د. روبير ريكار

ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل

قبل تقديم النصين البرتغاليين اللّذين سنقدّم ترجمتهما إلى الفرنسية لاحقاً، من الضّروري تلخيص تاريخ الاكتشافات والاستكشافات البرتغالية في الصحراء خلال القرن الخامس عشر.

ويُرجع المؤرّخون غالباً أسباب الاكتشافات البرتغالية الكبرى إلى عاملين رئيسيين: الرّغبة في احتكار تجارة التوابل والرقيق، والسعي لنشر مملكة المسيح. إلاّ أنّه ينبغي إضافة سبب ثالث لا ينفصل عن السببين السابقين، وهو الرّغبة في تحرير العالم المسيحي من تهديد الإسلام. واللاّفت للنظر أنّ كل تقدّم أحرزه الإسلام في أوروبا الشرقية كان يقابله تقدّم برتغالي في استكشاف بحر الظلمات.

وفي عام 1492م، اكتمل النصر؛ فقد أدّى سقوط غرناطة إلى استعادة شبه الجزيرة الإيبيرية من الحكم الإسلامي، كما أنّ اكتشاف أمريكا أتاح للعالم المسيحي، الذي كان محصوراً حتّى ذلك الحين على ضفاف الأطلسي، فرصة للنفاذ غرباً بعيداً عن قبضة الإسلام. ومن المؤكّد أنّ سقوط غرناطة تمّ على يد الإسپان، وأنّ رِحْلة كولومبوس (Colomb) موّلتها مملكة قشتالة، إلاّ أنّ سقوط غرناطة ربّما لم يكن ليتحقّق لولا استقرار البرتغاليين على الضفة الأفريقية لمضيق جبل طارق، كما أنّ اكتشاف كولومبوس لم يكن ليحدث لولا الاكتشافات البرتغالية التي سبقته؛ ليس فقط لأنّها مهّدت له مباشرة؛ بل لأنّ كولومبوس نفسه تلقّى تعليمه في مدرسة الملاحة والخرائط البرتغالية، التي كانت، من الناحية التقنية، أكثر تقدّماً منه بكثير.

ولذلك، سارت الاكتشافات البرتغالية الكبرى في اتجاهين واضحين حدّدهما الأمير هنري الملاح (Henri le Navigateur): البحث عن طريق إلى الهند، والسعي لاكتشاف أراضٍ جديدة في الغرب عبر المحيط الأطلسي. وكان اكتشاف الطريق البحري إلى الهند يهدف أوّلاً إلى ضرب المسلمين في صميم تجارتهم بالتوابل،

التـي كانـت مصـدراً رئيسـياً لثرواتهـم، وثانيـاً إلى إقامـة علاقـات مـع المسـيحيين في الـشرق، ولا سـيما مـع الكاهـن يوحنـا الأسـطوري (Prêtre Jean)، الـذي كان يُتصوّر أنّـه ملـك مسـيحي قـوي، ومـن خـلال التحالـف معـه والتعـاون مـع قوّاتـه، يمكـن محـاصرة الإسـلام مـن الخلـف. أمّـا اكتشـاف الجـزر والأراضي الغربيـة؛ فكان سـيوفّر للعالـم المسـيحي، المحـاصر بمحيـط مجهـول، مخرجـاً مـن التهديـد الإسـلامي.

وقـام الأمـير في البدايـة بدمـج عمليتـي البحـث في الاتجاهـين؛ إذ كانتـا مرتبطتـين حتميـاً في البدايـة. ولكـن مـع بلـوغ پورتـو سـانتو (Porto Santo) وماديـرا (Madère)، واجتيـاز جيـل إيانـش (Gil Eanes) لـرأس بوجـدور عـام 1433م أو 1434م، ثـمّ اكتشـاف جميـع جـزر الأزور (les Açores) بحلـول عـام 1439م، أصبـح التمييـز بـين البحـث عـن الأراضي الغربيـة واستكشـاف الطريـق البحـري إلى الهنـد أكثـر وضوحـاً. وينـدرج ضمـن هـذا المسـار الثانـي الاستكشـافات البرتغاليـة في الصحـراء الأطلسـية.

ومنـذ لحظـة اكتشـاف رأس بوجـدور، اندفـع جيـل إيانـش (Gil Eanes)، برفقـة أفونسـو ڭونسـالفيش بالدايـا (Afonso Gonçalves Baldaya)، جنوبـاً ليصـل إلى أنڭـرا دوس رويفـوس (Angra dos Ruivos)، ثـم إلى أنڭـرا دوس كافالـوس (Angra dos Cavalos)، قبـل أن يواصـل بالدايـا وحـده إلى نقطـة تُعـرف باسـم پونتـا (Ponta) أو پيـدرا دا ڭالي (Pedra da Galé)، التـي شـكّلت أوّل اتصـال برتغـالي مـع منطقـة وادي الذهـب (Rio de Oro). ورغـم أنّ التسلسـل الزّمنـي لهـذه الرِّحْـلات ليـس مؤكّـداً تمامـاً، فإنّـه مـن المرجّـح أنّهـا جـرت بـين عامـيْ 1434م و1437م، وهـو العـام الـذي شـهد حملـة طنجـة.

غـير أنّ الكارثـة التـي لحقـت بالبرتغاليـين في المغـرب، ووفـاة الملـك دوارتـي (Duarte) في العـام التـالي، ثُـمّ اعتـلاء ألفونسـو الخامـس (Alphonse V) العـرش وهـو لا يـزال طفـلاً، والصّراعـات التـي قامـت حـول الوصايـة، أدّت إلى تعليـق الاستكشـافات مؤقّتـاً. ولكـن، اعتبـاراً مـن عـام 1441م، اسـتُؤنِفت الرِّحْـلات بوتـيرة متسـارعة. ففـي ذلـك العـام، قـام نبيـل مـن بـلاط الأمـير يُدعـى نونـو تريسـتاو (Nuno Tristão) بتوشـيح رفيقـه أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves) بلقـب فـارس في موقـع أُطلـق عليـه لاحقـاً پورتـو دو كافاليـيرو (Porto do Cavalleiro) تخليـداً لهـذه المناسـبة. وقـد واصـل نونـو تريسـتاو (Nuno Tristão) رِحْلتـه حتّـى بلـغ رأس الأبيـض عـام 1442م.

وشـهدت الأعـوام التاليـة اسـتمرار التوسـع البرتغـالي؛ إذ قـام أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves) برحلـة أخـرى إلى وادي الذهـب، كمـا اكتشـف نونـو تريسـتاو (Nuno Tristão) جزيـرة أرڭان عـام 1443م. وفي عـام 1444م، قـاد جيـل إيانـش (Gil Eanes) ولانثاروتـي (Lançarote) رحلـة استكشـافية إلى جـزر نـار (Nâr) وتيـدر (Tider). أمّـا في عـام 1445م؛ فقـد لقـي ڭونزالـو دي سـينترا (Gonçalo de Cintra) مصرعـه خـلال حملـة عـلى جزيـرة نـار. وفي العـام نفسـه، نـزل أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves) مـرّة أخـرى في وادي الذهـب، حيـث أنـزل فارسـاً مـن حاشـية الأمـير يُدعـى جـواو فرنانديـش (João Fernandes) بـين القبائـل المحليـة.

وفي الوقـت ذاتـه، قـام نونـو تريسـتاو (Nuno Tristão)، الـذي لـم يكـن أقـل حماسـاً مـن أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves)، بدفـع استكشـافاته حتّـى السـنڭامبيا (Sénégambie) قبـل أن يعـود إلى أرڭان، حيـث تـمّ احتـلال الجزيـرة عسـكرياً بقيـادة سـوييرو دا كوسـتا (Soeiro da Costa)، ولانثاروتـي (Lançarote)، وتريسـتانو بـاز (Tristão Vaz)، وڭونسـالفيش زاركـو (Gonçalves Zarco). وفي عام 1446م، أو ربّمـا في أواخـر 1445م، تجـاوز فـارس آخـر مـن بـلاط الأمـير يُدعـى دينيـس ديـاس (Dinis Dias) مصـب نهـر السـنڭال ووصـل إلى أراضي السـودان. وهكـذا، كانـت عمليـة استكشـاف السـاحل الصحـراوي قـد اكتملـت تقريبـاً.

ونظـراً لاكتمـال هـذا المسـار، سـنتجاوز الحديـث عـن الرِّحْـلات التـي تلـت ذلـك، مكتفـين بالإشـارة إلى أن أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves)، عـاد عـام 1446م إلى المنطقـة ليسـتعيد جـواو فرنانديـش (João Fernandes).

ولكـن البرتغاليـين لـم يقتـصروا عـلى استكشـاف السـواحل بطريقـة علميـة ونزيهـة فقـط؛ فقـد كانـت معظـم الحمـلات تغامـر إلى داخـل الأراضي لمسـافة مـا، وتجمـع العبيـد، وتُجـري التجـارة. وقـد أُطلـق اسـم "ريـو دو أورو" (وادي الذهـب) عـلى المنطقـة بسـبب الذهـب الـذي قدّمـه السـكان الأصليـون للبرتغاليـين لافتـداء بعـض الأسْرى؛ كمـا أصبحـت جزيـرة أرڭان مركـزاً مهمـاً للتبـادل التجـاري. وقـد سـمحت هـذه العلاقـات، والمعـارك المسـتمرة بـين البرتغاليـين والسـكان المحليـين، لقـادة الأمير بالحصـول تدريجيـاً عـلى معلومـات دقيقـة نسـبياً عـن سـكان الصحـراء الأطلسـية.

وفي عـام 1441م، وفي إطـار حملتهـم الاستكشـافية، تمكّـن نونـو تريسـتاو (Nuno Tristão) وأنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves) مـن أسْر عـشرة أشـخاص؛ وكان

واحـد فقـط مـن هـؤلاء الأسْرى، الـذي تُسـمِّيه النصـوص البرتغاليـة آداو (Adaú)، قـادراً عـلى التفاهـم مـع مترجـم نونـو تريسـتاو العربـي. ومـن خلالـه، اكتشـف البرتغاليـون وجـود الزناڭـة، وأنّهـم يتحدّثـون لغـة مختلفـة عـن العربيـة. ولكـن، أكثـر المعلومـات التـي حصـل عليهـا الأمـير عـن هـؤلاء النـاس وأراضيهـم جـاءت مـن هـذا الفـارس، جـواو فرنانديـش (João Fernandes)، الـذي نقلـه أنتـاو ڭونسـالفيش إلى السّـاحل، وقـضى سـبعة أشـهر بمفـرده بـين الزناڭـة. وسـتجدون فيمـا بعـد ملخّصـاً لمغامراتـه وتقريـره، وفقـاً لكتـاب زورارا (Zurara). وقـد أصبـح الزناڭـة معروفـين بمـا فيـه الكفايـة في البرتغـال لدرجـة أنّهـم نالـوا، بعـد أكثـر مـن قـرن، تكريمـاً في أبيـات مـن "اللوسـياد" (Lusiades) للشـاعر لويـس دي كامويـس (Luís de Camões).

تركنـا ماسـيلية إلى السـاحل القاحـل

حيـث يرعـى الأزناڭيـون ماشـيتهم

شـعب لا يفضّـل الميـاه العذبـة

ولا تكفيهـم أعشـاب الأرض

الأرض التـي لا تثمـر أي محصـول

حيـث الطيـور تهلـك في

بطونهـا بسـبب الحديـد

يعانـون مـن شـدّة الفاقـة

التـي تفصـل بين بـلاد البربـر وإثيوبيا

وفي وقـت لاحـق، اهتـم البرتغاليـون مـن جهـة بالمغـرب بشـكل خـاص، ومـن جهـة أخـرى بــ "النيڭريتـا" (Nigritie)، التـي كانـت أكثـر كثافـة سـكانية وبالتـالي أغنى بالعبيـد، حيـث كانـت تجـد وفـرة مـن ثلاثـة منتوجـات ذات قيمـة خاصّـة: الذهـب، والعـاج، وقاقُلَّـة ذكريـة (Malaguette). وأصبحـت قلعـة سـاو خورخـي دا مينـا (São Jorge da Mina)، الواقعـة عـلى سـاحل غينيـا (سـاحل الذهـب حاليـاً)، واحـدة مـن قواعـد الاقتصـاد البرتغـالي. ومـع ذلـك، في عـام 1487م، ومـن خـلال حصـن أرڭان، قـام جـون الثانـي (Jean II) بإنشـاء مركـز تجـاري في وادان، التـي كانـت

آنـذاك عاصمـة منطقـة آدرار الموريتانيـة، وأرسـل إليهـا كعامـل رودريـڭـو رينيـل (Rodrigo Reinel)، مصحوبـاً بديوڭـو بورڭيـس (Diogo Borges) وڭونسـالو دي أنتيـس (Gonçalvo de Antes). ولكـن عـداء أزناڭـة حـال دون الحفـاظ عـلى هـذا المركـز. وللأسـف، باسـتثناء حصـن أرڭان، الـذي خضـع لتعديـلات كبـيرة فيمـا بعـد، لـم تـترك الأنشـطة البرتغاليـة في الصحـراء الأطلسـية أي أثـر مؤكّـد. ولـم يتـم العثـور عـلى شيء في وادان نفسـها؛ ونفضّـل عـدم التعليـق عـلى مـا يُقـال عـن الأطـلال البرتغاليـة في أزوڭـي وفارانـي ولقصيبـة، بالقـرب مـن وادان، والتـي لا نملـك نصوصـاً مؤكّـدة بشـأنها، أو عـن تلـك الخاصّـة بتنواكـة، حتّـى يتـم فحصهـا مـن قبـل عالـم آثـار مختـص، كمـا هـو الحـال في المغـرب، كان مـن الـضّروري في الصحـراء أن يُنسـب للبرتغاليـين الكثـير مـن الأشـياء بشـكل مبالـغ فيـه.

والنصـان اللّـذان نقـدّم ترجمتهمـا فيمـا يـلي معروفـان جيّـداً مـن قِبـل جميـع مـن يهتمّـون بالأمـور البرتغاليـة، لكـن، ولأسـباب يمكـن فهمهـا بسـهولة، لم يتمكّـن علماء أفريقيـا الفرنسـيون مـن الاسـتفادة منهمـا كثـيراً؛ لـم تكـن لدينـا أي طموحـات سـوى جعلهمـا في متناولهـم. والنـص الثانـي مأخـوذ مـن كتـاب "إيسـميرالدو دي سـيتو أوربيـس" (Esmeraldo de Situ Orbis) للكاتـب دوارتـي پاتشـيكو پيريـرا (Duarte Pacheco Pereira)، وهـو الكتـاب الـذي أتيحـت لنـا الفرصـة للحديـث عنـه مـع قـراء "هيسـپيريس" (Hespéris)، ولـن نطيـل في الحديـث عنـه هنـا. أمّـا النـص الأول؛ فهـو مأخـوذ مـن "حوليـات اكتشـاف وغـزو غينيـا" للكاتـب الرسـمي ڭوميـش إينيـس دي زورارا (Gomes Eanes de Zurara). وقـد وُلـد زورارا حـوالي عـام 1410م وتـوفي في عـام 1474م، وعُـيّن مـن طـرف ألفونسـو الخامـس (Alphonse V) في عـام 1448م لإكمـال السـيرة الذاتيـة لوالـده الملـك جـون الأول (Jean I) التـي تركهـا فرنـاو لوپيـش (Fernão Lopes) غـير مكتملـة، ومـن هنـاك نشـأت "حوليـات احتـلال سـبتة" التـي كتبهـا بـين عامـيْ 1449م و1450م. وفي عـام 1452م، أمـره الملـك أن يـروي بطـولات عمّـه، الأمـير هنـري المـلاح (Henri le Navigateur)، وكان هـذا السـرد هـو الـذي شـكّل "حوليـات اكتشـاف وغـزو غينيـا"، التـي تـمّ الانتهـاء منهـا في فبرايـر 1543م. وفي تلـك الفـترة، كان البرتغاليـون يطلقـون اسـم غينيـا عـلى جميـع الأراضي الواقعـة جنـوب بوجـدور، ويحتـوي كتـاب زورارا عـلى تاريـخ استكشـاف الجـزر الأطلسـية والسـاحل الأفريقـي، بـدءً مـن اكتشـاف رأس بوجـدور بواسـطة جيـل إينيـس (Gil Eanes)، وصـولاً إلى عـام 1448م. ورغـم الطابـع الرسـمي للحوليـات ومشـاكلها التـي تكشـف عنهـا بعـض التناقضـات في

التدويـن، ممّـا قـد يثـير بعـض التحفّظـات، إلاّ أنّ الكتـاب يبقـى مصـدراً أساسـياً؛ لأنّ زورارا اعتمـد عـلى سـيرة سـابقة للكاتـب أفونسـو سـيربيرا (Afonso Cervei-ra)، التـي كانـت أكثـر تفصيـلاً واليـوم مفقـودة، وأهـم مـن ذلـك أنّـه اسـتطاع أن يسـتقي معلوماتـه مبـاشرة مـن الأمـير هنـري المـلاح ومـن معاونيـه، الذيـن كان معظمهـم عـلى قيـد الحيـاة زمـن كتابـة الكتـاب. كمـا كان زورارا يعـرف شـخصياً جـواو فرنانديـش (João Fernandes)، مكتشـف وادي الذهـب، والمعلومـات التـي ينقلهـا لنـا تـمّ جمعهـا مـن طـرف الأمـير وأعوانـه. ويجـب فقـط ملاحظـة، كمـا أشـار السـيد كورتيسـاو (Cortesão)، أنّ نـص زورارا (Zurara) ربّمـا لا يعكـس كل مـا كان البرتغاليـون يعرفونـه عـن الصحـراء الأطلسـية؛ فقـد كانـت معرفتهـم بالمنطقـة أوسـع وأكثـر دقّـة، ولكـن الأسـباب السياسـية أجبرتهـم عـلى إبقـاء الكثـير مـن هـذه المعلومـات سريـة.

I

ڭوميش إينيس دي زورارا (Gomes Eanes de Zurara)، حوليات اكتشاف وغزو غينيا، الفصل 76 والفصل 77، تحقيق: الڤيكونت دا كاريريا (Vicomte da Carreira)، والڤيكونت دو سانتاريم (Vicomte de Santarem)، باريس، 1841م، صص.359-370.

الفصل السادس والسبعون:
كيف بدأ المُؤلِّف في الحديث عن طبيعة ذلك البلد

مـن المفيـد أن نؤجّـل الحديـث عـن تلـك المسـائل إلى وقـت لاحـق، وأن نتنـاول حـدود تلـك البلـدان التـي سـافر إليهـا رجالنـا، وعانـوا كمـا تطرقنـا سـابقاً. والهـدف مـن ذلـك هـو محاولـة فهـم سر الوهـم الـذي كان يعيشـه أجدادنـا، والـذي جعلهـم يخشـون عبـور ذلـك الـرأس، خوفـاً مـن الأشـياء التـي تحدّثنـا عنهـا في بدايـة هـذا الكتـاب. كمـا أنّ ذلـك يسـاعد في فهـم الثنـاء الكبـير الـذي يسـتحقّه أميرنـا [هنـري المـلاّح]، مـن خـلال الكشـف عـن شـكوكهم أمـام المـلا، ليـس أمامنـا نحـن الذيـن نعيـش في الوقـت الحـاضر فحسـب؛ بـل أمـام كل الأجيـال القادمـة. ومـن بـين الأمـور التـي ادعّـوا أنّهـا كانـت تشـكّل عائقـاً في العبـور إلى تلـك البـلاد، هـي قـوة التيـارات البحريـة التـي كانـت هنـاك،

والتـي جعلـت مـن المسـتحيل لأي سـفينة أن تعـبر تلـك الميـاه. إلاّ أنّـه، كمـا تلاحظـون الآن بوضـوح؛ فقـد أصبـح بإمكانكـم رؤيـة الحقيقـة في خطئهـم السـابق؛ لأنّكـم شـاهدتم السـفن تبحـر جيئـةً وذهابـاً مـن دون أن تتعـرّض لأي خطـر، تمامـاً كمـا يحـدث في جميـع البحـار الأخـرى.

ومـن جهـة أخـرى، زعمـوا أنّ تلـك الأراضي بأكملهـا ليسـت سـوى صحـاري رمليـة غـير مأهولـة. صحيـح أنّ قولهـم بشـأن الرمـال لـم يكـن خاطئـاً تمامـاً، لكنّهـا لـم تكـن شاسـعة بالقـدر الـذي تصـوّروه. أمّـا فيمـا يتعلّـق بالسـكّان؛ فقـد رأيتـم بأعينكـم عكـس ذلـك، حيـث شـاهدتم أهـل تلـك المناطـق يوميـاً، رغـم أنّ اسـتقرارهم يتركّـز أساسـاً في القـرى وبعـض المـدن القليلـة. وفي الواقـع، مـن رأس بوجـدور إلى مملكـة تونـس، لا يتجـاوز عـدد المـدن والمواقـع المحصّنـة مـا مجموعـه خمسـين.

كمـا أنّهـم أخطئوا في تقدير عمـق البحر، حيث دوّنـوا على خرائطهم أنّ الشـواطئ ضحلة إلى درجـة أنّـه عـلى بعد فرسـخ من الـبر لا يتجـاوز العمق باعـاً واحـداً من المـاء. ولكن تبـيّن أنّ هـذا الادّعـاء غير صحيـح؛ فقد وجدت السـفن دوماً، ولا تـزال تجد، عمقـاً كافياً للإبحـار، باسـتثناء بعـض المناطـق الضحلة وبعـض الضفـاف الجافة، وهو مـا يمكنكم التحقّـق منـه في بعض خرائـط الملاحة التـي أمر الأمـير بإعدادها.

وفي أرض السّـودان، لا يوجـد مـكان مأهـول بالعمـران سـوى مـا يُسـمّى "وادان". كمـا أنّـه لا توجـد تجمّعـات سـكنية باسـتثناء تلـك التـي تقتصـر عـلى الشـواطئ والضفـاف، حيـث توجـد منـازل مـن القـش، وقـد تـم إخلاؤهـا مـن سـكّانها مـن طـرف أولئـك الذيـن يأتـون في سـفن هـذه البـلاد. صحيـح أنّ البـلاد بشـكل عـام مأهولـة، إلاّ أنّ نمـط العيـش فيهـا يعتمـد أساسـاً عـلى الخيـام والخـدور، كمـا نفعـل هنـا عندمـا يتحـرّك أمراؤنـا في حمـلات عسـكرية. وقـد أكّـد الأسْرى الذيـن تـمّ أخذهـم مـن هنـاك ذلـك، كمـا أنّ جـواو فرنانديـش (Joao Fernandes)، الـذي سـبق أن تحدّثنـا عنـه، أضـاف المزيـد مـن التفاصيـل بهـذا الخصـوص. ويتركّـز اهتمامهـم ونشـاطهم بشـكل أسـاسي عـلى رعـي ماشـيتهم مـن بقـر وغنـم وماعـز وإبـل، وهـم يرحلـون تقريبـاً كل يـوم، حيـث لا تتجـاوز أطـول فـترة يمكنهـم قضاؤهـا في مـكان واحـد ثمانيـة أيـام. كمـا أنّ بعـض قادتهـم يمتلكـون بغـالاً يسـتخدمونها لتربيـة الخيـول، رغـم أنّهـا قليلـة.

ويتمحــور غذاؤهــم أساســاً حــول اللّبــن، وفي بعــض الأحيــان يتناولــون القليــل مــن اللّحــم وبــذور الأعشــاب البريــة التــي يجمعونهــا مــن تلــك المرتفعــات. وقــد تــمّ ذكــر أنّ هــذه الأعشــاب، رغــم ندرتهــا، تشــبه الدخــن في تلــك البــلاد. كمــا أنّهــم يتناولــون القمــح عندمــا يتوفّــر لهــم، بطريقــة مشــابهة لمــا نتناولــه في بلادنــا مــن حلــوى كونفتــي. ولعــدّة شــهور مــن الســنة، لا يتغــذّون هــم وحيواناتهــم، ســواء كانــت خيــولاً أو كلابــاً، إلاّ عــلى شرب اللّبــن. أمّــا الذيــن يعيشــون عــلى الشــاطئ؛ فــلا يتناولــون شــيئاً ســوى الســمك، وغالبــاً مــا يكــون ذلــك دون خبــز أو أي طعــام آخــر، باســتثناء المــاء الــذي يشربونــه. وغالبــاً مــا يتناولــون الســمك نيئــاً أو مجفّفــاً.

أمّــا لباســهم؛ فهــو يتكــوّن مــن ســترة مــن الجلــود مــع أطــراف مــن الخامــة عينهــا، بينمــا يرتــدي أشرافهــم البرانــس. كمــا أنّ بعــض الرّجــال الأكثــر نبــلاً، والذيــن يتمتّعــون بمكانــة مرموقــة بــين النــاس، يرتــدون ملابــس جيّــدة مماثلــة لتلــك التــي يرتديهــا المســلمون الآخــرون، ويملكــون الخيــول والــسروج والأحذيــة الجيّــدة، إلاّ أنّ هــؤلاء قلّــة قليلــة.

وترتــدي النّســاء البرانــس، وهــي شــبيهة بالمشــامل؛ فتغطــين بهــا وجوههــن فقــط، ويعتقــدن أنّهــن بذلــك قــد ســترن عوراتهــن، رغــم أنّ أجســادهن تبقــى مكشــوفة تقريبــاً. ويقــول كاتــب هــذا التاريــخ: "بالتأكيــد، هــذا أحــد الأمــور التــي تكشــف عــن مــدى توحّشــهم، فلــو كان لديهــم جــزء مــن العقــل لاتّبعــوا الطبيعــة وغطّــوا فقــط الأماكــن التــي يجــب ســترها عــن الأنظــار، حيــث نــرى في تلــك الأماكــن الحسّاســة دائــرة مــن الشــعر كدليــل عــلى أنّ الطبيعــة أرادت إخفاءهــا. ويؤكّــد بعــض أنصــار الطبيعــة أنّــه لــو تُــرك ذلــك الشــعر مــن دون تدخــل، لنمــا ليغطّــي كافــة تلــك المناطــق الحسّاســة". أمّــا زوجــات الرّجــال الأكثــر نبــلاً؛ فيضعــن أقراطــاً مــن الذهــب في أنوفهــن وآذانهــن، إضافــة إلى حُــلي أخــرى.

الفصل السابع والسبعون:

بخصوص الأحداث التي تعرّض لها جواو فرنانديش

لتسهيل فهم ما جرى، ينبغي لنا أن نروي ما حدث لجواو فرنانديش (João Fernandes) في هذه البلاد خلال السبعة أشهر التي قضاها هناك في خدمة مولاه الأمير، كما سبق أن ذكرنا. فعندما ظل تحت سلطة علاقات ذلك المغربي، الذي جلبه أنتاو ڠونسالفيش (Antão Gonçalves) إلى هذه البلاد، أُخذت منه ثيابه وكعكته وبعض ما تبقّى له من الذرة وتجهيزات الكسوة. وبدلاً من ذلك، أعطي فقط برنوساً، وهو اللّباس التقليدي للمغاربة. أمّا الأشخاص الذين عاش معهم؛ فكانوا من رعاة الأغنام الذين يتنقّلون مع قطعانهم إلى البادية، وكان هو يرافقهم في تنقّلاتهم.

وذكر أنّه في تلك البلاد كلّها، الأرض رملية ولا يوجد بها مرعى إلاّ في الأراضي الواقعة على الضّفاف والأودية، حيث يوجد بعض العشب الذي تحصل منه القطعان على تغذية متواضعة منه. كما توجد هضاب ومرتفعات رملية بالكامل. وتمتد هذه الأرض من تغازه إلى بلاد السودان، وتلتقي بالبحر المتوسّط في أقصى طرف مملكة تونس وموموديبارك. ومن هناك، تمتد الأراضي على النمط نفسه من البحر المتوسّط إلى بلاد السودان، مع وجود العديد من رعاة الحيوانات الذين يسكنون تلك المناطق بأعداد كبيرة أو قليلة وفقاً لوجود المراعي لمواشيهم. ولا توجد فيها أشجار إلاّ القليل، مثل شجر التين والسدر، وفي بعض الأماكن يوجد النخيل. أمّا الماء؛ فيؤخذ من الآبار، حيث لا توجد أنهار جارية إلاّ في مناطق محدودة. وتبلغ مساحة هذه البلاد ثلاثة آلاف فرسخ عرضاً وألف فرسخ طولاً، ولا توجد بها مدن كبيرة عامرة سوى الإسكندرية والقاهرة.

أمّا الحروف التي يكتبون بها واللّغة التي يتحدّثون بها، فإنّها ليست كما عند باقي المسلمين؛ بل هي مختلفة تماماً. ومع ذلك، فهم جميعاً على ملّة محمّد، ويطلقون على أنفسهم اسم العْرَبْ، وأزناڭة، والبربر. ونمط حياتهم جميعاً واحد، كما ذكرت آنفاً؛ إذ يعيشون في الخيام مع مواشيهم، حيثما يشاءون، من دون أي سلطة أو قانون؛ فكل منهم يذهب إلى حيث يشاء، إلى

أبعد نقطة يمكنه الوصول إليها. وهم يدخلون في الحروب مع السود، ولكنّهم يعتمدون أكثر على السلب من العنف المباشر؛ لأنّهم لا يمتلكون القوّة عينها التي يمتلكها هؤلاء.

ويأتي إلى أرضهم بعض المسلمون لبيع السود الذين أخذوهم أو أسروهم من مومديبارك، وراء مملكة تونس، ليبيعوهم للتجار المسيحيين الذين يذهبون إلى هناك. ويتم تبادل هؤلاء العبيد مقابل الخبز وبعض الأشياء الأخرى، تماماً كما يحدث الآن في وادي الذهب، كما سنسرد لاحقاً. ومن المهم أن تعرف أنّه في جميع بلاد أفريقيا التي تمتد من مصر إلى الغرب، لا توجد مملكة إلاّ مملكة فاس التي تشمل مراكش وتافيلالت، وكذلك مملكة تونس التي تضم مملكة تلمسان وبجاية. أمّا بقية البلاد؛ فهي تحت سيطرة العرب وأزناگة الذين هم إمّا من رعاة الخيل أو من البدو الذين يرتحلون على السهول، كما سبق وأوضحنا. كما يذكر أنّه في أرض السودان توجد مملكة تسمّى ملي، إلاّ أنّ ذلك غير صحيح؛ إذ يتم نقل السود من تلك المملكة لبيعهم كما يتم مع الآخرين. فمن الواضح أنّه لو كانوا مسلمين، لمّا تمّ بيعهم بهذه الطريقة.

وبالعودة إلى ما حدث لجواو فرنانديش (João Fernandes)، الذي تنقّل مع أولئك الرّعاة؛ فقد ذكر أنّه أثناء سفره معهم على تلك الرّمال، كانت الكمية التي يحصل عليها من اللّبن غالباً ما تكون ناقصة. وفي أحد الأيّام، مرَّ فارسان من هناك، كانا مسافرين نحو الوجهة التي يتواجد فيها اهوده ميمون (Ahude Meymon)، الذي تحدثّنا عنه سالفاً. فسألا جواو فرنانديش إن كان يرغب في الذهاب إلى المكان الذي يقيم فيه ذلك المغربي؛ فأجابهم: "نعم، أرغب في ذلك؛ فقد سمعت أنّه رجل نبيل، وأود الذهاب إليه لأراه وأتعرّف عليه". فركبوه على ظهر جمل وبدأوا الرِّحْلة معهم في الاتجاه الذي يظنّونه وجهة المغربي. وقد واصلوا السير مسافة طويلة لدرجة أنّ الماء الذي كانوا يحملونه كاد أن ينفد؛ فاضطرّوا إلى قضاء ثلاثة أيام من دون أن يشربوا.

وروى جواو فرنانديش (João Fernandes) أنّهم لا يعرفون مكان إقامة أي شخص منهم إلاّ بالاستناد إلى السماء، حيث يلاحظون الغربان والطير التي يعتقدون أنّها من الإنس. ولا يوجد في تلك البلاد طريق ثابت إلاّ ذلك الذي يمر بمحاذاة شاطئ البحر. وأضاف أن المغاربة الذين رافقوه في ترحالهم يهتدون فقط بالرياح، كما هو الحال في البحر، وكذلك بالطير التي ذكرناها سابقاً.

وقد سافروا لمسافات طويلة عبر تلك الأراضي، وعانوا من العطش حتّى وصلوا إلى المكان الذي يوجد فيه اهوده ميمون مع أبنائه وآخرين يرافقونه، ويقدّر عددهم بنحو مائة وخمسين رجلاً. وقد أثنى جواو فرنانديش عليه كثيراً؛ إذ استقبله المغربي بحفاوة وأمر بتوفير الطعام له على نفقته. وعندما عادت به السفن، كانت تغذيته جيّدة ولونه كان في حال طبيعي.

وأشار أيضاً إلى أنّ درجات الحرارة في تلك البلاد كانت مرتفعة، بالإضافة إلى الغبار الناتج عن الرمال. والغالبية العظمى من الناس يسيرون على الأقدام، والقليل منهم يركبون الخيل. أمّا الذين لا يسافرون راجلين؛ فيركبون الجمال، التي منها ما هو أبيض ويستطيع قطع مسافة خمسين فرسخاً في اليوم. وهناك وفرة كبيرة من الإبل، ليس فقط البيضاء؛ بل من جميع الألوان الأخرى، كما توجد العديد من قطعان الماشية رغم قلّة المراعي، كما ذكرنا وشيكاً.

وكما ذكر جواو فرنانديش أنّهم يمتلكون عبيداً من السود، وأنّ النساء من ذوات النسب الكريم يمتلكن الكثير من الذهب الذي يأتون به من بلاد السودان. وأضاف أنّ في تلك البلاد العديد من النعام، والظباء، والغزلان، والحجل، والأرانب، وطيور السنونو التي تهاجر في الصيف لتقضي فصل الشتاء هناك في الرمال، ويعتقد أنّ ذلك بسبب الحرارة. كما أنّ بعض الطيور الصغيرة تهاجر إلى تلك المناطق أيضاً. وقد ذكر أنّ طيور اللقالق تهاجر إلى أرض السودان، حيث تمكث هناك طوال فصل الشتاء.

II

دوارتي پاتشيكو پيريرا (Duarte Pacheco Pereira)، إيسميرالدو دي سيتو أوربيس، الكتاب الأول، نهاية الفصل الرابع والعشرون والفصل الخامس والعشرون، تحقيق: إيپيفانيو دا سيلفا دياز (Epifanio da Silva Dias)، لشبونة، 1905م، صص.75-77).

الفصل الرابع والعشرون:

عن الطرق والمعالم من الرأس الأبيض في اتجاه الرأس الأخضر

توجد في جزيرة أرگان حصون بناها الملك العظيم ألفونسو الخامس (Alphonse V) بواسطة أحد الفرسان من أهله، وهو سويرو مينديز دي إيبورا (Soeiro Mendes d'Evora)، وذلك بعد وفاة الأمير دون إنريكي (Henrique). وقد منح الملك سويرو مينديز، بفضل مواقفه، منصب "قائد المغاربة" (Alcaide mor) لذلك الحصن، وهو منصب مخصّص له ولأبنائه.

ويقدّم العَرَبْ وأزناگة في أرگان الذهب الذي يأتون لتبادله، بالإضافة إلى العبيد السود من بلاد الولوف والماندينگ (من جالوفو والمانديگا)، وجلود الظباء المستخدمة في صناعة الدروع، والصمغ العربي، وبعض السلع الأخرى. ومن أرگان، يأخذون الأقمشة الحمراء والزرقاء الرخيصة، والأقمشة الخشنة، والبطاطا، والبطانيات الرخيصة التي تُصنع في أليمتيخو (Alemtejo)، وأشياء أخرى مشابهة.

والبلد بأسره، الممتد من رأس بوجدور حتّى أرگان وما وراءه لمسافة خمسين ميلاً، يكاد يكون صحراءً، قليل السكان على طول البحر، وكذلك في الداخل. والسبب في ذلك أنّه مغطّى بالكامل بالرمال ويُعثر فيه على القليل جداً من الماء. وعرض هذه الصحراء يبلغ حوالي مائتي ميل، أمّا في الطول؛ فهي تمتد لتغطّي معظم أفريقيا، حيث تمتد وتتّسع لمسافة تسعمائة ميل أو أكثر نحو الشرق، حتّى شواطئ البحر الآخر حيث يسكن الإثيوپيون تحت حكم المصريين، جيران رأس گاردافوي، وحيث يقع بداية ومدخل مضيق مكة الذي يفصل أفريقيا عن شبه الجزيرة العربية، والذي يؤدّي إلى داخل البحر الأحمر. وتقع أرگان ورأس گاردافوي على نفس الخط العرضي، أي على بُعد 24 درجة

مـن خـط الاسـتواء نحـو القطـب الشـمالي؛ وبلـد ݣاردافـوي، مثـل أرݣان، هـو أيضـاً صحـراء بالكامـل ومغطّـى بالرمـال. ويعيـش في هـذه الصحـراء بعـض البـشر البدائيـين العـراة الذيـن يتغـذّون عـلى الغـزلان التـي يصيدونهـا بالحبـال، والأرانـب، والثعابـين التـي يجفّفـون لحومهـا تحـت الشـمس؛ يأكلونهـا ولا شيء غيرهـا. ويُسـمّى هـذا البلـد الصحـراء، ويتحـدّث هـؤلاء النـاس اللّغـة الزناݣيـة. وهـم يعبـدون الطائفة الخادعـة لمحمّـد. ومـن العجيـب أن نـرى كيـف قامـت الطبيعـة الأم بتوفـير جميـع الأشـياء الضروريـة؛ لأنّـه، رغـم أنّ هـذه الصحـراء مليئـة بالرمـال التـي تتطايـر بقـوة الريـاح، إلاّ أنّـه توجـد بهـا جـزر صخريـة تحتـوي عـلى قليـل مـن الأرض، تقـع عـلى بُعـد ثـلاث أو أربـع أميـال عـن بعضهـا البعـض، وبعضهـا أبعـد، وتصـل إلى ارتفـاع بحيـث لا يمكـن للرمـال أن تغطّيهـا؛ وهـذه هـي العلامـات التـي يعتمـد عليهـا أهـل تلـك المناطـق للتوجيـه، والتـي تعتمـد عليهـا تلـك القبائـل البدائيـة.

وعنـد الانطـلاق مـن أرݣان والسـير لمسـافة ثلاثـين ميـلاً نحـو الـشرق عـبر الصحـراء، يجـد المـرء بحـيرة صغـيرة تُدعـى وادان، حيـث توجـد الميـاه طـوال العـام. وهنـاك يتوقّـف أهـل الغْـرَبْ الذيـن يأتـون مـن أرݣان وأماكـن أخـرى مـع بضائعهـم؛ فيسـتريحون، ويسـقون جمالهـم، ويأخـذون الميـاه للطريـق. وعـلى بعـد أربعـة أميال مـن هـذه البحـيرة نحـو الجنـوب الشرقـي، توجـد بحـيرة أخـرى تُسـمّى إينشـيري. وفي هـذه الصحـراء، توجـد ملاحـات يُسـتخرج منهـا الكثـير مـن الملـح، ونوعـه جيّـد جـداً. ويُسـتخرج الملـح بالطريقـة التاليـة: في بعـض الأماكـن، يتـم حفـر الأرض للعثـور عـلى طبقـة ملحيـة عـلى عمـق ذراع، وهـي عـلى شـكل لـوح وطويلـة، قـد تصـل إلى ميـل أو أكثـر، وأحيانـاً أقـل، بسـمك ثلاثـة أصابـع. ويتـم قطعهـا إلى قطـع طـول كل منهـا سـتة أصابـع، ويُحمـل جمـل كبـير خمـس قطـع مـن هـذه القطـع. وهـذا الملـح جيـد وأبيـض جـداً. وقـد رأيتـه في لشـبونة، في "دار دا مينـا" (La Casa da Mina)، حيـث يتـم تنظيـم تجـارة غينيـا، وكان قـد تـم جلبـه مـن أرݣان. ومـن هـذه الصحـراء، يقـود أهـل الغْـرَبْ العديـد مـن الجمـال المحمَّلـة بالملـح إلى سـوق تنبكـت، حيـث يحقّقـون الكثـير مـن الذهـب.

وعنـد الاسـتمرار نحـو الجنـوب الشرقـي بعـد بحـيرة وادان المذكـورة، عـلى مسـافة نحـو أربعـين ميـلاً أو أقـل، يجـد المـرء مدينـة تُسـمّى وادان، وهـي مأهولـة بالأزناݣة، رجـال ذوي بـشرة سـمراء، وعددهـم نحـو ثلاثمائـة عائلـة. وهـم مسـلمون ويتبعـون الطائفـة المفصولـة عـن الإسـلام التـي أسسـها محمّـد، ويُطلـق عليهـم اسـم (Ezarzui-guy). وفي هـذه المدينـة مـن وادان، توجـد تجـارة كبـيرة للذهـب، الـذي

يأتـي إليهـا مـن غينيـا عـبر الـبر، وكان تجـارة الذهـب أكـبر في هـذا المـكان في المـاضي قبـل اكتشـاف مينـا (Mina) والأنهـار الأخـرى في غينيـا. وقـد كان الملـك جـون الثاني (Jean II)، رحمـه اللـه، قـد عـيّن هنـاك عامـلاً مـن فرسـانه يُدعـى رودريڤـو رينيـل (Rodrigo Reinel). وهـذا الأخـير لقـي اسـتقبالاً سـيئاً مـن هـؤلاء النـاس الأشرار مـن الأزناڭـة لدرجـة أنّـه اضطـر للعـودة إلى البرتغـال، ولـم يتمكّـن مـن المغـادرة والنجـاة إلاّ بعـد معانـاة كبـيرة ومخاطـر جسـدية وإنفـاق كبـير. وعـلى بعـد خمسـة عـشرة أو عشريـن ميـلاً مـن وادان، توجـد ثلاثـة قـرى صغـيرة مأهولـة بالأزناڭـة؛ الأولى تُسـمّى شـنقيطي، والثانيـة تينيڭـي، والثالثـة (Marzy). وفي جميعهـا تتـم تجـارة الذهـب الـذي يأتـي مـن غينيـا. وجميـع هـؤلاء النـاس هـم تبعيـة لمجموعـة مـن العْـرَبْ تُسـمّى لودايـا. وهـؤلاء النـاس يتغـذّون عـلى التمـر، وكميـة صغـيرة مـن القمـح الـذي يزرعونـه في بسـاتين النخيـل، ولحـم الماعـز والغنـم. ولـم يكـن الكُتّـاب القدامـى يعرفـون عـن هـذا البلـد مـا نعرفـه نحـن؛ لأنّـه لـو كانـوا يعرفـون، لمّـا شـعروا بفرحـة صغـيرة. وقـد تـمّ اكتشـاف أرڭان عـلى يـد أنتـاو ڭونسـالفيش (Antão Gonçalves)، وهـو مـن النبـلاء في بيـت الأمـير إنريكـي (Henrique)، الـذي منحَـه عـلى هـذا الإنجـاز منصـب "قائـد المغاربـة" (Alcaide mor) لمدينـة تومـار (Thomar) وثـوب المسـيح.

نقل المدينة البرتغالية مازاكان إلى البرازيل

إعداد: د. روبير ريكار

ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل

من المعروف أنّه في عام 1769م، أجبرت الهجمات المتكرّرة من قبائل المنطقة وتهديدات السلطان سيدي محمد بن عبد الله البرتغاليين إلى إخلاء مستوطنتهم في مدينة مازاڭان، التي كانوا قد استقرّوا فيها منذ عام 1514م. وقد تَمَّ نقل السكّان إلى البرازيل، ومن هذه المستوطنة الأفريقية نشأت مدينة مازاڭان جديدة في ڭراو پارا (Grão-Pará) شمال البرازيل، التي سُميت "نوڤا مازاڭاو" (Nova Mazagão). وفي مقال غير مُوقَّع بعنوان "إقامة مدينة مازاڭاو في ڭراو پارا"، تقدّم مجلة المعهد التاريخي والجغرافي البرازيلي (المجلد 84، 1918م [ريو دي جانيرو، 1920م]، الصفحات: 609-695) بعض التفاصيل المثيرة للاهتمام حول هذه القصّة.

ويُقدّم لنا هذا المقال أوّلاً نص الرّسالة الموجّهة إلى حاكم ڭراو پارا، فرناندو دا كوشتا أتايدي تييڤي (Fernando da Costa Ataide Teive)، من طرف الوزير فرانسيسكو تشاڤيير دي ميندونسا فورتادو (Francisco Xavier de Mendonça Furtado)، شقيق ماركيز دا پومپال (Marquis de Pombal)، لإبلاغه بالقرار الملكي المرتبط بمازاڭان.

وقد تَمَّ تأريخ الرّسالة في 16 مارس 1769م، وهي محفوظة في المكتبة الوطنية في ريو دي جانيرو (Mss.، 36-39 Cod.، قسم الأوامر والمراسلات، رقم 1751-1807).

ويبدو لي أنّه من المفيد إعادة نشر هذا النّص (الصفحات 611-613):

"نظراً لأنّ جلالته كان قد عرف منذ سنوات عديدة مدى عبثية الاستمرار في دعم مدينة مازاڭان، والتكلفة الكبيرة التي كان مضطراً لتحمّلها للحفاظ عليها من دون أن يحقّق أي ثمار للمسيحية؛ لأنّه كان من المستحيل نشرها عبر تلك البوّابة بسبب الكراهية المستعصية التي تكنّها تلك الشعوب البربرية لسكان المدينة، والتي كانت تمنع أيضاً تقدّم التجارة.

وبناءً على ذلك، وجد أولئك السكّان التعساء أنفسهم محكومين بالفقر الدائم، وكان من الضّروري عليهم، حتّى للحصول على قليل من الحطب، أن يعرضوا حياتهم للخطر، كما كان يحدث كل يوم.

وبعد أن أخذ جلالته جميع هذه العوامل في اعتباره، قرّر أن تُترك المدينة المذكورة للمغاربة بموجب اتفاقية معيّنة كان يجري العمل عليها.

وقد سبق إلى المدينة إمبراطور المغرب، مُحاطاً بجيش مكوّن من سبعين ألف مقاتل، وجميع معدّات الحصار اللاّزمة لمثل هذه المواقف.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى بلاّطنا، قرّر ملكنا الموقّر تجهيز ثلاث سفن حربية، بالإضافة إلى السفن المناسبة للنقل، لنقل السكّان إلى هذا الميناء.

وقد تَمَّ تنفيذ ذلك بعد أن تعرّضوا للحصار لمدّة شهر ونصف، جرّاء القنابل التي أسفرت عن تدمير معظم منازل تلك المدينة الصغيرة.

وعلى أن يتم الاستفادة من هذه العائلات وإعادة توطينها، قرّر جلالته نقلهم إلى تلك القارة، وقد أمر بإصدار هذا الإشعار إلى سيادتكم لتتخذوا جميع التدابير الضرورية لاستقبال ما بين ألفين وألفين ومائتين شخص. ولأجل ذلك، يجب على سيادتكم أن تكونوا قد أعددتم المؤن والمرافق اللاّزمة.

وبأمر من جلالته، تقرّر تأسيس مستوطنة جديدة على الساحل الشمالي لنهر الأمازون (Amazonas)، لربطها بماكاپا (Macapá) وڤيلا ڤيستوسا (Villa Vis-tosa).

ومن بين الأنهار التي تصب في الأمازون من تلك الجهة، يُذكر نهر موتواكا (Mutuaca)، الذي يتضمّن سهولاً صالحة لتربية الماشية والإنتاج الفلاحي، ويبدو أنّه الأكثر ملاءمة لهذا الغرض. ومع ذلك، سيكون من الضّروري أن يأمر سيادتكم بإرسال أشخاص مؤهّلين لاستكشاف المنطقة بدقّة والتأكّد من مدى صلاحيتها للزراعة والإنتاج، حتّى ينعم سكّاننا بالرّخاء ويتحرّروا من البؤس الذي وُلدوا وعاشوا فيه.

وإن لم تتوفّر هذه الشروط على ضفاف ذلك النهر، يمكن للمستكشفين الذين ستكلّفهم سيادتكم بهذه المهمّة اختيار أي نهر آخر يصب في الأمازون من تلك الجهة الشمالية، يرونه الأنسب لهذا المشروع المهم، مع مراعاة جودة الهواء؛ إذ

إنّ الحفاظ على صحّة هؤلاء الناس التعساء هو من أولويات جلالته وتوصياته الصادرة.

وينبغي أن تبدأ عملية النقل خلال خمسة عشر يوماً. ويعتمد جلالة الملك على حرصكم ورعايتكم في هذا الشأن، ويثق في أنّكم لن تدخّروا جهداً في اتخاذ جميع التدابير اللازّمة لضمان ألاّ يواجه الضيوف الجدد أي صعوبة أو حاجة عند وصولهم.

وستتسلّمون مبلغاً مالياً مناسباً عبر سفن النقل لتغطية النفقات وضمان استمرار الحركة الاقتصادية في المدينة. كما ستُنقل عبر هذه السفن الأدوات والأسلحة اللازّمة لتجهيز المستوطنين، وفقاً لما اعتُمد مع غيرهم سابقاً.

لقد تَمَّ نقل ثلاثمائة وأربعين عائلة، تضم نحو ألف واثنين وعشرين شخصاً إلى البرازيل على متن ثلاث سفن تابعة لشركة التجارة العامّة (La Companhia Geral do Comercio)، وهي: سان فرانسيسكو تشاڤيير (Francisco Xavier)، وسان خواكيم (S. Joaquim)، وسانت آنا (Sant'Anna). وغادرت هذه السفن لشبونة في شتنبر عام 1769م، ووصلت إلى بيليم دو پارا (Belem do Para) في يناير عام 1770م.

ووُضع مخطّط المدينة الجديدة، الواقعة على ضفاف نهر موتواكا (Mutuacá)، على يد القبطان إيناسيو دي كاسترو مورايش سارمينتو (Inacio de Castro Morais Sarmento)، الذي أشرف أيضاً على الأعمال الأولية، مع بعض التعديلات الطّفيفة التي أدخلها المهندس الإيطالي سامبوكيتي (Sambuceti). وبدأت الأعمال في أوائل عام 1770م، ولم تتمكّن أولى العائلات من الاستقرار إلاّ في يونيو عام 1771م.

ولكن، في الواقع، لم تنتقل جميع عائلات مازاڭان للعيش في المدينة الجديدة؛ إذ استقرت فقط مائة وثلاث وستون عائلةً هناك، بينما توزّعت العائلات الأخرى بين بيليم (Belem) وڤيلا ڤيستوسا (Villa Vistosa) وماكاپا (Macapá).

وفي الثالث والعشرين من شتنبر عام 1771م، بدأت البلدية مهامها رسمياً، وحصلت مازاڭان الجديدة على رتبة "ڤيلا" (بلدة).

وبعد تقديم بعض المعلومات البيوغرافية عن بعض سكان مازاگان من المغرب الذين تميّزوا في البرازيل، يعرض المقال قائمة طويلة ومفصّلة (الصفحات: 617-695)، تضم نحو ثلاثمائة وأربعين عائلة من مازاگان استقرّت في البرازيل، مع الرواتب، والمعاشات، والتعويضات التي كان من المفترض أن تُدفع لهم. والوثيقة هي محفوظة في بيليم (مكتبة وأرشيف الدولة في پارا).

ويبدو أنّ هذه الوثيقة أُعدّت قبل مغادرتهم إلى أمريكا، حيث تعطي صورة دقيقة عن الناجين من سكّان مازاگان في وقت الإبحار إلى بيليم. ويُلاحظ فيها وجود ثلاثة قساوسة، ورجل دين، وآخر طبيب جرّاح، وحلّاق، وحارس المخازن، بالإضافة إلى نجّار متخصّص في صناعة الأبواب الضخمة (ترانكيرو: Tranqueiro؟).

أمّا الضّباط والموظّفون؛ فيظهر أنّهم غائبون عن هذه القائمة؛ ربما لأنّهم لم يكونوا جزءاً من السكّان الدائمين؛ بل تَمَّ توزيعهم في مهمّات متنوّعة.

الفصل السادس

اليهود في المغرب وأفريقيا: تجارة، وترحال، وتأثيرات

ربّي مغربي رحّالة: مردخاي أبي سرور[1]

إعداد: د. يومتوب دابيد سيماش[1]

ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل[1]

على امتداد التاريخ اليهودي، جاب العديد من الحاخامات طرق الشتات، متنقّلين بين الجماعات المختلفة، ناقلين روح الحياة اليهودية من كبرى التجمّعات في الشرق والغرب إلى المناطق النائية والمجهولة.

وقد وفّرت لهم هذه الأسفار امتيازات عديدة؛ إذ كان الرحّالة اليهود يحظون بحفاوة الاستقبال أينما حلّوا. ولا يزال هذا التقليد قائماً حتّى اليوم، حيث يتنافس وجهاء وأثرياء المجتمعات اليهودية على شرف استضافتهم؛ فيمكثون لأيّام، وأحياناً لأشهر أو حتّى لسنوات.

ويقيمون في كل مدينة ما يرونه ضرورياً، متنقّلين بين المناطق المجاورة، مبتعدين حيناً ثمّ يعودون إلى مضيفيهم قبل استئناف رِحْلاتهم نحو وجهات أخرى. وخلال إقامتهم، يشاركون في الطقوس الدينية، يلقون الخطب، ويعقدون دروساً تلمودية يحضرها أهل العلم. كما يضفون هيبةً وروحانيةً على المناسبات العائلية، من حفلات الزواج والختان إلى تأبين الراحلين عبر خطب العزاء.

ويعيشون بين أفراد الجماعة اليهودية ويتركون أثراً عميقاً في حياتهم. وعند رحيلهم، يُكرَّمون بنفقات السفر، والملابس، والهدايا المتنوّعة، سواء لشخصهم أو للمؤسّسات التي يمثّلونها أو للمدن الأربع المقدّسة: القدس، وصفد، وطبريا، والخليل، حيث يكرّس سكّانها حياتهم للصّلاة من أجل خلاص اليهود في الشّتات.

وغالباً ما نرى هؤلاء الحاخامات الشرقيين في الملاّح، يرتدون ثوباً ملوّناً يربط بحزام من القماش حول الخصر، وفوقه رداء أسود طويل. ويحيط برؤوسهم عمامة من الحرير الأسود، تلتف حول قبّعة حمراء من تركيا القديمة.

وإذا استفسرت منهم، سيخبرونك عن البلدان التي زاروها، وسيعلّمونك أسماء أماكن لم تكن تعرفها؛ فقد وصلوا إلى جنوب المغرب حتّى حدود الصحراء. وإذا أمكننا العيش في صحبتهم، وإذا تيسّر لنا جمع ذكرياتهم وفتح دفاتر ملاحظاتهم، لتمكنّا

مـن الحصـول عـلى بيانـات غايـة في الأهميـة عن النّـاس والأشـياء؛ فهـم يمـرّون في كل مـكان، ويُعتبرون شـخصيات مقدّسـة، وقـد أحاطت بهم أسـاطير كثيرة. فـلا أحد يجرؤ عـلى مهاجمتهم.

لقـد حفـظ التاريـخ ذكـرى العديـد مـن هـؤلاء الرحّالـة، وكان مـن أبرزهـم بنيامـين التطيـلي (Benjamin de Tudèle)، الـذي جـاب بـين عامـيْ 1165م و1171م البلـدان الواقعـة عـلى طـول السّـواحل المتوسّـطية، وذهـب أيضـاً إلى اليمـن وتركسـتان. وتُعـد ملاحظاتـه، التـي سـجّلها في دفاتـره، مصـدراً ثمينـاً للوثائـق العلميـة حـول الجغرافيـا والتاريـخ في العصـور الوسـطى.

ويُعَـدّ مردخـاي أبـي سرور شـخصية مثـيرة للاهتمـام، عـلى الرّغـم مـن أنّـه لـم يكـن يمتلـك القيمـة الفكريـة نفسـها التـي تمتّـع بهـا بنيامـين التطيـلي، إلاّ أنّ رِحْلاتـه وإسـهاماته العلميـة تظـل ذات أهميـة. وقـد قـام بزيـارة أراضٍ شاسـعة، وكانـت معلوماتـه التـي جمعهـا حـول المغـرب والسـودان في عـام 1870م ذات قيمـة كبـيرة. وقـد عرفنـا سـيرة حياتـه مـن خـلال كتيّبـه حـول "أول إقامـة للإسرائيليـين في تنبكـت"، الـذي ترجمـه القنصـل بوميـي (Beaumier)، وهـو مصـدر مهـم لفهـم مسـيرته. كمـا سرد الڤيكونـت شـارل دو فوكـو (Charles de Foucauld) العديـد مـن الأحـداث البـارزة في حياتـه في ملاحظـات نُـشرت في كتابـه "شـارل دو فوكـو، مستكشـف المغـرب".

والمراسـلات المتبادلـة حـول مردخـاي، التـي كانـت بـين الرابطـة اليهوديـة العالميـة والسـيد بوميـي (Beaumier)، والسـيد مونـوار (Maunoir)، السـكرتير العـام لجمعيـة الجغرافيـا، إضافـة إلى السـيد ليـون فيليـپ (Léon Philippe)، السـكرتير المسـاعد للجنـة سـكة الحديـد بـين الجزائـر والسـنڠال، قدّمـت أيضـاً معطيـات مهمّـة عـن حياتـه ورِحْلاتـه. كمـا سـاعدنا ابـن مردخـاي، السـيد إميـل حاييـم أبـي سرور، الـذي كان محاسـباً قانونيـاً في الجزائـر، وعـدد مـن الأشـخاص مـن وهـران، ومـوڠادور، وفـاس، ومراكـش في تقديـم بعـض التفاصيـل. رغـم أنّ العديـد مـن هـذه المعلومـات كانـت تحريفـاً لبعـض الحقائـق التـي كنّـا قـد عرفناهـا مـن مصـادر أخـرى، إلاّ أنّهـا أضافـت إلى الصـورة العامّـة عـن مردخـاي ودوره في تلـك الفـترة.

لقـد وُلـد مردخـاي في أقّـا، بالصحـراء، نحـو عـام 1830م. وكان والـداه مـن أصـل صحـراوي. وتـوفي في الجزائـر في السّـادس مـن أبريـل 1886م، ودفـن في مقـبرة سـانت أوجـين (Saint-Eugène).

وكانـت طفولـة مردخـاي مثـل أطفـال اليهـود في المـلاّح. وقـد أُرسـل في سـن الثالثـة أو الرابعـة، إلى الحاخـام في الطائفـة وتعلّـم القـراءة والكتابـة. وكان طفـلاً مجتهـداً ومليئـاً بالتقـوى. وأصبـح في حـوالي سـن العـاشرة أو الثّانيـة عـشرة، عـلى درايـة بالكتـاب المقـدّس ودرس بعـض مقاطـع مـن التلمـود. وكان تلميـذاً لامعـاً، وكانـت أعـين المجتمـع الصغـيرة عليـه. وكان مـن المحتمـل أن يصبـح في يـوم مـن الأيّـام زعيمـاً دينيـاً، ولإعـداده لهـذه المهمّـة، أُرسـل إلى الطائفـة الكبـيرة في مراكـش، المشـهورة بمدارسـها التلموديـة. وحتّـى اليـوم، تسـير الأمـور كمـا كانـت في زمـن أبـي سرور. وكانـت الطوائـف المنتـشرة في سـوس والأطلـس تُرسـل نخبهـا إلى مـدارس مراكـش، أولئـك الذيـن يُعـدّون للالتحـاق بالحاخاميـة والتعليـم. وكانـت أفضـل العائـلات في هـذه المدينـة تـرى في اسـتقبالهم واجبـاً، حيـث يقدّمـون لهـم المـأوى والمـأكل. وكانـوا يدرسـون هنـاك لعـدّة سـنوات، وفي يـوم مـن الأيّـام، كان الجمهـور الـذي يتابعهـم مـن كثـب، والـذي يسـتمع إلى درسـهم، أو يشـاهدهم وهـم يـؤدّون طقـوس الصّـلاة في الكنيـس، يمنحهـم لقـب "الرِبِّـي"، وهـو الدّبلـوم الشـعبي الـذي يكـرّس الجـدارة والعلـم.

لقـد سـنحت لي الفرصـة، قبـل بضعـة أسـابيع، للتحـدّث في مراكـش مـع هـؤلاء الطـلاب، وكانـوا قـد جـاؤوا مـن تازناخـت، وأولاد منصـور، وأولاد الزناگيـة، وآيـت تيسـنت، وآيـت رحّـال، وأبـي الجّعـد. وكانـوا سـعداء بحياتهـم الحاليـة، وكانـوا يتطلّعـون إلى المسـتقبل بثقـة: سـيعودون إلى قريتهـم الأصليـة، وسـيعلّمون الأطفـال، ويخطبـون في الكنيـس، ويجـرون الختانـات، ويذبحـون المـواشي التـي يمكـن أن يسـتهلك لحومهـا المؤمنـون، وسـيحتفلون بالأعـراس، وسـيصبحون زعمـاء.

ومثلمـا فعـل آخـرون قبلـه، انضـم مردخـاي إلى تلـك القاعـة القديمـة للدّراسـة في المـلاّح بمراكـش، حيـث كانـت أصـوات الجزاريـن وبائعـي الخـضروات تتسـلّل عـبر البـاب المـوارب، مضيفـة إلى الأجـواء نكهـة الحيـاة اليوميـة في الحـي. وقـد جلـس عـلى الأرائـك الخشـبية الواسـعة، واضعـاً ركبتيـه عـلى مسـتوى ذقنـه ليدعـم الكتـب الثقيلـة للتلمـود، محاطـاً بطـلاّب آخريـن مـن مختلـف الأعمـار. وكان هنـاك أيضـاً شـيوخ عاطلـون عـن العمـل ورجـال في أوج قوّتهـم، يأتـون أحيانـاً بحثـاً عـن متنفّـس لهمـوم الحيـاة والأعمـال.

وكانـت المناقشـات تسـتمر لسـاعات حـول هـذه القضايـا الدّقيقـة التـي تتناقلهـا الأجيـال مـن الوعـي الدينـي اليهـودي، المتعطّشـة للعدالـة والحـق. وكان مردخـاي،

صاحب العزيمة القويّة، يتفوّق بلا شك في تلك المناقشات؛ فقد كان يُستمع إليه بإعجاب، وكان الجميع يعتقد أنّه سيصبح في يوم من الأيّام حاخاماً عالماً، وأنّه ربّما سيحل مكان العجوز المحترم الذي كان يقود التعليم في تلك القاعة.

وكان لمردخاي حلم آخر: كان يرى بلاداً بعيدةً، الأرض المقدّسة حيث عاش علماء التلمود. هل يمكنه زيارة تلك المدن المضيئة، والبحث عن آثار خطواتهم؟ كيف يمكن تحقيق طموح كهذا، الذي يبدو بعيد المنال؟ لقد كان فقيراً، ووالده، وهو مجرّد عامل في صناعة المجوهرات، يكسب بالكاد ما يكفي لإعالة عائلة كبيرة. ثمّ ظهر له حامي غني، وكان في طريقه إلى فلسطين، فأخذه معه، مُنفِّذاً بذلك عملاً تقوياً.

ومن المهم هنا أن نذكر هذا الحب العميق الذي يكنّه اليهود لمدينة القدس، الوطن المقدّس، التي حملت الأساطير عن مأساتهم في الأوقات المظلمة للتعصّب، والتي تفسّر اليوم نجاح الصهيونية. وكان هذا الحب أيضاً محمّلاً بالخرافات، حيث كان الناس من جميع الطّبقات يعتقدون أنّ الموت في هذه الأرض المقدّسة كان أيسر وألطف. وكان يُعتقد أنّ أجسادهم ستكون محمية من عذاب الديدان الرهيب، وستظل سليمة حتّى يوم القيامة. وكان يهود الشرق وشمال أفريقيا، عند بلوغهم سناً معيّنة، لديهم رغبة واحدة: الذهاب لقضاء أيّامهم الأخيرة في فلسطين والنوم في ترابها. وكانت الرِّحْلات طويلة وصعبة، وكان عليهم ترك كل شيء خلفهم، وقطع الروابط مع الأصدقاء، والعائلة، والأبناء، وكانوا يخفون هذا التمزّق بحفل كبير، "حفلة الكفن". وكان يجب عليهم أن يأخذوا معهم كفنهم، وكانت المدينة بأسرها تحضر صناعة وتجربة هذا اللّباس المصنوع من قماش الكتّان الناعم. وكانوا يتلون الأدعية، ويغنّون الأناشيد، ويشربون، ويقدّمون الحلويات والمربّى، ويتبادلون المزاح حول الرِّحْلة الكبرى التي ستتبع الرِّحْلة إلى فلسطين. وكان جميع المسافرين من المنطقة يلتقون في ميناء الانطلاق.

وكان مردخاي أحد أفراد هذه الطائفة التي غادرت نحو فلسطين، وقد عرفت المراحل التي مرّ بها خلال رحلته الطويلة: موڨادور، وطنجة، وجبل طارق، وسالونيك، والقسطنطينية، وإزمير، ويافا، وأخيراً القدس. وعند وصوله إلى وجهته، انكبّ على الدّراسة تحت إشراف كبار الحاخامات في ذلك العصر. وكان آنذاك في السّابعة عشرة أو الثّامنة عشرة من عمره، وبحلول سنّ الثّالثة والعشرين أو الرّابعة والعشرين، أصبح حاخاماً مرموقاً.

وبعد ذلك، اتجه نحو الشمال وقضى عاماً في حلب يُدرّس هناك، لكن سرعان ما استبدّ به الحنين إلى وطنه؛ فعاد إلى القدس، ومنها انتقل إلى مصر. ويُعتقد أنّه انضم إلى قافلة تجارية سلكت الطريق المحاذي للسواحل الصحراوية، ماراً بطرابلس الغرب، ثمّ تونس والجزائر. وتوقّف في كلّ من تونس، وقسنطينة، والجزائر العاصمة، ووهران، حيث درّس التلمود.

لقد أذهلته الجزائر الفرنسية، وأثارت إعجابه العميق؛ فقد لاحظ كيف كان يهود هذا البلد واعين بحتمية التقدّم، ويتمتّعون بالحرية، ويعملون، ويتعلّمون، ويلتحق بعضهم بالجيش متفوّقين في المعارك. ورأى فيهم نموذجاً يُحتذى به؛ فتنامى لديه حبّ شديد لفرنسا. ومنذ ذلك الحين، لم يردْ أن يُعرِّف نفسه كمغربي؛ بل كجزائري. وبالفعل، حصل على جواز سفر فرنسي، وعاد إلى المغرب بصفته محمياً فرنسياً. ومع ذلك، ظلّ هناك أمر واحد ندم عليه طوال حياته: عدم تعلّمه اللّغة الفرنسية، وهو ما شكّل ثغرة كبيرة في تكوينه الفكري.

وفي أوائل عام 1858م، عاد مردخاي إلى أقّا ليجد عائلته تعاني ضائقة مادية؛ فلم تكن حِرفة والده وإخوته تزدهر إلاّ في سنوات الرّخاء؛ إذ لا يقبل النّاس على اقتناء المجوهرات حينما يفتقرون إلى الضروريات الأساسية. ولم يكن مردخاي يعلم ماذا يفعل؛ إذ لم يكن لديه اهتمام بتعليم الصّغار؛ فقرّر خوض غمار التجارة. وكان فصيحاً، وبارعاً، وحاسماً، وهي صفات تؤهّله للنّجاح.

وأقام علاقات مع تاجر من موڭادور يُدعى سالومون أُوحيُّون (Salomon Ohayon)، ودخل في شراكة تجارية معه. وفي تلك الفترة، كانت القوافل القادمة من مراكش والمتّجهة إلى بلاد السودان تمر عبر أقّا؛ فبدأ مردخاي يتاجر معها، وسرعان ما راودته فكرة مرافقتها إلى بلاد الذهب، حيث رأى فرصة لتحقيق ثروة كبيرة... لكنّه كان يهودياً، وهو وضع لم يكن ملائماً لمثل هذه الرِّحْلة. وقد تردَّد ملياً، بيد أنّه كلّما أدرك ضخامة العقبة، ازداد إصراراً على تجاوزها. وكان المجهول يجذبه، ورغب مجدداً في الارتحال عبر العالم، والسير نحو الآفاق الموحشة. وأخيراً، عزم على الرحيل. وكان والده، الذي اشتهرت مجوهراته في جميع أنحاء الصحراء، يملك أصدقاء بعيدين يمكنه دائماً الاعتماد عليهم في طلب العون. كما أنّه كان يتمتّع بحماية زعيم قبيلة اسكارنة، وهو رجل قوي ذو نفوذ بعيد الصدى.

لقـد اتّفـق مردخـاي مـع شريكـه، وحمـل مجموعـة مـن البضائـع، ثـمّ انطلـق مـع أوّل قافلــة تمــر بالمنطقــة، برفقــة أخيــه الأصغــر إســحاق. واســتغرقت رِحْلتهمــا تسـعة وأربعـين يومـاً للوصـول إلى أراوان، التـي تبعـد أربعـة أيّـام سـيراً عـلى الأقـدام عـن تنبكـت[1]، بعـد المـرور عـبر توزونـين، وتنـدوف[2]، وإيگـيدي، بالقـرب مـن الموقـع الـذي لقـي فيـه داڤيدسـون (Davidson) حتفـه عـام 1837م ثـمّ أركْشـاش وتاودنّـي. وكان مردخـاي معتـاداً عـلى مشـاق السـفر مـع القوافـل؛ فتمكّـن مـن تحمّـل المصاعـب والحرمـان بسـهولة. ولـم تـترك الصحـراء الكـبرى أي انطبـاع خـاص لديـه؛ إذ لـم يكـن ينظـر إليهـا بعـين المستكشـف؛ فلـم يـرَ فيهـا شـيئاً ذا بـال، وهـو مـا شـكّل خيبـة أمـل لفضولنـا ورغبتنـا في المعرفـة.

وعنـد وصولـه إلى أراوان، واجـه تهديـداً خطـيراً؛ إذ كان حاكـم المدينـة، سـيدي أحمـد ولـد الأبيـض ولـد الرحّـال، رجـلاً متعصّبـاً لا يطيـق رؤيـة الغربـاء في أرضه؛ فأقسـم عـلى قتـل هـؤلاء اليهـود، كمـا فعـل سـابقاً بالنصرانـي الماجُـور لينگـ (Le major Laing). إلاّ أنّ مردخـاي لـم يبـدُ عليـه التأثّـر بهـذه التهديـدات؛ بـل دخـل في نقـاش مـع الحاكـم المسـتبد، وتـودّد إلى خاصّتـه، وأظهـر لهـم الفوائـد التـي سـتعود عليهـم مـن قدومـه؛ إذ سـتكون أرباحـه في خدمتهـم.

واندهـش سـيدي أحمـد مـن فصاحـة اليهـودي؛ فقبـل الهدايـا الثمينـة التـي قُدّمـت لـه، وسـمح لمردخـاي بالبقـاء ومتابعـة طريقـه. ولكـن واجهتـه عقبـة أخـرى؛ إذ لـم يكـن أي جَمّـال مسـتعداً لنقـل رحّالـة مشـبوه. بيـد أنّـه اسـتطاع تجـاوز هـذا العائـق أيضـاً، ليصـل إلى تنبكـت في أوائـل عـام 1859م، بعـد أكثـر مـن عـام عـلى انطلاقـه، فيمـا بقـي أخـوه في أراوان.

ووصـل مردخـاي إلى هـذه المدينـة في وقـت كانـت فيـه سـمعة وصولـه مثـار جـدل عـام، وذلـك حسـبما قالـه التجّـار المغاربـة، الذيـن رأوا فيـه منافسـاً قويـاً؛ فرفعـوا ضـدّه حفيظـة العامّـة وأرسـلوا رسـائل إلى القضـاة المسـلمين، الذيـن تولّـوا أمـره. وكانـت معرفتـه بالعربيـة الشـامية عونـاً كبـيراً لـه في تلـك اللّحظـة؛ فقـد دافـع عـن نفسـه بلغـة القـرآن، مُزيّنـاً حججـه بالعديـد مـن الآيـات القرآنيـة، كمـا استشـهد بمختلـف الأمثـال الشرقيـة، مُوضّحـاً الجريمـة التـي سـتُرتكب إذا أُلحِـق بـه الأذى، حيـاة ممثّـل هـذا الشّـعب الـذي احترمـه محمّـد، وحيـاة حاخـام قـد اكتسـب علمـه

(1) سلك الدكتور أوسكار لينز (Oskar Lenz) في عام 1880م المسار ذاته بغاية الوصول إلى تنبكت. [المؤلّف].

(2) كان التجّار الإسرائيليون القادمون من مراكش وموگادور حتّى سنوات قليلة مضت يصلون إلى هذا المكان لبيع الأقمشة القطنية، والشاي، والسكر. [المؤلّف].

في المدينـة المحبوبـة لـدى النبـي. وبعـد نقاشـات طويلـة ومربكـة، تَـمَّ تبرئتـه وأُعطي إذنـاً بالمتاجـرة بحريـة في سـائر أنحـاء البـلاد. وخلـص مردخـاي إلى أنّ سـكّان تنبكـت غـير مؤذيـين.

وفي عـام 1860م، اِسـتدعى مردخـاي شـقيقه الـذي كان ينتظـره في أراوان وبـدأ يهتـم بتجارتـه بشـكل جـاد. وكان النجـاح سريعـاً ومبهـراً؛ ففـي وقـت قصـير جـداً، أصبح شـخصية بـارزة في المنطقـة. وفي عـام 1863م، عـاد إلى أقّـا لزيـارة عائلتـه. وقـدّم ثـروة لوالـده، ثـمّ توجّـه إلى مـوگادور حيـث أجـرى مشـتريات ضخمـة، ثـمّ اسـتأنف رِحْلتـه إلى تنبكـت محمّـلاً بثمـان وعشريـن شـحنة مـن البضائـع، ورافقـه أربعـة مـن إخوانـه أو أقاربـه، وسـلكوا طريقـاً أسرع، وبعـد ثـلاث وعشريـن يومـاً مـن السّـير، وصلـوا إلى تنبكـت.

ولـم يتخـلَّ التجّـار المغاربـة، أعـداؤه السّـابقون، عـن محاولاتهـم: حيـث كانـوا يريـدون إجبـار الطائفـة اليهوديـة الصغـيرة عـلى الاسـتقرار في حـي خـاص، وتكويـن مـا يشـبه المـلاّح حتّـى يتمكّنـوا، في يـوم مـن الأيـام، مـن إيقـاع اللّـوم عليهـم علنـاً. وشـعر مردخـاي بالفـخ وتمكّـن مـن تفاديـه؛ فقـد كان لـه العديـد مـن الأصدقـاء، وجيـش مـن المدينـين لـه بالفضـل الذيـن يسـتمعون إليـه ويقدّمـون لـه الدّعـم. ونجـح في توزيـع المجموعـة الصغـيرة عـلى مختلـف أحيـاء المدينـة، وأصبـح كل واحـد منهـم يتاجـر بحريـة. "لـم يكـن ذلـك سـوى إحـدى علامـات حنكتـه واسـتشرافه؛ بـل يمكننـي القـول إنّـه كان مـن مظاهـر عبقريتـه"، كمـا يـشرح لنـا السـيد بوميـي (Beaumier).

وفي عـام 1864م، قـام برِحْلـة جديـدة إلى أقّـا. وهـذه المـرّة، لـم يرغـب في التـزوّد بالمـؤن مـن السـوق الصغـيرة مـوگادور؛ بـل سـافر إلى إيطاليـا حيـث حصـل عـلى الخـرز وجميـع السّـلع التـي يطلبهـا السـود. وعندمـا عـاد إلى تنبكـت، كان برفقتـه خمسـة يهـود آخريـن، إمّـا أقـارب أو أصدقـاء، أحدهـم يدعـى إسـحاق بـن مـوشي، وقـد اعتنـق الإسـلام طواعيـةً. ومـع ذلـك، ظلّـوا عـشرة يهـود وشـكّلوا مجتمعـاً منظّمـاً في هـذه المدينـة البعيـدة، وتمكّنـوا مـن إقامـة شـعائر دينيـة علنيـة[1].

(1) لم يترك مرور هؤلاء الأشخاص في هذه المنطقة أي أثر. وقد صّرح كلٌّ من زعيم المدينة والقاضي، اللّذين كان من المفترض أن يوفّر لهما تقدُّم سنّهما معلومات حول هذا الأمر، بأنّهما لا يتذكّران إقامة تلك العائلة اليهودية، ولا وجود أي امتياز مُنح لدفن بعض أفرادها. وأضافا معاً أنّه من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الأشخاص قد مرّوا من دون أن يلحظهم أحد؛ إذ إنّ معظم الأجانب يغيّرون أسماءهم خلال إقامتهم. وعلاوة على ذلك، لا يستطيع أيٌّ من سكّان المدينة تقديم أي معلومة عن أحداث بعيدة كهذه. [المؤلّف].

وبدأ الحظ الذي كان قد ساعد مردخاي حتّى تلك اللّحظة يتحوّل ضده؛ فقد تم نهب قافلة كانت قد جلبت له البضائع، وقافلة أخرى كان قد أرسلها إلى موڭادور محمّلةً بمسحوق الذهب وريش النعام والعاج تعرّضت للمصير نفسه. وفي عام 1867م، توفي إسحاق، أصغر إخوته، وأوّل رفيق له في هذه الأرض المنفى. وقد دُفن في حديقة منحها له حاكم المدينة لهذا الغرض. وفي العام التالي، توجّه إلى أقّا ثم إلى موڭادور. وكتب السيد بوميي (Beaumier)، قنصل فرنسا في هذه المدينة، وهو مختص بارز في اللغة العربية وكان يقضي أوقات فراغه في أعمال لغوية وجغرافية، في رسالة إلى السيد دوڤيريي (Duvey-rier): "قليل من الوقت بعد وصولي إلى موڭادور في مارس 1866م، فوجئت عندما علمت أنّ عدّة إسرائيليين من المغرب يعيشون ويتاجرون بحرية في تنبكت. لقد انتظرت بصبر من موسم إلى آخر ومن سنة إلى سنة حتّى شهر غشت الماضي".

ورأى مردخاي السيد بوميي (Beaumier) في عام 1869م، وبدأت فترة جديدة في حياته. وكان في ذلك الوقت في سن ثمانية وثلاثين أو تسعة وثلاثين عاماً. وكان لا يزال أعزباً؛ وهو أمر مستغرب بالنسبة لحاخام، خاصّة في وقت كانت العادات تفرض على الآباء إلزامية تزويج أبنائهم في سن الخامسة عشرة والبنات في سن السابعة أو الثامنة. وبناءً على إلحاح والده الهرم والحاخامات الذين أكّدوا له أنّ نكساته الأخيرة كانت نتيجة لحالة الخطيئة التي يعيشها بسبب عزوبيّته، تزوّج في أڭادير من إحدى قريباته، اسمها مازال تارين (Mazal Tarine)، واستعد للعودة إلى تنبكت. ولكن زوجته، التي كانت حاملاً، أصيبت بمرض؛ فلم يستطع تركها. وقد تولّى أخوه أبراهام قيادة القافلة وسافر بدلاً منه، لكنّه توفي في تنبكت بعد وقت قصير من وصوله. كما توفي شقيقه موسى هناك أيضاً، وصادر كيّا (kiaya)، حاكم المدينة، جميع ممتلكات اليهود. وماذا حدث لمن بقوا على قيد الحياة؟ هل عادوا إلى أڭادير؟ لا يتم الحديث عنهم بعد ذلك. وما نعرفه فقط هو أنّ مردخاي أصبح فجأةً فقيراً. وقد فكّر في العودة إلى تنبكت، بيد أنّه لم يكن يملك المال لشراء البضائع التي يحتاجها للقيام بالرِّحْلة. هل خسر شريكه أيضاً كل شيء؟ ولماذا لم يساعده والده وإخوته الذين كانوا يمتلكون المال في أڭادير بفضل مردخاي؟ إنّ اللغز مستمر. لقد توجّه السيد بوميي (Beaumier) بعد ذلك إلى "الرابطة اليهودية العالمية" الذي أرسل له مبلغاً قدره ألف وخمسمائة فرنك. وسيتم استخدام هذا المبلغ لدفع تكاليف رِحْلة أخرى، هذه المرّة إلى باريس.

وحسب الملاحظات التي نشرها السيد ريني بازان (René Bazin) عن فوكو (Foucauld)، كان من المحتمل أن يكون مردخاي قد عاد إلى تنبكت. وقد حاول، لكن دون جدوى، أن يلين قلب كيّا (kiaya) الذي احتفظ بالثروة التي صودرت. ومع ذلك، تمكّن من جمع نحو خمسين ألف فرنك استخدمها لشراء مسحوق الذهب، ثمّ، برفقة يهودي وعبد ومرشد، حاول عبور الصحراء بأسرع طريق، بيد أنّه وقع في أيدي قطاع الطرق. وهنا يظهر حدث من أبرز اللّحظات الدرامية في هذه الحياة المغامرة[1].

وهل وقعت الأحداث بهذه الطريقة؟ هل هناك التباس مع أحداث سابقة؟ ربّما كانت هذه المخاطر هي التي كان الحاخامات يشيرون إليها عندما كانوا يحثّون مردخاي على الزواج. وعلى أي حال، لا يتحدّث السيد بوميي (Beaumier) عن هذه الرِّحْلة، ومردخاي نفسه لم يذكرها في سيرة حياته.

ومنذ عام 1869م، دخل مردخاي، إن جاز التعبير، إلى التاريخ. وكتب حول أوّل إقامة للإسرائيليين في تنبكت، وهو النص الذي نشرته نشرة جمعية الجغرافيا في شهري مارس وأبريل عام 1870م. ونصح السيد بوميي (Beaumier) مردخاي وأرشده، وكان يريد، في تلك الفترة التي شهدت الرِّحْلات الكبرى إلى وسط أفريقيا، أن يجعل من مردخاي مثالاً لريني كايي (René Caillié). وقدّمه إلى الأوساط العلمية وأبقى على مراسلة نشطة بشأنه. وكتب في عام 1870م إلى السيد دوڤيريي (Duveyrier): "إنّه رجل قوي، مخلص جداً لأصدقائه، ولكنّه غير مريح لخصومه، ويبدو لي أنّه يتمتّع، فوق كل شيء، بروح تتحدّى الحياة". وبالنّسبة لاكتشافاته، شعر مردخاي بتفوّق الآخرين عليه؛ "فلم يعرض نفسه عليّ سوى كمرشد مستعد للخدمة لمن يتم توجيهه إليه. وهناك طريق من تنبكت إلى النيل. وكان مردخاي سيذهب إليها إذا طلب منه ذلك. وهذا الرجل. ويبدو لي أنّه حقّق شيئاً عظيماً دون أن يدرك ذلك عندما فتح أبواب تنبكت لإخوانه في الدّين، الذين كانوا في هذه المناطق المتوحّشة وقد كانوا ولا يزالون يومياً روّاداً للتسامح الديني والتجارة".

وفي اليوم الرابع من شهر نونبر عام 1871م، توجّه السيد بوميي (Beaumier) برسالة إلى الرابطة اليهودية العالمية قائلاً: "مثل جميع الشخصيات الرّفيعة، هو شخص متواضع جداً. إنّه نموذج حي للشعب الإسرائيلي في المغرب. ومن المفترض أنّه في تلك اللّحظة كان في الصحراء".

---

(1) ريني بازان، **شارل دو فوكو**، ص.32 وما بعدها. [المؤلِّف].

وفي الحـادي عـشر مـن شـهر دجنبر عـام 1873م، كتـب مـرّة أخـرى إلى الرابطـة اليهوديـة العالميـة: "مـن المؤسـف حقـاً أن نـرى شـخصاً ذا موهبـة نـادرة، وطبيعـة اسـتثنائية، يتـلاشى بـلا فائـدة بسـبب نقـص الوسـائل وبعـض المعـارف العملية التـي كانـت سـتضفي قيمـة كبـيرة عـلى أبحاثـه في داخـل أفريقيـا. وفي هـذه الأثنـاء، كلّفتـه بمهمّـة في الصحـراء المسـتقلّة حتّـى وادي نـون، وبعـد شـهرين، عـاد ليقـضي عطلـة شـتنبر مـع زوجتـه وأطفالـه، ولـمْ يـأْتِ لي إلاّ بنتائـج متواضعـة للغايـة".

وخـلال العـام نفسـه، كتـب السـيد صموئيـل هـيرش (Samuel Hirsch)، مديـر مدرسـة الرابطـة اليهوديـة العالميـة في طنجـة، في تقريـره عـن مـوكَادور بتاريـخ مايـو 1873م: "إنّـه رجـل نشـيط وذكـي، يعتقـد _سـواء كان عـلى صـواب أو خطـأ_ أنّـه مقـدَّر لـه أن يحقّـق إنجـازات عظيمـة. وهـذه صفـة نـادرة في هـذا البلـد، حيـث يبـدو أنّـه لا يكـترث كثـيراً بحياتـه، والأنـدر مـن ذلـك أنّـه يبـدو غـير أنانـي تمامـاً. إنّـه يرغـب في اسـتئناف رِحْلاتـه والتوجـه بعيـداً إلى مـا وراء تنبكـت، ليـس بهـدف جمـع الذهـب، الـذي _كمـا يقـول_ لا قيمـة لـه في نظـره؛ بـل ليـترك اسـمه محفـوراً في ذاكـرة الأجيـال القادمـة. ويدّعـي أنّـه يوجـد طريـق مـن تنبكـت إلى مـصر عـبر مجـرى مائـي، وقـد عـزم عـلى اكتشـافه. وينبغـي أن أضيـف أنّـه عنيـد. ومـع ذلـك، قبـل أن يتوغّـل مجـدّداً في أعمـاق أفريقيـا، يسـعى لاكتسـاب المعـارف اللاّزمـة لجعـل رِحْلاتـه أكثـر جـدوى، وقـد طلـب منّـي وتوسّـل إليّ أن أتوسّـط لـه. أمّـا بخصـوص النّفقـات؛ فسـيتحمّلها كاملـةً؛ إذ يؤكّـد أنّـه لا يحتـاج سـوى القليـل ليعيـش: قطعـة خبـز وكأس مـاء".

وفي الثالـث مـن فبرايـر 1874م، ألـحّ السـيد بوميـي (Beaumier) عـلى الرابطـة اليهوديـة العالميـة مـن أجـل اسـتدعاء مردخـاي إلى باريـس. وبعـد اتخـاذ قـرار الرِّحْلـة، كتـب في الثالـث والعشريـن مـن أبريـل: "أقتـصر عـلى مناشـدتكم التحـلّي بالتسـامح متـى دعـت الحاجـة إزّاء بعـض مظاهـر الفظاظـة في ملبسـه أو لغتـه أو أفـكاره".

ومـن جانبـه، أوضـح السـيد مونـوار (Maunoir)، الأمـين العـام للجمعيـة الجغرافية، الهـدف مـن الرِّحْلـة، وكتـب في رسـالة إلى الرابطـة اليهوديـة العالميـة بتاريـخ الخامس والعشريـن مـن مايـو 1874م، أنّ الغايـة منها هي تمكـين مردخاي من "إنجـاز رِحْلات صعبـة بأسـلوب مثمر يخـدم العلم. وليتعلّـم الحاخام كيفيـة جمع النباتـات والحيوانات والنقـوش، ووصـف مـا يراه بدقّـة؛ بل وحتّى رسـم مسـاره مـع تحديـد الاتجاهات".

وقـد وصـل مردخـاي بعـد ذلـك إلى باريـس، حيـث اسـتُقبل بفضـول ممـزوج بالمـودّة. وقـد نـشرت "لومونـد إيلسـتري" (Le Monde Illustré) في الخامـس عـشر مـن غشـت 1874م صورتـه مرفقـة بسـيرة ذاتيـة مليئـة بالتقديـر. وكان يرتـدي الـزي التقليـدي لليهـود الجزائريـين في تلـك الحقبـة: صدريـة وسـترة قصـيرة مـن قمـاش مطـرّز بـأزرار مضفـورة لا تحـصى، وشاشـية مسـتديرة ذات شُرّابـة كبـيرة تتـدلّى عـلى مؤخّـرة العنـق. وكانـت ملامحـه قويـة، بلحيـة سـوداء جميلـة ونظـرة متأمّلـة، وكان كل شيء فيـه يعكـس القـوّة وإرادة لا تلـين.

وتـولّى السـيد دوڤيريـي (Duveyrier)، مستكشـف الصحـراء، مهمّـة تكوينـه العلمي؛ فقـد عرّفـه عـلى اسـتخدام الترمومـتر، والبارومـتر، والبوصلـة، وعلّمـه التصويـر الفوتوغـرافي، وأخـذ البصمـات، وصناعـة القوالـب. ولـم تكـن هـذه التعليمـات سـهلة. ونشـأت صراعـات بـين طبيعتـه القاسـية وهـؤلاء العلمـاء الكبـار، وكان هـو نفسـه يشـعر بعـدم الارتيـاح في أجـواء العاصمـة.

وكان افتقـاره إلى اللّياقـة وعـدم اسـتيعابه للحضـارة الأوروپيـة يربـك هـؤلاء الرّجـال الذيـن اعتـادوا عـلى فهـم كل شيء وشرحـه. وكان أدبهـم المتسـامح دائمـاً مسـتعداً لتجـاوز شـدّته في الـكلام وحـدّة مزاجـه. ومـع ذلـك، كانـت هنـاك رغبـة في أن يغـادر باريـس؛ ففـي الثانـي والعشريـن مـن شـهر يونيـو 1874م، كتـب السـيد مونـوار (Maunoir) إلى الرابطـة اليهوديـة العالميـة قائـلاً: "تمديـد إقامتـه هنـا سـيكون غـير مفيـد، وبالتـالي سـيئ. وتـولّي جمعيـة الجغرافيـا أهميـة كبـيرة لأن يعمـل مردخـاي في المغـرب بشـكل سـلمي لصالـح فرنسـا".

وفي السـادس مـن شـهر يوليـوز، كتـب أيضـاً: "ربّمـا يمكننـا أن نطلـب منـه توجيـه أبحاثـه إلى المخطوطـات التـي كان يُقـال سـابقاً إنّهـا موجـودة في المغـرب، والتـي قـد تكـون لهـا أهميـة كبـيرة مـن حيـث التاريـخ القديـم، ونوصيـه بشـكل خـاص بالبحـث في مسـألة العمـلات".

وغـادر مردخـاي باريـس بفـرح؛ فقـد تَـمَّ تكليفـه بمهمّـة رسـمية في منطقـة سـوس، وكان قـد وافـق عـلى جمـع الحـشرات والنباتـات مـن أجـل الدكتـور كوسـون (Cosson). وقـدّم دوڤيريـي (Duveyrier) في نـشرة جمعيـة الجغرافيـا لعـام 1875م تقريـراً عـن رِحْلـة مردخـاي مـن مـوگادور إلى جبـل تبايُّوضـت. "لقـد وجـدت جمعيـة الجغرافيـا في الربّـي مردخـاي مسـاعداً مـن المهـم الاعـتراف بجهـوده وتشـجيع خدماتـه العظيمـة".

وقد نشر عملًا آخر في نشرة عام 1876م عن "القبور القديمة في منطقة سوس" التي اكتشفها الربّي مردخاي؛ بحيث تَمَّ نشر العديد من الرسوم والنقوش. ولم تكن إقامة مردخاي في باريس بلا فائدة.

وفي عام 1879م، كان حاخامنا مرّة أخرى في باريس. وقد عاد من تنبكت، حيث كان قد ذهب لصالح "اللجنة العليا لدراسة وربط الجزائر والسنگال بشبكة السكك الحديدية مع داخل بلاد السودان". ولم أتمكّن من الحصول على أي معلومات حول هذه الرِّحْلة. وكانت الرابطة اليهودية العالمية قد علمت بالانتقادات الموجّهة إلى مردخاي، ولم تعد ترغب في الاهتمام به.

وكتب السيد ليون فيليپ (Léon Philippe)، السكرتير المساعد لهذه اللّجنة، إلى الرابطة اليهودية العالمية في السادس والعشرين من شهر نونبر عام 1879م: "ربّما تجدون أنّ تقدير أعضاء اللجنة العليا للعبور عبر الصحراء كان متساهلاً للغاية. ولا يمكن لومه على أي تصرّفات تتعلّق بالتسوّل. لقد نفذ بدقّة، أثناء رِحْلته الرابعة إلى تنبكت، برنامج هذه الجمعية. ورغم تواضعه المفرط إلى درجة الذّل وعباراته التي يردّدها مثل "شَالُومْ عْلِيكُمْ"، فإنّ انطباعاً جيّداً قد تركه في اللّجنة العليا، ممّا يعني أنّه كان يمتلك بعض القيمة".

وفي الثامن والعشرين من شهر نونبر، عاد ليؤكّد مجدّداً قائلاً: "لقد استطعت أن ألاحظ بنفسي كيف تمكّن من إزالة الكثير من الأحكام المسبقة ضد اليهود في أفريقيا من ذهن اللّجنة العليا".

لقد غادر مردخاي باريس مرّة أخرى، بيد أنّه لم يعد إلى المغرب؛ بل توجّه إلى وهران، ثمّ استقرّ بشكل دائم في الجزائر، حيث أصبح أستاذاً للغة العبرية. وتَمَّ التوصية به إلى السيد ماك كارثي (Mac Carthy)، رئيس جمعية الجغرافيا في الجزائر، حيث أقام معه علاقات وثيقة ومستمرّة.

وكان السيد ليون فيليپ (Léon Philippe) قد حثّ الرابطة اليهودية العالمية على توجيه مردخاي نحو الدّراسات اليهودية؛ فقد كان يرى أنّه يمكن الاستفادة منه "لإعداد إحصائيات حول الشعوب القديمة التي يجب أن تكون موجودة في أفريقيا الوسطى". وجرّب مردخاي السّير في هذا الاتجاه. لقد أرسل إلى الرابطة اليهودية العالمية في عام 1880م عملاً حول الدگاتون (Daggatoun)[1]، قبيلة

(1) نشرت مجلة "المسيحية في القرن العشرين" في أحد أعدادها الأخيرة، بناءً على "سجل الأعمال المسيحية"، ملخّصاً لرحْلة السيد ريني لوبلون (René Leb-lond)، قنصل فرنسا في أقّا (سوس). وأثناء عبوره الصحراء مع بعثة جوية، توقّف عند إحدى القبائل اليهودية المستقلّة. ولم نتمكّن من الحصول على بيانات

ذات أصل يهودي تعيش في الصحراء الكبرى، والذي قام السيد إيسيدور لويب (Isidore Loeb)، سكرتير الجمعية، بترجمته ونشره في نشرة الرابطة اليهودية العالمية لعام 1880م. وفي مقدّمة هذا العمل، كتب السيد لويب: "عند قراءة رواية مردخاي، يجب أن نتذكّر أنّها كتبت من طرف رجل لم يتلقّ سوى التعليم العلمي المحدود في المدارس اليهودية الفقيرة في داخل المغرب. وبالتالي، فإنّنا نغفر له بسهولة الأخطاء التاريخية التي قد يكون ارتكبها وسذاجة أفكاره الإثنولوجية".

وحسب مردخاي، فإنّ الدڤّاتون يعيشون في جميع مناطق الصحراء الغربية، من تافيلالت حتّى أبواب تنبكت. ويربون القطعان ويعيشون في الخيام. ولديهم جميعاً حماة من التوارڭ الذين يطيعونهم، ويذهبون معهم إلى الحرب، مشياً في الصفوف الأمامية. وكان يُقال إنّهم اعتنقوا الإسلام منذ عدّة قرون، عندما غزاهم العرب. ولكن إسلامهم كان قد تَمَّ تبسيطه بشكل كبير؛ إذ يقتصرون فقط على التوحيد وذكر اسم محمّد دون أن يتبّعوا أية طقوس دينية أخرى أو يؤدّوا الصلاة. وهم يتمتّعون بجمال، ولهم بشرة بيضاء، ويتزوّجون فيما بينهم دون التحالف مع التوارڭ. وعند رِحْلته الأولى إلى تنبكت، كان مردخاي قد نال الضيافة من طرف الدڤّاتون الذين اعتبروه أخاً لهم.

ويُقال إن الكولونيل فلاتيرز (Flatters) في عام 1881م قد ذهب لزيارة مردخاي ليتعرّف على معلومات حول الصحراء؛ بحيث عرض عليه الانضمام إلى حملته الاستكشافية. ولكن مردخاي رفض العرض؛ بل إنّه نصح بعدم المضي في هذه الحملة؛ إذ كان يراها مغامرة محفوفة بالمخاطر في ذلك الوقت. ومن المعروف كيف قام التوارڭ بذبح أعضاء البعثة وقائدهم.

وها نحن أخيراً في المرحلة الأخيرة من حياة مردخاي. ونعود إلى عام 1883م. كان شارل دو فوكو، الذي أصيب بخيبة أمل من حياته التي كانت مليئة بالملذّات، قد بدأ في تنظيم رِحْلته إلى المغرب. وقدّم له مارك كارثي مردخاي، الذي تعهّد بموجب عقد أن يرافقه في كل مكان لمدّة عام مقابل راتب قدره مئتان وسبعون فرنكاً في الشهر. ولم يكن الطّمع في المال هو الذي دفعه لقبول العرض وترك زوجته وأطفاله الأربعة؛ بل كانت حياة المدرسة التلمودية الضيّقة قد أثقلت عليه، وكان يتطلّع إلى الهواء الطلق والمساحات الواسعة. وفي العاشر من يونيو 1883م، انطلق مع معلّمه الشاب.

دقيقة حول هذه الوقائع. وعلى أي حال، لا يوجد قنصل فرنسي في أقّا، ولا يظهر اسم ريني لوبلون في دليل وزارة الشؤون الخارجية. [المؤلِّف].

وفي تقييداته المنشورة من طرف ريني بازين، كتب فوكو: "لم أتحدّث كثيراً عن مردخاي في تقرير رحلتي؛ بالكاد ذكرته. ومع ذلك، كان له دور كبير؛ إذ كان مسؤولاً عن العلاقات مع السكّان المحليين وكان هو من يتولّى العناية بجميع الأمور المادية. وكان ذكياً، وحذراً جداً، وماكراً للغاية، ولسانه فصيح؛ بل بليغ، وكان حاخاماً ذا معرفة تكسبه احترام اليهود. وقدّم لي خدمات كبيرة. وأود أن أضيف أنّه كان دائماً يقظاً ومخلصاً في الحفاظ على سلامتي. وإذا سكت عن هذه الخدمات؛ فلأنّ من قدّمها لي كان في الوقت ذاته، بسوء نيّته، عقبة مستمرّة وكبيرة في تنفيذ رحلتي". ويشرح فوكو (Foucauld) على الفور أنّ هناك سوء تفاهم أولي؛ بحيث إن مردخاي لم يكن يعرف من المغرب سوى سواحله، ووقّع العقد الذي قدّم له من دون حساب الأهمية الكبيرة للالتزامات التي قبلها؛ إذ "كانت الطريق مليئة بالمخاطر والتّعب. ومن هنا، جاءت خيبته المزدوجة". ويلخّص فوكو هذه النقطة قائلاً: "إذا كانت لديّ شكوى من سوء نيّة مردخاي؛ فمن العدل أن أقول إنّها لم تكن نابعة من أي نيّة سيّئة تجاهي".

وما كان يجب على فوكو أن يذكره هو أنّ رفيقه كان حينها في الثالثة والخمسين من عمره، وكان قد أنهكه العمر، وحياة التعب والمصاعب، وهموم الأب لأسرة كبيرة؛ بينما كان فوكو في الخامسة والعشرين، مليئاً بالقوّة والصّحة، وكان يطمح للقيام بأعمال عظيمة ستجعله بطلاً. وملاحظات فوكو تنصف ذلك اليهودي البسيط الذي كان، بطريقته الخاصّة، بطلاً هو الآخر. ولم يكن الأمر يقتصر فقط على تحمّل العبء المادي للرِّحْلة؛ بل كان يتطلّب أيضاً إقناع المسلمين بأنّ رفيقه ليس يهودياً فقط؛ بل كان يجب فرضه على أبناء دينه الذين كانوا يكشفون أوّلاً عن الخدعة ويكشفون هوية الربّي المزيّف. ولإخفاء الحقيقة، كان يجب إحضاره إلى الكنيس، والسّماح له بالاقتراب من كتاب الشريعة، وارتداء الطيلسان والتيفيلين[1].

وثمّ يتساءل المرء بأي شعور وافق مردخاي على هذا التدنيس لما كان يجب أن يكون من أقدس الأمور بالنسبة له؟ وعندما غادر الجزائر، لم يكن قد قدّر جدية هذا الفعل. وحينما انطلق، لم يكن هناك مجال للتراجع؛ فقبل المسؤولية عن "الخطيئة" التي ارتكبها بنفسه، والتي جعل الآخرين يرتكبونها.

---

(1) مخلوف أبي سرور، ابن عم مردخاي، الذي قابلته للتو في موڨادور، يشرح لي أنّه من التيفيلين التي كانت موضوعة لدى شارل دو فوكو، تمّ إزالة ورق البَرْشُمان العبري الصغير الذي كتب عليه دعاء شيماع (Schéma)، وكانت أطراف الطيلسان غير مربوطة وفقاً للطقوس. [المؤلِّف].

وكانـت هـذه مسـألة ضمـير مزعجـة، أثـارت الفـزع في الجاليـات ومـا زالـت ذكـرى هـذه الحادثـة حيّـة في ذاكـرة بعـض الشـيوخ.

ولـم ينـسَ حفيـده في مراكـش غضـب والـده مـن مردخـاي الـذي سـاعد في تحريـف الشريعـة. وكان مردخـاي يهدّئـه، قائـلاً: "إنّـه يعمـل مـن أجـل مجـد اللـه (lé-kidouch achem)، وأنّـه سـيشرح لـه ذلـك لاحقـاً". وبالمثـل، يـروي الربِّـي أبـي سرور، مـن مـوڤادور، وهـو ابـن عمّـه، أنّ والـده لـم يكـن يريـد مسـامحة مردخـاي عـلى السّـماح لفوكـو بـأن يـؤدّي محـاكاة للصّـلاة أمـام كتـاب الشريعـة.

ولكـن، كان هـذا وفـاءً بالعهـد، وتضحيـة مـن أجـل فرنسـا[1]، التـي كان قـد أكّـد مـرّة لبوميـي (Beaumier) أنّـه يجـب أن يمـوت مـن أجلهـا. والمثـير للإعجـاب أكثـر هـو أنّـه مـن بـين كل هـؤلاء اليهـود، لـم يقـم أي متطـرّف بالثـورة للكشـف عـن الحقيقـة أمـام السـكان المحليـين. وكان هنـاك إجمـاع مؤثّـر سـمح لفوكـو بـأن يعيـش ويواصـل مسـيرته. وهـو نفسـه يعـترف بذلـك ويكتـب في كتابـه "التعـرّف عـلى المغـرب": "لـذا، حافظـوا عـلى السر الـذي اكتشـفوه، ولـم يتـسرّب شيء خـارج المـلاّح، حتّـى معـي، كانـوا حذريـن جـداً. ولـم يتغـيّر شيء في سـلوكهم سـوى أنّهـم أصبحـوا أكثـر لطفـاً وأكثـر اسـتعداداً لتقديـم جميـع المعلومـات التـي طلبتهـا".

لقـد تلقّـى فوكـو في كل مـكان ضيافـة هـؤلاء اليهـود، الذيـن كانـوا يعانـون ولكنّهـم لـم يكونـوا محرومـين. ونـام تحـت سـقف واحـد معهـم، وتنـاول خبزهـم، وأجـرى ملاحظاتـه الفلكيـة بحريـة عـلى أسـطح بيوتهـم. وفي تطـوان، في منـزل يعقـوب دانـون. وفي تـازة، عنـد بـو دومـا. وفي فـاس، عنـد صموئيـل بـن شـمعون[2]. وفي صفـرو، عنـد دابيـد الواليـل، وفي أبـي الجعـد، عنـد مـوشي علـون، الـذي أصبـح ابنـه الآن زعيـم الطائفـة اليهوديـة في المدينـة. وبأويزغـت، في الكنيـس الكبـير. وفي تيكـيرت، عنـد مـوشي عامـر. وفي تازناخـت، عنـد أبراهـام بـن أوخـالا. وفي تينتـازارت، عنـد نيسـيم أبـي سرور، أحـد أقـارب مردخـاي.

إنّ تأثـير الرفيـق المحـترم كان فعـالاً. ويجـب أن يُقـال أيضـاً إنّ فوكـو ظهـر لهـؤلاء اليهـود، الذيـن يكنّـون احترامـاً للعلـم، كالعالـم الغامـض الـذي يسـتحق الاحـترام

(1) ومنذ ذلك الحين، أصبحت عادة في عائلة أبي سرور خدمة فرنسا. وكتب السيد كورطاد (Cortade)، المراقب المدني في موڤادور، في التاسع من شتنبر 1925م، عن مخلوف أبي سرور: "لقد سهّل المهمّة التي قام بها الأب فوكو في جنوب الصحراء، ولاحقاً استكشافات البروفيسور لويس جانتي (Louis Gen-til). وقد لجأت إليه شخصياً عدّة مرّات للحصول على معلومات، وكان يزوّدني بها بدقّة كبيرة. لقد قدّم خدمات جليلة للقضية الفرنسية". ومن جهته، كان الربي أبي سرور وسيطاً مخلصاً لدى زعماء المناطق المتمرّدة. [المؤلِّف].

(2) سلّمني السيد بنشمعون أحد الدفاتر الصغيرة المصنوعة من ورقة مطوية إلى ستة عشر جزءً، والتي كان فوكو يسجّل فيها ملاحظاته الفلكية. وبعد أن قام بنسخها، ألقى بها في سلّة المهملات. [المؤلِّف].

والتكريـم؛ فهـرع كل منهـم لخدمتـه ومسـاعدته في تنفيـذ مهمّتـه. ومازالـوا يتحدّثـون عنـه في تطـوان، وفي فـاس، وفي أبـي الجعـد. وقـد أظهـر لي أحدهـم المـكان الـذي جلـس فيـه، حيـث رسـم، حيـث عمـل...

لقـد انتهـت رحلـة مردخـاي إلى المغـرب، وعـاد إلى الجزائـر في عـام 1884م حيـث عـاش حيـاة بسـيطة مـع زوجتـه وأطفالـه حتّـى وفاتـه في عـام 1886م. ويعتقـد فوكـو أنّ مردخـاي غـرق في تجـارب لاكتشـاف الحجـر الفلسـفي، وأنّ أبخـرة الزئبـق قـد سـممّته، ممّـا أدى إلى وفـاة آخـر الكيميائيـين. وكان مردخـاي رجـلاً نشـيطاً للغايـة لدرجـة أنّـه لـم يكـن يسـتطيع الانغمـاس في أبحـاث طويلـة ودقيقـة. وألـم يكـن يعمـل، مـن أجـل تأمـين بعـض المـوارد الإضافيـة، في حرفـة والـده، صناعـة المجوهـرات؟ كمـا تـشرح لنـا ابنـة شـقيقته الصّغـيرة، كان يُـرى دائمـاً مشـغولاً بجمـع الحـشرات والنباتـات التـي كان يحتفـظ بهـا في سـائل خـاص، ويسـتخدمها لتحضـير أدويـة لعلاجـات خارقـة. وكان عملـه في مجـال صناعـة المجوهـرات، وكذلـك هوايتـه في جمـع الأشـياء، همـا مـا جعـل النـاس يعتقـدون أنّـه كان يمـارس تجـارب غامضـة.

ولـم يكـن مردخـاي رجـل أحـلام؛ بـل كانـت حياتـه حيـاة واقعيـة مليئـة بالصّعوبـات، لكنّـه لـم يقـدّم كل مـا كان يمكـن توقّعـه مـن قدراتـه. لأداء الـدور الـذي أسـنده لـه القـدر واهتماماتـه الشـخصية، كان بحاجـة إلى إعـداد علمـي لـم يتمكّـن مـن الحصـول عليـه. وهنـا يجـب أن نذكـر الحكـم الـذي أصـدره السـيد بوميـي (Beaumier) عنـه: "هـذا الرّجـل فعـلاً اسـتثنائي ويسـتحق الاهتمـام. أمّـا بالنسـبة لي؛ فأنـا لا أفتـأ أعجـب بـه؛ إذ يبـدو لي أنّـه قـام عـلى الأرجـح بالكثـير أكثـر ممّـا يحتاجـه أي منـا ليكـون لـه دور بـارز". كمـا هـو، كان مردخـاي أبـي سرور[1] عالِمـاً حقيقيـاً ورجـلاً صاحـب قلـب. وقـد أظهـر تعلّقـاً كبـيراً بفرنسـا، وتبقـى شـخصيته غريبـة في تاريـخ اليهوديـة المغربيـة.

---

(1) أبناء وأبناء عم مردخاي قد بسّطوا اسمهم ويكتبونه الآن "أبيسرور" (Abisror). [المؤلِّف].

ملاحظات حول هجرة اليهود المغاربة إلى أمريكا الإسپانية والبرازيل[1]

إعداد: د. روبير ريكار[2]

ترجمة: د. عادل بن محمد جاهل[3]

يُعدّ أوجين أوبان (Eugène Aubin)، حسب معرفتي، الكاتب الفرنسي الوحيد الذي أشار إلى هجرة اليهود المغاربة إلى أمريكا الإسپانية-البرتغالية. ففي كتابه الكلاسيكي "المغرب اليوم" (الطبعة السادسة، باريس، 1910م)، الذي كُتبت مقدّمته في طنجة خلال دجنبر 1903م، تناول هذا الموضوع عند حديثه عن مدينة العرائش قائلاً: "من بين اليهود، هناك بعض التجار وكثير من الحرفيين. وقد بدأ يظهر في الطائفة التي تعاني من الفقر وضعف التنظيم تيار هجرة نحو أمريكا الجنوبية" (ص.91). ويضيف لاحقاً: "...الشباب يرتدون الملابس الأوروپية، ويزداد انخراطهم في الأعمال التجارية، ويميلون إلى الهجرة نحو أمريكا الجنوبية" (ص.361). وعلى رغم ذلك، فإنّ هذه الظاهرة ليست بالهيّنة. وفي غياب دراسة معمّقة تتطلّب بحوثاً مطوّلة، أقدّم هنا بعض المعلومات التي تمكّنت من جمعها حول هذا الموضوع.

ويظهر أنّ هجرة اليهود المغاربة إلى أمريكا الجنوبية بدأت في منتصف القرن التاسع عشر. وقد نتجت هذه الهجرة جزئياً عن تراجع النشاط التجاري مع الجزائر وجبل طارق، ممّا دفع تيار الهجرة إلى التوجّه نحو شمال البرازيل. ومع ذلك، ظل عدد المهاجرين محدوداً؛ إذ فضّلت العديد من العائلات البقاء في الوطن خوفاً من طول وصعوبة الرِّحلة على متن سفن شراعية رديئة، وقساوة المناخ، والحمّى الصفراء، والحياة المضنية التي كانت تنتظرهم على الضّفة الأخرى من المحيط، والتي سمعوا عنها قصصاً مرعبة.

---

(1) نُشر هذا البحث باللغة الفرنسية في **المجلة الأفريقية**، العدد الثامن والثمانون، 1944م، (صص.83-88). [المترجم].

Robert Ricard, "Notes sur l'émigration des Israélites marocains en Amérique espagnole et au Brésil", In **Revue africaine**, – .88–Numéro 88, 1944, pp.83

(2) **د. روبير ريكار (Robert Ricard):** مؤرخ فرنسي، سبق التعريف به. [المترجم].

(3) رئيس اتحاد المؤرخين الأفارقة، أݣادير، المملكة المغربية.

أمّا أولئك الذين قرّروا الرحيل؛ فكانوا يقيمون في أمريكا لمدّة سبع أو ثماني سنوات، ويعود أكثرهم حظاً برأسمال يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين ألف فرنك. ولم يأخذ هذا التيار بُعده الحقيقي إلاّ حوالي عام 1880م، حيث لم يعد المهاجرون يتوجّهون فقط إلى البرازيل؛ بل أيضاً إلى بنزويلا والپيرو والأرجنتين. وفي عام 1905م، قدّر الدكتور پوليدو (Pulido)، عدد اليهود المغاربة المقيمين في هذه البلدان بنحو ثلاثة آلاف شخص.

وغالباً ما يحقّق المهاجرون عوائد مالية مربحة بسرعة، ما يدفعهم لاستقدام أقاربهم لاحقاً. وعادةً ما يبدأ الشخص العمل تحت إشراف صاحب عمل يهودي، ثمّ يؤسّس لاحقاً فرعاً خاصاً به في مدينة أقل أهمية. وكتب السيد إسحاق بنشيمول (Issac Benchimol)، الذي هاجر هو نفسه إلى أمريكا: "هنا في الأرجنتين، أعرف تجاراً مغاربة استقرّوا في بوينس آيرس ويمتلكون ما يصل إلى خمس أو ست أو حتّى ثماني مؤسّسات تجارية منتشرة في المراكز الرئيسية للجمهورية".

وتبدو أسباب هذه الهجرة مرتبطة بالصعوبات المتزايدة التي واجهتها الطوائف اليهودية في المغرب قبيل إقامة نظام الحماية. ومن الجدير بالذكر أنّ غالبية المهاجرين كانوا من يهود تطوان، بالإضافة إلى يهود طنجة والعرائش، الذين ينحدرون جميعاً، بدرجات متفاوتة، من أصول تطوانية؛ أي أنّهم من اليهود الناطقين بالإسپانية. ومن الطبيعي أن ينجذب هؤلاء إلى بلدان تُستخدم فيها لغتهم الأم أو لغات قريبة منها.

وضمن التيار العام للهجرة نحو القارة الأمريكية الجنوبية، يمكن تمييز ثلاثة تيارات مختلفة وهي:

1. تيار نحو بنزويلا (Venezuela)

يحمل أحد المحلاّت التجارية الكبرى في تطوان الاسم المميّز "لا كاراكينيا" (La Caraqueña). وفي عام 1922م، كان طبيب البعثة الدبلوماسية الإسپانية في كاراكاس (Caracas) يهودياً مغربياً. وقد تعرّفتُ شخصياً على شابين يهوديين مغربيين وُلدا في بنزويلا؛ أحدهما ينتمي إلى عائلة من تطوان، والآخر إلى عائلة من طنجة.

2. تيار نحو حوض الأمازون (Le bassin de l'Amazone)

لا سيما إلى پارا (Pará)، وخصوصاً ماناوس (Manaos) في البرازيل، وإيكيتوس (Iquitos) في شرق پيرو. وقد ذكر فريتز أپ دي گراف (Fritz W. Up De Graff)

في كتابه "صائدو الرؤوس في الأمازون" أنّه في إيكيتوس، حوالي عام 1895م، نظّم السكّان، الرّاغبون في التخلّص من حاكم لم يكونوا راضين عنه، فيلقاً أجنبياً تحت قيادة سالومون القَاسِيسْ (Salomon Casés)، وهو يهودي مغربي وضابط صف سابق في الجيش البريطاني بجبل طارق، أصبح لاحقاً تاجراً مهماً وأثبت نفسه كقائد بارع.

وإذا سُمح لي بالاستناد إلى تجربتي الشخصية؛ فسأضيف أنّني كنت على علاقة بيهودي من طنجة قضى جزءً من طفولته في ماناوس (Manaos). وعادةً ما ينخرط اليهود المقيمون في هذه المناطق في تجارة المطّاط، ويستغلون قوارب صغيرة للملاحة النهرية.

لقد تفضّلت وكالتنا القنصلية في إيكيتوس (Iquitos) بإرسال عدد من المعلومات إليّ في عام 1929م، سأوجزها هنا. ويعود وجود الجالية اليهودية المغربية في إيكيتوس إلى فترة تسبق عام 1905م بفترة ملحوظة، وتتألّف تقريباً حصرياً من يهود قادمين من الرباط، مع قلّة من موݣادور وعدد ضئيل جداً من الدار البيضاء.

وأدّت الأزمة التجارية التي ضربت منطقة الأمازون (l'Amazonie) بين عاميْ 1912م و1913م إلى اضطرار عدد منهم للعودة إلى المغرب، بينما تمكّن أولئك الذين بقوا من تحقيق نجاحات تجارية كبيرة، لا سيّما نتيجة للحرب العالمية الأولى عام 1914م. ويختص هؤلاء التجار اليهود في أنشطة الاستيراد والتصدير، حيث يصدّرون المنتوجات الاستوائية من المنطقة إلى أوروپا، ويمتلك بعضهم مزارع قطن كبيرة وذات أهمية.

ويعيش معظمهم مع نساء پيروبيات من دون زواج رسمي، وعندما يقرّرون العودة إلى المغرب، غالباً ما يتركون عائلاتهم هناك مع تأمين احتياجاتهم المالية. ويتمتّع يهود المغرب في إيكيتوس بالحماية الفرنسية، وتضم الجالية ثمانية عشر عضواً في إيكيتوس نفسها وأحد عشر آخرين في المناطق المحيطة. ويُقال إنّه لا يوجد يهود مغاربة في ليما (Lima) أو باقي مدن الپيرو.

وقد يُلاحظ أنّ هذه المعلومات، التي لا يوجد ما يدعو للشك في دقّتها، تتعارض مع معلومات أخرى موثوقة تُرجع أصل معظم اليهود المغاربة المهاجرين إلى أمريكا إلى طنجة أو تطوان. وربّما يمكن تفسير هذا التناقض بحقيقة أنّ يهود

طنجة، وخاصّةً تطوان، كانوا خارج نطاق ولاية قنصلياتنا، بينما اقتصرت تحقيقات الوكالة القنصلية الفرنسية في إيكيتوس (Iquitos) على رعاياها فقط؛ أي أولئك القادمين من الرباط وموڭادور.

3. تيار نحو الأرجنتين (l'Argentine) :

تمكّنتُ من الحصول على بعض الأرقام حول هذا الموضوع، لكنّها تفتقر إلى الدقة إلى حد ما. وفيما يلي عدد المغاربة الذين غادروا المغرب إلى الأرجنتين بين عاميْ 1924م و1927م:

1924م	خمسون (50) شخصاً
1925م	ثلاثة وأربعون (43) شخصاً
1926م	ستة وثلاثون (36) شخصاً
1927م	خمسة وأربعون (45) شخصاً

ومن المرجّح أنّ غالبية هؤلاء المغاربة من اليهود، لكن لا يمكنني تحديد النسبة الدقيقة. ويجب كذلك أخذ أولئك الذين استقلّوا السفن من الموانئ الأوروبية بعين الاعتبار، خاصّة الموانئ الفرنسية. أمّا اليهود الذين يتوجّهون إلى الأرجنتين؛ فهم في الغالب من صغار التجّار الذين ينخرطون في أنشطة تجارية محدودة، ومعظمهم يحترفون مهنة الصرافة. ومع ذلك، رأينا فيما سلف أنّ كبار التجّار لم يكونوا غائبين أيضاً.

وفيما يخص الجالية اليهودية المغربية في الأرجنتين، أود الإشارة أيضاً إلى بعض البيانات التي حصلت عليها بفضل تعاون القنصلية الفرنسية في بوينس آيرس (Buenos-Aires). وتعود هذه المعطيات إلى نهاية عام 1929م. ولم يُجرَ في الأرجنتين أي إحصاء خاص باليهود المغاربة، لكن يُقدّر عددهم عادةً ببضعة آلاف. وتعود بدايات هذه الجالية إلى عام 1886م، وهي منتشرة في جميع أنحاء الجمهورية، إلاّ أنّهم يتواجدون بأعداد كبيرة في مقاطعة سانتا في (Santa Fé) وإقليم تشاكو (Chaco). ومعظمهم من أصول تطوانية وطنجوية.

وتتمتّع هذه الجالية بالثراء والأهمية الكافيين لامتلاكها معابد يهودية ومقابر، بالإضافة إلى تنظيمها لمؤسّسات خيرية متنوّعة. وبخصوص هذين الجانبين الأخيرين، حصلت على قائمة دقيقة بفضل "مجلة بوينس آيرس إسرائيل" (La revue de Buenos Aires Israël) الصادرة في بوينس آيرس. وأرى أنه لا داعي لعرضها هنا، لكنّني أضعها بكل سرور تحت تصرّف الأشخاص المهتمين بهذا الموضوع.

ولم تشهد هجرة اليهود المغاربة إلى أمريكا الجنوبية تباطؤا ملحوظاً بعد فرض نظام الحماية، على الرّغم من التحسّن الكبير الذي طرأ على أوضاعهم في المغرب.

ومن خلال الجمع بين المعلومات التي قدّمها الدكتور پوليدو (Pulido)، وتلك التي ذكرها السيد إسحاق لاريدو (Issac Laredo) في "مذكرات طنجاوي عجوز" (Memorias de un Viejo Tangerino)، وما تمكّنتُ من جمعه بنفسي بفضل مساعدة الراحل يومتوب دابيد سيماش (Yomtob David Sémach)، الكاتب العام للرابطة اليهودية العالمية في المغرب (Alliance Israélite au Maroc)، استطعتُ إعداد القائمة التالية للعائلات التطوانية والطنجاوية التي هاجرت إلى أمريكا الجنوبية:

أبي القاسيس (Abécassis)	بن لبحار "ديلمار" (Delmar)
أبي حديدة (Abejdid)	فراتشي (Farache)
أزنكوط (Azancot) استقر في بنزويلا	غباي (Gabbaï) استقر في ماناوس (Manaos)
بنعمور (Benamor)	العسري (Lasry) استقر في الأرجنتين
بنصايغ (Benassayag) استقر في إيكيتوس (Iquitos)	ليڤي (Lévi) استقر في البرازيل
بنعطار (Benatar)	ماركيز (Marquez) استقر في البرازيل
بنلباز (Benelbaz)	پارييتي (Pariente) استقر في بنزويلا

بنشتريت (Benchetrict) استقر في الأرجنتين	مورينو (Moreno) استقر في بنزويلا
بنديان (Bendayan) استقر في إيكيتوس	ناهون (Nahon) استقر في إيكيتوس
بينتيش (Bentes) استقر في البرازيل وإيكيتوس	بنتوليلا (Bentolila) استقر في بنزويلا
پيريث (Pérez) استقر في البرازيل	پينتو (Pinto) استقر في إيكيتوس
بيباس (Bibas) استقر في الأرجنتين	بوزاڭلو (Buzaglo) استقر في الأرجنتين
سالڭادو (Salgado) في پارا (Pará)	كوهين (Cohen) استقر في إيكيتوس
سيرويا (Serruya) استقر في البرازيل	توليدانو (Toledano) استقر في كراكاس
كورياط (Coriat) استقر في إيكيتوس	

أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى
في الفكر اليهودي

د. عبد الله عيسى[1]

مقدمة:

إنَّ المتأمل في أهداف الصهيونية العالمية منذ نشأتها في أواخر القرن 19م حتى يومنا هذا، يجد أنّها لا تقتصرُ على اغتصاب فلسطين، والامتداد عبر البلاد العربية فحسب، بل ترمي أيضاً، إلى توسيع سيطرتها، سياسياً واقتصاديا ًوفكرياً على مجالات جغرافية أخرى بدأت تشعر بأهميتها، ومن بين هذه الفضاءات، منطقة دراستنا. وإذا ما حاولنا هنا تفسير هذا الاندفاع الصهيوني نحو القارة السمراء، خلصنا إلى تأكيد الأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها بالنسبة للسياسة الصهيونية التي انبعثت من لندن، زعيمة العواصم الاستعمارية سابقاً، ومقر منظمة الصهيونية العالمية ابتداءً من سنة 1879م. لذلك، سنحاول في هذه الإسهامة العلمية، تسليط الضوء عبر شرفاتٍ مختلفةٍ حول بدايات التدخل اليهودي في بلاد السودان، بدءاً من العصر القديم، ومرورا ًبالوسيط وبداية الحديث، وإنْ كان هذا التدخل قد يبدو لنا للوهلة الأولى، باهتاً وخجولاً خلال هذه الحقبة الزمنية على الأقل، لكنَّه سوف يُؤّسس لمرحلةٍ لاحقةٍ سيكون قوامها الاستغلال والنهب لثروات وخيرات المنطقة، خاصةً مع القرن 19م الذي شهد قمة التكالب الاستعماري على أفريقيا جنوب الصحراء.

المبحث الأول: التوراة والعرقية السوداء: التفسيرات والتداعيات:

إنَّ النصَّ الذي ورد بالإصحاح التاسع في سفر التكوين (20-27)، هو ما يُطلق عليه «لعنة حام» أو «الأسطورة الحامية»؛ إذ جاء فيه: «وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا، وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا، فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ، فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ»، وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ».

---

(1) باحث من سوريا، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حلب، الجمهورية العربية السورية.

شـكّل هــذا النــصُّ، مرتكــزاً لجــدلٍ اســتمر طــوال قــرون طويلــة حــول «لعنــة حــام»، واســتحقاق أحفــاده مــن الســود (الأفارقــة) اللعــن، والتعــرض للاســتعباد مــن قَبــل أحفــاد أعمامهــم، وهــو جــدل ظــل أســير التفســيرات المتضاربــة، وبــدأت مواجهتــه بشــكل مؤســسي ـوربمــا للمــرة الأولى_ في العــام 1870م؛ عندمــا أثــير في الفاتيــكان طلــب رفــع اللعنــة عــن أحفــاد حــام لاعتبــاراتٍ واقعيــةٍ، وفي ســياق التضييــق عــلى تجــارة العبيــد في العالــم الجديــد.

ويُعــدُّ هــذا النــص حاكمــاً لتاريــخ طويــل مــن جــدل التصــور اليهــودي لأفريقيــا جنــوب الصحــراء، ســواء تأييــداً، أو في محاولــة لتجريــد تفســيرات النــص مــن دلالاتــه العنصريــة، أو المحاولــة المتقدمــة لتوفيــق النصــوص الكتابيــة (وفي قلبهــا هــذا النــص ومــا يتعلــق بقصــة نبــي اللــه مــوسى، وخــروج بنــي إسرائيــل مــن مــصر)، وجعــل التجربــة اليهوديــة برمتهــا مثــالا لحــركات التحــرر الأفريقيــة، وبنــاء الدولــة الأفريقيــة المنشــودة في مرحلــة مــا بعــد الاســتقلال.

وفي المقابــل، شــكَّلت فكــرة «لعنــة حــام»، حيــزاً كبــيراً مــن رؤيــة الفكــر الدينــي اليهــودي لأفريقيــا جنــوب الصحــراء؛ بحيــث طُرحــت المســألة عــلى أســس توراتيــة صريحــة، في فــترة اســترقاق العبيــد الســود مــن قبــل الغــزاة الأوروبيــين نحــو العالــم الجديــد؛ بــل ووظفــت لعنــة حــام في المجتمــع الأمريكــي خــلال القــرن 19م، لتســويق اســترقاق البيــض للســود، باعتبــاره ظاهــرة مقبولــة وأخلاقيــة[1].

وقــد ورد في العمــل الموســوعي (The Oxford Companion to the Hebrew Bible)، عــام 1993م، في جــزءٍ كتبــه ســتيفن ل. ماكينــزي؛ بحيــث يقــول فيــه: «نظــراً لأنَّ بعــض أحفــاد حــام، ولا ســيما كــوش، كانــوا ســودا، فقــد فــسرت «لعنــة حــام» عــلى لــون البــشرة الســوداء، لإســباغ اســترقاق وقمــع الشــعب ذوي الأصــول الســوداء مســحة شرعيــة، وتــمّ هــذا التفســير للمــرة الأولى في التلمــود، واســتمر في دوائــر يهوديــة ومســيحية معينــة»[2].

رغــم شــيوع هــذا التفســير تاريخيــاً، فإنَّــه في المقابــل، واجــه نقــداً متسرعــاً مــن قبــل المــؤرخ اليهــودي ديفيــد هـــ. آرون (D. H. Aron)، مــن حيــث إنَّــه

(1) Ryan Stuart Bingham, Curses and Marks; Racial Dispensations and Dispensations of Race In Joseph Smith, Bible Revision and the Book of Abraham, **Journal of Mormon History**, Vol, 41, No.3, (July 2015), p.727.

(2) David H Aaron, Early Rabbinic Exegesis on Noah, Son Ham And the So-Called, (Hamitic Myth), In **Journal of the American Academy of Religion**, Vol. 63, No4, Winter, 1995, p.722.

يتضمـــن وجـــود تجـــارة عبيـــد أفارقـــة ســـود خـــلال فـــترة التلمـــود، في حـــين أنَّ تفســـيرات يهوديـــة كثـــيرة للكتـــاب المقـــدس، في تواريـــخ تـــتراوح بـــين القرنـــين 12 و16م، لا تتضمـــن أي إشـــارات لتجـــارة عبيـــد ينتمـــون إلى بـــلاد الســـودان، عـــلى الأقـــل خـــلال هـــذه الحقبـــة الزمنيـــة[1].

وفي مســـتوى آخـــر مـــن التحليـــل، يـــرى البعـــض، أنَّـــه ربمـــا يمكـــن قصـــة «لعـــن كنعـــان» في العهـــد القديـــم، عـــلى نحـــو أفضـــل، كتقليـــد إثنولوجـــي نتـــج لاحقـــاً عـــن غـــزو الإسرائيليـــين لكنعـــان (مـــا يشـــير إلى تدخـــل بـــشري في النـــص، أو اختـــلاف في زمـــن النـــص نفســـه)، ويبـــدو أنَّ مغـــزى القصـــة وهدفهـــا بوضـــوح، هـــو وصـــم الكنعانيـــين، وتســـويغ هيمنـــة الإسرائيليـــين والفلســـطينيين عليهـــم.

كمـــا مـــضى آخـــرون أنَّ الحـــدث يرتبـــط دون شـــكٍ بفعـــلٍ جنـــسيّ؛ فـــإنَّ هويـــة المعتـــدي و»شريكتـــه في الجنـــس»، وصـــولاً إلى معنـــى اصطلاحـــي (Idiomatic) لتعبـــير «فَأَبْـــصَرَ حَـــامُ أَبُـــو كَنْعَـــانَ عَـــوْرَةَ أَبِيـــهِ»، بأنّـــه عُنـــى بالأصـــل أنَّـــه جامـــع زوجـــة أبيـــه؛ ممـــا يُفـــسر ـفي رأيهـــمـ مـــدى الجُـــرم الـــذي ارتكبـــه، واســـتحق بـــه اللعـــن، كمـــا أنّ ذلـــك ســـيفسر، ســـبب لعـــن نـــوع واحـــد فقـــط مـــن أبنـــاء حـــام الكثيريـــن باعتبـــار أنّ كنعـــان كان ثمـــرة حالـــة (زنـــا محـــارم)[2].

وأثـــار هـــذا التفســـير مزيـــداً مـــن الجـــدل طـــوال قـــرون في حقيقـــة الأمـــر، بينمـــا نالـــت رؤيـــة، أنّ فعـــل حـــام الخاطـــئ كان مجـــرد اختـــلاس النظـــر؛ بحيـــث إنّـــه لـــم يقـــم بمـــا هـــو أكثـــر مـــن النظـــر لأبيـــه وهـــو عـــار تأييـــداً كبـــيراً بـــين مفـــسري ومؤرخـــي العصـــور القديمـــة والحديثـــة؛ واكتســـب هـــذا الموقـــف قـــوة بفضـــل نزوعهـــا للمحافظـــة، وجنوحهـــا التقليـــدي لرفـــض تفســـير أي شيء في النـــص عـــلى نحـــو غـــير واضـــح في كلماتـــه، غـــير أن نُقـــاد هـــذه الرؤيـــة يـــرون بدورهـــم، أنّ اختـــلاس النظـــر لا يقـــدم التفســـير الـــكافي للعـــن حـــام.

وفي المقابـــل، هنـــاك تنـــاول مهـــم للباحـــث لديفيـــد جولدنـــبرج عـــن لعنـــة حـــام، تطـــرق إلى ربـــط اللعـــن بمســـألة الـــرق في بـــلاد الســـودان في فصلـــين كاملـــين، ورأى أنَّ الشـــواهد تشـــير إلى أنَّ كاتبـــا أرمينيـــا لســـفرٍ دينـــي مختلـــق بعنـــوان «كتـــاب آدم»، في الفـــترة مـــا بـــين القرنـــين 5م و11م، قـــد أقـــدم عـــلى خطـــأ مبدئـــي بســـوء

---

(1) Ibid., p.723.

(2) Frederick Bassett W. Noah, **Nakedness and the Curse of Canaan, a Case of Incest?** Vitus Testamentum, Vol 21, Fasc.2, p.235.

ترجمته ـوهو أمر تكرر في أكثر من موضعـ لما ورد في سفر التكوين (4-5) عن قابيل: «فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه»، بمعنى تحوّل وجهه وبشرته إلى اللون الأسود، وتكرّر هذا الخطأ حتى حاز شيوعا أكبر في أوروبا في القرن 17م، وأمريكا في القرن 18م.

كما علّق جولد نبرج بإيجاز على فرضية جوزيف سميث، وبريجام يونج، أنّ قابيل قد لُعن بسواد البشرة، وأصبح جدّاً للأفارقة السود، كما تبنى الكثيرون من أتباع جوزيف سميث التقليد الشعبي البروتستانتي، الذي ربط الأفارقة السود بقابيل[1].

ومن الواضح أنَّ جولدنبرج قد سعى لتفنيد هذه التفسيرات؛ بتأكيده أنّه لم يجد صلة بين لون البشرة والرق في المصادر اليهودية من العصر القديم، حتى العصر العتيق المتأخر، أو في مطلع المسيحية، ويشير في تعجلٍ واضحٍ، إلى أنَّ مراجعة التعليقات تشير إلى ظهور كنعان كشخص أسود البشرةً بين المسلمين (يقصد العرب) في القرن الثاني قبل المسيح، وأنّ هناك صلة واضحة بين السود والرق واللعنة وضعت لاحقا في القرن السابع للميلاد 13م في شبه الجزيرة العربية أيضا، حينما حسب جولدنبرج في افتئات تاريخي واضح «أصبح السود يُعرفون بقوة كعبيد في الشرق الأدنى، وبعد الفتح الإسلامي لأفريقيا»، واستطرد قائلاً: «إنَّ اللعنة ظهرت للمرة الأولى في الغرب المسيحي خلال القرن التاسع الهجري 15م، عندما بدأت أوروبا في اكتشاف أفريقيا جنوب الصحراء، والاتجار بالعبيد، وعندما انتقلت تجارة العبيد إلى إنجلترا ومنها إلى أمريكيا لاحقا، انتقلت معها فكرة لعنة حام»[2].

وفي الوقت ذاته، يعتقد في أنَّ هذه الفكرة بين المسيحيين لم تُطبَّق على نحو شائع على السود، حتى القرن العاشر الهجري 16م، ولم تُطبّق بشكلٍ بالغ الانتشار إلا في القرن الثاني عشر للهجرة 18م، بعد أنْ كان المسيحيون يصفون بها اليهود، وليس السود الأفارقة.

---

(1) Adams Stirling, **The Curse of Ham: Race and Slavery in Early Judaism**, Christianity and Islam by David M. Goldenberg Noah, Curse: The Biblical Justification of American Slavery by Stephen R. Haynes Brigham Young University Studies, Vol.44, No.1, 2005, p.159.

(2) Stirling, **The Curse...**, op.cit., p.160.

المبحث الثاني: السياق التاريخي للوجود اليهودي في بلاد السودان: جدل الفكر والتجربة

شغلت مسألة «أفريقيا» و«اليهود السود» و«المستوطنون»، حيزاً كبيراً في الفكر اليهودي، القائم بشكل أساسي على نصوص الكتاب المقدس، ويرى البعض، أنَّ جميع الحاميين والساميين كانوا في الأصل سوداً، تثنيةً على أنّ أبناء العبرانيين الثلاث هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب (عليهم السلام)، وأنَّ النبي يعقوب كان له اثنا عشراً ابناً، أصبحوا هم رؤساء قبائل بني إسرائيل، وأنَّ النبي إبراهيم لم يكن أباً للشعب العبري الإسرائيلي فحسب؛ ولكنَّه كان أيضاً أباً للشعب العربي.

كما يعوّلون على قصة نبي الله يوسف عليه السلام، الذي لم يعرفه أخوته أثناء وجودهم في مصر، وشعبها أسود، وأنه كان أسود مثل المصريين[1].

ويطرح ويندسور ما يعتبره دليلاً على أنَّ بني إسرائيل كانوا سوداً، وهو ما وجده في مواضع متفرقة في الكتاب المقدس، من أنّ أبناء يعقوب ومن بعدهم من بني إسرائيل كانوا يتزوجون من نساء الكنعانيين، حيث يقول: «وإن لم يكن بنوا إسرائيل القدامى سودا في الأصل، فإنهم كانوا ليصحبوا كذلك بعد الاختلاط بالكنعانيين رجالاً ونساءً».

كما رأى في الإشارة إلى الجذام الذي يحوّل لون البشرة للأبيض دليلاً آخر، مستشهداً بما كتبه هربرت وندت (H. Wendt)، في كتابه (It Began in Babel)، حيث يقول: «تشير جميع المؤشرات الظنية في واقع الأمر إلى أنَّ آسيا كانت هي مهد العرق الأسود»[2].

وتركز التصور اليهودي لبلاد السودان طوال قرونٍ سابقة على مولد المسيح في منطقة الوجود اليهودي الرئيسي فيها، وهي شمال أفريقيا؛ وبخاصة قرطاج، مع تباين الروايات والشواهد التاريخية حول مثل هذا الوجود على أطراف الهضبة الحبشية، كما ظل الاستيطان اليهودي بها مسألة إشكالية، وأرجعه البعض إلى صلاتٍ قديمة بين اليهود والفينيقيين، وإن لم تتوفر الأدلة والوثائق التاريخية على ذلك، ورأى آخرون، أنه تم من قِبل عبيد رومان، أو من أحفاد يهود لجماعاتٍ بربرية.

---

(1) محمد عبد الكريم، «إفريقيا في الفكر اليهودي»، في **مجلة قراءات إفريقية**، العدد 43، يناير 2020، ص.10.

(2) المرجع نفسه، ص.11.

ورصـد حاييـم زيـف هيرشـبرج (H.Z. Hirschberg)، حركـة اليهـود مـن ليبيـا وبرقـة التـي اسـتوطنها اليهـود في القـرن 2 ق.م.، وتقدّمهـم نحـو مناطـق ازدهـار ثقـافي واقتصـادي، كقرطاجـة؛ بسـبب الظـروف الاقتصاديـة الصعبـة، نحـو بقـاء يهـود برقـة وليبيـا[1].

وحسـب المصـادر اليهوديـة؛ فإنَّـه يمكـن أنْ يكـون التأثـير اليهـودي الأولي عـلى قبائـل وشـعوب بـلاد السـودان، قـد بـدأ مـع وفـود التجـار اليهـود المرافقـين للتجـارة المصريـة، التـي شـقَّت طريقهـا مـن النيـل إلى ضفـاف نهـر النيجـر، دون تجاهـل تأثـير وفـود يهوديـة قادمـة مـن الشـمال الأفريقـي إلى هـذه المناطـق، عـبر طـرقٍ صحراويـة أخـرى. ويرجـع وليامـز في تفسـيراته تلـك، إلى عهـد الفينيقيـين الذيـن وصلـوا إلى سـواحل الأطلـسي الأفريقيـة، وكذلـك الذيـن اسـتوطنوا في قرطـاج وتوسـعوا في أنشـطتهم التجاريـة بحـرا، وربمـا عـبر طـرق بريـة مـن قرطـاج نحـو بـلاد السـودان عـبر الصحـراء الكـبرى، وأنَّ هـذه الأنشـطة لا بـدَّ وقـد شـملت بعـض العنـاصر اليهوديـة، وأنَّـه مـع تأسـيس قرطـاج، وانتشـار التحـول السـامي (-Se miticizing)، بـين القبائـل المجـاورة، لربمـا لعـب اليهـود دوراً ليـس صغـيراً في هـذه العمليـة، كمـا أنَّ غيـاب النسـاء عـن مرافقـة المغامريـن مـن الرجـال قـاد إلى انتشـار الـزواج المختلـط مـن جانـب الأفـراد اليهوديـة مـع عنـاصر أخـرى.

وقـد تـلا الـرواد الأوائـل للوجـود اليهـودي في بـلاد السـودان _حسـب وليامـز_ تدفـق جماعـات يهوديـة أخـرى متضمنـة عائـلاتٍ كبـيرةٍ اسـتوطنت في قرطـاج وبرقـة، ومع بـروز البطالمـة في مـصر، بـدأت هـذه المراكـز اليهوديـة في اكتسـاب سـمة عسـكرية، وخـوض صراعـات مـع قبائـل البربـر، وإنْ كان مـن الصعـب تحديـد العنـاصر البربريـة التـي تهـودت عـن اليهـود المسـتعمرين[2]. وقـد كان لليهـود في نهايـة القـرن الثانـي للميـلاد، وجـوداً ملحوظـاً، وخاصـاً في قرطـاج، في ظـل علاقـات طيبـة _نوعـاً مـا_ مـع الجماعـات المسـيحية بعـد تدمـير القـدس، وهـو مـا تجـلى في اسـتخدامهم مقابـر مشـتركة في ذلـك الوقـت. ومـع عـصر المؤلـف الأمازيغـي ترتليـان (-Ter tullian) (145-245م)، والـذي يُعـرف بأبـي اللاهـوت الغربـي، بـدأوا في مواجهـة مناوئـين في قرطـاج كمـا في أنحـاء أخـرى مـن شـمال أفريقيـا.

---

(1) Anthony Joseph Springer, **Augustine use of scripture in his anti, Jewish polemic**, Faculty of the Southern Baptist Theological Seminary, December 1989, p.32.

(2) Joseph Williams, **Hebrewisms Of West Africa; From Nile to Niger with the Jews**, George Allen & Unwin Ltd, London, 1930, p.321-323.

وهكذا؛ فإننا نقرأ في عمله الأهم (الاعتذار) (The Apology Apologetics)، حيث يقول: «إنَّ جميع من هم خارج الكنيسة أعداءً لها، وخاصة اليهود بحسب غيرتهم نحونا». وتحدث ترتليان بالتفصيل عن موقف مسيحيي شمال أفريقيا من اليهود حيث يقول: «إننا المسيحيين نقيم اعتقادنا بربٍ واحدٍ على تجلي الرب نفسه في نصوص العهد اليهودي القديم، التي تُعدُّ من أقدم النصوص في العالم، نحن نؤمن بالرب نفسه الذي يؤمن به اليهود، لكننا نختلف عنهم في قبولنا قُدسية المسيح الناصري»(1).

أما عالم البحر الأحمر الجنوبي؛ فقد شهد اهتماماً يهودياً ملفتاً للنظر بسبب عوامل جغرافية واقتصادية؛ ففي وثيقة فريدة تعود للعام 897م، بخصوص ترتيب لتسوية وضع اقتصادي معين في اليمن، إشارات لوضع اليهود في تلك الفترة؛ وتتعلق بحماية أراضي «المحميون»، سواء من اليهود أو المسيحيين في نجران، والتي اشتروها من المسلمين في فترة صعود الإسلام في اليمن. ومن الواضح من بقية الوثيقة، أنَّ اليهود لم يعانوا من أية سياسات تمييزية ضدهم؛ ما يؤكد لنا عدم وجود سياسات تمييزية ضد اليهود في بقية الدول الإسلامية، على الأقل حتى عهد الخليفة العباسي المتوكل (847–861م)، ويناقض جوهر هذه الوثيقة الرؤية التي قدمها المؤرخ اليهودي اليمني حاييم حبشوش (H. Hibshush) (1839–1899م)، في دراسته عن تاريخ اليهود في اليمن، من وجود اضطهاد منتظم لهم في الفترة نفسها تقريباً، وربطه بشكل تقليدي بين هجراتٍ يهوديةٍ يمنية إلى منطقة الحبشة(2).

استناداً إلى المعطيات السابقة، نعتقدُ بأنَّ وضع اليهود في شمالي اليمن ووسطه كان مستقراً نوعاً ما ولم يتدهور إلا مع نهاية القرن الخامس الهجري 11م، تزامناً مع تصاعد نفوذ الأسرة الحمدانية من بني حاتم، ومنذ تلك الفترة _ تقريباً_ بدأ اليهود يهاجرون بأعدادٍ لافتةٍ إلى عدن والساحل السوداني، ونشأ تمركز لليهود في هذه المدينة المهمة على طريق الهند، حيث ترد تفاصيلٍ كثيرة لذلك في وثائق الجنيزة، وبرز طوال قرن تقريباً من نهاية القرن الخامس الهجري 11م إلى العام 1172م؛ وهو العام الذي شهد سيطرة أسرة تجارية يهودية محلية مقيمة في عدن، واحتلت منصب «كبير التجار»، وكان أولهم حسن بن بنادر (1097–1132م)، الذي ينتمي لأسرة فارسية.

(1) عبد الكريم، «إفريقيا...»، م.س.ذ.، ص.11.

(2) عبد الكريم، «إفريقيا...»، م.س.ذ.، ص.11.

كما روّج مؤرخون آخرون أبرزهم «إيزاك مرقس جوست»(I.M. Jost) ، لنظرية مفادها: «أنَّ يهود الفلاشا احتلوا لفترةً ما منطقة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر». غير أنَّ هذا التصور يمكن دحضه بسهولة؛ لأنّه ـعلى حد ستوارت دونالدسون_ يبدو من غير المألوف للغاية عدم وجود معرفة معتبرة عنهم أو ظهورها للضوء بمرور الزمن، التي زار خلالها رحالةُ كثر لمنطقة البحر الأحمر، كما يعزز من دحض هذه النظرية في ذات الوقت، عدم تحديد موقع محدد على الساحل الشرقي، أو اللغة التي يُفترض أنّهم كانوا يستخدمونها، كما أشار دونالدسون لملاحظة ذكية للغاية، وهي أنَّه إنْ كان الفلاشا قد خرجوا من مناطق ساحلية فإنَّه كان لابد لهم من تباين جذري في عادات وحِرف هذا العِرق بينهم في الحبشة، وهو الأمر غير الملموس بالمرة[1].

ونعتقد، أنَّ اقتصاد البحر المتوسط قد بدأ في النمو في القرن الثالث الهجري (9م)، بعد نحو ثلاثة قرون من الركود العام، وأسهم في ذلك النمو قيام دولة «الأغالبة في إفريقية» (800-909م)، التي أصبحت القيروان، القريبة من قرطاج، مركزاً لتجارة البحر المتوسط، كما تحول الاقتصاد المصري بشكل أكبر نحو البحر المتوسط في عهد «الدولة الطولونية» (868-905م)، كما حظي اقتصاد البحر المتوسط بدفعة قوية مع تأسيس الفاطميين للقاهرة في العام (909م)، بالتزامن مع تطوراتٍ اقتصاديةٍ في شمالي البحر المتوسط.

ولاحظت بعض المصادر التاريخية، تركز أنشطة الجماعات اليهودية التجارية في ذلك الوقت، في البحر الأحمر خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وبرز أهم اقتباس عن التجارة المنتظمة «لليهود» في البحر الأحمر إلى المحيط الهندي عند ابن خرداذبة (كُتبٌ في العام 845م)، حول التجار اليهود المختلف عليهم، والمعرفون باسم «الرّذنيّة» (Radhanites)، وأنهم يتحدثون اللغة العربية، والفارسية، واليونانية، ولغة الفرنجة، ويسافرون من الغرب إلى الشرق برا ً وبحراً، ويحملون من الغرب العبيد والإماء (أي فتيات العبيد)، والسيوف وغيرها، ويعبرون من فرنجا (Firanja) في البحر الغربي، ويرسون في الفرما (عبر النيل قرب السويس)، ويحملون منها السلع القلزم (البحر الأحمر)، ثم يبحرون إلى البحر الشرقي من القلزم، ومنها إلى السند والهند والصين[2].

---

(1) Sidney Mendelssohn, **The Jews of Africa, Especially in the sixteenth and Seventeenth**, .Centuries Kegan Paul, London, 1920, p.21

(2) عبد الكريم، «إفريقيا...»، ص.13.

وقـد أورد شـلومو دوف جوتـين(S. D. Goitein) ، في رصـده (الـذي يقـع في أربعـة مجلـدات ضخمـة(، لوثائـق الجنيـزة، التـي اكتشـفت في القاهـرة، مقتطفـاتٍ كثـيرةٍ تشـير لهـذه التجـارة الثريـة في ذلـك الوقـت، واهتمـام اليهـود بالبحـر الأحمـر وخليج عـدن إلى المحيـط الهنـدي، وامتـداد تأثيرهـم _وأغلبهـم مـن أصـول عراقيـة وإيرانيـة_ إلى تجـارة سـاحل شرق أفريقيـا[1].

وواجهـت اليهوديـة، حسـب أدبياتهـا، في شـمال أفريقيـا أكـبر أزماتهـا في القـرن السـادس الهجـري (12م) مـع التوسـع القـوي للموحديـن، ولـم يجـد يهـود المـدن أمامهـم مـن بديـل غـير الهـروب إلى داخـل أراضي البربـر؛ بـل ومـضى هيرشـبرج في مؤلفـه الشـهير عـن (تاريـخ اليهـود في شـمال أفريقيـا)، والـذي كتبـه بالعبريـة قبـل ترجمتـه للغـات أوروبيـة عديـدة، في رصـد حـالات فرديـة يهوديـة عملـوا كسـفراء لملـوك في شـمال أفريقيـا، وخصوصـاً في مدينـة فـاس بالمغـرب الأقـصى، معتـبراً إياهـا ظاهـرة متماسـكة، مثلهـا مثـل يعقـوب روسـالس (Jacob Rosales)، الـذي كان تاجـراً يهوديـاً بـارزاً في فـاس، الـذي حافـظ عـلى صلاتـه الطيبـة مـع البرتغاليـين في القـرن (16م)، الـذي شـهد _عـلى الجانـب الآخـر مـن العالـم المعـروف آنـذاك_ بـدء الهيمنـة الأوروبيـة عـلى المحيـط الهنـدي.

وكان سـاحل شرق أفريقيـا _بـين السـاحل الكينـي شـمالاً والجـزء الجنوبـي مـن سـاحل تنزانيـا جنوبـاً_ عنـد وصـول البرتغاليـين في مطلـع القـرن 16م، خاضعـاً لسـيطرة عـددٍ مـن حـكام المـدن السـاحلية.

وفي غضـون مـا يقـلُّ عـن عـشرة أعـوام مـن قـدوم البرتغاليـين؛ تمكنـوا من السـيطرة عـلى أهـم مـدن وموانـئ هـذا السـاحل، وسـواحل شـبه الجزيـرة العربيـة الجنوبيـة، وأجـزاء مـن الخليج العربـي والهنـد[2].

ومـن الملفـت للانتبـاه، أنَّ الجغـرافي الإنجليـزي جـون أوجيلبـي(J. Ogilby)) يذكـر في عملـه حـول أفريقيـا، المنشـور في عـام 1670م، أنَّ الأحبـاش اطلقـوا عـلى مملكـة سـامن (Samen)، اسـم (Xionuche) «نسـبة إلى صهيـون» وأنهـا بلـد؛ لكنهـا مغمـورةٌ وخاضعـة لهيمنـة الأحبـاش[3].

---

(1) Timothy Power, **The Red Sea from Byzantium the American, 1000- to the Caliphate AD** .500, University in Cairo, Press, 2003, p.203

(2) عبد الكريم، «إفريقيا...»، ص.13.

(3) .Mendelssohn, **The Jews of Africa...**, op.cit., p23

فوق هذا وذاك، قدمت إرساليات الجزويت في الحبشة، معلومات قيّمة عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ليهود الفلاشا، ومن أهم هذه التقديرات ما قدمه «بالثازار تاليز» (Balthazar Tallez)، خلال رحلته إلى إثيوبيا في العام 1645م، وأنَّه بعد تفرق اليهود، اتجه كثيرون منهم للاستيطان في ديمبي (Dembea)؛ حيثُ عملوا في النسيج أو صنع المحاريث، أو غيرها من الضروريات، باعتبارهم حدادين كبار، كما تحدث عن كون كثير من اليهود غير خاضعين لإمبراطورية الحبشة، وبأنهم يتمتعون بحريةٍ مطلقةٍ.

أما فيما يخص رؤية اليهود ودورهم في تجارة العبيد الأطلسية، من الناحية العملية هذه المرة؛ فقد كان مرسوم الطرد (Expulsion of Edict)، الصادر في 31 مارس 1492م، من قَبل الملك فرديناند وإيزابيلا، والذي منح اليهود مهلة أربعة أشهر، وخيّرهم بين اعتناق المسيحية ومغادرة إسبانيا، وإلا تعرضوا لعقوبة الموت، وأنه عليهم ترك جميع ثرواتهم خلفهم. وقدّر أنَّ أقل من (25 %) من اليهود، قرروا اعتناق المسيحية، كما قدّر أنَّ عدد اليهود الذين غادروا إسبانيا بلغ عددهم تقريباً 150–400 ألف يهودي، ذهب بعضهم إلى البرتغال؛ بحيث أقاموا بها حتى العام 1496م، عندما تعرضوا لمذابح وتهجير قسري، وخرجتُ أغلبية يهود إسبانيا، الذين عُرفوا «بالسفارديم» (Sephardim)، إلى مناطق الإمبراطورية العثمانيّة في شمال أفريقيا، حيث رحب بهم السلطان بايزيد الثاني (Beyazit II)[1].

وتراجعت تجارة الرقيق بشكل كبير في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة 19م، حيث وصل عددهم، حسب تقديرات بعض مؤرخين، عبر طرق التجارة الصحراوية الأربعة الرئيسة، في العام 1839م (من غرب أفريقيا إلى المغرب وغدامس وفزان وبنغازي)، إلى نحو 20 ألف فرد، وهو رقم قد يتضاءل عند مقارنته بنفس التجارة عبر المحيط الأطلسي، والتي بلغت في مطلع القرن التاسع عشر نحو 70 ألف أفريقي، وفي شرق أفريقيا نحو 30 ألف إفريقي سنوياً في الفترة نفسها تقريبا. وتراجعت هذه التجارة (الصحراوية، ومن شرق

---

(1) تثور هنا مسألة جدلية، نكتفي بالإشارة لها، وهي دور اليهود في حركة الكشوف ودعم الاحتلال البرتغالي في إفريقيا، والذي امتد لعقود قبل هذه الهجرة، وفق رصد مهم وأصيل، قدمه في منتصف القرن التاسع دكتور م. كايشرلنج (M. Kayserling)، في دراسة قصيرة بعنوان: (The Portuguese conquests and discoveries with respect to the Jews)، منشورة في عمل مهم موسوعي مهم للغاية.

J. Benjamin, **Eight Years in Asia and Africa from 1846 to 1855**, Hanover (published by the – .Author), 1863, pp.336–351

أفريقيا تحديداً)، بشكلٍ كبيرٍ بعد إلغاء الدولة العثمانية في عام 1857م لهذه التجارة، بفرمان يُلغي تجارة العبيد في جميع الممتلكات العثمانية باستثناء الحجاز.

وقد واجهت الرغبة المحدودة لاعتناق العبيد والخدم السود لليهودية، قدراً كبيراً من القمع من قبل قادة السفارديم في العالم الأطلسي، وبحلول القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (17–18م)، فإنَّ ختان العبيد الذكور(circumcision) ـالذي كان شائعاً في العصور الوسطىـ وتحويل أغلب العبيد لاعتناق اليهودية، بدا أمراً غير مرغوبٍ فيه، وغير ممارس في الجماعات اليهودية في هولندا وإنجلترا ومستعمراتهما الأمريكية. وأرجع البعض تراجع نشر اليهودية في القرن العاشر الهجري (16م)، إلى عوامل عديدة منها على سبيل المثال، الضغوط السياسية والدينية العامة ضد اليهود في إنجلترا ومستعمراتها، وكذا ميل الكثير من اليهود إلى التثاقف مع الثقافة المسيحية الغربية.

والغالب على الظن، أنَّ لليهود دوراً مهماً ومعتبراً في تطور العلاقات بين الأغلبية من السكان المحليين والأقلية من المستعمرين الأوروبيين في عالم المحيطّ الأطلسي، وعلى سبيل المثال، فإنَّ الوجود اليهودي في جزيرة أنتيلين (Antillean) الهولندية؛ برز في الدور الذي لعبه اليهود السفارديم بين الأفارقة، والبروتستانت البيض، وأغلبهم من الهولنديين، وهوَ دور وسطي اشتهر به اليهود في أغلب المستعمرات الأوروبية في القارة الإفريقية وفي العالم الأطلسي. ويمكن رؤية هذه الصلات خاصّةً في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة (20م)، في المجالات السياسية والعملية والاجتماعية والاقتصادية، والتي استمرت حتى نهاية الستينيات.

المبحث الثالث: تطور نقد الرؤية اليهودية لبلاد السودان:

تناولت دراسات متنوعة لمسألة التصَّور اليهودي لبلاد السودان والسودانيين، ومن بينها عمل إديث برودر (Edith Bruder)، بعنوان: The Black Jews of Africa; History, Religion, Identity ، الذي يضم ثلاثة أقسام، أولها عن فترة ما قبل التاريخ، وثانيها «اليهودية السوداء، وثالثها «بلاد السودان واليهودية» و أخيراً «اليهود الأفارقة».

وقبـل التطـرّق إلى محتويـات هــذا الكتـاب، ومـا أورده مؤلفنـا مـن معلومـات حــول الوجــود اليهــودي في بــلاد الســودان، نــود التوقــف عنــد ملاحظــة مهمــة لمســناها في معظــم كتابــات المؤرخــين الأوروبيــين الذيــن كتبــوا عــن «بــلاد الســودان في مختلــف العصــور»، بــأنَّ أعمالهــم كان يغلــب عليهــا الطابــع العنــصري، والنظــرة الدنيويــة تجــاه الشــعب الأفريقــي، مــن خــلال نعتــه بمصطلحــات ومفاهيــم لا تمــتُ للواقــع بِصِلــةٍ، منهــا عــلى ســبيل المثــال: «أفريقيــا الســوداء»، و«مجتمعــات بــدون دولــة»، و«الإســلام الأســود»، و«الإســلام البربــري»، إلى غــير ذلــك مــن الاصطلاحــات التــي يجــب علينــا نحــن كباحثــين التعامــل معهــا بحــذرٍ شــديدٍ، لا بــل يجــب علينــا التوقــف عندهــا وفضحهــا؛ لأنَّهــا تحــاول دائمــاً قلــب الحقائــق التاريخيــة، وتشــويه صــورة المســلم الأفريقــي الــذي تمسّــك بعقيدتــه الإســلامية طــوال حياتــه، التــي أصبحــت العقيــدة الرســمية لعــدد كبــير مــن النــاس.

وفي العــودة إلى عمــل إديــث بــرودر، نجــد أنَّــه في القســم الأول مــن كتابــه، صنــف روايــات وأســاطير وجــود اليهــود في بــلاد الســودان، في مطلــع الوجــود الإيبــيري في القــارة خــلال القــرن التاســع الهجــري (15م)، في تكريــس متوقــع للمركزيــة الأوروبيــة؛ وتعتمــد في مقاربتهــا عــلى نصــوص التــوراة عــن قبائــل إسرائيــل المفقــودة، وقصــة ســيدنا ســليمان وســبأ، وإرث الكوشــيين، ثــم معالجــة إثيوبيــا وبــلاد الســودان بشــكلٍ أكــبر.

أمّــا في القســم الثانــي: فينظــر بــرودر «فيمــا يســميه تفاعــلات بــين الســودانية واليهوديــة»، في تكريــس لثنائيــة «الشــعب اليهــودي العريــق، والشــعب الأفريقــي البدائــي»، ويناقــش ســبل تعــرّض الســكان المحليــين في أنحــاء بــلاد الســودان لأفــكار الديانــة اليهوديــة، ودمجهــا في قصصهــم، وتصوراتهــم الجماعيــة.

وفي القســم الثالــث: فيناقــش بــرودر التغلغــل اليهــودي والســامي الفعــلي في بــلاد الســودان عــبر مناقشــة وجــود جماعــات معيّنــة، كان لهــا دوراً فعــالاً في المجتمــع[1].

وعمــل تــودور بارفيــت (Tudor Parfitt)، بعنــوان: (Black Jews in Africa and Americas)، ويتنــاول نفــس موضوعــات بــرودر تقريبــاً، ولا ســيما

(1) Marla Rettschneider, “Africa Jewishness in the European Christian Imaginary”,- In **The Journal of Religion**, Vol. 95, No 1, (January, 2015), p.110.

مسـألة قبائـل إسرائيـل المفقـودة؛ كموضـوع محـوري في البنـاء الأيديولوجـي البريطانـي والأوروبـي عنـد الاسـتعمار. ويعـرض بارفيـت لنظريـات مختلفـة عـن الفرضيـات الحاميـة التـي تجعـل الأفارقـة مـن نسـل حـام[1].

وبالإضافـة إلى المصنفـين السـابقين، تزايـدت الدراسـات في العقـود الأخـيرة التـي وضعهـا مؤرخـون أغلبهـم أمريكيـون مـن أصـول يهوديـة، حـول مسـألة «مواقـف اليهـود والحاخامـات مـن الشـعوب الإفريقيـة»، خصوصـاً في نهايـة القـرن الثالـث عـشر للهجـرة (19م)، ومطلـع القـرن الرابـع عـشر للهجـرة (20م)، وكـذا التفاعـلات بـين الأفارقـة واليهـود، كان أبرزهـا كتـاب للمـؤرخ اليهـودي برتـرام ولاس كـورن (Bertram Wallace Korn)، الـذي تنـاول هـذه الإشـكاليات في الفـترة السـابقة عـلى الحـرب الأهليـة الأمريكيـة، وشـمل عـدة دراسـات عـن العلاقـات «اليهوديـة الإفريقيـة» في فـترة مـا قبـل التحريـر في العالـم الأطلـسي.

ورجّـح بعـض الباحثـين هـذا التحفـظ اليهـودي في تنـاول المسـألة، إلى التخـوف مـن مواجهـة اليهـود كـوكلاء تاريخيـين نشـيطين لجماعـة مهيمنـة عـلى جماعـات تابعـة، ومـن جهـة أخـرى التحفـظ في التخـلي عـن وجهـة نظـر المركزيـة الأوروبيـة حـول التاريـخ اليهـودي.

ويرى جوزيف وليامز، بعد رصد مطول لكتابات متعددة للرحالة الأوروبيين تناولت مسألة اليهود في بلاد السودان، منذ مطلع العصر الحديث، وتحفظاته على بعضها وفق ملاحظة أولية ـعززها البروفيسور بيتارد (Petard)ـ وهي: حرص كثير منهم على التعجل في إنجاز رواياتهم عن بلاد السودان ومحاولة الإتيان بجديد، إلى جانب كون عدداً لا يستهان به منهم غير مؤهلٍ بشكل كافٍ للكتابة عن المجتمعات الإفريقية بدقة أعمق من رصد المظاهر الملحوظة بالعين المجردة؛ ويرى كذلك، أنه كانت هناك موجة أو ربما عدة موجات من التأثير اليهودي قد وصل تأثيرها إلى بلاد السودان، فتركت آثاراً لا تخطئها العين بين قبائل متنوعة لا تزال ماثلة حتى يومنا هذا. وضرب مثالا على ذلك، بعناصر ثقافية بين الأشانتي، مثل الرقصات الدينية، واستخدام كلمة «آمين»، والنظام الأبوي، وزواج الأقارب ولا سيما أبناء العمومة، وبساطة طقس الزواج، وعدم اشتراط الطهارة بعد ولادة الطفل، والكلمات المستعارة لدى الأشانتي والتي تبدو بوضوح ذات أصل يهودي[2].

(1) .Africa Jewishness in the European Christian Imaginary-

(2) Ashley Ratzman, **At The Common Altar; Political Messianism**, Practical Ethics & Elliot .Post- War Jewish Thought, Princeton University, (September, 2009), p.130

المبحث الرابع: التأثيرات اليهودية في بلاد السودان خلال عهد الممالك الكبرى (غانة، مالي، سنغاي)

قبل التطرَّق إلى موضوع التأثيرات اليهودية خلال العصر الوسيط وبداية الحديث، يتوجب علينا أولاً، تقديم عرض موجز عن أهم الممالك التي قامت على أرض بلاد السودان خلال هذه الفترة، عسى أنْ يُساعدنا ذلك في فهم ومعالجة الإشكالية المراد مناقشتها بالشكل الصحيح.

أولاً: بلاد السودان في عهد الممالك الكبرى:

قامت في بلاد السودان خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين (11-16م)، ممالك تعتبر بإجماع من المؤرخين، أزهى عصور تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء على الإطلاق؛ وتبرز أهمية الفترة بالخصوص على مستوى بلورة المؤسسات، وخلق الدول، وإقامة علاقات منتظمة مع العالم الخارجي. كما تُسجل هذه الفترة، الاهتمام المتزايد للآخر بما يجري في بلاد السودان، والذي عبَّرت عنه المصادر العربية وحتى الأوروبية، من خلال تعدد الإنتاج وتنوعه، وعن طريق هذه المصادر العربية منها، استطعنا أنْ نرسم صورة قد تكون مكتملة عن المجتمع السوداني.

لا نريد في هذا المبحث حقيقةً، تقديم دراسة شاملة وموسّعة عن أهم الممالك التي قامت في بلاد السودان؛ لأن هذا الموضوع - حقيقةً - أصبح متداولاً لدى كثير من الباحثين والدارسين، وحتى لا نخرج _أيضاً_ عن صلب موضوعنا، فكل ما نرمي إليه، هو إلقاء نظرة موجزة ومقتضبة عن هذه الممالك.

1. مملكة غانة:

هي أول تنظيم سياسي عرفته المنطقة، اتخذت من كومبي صالح (شمال شرق موريتانيا حالياً)، عاصمة لها، وكلم «غانة» تعني في لغة المانديغ: «الرجل القوي الذي يتمتع بقدرات خارقة». وصلت أوج قوتها خلال القرن الخامس الهجري (11م)؛ فأصبحت حدودها تُلامس الصحراء في الشمال، ونهر السنغال في الجنوب، ونهر النيجر في الشرق، وكان امتدادها على حساب ممالك سودانية صغيرة، مثل: مملكة التكرور «جنوب نهر السنغال»، ومملكة صوصو «على نهر النيجر»[1].

---

(1) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص.96.

إنَّ نشـأة مملكـة غانـة مـا تـزال محاطـة بالغمـوض؛ نتيجـة انعـدام المصـادر المكتوبـة، وكل مـا يمكـن أنْ نؤكـده بهـذا الصـدد، هـو أنَّ اسـمها أصبـح مرسـوماً في المصـادر العربيـة منـذ القـرن الثانـي الهجـري (8م) عـلى أقـل تقديـر[1].

2. مملكة مالي (1230-1430م):

تأسّسـت مملكـة مـالي عـلى أنقـاض سـقوط غانـة، عـلى يـد شـعب المانـدي؛ وهـو شـعب زنجـي أصيـل، اتخـذت مـن مدينـة (دو) في منطقـة «سـيجو» حاليـاً مـكان الإقامـة الأولى، وارتبـط ظهـور هـذه المملكـة بشـخصية سـندياتا (ت.1255م)، الـذي يعتـبر المؤسـس الحقيقـي للمملكـة[2]. بلغـت خـلال القـرن الثامـن الهجـري (14م) أوج قوتهـا؛ خاصـة في عهـد السـلطان «منـسى مـوسى» وأخيـه «منـسى سـليمان»، لكن في أواخـر القـرن الثامـن الهجـري(14م)، بـدأ الضعـف يـدب في جسـم المملكـة؛ لعـدة أسـباب، منهـا التنافـس عـلى العـرش، وتسـلط واسـتبداد الموظفـين الكبـار مـن وزراء ومستشـارين بالسـلطة؛ فتغلـب عليهـا أهـل سـنغاي الذيـن أسسـوا إمبراطوريتهـم[3].

3. مملكة سنغاي:

يتبيـن مـن خـلال فحـص واسـتقراء بعـض المصـادر التاريخيـة التـي تناولـت تاريخ المنطقـة، أنَّ مملكـة سـنغاي تُشـكل ثالـث أكـبر تنظيـم سـياسي عرفتـه المنطقـة إلى حـدود القـرن العـاشر الهجـري (16م)؛ حيـث كانـت في بدايـة أمرهـا عبـارة عـن مملكـة صغـيرة تابعـة لِحُكـم مملكـة مـالي، قبـل أنْ تسـتقلّ عنهـا عـلى يـد أحـد زعمائهـا المدعـو «سـني عـلي» (1464-1493م)[4]. ووصلـت سـنغاي في عهـده إلى أوجهـا؛ فتحولـت في وقـت قصـير مـن مملكـة صغـيرة إلى إمبراطوريـة متراميـة الأطـراف، مهابـة الجانـب.

اتخـذت مـن مدينـة «كوكيـا» المعقـل الأول، وقاعدتهـم الأم لدولتهـم، شـهدت خـلال فـترة حُكـم أسرة الأسـكيا، والتـي دام حكمهـا قـرن مـن الزمـان، رخـاءً وازدهـاراً قلّ

(1) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ترجمة عن الفرنسية: أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، ميزونوف، باريس، 1981، ص.9.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (العبر)**، ج.6، دار الفكر، بيروت، 1981، ص.267.

(3) L .T. Madina, Un islam militant en Afrique de l’Ouest au XIXe siècle: la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance coloniale, 1991, p.87.

(4) لا نعرف الشيء الكثير عن فترة حكم **آل سني** إلا لائحتين لملوكها، الأولى مطولة جاءت عند المؤرخ عبد الرحمن السعدي (تضم 19 ملكاً)، والثانية مختصرة أتت عند كعت (7 ملوك).

نظيرهما، غير أنَّه مباشرة بعد وفاة الأسكيا داوود سنة 1582م، دخلت البلاد في مرحلة اتسمت بالضعف والوهن؛ بسبب هجومات بعض القبائل المجاورة. وفي ظل هذه الأوضاع المتدهورة، وصلت طلائع الحملة السعدية التي أرسلها السلطان أحمد المنصور السعدي (1578–1603م) سنة 1591م، فانهارت على إثر ذلك مملكة سنغاي، ونزح ما تبقى من أمراء الأسكيين إلى مدينة «دندي» في أقصى جنوب شرق المملكة المتهاوية[1].

بعد أنْ تعرفنا على تاريخ أهم الممالك التي قامت على أرض بلاد السودان خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري (11م) إلى القرن العاشر الهجري (16م)، تبيّن لنا، أنَّ هذه الممالك كانت تتمتع بدرجةٍ كبيرةٍ من التطور والازدهار بكافة المجالات، خلال فترة قوتها. ويتوجب علينا الآن الإجابة عن السؤال الأهم وهو: هل كانت هناك تأثيرات يهودية في الحياة العامة لهذه الممالك؟ وما هي أبرز مظاهرها؟

ثانياً: التأثيرات اليهودية في عهد الممالك الكبرى (غانة، مالي، سنغاي): المميزات والخصائص:

إنَّ الاهتمام بموضوع اليهود في التاريخ المجتمعي الوسيطي للممالك السودانية، انطلاقاً من المادة المصدرية المعاصرة، يضع الباحث أمام مستويين من الدراسة؛ المستوى الأول، افتراضي يقوم على مناقشة نصوص تتحدث عن وجود شعوب أو ممالك يهودية افتراضية بمنطقة الساحل السوداني، أمّا المستوى الثاني، فيركز على الدور الحقيقي والفعّال لليهود في التجارة الصحراوية، وانعكاسات ذلك في تطوير المعارف الأوروبية داخل مدارس الكارطوغرافية الغربية، حول تجارة الذهب والعبيد.

يلتقي الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري (12م)، وديوجو جومش في أواخر القرن التاسع الهجري (15م)، وصاحب (تاريخ الفتاش) في القرن العاشر الهجري (16م)، في الحديث عن ممالك أو شعوب يهودية استوطنت الساحل الإفريقي في مواضع متباينة، وفي أزمنة مختلفة، ويتعلق الأمر بـ (قمنورية) عند الأول، و(بافور) لدى الثاني، بينما يتحدث الثالث عن يهود إقليم (تندرما)، دون أنْ يُعطي لملكتهم اسماً معيناً.

(1) J. S. Trimingham, **A History of Islam in West Africa**, Oxford, 1962, p.93.

وحتـى تتضـح الصـورة أكثـر لدينـا، لا بـد مـن إدراج روايـة كل واحـد مـن هـؤلاء الثلاثـة حـول الموضـوع، عـلى حـدى، ومـن ثـم مناقشـتها وتحليلهـا.

فخـلال القـرن السـادس الهجـري (12م)، تحـدّث الإدريـسي عـن «بـلاد لملـم»، وذكـر مدنهـا «ملـل و دو»، واعتـبر سـاكنة البلـد يهـوداً، وأطلـق عليهـم اسـم (قمنوريـة)، يقـول في ذلـك: «وفي الجنـوب مـن بريـسي أرض لملـم، وبينهمـا نحـو عـشرة أيـام، وأهـل بريـسي وأهـل غانـة يغـيرون عـلى بـلاد لملـم، ويسـبون أهلهـا، ويجلبونهـم إلى بلادهـم، فيبيعونهـم مـن التجـار الداخلـين إليهـم، فيخرجهـم التجـار إلى سـائر الأقطـار، وليـس في جميـع أرض لملـم إلا مدينتـان صغيرتـان، اسـم احداهمـا «ملـل»، واسـم الثانيـة «دو»، وبـين هاتـين المدينتـين مقـدار أربعـة أيـام، وأهلهـا فيمـا يذكـره أهـل تلـك الناحيـة يهـود، والغالـب عليهـم الكفـر والجهالـة، وجميـع بـلاد أهـل لملـم إذا بلـغ أحدهـم الحُلـم، وسـم وجهـه وصدغـه بالنـار، وذلـك علامـةً لهـم. وبلادهـم وجملـة عمارتهـم عـلى واد بمـد النيـل، وليـس بعـد أرض لملـم في الجنـوب عمـارة تُعـرف، وبـلاد لملـم تتصـل مـن جهـة المغـرب بـأرض مقـزارة، ومـن جهـة الـشرق بـالأرض الخاليـة، وكلامهـم لا يشـبه كلام المقرازيـين ولا كلام الغانيـين»[1]. أمـا فيمـا يتعلـق بظـروف اختفـاء هـذا الشـعب، يفيـد الإدريـسي أنَّ «أهـل زغـوة وأهـل لمتونـة الصحـراء السـاكنون مـن جهتـي هـذه الأرض، طلبـوا هـذه الأرض، أعنـي أرض قمنوريـة، حتـى أفنـوا أكثـر أهلهـا، وقطعـوا دابرهـم وبـدوا شـملهم عـلى البـلاد»[2]. ثـم يضيـف قائـلًا: «فأفنتهـم الأيـام، وتوالـت عليهـم الفتـن والغـارات مـن جميـع الجهـات، فقلـوا في تلـك الأرض، وفـروا عنهـا واعتصمـوا في الجبـال، وتفرقـوا في الصحـاري ودخلـوا في ذمـة مـن جاورهـم، وتسـتروا في أكنافهـم، فلـم يبـق مـن أهـل قمنوريـة إلا قـوم قلائـل، متفرقـون في تلـك الصحـاري، وبمقربـة مـن السـاحل، عيشـهم مـن الألبـان والسـمك، وهـم في كـدّ العيـش، وضيـق الحـال وهـم ينتقلـون في تلـك الأرض مـع مهادنـة مـن جاورهـم، ويقطعـون أيامهـم مسـالمة إلى حـين»[3].

وعنـد تحليلنـا لروايـة جغرافينـا عـن «قمنوريـة» اليهوديـة، يمكـن القـول أنَّ مـا ذكـره يثـير إشـكالاً كبـيراً أمـام الباحثـين، يأتـي أولهـا: انفـراده بالحديـث عـن قمنوريـة، ثـم لعـدم تطابـق مواصفـات هـذا الشـعب مـن حيـث مجالاتـه الجغرافيـة

(1) الشريف الإدريسي، **أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان**، تحقيق: الواحي النوحي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2007، ص.19.

(2) الإدريسي، **أنس المهج...**، م.س.ذ.، ص.19.

(3) المصدر نفسه، صص.105-106.

وحدودهــا، وعقيدتــه وتقاليــده، وعلاقاتــه بمحيطــه، مــع كتابــات الجغرافيــين العــرب المعاصريــن لهــذه الفــترة، أو القريبــين منهــا. مــن ذلــك أيضــا، اختلافــه مــع الجغرافيــين حــول «لملــم»، مــن أنــه شــعب أســود اللــون، ويديــن بالوثنيــة في جنــوب الســودان، وهــم أحيانــاً –في روايــات أخــرى– «آكلــو اللحــوم البشريــة»، كمــا أنّ «لملم» ـبحســب مصــادر وســيطية أخــرى_ نعــت لمملكــة مــالي المســتقبلية، أو جــزء منهــا، والتــي لــم يــرد أي شيء في تراثهــا الشــفاهي يفيــد «بالأصــل اليهــودي» لســاكنتها، بــل عــلى العكــس، حــاول رُواتُهــا في أكثــر مــن مناســبة وموقــع، ربــط نســب الماندينــغ «ببــلال مــؤذن الرســول محمــد عليــه أفضــل الصــلاة والســلام»(1).

وممــا يســتوقفا أيضــاً في روايــة جغرافينا، كلامــه بخصوص عقيــدة شــعب «قمنورية»، ومــا تتســم بــه مــن تشــويش؛ «إذ أنّ أهلهــا فيمــا يذكــره أهــل تلــك الناحيــة يهــوداً، إلا أنّــه يغلــب عليهــم الكفــر والجهالــة؛ بــل في معتقدهــم تشــويش، وليســوا بــشيء ولا عــلى شيء»(2). بــل بالنظــر لغرابــة المعتقــد الــذي كان عليــه هــذا الشــعب، «أصبحــوا مكروهــين مــن قبــل جميــع الطوائــف المجــاورة لهــم، والمحدقــين بأرضهــم»(3)، الأمــر الــذي جعــل الشــعوب المجــاورة تســتهدفهم بالغــارة، لتقنصهــم وبعيهــم عبيــداً للتجــار بعــد ذلــك.

أمــا فيمــا يتعلــق بــــ «بافــور» (Bafour)؛ فيعتــبر ديوجــو جومــش (Diogo Gomes) أول مــن أشــار إليــه كنعــت لمجــال، أو لشــعب يديــن باليهوديــة في منطقــة الســاحل الغربــي لأفريقيــا، وفي ذلــك يذكــر أنَّ القوافــل التجاريــة المتجــه إلى مدينــة تنبكــت تصــادف في طريقهــا جبــلاً يُســمى «ابفــور» (Abofur)، يقطــن فيــه رجــال لهــم «وجــوه تشــبه الــكلاب»(4).

ويــرد نفــس الاســم ((Baafar أو (Boffor) عنــد فيليــب فرنانــدس (V. Fernandes) كاســم لأدرار الموريتانيــة، ويصــفُ ســاكنتها بالشــعوب «الآكلــة للحــوم البشريــة»(5).

(1) David Conrad, "Islam in the oral traditions of Mali, Bilal and Surakarta", In **Journal of African History**, Vol.26, 1985, N.1, pp.33-49.

(2) الإدريسي، **أنس المهج...**، م.س.ذ.، ص.19.

(3) المصدر نفسه، ص.105.

(4) Diogo Gomes, **De la première découverte de la Guinée**, tard. Th. Monod, R. Mauny et G. Duval, Bissau, 1959, p.20.

(5) Fernandes (V), **Description de la côte Occidentale d'Afrique (Sénégal au Cap de Monte, Archipels)**, Ed. et Trad. Par TH. Monod, A. Teixeira Da Muta et (R)Mauny, Centro de Estudes de Guinée Portuguesa, No, 11, Bissau, 1951, pp.79-82.

اسـتناداً إلى المعطيـات السـالفة الذكـر، يمكـن القـول، لقـد طـرح «بافـور» أيضـا إشـكالاً عويصـاً أمـام الباحثـين شـأنه في ذلـك شـأن الشريـف الإدريـسي؛ وذلـك لعدم ورود هــذا الاســم في المصــادر المعــاصرة، الأمــر الــذي دعــا لــوكا (A.L. Lucas) إلى البحــث في الــتراث الشــفاهي لقبائــل بنــي «أولاد بــيري» و»أولاد ديمــان» وغيرهمــا مــن القبائــل الموريتانيــة، وقــد أفضــت تحرياتــه وأبحاثــه إلى معلومــات متناقضــة ومشوشــة، وليــس هنــاك مــا يجمعهــا ســوى الطابــع الأســطوري؛ بحيــث اختلفــت أقوالهــم بــين مــن يعتبرهــم بيضــاً بربــراً، أو يهــوداً قدمــوا مــن وادي النــون، أو بيضــاً يهــودا ، أو رجــالاً حُمــر البــشرة، يقــترب لونهــم مــن الفولبــي الغــير مهجنــين، أو يهــوداً مهجنــين[1].

فخلــص لــوكا (A.L. Lucas) بعــد ذلــك، إلى اعتبارهــم بيضــاً غــير عــرب ولا بربــر، وإنَّمــا يهــوداً يشــبهون مــن حيــث اللــون شــعب «الفولبــي» غــير المهجنــين، مخالفــا بذلــك مــا ذهــب إليــه كل مــن مارتــي (Marty)، ومنتــي (Monteil) وغيرهمــا مــن الباحثــين الذيــن قدّمــوا أطروحــات مخالفــة[2].

أمــا ريمــون مونــي (R. Mauny)؛ ففــي مقاربتــه للموضــوع يخلــص إلى أنَّ تســمية «بافــور» لا تعــدو أنْ تكــون ســوى «درج للمهمــلات» اخترعته الشــعوب الحاليــة لأدرار الموريتانيــة، لتضــع فيــه وبشــكلٍ فوضــوي تاريــخ وآثــار الشــعوب التــي ســبقتها في اســتيطان الأرض، والتــي لا تعــرف عنهــا أي شيء (بــئر، قنــاة، ري، حصــن)[3]، فهــم برأييــه، أســلاف أســطوريون يســتحضرون عندمــا يقتــضي الأمــر الإدلاء بالحجــة عــلى الأســبقية في ملكيــة الأرض، لكــن سرعــان مــا ينكروهــم حــين يفــضي الشــعور بالانتســاب إلى الاعــتراف بالتبعيــة لهــذه المجموعــة أو لتلــك[4]. وبالانتقــال إلى يهــود «تندرمــا» الافتراضيــين بالقــرب مــن منطقــة جونــدان (Goundan)، الواقعــة في قلــب بــلاد الســودان، نجــد أنَّ كتــاب (تاريــخ الفتــاش)، ينفــرد في الحديــث عنهــم؛ إذ يُفيــد المؤلــف، أنَّ عمــر كمــزاغ لمــا أذِن لــه أخــوه الأســكيا محمــد الأول ببنــاء عاصمــة لــه، وذلــك في ســنة (902هـــ/1497م)، اتجــه للبحــث عــن موضع يليــق بعاصمــة حُكمه، يقــول في ذلــك: «فجعــل يتفتــش في الجزائــر والصحــاري حتــى أتــى تنــدرم، فأعجبــه

(1) Lucas AJ, «Considérations sur l'ethnique maure et en particulier sur une race ancienne, les Bafours», In **Journal de la société des Africanistes**, T.I, 1931, pp.151-194.

(2) P. Marty, **Etudes sur l'islam et les tribus maures: les Brakna,** E. Leroux, Paris, 1921, p.234.

(3) تشير الروايات إلى أنهم أول من أدخل زراعة النخيل، وتربية الخيول وبالإضافة إلى تقنيات جديدة في ميدان الري، كما أدخلوا أيضاً الحدادة، وحفر الآبار.

(4) R. Mauny, **Tableau Géographique de l'ouest Africain au moyen-âge**, de I.F.A.N.B, No 61, Dakar, 1961, p.458.

ذلـك المـكان، وكان مـن قبل مسـكن قـوم بنـي إسرائيـل وأجدادهـم، وآبارهـم هنالـك إلى الآن، فلمـا رأوا آبارهـم ووجدوهـا يومئـذٍ ثلاثمئـة وثلاثـاً وثلاثـين بـئراً، في جوانبها ووسـطها ورأوا عجيـب حفرهـا وحالهـا تعجبـوا مـن ذلـك تعجبـاً كبـيراً»[1].

ثـم يضيـف صاحـب (الفتـاش) مسـتطرداً: «فلمـا جاء عمـر يريـد بناءهـا، أي «تندم»، لـم يجـد هنالـك حينئـذٍ إلا شـخص واحـد اسـمه تنـد، ولـه زوجـة اسـمها «مرمـه»، وسُـمي البلـد بـه، وهـو «تنـد ورم»، ولمـا رآه عمـر كمـزاغ سـأله: مـا اسـمك وممـن أنـت، أجابـه وقـال: اسـمي تسـمن، لكـن أولادي هـؤلاء يدعـوا لي بتنـد، وقبيلتـي زنـج تنـب جزيـرة بـين كاغ ودنـد، وأولاده يومئـذٍ ثمانيـة عـشر ولـدا، وسـأله عمـر أيضـا: هـل زنـج تنـب أحـرارا أم عبيـداً، فقـال: بـل عبيـد الشريـف مـولاي أحمـد في بلـد مراكـش، وقـال لـه: كـم لـك هنالـك مـن السـنين؟ فقـال: خمـس وثلاثـين سـنة، وقـال لـه: هـل وجـدت هنـاك أحـداً حـين تنـزل؟ فقـال لـه: مـا وجـدت هنـا حينئـذٍ إلا عبـداً شـيخاً كبـيراً، أبيـض شـعره حتـى احمـر مـن بقايـا قـوم بنـي إسرائيـل، وكنـت معـه هنـا ثـلاث سـنين، ثـم مـات بـين يـديّ، وقـال لـه عمـر: هـل سـألته عـن حالـة هـذا البلـد؟ فقـال: نـم سـألته عـن قوتـه واسـم البلـد، واسـمه، فاسـمه بعـك واسـم بحيراتهـا «بعـك»، وقـال لي: أيضـاً أمـه «جنيـة» اعتقهـا سـيدها تأتيـه بمـا يـأكل كلمـا جـاع، وأخبرنـي بأشـياء نسـيت بعضهـا»[2].

وعنـد تحليلنـا ومناقشـتنا للنصـوص التي عرضهـا المؤرخ محمـود كعت، يمكـن القول، أنّهـا تطرح إشـكالياتٍ معقدة عـلى عدّة مسـتويات؛ نجد على رأسـها الطبيعة الشـفاهية والأسـطورية للأخبـار التي يسـوقها النـص؛ فمصدر الرواية شـخص ينتمي إلى عشـيرة «السركـو»، يـروي أخبـار «تندرمـا» لعمر كمـزاغ، نقلا عن شـيخ كبـير من بقايـا يهود تندرمـا، ومعـاصر للراوي. بيد أنَّ عنـد ترتيبنا لفصول الرواية على الشـكل الكرونولوجي، يتبـين أنَّ السركـو، في الوقـت الـذي يُقَـدم فيـه نفسـه على أنَّـه عبد مـن قبائل سـودانية «تنـب»، وهـي جزيـرة بـين غـاو ودنـدي، يشـير إلى أنه مـن مملوكـي الشريـف «مولاي أحمـد» في مراكـش، الأمـر الـذي يجعلنـا نطـرحُ سـؤالاً كبـيراً حـول العلاقـة الزمنيـة والموضوعيـة بـين فترتـين متباينتـين، يفصـل بينهما حـوالي قرن مـن الزمن، أولها سـنة (902هــ/1497م)، تاريـخ زيـارة عمـر كمـزاغ لتندرمـا، ولقائـه بالسـوركو، وزمـن السـلطان أحمـد المنصـور الذهبـي، أي أواخر القـرن العاشر الهجـري (16م).

---

(1) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تحرير وتقديم: حماة الله ولد السالم دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص.62.

(2) المصدر نفسه، ص.64.

فهـذا التناقـض المهـوّل في فصـول الروايـة، لا يسـتدعي التشـكيك في صحـة الروايـا فحسـب، وإنَّمـا يسـتوجب علينـا عـدم مناقشـة مضامينهـا قطعـاً، في انتظـار أنْ يجـود الزمـن بباحـث متطـوع ومقتـدر يقـوم بإعـادة ترتيـب فصـول كتـاب (تاريـخ الفتـاش) برمتـه ترتيبـاً زمنيـاً وموضوعيـاً، ممـا قـد يسـهّل علينـا أمـوراً كثـيرةٍ قـد تسـعفنا في اكتشـاف مـا هـو دفـين.

وعليـه يمكـن القـول وبـكل اطمئنـان، أنَّـه إذا كانـت غالبيـة النصـوص التاريخيـة في حديثهـا عـن وجـود إمـارات أو ممالـك لليهـود ببـلاد السـودان خـلال هـذه الحُقبـة الزمنيـة، يغلـبُ عليهـا الطابـع الروائـي –الأسـطوري، وتفتقـدُ إلى عنـصر الزمـن في ترتيـب الأحـداث؛ فـإنَّ حضـور اليهـود كتجـار ورحّالـة، أمـر واقعـي في تاريـخ التجـارة الصحراويـة، وفي المونوغرافيـات المتعلقـة بالمحطـات الرئيسـية المطلـة عـلى الصحـراء.

فـوق هـذا وذاك، تفيـدُ معظـم النصـوص والوثائـق التاريخيـة، أنَّ مجموعـات يهوديـة تخللـت _منـذ مـا قبـل القـرن الثانـي الهجـري (8م)_ معظـم الشريـط الصحـراوي الجنوبـي في تـوات وورغلـة، ونفـزاوة، ونفوسـة، وغدامـس. وغيرهـا، ويتناسـب توزيعهـا مـع التـوزع الجغـرافي للإمـارات الخارجيـة، التـي كانـت تشـكل نقـط تجميـع للسـلع، وإعـادة تصديرهـا، والتـي اتسـمت سياسـتها عمومـا بالتسـامح اتجـاه أهـل الكتـاب والسُـنّة[1].

ومـن الراجـح، أنَّ هـذه الجماعـات لـم تكـن تعيـش بمعـزل عمـا يجـري في الضفـة الشـمالية، بـل كان لهـؤلاء اليهـود علاقـات بالمـدن الكـبرى بالشـمال، مثـل فـاس، وتلمسـان، والقـيروان، وطرابلـس وغيرهمـا؛ حيـث كانـت تصـل البضائـع الإفريقيـة، وبعدهـا يتـم تحويلهـا إلى مـواد قابلـة للاسـتعمال، أو إعـادة تصديرهـا بالرغـم مـن الضغوطـات التـي مورسـت عليهـم أيـام الإمبراطوريتـين، المرابطيـة والموحديـة، وربمـا غامـروا منـذ وقـت مبكـر في المتاجـرة جنوبـاً عـبر الصحـراء، عـلى نحـو مـا كانـوا يفعلونـه في إسـبانيا، والخليـج الفـارسي، والمحيـط الهنـدي[2].

انطلاقـاً مـن القـرن الثامـن الهجـري (14م)، التـي تتزامـن مـع فـترة حُكـم بنـي مريـن في المغـرب الأقـصى، وبنـي زيـان في المغـرب الأوسـط، وبنـي حفـص في المغـرب

---

(1) Mauny, **Tableau Géographique**..., op.cit., p.460.

(2) زوليخة بنرمضان، **المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 11و 16م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2015، ج.2، ص.333.

الأدنى، تأكّد حجمُ الوجود اليهودي في المدن الواقعة على حافة الصحراء، خصوصاً في السوس ودرعة؛ حيث اشتغلوا بالتجارة مع أهالي بلاد السودان، كما عملوا في الوقت ذاته، بالرعي والزراعة، واستخراج معادن النحاس والحديد، والفضة، وصناعة الحُليّ[1]. وتقدم مدينة توات في المغرب الأوسط، أحسن مثال على الرقي والازدهار الذي عرفه يهود الصحراء خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م)، وقد ارتبط هذا الازدهار بالتطور الذي عرفته الطريق التجاري تلمسان – توات – النيجر، وظروف الأمن والاستقرار أيام حُكم مملكة مالي جنوباً، والتسامح الذي نهجه ملوك شمال أفريقيا.

كما سجّل لنا الرحّالة فيليب فرناندس (V. Fernandes)، على أنَّ اليهود كانوا من الفئة الغنية، إلا أنّهم كانوا مضطهدين، وكانوا إما تجاراً متجولين، أو صناع مجوهرات، وقد كانت لهم علاقات وطيدة بيهود قسنطينة، وبجاية، وتونس، ووهران، وتلمسان، ومراكش[2].

ولعلّ أهم عامل كرَّس ضرورة تنظيم العلاقات بين الجماعات اليهودية المنتشرة في مختلف المدن الكبرى المغاربية خلال هذه الفترة، هو وصول يهود إسبانيا وجزر البليار (Les Baléares)، وبداية اهتمام هؤلاء بالمسائل العقائدية والاجتماعية لبني جلدتهم، انطلاقاً من مبدأ وحدة المصالح، وكان من نتائج هذا التكتل الاجتماعي، تنامي ظاهرة الشراكة التجارية عبر الصحراء، ربما بشكل أكبر مما كان عليه لدى التجار العرب، والبربر المسلمين[3].

ومن هنا، يمكننا تفسير أنَّ السر في اهتمام ملوك أراغونة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م) بالتجارة الصحراوية، تمخض من وعيهم بأهمية الجالية اليهودية المتمركزة على الخط الممتد من برشلونة وميورقة (Minorque)، وتلمسان وسجلماسة، وهي الطريق التي كان يعبرها الذهب والعبيد، الذي وصل جزء منه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. فليس من الغريب إنْ كانت الكارطوغرافية الأوروبية قد شهدت قفزة نوعية من حيث تطوير معارفها عن بلاد السودان، وأنْ تصدر مدارسها خصوصاً في ميورقة إنتاجاً كارطوغرافيا لم يسبقْ له مثيل من قبلْ[4].

---

(1) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (المعروف بليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج.2، 198(، ص.128.

(2) Fernandes, **Description...**, op.cit., p.85.

(3) كان يستعمل أعضاء من نفس العائلة أو من نفس الديانة في مناطق تتوزع على طول الطرق التجارية الصحراوية، وقد تشمل الشراكة تجاراً آخرين من ديانات أخرى، مثل الشراكة التي كانت بين يهود مراكش وتونس، وأيضاً بين تاجر مسيحي وشريكين له أحدهما يهودي في تونس والآخر مسلم في مراكش.

(4) بنرمضان، **المجتمع والدين والسلطة...**، م.س.ذ.، ص.335.

إلاّ أنّــه مــع أواخــر القــرن التاســع الهجــري (15م)، ســيعرف الوجــود اليهــودي تراجعــاً ملحوظــاً في الواحــات الصحراويــة؛ وذلــك عــلى إثــر الحركــة المعاديــة التــي تبناهــا فقيــه تــوات عبــد الكريــم المغيــلي ضــد اليهــود، ممــا أثــار زوبعــة مــن النقاشــات في أوســاط الفقهــاء الذيــن تفرقــوا بــين معــارض ومؤيــد.

الخاتمة:

خلاصــة القــول، إنَّ الحديــث عــن وجــود واســتقرار ملمــوس لليهــود في بــلاد الســودان خــلال العــصر الوســيط، وبدايــة الحديــث، صعبــاً للغايــة ويغلــب عليــه الطابــع الأســطوري؛ في ظــل غيــاب مصــادر ماديــة تثبــت الروايــات التــي أوردتهــا بعــض الكتــب، إلا أنَّــه لا يمكننــا إنــكار وجــود تجــار يهــود جالــوا بــلاد الســودان في عهــد مملكتــي مــالي وســنغاي (القرنــين 14-16م)، إلى جانــب التجــار المســلمين، ســواءً المنتمــين مــن شــمال أفريقيــا، أم مــن مــصر، وإذا كانــت بعــض المصــادر التاريخيــة تحدثــت عــن «عــصر يهــودي في الصحــراء»، فــإنَّ ذلــك لا يُطبّــق ـكمــا يقــول مونــي ـ إلا عــلى شــمال الصحــراء الكــبرى، وخصوصــاً مدينــة «تــوات»، وليــس عــلى باقــي مناطــق بــلاد الســودان، عــلى الأقــل خــلال هــذه الفــترة الزمنيــة[1].

(1) Mauny, **Tableau Géographique**..., op.cit., p.460.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 00249122094856 - 121566207
البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

الأستاذ الدكتور عادل بن محمد جاهل

- باحث في الدّراسات الصحراوية والأفريقية،
- رئيس اتحاد المؤرّخين الأفارقة،
- رئيس مجلة اتحاد المؤرخين الأفارقة،

يتمتّع بسجل أكاديمي حافل، حيث شارك في العديد من الندوات الوطنية والدولية ونشر مجموعة متعددّة من الأبحاث والمقالات في مجلاّت عربية ودولية مُحكّمة. وتتمحور اهتماماته العلمية حول قضايا متنوّعة تشمل: التاريخ الاجتماعي والديموغرافي للصحراء المغربية وأفريقيا جنوب الصحراء، والحضور المغربي في أفريقيا، والدبلوماسية المغربية في أفريقيا جنوب الصحراء. كما يهتم بدراسة العلاقات الإسبانية-الأفريقية، والرِّحْلات الإسبانية إلى الصحراء وأفريقيا جنوب الصحراء، والسياسة التعميرية الكولونيالية الإسبانية في الصحراء المغربية، بالإضافة إلى تحقيق ونشر التراث المخطوط الصحراوي والأفريقي. وقد أصدر الأستاذ الدكتور عادل بن محمد جاهل مجموعة من الأعمال العلمية المهمّة، منها: المجتمع والثقافة في الجنوب المغربي وأفريقيا جنوب الصحراء: قضايا وأبحاث، والصحراء في التاريخ الوطني، وحفريات في تاريخ وتراث الجنوب المغربي وأفريقيا جنوب الصحراء، ولوحة تاريخية حول أفريقيا جنوب الصحراء خلال العصرين الحديث والمعاصر: قضايا وإشكالات. كما قدّم تحقيقات وترجمات قيّمة، مثل تحقيق وترجمة كتاب تقييد في تاريخ صحراء الساقية الحمراء ووادي الذهب وبلاد شنقيط. ومن بين إصداراته الأخرى: سيدي إفني في الكتابات الإسبانية: نصوص مترجمة، والهامش في تاريخ المغرب، والمغرب زمن السلطان المولى الحسن الأول (1873-1894)، والمباني التاريخية بجهة العيون الساقية الحمراء: الواقع والآفاق. ويتناول إنتاجه العلمي موضوعات متنوّعة مثل التراث الثقافي الساحلي والمغمور بالمياه، والسكّان والمجال والسلطة في العالم الإسلامي، وأبحاث جديدة في النص الرحلي. كما ركّز على منطقة الصحراء المغربية في الأدب والفنون البصرية، وقام بتحليل الرِّحْلات المرتبطة بالصحراء وبلاد السودان في كتابه قراءات في الرحلة: من وإلى الصحراء وبلاد السودان. ويسعى الأستاذ الدكتور عادل بن محمد جاهل من خلال هذه الإصدارات المختلفة إلى تقديم رؤى علمية متقاطعة تُثري الدراسات الصحراوية والأفريقية.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation